جامعة دمشق – كلية الشريعة

الدراسات العليا – دكتوراه

قسم: العقائد والأديان

الشعائر الدينية في المسيحية

"دراسة تحليلية"

أطروحة أُعدّت لنيل درجة الدكتوراه في العقائد والأديان

إعداد الطالب: محمود عبد الرحمن حامد

إشراف الدكتور: حسّان القارئ

العام الدراسي: ٢٠١٩ – ٢٠٢٠

شكرٌ وعرفان

أبدأ كلامي بحمد كثير وشكر كبير **لمولاي وخالقي**، صاحب الكرم والفضل والمنة، الذي أعطاني فزاد وأحسن إليَّ ففضّل، ووفقني لإتمام هذه الرسالة على نحو متكامل المحاور قدرالمستطاع، فلك الحمد ربي حمداً أستلذ به ذكراً وإن كنت لا أحصي ثناءً لك ولا شكراً.

وأشكر ذاك المشعل العظيم الذي ازداد تألقًا وضياء فأنار للمستضعفين في أصقاع الأرض كافةً درب الحياة الكريمة، وأحرق بوهج إيمانه الطاهر وصدقه الخالص جبروت الشرك والوثنية والضلال وأسطورته. **صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله**.

وأشكر **والداي الكريمين** اللذين ربياني على مائدة القرآن، وأرشداني لدروب الخير، ووهباني للشريعة والعلم، أسأل الله ﷻ أن يبارك فيهما، ويرزقني برَّهما، ويمدّ في عمرهما، ويحسن خاتمتهما، ويجعل ذلك في ميزان حسناتهما يوم القيامة.

وأشكر **زوجتي الكريمة** التي هيّأت لي الظروف لإتمام هذا البحث، أدامها الله لي ناصحة أمينة طول العمر وجزاها عني خير ما جزى زوجةً عن زوجها.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى **أسرة كلية الشريعة في جامعة دمشق**، الذين أكرموا وفادتي إليهم، وأحسنوا نُزُلي، وبكريم أخلاقهم وسعة فضلهم وصلت إلى ما كانت يديّ قاصرة عنه.

ولا يسعني في مقام الشكر وقد حطت قافلة البحث رحالها في واحة الإنجاز العلمي إلا أن أتوجّه بجزيل الشكر وعظيم الثناء لدليل القافلة ورائد البحث المشرف الدكتور **حسان القاري** الذي ابتدأ بإسباغ فضله عليَّ منذ قبوله الإشراف على هذه الأطروحة، فكان ذلك شرفاً للبحث وفخراً للباحث، ووجدت فيه علماً قيّماً وتواضعاً جماً وخُلُقاً كريماً، فجزاه الله عني خير الجزاء.

ولا يفوتني أن أشكر أساتذتي الدكاترة الكرام في **قسم العقائد والأديان** في جامعة دمشق، وأخص منهم الدكتور **أحمد الزبيبي** والدكتور **مدين الهواري** والدكتورة **ريمة الصياد**، الذين كان لهم عليّ جميعاً فضل العلم والتعلم، وما هذا البحث إلا ثمرة من ثمار فكرهم وعملهم.

كما أتوجّه بجزيل الشكر توجّه معترفٍ بالجميل لأعضاء لجنة الحكم الأفاضل، وأخصّ منهم الأخ العزيز الدكتور ناصر رحيّل.

جزاكم الله جميعاً عني كل خير وبارك في همتكم وأجرى الخير العميم والنفع الكثير على أيديكم.

وأقول لكل من سَبَقَ

أقول شكراً وإن كلّت يد الشكر عن الوصول إلى معناه في صدري

والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه، والرحمة المهداة، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن والاه، أما بعد:

تمثل الشعائر الدينية جانباً بالغ الأهمية في جميع الأديان لا سيما الأديان السماوية؛ نظراً **لما تنطوي عليه من تعاليم تشريعية وتعبدية تسمح** لأتباع الأديان بممارسة سلوكيات وتعاليم دينهم الذي يعتقدونه من ناحية، **وتعبّر** عن مدى التزام صاحبها بتنفيذ الوصايا الدينية من ناحية ثانية، كما أنها تحمل دلالة على التدين في المجتمعات والأفراد.

ولقد جاءت **شريعة الكتاب المقدس (Bible) مقرةً بهذا المبدأ**، فأكدت أهمية الشعائر الدينية وأهمية إقامتها، فقد ورد في الكتاب المقدس إعلانات تفيد ذلك، منها: "وتحفظون شعائر الرب فلا تموتون" [اللاويين: ٣٥/٨]، "احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه وصاياه وأحكامه" [الملوك الأول: ٣/٢].

وإن **المسيحية في معظمها لا تحوي شريعة محددة بممنوعات أو محظورات** أو تفرض عادات معينة، غير أنها **تدعو إلى حياة أخلاقية واجتماعية**، وبالتالي **تحرم كل ما يعارضها**، كالقتل والسرقة والحسد والزنى وغيرها ما يشكل عمليًا الوصايا العشر؛ وكل هذه الأمور تختصر في فعل المحبة كما يرى المسيحيون، فالمسيحي مدعو لأن تكون جميع أعماله تجاه نفسه والمجتمع ناجمة عن المحبة، وذلك لأن المحبة تتفوق في اللاهوت المسيحي على الإيمان ذاته.

أما القانون الكنسي الذي مصدره الكتاب المقدس وقوانين الرسل والمجامع وكتابات آباء الكنيسة فهو عبارة عن **نظام أساسي لمجموعة من القوانين والأنظمة** التي اعتمدتها الكنيسة، بحيث **تحدد** هذه القوانين **مجال العمل الكنسي** لمختلف الطوائف المسيحية، **وتحكم علاقة الأفراد** ومعاملاتهم بالله والناس والمجتمع، وتحدد كذلك أساليب إقامة الشعائر والطقوس الدينية المختلفة، لذا فإن **المسيحية تعدّ ديناً طقسياً**، أي إن أداء التعاليم السلوكية فيها يترافق مع مجموعة من الشعائر والطقوس تتم غالبًا في الكنيسة التي هي مركز الحياة الدينية.

وتستخدم الكلمة اليونانية **"ليتورجيا"** للإشارة إلى الطقوس الدينية، أي مجموعة الأعمال من صلوات وتسابيح وترانيم وحركات يقوم بها أتباع المسيحية داخل الكنيسة إضافة إلى الكهنة، بهدف تسبيح الخالق أو استذكار قضية معينة، ولا يشترط عند المسيحيين توحيد الليتورجيا بين المناطق والطوائف، بل هي **مختلفة باختلاف الثقافات والطقوس**، وعبر التاريخ تم طباعة هذه الشعائر على كتابات البردي وغيرها وذلك بهدف قوننتها، وقد عُدلت هذه الكتب مرّات عديدة بحيث تغدو أكثر وضوحاً ولتتناسب مع تطورات الزمن الراهن والثقافة الجديدة.

ويرى أتباع المسيحية أن **هذه الشعائر بصفتها سلوكيات حسية لها دور تعليمي**، فهي تغذي الإيمان وتقويه وتعبر عنه صراحة لهذا سميت بـ (**أسرار الإيمان**)، والاحتفال بها (المصطلح الكنسي يعني ممارستها) **يهيئ المؤمنين** أحسن تهيئة لقبول النعمة قبولاً مثمراً وتأدية العبادة لله بصورة صحيحة.

ويُعدُّ القداس الإلهي أشهر الشعائر المسيحية وأهمها، وهو يُقام يومياً في الكنيسة الكاثوليكية وأسبوعياً أو بشكل نصف أسبوعي لدى سائر الكنائس، وإلى جانب القدّاس الإلهي

تكثر الطقوس المرتبطة بمراحل حياة الإنسان، كالعماد وهو سر الدخول إلى المسيحية ويلحق به سر التثبيت باستخدام الميرون، وسر الزواج وهناك أيضًا سر مسحة المرضى، والشعائر المرتبطة بالمناسبات والأعياد الدينية كرتبة جمعة الآلام.

ولعل الملحظ الأهم في مسألة الشعائر الدينية النصرانية **تعدد المصادر التشريعية** لها، فبعض هذه الشعائر ذات سند وأصل **تاريخي أي تواردت الأديان على اعتبارها والأخذ بها**، وبعضها **كتابي** حيث ورد في الإنجيل أن السيد المسيح فعله، وأكثرها **رسولي** وصل إلى أتباع المسيحية عن طريق تعاليم الرسل، وبعضها أيضاً **مجمعي** لا صلة له بالكتاب المقدس ولا بأفعال السيد المسيح.

فمما سبق أردت أن أقف على ما في المسيحية من شعائر وطقوس دينية وتعبّدية وأسرار كنسية موضحاً أصلها التشريعي وأهميتها في المسيحية وكيفية أدائها وما تنطوي عليه من أبعاد عقائدية ومبيناً الصلة بينها وبين ما جاء به السيد المسيح عليه السلام، مع ما تحويه هذه الشعائر من أسرار وعلامات وفوائد روحية يعتقدها الفرد المسيحي بحيث يكون أداؤه لهذه الشعائر علامة اختياره للخلاص والنعيم الأخروي.

أولاً: أهمية البحث:

١. **إيضاح معاني** الشعائر والطقوس الدينية في المسيحية ومضامينها وأبعادها على المستوى الاعتقادي والعملي، لا سيما الطقوس التي يلفها الغموض والصيغة اللاهوتية التجريدية.
٢. **وضع قضية الشعائر الدينية موضع النقد العلمي التاريخي** بغية تمحيص الحق من الباطل فيها وتمييز الصحيح من المنحول.
٣. بيان **دور الشعائر الدينية** المسيحية في حياة الفرد المسيحي ودورها في تنظيم سلوكه على النحو الذي يبدو من خلاله ملتزماً بتعاليم دينه ووصاياه.
٤. **تكوين رؤية إسلامية متجردة** عن الشعائر والطقوس الدينية في المسيحية وعن مكانتها في هذه الديانة وأساليب إقامتها ودورها في حياة الفرد الدينية، وبيان **التقييم الإسلامي** لقضايا الشعائر الدينية في المسيحية.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع:

١- وجود **حاجة لتحديد ماهية الشعائر الدينية** في المسيحية وتوضيح أهميتها ومكانتها وتشخيص أحكامها من أجل تحديد الموقف العلمي والعملي منها وإيضاح رأي الإسلام فيها.
٢- بيان مدى **الصلة بين الشعائر والطقوس الدينية** في المسيحية وبين ما جاء به السيد المسيح من تشريعات وتوجيهات على المستوى العبادات والعقائد.
٣- بيان **التسلسل التاريخي لبعض الشعائر الدينية** لدى المسيحية التي أقرتها الرسالات السماوية أو التي وجدت في الأديان الوثنية، ودراسة قولبة هذه الأديان لها.
٤- **تمييز الحق من الباطل** في قضية الشعائر الدينية وتمحيصها عما لحق بها من طقوس وخرافات وبدع.
٥- **خلو المحافل العلمية والأكاديمية** - فيما ما أُتيح لي الاطلاع عليه ضمن الكتب العربية - عن جُهدٍ يشبع البحث المقصود **في المسيحية** من حيث بيان الأحكام التي تندرج ضمن الشعائر الدينية وآثارها ونتائجها، ولملمة المسائل المتفرقة ضمن الأبواب المختلفة التي

تتصل بالبحث، وضمها ضمن رسالة أكاديمية.

٦- إن مسألة الشعائر والطقوس الدينية ليست من المسائل التي يغلب عليها الجمود؛ بل هي مسألة **تتصف بالمرونة**، لا سيما في الدين المسيحي؛ إذ قد تتجدد فيها بعض الماصدقات وقد يتطور بعضها أيضاً، لذا فمن المهم أن نولي هذه القضية اهتماماً نوضح من خلاله تصنيف الشعائر الدينية المستحدثة.

ثالثاً: مشكلة البحث:

إن المشكلة الأهم التي يدور حولها البحث هي الغموض الذي يحيط قضية الشعائر والطقوس الدينية في المسيحية من حيثيات متعددة، من حيث أصالتها ومضامينها وأبعادها وشموليتها، إذ لا تزال هذه القضايا غير واضحة المدلول ولا مفهومة الأبعاد، مع أن بعض مفرداتها قد دُرس من الجانب المسيحي لا سيما المعمودية والعشاء الرباني، إلا أن الصيغة الفلسفية التجريدية التي درسه المسيحيون من خلالها بالاستعانة بعلم اللاهوت المسيحي لا تزال تجعل منه أمراً غير مفهوم ولا واضح.

وتتضح أيضاً بعض مشكلات البحث من خلال الأسئلة التالية:

١- ما هو **المعنى الشمولي** للشعيرة والطقس الديني في المسيحية وما أهميتهما ومكانتهما في هذا الدين؟
٢- هل للشعائر الدينية **مصادر تشريعية متعددة**، وهل ثمة مقاصد تشريعية واعتقادية لها؟
٣- هل **تواردت الرسالات السماوية** على شعائر دينية محددة؟ وما مفهومها وقالبها في كلٍ من هذه الأديان؟ وما **جدوى إقامتها** وما وظائفها وغاياتها؟
٤- ما **الأبعاد العقائدية والدلالات** التي تتضمنها الشعائر الدينية في المسيحية وهل لها من **دلالاتٍ سريّة** ومفعول غيبي؟
٥- هل **تتوافق إقامة الشعائر الدينية المعاصرة** في المسيحية **مع تعاليم السيد المسيح** ووصاياه المبثوثة في الكتاب المقدس ومع قرارات المجامع وتعاليم آباء الكنيسة؟
٦- ما هو **التقييم الإسلامي** لقضايا الشعائر الدينية في المسيحية؟

رابعاً: صعوبات البحث:

هناك بعض الصعوبات التي لا يخلو منها بحث أكاديمي، منها:

١- **ندرة الموسوعات العربية** التي توضح وتناقش مواضيع الشعائر والطقوس الدينية.
٢- **انتشار المعلومات في ثنايا كتب اللاهوت المسيحي** وافتقارها في غالب الأحيان إلى وحدة موضوعية تجمعها.
٣- **الغموض الذي يلفّ المعلومات والنصوص** التي تتحدث عن قضايا الشعائر والطقوس الدينية في المسيحية، ومن هنا أسموها (أسرار)، لذا فلا بد من الاستعانة ببعض العلوم المساعدة في هذا الصدد كعلم اللاهوت المسيحي والفلسفة وغيرها.
٤- **حاجة الدراسة إلى إحصاء ميداني** ورصد للواقع المسيحي في بلدنا مما يتطلب وقتاً أطول وجهداً أكبر لإجراء هذه الدراسة.
٥- امتناع كثيرٍ من المرجعيات الدينية عن إجراء المقابلات

خامساً: المنهج المتبع في البحث:

سيكون منهجي في هذا البحث موزعاً على أربعة مناهج هي **المنهج التحليلي والمنهج المقارن والمنهج النقدي والمنهج التطبيقي**:

سأعتمد **المنهج التحليلي** - الذي ينطوي ضمنه مناهج متعددة - أثناء دراسة الطقوس والأسرار المسيحية بأبعادها العقائدية والعبادية؛ لاستنباط أحكامها وتحليل مضامينها ودراسة مصادرها ومقاصدها ووظائفها، وسأعتمد **المنهج المقارن** أيضاً أثناء عرض الرؤية الإسلامية لبعض الشعائر والطقوس المسيحية، وكذلك أثناء دراسة الطقوس والشعائر التي تواردت عليها بعض الرسالات السماوية وأثناء المقارنة بين الطوائف فيما يخص الشعائر المختلف فيها، أما **المنهج النقدي** فسأعتمده كلما دعت إليه الحاجة.

سادساً: إجراءات البحث:

بدأت البحث بمدخلٍ للتعريفات والمصطلحات حددت فيه أهم مصطلحات البحث وشرحتها، وقمت بسرد المسائل سرداً تاريخياً ثم تحليلها حسب ما يسمح به المقام، وذكرت بداية كل مبحث ثلاثة تعريفات (للكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت) محدداً الخلافات المفاهيمية التي تمنع صقلها في تعريف واحد، وقمت بترجمة **الأعلام الذين لهم صلة مباشرة بالبحث**، وتركت ترجمة البعض ممن لم أعثر لهم على ترجمة ضمن كتب التراجم العربية أو على شبكة الانترنت، كما قمت باختصار كثيرٍ من الأدلة في مواطن الاستشهاد كي لا يطول البحث، أما في التعامل مع المراجع فإني عند إيراد المرجع للمرة الأولى أذكر كنية المؤلف ثم اسمه ثم عنوان المرجع، وفي بقية المواضع فإني أكتفي بذكر كنية المؤلف وعنوان المرجع، وأذكر كافة المعلومات المتعلقة بالمرجع في فهرس المراجع، وقمت بترتيب الفهارس مبتدءاً بفهرس الآيات (حسب ترتيب السور)، ثم فهرس إعلانات الكتاب المقدّس (حسب ترتيب الأسفار والإصحاحات في الكتاب المقدس)، ثم فهرس الأعلام (حسب الترتيب الأبجدي) مقتصراً على ذكر رقم صفحة ورود اسم العلم لأول مرة، ثم فهرس البلدان (حسب الترتيب الأبجدي)، ثم فهرس المجامع الكنسية (حسب تاريخ انعقاد المجمع)، ثم فهرس المصادر والمراجع (حسب الترتيب الأبجدي لنسبة المؤلف)، وختمت الفهارس بجدول للمحتويات.

واقتصرت على ذكر النتائج في خاتمة الرسالة دون ذكرها أواخر كل في بشكل مستقل تجنباً للتكرار.

سابعاً: الدراسات السابقة:

لم أقف - بعد البحث - على دراسة علمية أكاديمية تحمل عنوان الشعائر الدينية ضمن الدراسات والكتب باللغة العربية، سوى بعض الدراسات الجزئية التي عنيت بناحيةٍ أو أكثر من قضية الشعائر، منها:

١- (أسرار الكنيسة السبعة) تأليف: حبيب جرجس، جمعية المحبة القبطية الأرثوذكسية.

وقد درس فيه مؤلفه الأسرار الكنسية السبعة المعروفة (المعمودية – الميرون – الشكر – التوبة – مسحة المرضى – الزواج – الكهنوت) من ناحية أساليب أدائها وفحواها الروحي.

٢- (اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة) للقمص يوحنا سلامة.

وقد أسهب فيه المؤلف في الحديث عن الطقوس الشعائرية، وهي الترتيبات التي تصحب

الشعائر العملية، واقتصر في حديثه على الجانب الأرثوذكسي فقط

٣- (الكنيسة أسرارها وطقوسها) لعادل درويش.

وهو مرجع مهم في كثير من القضايا المسيحية، وحاول المؤلف أن يشمل بحثه الطقوس المسيحية كافةً، لكنه أهمل جوانب مهمة من الشعائر الدينية، ولعل سبب ذلك اقتصار مؤلفه في بحثه على الجانب الطقوسي الذي يكوّن جزءاً من الشعائر الدينية، كما خلا الكتاب في كثير من الأحيان عن التحليلات المناسبة، وجاءت ردوده سطحية جداً.

ولقد شكّلت الدراسات السابقة أهم المصادر المعتمدة في البحث، لكنها جميعاً ليست دراسات أكاديمية جامعية، ويقتصر كلٌ منها على زاوية محددة من باب الشعائر، وفحواها العام يدور على الأسرار السبعة في المسيحية - والتي تشكّل جزءاً فقط من قضية الشعائر الدينية - من ناحية أساليب أدائها وفحواها الروحي، لذا فالقصور هو السمة العامة لهذه الدراسات مقارنةً بالإطار الكلي الذي يضم الشعائر الدينية ويجمع شتات أجزائها في شتى مجالات حياة الفرد المسيحي، ولا يخفى أن هذه الدراسات أغفلت الكثير من المباحث المهمة كتحديد مفهوم السر والطقس ودراسة أنواع الشعائر من عقائدية وتاريخية وعملية وغيرها وتحليل عناصرها وبيان آلية تطورها، وكذلك لم تتعرض للنواحي النقدية ضمن هذه الأسرار والطقوس واختلاف الطوائف المسيحية حولها إلا نادراً مما يزيد الحاجة لإجراء دراسة نقدية تقوم بهذا الدور الذي أغفلته الدراسات السابقة.

سأحاول في دراستي أن أوضح الدلالة العامة للشعائر في المسيحية على اختلاف مجالاتها موضحاً أبعادها ومستندها التاريخي أو الكتابي محللاً ماصدقاتها، مبيناً مقاصدها التشريعية، مقارناً بين الهدي الإسلامي والتعاليم المسيحية فيما يخصّ هذه القضية، مستنبطاً الموقف الإسلامي منها، متلافياً النقص والقصور الذي أشرت إليه سالفاً في الدراسات السابقة.

ثامناً: خطة البحث:

جاءت خطة البحث مقسمة إلى بابين، ويتضمن كلٌ منهما فصلين، وهي كالتالي:

المبحث التمهيدي

(التعريفات ومكانة الشعائر والعلاقة بينها وبين مقارباتها):

المطلب الأول: مدخل لغوي واصطلاحي.

المطلب الثاني: مكانة الشعائر والطقوس في المسيحية.

الباب الأول: أحكام الشعائر الدينية وسندها التشريعي في المسيحية: وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأحكام العامة للشعائر الدينية: وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: المصادر التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية

المبحث الثاني: المقاصد التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية

المبحث الثالث: اختلاف الطوائف المسيحية في الشعائر الدينية

المبحث الرابع: أسباب تطور الشعائر الدينية و آليته

الفصل الثاني: الشعائر ذات السند التاريخي: وفيه أربعة مباحث

المبحث الأول: القربان المقدس

المبحث الثاني: العناصر الليتورجية في طقس القربان

المبحث الثالث: تقديس المكان في الفكر المسيحي

المبحث الرابع: الشعائر الزمنية

الباب الثاني: الشعائر الكتابية والتعبدية: وفيه فصلان:
الفصل الأول: الشعائر ذات السند الكتابي: وفيه ستة مباحث
المبحث الأول: سر المعمودية
المبحث الثاني: سر مسحة الميرون (التثبيت)
المبحث الثالث: سر التوبة
المبحث الرابع: سر مسحة المرضى
المبحث الخامس: سر الزواج
المبحث السادس: سر الكهنوت
الفصل الثاني: الشعائر الدينية المتعلقة بالعبادة: وفيه أربعة مباحث
المبحث الأول: الصلاة
المبحث الثاني: الصوم
المبحث الثالث: الزكاة (الصدقة)
المبحث الرابع: الحج في المسيحية
الخاتمة: وتتضمن النتائج والتوصيات
الفهارس: (الآيات القرآنية، إعلانات الكتاب المقدّس، الأعلام، المجامع الكنسية، المدن، المراجع، المحتويات)

وأخيراً فإني أحمد الله تعالى على إتمام نعمه وفضله وتوفيقه لي في إنجاز هذا العمل على ما فيه من قصور، وحسبي في ذلك أنني بذلت جهدي وطاقتي حتى وصلت بالبحث إلى هذا المستوى الذي أرجو الله تعالى أن يكون مفيداً ومصدراً أميناً لطلاب الحقيقة، ولا كمال إلا لله ورسله، ولا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، وهذا دليل استيلاء النقص على البشر، فإن وفقت فيه للحق والهدى فهو بمحض فضله وكرمه وتوفيقه وفتحه، وإن كان غير ذلك فهو مني ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان، ولا عدمت مشرفاً أو أخاً أو أستاذاً وقف على شيءٍ من ذلك فنبهني إليه، وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم المجيب، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألّا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

مدخل لتحديد المصطلحات

الأديان الوثنية

الوثنيات هو اسم يتناول كل معبود من دون الله، سواء كان ذلك المعبود قبراً، أو مشهداً، أو صورة، أو غير ذلك.(١)

الأرثوذكس

وهم أتباع الكنيسة الشرقية أو اليونانية، وتسمّى كنيستهم بـ (كنيسة الروم الشرقيين) لأن أتباعها كانوا من الروم الشرقيين، والمقصود شرق أوربا كروسيا والبلقان واليونان، ومقر كنيستهم الأصلية في مدينة القسطنطينية بعد انفصالها عن كنيسة روما سنة ١٠٥٤م.(٢)

الاستحالة: Transsubstantiation

وهي التغيير الذي يحصل في القداس أو في وجبة العشاء الرباني، ويعتقد المسيحيون أنها تحصل بقوة من الله بالمرور من جوهر الخبز والخمر إلى جوهر جسد ودم السيد المسيح اللذين يصيران حاضرين مع استمرار شكل الخبز والخمر الحسي.(٣)

الأسقف: Eveque

هي رتبة ضمن التسلسل الكنسي لصاحبها سلطة ضمن إرادة الله، وهو يدير كنيسة مكانية، أو طائفة إقليمية صغيرة، ويكون في عمله ممثلاً عن البابا ضمن الكنيسة الأم.(٤)

الإفخارستيا: Eucharistie

كلمة يونانية تدل على فعل الشكر عرفاناً عند من قبل عطيةً ما، والمقصود بها عند المسيحيين هو مائدة ذكرى العشاء الأخير، والتي تكون بكلمات السيد المسيح الذي يعطي جسده مأكلاً ودمه مشرباً تحت أشكال الخبز والخمر.(٥)

الإكليروس: Clerge

هي عبارة عن مجموعة أو طبقة من الأشخاص يشتركون في بعض المهام الكنسية، كالرعاة والشمامسة والبطارقة، يختلف ترتيبهم وأدوارهم باختلاف الطائفة(٦)، وتسمى أيضاً بالكهنوت.

البابا: Pape

هو الاسم الرمزي الذي يُعطى لكبير أساقفة الكنيسة الأم في روما وذلك بصفته الرئيس

---

(١) انظر: القحطاني (سعيد)، كيفية دعوة الوثنيين إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان دار سفير، (الرياض)، د/ط.ت، ص٤.

(٢) انظر: الزيات، (عبد الفتاح)، ماذا تعرف عن المسيحية، مركز الراية للنشر والإعلام، ط٣، ٢٠٠١م، ص١٥٠.

(٣) انظر: راهنر (كارل)، وفورغريملر (هربرت)، معجم اللاهوت الكاثوليكي، ترجمة: عبده خليفة، دار المشرق، (بيروت)، د/ط، ١٩٨٦م، ص١٥.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٨.

(٥) انظر: راهنر (كارل)، وفورغريملر (هربرت)، معجم اللاهوت الكاثوليكي، ص٢٧.

(٦) انظر: المرجع السابق، ص٣١.

الأعلى للكنيسة كلها.[١]

البروتستانت: Protestantisme

هو مفهوم يضم الجماعات التي طالبت بالإصلاح الديني ضد الكاثوليك، وكان ذلك في القرن السادس عشر، ولها طابع أساسي مشترك هو الاعتراض على الكنيسة السابقة.[٢]

التبرير: Justifiacation

هو الفعل الذي يضع الله الإنسان من خلاله في صلة معه يطلبها الله منه وصفه إلهاً له، ويعمل الله ذلك بأن يجعل الإنسان مشاركاً في الطبيعة الإلهية، ويتم هذا الأمر عندما يسكن الله روحه القدس في أعماق الكائن البشري، ويعطيه هذا الأمر بكلمة الإيمان وبالعلامات السرية وممارسة الشعائر، ويغفر الله للإنسان خطاياه من خلالها.[٣]

التكريس: Consecration

كلمة كرّس تعني خصَّ شخصاً ما بصورة مميزة ومهام محددة ليقوم بخدمة الله في إطار العبادة، ويستخدم هذا المصطلح غالباً في الرسامة الإكليريكية لتعيين وتوزيع المهام على أفرادها حسب مواقعهم، كما أن هذا التكريس لا يعطي صاحبه أي سلطة إضافية أو سحرية، ومنه أيضاً تكريس الملوك بمعنى تعيينهم وتقليدهم زمام الحكم.[٤]

الحرمان: Prudence

هي ممارسة يرجع أصلها إلى العهد القديم، تتجلى في إبعاد الخاطئ عن إطار شعب الله، ودفعه إلى إطار الدنس والشر ليكون عرضة للغضب الإلهي، ولا تستعمل الكنيسة الطرد الكامل إلا في حال الهرطقة الخبيثة، وتستعمل العزل كعقاب علاجي به يطرد من اقترف ذنباً كبيراً ضد الجماعة من الاشتراك في خيرات الكنيسة الروحية.[٥]

الخطيئة الأصلية: Peche Originel

يدل هذا المفهوم على الحالة التي يولد فيها بنو الإنسان كلهم، وسبب وجود هذه الحالة هي خطيئة آدم بصفته الإنسان الأول، وبهذه الخطيئة كل إنسان هو أمام الله في وضع حرمان من الخلاص.[٦]

الخولاجيات: Galanges

تعارف المسيحيون على إطلاق (الخولاجيات) على الكتابات القديمة التي وصلت إلى الكنيسة المسيحية من الآباء والتي تتضمن التعليمات الطقسية والقراءات الليتورجية لإجراء شعيرة العشاء الرباني، وتتميز هذه الخولاجيات بندرتها الشديدة بحيث تكاد تكون مقصورة على فصول بسيطة اشتملت عليها بعض الكتابات اللاهوتية المعاصرة.

الشماس: Diacre

رجل مهمته الخدمة في الكنيسة، كان دوره في الكنيسة القديمة أن يقوم بخدمة الاحتفال

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٤٩.

(٢) انظر: فورغريملر (هربرت)، معجم اللاهوت الكاثوليكي، ص٥٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٦٥.

(٤) انظر: راهنر، (كارل)، وفورغريملر، (هربرت)، معجم اللاهوت الكاثوليكي، ص٩٣.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص١١١-١١٢.

(٦) انظر: المرجع السابق، ص١٢٤.

الإفخارستي وقراءة الإنجيل وتوزيع المناولة والكرازة أيضاً، وفي العصر الحديث تقلصت مهمته لتنحصر في المسؤولية المالية ضمن الكنيسة، من جمع الأموال وتوزيعها على المحتاجين وإطعام الفقراء وقبول الهدايا والعطايا إلى غير ذلك.(١)

العهد الجديد: Nouveau Testament

هو القسم الثاني من الكتاب المقدس عند النصارى، ويُسمّى (عهد الفضيلة)، ويضم الأناجيل الأربعة المعترف بها ورسائل بولس الرسول.(٢)

قوانين الإيمان: Law of Faith

هي تعليم كنسي، يكون على شكل عبارات وتأكيدات، ويشكّل الصياغة التي ينتهي إليها أي مجمع كان أو الزيادة التي يرتئيها والتوصيات التي يقترحها في العقيدة النصرانية.(٣)

الكاثوليك: Catholicite

هم أتباع الكنيسة الكاثوليكية، ويعتقدون أن مؤسس كنيستهم هو بطرس الرسول كبير الحواريين ورئيسهم، وأن بابوات روما خلفاؤه، وتسمى كنيستهم بالكنيسة الغربية؛ لامتداد كنيستهم إلى الغرب اللاتيني، وتسمى أيضاً الكنيسة العامة لأنها تدعى (أم الكنائس)، وتتبع كنيسة الكاثوليك النظام البابوي في روما، وهو عبارة عن مجمع كنائس مكون من مجلس الكرادلة يرأسه البابا الذي يعدّ في نظرهم خليفة بطرس الرسول وتلميذ المسيح ووصيه.(٤)

الكتاب المقدس: Ecriture sainte (Bible)

هو التعبير الموضوعي المخطوط للبشارة الموحاة الأولية (الكرازة الرسولية) التي صارت في كنيسة العهدين القديم والجديد، ويضم أيضاً كلاً من العهد القديم والعهد الجديد، ويشمل عهدي (الشريعة والفضيلة).(٥)

الكرازة: Predication

هي البشارة، وهي مستعملة بمعنى الدعوة المستندة إلى قوة رسالةٍ قُبلت شرعاً من الله ومن الكنيسة ككلمة الله وهي السيد المسيح، فهي عبارة عن الدعوة إلى الإيمان بالسيد المسيح واعتناق الديانة المسيحية.(٦)

الكنيسة الإنجيلية: Church

هي مجموع الكنائس التي تتبع في تعاليمها وسلوك أفرادها التيار الإصلاحي البروتستانتي، وتسمى بـ (الإنجيلية) لأنها تستمد تعاليمها من الكتاب المقدس رأساً دون وساطة أحد من البابوات أو رجال الإكليروس.(٧)

المجمع الكنسي / المسكوني: Concile

هي اجتماعات تتألف من الأساقفة ورؤساء الكنيسة وتتكون للبحث في أمور كنسية لأخذ

---

(١) انظر: راهنر، معجم اللاهوت الكاثوليكي ، ص١٨١.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٢٩.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٤٩.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢٦٢.
(٥) انظر: المرجع السابق، ص٢٦٤.
(٦) انظر: المرجع السابق، ص٢٦٩.
(٧) انظر: المرجع السابق، ص٢٧٤.

بعض القرارات وتطبيقها، والمجامع المسكونية منها هي التي يدعو إليها البابا ويديرها بنفسه ويجمع فيها ممثلين عن جميع الكنائس.(١)

الهرطقة: Heresie

مفهوم يشير إلى اعتقاد مغلوط في الأمور الإيمانية، وتختلف حيثياتها وما صدقاتها باختلاف الطائفة

(١) انظر: راهنر، معجم اللاهوت الكاثوليكي، ص٣٠٥.

المبحث التمهيدي

(التعريفات ومكانة الشعائر والعلاقة بينها وبين مقارباتها)

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مدخل لغوي واصطلاحي.

المطلب الثاني: مكانة الشعائر والطقوس في المسيحية.

المبحث التمهيدي

الحمد لله رب المشاعر والشعائر، الذي جعلها أعلاماً لدينه، وأمر بتعظيمها إعلاءً لكلمته وإتماماً لنوره، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الطيب الطاهر، وعلى آله وأصحابه وكل من على هديهم هو سائر، أما بعد:

فقد قال المولى تبارك وتعالى في محكم تنزيله: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢]، وقال أيضاً: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ} [المائدة: ٢]، فجعل سبحانه تعظيم شعائر الدين وإقامتها أمراً إلهياً وقاعدةً دينية.

وإن الشعيرة الدينيّة ذات صلة وثيقة بهويّة المجتمع المؤمن، فهي تعكس تراث الملّة، وهي شعار ورمز وصورة ومحتوى، كما أنّ إقامتها هي إقامةٌ لصرح الدين الذي ترتبط حياته بحياتها، ولذلك حرصَ التشريع الإسلامي على تعظيمها وإقامتها.

وقد تجاذبت البحوث والأفكار الحديث عن الشعائر الدينية، بين من يمجّدها للتوسع في القواعد الدينية، وبين من يصوغها ضمن قوالب الانفتاح والعصرنة، وبين من يحددها في خطاب الحضارات، واحتدمَ الحديث عن ضوابطها وموازينها وأصولها التي تُبنى عليها، وعن المعيار التشريعي الثابت والمتغيّر الزمني لها.

وتظهر كثير من التساؤلات على السطح الثقافي والاجتماعي حول جدوى الشعائر الدينية ومشروعية بعض الممارسات، وجميع هذه التساؤلات تسير في خط واحد ينتهي عند ما نصطلح عليه بـ (الشعائر الدينية)، وربما يوجد بعض المحاولات في الساحة الثقافية تهدف للإجابة على هذه التساؤلات، لكن أغلبها ذو طابع ثقافي عام، ويندر من يتعرض لها بالبحث الأكاديمي العلمي.

ومما لا يختلف عليه اثنان أن الرسالات السماوية أقرّت مبدأ الشعائر، ووجهت أتباعها إلى تعظيمها واتخاذ إقامتها عبادةً ينالون بها المغفرة ويطلبون العفو والرحمة، وحوى كل دين جملة من الشعائر الدينية تعدّ من خصائصه ومعالمه الروحية.

فمما سبق يتبين أن مبدأ الشعائر الدينية نهج عام، تؤمن به الرسالات السماوية كافةً، وتلتزم بإقامته؛ فهو يشكّل روحها وهويتها الدينية والحضارية.

المطلب الأول: المدخل اللغوي والاصطلاحي:

لا بد في بداية البحث من العكوف على بيان المعاني اللغوية والاصطلاحية للمفردات الأصلية والمرتبطة بهذا البحث.

أولاً: التعريفات اللغوية:

تعريف الشعائر الدينية:

(الشعائر) لغةً:

الشعيرة: **كل مَا جُعل عَلَما على طَاعَة** فَهُوَ شعيرَة وَالْجمع (شَعَائِر).[1]

ثانياً: التعريفات الاصطلاحية:

المشعر: **موضع المنسك من مشاعر الحج**، والشعيرة من شعائر الحج، وهي أعمال الحج من السعي والطواف والذبائح، والشعيرة أيضاً: البدنة التي تهدى إلى بيت الله، ومنه سمي المشعر

---

(١) انظر: الرازي (محمد بن أبي بكر)، مختار الصحاح، ص٣٥٤، الأصفهاني (الحسين بن محمد)، المفردات في غريب القرآن، ٣٤٦/١، والكفوي (أيوب بن موسى)، الكليات، ص٥٢٣.

الحرام لأنه معلم للعبادة وموضع لها.[١]

قال (الزجاج): "شعائر الله يعنى بها **جميع متعبدات الله التي أشعرها الله**، أي جعلها أعلاما لنا .... وإنما قيل شعائر الله لكل عَلَم مما تُعُبِّدَ به لأن قولهم شعرت به: عَلِمته، فلهذا سميت الأعلام التي هي متعبدات الله شعائر".[٢]

وجاء في قاموس الكتاب المقدس: الشعائر الدينية هي **الفرائض**، وهي **وصايا الله**، وهي مجموعة الشعائر التي دعا موسى إلى اتباعها في التقرب إلى الله في علاقات البشر مع الله، قصد منها تنظيم العبادات والذبائح والتقدمات والمواسم والأعياد والصلوات والصيام والتطهير[٣]، ورد في الكتاب المقدس: "احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه وصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى" [الملوك الأول: ٣/٢].

تعقيب على التعريف:

ومما سبق يتبين **التقارب بين المعاني اللغوية والاصطلاحية** بالنسبة لمفردة الشعائر، وتتبين أصالة هذه المفردة في الكتاب المقدس، فالتعريفات الاصطلاحية للشعيرة اشتملت على معنى يجمع ماصدقاتها في نسقٍ واحد هو فكرة (الإعلام)، فكل ما أَعلمَ بأمر فهو شعيرة من شعائره، وكل ما يُشعر بالله فهو من شعائر الله، وكل ما يُشعر بالدين فهو من شعائر الدين، ومن هنا اتسعت دلالة هذا اللفظ، لكن لا تزال هذه المسألة غير محتملة لهذا الإطلاق.

أما في الجانب المسيحي فكذلك نجد للشعائر معنىً واسعاً، وتشتمل هذه المفردة على الكثير من الأنظمة الدينية والوظائف، فهي بدايةً **قانونٌ تنظيمي يشتمل على عبادات وسلوكيات بهدف تنظيم علاقة الإنسان بالله**، ومن ثَمَّ فإن التعبيرات الماثلة في المفردات الكتابية حول هذا القانون التنظيمي كثيرة، وكلٌ من هذه التعبيرات يوضح جانباً من جوانب الشعائر الدينية في المسيحية، لذا فإن الشعائر الدينية بمكانٍ كبير من الأهمية في المسيحية؛ وذلك تبعاً للنطاق الواسع الذي تشتمل عليه هذه المفردة من التطبيقات العملية والسلوكيات التعبدية ضمن هذه الديانة.

والشعائر في المسيحية من حيث قبولها للتعديل وعدم قبولها نوعان، فمنها **ما لا يمكن التعديل عليه**، ولا يقبل التطور كـ (الوصايا العشر)، ومنها **ما يبقى عرضة للتعديل** حسب تطورات الحياة ومقتضيات الأحداث كالكثير من طقوس العبادات وتقديم القرابين، لا سيما أن النظرة الكتابية الجديدة (المسيحية) ترى أن قدوم المسيح قد ألغى الكثير من الشرائع الموسوية؛ لأن هذه الشعائر لم توضع – برأيهم – إلا إشارة لمجيئه.[٤]

ثالثاً: الألفاظ ذات الصلة:

تعريف (الأسرار):

وردت كلمة سر في العهد الجديد بمعنى حقيقة روحية عميقة لا يقدر إنسان أن يدركها بعقله الطبيعي ولا بفكره الجسدي، كما أنه لا يقدر أن يفهمها فهماً صحيحاً في هذا العالم لأنها تفوق

---

(١) انظر: الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، كتاب العين، ٢٥١/١، والهروي (محمد بن أحمد)، تهذيب اللغة، ٢٦٦/١، والقزويني (أحمد بن فارس)، معجم مقاييس اللغة، ١٩٤/٣، وابن منظور (محمد بن مكرم)، لسان العرب، ٤١٤/٤.

(٢) الهروي تهذيب اللغة، ٢٦٦/١، والزبيدي (محمد بن محمد)، تاج العروس من جواهر القاموس، ١٩١/١٢.

(٣) انظر: عبد الملك (بطرس)، وطمسن (جون ألكسندر)، ومطر (إبراهيم)، قاموس الكتاب المقدس، ٥٧/٢٤.

(٤) انظر: المرجع السابق الصفحة نفسها.

الإدراك الطبيعي، وبمعنى الشيء المكتوم في الصدر إلى أن يجيء وقت الإفصاح عنه، فيصبح العلم به في حيز الإمكان.[١]

أ. **السِّر لغةً:** السين والراء يجمع فروعه إخفاء الشيء، وهو خلاف الإعلان.[٢]

ب. **(السر) اصطلاحاً:** للسر في الاصطلاح اللاهوتي معنيان:

المعنى الأول: "هو عمل مقدس به تنال نفس المؤمن نعمة الله غير المنظورة تحت علاماتٍ منظورة"[٣]، وهذا المعنى مستحدث.

وبناءً على هذا المعنى فإن الأسرار في حقيقتها هي **أعمالٌ مقدسة تكون سبباً في تحصيل النعمة الإلهية للمؤمنين**، بمعنى أنها سلوكيات معينة تضمن نتائج حتمية تُبنى عليها.

ومن التعريف السابق يتبين أن **السر الكنسي في المسيحية له وجهان**:

الأول: الوجه المنظور: وهو **العمل الخارجي** الذي يقوم به خادم الكنيسة (الكاهن)، كالماء في المعمودية وما يفعله الكاهن أثناء تأدية الطقس، **والثاني: الوجه غير المنظور: وهو فاعلية السر**، كفاعلية الغسل بالماء والتغطيس بها للمتعمّد، حيث يطهر نفسه من الخطايا والذنوب.

وبهذا المعنى فإن السر الكنسي هو (علامة) أو (رمز) ولها ثلاثة أوصاف أساسية هي أنها مؤسسة من قِبل الله، وأنها ذات هيئةٍ أو صورةٍ منظورة ومحسوسة، وأنها تمنح النعمة الإلهية غير المنظورة لنفوس المؤمنين.[٤]

المعنى الثاني: "هو **حقيقة أو حقائق إلهية ثابتة ومستقرة كانت مخفية ومكتومة منذ الدهور**، لأنها فائقة على قدرة الإنسان العقلية، أو أعلى من مستواه الروحي، أو أكثر من حاجته، ثم أعلنها الله بروحه لأنبيائه ورسله وقديسيه ثم للكنيسة، وذلك إما بوحي إلهي أو إلهام في رؤيا أو بسمع الأُذُن أو بانفتاح الذهن أو بتلقين الروح"[٥]، وهذا هو المعنى القديم.

تعقيب على تعريف الأسرار:

جاء في كتاب: (الأسرار حياة الإيمان) ما خلاصته:

(إن كلمة [سر] غير موجودة في الكتب المقدسة، وهي مشتقة من كلمة لاتينية [سكرمنتوم] [Sacramentum]، وليس لها مقابل في اليونانية، لذلك لا مقابل لها في العهد الجديد، إذ العهد الجديد وضع باليونانية .... وظلت كلمة [سكرمنتوم] تدل على الأمور المسيحية الداخلية والخارجية إلى القرن الثاني عشر، ثم اقتصر إطلاقها على الأسرار السبعة التي يعتقد النصارى أن المسيح أسسها لهم لتدل على النعمة وتمنحها).[٦]

من هنا نعلم أن **كلمة (أسرار) لم تكن معروفة في العهد القديم** من الكتاب المقدس إلا فيما أُدخل عليه من أسفار حديثة، كما أن **كلمة (أسرار) لم تكن معروفة عند المسيحيين إلا في القرن الثاني عشر الميلادي**، وإن وجد في الكتاب المقدس كلمة (السر) لكنها تُطلق على المعنى الثاني سالف الذكر، ومن هذه الأسرار (سر الآب والمسيح) و(سر التقوى).[٧] لذا فإن الدارس

---

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس، ١٢/٣٤-٣٥.
(٢) انظر: القزويني معجم مقاييس اللغة، ٦٧/٣، وابن منظور، لسان العرب، ٣٥٧/٤.
(٣) مسره (جراسيموس)، الأنوار في الأسرار، ص٧.
(٤) انظر: جرجس (حبيب)، أسرار الكنيسة السبعة، ص٣، ومسره، الأنوار في الأسرار، ص٨.
(٥) المسكين (متى)، الإفخارستيا عشاء الرب (بحث في الأصول الأولى لليتورجيا)، ص٣٧.
(٦) انظر: مرمية (تسيو دول ري)، الأسرار حياة الإيمان، ص١٢-١٣، والرسولي (أثناسيوس)، معمودية الماء والروح، ص٣٢.
(٧) انظر: المسكين، الإفخارستيا عشاء الرب، ص٣٨.

لأسرار الكنيسة يتبين له أن المعنى المعتمد في الكنيسة – المعنى الأول – إنما هو معنى مستحدث، لأن الإصطلاح على السر بأنه (عمل مقدس منظور به ينال المؤمن نعمة غير منظورة) لم يُعرف إلا في القرن الثاني عشر من الميلاد؛ إذ كان أول من صرّح بهذه الأسرار وبهذا المعنى هو **(بطرس اللومباردي)**[١] في عام ١١٤٠م.[٢]

وبما أن هذا المعنى مستحدث فقد وُجد من علماء اللاهوت مَن تعرّض له بالنقد، **يقول (عوض سمعان):** "عرّف بعض رجال الدين السر بأنه علامة منظورة تحل بواسطتها نعمة غير منظورة، وهذا التعريف لا أساس له في الكتاب المقدس"[٣]، **ويقول (فارس فهمي)**: "لا نجد في الكتاب مثل هذا التعريف أو التعليم، وهذا الخلط بين البركات الروحية والوسائط المادية هو ما يميز البابوية التي قامت أساساً على هذا التعليم".[٤]

ورغم الاعتراضات على معنى الأسرار يبقى **المعنى المعترَض عليه هو الذي استقرّ في أذهان أتباع الديانة المسيحية**، كما أن الممارسات الطقسية للأسرار المقدسة في الكنائس ترجح هذا المعنى، ويمكن الجمع بين المعنيين السابقين بأن نقول: **إن السر هو عمل ظاهري يتحصّل منه ثمرة معنوية وفائدة روحية، ولا يمكن للعقل أن يعبّر عنها إلا في حدود ضعيفة.**

ومن هنا فإن الأسرار الكنسية المعتبرة في المسيحية – على العموم – هي سبعة أسرار:

١- سر التعميد ٢- سر التثبيت (الميرون) ٣- سر العشاء الرباني ٤- سر الاعتراف ٥- سر الزواج ٦- سر مسحة المرضى ٧- سر الكهنوت، ولكل سرٍّ من هذه الأسرار دلالة رمزية معينة سيتم دراستها بالتفصيل.

وآخر أمر أُشير إليه هنا أنه **يشترط لتتميم السر ووجود فاعليته ثلاثة شروط**:

١. مادة مناسبة: كالماء مثلاً في إجراء المعمودية والخبز والخمر لسر الإفخارستيا.
٢. كاهن قانوني: لذا فلا يقدر أي مسيحي أن يتمم السر بنفسه.
٣. استدعاء الروح القدس من قِبل الكاهن بالعبارات المناسبة لتقديس السر لحلول الروح القدس[٥].

تعريف (الطقوس)

أ. **(الطقس) لغةً:** كلمة معرّبة عن الكلمة اليونانية (تاكسيس)، وتفيد معنى **ترتيب أو نظام أو دستور**.[٦]

ب. **(الطقس) اصطلاحاً**: **"كل نظام عبادةٍ** في الكنيسة من صلوات وتسبيحات وأسرار وأعياد".[٧]

---

(١) لاهوتي إيطالي، ولد سنة ١١٠٠م تقريباً، عانى الفقر في طفولته فقصد فرنسا علّه يلقى الرعاية والعلم، فضمنه القديس برنار وساعده كثيراً، وأمضى حوالي عشرين سنة في باريس علّم فيها اللاهوت في مدرسة نوتردام، ولمع كلاهوتي بين أبناء عصره مما دفع البابا أوجانوس إلى ترقيته إلى رتبة أسقف على فرنسا، من مؤلفاته: (شرح المزامير) و(شرح على رسائل مار بولس) توفي سنة ١١٦٠م، انظر: ألفا (روني)، موسوعة أعلام الفلسفة حياتهم، آثارهم، فلسفتهم، دار الكتب العلمية ببيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م، ٢٣٧/٢.

(٢) انظر: المنفلوطي (جاد)، المسيحية في العصور الوسطى، ص١٠٤، والمسكين، الإفخارستيا عشاء الرب، ص٣٨.

(٣) سمعان (عوض)، تاريخ الأقباط، ٤٢٤/١.

(٤) فهمي (فارس)، المعمودية المسيحية وماذا يقول الكتاب عن معمودية أهل البيت، ص٣.

(٥) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٥، ومسره، الأنوار في الأسرار، ص٨.

(٦) انظر: المقاري (أثناسيوس)، الكنائس الشرقية وأوطانها، ص٧٨، ورافائيل، الطقس الكنسي، ص٦.

(٧)رافائيل، الطقس الكنسي، ص٧٨.

ويُعرّف **(زكي شنودة)** الطقوس فيقول: "مجموعة الصلوات والاحتفالات التي تتم في الاحتفالات الكنسية، ويتلوها الكاهن ومساعدوه في أداء الأسرار المقدسة وغيرها بترتيب خاص موضوعي".(١)

فالمعنى العام لكلمة (طقوس) في المسيحية هو أنها **ترتيبات ونُظُم روحية يجب مراعاتها في العبادة المسيحية**، فيما يُتلى في الكنيسة من صلوات لفظية أو حركات رمزية، وكذلك شكل الكنيسة والأدوات المستخدمة فيها ورتب الكهنة.(٢)

وعليه يتبين المعنى الواسع لكلمة (طقس)، مع أن المعنى اللغوي لا يتصل بالعبادة لكن الاستعمال الاصطلاحي حدد دور الترتيب والتنظيم وربطه بالعبادة كحقيقة شرعية لهذه اللفظة، **فمعنى كلمة (طقس) متشعب**، ولمدلولاتها صلة بقضايا العبادة المسيحية؛ لأن موضوع العبادة يخضع لتنظيم معين من حيثيات كثيرة ورُتب معينة، وهذا المقصود بالطقس.

فمما سبق نستطيع تحديد **الدور الانثروبولوجي** الدقيق الذي يؤديه (الطقس) في العبادة المسيحية، فهو يمثّل الجانب الانفعالي والعملي لأداء الدِين، وعن طريقه يظهر المعتقد من كونه في حدود الذهنية العقلية إلى عالم الفعل، وعليه فإن **المعتقد إذا كان أمراً أساسياً** من أمور الدين فإن **الطقس يبقى له طابع شعبي** يتيح للناس مساحةً للاشتراك به، فرغم أن الخاصّة – من الكهنة – توجهه وتشرف على أدائه يعمل الأداء الشعبي له على تحويله إلى عادة راسخة تتناقلها الأجيال(٣)

فإذا كان المعتقد حالة ذهنية قلبية فإن الطقس حالة (فعل) من شأنها إحداث رابطة، وإذا كان المعتقد مجموعة من الأفكار المتعلقة بالمقدسات فإن الطقس مجموعة من الأفعال المتعلقة بأسلوب التعامل مع هذه المقدسات.(٤)

ونستطيع القول: إنه لم يخل عصر من العصور ولا مجتمع من المجتمعات من طقوس دينية يُلزم الناس أنفسهم بأحكامها ليتقربوا إلى المعبود الذي يدينون له بواجب العبادة والديانة؛ إذ لم تخل أمة من الأمم من معتقد ديني وسلوكيات عبادية.

لذا فإن **أهمية الطقوس** في المسيحية تظهر من خلال **حاجة العبادة فيها إلى تنظيم وترتيب**، وهذه الطقوس منها ما هو مرتبط بالأسرار كـ (طقس الإفخارستيا) ومنها ما هو مستقل عنها كطقس (تقديم النذور).

مما سبق يتبين **شمولية معنى الشعائر الدينية في المسيحية** فقد اشتمل على (الأسرار) و(الطقوس)، وهاتان اللفظتان تدلان على العبادات الأساسية وطرق تنظيمها وترتيبها وأدائها في المسيحية.

المطلب الثاني: مكانة الشعائر والطقوس في المسيحية:

تحتل الشعائر والطقوس أهمية كبيرة في المسيحية؛ وذلك نظراً **لاتساع معناها** وشمولها للكثير من المحاور العملية والسلوكية، **ولما تنطوي عليه من تعاليم تشريعية وتعبدية** تسمح لأتباع الأديان بممارسة تعاليم دينهم، وتعبّر عن مدى التزام مقيميها بتنفيذ الأوامر الدينية والوصايا الإلهية، وتمثّل معياراً مهماً يشير إلى نسبة التدين في المجتمعات.

أولاً: أهمية الأسرار ومكانتها: تتحدد أهمية الأسرار في المسيحية بالنقاط التالية:

---

(١) سمعان، تاريخ الأقباط، ٢٦٤/١.
(٢) انظر: لوقا (ملاك)، التقليد المقدس كتابياً تاريخياً كنسياً، ص٧٩.
(٣) انظر: نصيرة (بن عبد المولى)، الطقوس البدائية وعلاقتها بالممارسات الدينية المعاصرة، ص١٧.
(٤) انظر: الماجدي (خزعل)، خور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والاسطورة والدين)، ص٨٠.

١- **جوهر الأسرار وفعلها:** الأسرار حسب التعريفات المتقدمة ليست عبارة عن طقوس خارجية يتميز بها المسيحي من غيره، بل **لكلٍ منها فاعلية قوية** تظهر إذا وجدت شروط إتمامها التي ذكرتها سابقاً، وقد ورد في الكتاب المقدس إعلانات تفيد الجزم بفاعلية الأسرار.

ففي (المعمودية) ورد ما يلي: "أجاب يسوع الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" [يوحنا: ٣/٥].

وفي (الشكر) ورد: "فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم، من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق، من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه" [يوحنا: ٦/٥٣-٥٦].

وفي (الكهنوت) ورد: "لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي المشيخة" [تيموثاوس١: ٤/١٤].

وفي (مسحة المرضى) ورد: "أمريض أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه وإن كان قد فعل خطية تغفر له" [يعقوب: ٥/١٤-١٥].

فبهذه الإعلانات وأمثالها يستدل أتباع المسيحية بها على أن الأسرار المقدسة هي أدوات وآلات يُفيض بها الروح القدس النعمَ المبررة في نفوس المسيحيين، ويرون أنها تفعل بذلك فعلاً حقيقياً؛ فالماء في المعمودية تلد الإنسان الولادة الثانية وتقدسه وتنقيه، ومسحة الميرون تمنحه ثباتاً وتهبه حلول الروح القدس، وبتناول المسيحي لسر الشكر يوهب الثبات في المسيح وعدم الموت، وبوضع اليد في الكهنوت يُمنح المرتسم نعمة خاصة لتكريسه لخدمة الأسرار وقبول وظيفة الرعاية، وهكذا كل سر من الأسرار المقدسة بحسب طبيعته وجوهره يفعل فعلاً غير منظور، ويمنح النعمة لمن يتقدم به، فإذاً هي علل **فعالة لإصدار النعمة**، ومن هنا يتضح الفرق بين الأسرار المسيحية الواردة في الإنجيل والأسرار الكتابية في العهد القديم، فأسرار الإنجيل برأي المسيحيين **تمنح النعم الإلهية، بخلاف أسرار العهد القديم التي لم تكن إلا رمزاً وظلاً للخيرات وللثواب في زمانه**، فمعمودية النبي (يحيى) للمسيح عليه السلام كانت استعداداً لمغفرة الخطايا، ولم تكن لها قوة أو أثر في محو الخطيئة، أما معمودية المسيح فلها قوة غفران الخطايا لأنها تُمنح بقوة الروح القدس.

٢- **الأسرار المقدسة ترتيب مرضِيٌّ من الله:** يرى المسيحيون أن الله هو الذي رتّب هذه الأسرار، وارتضى أن تكون وسائط لنيل بركاته ونعمه، إذ ليس من الممكن أن ينال البشر الماديون مواهبه السامية غير المنظورة إلا تحت وسائط محسوسة منظورة تناسبهم ومراعاةً للجزء الحسي في الطبيعة البشرية.(١)

٣- **الأسرار علامة الوسم في المسيحية:** الوسم علامة روحية تنطبع في النفس ولا تمحى، ويرى المسيحيون أن هذا الوسم يميز المؤمن من غيره أمام الملائكة والقديسين، وهو صفة تعدّ الإنسان لقبول كل ما يختص بعبادة الله، ويتحصل بالمعمودية والميرون والكهنوت.(٢)

٤- **التشابه بين الأسرار ومفعولاتها ومطابقتها للمقصد الإلهي:** أسرار الكنيسة هي أعمال تشير إلى تطهير النفس وتجديدها بالنعمة، وهي مطابقة للقصد الإلهي الذي وضعت من أجله؛ إذ يوجد تشابه كلي بينها وبين ما تشير إليه، فمثلاً (المعمودية) هي عبارة عن غسل جسد بالماء،

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٠.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٣.

لكن هذا الغسل يشير بفاعليته إلى غسل النفس من أدران المعصية، وهذا الغسل المعنوي للذنوب مناسب للمقصد الإلهي من إقامة هذا السر وهو مغفرة الذنوب لعباده.[١]

ثانياً: أهمية الطقوس ومكانتها: تتحدد مكانة الطقوس وأهميتها بالنقاط التالية:

١- **الطقس يوحد الكنيسة:**

يرى المسيحيون أن الطقوس توحد الكنيسة لتكون كلاً واحداً في المسيح؛ وقد أكد المسيح على وحدانية الكنيسة في وحدانية الرسل ووحدانيتهم فيه[٢]، "أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن" [يوحنا: ١١/١٧]، والطقس أحد عوامل توحيد الكنيسة، حيث يتلو جميع الرعايا نصوصاً موحدة، مما يشكّل صورة من الوحدة في الكنيسة.

٢- **الطقس يضمن جماعية الأداء:**

فالجميع يصلون بروح واحدة وكلام واحد في وقت واحد، ويستدل المسيحيون على ضرورة هذا الأداء الجماعي بقول المسيح: "فقال لهم متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السماوات" [لوقا: ٢/١١].

٣- **الطقس يشرح العقيدة ويضمن الحفاظ عليها سليمة:**

الطقس هو التطبيق العملي للعقيدة، والآلية التي تشرح العقيدة من خلال تطبيقها، ويستدل المسيحيون على ذلك بالقدّاس، حيث إن الكثير منهم يتعلم أموراً عن لاهوت المسيح وهو لا يزال صغيراً من خلال حضوره للقداسات[٣]، ويعلن أيضاً قداسة المادة باتحاد المسيح بها كالقدّاس.

٤- **الطقس يشرح حقائق مجردة لا يمكن أن يستوعبها إلا العقل المجرد:**

مثال ذلك (رشم الصليب)، وهو أصغر عقيدة في المسيحية، يرون أنها تعبّر عن المسيحية كلها وتشرح ثلاث عقائد:

- **عقيدة التجسد**: الآب نزل من السماء "إشارة الرأس" إلى الأرض من بطن العذراء "بالإشارة إلى البطن".
- **عقيدة الكفارة والفداء**: الانتقال من اليسار إلى اليمين "بالإشارة من الكتف الأيسر إلى الأيمن" يشير إلى الانتقال من الظلمة إلى النور بالخلاص الذي تم بالصليب.
- **عقيدة التثليث والتوحيد باسم الآب والابن والروح القدس** "ثلاثة أقانيم" لإله واحد.[٤]

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٤.
(٢) انظر: رافائيل، الطقس الكنسي، ص٧.
(٣) انظر: المرجع السابق، ٧-٩.
(٤) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الباب الأول
الشعائر الدينية وسندها التشريعي في المسيحية

وفيه فصلان

الفصل الأول: الأحكام العامة للشعائر الدينية

الفصل الثاني: الشعائر ذات السند التاريخي

الفصل الأول: الأحكام العامة للشعائر الدينية

وفيه أربعة مباحث

المبحث الأول: المصادر التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية

المبحث الثاني: المقاصد التشريعية للشعائر الدينية المسيحية

المبحث الثالث: اختلاف الطوائف المسيحية في الشعائر الدينية

المبحث الرابع: أسباب تطور الشعائر الدينية و آليته

المبحث الأول: المصادر التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية

إن الحديث عن المصادر التشريعية في المسيحية يأتي على نسق المنطق المسيحي، ويبقى عُرضةً للنقد؛ لأن مصدرية الشعائر في المسيحية هي أمر مظنون ومجال نقد حتى من بعض المسيحيين، فمصدرية الشعائر الأهم في المسيحية (الأسرار السبعة)، مختلف فيها اختلافاً كبيراً ربما ينسف المسألة على ما لها من الأهمية، فكيف بباقي الشعائر، هذا إذا ما غضضنا الطرف عن الاختلاف في اعتبار بعض الشعائر وإهمال الآخر.

تنحصر المصادر التشريعية في المسيحية في ثلاثة مصادر:

- الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)، المصدر الكتابي.
- تعاليم الرسل (الديداخي)، المصدر الرسولي.
- قوانين المجامع المقدسة (المسكونية والإقليمية)، المصدر المجمعي.

المطلب الأول: الكتاب المقدس (المصدر الكتابي):

يمثل الكتاب المقدس بعهديه أساساً راسخاً للديانة المسيحية، وهو المنهج الذي تُكرِّز به الكنيسة للخليقة كلها، ويُعد **المصدر التشريعي الأول للعبادات والشعائر الدينية في المسيحية،** وقد حوى أصول أغلب الشعائر التي يمارسها المسيحيون، وتتنوع أدلة هذه الشعائر ضمن الكتاب المقدّس بين أمور فعلها المسيح ونسبته إليه الأناجيل، وبين أمور أمر بها أو أشار إليها، والشعائر التي تستند في مصدريتها إلى الكتاب المقدس كثيرة، وسأورد لها مثالين أحدهما من الشعائر الكبرى كالمعمودية والآخرمن الصغرى كالصلاة.

أولاً: المعمودية: يعرّفها (دنيس كلارك) بقوله: "المعمودية هي طقس أو شعيرة دينية تُجرى للمؤمن بتغطيسه بالماء أو بالرش، فيعلن بذلك إيمانه وتوبته عن الخطايا والتزامه لعمل إرادة الله".(١)

وللمعمودية أدلتها من الكتاب المقدس، منها:

- "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" [متى: ١٨٩/٤].
- "وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدَنْ" [مرقس: ١٥/١٦-١٦].

ثانياً: الصلاة:

يستدل المسيحيون على الصلاة التي يقومون بها بعدّة نصوص تُنسب إلى السيد المسيح عليه السلام، منها:

- "وإذ كان يصلي في موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه يا رب علمنا أن نصلي كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه، فقال لهم متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم، واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير" [لوقا: ١/١١-٤]، و[متى: ٩/٦-١٤].

---

(١) كلارك (دنيس)، سيرة المسيح وتعاليمه، ص٢٧٦.

ويطلق المسيحيون على هذه الصلاة اسم (الصلاة الربانية)؛ لأنهم يرون أن (المسيح) هو الذي علّمهم إياها، لذلك فهم يلتزمون بها في أداء الصلوات إضافة إلى أدعية أخرى من سفر المزامير.

المطلب الثاني: تعاليم الرسل (الديداخي) (المصدر الرسولي):

لتعاليم الرسل مكانة مهمة جداً في الفكر والتشريع المسيحيَيْن؛ لما تنطوي عليه من وصايا وتعاليم شفوية أخذها الرسل من المسيح عليه السلام، لذا **تعدّ هذه التعاليم في المنزلة الثانية ضمن الترتيب التشريعي في المسيحية**.

ويرى المسيحيون أن السيد المسيح قد سلّم تلاميذه روح التعليم، وترك لهم كثيراً من التفاصيل لم يعطهم فيها تعليماً، وأسند إليهم أن يتصرفوا فيها بحسب الروح المعطى لهم.

وعليه فإن المسيحيين يعتقدون بأن المسيح كانت له **أحاديث كثيرة مع تلاميذه لم يرد منها شيء في الكتاب المقدس**؛ لأنهم لو سجّلوا كل شيء لما كان ذلك مستطاعاً، كما شهد بذلك القديس (يوحنا) في إنجيله: "وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة" [يوحنا: ٢٥/٢١].

وهكذا الحال في أمور كثيرة وجوهرية، سار العالم المسيحي فيها حسب التقاليد التي سُلّمت إليه للرسل، ولم ترد في الإنجيل، ومثال ذلك الكثير من تفاصيل العبادة في الكنيسة، فالكتاب المقدّس يذكر مثلاً أن المسيح أمر تلاميذه قائلاً: "تلمذوا جميع الأمم وعمدوهم" [متى:١٩/٢٨]، أما طقس العماد وطريقته وصلواته فلم يذكر شيئاً عنها، وسيأتي بيان بعض الأمثلة.

وتسمى تعاليم الرسل بـ (الديداخي)، وتعني هذه المفردة (الديداخي) تعليم الرسل الاثني عشر، وهي توجد في مخطوط تاريخي قديم، عنوانه التفصيلي: (تعليم الرب للأمم بواسطة الاثني عشر رسولاً) يعود تاريخ تدوين هذه الوثيقة إلى نهاية القرن الأول الميلادي أو بداية الثاني، ويُظن أنها أقدم من إنجيل القديس يوحنا.[١]

تعد الديداخية أهم وثيقة من عصر ما بعد الرسل، وهي أقدم مصدر للقانون الكنسي في المسيحية، حيث يُرجح أنها كتبت ما بين ٨١ إلى ١٠٠ بعد ميلاد المسيح، لكنها كانت غير معروفة حتَّى سنة ١٨٨٣، حين نشرها مطران نيقوميدية اليوناني (فيلوثيؤس برينيوس) في بطريركية أورشليم، ومنذ ذلك الحين يقوم دارسوا المسيحية بدراسة هذه الوثيقة التاريخية.

وتضم مخطوطة الديداخي ستة عشر فصلاً موزعة في أربعة اتجاهات هي:

السلوك المسيحي (الطريقان، أي طريق الحياة وطريق الموت)، والقسم الليتورجي أو الطقسي ويشمل الحديث عن توجيهات حول المعموديَّة، والرتب الكنسيَّة، ونبوءة عن انتظار مجيء المسيح الثاني.[٢]

والديداخي "أول تنظيم كنسي" وصل إلى المسيحيين، وتحتل مكانًا متوسِّطًا بين أسفار العهد الجديد وكتابات الآباء.

واكتُشِفت هذه الوثيقة في مخطوط يوناني وحيد عام ١٨٧١ ميلادية، وكان لاكتشافها دوي هائل في الأوساط العلمية الكنسية؛ فعلماء الآبائيات كانوا يعرفون أنه يوجد ما يُسمى "تعليم الرسل" دون أن يتمكنوا من العثور على أثر له حتى ذلك الوقت.

---

(١) انظر: راهب من الكنيسة القبطية (غير معلوم الاسم)، الديداخي (تعليم الرسل)، ص٢٠.

(٢) للتوسع في هذا الأمر وتفصيل كتب الديداخي ومحتواها انظر: (موقع الأنبا تكلاهيمانوت) https://st-takla.org

ولقد كانت هذه الفصول والتعاليم المنسوبة للرسل مصدراً تشريعياً مهماً للكثير من الشعائر المهمة لا سيما فيما يخص الرتب الكنسية وتفصيلها ومكانة الأساقفة والشمامسة، من أمثلة ذلك:

- "قبل المعمودية ليصم المعمِّد والذي يعتمد ومن يمكنه ذلك من الآخرين، وأوصِ الذي يعتمد أن يصوم يوماً أو يومين قبل المعمودية"(١)
- "أقيموا لكم إذاً أساقفة وشمامسة جديرين بالرب، رِجالاً وُدَعاء غير محبين للمال، صادقين قد اختُبروا، لأنهم يخدمونكم خدمة الأنبياء والمعلمين، فلا تحقروهم لأنهم هم المكرمون بينكم مع الأنبياء والمعلمين".(٢)

في النصين السابقين تتضح دلالات متعددة على بعض الشعائر الدينية في المسيحية، وتتضمن فصول الديداخي كثيراً من التوصيات على مستويات الشعائر الدينية والآداب والأخلاق.

المطلب الثالث: قوانين المجامع المقدسة (المسكونية والإقليمية)، المصدر المجمعي:

المجامع هي **هيئات شورية في الكنيسة المسيحية، رسم الرسل نظامها في حياتهم،** إذ عقدوا المجمع الأول في أورشليم سنة (٥١) ميلادية برئاسة أسقف أورشليم (يعقوب) الرسول، وكان سبب انعقاده النظر في ختان الأمم، ومن ثمَّ نسجت الكنيسة على منوالهم بعد ذلك.(٣)

وتعد المجامع المسيحية المسكونية أو الإقليمية **أحد المصادر التشريعية المعترف بها** في المسيحية، فقراراتها تعدّ قوانين إيمانٍ عند أغلب طوائف المجتمع المسيحي، أما المجامع الإقليمية والخاصة فالاعتراف بقراراتها وعدها مصدراً تشريعياً معتمداً يختلف باختلاف الفرق المسيحية واختلاف الأقاليم التي عُقدت هذه المجامع فيها.

فالمجامع المسيحية في الفكر المسيحي **يُضفي وجودها نوعاً من الأحقية في التشريع الديني فيما لا يوجد فيه نص،** ومن هنا فإن الكثير من الشعائر الدينية تستند في مصدرية تشريعها إلى المجامع الدينية، وسأورد مثالين على ذلك:

- **اعتقاد أن مريم العذراء أم الإله** وبالتالي تقديسها، وأن هذه العذراء ولدت الإله يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة ومع الناس في الناسوت والطبيعة، وهذا الاعتقاد كان أحد قرارات مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م.(٤)
- **تقديس صور المسيح والقديسين،** ووضعها في الكنائس والأبنية المقدسة والبيوت والطرقات؛ لأن النظر إلى يسوع المسيح ووالدته والقديسين يُشعر بالميل إلى التفكير فيهم(٥)، لم يكن هذا الأمر شعيرةً معترفاً بها قبل انعقاد مجمع نيقية الثاني عام ٧٨٧م، ولما تم هذا المجمع صدر الأمر باتخاذ صور المسيح ووالدته كشعيرة دينية لها احترامها عند المسيحيين.

وأحياناً **تُشرّع المجامع بعض الإجراءات الطقسية للأسرار،** لكن **تبقى هذه الإجراءات مقتصرة على المكان أو الإقليم أو الطائفة التي عقد المجمع فيها ولأجلها،** فقراراتها ليست لها قوة قرارات المجامع المسكونية.

---

(١) راهب من الكنيسة القبطية، الديداخي (تعليم الرسل)، ص١٧١.
(٢) المرجع السابق، ص١٩١.
(٣) انظر: شنودة (زكي)، تاريخ الأقباط، ١٧٠/١
(٤) انظر: سلطان (سلطان)، المجامع النصرانية ودورها في تحريف المسيحية، ص١٠٦.
(٥) شلبي (رؤوف)، أضواء على المسيحية، ص١١٢.

ومن أمثلة ذلك، القرارات التي كانت تنتهي إليها المجامع القبطية التي كان يترأسها البابا (شنودة الثالث) المصري[١]، ومنها ما يلي:

جلسة ١٩٨٨/٥/٢٨: قرر المجمع المقدس أنه لا يرى مانعاً إطلاقاً من إقامة سر الزواج في فترة الخمسين المقدسة، وكذلك تكريس الكنائس والمذابح؛ لأنه لم يرد في قوانين الكنيسة ما يمنع هذا الأمر، والاحتفال بأفراح المسيح لا يمنع السيامات أي تنصيب الرُتب الكنسية.

جلسة ٢٠٠٤/٥/٢٩: ضرورة التزام الكاهن بقصر استخدام زيت مسحة المرضى لرشم المرضى، ويكون ذلك بيد الكاهن دون أن يُضاف إليه أي زيوت أخرى أو عطور أو حنوط، لأن هذا خاص بتكوين زيت الميرون.[٢]

تعقيب على قضية المصادر التشريعية للشعائر الدينية المسيحية:

بعد العرض السابق للمصادر التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية نخلص إلى ما يلي:

١- العناية بالمصادر التشريعية في الجانب المسيحي قليلة جداً، فلا نكاد نجد من اهتم بهذا العلم إلا القليل، ولا يحتل هذا العلم من مؤلفات المسيحية التي ذكرَته إلا صفحات قليلة جداً.

٢- مصادر التشريع الشعائري في المسيحية متعددة، فللنص مجال في التشريع ولأقوال الرسل وتقاليدهم أيضاً دور في إنشاء شعائر واقتراحها وإن لم ترد في الكتاب المقدس، ولرجال الدين من الأساقفة والشمامسة أيضاً دور مماثل لذلك عن طريق المجامع المقدسة، وهذا الأمر بلا شك سيؤدي إلى فوضى كبيرة في التشريع الديني.

٣- تعدد المصادر التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية وإعطاء رجال الدين صلاحية في إنشاء شعائر دينية واقتراحها كان له دور كبير في تفريق الصف المسيحي بين أتباع الديانة وأبناء طوائفها المختلفة واختلافهم في الكثير من الشعائر الدينية.

---

(١) ولد البابا شنودة الثالث سنة ١٩٢٣م، وكان اسمه نظير جيّد روفائيل، وهو بابا الإسكندرية، وبطريرك الكرازة المرقسية، ورقمه في تسلسل البابوات ١١٧، كان أول أسقف للتعليم المسيحي قبل أن يصبح بابا، وهو من الكُتّاب إلى جانب الوظيفة التي يشغلها، التحق بجامعة فؤاد الأول قسم التاريخ وتخرّج فيها، ثم درس في كلية اللاهوت، ورسم راهباً باسم (أنطونيوس السرياني)، وبعد أن تمت سيامته قساً أمضى عشر سنوات في الدير دون أن يغادره، وله الكثير من المؤلفات في علم اللاهوت وفي الشعائر والعبادات، وتوفي سنة ٢٠١٢م، انظر: https://ar.wikipedia.org/

(٢) للتوسع في القرارات الطقسية انظر: الأنبا متاؤس، القرارات المجمعية الخاصة بالطقوس الكنسية.

المبحث الثاني: المقاصد التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية

إذا تصفحنا الكتب المسيحية فإننا **لن نجد باباً خاصاً للمقاصد التشريعية للشعائر الدينية**، إنما **قد نجد معلومات متناثرة** في ثنايا هذه الكتب، وهذه المعلومات قد تعيننا على تشييد بناء مقاصدي للشعائر الدينية في المسيحية بصورة واضحة تعيننا على فهم التشريع المسيحي بأبعاده ومراميه وأهدافه.

ومن خلال النظرة التركيبية للمعلومات المقاصدية في الكتب المسيحية نجد **أن قضية المقاصد في المسيحية تتكوّن من ثلاثة مستويات هي المقاصد الأساسية والمقاصد الفرعية والمقاصد الجزئية**.

والمعيار الذي فُرِّقَ من خلاله بين المقاصد الأساسية والفرعية في المسيحية **يتألف من ركنين:**

الأول: صلة هذا المقصد بأصول الشريعة المسيحية.

الثاني: توارد كتب اللاهوت التي تضمنت معلومات عن الشعائر الدينية على الإشارة إليه.

وبناءً على ذلك فإن **المقاصد التشريعية الأساسية** في المسيحية هي **(الشركة في الطبيعة الإلهية والقداسة والخلاص وإظهار المجد والكمال الإلهي ونقل الديانة بين أتباعها)**.

و**المقاصد الفرعية** كثيرة لكن أهمها: **(نيل البركة والنعمة الإلهية والخَتْم وتحصيل مغفرة الذنوب).**

و**المقاصد الجزئية** هي المقاصد التي تصاحب عبادةً أو شعيرةً بعينها، ويمكن تسميتها بـ (الحكمة)

وفي معرض الحديث عن هذه المقاصد التشريعية في المسيحية أودّ أن أُشير أنه ليس بالإمكان إتمام عرض هذه المقاصد وإيضاحها بتجريدها عن صبغتها اللاهوتية المسيحية، بل **لا بد من ترك النصوص تُفصح عن مضامينها بذاتها.**

المطلب الأول: المقاصد التشريعية الأساسية في التشريع المسيحي:

أ. الشركة في الطبيعة الإلهية:

تشتمل بعض الشعائر الدينية في المسيحية على مقصد **شركة المسيحي للإله في الطبيعة الإلهية**، لا سيما القدّاس المعروف بالعشاء الرباني أو مائدة الشكر (الإفخارستيا)، فقد ورد في رسالة بطرس الثانية: "لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة" [بطرس٢: ١/٤][(١)].

ويرى المسيحيون أنهم بالقدّاس **يتحدون بالمسيح وببعضهم البعض وبالكنيسة في كل زمان ومكان**، فيكونون بذلك شعباً واحداً مدعواً إلى الاعتراف بسلطة إلهية واحدة في العالم أجمع[(٢)]، وهذه الشركة ليست في الناسوت وحده أو اللاهوت وحده، بل **شركة بالجسد** الذي به اتحد الله بالكلمة وسكن فيه وجعل كل مؤمن عضواً فيه.[(٣)]

إذاً **فليس المقصود بالشركة في الطبيعة الإلهية الاشتراك في الطبيعة البيولوجية**؛ لأن

---

(١) انظر: بباوي (جورج حبيب)، الشركة في الطبيعة الإلهية، ص١٥.

(٢) انظر: ليما (بيان)، المعمودية الإفخارستيا والكهنوت، ص٢٦.

(٣) انظر: بباوي، الشركة في الطبيعة الإلهية، ص٢١.

المسيحيين يرون أن المسيح لم يبذل جسده البيولوجي فداءً عن العالم، إنما بذل جسده المتحد بلاهوته، وهو الجسد الذي قيل عنه إنه " فيه يَحِلُّ كُلُ مِلْئُ اللاهوت جسدياً" [كولوسي: ٩/٢][١]، ومن الواضح أن الكلام السابق يوافق الاعتقاد بوحدة الوجود، وهو مذهب فلسفي يرى أن الله هو كل شيء، وكل شيء هو الله، وأن الله والعالم هما حقيقة واحدة وكيان واحد.[٢]

ب. الخلاص:

فلسفة الخلاص في المسيحية فلسفة معروفة، وهو كذلك مقصدٌ مهم من مقاصد التشريع لبعض الشعائر، يرى المسيحيون أن الله خلق الإنسان ونفخ فيه من روحه وأكرمه وجعله على صورته، وأقامه حراً وسيداً، وأراد أن يكون له شريكاً في مجده، لكن الإنسان زاغ وابتعد عن الحب الإلهي، وأراد أن يكون إلهاً دون الله، "بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر" [تكوين: ٥/٣].

من هنا **ابتعد الإنسان عن خالقه وسقط في عبودية الخطيئة التي تملّكت طبيعته،** فتغرّب الإنسان عن الحياة الحقيقية واندسَّ فيه الموت الروحي وكل نتائجه مثل الفساد والميل إلى الخطيئة وموت الجسد، **ولم يعد قادراً أن يحلّ بذاته قيود هذه العبودية**[٣]، والله الذي أحبّ الإنسان وخلقه على صورته لم يهمله عندما سقط، بل وعده بمخلّص، وقد حقق الله وعده بإرسال الأنبياء والرسل **وبتجسّد ابنه الوحيد في كمال الأزمنة ليفتدي الإنسان.**

ويرى المسيحيون أن ابن الله المتجسد (المسيح) قد صالح الإنسان مع الله عندما رُفع على الصليب وسُفك دمه وداسَ الموت وقام منتصراً، ففتح للإنسان من جديد أبواب الملكوت وصارت قيامته عربون خلاص المؤمنين به.[٤]

وورد في الكتاب المقدّس: "فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم، من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير" [يوحنا: ٥٣/٦-٥٤].

وكما هو مفهوم من الكلام السابق فإن نيل الخلاص المشار إليه إنما يتحصّل بأداء شعيرتين من الشعائر المسيحية هما (الإيمان بالمسيح وصلبه) و(تناول العشاء الرباني الأخير).

ت. القداسة:

معنى القداسة في المسيحية هو: "جعل النجس الخاطئ مقدساً تماماً"[٥]، فالمسيحيون يرون أن القداسة هي عمل النعمة الإلهية التدريجي في النفس المبررة بواسطة محبة المسيح، فالمؤمن يتطهر بالتدريج من فساد طبيعته، وتفصيل ذلك أن النفس المبررة مجرد تبرير يبقى فيها أصل فاسد، يميل بصاحبها دائماً إلى الخطيئة، فإذا خضع المؤمن لهذا التأثير وارتكب الشر بإرادته تلاشى تبريره، ومن هنا تنشأ الرغبة في استئصال هذا الأصل حتى يقلّ احتمال الارتداد إلى أقل حد، والذي يقوم باستئصال هذا الأصل الشرير في النفس هو القداسة.[٦]

فالقداسة إذاً هي تطهير الطبيعة من كل غرائز الخطيئة الأصلية، وهذا الأمر إنما يتم بأداء

---

(١) انظر: بباوي، الشركة في الطبيعة الإلهية، ص٢.
(٢) انظر: قريب الله (حسن الفاتح)، فلسفة وحدة الوجود، ص١٥.
(٣) انظر: يازجي (يوسف)، سر التوبة في الطقس البيزنطي، ص٥.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٥.
(٥) نور (جون)، القداسة في المسيحية، ص٩٣.
(٦) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

شعائر وأعمال التطهير والقداسة من المعمودية والصلاة والصوم وغيرها.[١]

ث. إظهار المجد والكمال الإلهي:

يرى المسيحيون أن **غاية الله من تشريع الكثير من العبادات والطقوس هي إظهار مجد الله وإظهار كمالاته الإلهية للكائنات العاقلة**، ولذلك خلق الناس وحفظهم بعنايته وافتداهم بموت ابنه، وأنعم عليهم ببركات لا تُحصى[٢]، وكذلك يرى بولس أن الميراث الذي يناله المسيحيون هو "لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب" [أفسس: ٦/١].

ويرى المسيحيون أن الحِكَم التي ينشدها الله من إظهار مجده للبشرية هي ما يلي:

١- أن **يعلن صفاته وطبيعته للمؤمنين به إعلاناً إيجابياً كلياً**.

٢- **إظهار محبته الفائقة للجنس البشري**.[٣]

ج. نقل الديانة بين أتباعها:

ويتجلى هذا المقصد التشريعي في الأمر بالبشارة، ويتم على مستويات متعددة أهمها:

- **نقل الديانة إلى روح الأطفال**: فحضور الطفل في أماكن إقامة الطقوس والشعائر ليس عبثاً، لأن ذلك يجذب انتباهه وعواطفه الغضة، فيتعلق بالديانة وما فيها من شعائر وطقوس.

- **نقل الديانة إلى النساء**: تمتاز النساء بصفة عامة بغنى العاطفة وقوتها، وشدة الميل إلى كل ما يثير هذه العاطفة، وإذا كانت الديانة ديانة وعظ وتعليم فقط فإنها لا تستثير انتباه المرأة كما تفعل في نفسها الديانة ذات الطقوس.

- **نقل الديانة إلى الجهلة والعوام**: يجد الجاهل في طقوس الكنيسة عوناً له على فهم الدين وإدراك معانيه.[٤]

المطلب الثاني: المقاصد الفرعية للشعائر والطقوس المسيحية:

أولاً: نيل البركة والنعمة الإلهية:

يرى المسيحيون أن كثيراً من الشعائر والطقوس والأسرار **يُقصد بإقامتها وإجرائها أن تكون وسائط ووسائل لنيل البركات والنعم الإلهية** التي لا تُنال بدونها، **فأسرار الكنيسة السبعة المعروفة هي من هذا القبيل**، وهي أعمال مقدسة ومنح إلهية مؤسسة من الله لتكون واسطة لنيل المؤمنين فيض النعمة والبركة الإلهية.

يقول (جاد المنفلوطي): "هذه الأسرار كانت تُمارس باعتبارها وسائط ينال الناس عن طريقها الخلاص، وكان الاعتقاد السائد أن لهذه الأسرار في ذاتها قوة حسية، أو قُل سحرية، تؤثر في نفوس الناس، وأنها تُؤدي بالعابدين الذين يمارسونها إلى الحصول على النعم الإلهية".[٥]

ثانياً: الختم:

وهذا المقصد يتم حين إقامة سر الميرون، كما كان العبيد يوسمون بعلامةٍ تدل على الملكية كذلك يحدث للمهيئين لنوال النعمة، فهم **يوسمون بعلامة الصليب ليظهروا أنهم ينتمون للمسيح جسداً وروحاً، والمقصود من هذا الختم إيقاظ الحواس الروحية، وهبة الروح القدس**

---

(١) انظر: كيرلس (كيرلس)، القداسات الثلاثة متقابلة مع الضبط والشرح، ص٢٥.
(٢) انظر: نوري (جورج)، إيمان المسيحي وواجباته، ص٣٩.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٤٢-٤٤.
(٤) انظر: غريغوريوس، علم اللاهوت الطقسي، ص٢٧-٣٥.
(٥) المنفلوطي، المسيحية في العصور الوسطى، ص١٠٦.

للمختومين به، يقول القديس (أمبروسيوس)[١]: "الله قد مسحك، الرب قد أعطاك علامة الختم، وقد وهبك عربون الروح القدس في قلبك، ومن ثَمَّ قد قبلت عطية الروح القدس في قلبك".[٢]

ثالثاً: تحصيل مغفرة الذنوب:

يرى المسيحيون أن الذين يدركون شناعة خطاياهم يحاولون استرضاء الله بوسائل حتى يغفر لهم، وأهم الوسائل **الصلاة والصوم والتوبة والصدقة،** ولا بد للفرد المسيحي أن يقرن أفعاله بنعمة الروح القدس وبذلك فإنها تُثمر قبولاً ومغفرة.[٣]

المطلب الثالث: المقاصد الجزئية للشعائر والطقوس المسيحية:

أشرت سابقاً إلى أن المقصود بالمقاصد الفرعية المقاصد التي تصاحب عبادة بعينها، ومثال ذلك (الصيام) و(الأعياد).

أولاً: الصيام: والمقصد من الصيام هو **الاستعداد النفسي ليتقبل المؤمن النعمة الإلهية بطهارة نفس ونقاوة قلب.**[٤]

ثانياً: الأعياد: والمقصد منها **إكرام الله تعالى بتذكر نعمته وبركاته الغزيرة التي أفاضها على بني الإنسان.**

فمثلاً الاحتفال بالميلاد يجدون بذلك ذكرى تكاد تكون محسوسة - على حدّ تعبيرهم - للطف الله، ويذكرون عمق محبته الفائقة لهم؛ لأنه تنازل وقدّم ابنه بذاته الكريمة فداءً عنهم[٥]، وعندما يحتفلون بأعياد القديسين، وتنطق ألسنتهم بتعديد مآثرهم وفضائلهم فإن ذلك يُجدد ذكرهم في عقول أتباع المسيحية، ويشعر المسيحي بالميل إلى التشبه بهم.[٦]

تعقيب على مسألة المقاصد التشريعية للشعائر الدينية المسيحية:

بعد العرض السابق للمقاصد التشريعية نخلص إلى ما يلي:

١- لم يحظ هذا مبدأ المقاصد التشريعية بالاهتمام والدراسة والشرح في المسيحية، ولا حتى بالتقعيد، والموجود منه في طيات كتب المقاصد إنما هو معلومات متناثرة لا تكاد تشكّل بمجموعها مبداً دينياً متيناً.

٢- ركّزت المقاصد التشريعية المسيحية على الجوانب الروحية وأهملت الجسم والنفس اللذين لهما أهمية لا تُنكر.

٣- بينما امتزجت المقاصد المسيحية بصيغ لاهوتية مجرّدة قد تحجب المعاني وتحول في

---

(١) ولد عام ٣٤٠م من أسرة تقية، وكان والده حاكماً لفرنسا في عهد قسطنطين الصغير، وكان أمبروسيوس منطلقاً من روما إلى ميلان ليستلم عمله كحاكم ميلان فأوصاه أحد أصدقائه قائلاً: لا تعمل كقاضٍ بل كأسقف، فتوجّه إلى أحد أصدقائه وطلب منه تعميده ففعل، ثم عُيّن أمبروسيوس كأسقف على ميلان، فاهتم بالوعظ والإرشاد وشرح الكتاب المقدس، وتُنسب إليه عدد من الأعمال التفسيرية للعهد الجديد والقديم ورسائل كثيرة تعالج موضوعات تاريخية وعقيدية وأخلاقية، توفي سنة ٣٩٧م، انظر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت: https://st-takla.org

(٢) كونيارس (أنتوني)، الروح القدس وسر الميرون، ص٢٦.
(٣) انظر: غريغوريوس، علم اللاهوت الطقسي، ص٥٥.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٦٢-٦٣.
(٥) انظر: المرجع السابق، ص٨١-٨٢.
(٦) انظر: مينا (ميخائيل)، علم اللاهوت، ص٨٢.

كثير من الأحيان دون الفهم الدقيق لها.

٤- دأبت المقاصد التشريعية في المسيحية تدور في فلكين، أولهما فلسفة الخلاص التي تصب أغلب الشعائر المسيحية ومقاصدها التشريعية في بوتقتها، وثانيهما فكرة التذكر واستحضار المواقف والشخصيات.

٥- تضمّنت المقاصد المسيحية مقاصد ربما لا تندرج ضمن المبدأ المقاصدي المنطقي، كمبدأ (نقل الديانة بين أتباعها)، فهذا المبدأ هو من قبيل الدعوة والتبشير المسيحية، مع أن بعض الباحثين المسيحيين أدرجوه ضمن المقاصد التشريعية، لكن الحكمة المقصدية منه حكمة دعوية، لذا فلا يصح أن يُدرج في مقاصد التشريع المسيحي.

المبحث الثالث: اختلاف الطوائف المسيحية في الشعائر الدينية

سبق البحث في قضية تعددية المصادر التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية، ويُلاحظ أن هذه التعددية تجاوزت حدود التوقيف النصي، بل لكل هيئة دينية وكنسية كامل الحق بإحداث شعائر دينية تنسبها للمسيحية بغضّ النظر عن مدى جدواها وعن الجمهور الذي سيؤمن بها ويُقيمها.

المطلب الأول: أسباب الاختلاف في الشعائر الدينية بين أتباع المسيحية:

لا شك أن الأمزجة الشخصية والأهواء النفسية متباينة بين عامة البشر، وعليه فإنه من غير المنطقي أن يكون لهذه الميول الشخصية والآراء البشرية دور في التشريع، إذ إن ذلك سيؤدي إلى فوضى عارمة كفيلة بتفريق الصف الديني بين الأتباع، وهذا بالضبط ما حصل في المسيحية منذ عهودها الأولى.

فالمجامع كانت تُصدر قرارات مهمة، ولا يكاد يصدر مجمع إلا عن تشريع جديد، وهذا الأمر لن يلقى قبولاً بين الرعية، بل إن الكثير من رعايا الكنيسة لا يؤمنون بقدسية المجامع، ومن هنا فإن حدوث الاختلاف يغدو أمراً مؤكداً.

وكذلك فإن للاختلاف بين المسيحيين في الشعائر الدينية أسباباً أخرى، من أهمها قضية **الثبوت التاريخي لفعل المسيح** عليه السلام **وقضية التأويل،** وكلٌ من القضيتين السابقتين يُشكّل عنصراً فعالاً في زيادة الشرخ الديني والاعتقادي والفكري.

أما **قضية الثبوت التاريخي لفعل المسيح** فقد شكلت عاملاً مهماً في زيادة الخلاف وتأجيجه، ومعناها أن **اعتبار شعيرة كتابية منسوبة إلى السيد المسيح يتطلب قيام المسيح بهذه الشعيرة، ومجرد الإشارة النصية لها أو الأمر الاستحبابي بها لا يعني كونها شعيرة** ولها أهمية، وهذا الاعتبار **مقتصر على الطائفة الإنجيلية البروتستانتية،** فالأمور التي لم يثبت فعل المسيح لها فإنها ليست شعيرة معتبرة عنه، وتقتصر الشعيرة الكتابية فيما ورد فيه نص يثبت فعل المسيح لها.

ومن هذا القبيل الاختلاف الواقع في موضوع الشعائر الأساسية (الأسرار والفرائض) بين الكاثوليك والأرثوذكس من ناحية والبروتستانت من ناحية ثانية، إذ **يرى البروتستانت أن الشعائر الأساسية التي ثبت في الكتاب المقدّس فعل المسيح لها تنحصر في المعمودية والإفخارستيّا،** أما باقي الأسرار فلا جدوى لاعتقادها؛ إذ لم يثبت فعل السيد المسيح لها.

وأما **قضية التأويل** فهي أيضاً من أهم أسباب الاختلاف في الشعائر الدينية، إذ التأويل هو العدول عن المعنى القريب أو الظاهري إلى معنى بعيد غير ظاهر لقرينة أو دليل يقتضي هذا العدول، فبعض النصوص ربما يقتضي العدول، وهذا **الاقتضاء أيضاً هو محل خلاف** بين الطوائف المسيحية.

وبتطبيق هذه القاعدة على الشعائر الدينية في المسيحية سيتضح **الاختلاف حول مفرداتها؛ لأن الأفهام البشرية تتدخل في تحديد المعنى المراد تأويله،** ومثال ذلك **شعيرة العشاء الرباني** (الإفخارستيّا)، فاعتبار هذه الشعيرة مقدسة ومؤسسة من المسيح عليه السلام هو محل إجماع بين الطوائف المسيحية كافةً، لكن اعتبار فاعليتها يختلف بين هذه الطوائف؛ وذلك تبعاً لاختلافهم في تأويلها أو حملها على ظاهرها، **فالكاثوليك والأرثوذكس يرون أن هذه الشعيرة ظاهرية حقيقة لا يصح تأويلها،** فالمسيح عبّر عن حقيقة هذا السر بتشبيه الخبز المكسور بجسده والخمر بدمه وأمر بأكل هذا الخبز المغموس بالخمر مشيراً إلى التحول الحقيقي لهذين الصنفين

إلى جسد المسيح ودمه في كل مرة، أما **البروتستانت** فهم **يحملون فعل المسيح لهذا السر على التشبيه، والأمر به على سبيل التذكّر.**

مما سبق نستطيع تحديد أسباب الاختلاف بين الطوائف المسيحية في اعتبار الشعائر الدينية في ثلاث نقاط هي:

١- سلطة رجال الدين من خلال المجامع في سنّ وإنشاء شعائر دينية.
٢- قضية ثبوت فعل المسيح تاريخياً للشعيرة.
٣- التأويل والخلاف حول اقتضاء النصوص له.

ونظراً لمواطن الاختلافات الحاصلة بين الطوائف المسيحية نستطيع تقسيم محاور الاختلاف فيما يخص الشعائر العملية إلى محورين:

١- محور الشعائر الكبرى (الأسرار والفرائض).
٢- محور الشعائر الثانوية.

المطلب الثاني: اختلاف الطوائف المسيحية في الشعائر الكبرى الأساسية (الأسرار والفرائض):[١]

الشعيرة	الأرثوذكس	الكاثوليك	البروتستانت
الأسرار: أ. تعريفها ب. أهميتها ت. فاعليتها ث. عددها ج. ممارستها	نِعَمٌ غير منظورة تُعطى للمؤمنين تحت علامات منظورة. لازمة للخلاص ولمواهب الروح القدس. لها فاعلية كبيرة. عددها سبعة هي: العماد الميرون الاعتراف التناول مسحة المرضى الزواج الكهنوت. القساوسة والأساقفة الذين تمت سيامتهم بوضع يد أسقف	كالأرثوذكس	لا أهمية لها ويمكن الخلاص بدونها، وبعض فرق البروتستانت يمارسون بعضها كالأسقفيين والمشيخيين ولكن ليست بالمفهوم الأرثوذكسي، وفاعليتها عندهم ليست بذاتها ولا بخادمها بل بمجرد بركة المسيح وفعل الروح القدس، ووضع اليد ليس

(١) مراجع المقارنة هي:
١- عبد السيد، الفروق العقيدية بين المذاهب المسيحية، ص٢٠-٢٩.
٢- رستم، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم، ص٦٤، ٦٦.
٣- دادو (محمود)، حركة الإصلاح الديني عند "جون كالفن" وأثره في المجتمعات الأوربية في بداية العصر الحديث – دراسة تحليلية نقدية من منظور إسلامي، رسالة مقدمة في جامعة دمشق لنيل درجة الماجستير في العقائد والأديان سنة ٢٠١٦، ص٢٠٧.
٤- جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٧٨.

	عليهم		شرطاً. وعددها عند عموم البروتستانت اثنان.
المعمودية	سر يحصل به المعمّد على نعمة الميلاد الجديد لكل من يدخل حظيرة الإيمان، ويتم بالتغطيس	يجوز العماد بالرش وبالسكب	علامةٌ يجوز ممارستها بالرش أو التغطيس عند بعضهم، ولا عماد للأطفال.
الميرون	سر به ينال المؤمن موهبة الروح القدس بوضع اليد، ويعطى بعد المعمودية فوراً عن طريق زيت الميرون، ويتم برشم المعمّد ٣٦ رشمة على جميع مداخل جسمه ومخارجه ومفاصله.	كالأرثوذكس ولكن لا يتم فور المعمودية للأطفال، بل ما بين سن السابعة والثانية عشر ليشتركوا فيه بعقل بالغ ومعرفة كافية.	لا تؤمن بها عدا بعض الفرق كالأسقفيين، ولكنهم لا يتممونه بالزيت بل بوضع اليد فقط.
التوبة	سر يمنح به الله الخاطئ الذي يتقدم إلى أب الاعتراف نادماً على شروره الحل منها، وقد تُفرض عليه بعض قصاصات تأديبية لإصلاح حاله بمنزلة عقاقير طبية لمعالجة الروح والنفس.	تعدّ أن القصاصات الكنسية يقصد بها وفاء العدل الإلهي، وتصدر صكوك غفرانات عن الخطايا الماضية والمستقبلية، وللأسقف سلطان على حل بعض الخطايا، وللقس سلطان الحل من البعض الآخر.	لا اعتراف إلا أمام من أخطأ المؤمن في حقه أو أمام الكنيسة كلها جهرة، والغفران يكون من الله مباشرة عن الخطايا الماضية والحاضرة والمستقبلية.
التناول (العشاء الرباني)	سر يأكل فيه المؤمن جسد المسيح ويشرب دمه الحقيقيين اللذين يقدمان على شكل خبز مختمر (لا فطير) وخمر، وللأطفال حق التناول بمجرد معموديتهم ورشمهم بزيت الميرون المقدس، ولا يجوز	بدأت منذ القرن ١١ إتمامه بفطير أو بأقراص، كما تمنع الشعب من التناول الدم، وتُؤجل تناول الأطفال من الجسد والدم، كما تؤجل ممارسته حتى يُشرف المريض على الموت، ويسمى المناولة	لا تحوّل للخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وقد يحضر المسيح في القداس رمزياً، كما يؤمن البعض بأن ممارسته وقتية وغير ملزمة، ولا فاعلية للسر في ذلك، بل يتوقف على إيمان

	إقامة أكثر من قدّاس على مذبح واحد وبأواني مقدسة واحدة إلا بعد مرور تسع ساعات على الأقل على القداس الأول، كما يُشترط الصوم الانقطاعي لنفس المدة قبل التناول.	الأخيرة، ويمكن إقامة أكثر من قداس واحد بنفس الكاهن وعلى نفس المذبح والآواني في اليوم الواحد، ولا داعي للصوم أثناء ممارسته.	الشخص المشترك فيه.
مسحة المرضى	هو سرٌ يُمسح فيه المريض المؤمن بزيت مقدّس لشفاء أمراض الروح والجسد والنفس.	تُؤجل ممارسته حتى يُشرف المريض على الموت، ويُسمى سر المسحة الأخيرة.	يُمارس عند بعض الطوائف كـ (الأسقفية) بوضع اليد ولا يعدّ سراً، ولا غفران للخطايا بواسطته.
الزواج	سرٌ ينال به الزوجين نعمة الارتباط، ولا طلاق إلا لعلة الزنا، ولا زواج بالمطلقات أو بمختلفي الديانة أو الطائفة، أو عن طريق غير الكاهن.	لا تسمح بالطلاق حتى لعلة الزنا، وتكتفي بالتفريق الجسماني بين الزوجين، ويجوز الزواج بين الكاثوليكي وغيره من المسيحيين.	لا تعدّه سراً مقدساً، بل هو ارتباط دنيوي، فلا علاقة للجسد بالله.
الكهنوت	هو سر يضع فيه الأسقف يده على رأس المختار للخدمة لانسكاب النعم الإلهية عليه لتقديسه وتكريسه ومساعدته على إتمام واجباته، وله ثلاث رتب هي الأسقفية والقسيسية والشماسية، والرئيس الأعلى للكهنوت البابا والبطريرك، ويشكل البابا مع المطارنة والأساقفة (المجمع المقدس) وهو الهيئة العليا في الكنيسة.	كالأرثوذكس وللبابا السلطان أن ينقل جزاء الأعمال الصالحة عند الله من شخص لآخر، وله إصدار صكوك الغفران، والتأديب الذي يأمر به هو ورجاله على المخطئين غايته التكفير عن خطاياهم، ويحرم على جميع رتب الكهنوت الزواج، ومجمع الكرادلة برئاسة البابا هو الهيئة العليا للكنيسة، وتحت رئاسة	لا كهنوت عند البروتستانت، وبعضهم كالكالفينيين يعتقدون بالكهنوت العام لجميع المؤمنين.

		البابا بطاركة، وتحتهم المطارنة والأساقفة والقسوس.	

المطلب الثالث: اختلاف الطوائف المسيحية في الشعائر الثانوية:(١)

الشعيرة	الأرثوذكس	الكاثوليك	البروتستانت
العذراء	ولدت بالخطيئة وتطهرت بعد بشارتها بالميلاد، وصارت أم الإله، وظلت بتولاً بعد ولادتها، وتكرّمها الكنيسة، وتعيد لها تذكارات عديدة.	كالأرثوذكس لكن تبالغ في تكريمها وتعتقد أنها ولدت بلا دنس الخطيئة.	ينكرون عليها لقب أم الإله اكتفاءً بأنها أم المسيح، وينكرون استمرار بتوليتها بعد ولادتها للمسيح.
الشفاعة	تكرّم جميع القديسين والشهداء، وتتشفع بصلواتهم سواء كانوا منتقلين أم أحياء، وشفاعتهم التوسلية غير شفاعة المسيح الكفارية التي يختص بها.	كالأرثوذكس لكنهم مع ذلك يقدّسون تماثيل القديسين والشهداء.	لا شفاعة للعذراء والقديسين إلا شفاعة يسوع الكفارية، ولا تقديس لصورهم أو أيقوناتهم أو رفاتهم أو تماثيلهم.
الأعياد	تحتفل بميلاد المخلص وقيامته وصعوده وتذكار نياحة واستشهاد القديسين وظهور الملائكة إكراماً لهم.	كالأرثوذكس	لا داعي للاحتفال على المستوى الكنسي.
يوم الرب	للأحد كرامة خاصة كيوم مقدس للرب باعتباره السبت الجديد للمؤمنين بعد تجديدهم بقيامة المسيح من بين الأموات التي تمت في فجر الأحد، وظهوراته المتكررة فيه لتلاميذه، وحلول الروح القدس عليهم فيه.	كالأرثوذكس	كالأرثوذكس والكاثوليك لكن منهم من يعدّ أن كل الأيام مقدسة، أو يحفظ الأحد بقدر ما تسمح به أوقاتهم وليس كأمر إلهي مفروض.
الرهبنة والبتولية	البتولية درجة ملائكية عالية والرهبنة تكريس للبتولية تقوم على أربعة	كالأرثوذكسية وقد تكون الرهبنة كارزة – أي مبشِّرة - خارج	لا رهبنة ولا أديرة ولا امتناع عن الزواج، والبتولية روحية لا

(١) مراجع المقارنة هي:
١- عبد السيد، الفروق العقيدية بين المذاهب المسيحية، ص٣٢-٣٨.
٢- رستم، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم، ص٦٥، ٦٦.
٣- درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٥٩٠.

	أسس: التجرد، العزلة، الفقر الاختياري، عدم الزواج، والرهبنة دراسة وخدمة داخل الأديرة فقط، ومنها ما هو للرجال وما هو للنساء.	الأديرة	جسدية.
الصوم	نوعان: عام حددته القوانين الكنسية وشرطه الأساسي الانقطاع عن الطعام والشراب إطلاقاً مدة من الزمن تبدأ من غروب شمس اليوم، ثم الافطار على مأكولات خالية من الدسم الحيواني، وكذا قبل التناول ومعظم الأسرار. وصوم خاص واختياري يحدده المؤمنون بالاتفاق مع أب الاعتراف والمرشد الروحي كتدريب روحي للسمو الروحي وضبط الجسد، وتحرّم الكنيسة أكل المخنوق والدم وما ذُبح للأوثان.	لا مانع من أكل السمك وشرب الخمر في يومي الأربعاء والجمعة من الصوم الأربعيني المقدس، وأكل اللحم على مدار السنة كلها، وكذا الدم والمخنوق، ولا صوم قبل التناول.	لا صوم إلا اختياراً ولسبب معين يحدده الفرد.
الصلاة	عامة كالقداس الإلهي وصلوات الأجبية السبعة اليومية وعند الأكل والنوم وبعد كل عمل من الأعمال اليومية، ويتجهون ناحية الشرق عند صلواتهم ويتلون الصلاة الربانية في كل صلاة.	كالأرثوذكسي وهناك صلوات خاصة شفاعية بقلب يسوع وقلب العذراء مريم لعدد من المرات كل يوم لغفران خطايا الفرد.	لا قداسات بل هي صلوات تعبدية بلا رشم الصليب وبدون تقييد في الاتجاه نحو الشرق وبغير ترديد للصلاة الربانية.
البخور	تقدم في الصلوات رفع البخور عشية وباكر وفي القداسات وممارسة الأسرار وفوق المذابح وأمام الأيقونات وحول الشعب، وللمبخرة رموز روحية كثيرة.	كالأرثوذكسي	ليس الله في حاجة إلى البخور وهو رجس عند الرب إذ هو يُقدّم للشيطان كما يقدمه الوثنيون لأصنامهم
الألحان	تستخدم ألحان خاصة في	كالأرثوذكس	ترفض الألحان

	طقوسها وصلواتها، تصحبها أناشيد باللغات المحلية.		الكنسية وتستبدلها بنغمات خاصة في الترنيم الخاص بها.
مباني الكنيسة	الكنيسة هي بالمعنى المادي فقط، وهي المبنى، وتُقام على أحدث الأنظمة، وتُفرش بأفخر الأثاث باعتبارها بيت الله، وتُزيّن بالصور والأيقونات للمسيح والعذراء والملائكة والقديسين والشهداء، ويمكن إقامة مذابح متنقلة في أماكن يراد الصلاة فيها، ولا صلاة بالكنائس إلا بعد تدشينها بطقوس وصلوات خاصة.	كالأرثوذكسية وتزدان كنائسها أيضاً بالتماثيل.	لا أهمية للكنيسة المادية، والمعتبر عندهم هي الكنيسة بمعناها الروحي فقط، وأغلب طوائف البروتستانت يعدّون الكنيسة الحقيقية تتمثل في جماعة المؤمنين لا أكثر.

المبحث الرابع: أسباب تطور الشعائر الدينية و آليته

إن مما هو بديهي أن الشريعة المسيحية تتصف بالتطور والتغيّر، وهذا التطور موجود في أصول الديانة كما هو في الفروع، فالتطور إذاً على الصعيدين العقائدي (الأصول) والتشريعي (الأحكام والشعائر الكبرى والثانوية)، ولقد تقدّم الحديث عن سبب من أسباب التطور في المسيحية وهو التشريعات الشعائرية التي أضافها رجال الدين عن طريق المجامع المقدّسة، وكتابات الآباء القديسين وغيرها.

لذا فمن الطبيعي أن توجد عقيدةٌ ما على صورة معينة وفكرةٍ ما ثم يطرأ عليها التعديل والتغيير الذي يُعبّر عنه بـ (التطور)، لكنه في الحقيقة **خروج عن حقيقة الفكرة وهدي الرسالة، وسيتضح هذا الأمر.**

فموضوع التغير والتحول والتطور في المسيحية هو أمر طبيعي، وربما يرى المسيحيون أن هذا الأمر يعطي الدين نوعاً من المرونة لمناسبة مختلف المجتمعات والأطوار والأزمنة، إلا أن هذا الأمر في حقيقته **تحريف للدين الإلهي واختلاق على السيد المسيح،** ولا سيما أن المرونة في أصول الدين تجعل منها قبلة للتغيير والنسف، ثم الاختلاف والتنازع حولها، ثم التفرق والتفسيق والتكفير، وهذا ما أدت إليه نسبية المرونة في التشريعات والعقائد المسيحية.

ومن الضروري أن نبدأ الحديث في هذا المبحث بالكلام على أسباب التطور في المسيحية وشعائرها ليتضح لنا السبب الذي حدا بها إلى الصورة الراهنة لها.

المطلب الأول: أسباب التطور في الشعائر المسيحية:

للحديث عن أسباب التطور في المسيحية يجب تقسيم الكلام إلى فرعين، (أسباب تطور قديمة) و(أسبابٌ خاصة) بالقرون الوسطى مروراً بعصر الإصلاح الديني فالنهضة الحديثة.

أولاً: الأسباب القديمة لتطور المسيحية وشعائرها:

السبب الأول: بولس الرسول وتأثيره في المسيحية:

تحتل شخصية بولس أهمية كبيرة في الفكر المسيحي؛ كونها شخصية عالمية يعيش الملايين من الجماهير المسيحية على تراث هذه الشخصية وأفكارها وعقيدتها.

أ. اسمه ومولده ونشأته ووفاته:

اسم بولس الأصلي هو شاول أو (**شاؤول**)، وهناك اختلاف في سنة ميلاده، ولعل الراجح أنه وُلد في السنة العاشرة من الميلاد، وجنسيته مختلف فيها أيضاً، فتارة يقول إنه **طرسوسي،** وتارة يقول **فريسي،** وأخرى يقول **روماني** (١)

ولد بولس في طرسوس، وكوّن فيها فكره العقدي والثقافي في مجتمع يعج بالفلسفة الرواقية وتملأ جوه الفكري الفلسفة الهلينستية (الرومانية القديمة)، وكانت فكرة موت الإله وبعثه وفكرة الخلاص تملأ الجو الديني في المجتمعات الوثنية.

يتحدث الشيخ محمد أبو زهرة عن صفات بولس وأثرها فيرى أن بولس **امتاز بثلاث صفات** جعلته في الذروة من الدعاة إلى المبادئ والعقائد، الصفة الأولى أنه كان **نشيطاً دائم الحركة،** ذا قوى لا تكلّ ونفسٍ لا تمل، الصفة الثانية أنه كان **ألمعياً شديد الذكاء،** بارع الحيلة قوي الفكر، الصفة الثالثة أنه كان **شديد التأثير في نفوس الجماهير،** وبهذه الصفات الممتازة وبهذه القدرة

---

(١) انظر: الحاج (محمد)، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٤٢، ومايز (ف.ب)، حياة بولس، ص٢٤.

استطاع أن يجعل نفسه محور الدعاة للمسيحية، وأن يفرض ما ارتآه على المسيحيين، فيعتنقوه ديناً، وبهذه الصفات القوية استطاع أن يحملهم على نسيان ماضيه، وأصبحت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعه منسوبة إليه.[١]

حُكِم بولس أمام محكمة **(نيرون)**، التي قضت عليه بالإعدام بسبب اتهامه بالخيانة والثورة على نظام الدولة، حيث حُكم عليه أن يُقطع رأسه، وتم تنفيذ الحكم سنة ٦٦م.[٢]

ب. تحول بولس إلى المسيحية:

يروي لوقا قصة تحول بولس، وفيها: "اقترب إلى دمشق وبغتة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي تضطهده، صعب عليك أن ترفس مناخس، فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال الرب: قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل" [أعمال الرسل: ٩/١-٦]، ومضى بولس **يعدّل في العقائد والشعائر المسيحية**، وخلطها بعقائد الرومان واليونان والمصريين القدماء وغيرهم، ولما فعل ذلك اختلف معه الحواريون وعلى رأسهم برنابا، وانفصلوا عنه.[٣]

ت. نشاط بولس التبشيري بالمسيحية:

بعد أن قبل الحواريون بولس بينهم كان **كثير الجد والدأب في نشر الدين** والتبشير بالمسيحية، وصار رأساً فيها يبني الكنائس ويطوف البلاد شرقاً وغرباً يدعو إليها، ويرسل الكتب والرسائل التي يشرح فيها دعوته، حتى غدت هذه الرسائل والكتابات مقدسةً ضمن الكتاب المقدّس[٤]، ولم يبين سفر أعمال الرسل – الذي كُتب خصيصاً ليحكي قصة بولس – على من تلقى بولس مبادئ المسيحية، مع أنه ما رأى المسيح قط.

ولعل المسيحيين يعتقدون أن بولس لم يكن بحاجةٍ إلى تلقي تلك المبادئ؛ لأنه **انتقل من مرتبة الكافر المناوئ للمسيحية إلى مرتبة الرسل المبشرين بها**، فصار ملهماً ينطق بالوحي في اعتقادهم، ويرى الباحثون أن **عداوة بولس للمسيحية هي التي دفعته أن يتظاهر بالدخول فيها، فقد** رأى أن التنكيل بالمسيحيين وتعذيبهم لن يجدي نفعاً فاتخذ لنفسه مع المسيحية أسلوباً آخر واستمر في حربها بسلاح الهدم من الداخل بإفساد معالمها وطمس مظاهرها، ولعل حدوث مثل هذه الظاهرة كثير في الأديان

ث. إضافات بولس على العقيدة والشريعة المسيحية:

إذا أردنا الحديث عن الإضافات العقائدية والشرعية البولسية على العقيدة والشريعة المسيحية فإنه يجب التفريق بين ثلاثة أصعدة من التأثير البولسي ليتضح الأثر بشكل جيد.

١- الأثر البولسي في الأصول العقائدية:

كان لبولس أثر في أصول العقيدة المسيحية، فقرر بعض العقائد التي أصبحت أهم العقائد في

---

(١) انظر: أبو زهرة (محمد)، محاضرات في النصرانية، ص٦٨-٦٩.

(٢) انظر: وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط٢، ١٣٤٣ه، ٤١٨/٢، ووافي (علي)، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص٨٦.

(٣) انظر: العثماني (محمد تقي)، ما هي النصرانية، ص١٧٤-١٨٠، وصالح (سعد الدين)، مشكلات العقيدة النصرانية، ص٥٨-٥٩.

(٤) انظر: كركور (محمد)، تطور العقيدة المسيحية بين عيسى عليه السلام وبولس، ص٢٠٥.

المسيحية، تتحدد في النقاط التالية:

- **عقيدة الثالوث المقدّس:** أراد بولس أن **ينشر المسيحية في أرجاء الإمبراطوريات غير اليهودية من الوثنيين كاليونان والرومان،** إلا أن هذه الشعوب لن تقتنع إلا بما ينسجم مع عقيدتها السابقة، فحاول بولس أن **يجمع بين العقيدة المسيحية والعقائد الوثنية ليحاول تسويغ العقيدة المسيحية بين الوثنيين،** وإننا إذا **تفحصنا مسألة الثالوث المقدس وجدنا لها نسخاً مطابقة تماماً عند كثير من الوثنيين، كالميثراسية** – وهي الديانة الوثنية التي كانت منتشرة في حوض المتوسط - و**الهندوسية – ديانة الهند التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد -** وغيرها.(١)
- **عقيدة البنوة:** حاول بولس أن يقرّب المسيحية إلى عقول الوثنيين بتصوير عيسى عليه السلام أنه ابن الله الوحيد، والمخلص للبشرية، بحيث لا يكون التحول من الوثنية إلى المسيحية يعني الدخول في جوٍ غريب.(٢)
- **عقيدة التجسد والصلب من أجل الخلاص وكفارة عن خطايا البشر:** آمن المسيحيون بأن عيسى هو المسيح الموعود، وطوّر بولس هذه العقيدة، فزعم أن المسيح هو ابن الله نزل إلى الأرض ليقدّم نفسه قرباناً على الصليب تكفيراً عن خطيئة البشر التي ارتكبها آدم عليه السلام، فما موت المسيح إلا تضحية عظيمة من إلهٍ عظيم لخلاص البشرية.(٣)
- **القيامة والدينونة.**

٢- أثر بولس في الشعائر الشرعية المسيحية: تتحدد أهم الإضافات البولسية بالنقاط الآتية:

- **إبطال الناموس:** حين كانت **تعاليم المجتمعات الوثنية لا تتلاءم مع تعاليم الشريعة اليهودية** في العبادات والحياة العملية **أعلن بولس أن تعاليم الناموس قد نُسخت بتعاليم المسيحية،** وأن السيد المسيح جاء ليبدّل عهداً قديماً بعهدٍ جديد(٤)، ولم يستثن منها غير أحكام حرمة ذبيحة الصنم وحرمة الدم والمخنوق وحرمة الزنى
- **تحليل شرب الخمور.**
- **إلغاء شريعة الختان.**

٣- أثر بولس في المصادر المقدسة للديانة المسيحية:

أضاف بولس على المصادر المسيحية مجموعةً من الرسائل بلغ عددها أربع عشرة رسالة، واحتلت هذه الرسائل مكانةً مرموقةً مقدسة تضاهي الأناجيل المقدسة، بل تزيد عليها كثيراً؛ إذ غدت هذه الكتابات مصدراً أساسياً معتمداً قبل جميع الأناجيل.(٥)

ولقد كان من أهم الإضافات التي جاء بها بولس على المسيحية مسألة **عالمية الرسالة**

---

(١) للتوسع انظر: حلاق (ثائر)، العناية الإلهية ومشكلة الشر في العالم، ص٣١٨، والعاملي (محمد علي برو)، الكتاب المقدس في الميزان، ص٣٣٥، وبريستيد (جيمس هنري)، فجر الضمير، ص١٠٩، ونايتون (أندريه) ووينـد (إدغارد) ويونغ (كارل غوستاف)، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٤٤، والبار (محمد علي)، دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية، ص٢٨٢.

(٢) انظر: صالح، مشكلات العقدة النصرانية، ص٧٤-٧٥.

(٣) انظر: عبد العال (حمدي)، الملة والنحلة في اليهودية والمسيحية والإسلام، ص١١٦.

(٤) انظر: جنيبير (شارل)، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٠٤.

(٥) انظر: شلبي، مقارنة الأديان، ص١١١.

المسيحية، حيث نقلها من دين محلي إلى دين عالمي[١]، مع أن السيد المسيح اعترف أنه ما أُرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل "فأجاب وقال لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" [متى: ١٥/٢٤]، وفكرة عالمية الرسالة كانت نقطة تحوّل مهمة في تاريخ المسيحية؛ لأن فتح باب الديانة لجميع الأمم ألزم بولس أن يُدخل عليها إضافات وتعليمات أخرى تُزيل الهوة بين ديانة بني إسرائيل وأفكار الأمم الوثنية المختلفة.[٢]

السبب الثاني: اضطهاد أتباع المسيحية المسيحية:

من المعلوم تاريخياً أن الديانة المسيحية عانت من الاضطهاد ردحاً كبيراً من الزمن، وكان هذا **الاضطهاد على مستويين،** الأول **اضطهاد اليهود والوثنيين للمسيحية،** والثاني **اضطهاد أتباع المسيحية بعضهم لبعض،** ولا يخفى أن لهذا الاضطهاد دوراً كبيراً في تطور الديانة المسيحية، وربما الأصح أن نعبّر عنه بالانحراف عن منهج السيد المسيح والديانة السماوية.

١- اضطهاد اليهود والوثنيين للمسيحية:

اتبع المسيح في حياته على الأرض عدد قليل من اليهود، وبعد نهاية وجوده على الأرض شهدت المسيحية تحول بولس إلى أهم ناشري المسيحية، فنشرها بين الأمم (الرومان)، وفي الوقت نفسه عمل (بطرس)[٣] على نشر المسيحية بين اليهود.

تعرضت المسيحية للإضطهاد من قياصرة روما، لكن بعد أن تحول (قسطنطين) عن الوثنية إلى المسيحية **أصبحت المسيحية دين الدولة الرومانية،** وتحولت المسيحية في الغرب عندها إلى ديانة الدولة، ولكن بقيت العديد من الكنائس الشرقية والإصلاحية فيما بعد بعيدة عن تأثير روما وتعرضت للاضطهاد على يد الكنيسة الغربية (الرومانية).

في القرن الأول كان اليهود أشد الناس عداوة للمسيحيين، ولما بدأت المسيحية بالانتشار رفض المسيحيون تأليه الإمبراطور الروماني، ورفضوا الخدمة في الجيش الروماني، فنظرت الحكومة الرومانية إليهم كفرقة تهدد كيان الإمبراطورية.[٤]

وبدأ اضطهاد الدولة الرومانية للمسيحيين في **عام ٦٤م على يد الإمبراطور (نيرون) حتى وفاته ٦٨م،** وعرف بالاضطهاد الأول، وذاق فيه المسيحيون كل مايتبادر إلى الذهن من أصناف التعذيب، وكان من ضحاياه (بولس وبطرس)[٥]، وينقل الشيخ (عبد الرحمن حبنكة): أنه في عهد الإمبراطور (نيرون) لفّق للمسيحيين تهمة إحراق مدينة روما، فأنزل بهم ألوان العذاب وتفنن في ذلك، وكان يحكم عليهم بالقتل الجماعي، ومنذ ذلك الحين بدأ اضطهاد الرومان للمسيحيين يأخذ طابع العنف الجماعي.[٦]

---

(١) انظر: يوسف (عبد العزيز)، أديان ومذاهب معاصرة، ص٢١.

(٢) انظر: كركور، تطور المسيحية بين عيسى وبولس، ص٢١٢.

(٣) هو القديس بطرس الرسول كبير رسل المسيح الاثني عشر، تعدّه الكنيسة الكاثوليكية أول البابوات، كان يعمل بصيد السمك، واسمه الأصلي (سمعان)، هيمن على مقدّرات الكنيسة المسيحية طوال خمسة عشر عاماً بعد المسيح، وترأس الجماعة المسيحية الأولى، واتخذ طريق التبشير بالمسيحية مهمةً أساساً في حياته، توفي في عهد نيرون، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص١٠٦.

(٤) انظر: الطويل (توفيق)، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ص٤٨.

(٥) انظر: عبد السلام (ماجد)، العلاقة بين الدين والدولة في اليهودية والنصرانية والإسلام، ١٩٩٥، ص٤١٢.

(٦) انظر: حبنكة الميداني (عبد الرحمن)، كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، ص٣٠، ولم ينقلها الشيخ عن أي مرجع.

أما **الاضطهاد الثاني فقد تم بين عامي ٨١ – ٩٦م زمن الإمبراطور (دوميتيان)**[١]، وكان طاغية متكبراً يدعو ذاته (رباً)، واعتبر اعتناق المسيحية جريمة ضد الدولة، وحكم عل كثير من المسيحيين بالموت، ومن بينهم أقربائه، ومن بين شُهداء هذا العصر (سمعان) الأسقف الذي جلس على كرسي أورشليم خليفة للقديس يعقوب الرسول، مات مصلوباً، والقديس يوحنا الرسول الذي عُذِّب بالزيت المغلي ثم نُفِيَ إلى الجزيرة اليونانية (بطمُس) حيث رأى رؤياه وسجلها في سفر الرؤيا، وهذا رأي المسيحيين، ويرى بعض علماء الإسلام أن وفاته كانت بعد هذا التاريخ.[٢]

وفي عصره صدر قانون: **"لا يُفرج عن مسيحي أمام المحكمة ما لم يجحد دينه"**، وكان يُلقى باللوم على المسيحيين بسبب أي مجاعة أو زلزال أو وباء يحدث في البلاد، ثم قُتل دومتيان علي يد اعدائه ومحا مجلس الشيوخ اسمه من سجل الأباطرة.[٣]

وخلال القرنين الثاني والثالث انتشرت المسيحية بعمق في القسم الشرقي من الإمبراطورية، واستمرت الكنائس الثلاث إنطاكية وروما والإسكندرية في تطورها، لكنها تعرضت في هذين القرنين إلى اضطهادات كثيرة، وكان **الإمبراطور (تراجان)** الذي حكم منذ سنة ٩٨م - ١١٧م **أول إمبراطور أعلن أن المسيحية ديانة محرمة** ليضع حداً لانتشارها، وفي عهده كتب يوحنا إنجيله، وقد اضطهد المسيحيين بغِلظة حتى غدا عصره أشد عصور الاضطهاد.

وشهد القرن الثالث صوراً أخرى من أبشع ألوان التعذيب والاضطهاد للمسيحيين، وذلك في **عهد الإمبراطور (دقلديانوس)**، الذي تولى الإمبراطورية سنة ٢٨٤م، فأوقع بالمسيحيين أشد البلاء، وقد استشهد في هذا الوقت عدد كبير من الأقباط تجاوز عددهم مئة وأربعين ألفاً، وعدّهم بعض المؤرخين ثلاثمئة ألف.[٤]

وقد أقسم دقلديانوس على ألا يكف عن قتل المسيحيين حتى تصل دماؤهم ركبة فرسه، وفعلاً نفّذ وعده وراح يطوف بفرسه في دمائهم[٥]، وفي عهده امتلأت السجون بالمسيحيين، واستشهد الكثيرون بشتى صور العذيب.[٦]

وفي سنة ٣٠٣ أصدر العاهل الروماني أمره بعزل جميع الضباط المسيحيين من الجيش، وطرد الموظفين المسيحيين، وأعقبه بزجّ جميع رجال المسيحيين في السجون، وإكراههم على السجود لتمثال الإمبراطور، وإلا حُكم عليهم بالموت.[٧]

كان هذا عرضاً بسيطاً لأهم الاضطهادات التي عانى منها المسيحيون في تاريخهم وأشدّها، وهناك المزيد من الاضطهادات التي تعدّ دون ما سبق ذكره في مستواها وشدتها، منها اضطهاد أدريانوس سنة ١٢٤م، وماركوس أوريليوس سنة ١٦٢، وسانيروس سنة ٢٠٣م، ومكسميانوس

---

(١) هو دومتيان يَبْطَس فلافيوس، امبراطور روماني، ولد سنة ٥١م، وحكم الإمبراطورية في السنوات السبع الأخيرة من حياته، وأحرز الكثير من الانتصارات العسكرية، في بريطانيا وألمانيا، وكان حكمه استبدادياً قوياً، حتى لقي مصرعه في مؤامرة دُبّرت له بالاتفاق مع زوجته سنة ٩٦م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص١٩٣.

(٢) انظر: الموقعين التاليين: https://st-takla.org - https://www.chjoy.com/

(٣) انظر: موقع: https://drghaly.com/

(٤) انظر: أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٣٠-٣١.

(٥) انظر: تمام، أديان ومذاهب معاصرة، ص١٣.

(٦) انظر: شلبي، مقارنة الأديان، ص٧٢.

(٧) انظر: سعيد، تاريخ المسيحية (فجر المسيحية)، ص١١٣-١١٤.

سنة ٢٣٥م، وغيرهم.[١]

٢- الاضطهاد الديني الداخلي (اضطهاد المسيحيين لبعضهم) في المسيحية:

أولاً: السيرورة التاريخية للاضطهاد الداخلي عند المسيحيين:

اقترن ظهور الاضطهاد الديني في المسيحية بظهور البدع والهرطقات ومنذ **ابتداء استعمال السلطة في تقرير الأمور الاعتقادية**، وكان ذلك في القرن الرابع الميلادي بدايةً بمجمع (نيقية) المسكوني سنة ٣٢٥م، ومنذ ذلك الوقت بدأ الاضطهاد الداخلي يظهر في المسيحية، وكانت الكنيسة آنذاك تدمغ المخالفين بالهرطقة تبريراً لممارستها الظالمة معهم.

أما الذين عدّتهم من الهراطقة من الدوناتستيين وأتباع (آريوس) فقد قضت القوانين بهدم كنائسهم ومصادرة اجتماعاتهم ونفي كهانهم وإحراق كتاباتهم وإعدام بعضهم، وكل دم أُريق في هذه الفترة كان مردّ إراقته إلى ما بدا للدولة من تطرف مسرف عند بعض أتباع هذه الطائفة ممن انساقوا وراء بعض المبادئ التي لا تُماشي أمن الدولة.[٢]

ولعل **أول قانون نص على الإعدام عقوبة للملحدين** كان **في الدستور الذي وضعه (ثيودوسيوس)[٣] أثناء حكمه**، لكنه لم يطبقه إلا على أتباع المذهب المانوي[٤]، ويُرجّح أن **أول تطبيق لهذا القانون كان سنة ٣٨٥م.**[٥]

وفي هذه الفترة الزمنية - النصف الثاني من القرن المسيحي الرابع – ظهر عاملان كان لهما أثر ملحوظ في تطور الاضطهاد وإقراره، **أولهما أن الكثير من مجلس الإكليروس طلب إلى السلطات المدنية معاقبة الهراطقة أو نفيهم**، وكان لهذا الأمر أثره الملحوظ في مسلك الحكومة في تعاملها معهم، **وثانيهما استقرار نظام الرهبنة ونموه.**

ثانياً: القديس (أوغسطين)[٦] ودوره في التعصب الديني:

كانت **الشخصية الأهم في تاريخ التعصب الديني** التي استطاعت أن تزوّد أنصارها بالحجج القامعة **هي القديس (أوغسطين)**، فقد كانت كتاباته دليلاً لكل من نزع إلى الاضطهاد الديني، وبها برر الذين زاولوا التعصب الديني مسلكهم أمام من أنكر ذلك عليهم، وإننا إذا قرأنا تاريخ المسيحية قراءة واعية سنجد **أن تبعة الاضطهاد تقع أكثر** ما تقع على **عاتق القديس**

---

(١) انظر: كركور، تطور المسيحية بين عيسى وبولس، ص٢٢٦.

(٢) انظر: الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ص٦٥.

(٣) يُعرف بـ ثيودوسيوس الكبير ٣٤٧-٣٩٥م، آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة، عين ثيودوسيوس الأول إمبراطوراً للدولة الرومانية سنة ٣٧٨م، واعتنق المسيحية عام ٣٨٠، وجعل منها ديناً وحيداً للإمبراطورية في العام ٣٩١م، وأصدر أوامره بإحراق مكتبة الإسكندرية حيث اعتقد أنها تحوي أفكار وفلسفات وثنية تخالف العقيدة المسيحية. انظر: https://ar.wikipedia.org

(٤) تُنسب هذه النحلة إلى رجل من أهل فارس يُقال به (ماني بن فتك)، ولد سنة ٢١٥، كانت تعاليمه مزيجاً من المبادئ الزرادشتية والتعاليم المسيحية لذا أطلق عليها البعض (زرادشتية متنصرة)، وهي ذو نزعة تشاؤمية تسعى إلى التخلص من الحياة، انظر: إبراهيم، الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة، ص١٩٥.

(٥) انظر: الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ص٦، وغازي (محمد)، وأحمد (إبراهيم)، وعبد الوهاب (أحمد)، الوثائق تتكلم، ٧/٢.

(٦) هو القديس أوغسطين اللاهوتي والفيلسوف الكاثوليكي، يعدّ كبير مفكري المسيحية في عهودها الأولى، ولد سنة ٣٥٤م، واعتنف المسيحية سنة ٣٨٦م، ودافع عن الكنيسة دفاعاً قوياً، وحاول التوفيق بين الفكر الأفلاطوني والعقيدة المسيحية، من أهم آثاره: سيرة حياة ذاتية عنوانها (اعترافات)، و(مدينة الله)، تفي سنة ٤٣٠م، انظرك البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٧٦.

(أوغسطين).

صاغ (أوغسطين) مبدأ الاضطهاد على أساس ادعى بعضهم أنه من الكتاب المقدس، واستند إلى بعض العبارات المنسوبة إلى المسيح، وأهم ما يُنسب إليه في هذا الصدد عبارة "أجبروهم على اعتناق دينكم"، وعملاً بهذا المنطق فقد سلّم (أوغسطين) بمعاقبة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات، ووضع للكنيسة دستوراً تلتزمه إزاء كل حركة إلحادية، ومن الإنصاف أن نقول إنه رغم ما فعله فقد بذل جهداً كبيراً ليحول دون أن ترتفع العقوبة إلى درجة الإعدام، وكان يأمر أصحاب السلطة أن يقتصروا بالعقوبة على النفي، وحاول أيضاً أن ينقذ بعض الذين صدرت أحكام قاسية بإدانتهم.(١)

ثالثاً: حماية البروتستانت للاضطهاد:

أقر البروتستانت الاضطهاد كمبدأ مشروع لمقاومة الهرطقة، وتوكيد الإيمان الصحيح، مع أن (لوثر)(٢) كان يقف ضد الاضطهاد الديني لكن من المؤكد تاريخياً أنه كان نصير الاضطهاد، ويؤكد هذا وقوفه ضد حركة الأنابابتيست، فهو وإن كان قد وقف بكلامه ضد الاضطهاد الديني إلا أنه حقيقةً عارض ذلك بفعله، ومن المعلوم تاريخياً أنه توسّل إلى ملك (ألمانيا) ليتدخل بسرعة للقضاء على حركة الأنابابتيست التي كانت في (ألمانيا)، لذا فإن (لوثر) وهو الزعيم البروتستانتي الأول قد أكد الاضطهاد الديني، وأعاد تأكيده في خطاب له إلى أمير مدينة (هس)، أما احتجاجه على كبح الآراء وإحراق الملحدين فقد كان ذلك يوم كان يخشى أن يكون مع جماعته ضحية هذا الاضطهاد الكنسي، فلما أمن شرّ خصومه وقوي مركزه أوضح رأيه عملياً، فأوجب على الدولة أن تفرض ما يبدو لها سليماً، وأن تستأصل الهراطقة، وأوجب على الناس أن يطيعوا أميرهم، وصرّح بأن غاية الدولة حماية الدين من المارقين.(٣)

أما (كالفن)(٤) فقد كان أشد تعصباً لآرائه وضيقاً بمخالفيه، وقد اتفق في الرأي مع (لوثر) في إقرار السلطة المطلقة للحاكم، لكنه كان يرى أن ذلك يتم عن طريق الكنيسة، وأنشأ دولة من هذا النوع في (جنيف)، فجمع بين السلطتين الروحية والزمنية، واستطاع أيضاً من خلال ذلك أن ينكّل بخصومه نفياً وإحراقاً وإعداماً، وموقفه من الطبيب (ميشيل سرفيتوس)(٥) وإحراقه له أكبر

---

(١) انظر: الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ص٧١-٧٢.

(٢) مارتن لوثر المولود سنة ١٤٨٣م، راهب ألماني، وزعيم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا، هاجم متاجرة الكنيسة بصكوك الغفران، وعلّق على باب كنيسة ويتينبرغ احتجاجه المؤلف من خمس وتسعين بنداً، حرمه البابا ليو العاشر من شركة المؤمنين سنة ١٥٢١م، ترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية الدارجة فكان لذلك أثر كبير في تطور الأدب الفرنسي، توفي سنة ١٥٤٦م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٣٨٩.

(٣) انظر: الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ص١١٠.

(٤) هو جون كالفن اللاهوتي الفرنسي المولود سنة ١٥٠٩م، يعدّ كالفن أبرز قادة الإصلاح الديني نظراً إلى الأثر الكبير الذي أحدثه في الجماهير عن بقية دعاة الإصلاح الديني، نشر مذهب الإصلاح الديني البروتستانتي في فرنسا ثم في سويسرا، وأنشأ حكومة دينية صارمة في جنيف، وهو مؤسس المذهب الكالفيني القائم على القول بالقدر، عُرف بالتعاليم اللاهوتية الإصلاحية المضادة للكنيسة الكاثوليكية، ومذهبه الأخلاقي الرأسمالي، توفي سنة ١٥٦٤، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٥٣٧.

(٥) ميشيل سرفيتوس أو ميخائيل سرفيه، لاهوتي وطبيب إسباني، ولد سنة ١٥١١م، وعاصر نشوء الحركة الإصلاحية البروتستانتية وتطورها، عُرف سرفيتوس بالقوة العلمية في مجالي الطب واللاهوت، ففي مجال الطب كان هو أول من أعطى الوصف الدقيق التفصيلي للدورة الدموية الصغرى التي كان الطبيب العربي ابن النفيس أول من اكتشفها، وفي مجال اللاهوت كان سرفيتوس مناهضاً للإصلاح الديني والعقيدة المسيحية لا سيما (كالفن) الذي أجرى معه الكثير من المراسلات وبعض الحوارت التي انتهت بالحكم على سرفيتوس

دليل على ذلك[١]، ووضع كتابات أيّد فيها مشروعية الاضطهاد، وكذلك فعل المصلح (جون نوكس)[٢] حين استند إلى العهد القديم بإقراره أن العدالة تقضي إعدام الذين ثبتت عبادتهم للأوثان، وأن من تهاون من الحكّام والناس في اضطهاد الملحدين عرّض نفسه لغضب الله.[٣]

ومن المؤكد تاريخياً أن مبدأ الحرية الدينية كان مصاناً لدى أتباع البروتستانتية، مع أنه وُجد في تاريخ قادات البروتستانت ما يُناقض هذا المبدأ من تصرّفات، لذا فإن الأوفق في حل هذا التعارض أن نقول إن أتباع البروتستانت تمسّكوا بتعاليم (لوثر وكالفن) التي أثمرت التسامح بين رعايا البروتستانت، ولم يقتفوا آثارهم في السلوك المضطهد للمخالفين (الهراطقة).

من هنا ندرك كيف غلبت روح التعصب والاضطهاد على أكثر المصلحين، وطاردت البروتستانتية أحرار الفكر، وتعقبت خصومها ومخالفيها في الرأي، فسلّطت قوتها في (هولندا) على (ديكارت)[٤] الذي أقر الإيمان أساساً لكل فلسفة يقينية، وحظرت في البلاد التي انتصرت فيها تدريس النظريات التي لا تقر بصحتها، ونكّلت بأهلها بغير رحمة.

رابعاً: اضطهاد الموحدين في العالم المسيحي:

إن صوت الفطرة لا يخفت مهما أشيع حوله من إرهاب وسلط عليه من أخطار، إذ بين الحين والآخر يصرخ رجل حر باستنكار التعدد، والكنيسة تكون أسرع من البرق في إخفات هذا الصوت، ومصرع المصلح الإسباني الكبير (سرفيتوس) دليل على صدق ما نقول.

والموحدون القدماء أمثال القوط الآريوسيين، كانوا يحاولون تدعيم مملكتهم الناشئة وتثبيت قواعدها وسط ذلك الخضم الكاثوليكي من العالم الروماني، وقد ظنّ القوط أنه باستطاعتهم الاحتفاظ بالمذهب الآريوسي، لكنهم أخطؤوا الظن والتقدير، فمنذ اللحظة الأولى لاعتناقهم المسيحية الآريوسية نُظر إليهم كهراطقة.[٥]

ومن المعروف أن الإمبراطورية البيزنطية ظلت تجاهد في القضاء على التوحيد وعلى الآريوسية دهراً طويلاً، وفي هذا المجال ظهرت جهود بعض بطاركة الإسكندرية بداية من (أثناسيوس)[٦] زعيم التيار المعادي للآريوسية، وعلى ذلك ظل رعايا القوط منفصلين عن

بالإعدام حرقاً لأنه أنكر ألوهية المسيح ورفض القول بعقيدة الثالوث المسيحية، وتم لفّه ببعض كتاباته وإحراقه سنة ١٥٥٣م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٢٣٧.

(١) انظر: الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ص١١١.

(٢) جون نوكس ١٥١٥- ١٥٧٢م، مصلح بروتستانتي إسكتلندي، تمرّد على السلطة المدنية وعلى السلطة الإكليريكية الكاثوليكية في بلاده ابتداءً من عام ١٥٤٧م، فسجن تسعة عشر شهراً، ثم اضطُر سنة ١٥٥٣م إلى الفرار نحو المأمن الأوربي للحركة البروتستانتية التي كانت تشكله (جنيف) وهناك التقى بـ (جون كالفن)، وأخذ عنه الأسلوب والترتيب المشيخي للكنائس، فوضع هو أصول الكنيسة المشيخية في إسكتلندا. انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٤٥٩-٤٦٠.

(٣) انظر: الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ص١٠٩.

(٤) رينيه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠م، فيلسوف وفيزيائي ورياضي فرنسي، يعدّ في رأي كثير من الباحثين أبا الفلسفة الحديثة ومؤسسها، وهو مكتشف الهندسة التحليلية، واشتهر بكتابه (مقالة في المنهج) الذي نشره سنة ١٦٣٧م، طرح فيه كل المعتقدات والأفكار السابقة ليعاود البحث عن الحقيقة شاكاً في كل شيء إلا حقيقة واحدة وهي أنه يشك، ومن هنا برزت مقالته المعروفة "أنا أشك فإذن أنا أفكر، وأنا أفكر فإذن أنا موجود". انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص١٩٦

(٥) انظر: طرخان، دراسات في تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص١٥٥.

(٦) هو القديس أثناسيوس ٢٩٣ - ٣٧٣م، كان قد شغل منصب بطريرك الإسكندرية منذ سنة ٣٢٨م حتى وفاته، وحمل لواء المعارضة لمذهب آريوس التوحيدي الذي كان يقول بأن المسيح مخلوق وليس إلهاً، ونُفي

حكامهم روحياً واجتماعياً مدة طويلة، ولم يكن هناك من رباط يجمعهم أو يقرب بينهم وبين القوط المهرطقين سوى رباط التبعية المشتركة لشخصية الحاكم القوطي.

ومن خلال السرد التاريخي للاضطهاد الديني على المستويين الخارجي والداخلي نخلص إلى نتيجة مفادها أن هذا الاضطهاد **كان له أثر كبير في انحراف مسار العقيدة المسيحية، وإدخال الكثير من التطورات عليها،** ولا سيما مسألة فقدان السند للكتاب المقدس وما لها من أهمية وانعكاس على كل الديانة المسيحية.

ففي عهد نيرون دوّن كلٌ من لوقا ومرقس إنجيليهما، وبعده بقليل أيضاً دوّن يوحنا إنجيله، أما تدوين إنجيل متى فقد سبق هذه الفترة بقليل، فتم حوالي سنة ٦٠م، ويوضح الشيخ (أبو زهرة) أن هذه الاضطهادات كانت سبباً في اضطراب الأناجيل وفقدانها للسند، وأن هذه الاضطهادات جعلت بعض العلماء المسيحيين أنفسهم يعتذرون عن بعض الاضطراب في الأناجيل بأنها دوّنت في عصور اضطهاد المسيحية الأولى، بل إن مناظريهم يقرون بأن تلك الاضطهادات كانت سبباً في فقد سندها المتصل بصاحب الشريعة.[١]

وهذا الكلام أكّده مراراً الشيخ (رحمت الله الهندي)[٢] في كتابه إظهار الحق، فقد قال في أحد المواضع: "طلبنا مراراً من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم، فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمئة وثلاث عشرة سنة، وتفحصنا في كتب الإسناد لهم فما رأينا فيها شيئاً غير الظن والتخمين".[٣]

ومسألة انقطاع السند وضياعه لها **انعكاس سلبي على أرجاء الديانة كافةً** كما سبقت الإشارة، ولا سيما مسألة الشعائر العقائدية والعبادية السلوكية؛ إذ الكتاب المقدس هو حاضنة الشعائر الدينية ومصدرها الأول والأساس، فإذا ضعفت الثقة فيه ضعفت الثقة في مصدرية الشعائر الدينية ونسبية ثبوتها، وهذا كفيل بنسفها وعدم اعتبارها.

السبب الثالث: المجامع المقدسة:

سبقت الإشارة إلى أهمية المجامع المقدسة ومكانتها في التشريع المسيحي، وسأعرض هنا فكرة عامة عن أهم المجامع لتتضح إضافاتها ودورها في تطور المسيحية وشعائرها.

١- **مجمع نيقية ٣٢٥م:** انعقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م بأمر من الإمبراطور (قسطنطين)، الذي رأى أن النزاعات الاعتقادية في شخص السيد المسيح تفتت شعب الإمبراطورية، فقرر الدعوة إلى مجمع عام تحضره الطوائف المسيحية المختلفة، وقد عقد المجمع بإشرافه، وحضره ٢٠٤٨ أسقفاً من مختلف الكنائس المسيحية[٤]، وكانت أهم الآراء:

أثناسيوس من الإسكندرية خمس مرات متواليات بسبب معارضته هذه، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٧.

(١) انظر: أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٣١.

(٢) ولد الشيخ رحمت الله في قرية كيرانه التابعة لدلهي سنة ١٨١٨م، وأشتهر أفراد أسرته بالعلم والطب والمناصب العليا نشأ في كنف أسرة واسعة الثراء والجاه، و لما ظهر نبوغه وتفوقه في العلوم الشرعية تصدر مجالس الدرس والإفتاء، وهاجر إلى مكة المكرمة ووصلها بعد سنتين من السفر المضني بين البر والبحر، وله عدة مؤلفات باللغة الفارسية والأردية والعربية منها: إظهار الحق، وإزالة الشكوك، والبروق اللامعة، والبحث الشريف في إثبات النسخ والتحريف، وغيرها، توفي في مكة المكرمة سنة ١٨٩١م، انظر: الأعلام، الزركلي، ١٨/٣.

(٣) انظر: الهندي (رحمت الله)، إظهار الحق، ١٠٥/١.

(٤) انظر: أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٤٩.

- القائلون بالتوحيد، وزعيمهم (آريوس الليبي) و(أوسابيوس القيصري)[١].
- القائلون بأن للمسيح وجوداً أزلياً مع الآب وأنه من جوهره وإن مثّل أقنوماً مستقلاً عنه، وهو رأي (أثناسيوس).
- موفّقين بين الرأيين السابقين، حيث رأوا أن المسيح لم يخلق من العدم، بل هو مولود من الآب منذ الأزل، وعليه ففيه عناصر مشابهة لطبيعة الآب.

وهذا الرأي لا يكاد يختلف عن رأي أثناسيوس، وقد مال الملك إلى هذا الرأي الذي مثّله ثلاثمئة وثمانية عشر من القساوسة، وأصدروا قرارات مهمة، منها انتخاب الأناجيل الأربعة من أكثر من أربعين إنجيلاً، وانتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل كثيرة وإتلاف كل الكتب والأناجيل التي تعارض قراراتهم، وأصدر الملك قراراً بحرمان (آريوس) والقائلين برأيه، وقراراً آخر أمر فيه بكسر الأصنام وقتل من يعبدها.[٢]

وأضاف هذا المجمع على العقيدة المسيحية الاعتبارات الآتية:

انبثاق المسيح من الله الآب، تجسّد المسيح، أزلية المسيح، لعن المخالفين للعقائد السابقة.

٢- **المجمع القسطنطيني الأول:** انعقد سنة ٣٨١م للنظر في قول (مكدونيوس)[٣] الذي كان ينكر ألوهية الروح القدس ويرى أنه عملٌ إلهي منتشر في الكون، وليس أُقنوماً متميزاً عن الأب والابن، واعتبر أنه مخلوق يشبه الملائكة ذو رتبة أسمى منهم، فأمر الإمبراطور بعقد المجمع، وحضره مئة وخمسون أسقفاً قرروا فيه ما يلي:

- عدم شرعية المذهب الآريوسي، وفرضوا عقوبات مشددة على أتباعه.
- أن روح القدس هو روح الله وحياته، وهو منبثق منه.
- لعن (مكدونيوس) وأشياعه.[٤]

٣- مجمع أفسس الأول: عقد مجمع أفسس سنة ٤٣١م في عهد الإمبراطور (ثيودوسيوس) للنظر في مقولة (نسطور)، الذي كان يرى أن المسيح هو أقنومان أو شخصان منفصلان الأول إلهي والآخر إنساني، وأبى أن يدعو العذراء بـ (والدة الإله)[٥]، وأصدر المجمع قائمة من القرارات الجديدة رداً على (نسطور)، وحرمان من يقول بمقولته.

وأهم الإضافات التي أضافها مجمع (أفسس) الأول تتحدد في النقاط التالية:

- تأكيد أمومة العذراء للسيد المسيح، ويستحق منكرها عقوبة الحرمان.

---

(١) أوسابيوس القيصري: ولد في فلسطين نحو سنة ٢٦٥م، وتتلمذ على يد بمفيلوس أحد أكثر تلاميذ أوريجانوس علماً ومعرفة، فرّ أوسابيوس إلى مدينة صور أثناء الاضطهاد الذي شنه دقلدياونس، وبعد عودته إلى قيصرية أصبح أسقفاً عليها، كان معتنقاً لأفكار آريوس، وترأس مجمع صور وكان ضد القديس أثناسيوس، انظر: عبد المسيح، موسوعة آباء الكنيسة، دار الثقافة المسيحية، د/ط.ت، ٣/١٠٢-١٠٥.

(٢) انظر: شلبي (رؤوف)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، ص٢١٨-٢٢١، والأعظمي (محمد ضياء الرحمن)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص ٣٠٧.

(٣) مكدونيوس (؟ - ؟) من الأريوسيين، وكان بطريركًا على القسطنطينية سنة ٣٤٣، وكان مقدونيوس يضطهد أتباع (بولس) البطريرك الشرعي المعزول، وفيما بعد غضب عليه قسطنطيوس لأنه نقل جثمان أبيه قسطنطين من مدفن إلى آخر، فأمر بطرده من كرسيه سنة ٣٦٠ م، ولم يكن يعلم إلا تعاليم أريوس، انظر: موقع الأنبا تكلاهيمانوت القبطي الأرثوذكسي http://st-takla.org

(٤) انظر: شلبي، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، ص٢١٨-٢٢١، والأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص٣٠٧.

(٥) انظر: المقاري (أثناسيوس)، قوانين المجامع المسكونية وخلاصة قوانين المجامع المكانية، ص١٠٦.

- تأكيد الطبيعة الواحدة للمسيح التي تجمع الطبيعتين الإلهية والإنسانية.[١]

٤- مجمع خلقدونية:

انعقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م، بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح عليه السلام، هل للسيد المسيح طبيعتان لاهوتية وناسوتية، أم له طبيعة واحدة فقط، وكانت هذه القضية قد طُرحت في مجمع (أفسس) الأول سنة ٤٣١م، لكن النزاع لم يحسم، وأضاف هذا المجمع تعاليم تتحدد فيما يلي:

- إن المسيح فيه طبيعتان لا طبيعة واحدة، كلٌ منهما مستقلة، وقد التقتا في المسيح.
- لعن بطريرك الإسكندرية الذي انفرد بإجراء مجمع (أفسس) الثاني، وكل من يشايعه في مقالته بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام، وإبطال قرارات مجمعه ونفيه إلى فلسطين.[٢]

٥- مجمع القسطنطينية الثاني: عُقد هذا المجمع سنة ٥٣٣، بسبب أن بعض الأساقفة اعتنق فكرة تناسخ الأرواح حتى زعم بعضهم أن المسيح ليس حقيقة بل نموذج خيالي، وحضره ١٤٠ أسقفاً، قرروا فيه حرمان الأساقفة القائلين بذلك.[٣]

٦- مجمع (ترولو): عقد هذا المجمع سنة ٦٨٠م بسبب انتشار مقولة (يوحنا مارون)[٤] الذي كان يرى أن المسيح ذو طبيعتين لكنه ذو مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد، وأيضاً لوضع مجموعة قوانين لتنظيم شؤون الكنيسة الداخلية، وأصدر المجمع قائمة قوانين عددها ١٠٢ قانون، يهمنا منها فقرتان:

- أن المسيح له طبيعتان وله مشيئتان.
- لعن وطرد كل من يقول بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة.[٥]

٧- مجمع نيقية الثاني:

في عام ٧٥٤م انعقد مجمع بأمر الإمبراطور (قسطنطين الخامس)[٦]، وقرر فيه تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة، وتحريم طلب الشفاعة من مريم العذراء، فأمرت الملكة (إيريني)[٧] سنة ٧٨٧م بعقد مجمع في نيقية، وحضره ٣٥٠ من الأساقفة، وكان الغرض من هذا

---

(١) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٢) انظر: شلبي، أضواء على المسيحية، ص١٠٦.
(٣) انظر: المقاري، قوانين المجامع المسكونية وخلاصة قوانين المجامع المكانية، ص١٥٠-١٥١.
(٤) ولد يوحنا مارون في عائلة كانت تحكم مدينة أنطاكيا وما حولها في القرن السابع للميلاد، ودخل حياة الرهبنة في دير (مار مارون)، ثم أُرسل إلى القسطنطينية حيث تعلّم اللاهوت، وعاد بعدها إلى سوريا وجبل لبنان حيث نشط في محاربة الهراطقة، وفي سنة ٦٨٥م تم اختياره بطريركاً لأنطاكيا، واستقرّ أخيراً في لبنان، وأسس فيها أديرة، توفي سنة ٧٠٧م، انظر: https://ar.wikipedia.org/
(٥) انظر: سلطان، المجامع النصرانية، ص١١٧.
(٦) هو الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس المولود سنة ٧١٨م، أحرز انتصارات عسكرية على العرب سنة ٧٤٥م، والبلغار سنة ٧٥٩م، وعُرف بمعاداته لتقديس التماثيل الدينية وباضطهاده للرهبان الذين ناهضوا موقفه في هذه القضية، توفي سنة ٧٧٥م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٣٤٨.
(٧) إمبراطورة بيزنطية، ولدت سنة ٧٥٢م، تُعدّ أول امرأة حكمت الإمبراطورية البيزنطية بالأصالة عن نفسها لا بالنيابة أو الوصاية عن غيرها، هُزمت قواتها في وجه البلغار أولاً وأمام المسلمين ثانياً أيام حكم هارون الرشيد، فاضطرت إلى دفع الجزية إليهما معاً ثار عليها بعض قوّادها العسكريين وخلعوها عن العرش، فماتت سنة ٨٠٣م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٨٠.

المجمع الرد على المجمع الذي عقده (قسطنطين الخامس)، وإعلان تكريم أيقونات الرب والقديسين، وأعلن أيضاً أن إكرام الأيقونات بإحناء الرأس أو السجود وتقبيلها وإضاءة الشموع والبخور ما هو إلا لإظهار الاحترام والمحبة، وأصدر المجمع حرماناً لكل من حارب الأيقونات ورفض تقبيلها وإحناء الرأس أمامها.(١)

السبب الرابع: الوثنية والفلسفات الإغريقية:

لا يخفى أن للوثنيات والفلسفات القديمة أثراً في تطور العقيدة والشعائر المسيحية، وهنا سأعرض كلاماً عاماً يوضح التأثير العام للوثنيات والفلسفات القديمة في المسيحية، وأترك التفصيل إلى موضعه المخصص له.

كانت الفلسفة الإغريقية بمذاهبها سلاحاً ذا حدين؛ فبقدر ما أعانت على إنشاء وتطوير المذاهب العقدية على يد اليونانيين بقدر ما انقلبت على العقيدة المسيحية ورجالها، وباتت تهدد الكنيسة ونظامها وتحرّف في تعاليمها وتقضي شيئاً فشيئاً على حقائق المسيحية الأولى؛ إذ **وجد فلاسفة اليونان في العقائد المسيحية معبراً اجتازوا به أزمة العقيدة المسيحية** وتغلبوا بالفلسفة عليها واستطاعوا أن يُزيلوا معالم المسيحية الحقة ويدخلوا التحريفات إليها.

وعندما يطالع المرء **العقائد القديمة ولا سيما الوثنية فإنه يجد بينها كمال التشابه،** فهي تشترك فيما بينها في الكثير من العادات والتقاليد، ولعل السبب في هذا التشابه هو الاختلاط بين تلك الأمم واستعمار القوي منها للضعيف، ولا يخفى الدور المهم الذي لعبه بولس الرسول في إدخال الأفكار الوثنية إلى المسيحية وتطبيعها بطابع المسيحية.

ولما كانت تعاليم الفلسفة القديمة منتشرة في أنحاء الامبراطورية الرومانية **لم يتمكن المسيحيون من التغاضي عن تأثيرها،** وقد وُجِدَ من علماء الجيل المسيحي الأول وفلاسفتهم مَن كان له بالغ الأثر في مساعدة الفكر الوثني على التفشي في المسيحية، ونأخذ مثالاً على ذلك **(أمنيوس سقاس)**(٢)، الذي أخذ يؤلف بين الفلسفة والدين المسيحي، فصار يُعلّم فلسفة يتحدى بها المسيحيين مع كل الأديان السائدة في وقته، فنادى بـ:

١. أن الكون واللاهوت كلاهما جزآن من كل واحد عظيم، وأن الكل هو الله، كما نادى بأزلية العالم.

٢. سمح للناس أن يعيشوا حسب ما تقتضيه شرائع بلادهم وما تقتضيه الطبيعة، فصار الدين دينين واحد للعوام وآخر للعلماء والفلاسفة.(٣)

فكان العوام يمارسون الطقوس الوثنية، وكان العلماء **يحولون كل تواريخ الآلهة الوثنية إلى رموز واستعارات فأثبتوا من خلال ذلك أن المسيح إنسان خارق للعادة وحبيبٌ لله وعارفٌ بعمل الله بنوع مدهش،** وبعد ذلك انتشرت تعاليم أمنيوس في شتى أنحاء الامبراطورية الرومانية، وساعدت على إنبات الأفكار الوثنية في الأرجاء المسيحية.

ولقد ساعد بولس وأمينوس في مهمتهما تلك دخولُ الكثير من الوثنيين من الأديان المختلفة

---

(١) انظر: المقاري، قوانين المجامع المسكونية وخلاصة قوانين المجامع المكانية، ص٢١٤-٢١٥.

(٢) أمنيوس سقاس أو ساكاس، فيلسوف يوناني عاش في الإسكندرية، من أهم تلاميذه هيرينيوس، أوريجينوس ولا سيما أفلوطين الذي يقال إنه تتلمذ على يده ما يقارب العشر سنوات، كان أمنيوس أول من تمسّك بحماس بالفلسفة الحقيقية، وترفع عن الآراء العامّية التي جعلت من الفلسفة موضوع احتقار، فتفهم عقيدة أفلاطون وأرسطو، ونقلها لتلاميذه، ويُقال إنه ارتد عن المسيحية إلى الوثنية آخر حياته، توفي سنة ٢٤٢م، انظر: أفندي (عبد الله)، تاريخ الفلاسفة، ص٧٦.

(٣) انظر: الطهطاوي (محمد عزت)، النصرانية والإسلام، ص ٩١.

إلى المسيحية، ومن الطبيعي أن **الوثني غالباً لا يرتاح لدين من الأديان إلا إذا شابه ما يحويه ذهنه من أفكار وثنية**، فصار هؤلاء يبثون في المسيحية كل ما تحويه قرائحهم من أفكار وثنية، ولما كان أكثر المعتنقين للمسيحية من فئة العوام وكانوا أكثر من العلماء والفلاسفة فإنهم لم يقتنعوا ببساطة المسيحية الأولى؛ لأن اليهود وكهنة الوثنيين كانوا يتهمونهم بالكفر لعدم وجود هياكل ولا مذابح ولا كهنة في المسيحية، مما اضطر علماء المسيحيين أن يُدخلوا إلى المسيحية أفكاراً جديدة وطقوساً خارجية.

ومن المعلوم أن الأمم الوثنية عبدت آلهة متعددة اخترعتها أوهامهم، حتى إنهم **لم يتركوا قوة من قوى الطبيعة إلا اتخذوا منها إلهاً وعبدوه**، كإله الرعد وإله الماء وإله الهواء وإله النار[١].... وعبدوا الحيوانات بشتّى أنواعها وأصنافها من الأفاعي والفئران والخنازير والعجل والبقر والثيران[٢]، وكان **التراث اليهودي هو الأكثر تأثيراً في المسيحية الحالية** بما فيه من عقائد ممزوجة بأفكار فلسفية، فانتقلت هذه الأفكار برمتها إلى المسيحية على يد بولس الرسول.

كل هذه العوامل أدت بالنهاية إلى **إنتاج فكر جديد وتبلور مفاهيم جديدة ضمن العقائد المسيحية اقتربت من خلالها كثيراً من الوثنيات القديمة بل كادت أن تطابقها** في أكثر الأحيان حتى في أبسط الجزئيات.

ثانياً: الأسباب المتأخرة لتطور المسيحية وشعائرها:

كانت الكنيسة في القرن الرابع عشر تعاني الفساد والانهيار الخلقي، فقد بدأت أول عهدها يحدوها الإخلاص العميق للمسيح، ثم نمت فأصبحت نظاماً جليلاً يعمل على تنظيم الأسرة، وينشر حسن النظام، أما بعد ذلك فقد أخذت تنحط حتى لم يعد لها من هَمٍّ إلا المحافظة على مصالحها المكتسبة والحفاظ على بقائها وأموالها، وشرع البابوات يملؤون خزانتهم بالمال يحصلون عليه بفرض الضرائب، وحصلت الكثير من الحركات الثورية على الكنيسة في تلك الفترة.

وهناك **أربع حركات كبرى تحدد عوامل التطور المتأخرة في المسيحية وفي شعائرها** ومعالم فترة الانتقال التي امتدت من بدء تراجع العصور الوسطى حتى القفزة الكبرى في القرن السابع عشر.

أول هذه الحركات هي النهضة الإيطالية التي حدثت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وكان ذلك على أيدي أعلام من الإيطاليين أمثال (دانتي)[٣] و(بوكاتشيو)[٤]، ومن خلال كتاباتهما وكتابات أمثالهما حدثت عودة إلى المُثُل الدنيوية العليا، وعاد الاهتمام بثقافة القدماء وكتاباتهم، وظهر ذلك جلياً في كثير من الفنون والعلوم، وكان ذلك يمثل خروجاً على التراث الكنسي السائد

---

(١) انظر: التنير (محمد بن طاهر)، العقائد الوثنية في الديانة المسيحية، ص٤٩.

(٢) انظر: الأعظمي (محمد ضياء الرحمن)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص٦٠٠، والعاملي، الكتاب المقدس في الميزان، ص٣٣٢.

(٣) هو دانتي آليغييري (١٢٦٥ – ١٣٢١م)، كبير شعراء إيطاليا، قضى شطراً من حياته في المنفى، تزوّج ولم ينس محبوبته بياتريس التي رآها وهو طفل فكانت مصدر إلهامه الشعري، ومن أهم آثاره (الكوميديا الإلهية)، وهي ملحمة يدور موضوعها حول رحلة خيالية قام بها دانتي إلى الجحيم والمطهر والجنة، وفيها يتجلى إيمان الشاعر وحبه وثقافته الواسعة. انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص١٨٥.

(٤) جيوفاني بوكاتشيو (١٣١٣ – ١٣٧٥م) شاعر وكاتب إيطالي، أسهم مع بترارك في إرساء الحركة الإنسانية في أواخر العصر الوسيط، واشتهر بمجموعته القصصية (ديكاميرون) نشرها سنة ١٣٤٨م، وكانت هذه القصص مصدراً للكثير من المفكرين والفنانين استمدوا منه بعض إلهاماتهم الفنية والفكرية أمثال شكسبير وغيره، ويُعرف بأنه (أبو النثر الإيطالي). انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص١١٩.

في العصور الوسطى، فبينما كانت الاهتمامات اللاهوتية تسود الجو العام في العصور الوسطى أصبح مفكرو عصر النهضة أكثر اهتماماً بالإنسان، ومن هنا استمدت الحركة الثقافية الجديدة اسمها وهو (النزعة الإنسانية) التي كانت ثاني هذه الحركات.

ثاني هذه الحركات هو (النزعة الإنسانية)، وكان روّاد هذا الفكر يعتقدون أن التراث العقلي اليوناني كفيل بتكوين الإنسان الجديد، ومن هنا كان حرصهم على التراث اليوناني والاهتمام بالعمل على إحيائه كبيراً، وتأكدت بعد ذلك النزعة الإنسانية باتجاهها إلى الإعلاء من شأن الفكر الإنساني، وردّ القيم إلى العقل لا إلى الدين، والتمرد على السلطة التي تقيد انطلاق العقل، ولا سيما أن هؤلاء الإنسانيين وجدوا في الكنيسة معوقاً لتقدم الفلسفة الجديدة.(١)

ومن الممكن أن نشير هنا إلى أنها تميزت عن النهضة الإيطالية بأن النهضة الإيطالية أثرت في النظرة العامة إلى الحياة، أما الحركة الإنسانية فقد اقتصر مجال تأثيرها على المفكرين والباحثين، وفي ألمانيا كان انتشار الحركة الإنسانية معاصراً للإصلاح الديني الذي أتى به (لوثر)، والذي يشكل العامل الثالث.

ثالث العوامل هو حركة الإصلاح الديني: مع أن الكنيسة الرومانية كانت تعترف ضمنياً بضرورة حدوث شكل من أشكال الإصلاح، فإن قبضة البابوات كانت في بداية الأمر أقوى من هذا الشعور بالحاجة إلى الإصلاح، لذا فإن حركة الإصلاح الديني كان من الممكن أن تُستوعب بوصفها حركة جديدة داخل نطاق الكنيسة الأم، لكنها اضطرت إلى الانعزال، وتطورت بحيث أصبحت تتألف من عدد من الكنائس البروتستانتية القومية، وحين بدأت الكنيسة الكاثوليكية تصلح نفسها أخيراً كان أوان رأب الصدع الديني قد فات.(٢)

أما الحركة الرابعة فقد نشأت مباشرة من إحياء الدراسات التجريبية، والاهتمام بالطبيعة الحافلة بالحقائق، ونزوعه إلى ارتياد المجهول من آفاق العلم الطبيعي، ولقد انبعثت صيحات (روجر بيكون)(٣) بالدعوة إلى التجربة والاختبار، واستجاب لها العلماء والفنانون، وتم إنشاء بعض الجمعيات العلمية استجابةً لهذه الدعوة، ومن المعلوم أن هذا الأمر مهّد لنشأة العلوم الطبيعية مؤيدة بالمخترعات الحديثة.(٤)

وخلال القرنين التاليين حصل تقدم هائل في ميادين علمية متعددة، كإعادة اكتشاف نظام مركزية الشمس على يد (كوبر نيكوس)(٥)، ومنذ القرن السابع عشر أحرزت العلوم الفيزيائية والرياضية تقدماً سريعاً، واستطاعت عن طريق تطويرها الهائل للتكنولوجيا أن تضمن السيادة للغرب، كما أن شدّة الاهتمام بالعلوم الطبيعية في تلك الآونة من عصر النهضة يعدّ ردة فعل لما كان عليه الأوربيون في العصور الوسطى من الالتجاء إلى الرهبنة وتعذيب الجسد، واللجوء إلى

---

(١) انظر: عجيبة، أثر الكنيسة على الفكر الأوربي، ٧١-٧٢.

(٢) انظر: رسل، (برتراند)، حكمة الغرب، ١٧/٢-١٩.

(٣) روجر بيكون (١٢٢٠ – ١٢٩٢م) عالم وفيلسوف وراهب إنكليزي، عُني بدراسة الرياضيات وعلم الفلك وعلم البصريات والكيمياء واللغات والآلات الطائرة والسفن العاملة بالمحركات، وعملية إنتاج البارود، وضع موسوعة علمية سمّاها (الكتاب الأكبر)، وكانت الجدية في آرائه واهتماماته سبباً في سجنه لفترة من الزمن يجهل الباحثون مدتها. انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٩٤.

(٤) انظر: عجيبة، أثر الكنيسة على الفكر الأوربي، ص٧٢.

(٥) هو عالم فلك بولندي، ولد سنة ١٤٧٣م، يعدّ أحد القلائل الذين تركوا أعظم الأثر في الحركتين العلمية والفلسفية، قال إن الأرض كروية وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها، وبذلك قلب معطيات علم الفلك القديم التي كانت تقول إن الأرض هي مركز الكون الثابت، توفي سنة ١٥٤٣م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٣٧٠-٣٧١.

الكنيسة ورجال الدين المسيحي باعتبارهم الملجأ والملاذ في علاج المشكلات.[١]

على أن هذا النجاح الباهر للعلم في تطبيقاته التكنولوجية **جلب خطراً من نوع آخر**، إذ أصبح الكثيرون يعتقدون أنه **لا يوجد شيء يعجز الإنسان عن تحقيقه** إذا وُجّهت إليه جهوده ومورست بالطريقة المناسبة، وربما يغفل البعض عن أن المشاريع الكبرى في التكنولوجيا الحديثة تعتمد على تضافر عقولٍ وأيدٍ كثيرة، ولا بد أن تخدم أهدافاً إنسانية.

ومن تضافر العوامل الأربعة السابقة وانتشار المعلومات على نطاق واسع بدأ الناس يكوّنون فكرة أكثر وضوحاً عن الأرض التي يعيشون عليها، وقد تحقق ذلك عن طريق رحلات الاستكشاف التي فتحت مجالات جديدة لاندفاع الغرب وجهوده التوسعية.

وبينما كان يبدو على الكنيسة أنها آخذة في استعادة مجدها وسلطانها كان ذلك يتزامن مع تغير أوربي اقتصادي وسياسي وعقلي يعمل بالتدريج على تقويض الكاثوليكية، فكان نمو الصناعة والتجارة، وتكدّس الأموال أثناء القرن الخامس عشر، وقيام طبقة التجار بمواجهة الطبقة الإقطاعية، كل هذا كان نذير شؤم على الدين الذي كان يساير نظام الإقطاع، وأخذت الدول الملكية الناشئة تتحرر شيئاً فشيئاً من سيطرة الكنيسة، وصار ملوكها يعارضون وجود المندوب البابوي في بلادهم لأنه لم يكن يعترف سوى بسلطة البابا.[٢]

وكانت البيئة العقلية في الكنيسة نفسها آخذة بالتغير تغيّراً ينذرها بأشد الأخطار، فقد كانت لا تزال تخرج علماء مجدين ذوي ضمائر حية، وكان لكثير من هؤلاء آراءٌ لا تُرضي القديسين والبابوات، فمثلاً القديس (برناردينو) المتوفى سنة ١٤٢٠م يقول: "إن كثيراً من الناس إذا نظروا إلى ما يرتكبه الرهبان والإخوان والراهبات وغير هؤلاء من رجال الدين لتشمئز نفوسهم، بل إنهم كثيراً ما يتزعزع إيمانهم، فلا يؤمنون بشيء أعلى من أسقف منازلهم، ولا يرون أن ما ورد في الكتاب عن الدين صادق صحيح، بل يعتقدون أنه من اختراع الآدميين، وليس وحياً من عند الله، فهم يحتقرون القربان المقدس، ولا يؤمنون بوجود الروح، ولا يخشون عذاب النار، ولا يؤمنون في نعيم الجنة، بل إن أهم ما تتعلق به قلوبهم هو الأشياء الزائلة، ويعملون على أن يكون هذا العالم الأرضي هو جنتهم".[٣]

وفيما يلي أعرض أهم النتائج المترتبة على ثورة العقل الأوربي على المسيحية:

١- **تحرر الفكر الأوربي** من القيود الثقيلة التي كانت تفرضها الكنيسة على حرية الفكر وحرية البحث العلمي، وكان لهذا أثر واضح في الخروج على تعاليم الكنيسة.

٢- **تركزت الكراهية ضد الكنيسة**، ثم قويت هذه الكراهية إلى درجة التحرر من الإيمان بالمسيحية أو العقيدة المسيحية ذاتها التي اعتمدت عليها الكنيسة في فرض سيطرتها على العقل والفكر.

٣- **الانحلال الخلقي** الذي صاحب ما كان في عصر النهضة من تقدم علمي، فكثيرٌ من رعايا الكنيسة خرجوا على تعاليمها، واستهوتهم حياة اللهو والمرح، وتطور بهم الحال حتى انغمسوا في حياة التبذل، ونبذوا الآداب العامة.

أخيراً فإن التحرر من القيود الفكرية التي فرضتها الكنيسة نجح بإتاحة ارتياد الميادين العلمية المحظورة في العصور الوسطى على المفكرين الأوربيين، وكان نتيجة ذلك أن تكشّفت حقائق جديدة، ونظريات علمية لم تكن معروفة، وقد خالف الكثير منها ما كان الناس يعتقدونه ويؤمنون

---

(١) انظر: بارودي (دانيل)، الرجل المهذب، ص٧١.
(٢) انظر: ديورانت، قصة الحضارة، ٢٢/٣٥-٣٦.
(٣) المرجع السابق، ٢٢/٣٦.

به في العصور الوسطى.[١]

المطلب الثاني: تطور الشعائر العملية:

الملمح الأهم في قضية تطور الشعائر العملية في المسيحية هو **إلغاء اعتراف بعض الطوائف المسيحية ببعض الشعائر الدينية**، كالبروتستانت التي ألغت العمل بأكثر الشعائر العملية، فأبقت على اثنين من الأسرار هما المعمودية والإفخارستيّا ورفضت الاعتراف بباقي الأسرار وألغت ممارستها في الكنائس الإنجيلية.

ويُلمح التطور في الشعائر العملية **على مستويين**:

الأول: تطور الشعيرة ذاتها، **الثاني**: ارتباطها بالنصوص الليتورجية.

المستوى الأول: تطور الشعيرة ذاتها:

ندرس مثالاً على هذا التطور **شعيرة المعمودية**، إذ يعترف المسيحيون أن تطوراً حصل في هذا الطقس إلى أن استقر على الحالة المعروفة في أيامنا، يقول (جون لوريمر): **"تطورَ طقس المعمودية إلى ممارسات معقدة**، فكان على المعمّد أن يخلع ملابسه الخارجية، والنساء يرخين شعورهن ويخلعن حليّهن، ثم يجحدون الشيطان وكل أعماله، وكان يُفضّل إجراء المعمودية في مياه جارية ويغطّس المعتمد ثلاث مرات في الماء باسم الآب والابن والروح القدس، وكان السكب مسموحاً به ولكن لم يكن هو العادة المتبعة، وعند خروج المتعمد من المعمودية كان يذوق شيئاً من الشهد واللبن علامة قبوله الولادة الجديدة في المسيح، ثم يتجه إلى الغرب ويدهنه الكاهن بالزيت ويضع رأسه بجانب رأسه علامة على قبوله الروح القدس ... ".[٢]

والمعمودية حالياً في الشمال الغربي من الكنيسة، لأن الشمال يشير للهلاك، والغرب يشير للموت، فمكان المعمودية يعلن أن الداخل محكوم عليه بالموت والهلاك، والكنيسة تجعل المعمودية في مدخلها بحيث كل من يدخل يتذكر أن هذا المكان، هو الذي أنقذه من الموت.[٣]

أما من حيث الزمان فقد كان محدداً لها أكثر من ميعاد، فأولها عيد الغطاس لأن هذا تذكار معمودية السيد المسيح هو الذي أسس المعمودية لذلك كانوا يجعلونه أول موعد للعماد في الكنيسة الأولى، الميعاد الثاني أحد التناصير، والميعاد الثالث هو عيد القيامة.

وكانت المعمودية تُقام يوم الأربعين بعد ميلاد الذكر والثمانين بعد ميلاد الأنثى، وقد حددت الكنيسة الأربعين يوم لكي يرجع الإنسان مرة ثانية لحضرة الله، وحضرة الله تشير للسماء وهو على الأرض، لذلك جعلوها أربعين يوماً، يُقْصَى أربعين يوماً ثم يعود، وكأنها تشير إلى الفترة التي واعد الله بها نبيه موسى عليه السلام، ومن هنا نرى صورة الأم في الكنيسة وهى حاملة ابنها بعد الأربعين يوماً تشير للكنيسة التي حملت الإنسان وأعادته إلى جناب الله، بالنسبة للبنت تكون ضعف المدة لأنها ارتكبت الخطأين معاً فأكلت من الشجرة المحرمة في الجنة وأعطت زوجها فأكل.[٤]

يتضح من النصوص السابقة التطور الحاصل في شعيرة المعمودية من حيث الأداء، فالنصوص تشرح آلية معينة كانت المعمودية تُقام بها، أما الآن فلم يعد من المهم التمسك بهذه السلوكيات والشكليات من حيث مكان التعميد الذي تحوّل من نهر وماء جاري إلى مكان مغلق وبركة ماء يتم فيها التغطيس، وآلية التعميد التي تطورت من الرش إلى السكب، والكلام الذي

---

(١) انظر: عجيبة، أثر الكنيسة على الفكر الأوربي، ص٧٤-٧٦.

(٢) لوريمر (جون)، تاريخ الكنيسة، ٩٦/٢.

(٣) انظر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت: https://st-takla.org.

(٤) انظر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت: https://st-takla.org.

يوجهه المعمّد للمتعمد بالسؤال عن الإيمان بالآب والابن والروح القدس، وكذلك مواعيد إقامة المعمودية التي كانت في ثلاثة أيام وأصبحت الآن تقام في أي موعدٍ كان، إلى غير ذلك من الشكليات المتعلقة بشعيرة المعمودية.

المستوى الثاني: ارتباط الشعائر العملية بالنصوص الليتورجية:

الليتورجيا في المسيحية لفظة واسعة المعنى، تشتمل على الكثير من الفروع المسيحية السلوكية العبادية واللاهوتية والتاريخية والخدمية وغيرها كثير، والمعنى المتطور المشار إليه هنا في كلامنا هو الدلالة اللاهوتية لليتورجيا، يعني ذاك **الفرع من اللاهوت المتعلّق بالعبادة وكلّ ما يختصّ بها من صلوات يوميّة وأسرار إلهيّة،** ويهتم اهتماماً خاصاً بالترتيب الذي عليه تجري الخدمة الإلهيّة والأسرار، ولليتورجيا ارتباط وثيق بالفروع اللاهوتية في المسيحية كافةً، وتقوم على مفهوم العقيدة المسيحيّة، وكذلك فإنّ النصوص الليتورجيّة تشكّل مصدراً أساسياً لدراسة الإيمان والعقيدة المسيحيّة.

يمكننا أن نقسم مراحل تطور الليتورجيا إلى ما يلي:

١- مرحلة العصور القديمة (حتّى القرن السادس):

الدراسات الليتورجيّة لم تظهر في الكنيسة الأولى، وذلك يعود أوّلاً إلى أنّ العبادة كانت مفهومة لدى عامة الشعب، كما أنّ الأعمال الليتورجيّة والخدم كانت في غاية البساطة فلم تجد الكنيسة ضرورة لشرح خدمتها وعبادتها، وقد لعب عداء اليهود والوثنيين للديانة الجديدة ومحاربتهم لها وبشكل خاص سرّ الشكر دوراً في فقر الليتورجية في القرون الأولى.

٢- مرحلة العصور الوسيطة (القرن السابع حتى الخامس عشر):

لقد كتب العديد من الآباء في هذه المرحلة من القرون الوسيطة حول أمور ليتورجيّة، نذكر منهم: (مكسيموس المعترف)[١]، و(جرمانوس)[٢] وغيرهم.

٣- العصور الحديثة (القرن السادس عشر حتى الثامن عشر):

نمت الدراسات الليتورجيّة في هذه المرحلة وتطوّرت، واحتلّت اهتماماً كبيراً من النطاق الكنسي، وكان للانشقاق البروتستانتي دورٌ كبيرٌ في تنمية هذه الدراسات في الغرب، إذ اضطرّت الكنيسة الكاثوليكيّة على إثره أن تصدر دراسات عدّة مبيّنة فيها أهميّة الصلوات المحفوظة شارحة إيّاها لجماعة المؤمنين.

٤- مرحلة القرنين التاسع عشر والعشرين:

نمت الدراسات الليتورجيّة بشكل واسع وأصبح لكلّ باب من أبواب الليتورجيا اختصاص منفرد، وظهرت دراسات ذات أهميّة بالغة في هذين القرنين وكذلك علماء ليتورجيون نذكر منهم

---

(١) ولد مكسيموس المعترف سنة ٥٨٠م، وهو قدّيس ولاهوتي، ولد من أب سامري وأم فارسية، وانضم إلى الدير عندما كان في سن العاشرة، ثم انتقل إلى دير في القسطنطينية كراهب علماني سنة ٦١٤م حتى وفاته، اشتُهر بالدفاع عن العقيدة المسيحية ضد الهراطقة، توفي سنة ٦٦٢م، ويُحتفل بذكراه في الكنائس الغربية يوم ١٣ آب، انظر: https://ar.orthodoxwiki.org/.

(٢) ولد جرمانوس في مدينة القسطنطينيّة عام ٦٤٢م، وكان أبوه يوستينيانوس من عُظماء الدولة، فتم اغتياله، وحُجِر على ابنه جرمانوس في الدار البطريركية ليكون بين صغار الإكليركيّين ولداً يتيماً لا شأن له، وفي سنة ٧١٥ أقيم بطريركًا على القسطنطينيّة خلفًا للبطريرك يوحنّا، توفي سنة ٧٣٠م، انظر: http://church.marantoniosalkabir.com

على سبيل المثال: (برايتمان) و(الراهب البندكتي بودوين) اللذين لعبا دوراً في نهضة الحركة الليتورجية في الكنيسة الكاثوليكية في تلك الفترة.

وكمثال على الليتورجيا **أهم نصين من الليتورجيا المعروفة وهما ليتورجيا مار (يعقوب) وليتورجيا مار (يوحنا)**، ولكل منهما أوقات ومناسبات تُقال فيها مصاحبةً لإقامة بعض الشعائر الدينية، تتميّز ليتورجية مار يعقوب عن سائر الليتورجيات بكونها الأقدم والأهمّ ومن هنا أعارها الآباء اهتماماً خاصّاً، واشترطت قوانين الرسل والمجامع أن يقدّس بها الكاهن وجوباً أوّلاً بعد رسامته وعلى كلّ مذبح أو كنيسة جديدة وللمرّة الأولى وكذلك في الأعياد الحافلة السيدية المرتبطة بالمسيح، وفي الرسامات وتقديس المذابح والكنائس، وهي نوعان كبرى وصغرى. فالكبرى هي لمار يعقوب مطولة، والصغرى اختصرها ابن العبري وهي الأكثر تداولاً في الحاضر، أمّا ليتورجية مار يوحنّا الإنجيلي فقد اشترط الآباء أن يستعملها الكاهن في الآحاد وأعياد السيدة العذراء وهي أيضاً كبرى وصغرى.[1]

(١) انظر: المقاري، الكنائس الشرقية وأوطانها، ١/١٣٠، وراهب من الكنيسة القبطية، الديداخي (تعليم الرسل)، ٤٠-٤١، ومقال: الحياة الليتورجية، إعداد: جورج عوض، على الموقع التالي: http://liturgyorthodoxlife.blogspot.com/

الفصل الثاني
الشعائر ذات السند التاريخي
وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول: القربان المقدس

المبحث الثاني: العناصر الليتورجية في طقس القربان

المبحث الثالث: تقديس المكان في الفكر المسيحي

المبحث الرابع: الشعائر الزمنية

المبحث الخامس (التطبيقي)

للشعائر الدينية في المسيحية أنواعاً متعددة تُصنّف الشعائر من خلالها، ومن أهم تلك الأنواع الشعائر التاريخية أي (ذات السند التاريخي).

إذ يلاحظ الباحث وجود تقاطعاتٍ تاريخية كبيرة في بعض الشعائر بين المسيحية والأديان السابقة سماوية كانت أو وثنية.

ولعل أهم المحاور الشعائرية التي يشكّل الجانب التاريخي فيها جانباً ذا أهمية أو تحمل طابعاً تاريخياً ثلاث شعائر هي (القربان المقدس والشعائر المتعلقة بالأمكنة والشعائر المتعلقة بالأزمنة).

المبحث الأول: القربان المقدس

يُعدّ القربان المقدس **تراثاً فكرياً في حياة الأمم المتدينة**، فقد أثبت مبدأ القربان وجوده منذ أقدم الديانات السماوية والوضعية، وكان له في كلّ دين من الأديان شعائر وطقوس وصلوات خاصة، وحاول المتدينون التمسك بهذه الشعيرة حفاظاً على ترابط الأنساق الدينية الكلّية كون القربان يعد الإطار الأهم والأوسع الذي يجمع أفراد الديانات ويؤلف بين أتباعها بطقوسه وتراتيله،

والمفهوم العام للقربان هو كل **ما يقرب العابد من معبوده** إلهاً كان أو روحاً في مناسبة دينية أو موسم محدد طالباً عونه في تحقيق منفعة أو اتقاء شره أو وفاءً لنذر، وليس القربان خاصاً بالذبائح، وإن صار ذلك مدلوله في الغالب.

وقد عمد الإنسان في الأمم الوثنية إلى خلق عادات ليحتمي بها من المخاطر الغيبية، ويعلل من خلالها قضايا ومسائل مستعصية على الإدراك، وتوصل إلى إجراء عادة سفك دم الحيوان في بعض المناسبات الاجتماعية بهدف التقرّب من الآلهة وتوطيد الرابطة الدينية بين الإله وبين البشر.

مما تقدم نستنتج أن تقديم القرابين كان **جارياً منذ عصور مبكرة**، فكانت الآلهة وفق اعتقادهم تقبل بارتياح جميع القرابين التي يتم تقديمها من قبل الملوك والكهنة ومن عامة الناس، لاعتقادهم أنَّ **الاستعانة بالآلهة تغيّر مجرى الحوادث الكونية وتبدلُ السنن الطبيعية وتحصّل الفضل الإلهي من غفران الذنوب** وغيرها.

وترتكز عملية التضحية على مسوغات دينية ونفسية، والدين المسيحي هو أحد الأديان التي اهتمت بمبدأ القربان، ولقد جاءت النظرة المسيحية إلى القربان المقدّس متسمة بسمتين، فهي من ناحية أولى **تماشي النظرة الدينية والشعبية العامة للقربان**؛ إذ تعدّه الشعيرة الأهم بين شعائرها، ومن ناحية ثانية **تصهر هذا المبدأ ضمن البوتقة الفكرية العامة للدين المسيحي** بما يناسب القضايا الكبرى التي تقدّمها المسيحية لأتباعها (الفداء والخلاص).

وتتحدد معالم القربان المقدّس في المسيحية بشعيرة (العشاء الرباني) أو ما يسمونه بـ (الإفخارستيّا).

المطلب الأول: تعريف العشاء الرباني وعناصره وأوقات إقامته:

أولاً: تعريف (العشاء الرباني):

نستطيع تحديد المعنى العام للعشاء الرباني بأنه سرٌ أو عبادة يجتمع المسيحيون لتأديتها بأكل قطع من الخبز المبلول بالخمر بعد أن تتم مباركته من قِبل الكاهن بنية الاتحاد مع المسيح.

أما إذا أردنا تحديد التعريف عند المسيحيين فإننا سنجد أن **المنحى التعريفي للعشاء المقدّس يختلف** باختلاف المنحى العقائدي (الطائفة) التي يتبعها المعرّف أو ينتمي إليها.

فالبروتستانت يعرّفونه بأنه: **"سر يدل على موت المسيح بإعطاء خبز وخمر وقبولها حسبما رسم المسيح**، والقابلون باستحقاق يتناولون جسده ودمه مع جميع فوائده لا تناولاً جسمياً أو جسدياً بل تناولاً روحياً بالإيمان".[1]

أما **الكاثوليك** فيعرّفونه بأنه: **"سر حضور الرب يسوع حضوراً حقيقياً بجسده ودمه ونفسه**

(١) وليسمن، تفسير أصول الإيمان، ص١٣٧/٢.

ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر، فيتحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه"[١]، ويقول (جون لوريمر): "هو سر فيه يحل المسيح حقيقة، وفيه يشترك المؤمن في الجسد والدم، وهو ذبيحة يقدمها الكاهن إلى الله، ويطلب من الله النعمة للأحياء والأموات".[٢]

أما **الأرثوذكس** فإنهم يعرّفونه بتعريف يشبه تعريف الكاثوليك تبعاً لاتفاقهم في غايته ومفعوله، يقول (حبيب جرجس): "سر **مقدّس به يأكل المؤمن جسد المسيح ويشرب دمه تحت أعراض الخبز والخمر**".[٣]

ثانياً: تسميات سر القربان:

نال القربان على مر العصور في المسيحية الكثير من التسميات المرتبطة تاريخياً بطقوس الكنائس المختلفة، ولعل تسميته بـ (كسر الخبز) هو الأقدم تاريخياً في المسيحية، ولقد ورد هذا الاسم له في سفر أعمال الرسل.

أما **مصطلح (الذبيحة)** فهو أيضاً من أقدم المصطلحات الطقسية في مصر الخاصة بالعشاء الرباني، فقد ورد عند (**تيموثاوس الأول**)[٤] الذي دعى هذا السر بـ (الذبيحة الروحانية) وكذلك ورد عند العلامة (**أوريجنس**)[٥] ، وفي الكنيسة البيزنطية يسمى هذا السر بـ (الليتورجيا الإلهية) وهو من أشهر أسمائه وأكثرها استعمالاً.

ويعد القديس **(أغناطيوس الأنطاكي)[٦] أول من أشار إلى هذا السر باسم (الإفخارستيا) التي تعني (الشكر)**، حيث استخدم هذه الكلمة في رسائله أربع مرات.[٧]

أما بالنسبة **للأقباط** فإن اللفظ الأكثر تداولاً بينهم هو (**القدّاس**)، وكذلك يستخدمون كلمة (الحَمَل) وقد دخل هذا الاصطلاح أيضاً إلى الطقوس الرومانية، أما السريان والموارنة فيُعرف العشاء الرباني عندهم باسم (أنافورا) وهي كلمة يونانية تعني تقديم القربان أو رفعه، وتتضمن أيضاً نصوصاً من الابتهالات التي تُقرأ في الصلاة الجماعية.[٨]

ثالثاً: سمو العشاء الرباني على باقي الأسرار:

يحظى هذا السر **بالمقام الأسمى في الفكر المسيحي** بين سائر الأسرار وذلك لأمور عدة:

---

(١) اليسوعي (بولس إلياس)، يسوع المسيح (شخصيته وتعاليمه)، ص٣٠٦.

(٢) لوريمر، تاريخ الكنيسة، ٤٨/٢.

(٣) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٦٢.

(٤) هو القديس تيموثاوس المشار إليه في رسالة بولس (رسالة إلى تيموثاوس) الأولى والثانية والتي حظيت بمكانة مرموقة في كتابات العهد الجديد، كان أحد رجال المسيحية البارزين في القرن الميلادي الأول، وكان مصاحباً لبولس في عدد من رحلاته التبشيرية، حتى أقامه بولس أسقفاً على مدينة إفسس، توفي سنة ٩٧م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص١٥٠.

(٥) أوريجنس ١٨٥ – ٢٥٠م، لاهوتي مسيحي، ولد في مصر بالإسكندرية، وتوفي بمدينة صور بلبنان، وهو أحد آباء الكنيسة، وعمل في حقلي التدريس والتبشير، ووضع عدداً من الشروح التوراتية والرسائل اللاهوتية، سُجن آخر حياته، وسرعان ما لاقى نحبه متأثراً بالعذاب الشديد الذي أُنزل به، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٧٤.

(٦) أغناطيوس أفرام الأول، بطريرك أنطاكية للسريان الأرثوذكس، وباحث أديب، من أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق، سرياني الأصل، ولد سنة ١٨٨٧م، وانتخب بطريركاً على أنطاكية وسائر المشرق، وأقام في حمص وتوفي بها، من مؤلفاته: (نزهة الأذهان في تاريخ دير الزعفران) و(الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة)، توفي سنة ١٩٥٧م، انظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ٣٣٥/١.

(٧) انظر: المقاري (أثناسيوس)، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص١١٦.

(٨) انظر: بشارة (نقولا)، سر العشاء الرباني، ص٩، والمقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص١١٧.

١- **غزارة نعمه وسموه عن الإدراك؛** لأن النعمة في باقي الأسرار تُظهر فاعليتها بحالة غير منظورة تحت مادة منظورة، وتلبث تلك المادة غير متغيرة ولا مستحيلة، أما في هذا السر فيستحيل جوهر المادة لأن الخبز والخمر مع حفظهما شكليهما وأعراضهما يستحيلان بوجه سري عجيب إلى جسد المسيح ودمه.

٢- **يمنح المسيح المؤمنين بواسطة باقي الأسرار بعضاً من مواهبه الخلاصية** بحسب طبيعة كل سر، أما في هذا السر فإن المسيح يقدّم ذاته غذاءً مقدّساً، وبتناول المؤمن للخبز فإنه يتحد به اتحاداً تاماً، ويثبت فيه إلى الأبد.

٣- **يُعدّ** العشاء الرباني **ذبيحة تقدّم لله كفارة عن جميع البشر.**(١)

رابعاً: أوقات إقامة العشاء الرباني:

اختلف المسيحيون في هذا الأمر، لذا فإن الطوائف والكنائس حتى المقاطعات المسيحية تستقل بإقامة العشاء الرباني في أوقات مغايرة للبقية.

ومن المعلوم أن المسيحيين يعظمون يوم الأحد، ويرون أن الأمر البدهي في موضوع إقامة العشاء الرباني **ينبغي أن يكون يوم الأحد؛** لأنه اليوم الذي صار بداية الخليقة الجديدة بقيامة المسيح من بين الأموات، لكن التاريخ الطقسي في التوراة يبين أن اليوم الذي يجب أن يُخص بإقامة العبادة والشعائر الدينية هو السبت، "اذكر يوم السبت لتقدسه... لذلك بارك الرب يوم السبت وقدّسه" [خروج: ٨/٢٠، ١٦]، وتتكرر هذه الوصية في عدة مواضع، فمن هنا نشأ الخلاف حول يوم إقامة طقس العشاء الرباني علماً أن الرواية الكتابية تفيد أن المسيح فعل هذا السر يوم الخميس.

- **في القرنين الأول والثاني للميلاد:** توضح رسالة بولس إلى أهل كورنثوس أن الاجتماع الإفخارستي كان يتم في المساء دون إيضاح يوم معين، وفي سفر أعمال الرسل نجد أن الكنيسة الأولى كانت تكرّم وتقدّس يوم الأحد باعتباره عيداً جديداً بمناسبة حصول القيامة فيه.

أما في عصر الرسل فقد كان العرف أن اليوم الوحيد للاحتفال بالإفخارستيا هو الأحد، فقد ورد في (الديداخي): "عند اجتماعكم يوم الرب اكسروا الخبز واشكروا الله بعد أن تكونوا اعترفتم بخطاياكم" [ديداخي: ١/١٤]، ويوم الرب هو يوم الأحد.

وكذلك النصوص الواردة من القرن الثاني توضح أن اجتماع الإفخارستيا كان يجري يوم (الاجتماع) الأحد قبل الفجر، ففي إحدى الرسائل التي بُعثت إلى الإمبراطور (تراجان) "يجتمع هؤلاء المسيحيون في يوم معين قبيل الفجر، وينشدون الأناشيد للمسيح إلههم، وفي المساء يتناولون طعاماً وضيعاً غريباً".(٢)

- **في القرون الثالث والرابع والخامس:** نجد في هذه القرون عودة إلى تعظيم يوم السبت، والحرص على إقامة الإفخارستيا فيه، يقول: (أوريجانوس): "إن الاحتفال الثاني المفروض بعد الاحتفال بالذبيحة الدائمة هو ذبيحة السبت، فعلى كل القديسين والأبرار أن يراعوا الاحتفال بالسبت أيضاً".(٣)

ويروي القانون رقم (١٦) من قرارات مجمع اللاذقية سنة ٣٨١م أن إقامة القداس الإلهي

---

(١) انظر: ليما، المعمودية الافخارستيا والكهنوت، ص٤٢، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٨٠-٨١.
(٢) المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص١٤١.
(٣) المرجع السابق، ص١٤٤.

كانت تتم يومي السبت والأحد، ويؤيد ذلك ما رُوي أن (أثناسيوس) شماس الإسكندرية كان يحضّر للشركة استعداداً لإقامة القداس الإلهي طوال الليل يومي السبت والأحد[١]، وهذا يدل على أن إقامة القداسات يومي السبت والأحد من كل أسبوع بدأت تُعرف في القرن الثالث الميلادي، ثم صارت عادة شائعة في القرن الرابع الميلادي، وامتدت حتى غطت القرن الخامس بأكمله.

- **القرن السادس الميلادي وما يليه:** عادت فكرة أهمية يوم الأحد تظهر في الأصداء المسيحية في القرن السادس؛ إذ لم يرد في الكتابات التي وردت منه أي إشارة إلى إقامة العشاء الرباني يوم السبت، وكذلك خلت كتابات وقوانين بطاركة الكنيسة في العصور الوسطى من الحديث عن إقامة الإفخارستيا يوم السبت، أما القرن الثالث عشر فقد تركز فيه تكريم يوم الأحد فقط.[٢]

ومع انتشار المسيحية في العالم على قرون عدة بدأت الكنائس بترتيب طقوسها الخاصة بالاحتفال بالإفخارستيا وتقديم القرابين في مناسبات كثيرة مضافة ليوم الأحد، وخصصت بعض الكنائس الشرقية يومي الأربعاء والجمعة لإقامة القدّاس، أما الكنائس الغربية اللاتينية فقد أصبحت تُقيم القدّاس يومياً وجوباً، وفرضت ذلك على كهنتها.[٣]

مما سبق يتبين أنه بعد العصور الوسطى صار أمر توقيت إقامة العشاء الرباني راجعاً إلى كل كنيسة حسب رؤيتها واستعدادها، ويرى (إلياس مقار) أن المسيح لم يعيّن ميعاداً لتناول هذه الفريضة، لذا فإنه يتحدد ميعادها حسب الاستعداد والملاءمة، فيجوز تناول الفريضة كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر، على ألّا يكون اقتراب مواعيد ممارستها أو تباعدها ما يمكن أن يقلل من هيبتها وقدسيتها وجلالها ونظامها.[٤]

خامساً: عناصر العشاء الرباني (مادته):

تتكون مادة الإفخارستيّا من عنصرين هما الخبز والخمر، وهما يشيران إلى جسد المسيح ودمه، فالخبز جسد المسيح المكسور والخمر دمه المسفوك.

أما الخبز فله شروط، أولاً **أن يكون مصنوعاً من دقيق القمح النقي، وثانياً أن يكون خبزاً مختمراً، وثالثاً: أن يكون خصيصاً لا عادياً**، ومراعاةً لهذه الشروط فقد اشترطت الكنيسة أن يُخبز بمعرفة رجالها حتى أنها لا تقبل خبزاً غيره، وليس غرضها الاطمئنان على سلامة الدقيق من الغش؛ بل الغرض أن يكون خبز الذبيحة مقدساً بالصلوات التي تتلى عليه وقت صنعه وغير مستعمل بأيدي الناس حفظاً وتعظيماً لكرامة السر واحتراماً للذبيحة نفسها، وأما اشتراط كونه خبزاً نقياً من القمح النقي فلأن حرمة السر وقداسته وعظمته تستلزم أن يكون كل شيء فيه نقياً وطاهراً.[٥]

ولقد اختلفت الكنائس فيما بينها حول جواز استعمال الفطير في طقس العشاء الرباني باستبداله بالخبز، ونشأت منازعات شديدة في القرن الحادي عشر حول هذه الفكرة، **فالكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) رفضت استعمال الفطير**؛ لأنه مصنف في اعتقادهم عادةً يهودية،

---

(١) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص١٤٤-١٤٥.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٥٧، ١٦٠.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٦٦.
(٤) انظر: مقار (إلياس)، القضايا المسيحية الكبرى، ص٥١٤.
(٥) انظر: الباش (حسن)، العقيدة النصرانية بين القرآن والإنجيل، ص١٩٥، وسلامة (يوحنا)، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣١١/١-٣١٢.

ويرون أنهم ليسوا ملزمين بعادات اليهودية بعد مجيء المسيح، **أما الكنيسة الغربية (الكاثوليك) فقد أجازت استعماله في العشاء الرباني**؛ باعتبار أن القانون الكنسي يجيز ذلك ويجيز أيضاً استخدام خبز الخمير، وبناءً على هذا الخلاف فإن استخدام الفطير يُفسد سر العشاء الرباني في الرؤية الأرثوذكسية، أما في عند الكاثوليك فيُحبّذ استعمال الفطير بديلاً عن الخبز، ولا يؤثر استعمال الخبز على السر وفاعليته، لكنه خلاف الأولى.(١)

أما العنصر الثاني (الخمر) فقد أمرت الكنيسة أن يكون من عصير الكرمة (العنب) دون غيره؛ وترى الكنيسة أن **العلة في هذا التحديد** أن المسيح استعمله حين أسس هذا السر، يقول (يوحنا ذهبي الفم)(٢): "ولماذا لم يشرب ماءً بعد القيامة بل خمراً؟ لكي يستأصل هرطقة أخرى أيضاً من أصولها، لأنه إذ كان قوم يستعملون في الأسرار ماءً لا خمراً فقد أوضح عندما سلّم الأسرار سلّمها بخمر، وعندما وضع مائدة بسيطة بعد القيامة من دون الأسرار استعمل الخمر أيضاً، وقد قال (من عصير الكرمة) أما الكرمة فلا تعصر ماءً بل خمراً، وقد حذّر مجمع قرطاجنّة استعمال غير الخمر في الإفخارستيا".(٣)

والقوانين الكنسية تعطي تعليمات معيّنة حول هذا الأمر كما يلي:

١- أن يكون الخمر نقياً كما يليق بعظمة السر، ولا يُرفع إلى السر إلا ما كان على هذه الصفة.

٢- ألّا تدخل عليه مادة أخرى أيّاً كان نوعها باستثناء الماء.

٣- ألّا تزداد كمية الماء فيفقد الخمر منظره.

٤- ألّا يُبدّل الخمر بشيءٍ من الأنبذة المسكرة المطبوخة بالنار، أما مزج الخمر بالماء فهو تذكار للدم والماء اللذين جريا من جنب المخلّص على الصليب.(٤)

المطلب الثاني: تاريخ سر الإفخارستيا وتأسيسه:

تعد القرابين إحدى أهم الشعائر في الأديان، وقد قدمت كل الشعوب قرابينها للآلهة لنيل رضاها وتجنب غضبها، كما عُرفت القرابين في العهد القديم، وقد كرست اليهودية لها مساحة واسعة من التوراة حيث فصلت أنواع القرابين ومناسباتها وشروطها والطقوس التي ترافقها، وتضمنت أغلب الأسفار إشارة إلى القرابين لكنها تركزت في سفر اللاويين على اعتباره سفراً تشريعيا بحتاً، وقد **مرت القرابين في اليهودية بعدة مراحل**:

أولها: القرابين البشرية، نصت شريعة اليهود على أن كل بكر من الأولاد يقدم قرباناً للإله "قدس لي كل بكر كل فاتح رحم من بني إسرائيل من الناس ومن البهائم إنه لي" [الخروج: ٢/١٣]، واستمرت القرابين البشرية إلى فترة طويلة من الزمن امتدت إلى ما بعد عهد سليمان، وهنا يظهر إشكال، فكيف يأمر الله أن يُقَدَّم البشرقرباناً لله، والأصح أن هذه الفكرة دخيلة على العهد القديم، وهي إحدى ألوان التأثير الوثني في اليهودية ، وأن الله لم يأمر أحداً بتقديم البشر

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٧٨.

(٢) هو القديس يوحنا فم الذهب أو الذهبي الفم المولود سنة ٣٤٧م، كان بطريرك القسطنطينة منذ سنة ٣٩٨ حتى سنة ٤٠٤م، وأظهر حماسة شديدة للإصلاح في زمانه، لكن ذلك أورثه نقمة الكبار والأثرياء، واتُّهم بالهرطقة، فنُفي عام ٤٠٣م، ثم أُعيد إلى منصبه ليُنفى مرّةً ثانية سنة ٤٠٤م، وحاز لقب (فم الذهب) لفصاحته وبلاغته، توفي سنة ٤٠٧م. انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٣٢٨.

(٣) سلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٢١/٢.

(٤) انظر: أَنِس (جيمس)، علم اللاهوت النظامي، ص٣١٩، وسلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٢٢/٢.

قرباناً، بل إن الله فدى البعض ممن حاول أن يقدم قرباناً بشرياً كإسماعيل، وبالرجوع إلى سفر التكوين يتبين الأمر بوضوح ويمكن حمل القربان المقصود على معنى أصح.

فالرب بعد أن طلب من موسى تقديس الأبكار من كل فاتح رحم علّمه كيفية ذلك فقال: "كلُبكر إنسان من أولادك نفديه" [تكوين ١٣/١٣]، فحقيقة الأمر هي الفداء وليست القربان، لذلك يقول موسى "أنا أذبح للرب الذكور من كل فاتح رحم – أي من البهائم – وأفدي كل بكرٍ من أولادي" [١٦/١٣].

أي أن القربان يكون بالبهائم وليس بالبشر، ولم تظهر فكرة القرابين البشرية إلا عندما بَعُدوا عن الديانة، لذلك يقول إرمياء: "بني يهوذا قد عملوا الشر في عيني الرب....بنوا مرتفعات ... ليحرقوا بنيّهم وبناتهم بالنار الذي لم آمر به ولم يمر على قلبي" [إرمياء: ٣١/٧].

ويرى فكري جواد أن كهنة اليهود قرروا بعد ذلك أن الإله يكتفي بجزء من الإنسان بدلاً من أن يضحّي بالإنسان كله، وهو ما يُقطع بعملية الختان، فبقيت عملية الختان رمزاً للقرابين البشرية إلى جانب القرابين الأخرى.(١)

ثانيها: القرابين الحيوانية والنباتية: تخلّص اليهود من القرابين البشرية وانتقلوا إلى القرابين الحيوانية والنباتية، لكنهم توسعوا فيها توسعاً أرهق الناس معهم.

ثالثها: القرابين الشفوية: جاءت في مرحلة متأخرة من سلسلة القرابين اليهودية، وتمثلت بالأدعية والصلوات، وكان ذلك بعد العودة من السبي البابلي حيث كان ذلك تطوراً لفكر اليهود.

وكانت القرابين الحيوانية **على أربعة أنواع** كما يأتي:

١- **ذبيحة المحرقة**: حيث تُحرق الذبيحة بأكملها عدا الجلد والأمعاء، ولا يؤكل منها شيء.

٢- **ذبيحة السلامة**: تقدم للشكر في ظروف الفرح، كما يقدمها الإنسان لأجل خير يرجوه أو يناله.

٣- **ذبيحة الخطيئة**: تقدم للتطهير من الخطايا التي تقترف دون قصد أو إرادة.

٤- **ذبيحة الإثم:** تقدم هذه الذبيحة للتطهير من الذنب الذي ارتكبه الإنسان عن عمد، أما القرابين النباتية فمنها الدقيق مع الزيت، ومنها المخبوز في التنور، ومنها المعدّ على الصاج، ومنها المطبوخ، ومنها باكورات المزروعات، ومنها الدقيق الجاف، وكل ذبيحة وتقدمة مما سبق لها طقوسها الخاصة بها.(٢)

وأما **أهم قربان في العهد القديم فهو قصة قرباني هابيل وقابيل** اللذين قدماهما فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، ويربط الأب (متى المسكين) بين كل أنواع الذبائح والقرابين في الديانات الإبراهيمية فيرى أنه وجد عند كل اللاهوتيين شرقاً وغرباً وحتَّى عند واضعي الليتورجيات اتجاهٌ عامٌ باعتبار الإفخارستيا ذات استمرار عميق وسري لذكرى الذبيحة التي قدمها (هابيل) الصديق، وذبيحة (ملكي صادق) وذبيحة النبي إبراهيم ابنه إسحاق.

ويؤمن المسيحيون أن السيد المسيح أسس لأتباعه سر الإفخارستيا في ليلة عيد الفصح الذي يحتفل به اليهود، "ففي ذلك اليوم قبل أن يقدّم اليهود فصحهم بيوم واحد أرسل اثنين من تلاميذه إلى أورشليم ليعدا الفصح، وفي الليلة التي أسلم فيها المسيح نفسه حضر مع تلاميذه الاثني عشر إلى صهيون، وهناك غسل أرجل تلاميذه معلماً إياهم التواضع، ثم سلمهم سر جسده ودمه

---

(١) انظر: عبد، (فكري جواد)، قرابين التوراة وتوظيفها الديني، مركز دراسات جامعة الكوفة، العراق، د/ط.ت، ص١٢-١٣.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣١٥.

الأقدسين".[1]

ولقد وثّقت الأناجيل **الأربعة إضافة إلى بعض رسائل بولس حادثة العشاء الرباني الأخير** الذي أجراه المسيح مع تلاميذه في تلك الليلة، يقول متى: "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" [متى: ٢٦/٢٦-٢٨].

ويقول مرقس: "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي، ثم أخذ الكاس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلهم، وقال لهم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين" [مرقس: ١٤/٢٢-٢٤].

ويقول لوقا: "وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم اصنعوا هذا لذكري، وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم" [لوقا: ٢٢/١٩-٢٠].

ويقول يوحنا: "فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم، من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق، من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه" [يوحنا: ٦/٥٣-٥٦].

ويقول بولس: "إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزاً، وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم اصنعوا هذا لذكري، كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري، فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء" [كورنثوس١: ١١/٢٣-٢٦].

هذه الأدلة يعتمدها المسيحيون في إثبات حادثة العشاء الرباني الأخير، وربما تندرج هذه الأدلة - بغضّ النظر عن صحة مضمونها – ضمن الحادثات المتعددة الواردة في الكتاب المقدّس التي تروي إطعام المسيح لأصحابه وللكثير من الناس وإشباعهم من الطعام القليل، كحادثة تكثير أرغفة الخبز الخمسة حتى أكل منها خمسة آلاف شخص [متى: ١٥/٣٢-٣٨]، وحادثة العرس التي حوّل المسيح فيه أجران الماء إلى خمر حين علم نفاد الخمر وعدم كفايته للحاضرين [يوحنا: ٢/١-١٠].

وبناءً على الأدلة السابق عرضها والحوادث المشار إليها **نمت فكرة العشاء الرباني في المسيحية** وترعرعت مسألة تحول الخمر والخبز إلى جسد المسيح ودمه، مع أن مسألة اجتماع تلاميذ المسيح في بعض الأماكن وتناولهم الخبز بشكل جماعي كانت أمراً طبيعياً، بل هو تقليد استمده المسيحيون الأوائل من اليهود، ولم يكن يحمل أي إشارة طقسية أو أي معنى لكونه سراً مقدّساً، إنما **استنبط المتأخرون في القرون التالية هذه الإشارة من الأقوال المنسوبة للمسيح**، يقول (جينيبر): "كان الاثنا عشر أيضاً عندما يلتقون في دار أحد الإخوة يطعمون الخبز جماعةً، واتخذ هذا التقليد الشائع بين بني إسرائيل والذي نرجّح أن عيسى كان يقوم به أيضاً عند مشاركته للحواريين في الطعام اتخذ في معناه لديهم ثوباً رمزياً للوحدة، وحدة بين أعضاء الجماعة ووحدة بينهم وبين المسيح، غير أن الدلائل كلها تشير إلى أنهم حتى ذلك الوقت لم يكونوا ليربطوا بصلة ما بين كسرة الخبز وبين موت المسيح، ولم يحملوا التقليد في ذاته فيما تبلغ به مستوى الشعائر القدسية، كما لم يُرجعوا أصل وجوده ووجوب القيام به إلى تعاليم

(١) دول ري (تسيو)، الأسرار حياة الإيمان، ص١٨٨.

أستاذهم".[١]

يُصرّح هذا النص أن المسيح وتلاميذه كانوا متبعين **لتقاليد اليهود في تناولهم الخبز بشكل جماعي**، فهذا الأمر لم يكن حديث النشأة على عهد المسيح، كما يبين أن المسيح إن فعل ذلك فإنه لم يفعله ليربط بينه وبين موته.

مما سبق نستنتج أن **شعيرة العشاء الرباني كانت تمارس على أنها اتباعٌ لعُرفٍ يهودي منتشر في فلسطين**، وأما قضيّة عدّها شعيرة مقدسة فيرى (جنيبير) أنها ذات منشأ بولسي، فبولس هو الذي أحدثها شعيرةً مقدّسة واجبة التناول على جميع المسيحيين، يقول (جينيبر): "شعر بولس بضرورة الكشف عن المغزى العميق لتقليد تناول الخبز جماعة، ولقد وجد له تفسيراً برباط لا ينفصم إلى عذاب عيسى الذي تحمّله لتخليص البشرية، وغمره غمراً بذلك المفهوم الخصب للتضحية من أجل التكفير ومن أجل التقرب والمشاركة في الذات الإلهية، فجعل منه غاية لسرور رفيع وتذكرةً ورمزاً حياً أرادهما عيسى نفسه فيما زعم بولس لما لقيه من عذاب الصلب.... ولم يكن قد قُدِّر لأي طقس من طقوس (الأسرار الوثنية) أن يذخر بمعانٍ وفيةٍ مثل ما ذخرت به الطقوس الخاصة بالقربان لدى (بولس)، غير أنها كانت من قبيل عائلة الطقوس الوثنية، ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودي، ولقد دخلت في كنيسة الحواريين قطعة من الوثنية، ولكن المسيحيين تقبّلوها أيضاً بصدرٍ رحب لأنها أضافت إلى إيمانهم درجة أخرى من التسامي".[٢]

ويقول (أثناسيوس الرسولي): "كان خدمة الصباح في المجتمع اليهودي في السبوت من جهة، وكانت الصلوات والممارسات الطقسية التي تحيط عموماً بأي وليمة يهودية طقسية وعلى الأخص وليمة الفصح السنوية من جهة أخرى هما القسمين الرئيسين اللذين تكوّن منهما قسما القدّاس الإلهي في الكنيسة المسيحية.... فمن الخدمة الصباحية في يوم السبت في المجتمع اليهودي أخذنا نظام القراءات، التي أصبحت تشكّل القسم الأول من القدّاس.... ومن تسابيح الفصح أخذنا صلاة الشكر الطويلة التي تُصلّى على الخبز والخمر، والتي أصبحت تشكّل القسم الثاني من القدّاس....أما الصلوات الإفخارستية.... فهي ليست إلا صيغة بركة يهودية على الخبز والخمر".[٣]

إذاً **فلم يكن للعشاء الرباني طقساً خاصاً به في العصور الأولى**، بل كانوا يأكلون الخبز في اجتماعهم تعبيراً عن الأخوة، وسيأتي الحديث عن أصل هذه الشعيرة وبيان منشئها في المطالب القادمة إن شاء الله.

أما عن **نشأة فكرة الحضور الإلهي** للمسيح يقول (ديورانت): "نشأت عقيدة حضور المسيح في أثناء العشاء الرباني نشأة بطيئة، وكانت الصياغة لهذه العقيدة هي التي أذاعها مجلس نيقية الثاني في عام ٧٨٧م، ثم قام راهب بندكت فرنسي يدعى رتراموس عام ٨٥٥م وقال: إن الخبز والخمر المقدّسين لم يكونا جسم المسيح ودمه إلا بطريقة روحية لا جسدية، وقام برنجر رئيس شمامسة نور حوالي عام ١٠٥٤م وجهر بارتيابه في تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، فكان جزاؤه الحرمان من الدين".[٤]

المطلب الثالث: الجذور الآبائية للإفخارستيا:

---

(١) جينيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٠٩.
(٢) المرجع السابق، ص١١٠.
(٣) المقاري، القدّاس الإلهي سر ملكوت الله، ص١٦٨-١٨٩.
(٤) ديورانت، قصة الحضارة، ١٨/١٦.

يرى اللاهوتيون المسيحيون أن آباء الكنسية أقاموا الإفخارستيا من قديم الزمان وكانت لهم سرَ الأسرار المسيحية، فليس القربان المقدس فعلاً حديث العهد بين المسيحيين، لكن الفرق بين اللاهوت الحديث ولاهوت الإفخارستيا الآبائية أن الآباء والقديسين الأوائل لم يقتربوا من الإفخارستيا بطريقة عقلية بحتة، ولم يعالجوها بالفهم التشريحي المنطقي، بل اقتربوا منها بقلوبهم وحياتهم اليومية وعملوا بها بفهم التقوى الخلاصي داخل نطاق الخبرة المسيحية الكنسية، فلم يسأل الآباء عن كيفية تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وإنما سألوا: لماذا يتم هذا التحول؟ وقد أكد الآباء على الجانب الروحي للتقدمة القربانية بمعنى أن القربان أمر خلاصي وُضع من أجل توحيد المؤمنين المسيحيين بالحياة الملكوتية الأبدية وتخليصهم من الخطايا، وكانوا يقولون إن الإفخارستيا كانت للمسيحيين الأوائل مثل لؤلؤة كبيرة متعددة الأوجه وضعوها ونظروا إليها بقلوبهم أمام نور روح القدس.

أولاً: الديداخية:

ورد في مخطوط الديداخي: "أما عن سر الشكر فاشكروا هكذا أولاً على الكأس .... نشكرك يا أبانا لأجل الكرمة المقدسة التي أزهرت من داود عبدك والتي أعلنتها لنا وعرفتنا بابنك يسوع المسيح، لك المجد إلى كل الدهور، وبخصوص الخبز...نشكرك يا أبانا لأجل الحياة والمعرفة التي أعلنتها لنا بيسوع ابنك لك المجد إلى كل الدهور، وكما كان هذا الخبز المكسور مبعثراً على الهضاب ثم جمُع وصار خبزة واحدة هكذا فلتجمع كنيستك من كل أطراف المسكونة إلى ملكوتك لأن لك المجد والقوة بيسوع المسيح إلى كل الدهور".(١)

وقد جاء فيها عدم صحة الأكل من الإفخارستيا قبل التعمد باسم الرب في الكنيسة، وجاء فيها أحكام أخرى تخص القربان، كما يلاحظ فيها ارتباط الطقوس الإفخارستية بيوم الأحد وأن الاجتماع العام للكنيسة يميزه القربان أكثر من أي شيء آخر، كما يوجد فيها نصوص أخرى توجب الاعتراف بالخطيئة قبل الأكل من القربان المقدس وكذلك توجب تتميم سر التوبة والاعتراف قبل المشاركة في القربان.(٢)

ثانياً: القديس أغناطيوس الأنطاكي:

القديس أغناطيوس هو الأسقف الثاني على أنطاكية بعد القديس بطرس الرسول وكان تلميذاً للقديس يوحنا، حكم عليه بالموت وأُخذ إلى روما فأُلقي للوحوش هناك سنة ١١٠ ميلادية، فكتب في رحلته هذه سبع رسائل ذكر فيها الإفخارستيا واستشهد بها وشبه نفسه بالحنطة التي تطحن من أجل أن تصير خبزاً للقربان المقدس، ومن أقواله فيها: "جاهدوا أن تجتمعوا كثيراً لأجل الإفخارستيا وتمجيد الله لأن قوى الشيطان تضمحل وقدرته تنحل أمام وحدة إيمانكم، لا شيء أفضل من السلام لأنه يجرد أعداءنا المنظورين وغير المنظورين من كل أسلحتهم".(٣)

ثالثاً: القديس يوستينوس الشهيد:

ولد القديس (يوستينوس) في عائلة وثنية في نابلس في فلسطين سنة ١٠٠ للميلاد وتثقف بثقافة وثنية عالية، ثم تحول إلى المسيحية قبل سنة١٣٥ للميلاد، وانتقل بعدها إلى أفسس ثم إلى روما يعلم الإيمان المسيحي، وقد كتب رسالة إلى امبراطور روما شرح له فيها الإفخارستيا وقدم لها وصفاً دقيقاً مع سر المعمودية، وتُعدّ شهادته الأولى عن ممارسة الكنيسة الرومانية للطقوس الكنسية، كما يضفي عليها اللاهوتيون أهمية خاصة؛ بسبب الخلفية الفلسفية العالية لهذا

---

(١) باسيلي (بنيامين مرجان)، الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، ص٧٤.

(٢) انظر: اسكيف (وكيم)، أقدم الشهادات على عقيدة الإفخارستيا، ص٨-١١، وباسيلي، الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، ص٧٥-٧٦.

(٣) المرجع السابق، ص٧٨-٨٢.

القديس، ويؤكد القديس (يوستينيوس) فيها على اشتراط الإيمان والمعمودية لمن أراد التناول من القربان، كما يتحدث عن انتهاء العهد القديم وذبائحه وبداية العهد الجديد بالذبيحة التي قدمها يسوع المسيح على الصليب، ويبين أن الاشتراك في الإفخارستيا هو اشتراك في جسد المسيح ودمه وليس في خبز عادي، والأهم من ذلك أنه يحدد ملامح الممارسة الليتورجية حيث القراءة من كتب الرسل أولاً ثم الصلوات لأجل المسيحيين ثم صلوات التقديس ثم التسبيح والتناول.[١]

رابعاً: القديس إيرناؤس أسقف ليون:

ولد هذا القديس في آسيا الصغرى سنة ١٣٠ للميلاد، وتربى في عصر الرسل والقديسين، وانتقل إلى روما ثم إلى ليون في فرنسا وصار كاهناً فيها، ويعد أهم لاهوتي في القرن الثاني بلا منازع، وله كتاب كبير مهم اسمه "ضد الهراطقة" يرد فيه على الغنوصيين، ومن اللافت للنظر أنه يستخدم عقيدة الإفخارستيا في الرد عليهم، وإذا أردنا أن نستخلص أهم ما قاله عن القربان فهناك كلامه عن صلاة الاستدعاء، وهي عبارة عن تراتيل تسمى (سر حلول الروح القدس)، وكلامه عن الطبيعة الذبيحية للإفخارستيا كيلا تنفصل عن القرابين، وكذلك أنها طريق إلى الخلود وعدم الفساد، ويؤكد إيرناؤس على صلاح الخليقة المادية وهو ما يرد به على الغنوصية القديمة.[٢]

خامساً: الآباء الأفارقة:

أشهرهم الأب (ترتليانوس وكان كاهناً قرطاجياً، وله كتاب اسمه (قيامة الأجساد(تحدث فيه عن الإفخارستيا وكونها غذاءً للروح، ويرى بأن جسد المسيحي ونفسه متضامنان، وأن الأسرار تطهر الجسد وتباركه، وفي أحد نصوصه" إن المسيح ودمه هما أشياء واقعية حقيقية تماماً كما هو ماء المعمودية أو زيت مسحة المرضى".[٣]

ومنهم القديس (كبريانوس) المولود سنة ٢٠٠ للميلاد، كان في بداية حياته وثنياً وتحول إلى المسيحية وأصبح أسقفاً على قرطاجنة، ثم هرب منها بسبب الاضطهاد، وقد تكلم في أحدى رسائله عن الذين يضعفون أثناء الاضطهاد، فقال "كيلا نترك أولئك الذين نحثهم على الدخول إلى المعركة بدون سلاح، يجب أن نحصنهم بحماية جسد ودم المسيح، إن الإفخارستيا قد أسست لأجل هذا السبب لكي تكون حارساً للمتناولين منها".[٤]

سادساً: الآباء الإسكندريون:

أولهم العلَّامة (إكليمندس الإسكندري) المولود سنة ١٥٠ للميلاد، اعتنق المسيحية، وأصبح عميد المدرسة الإسكندرية اللاهوتية، ثم نُفي بسبب الاضطهاد، له كتاب اسمه (المُرْبَى) يقول فيه: "هكذا يخلط الخمر بالماء، ويخلط الروح بالإنسان بطريقة مشابهة، الواحد يغذي بالإيمان والآخر يقود إلى عدم الفساد، إن خليط الإثنين الشراب واللوغوس يدعى الإفخارستيا".[٥]

ومنهم المفسر الكتابي(أوريجانوس) اللاهوتي الذي ولد مسيحياً في الإسكندرية وتلقى تعليماً قوياً فيها، وعيَّنه البابا خلفاً لأستاذه (إكليمندس)، يتكلم في كتاباته عن التفاعل الروحي الشخصي

---

(١) انظر: اسكيف، أقدم الشهادات على عقيدة الإفخارستيا، ص١٧-٢٤، وباسيلي، الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، ص٨٣-٩٢.

(٢) انظر: اسكيف، أقدم الشهادات على عقيدة الإفخارستيا، ص٢٤-٣٠، وباسيلي، الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، ص٩٢-٩٩.

(٣) اسكيف، أقدم الشهادات على عقيدة الإفخارستيا، ص٣١-٣٥.

(٤) باسيلي، الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، ص١٠٧.

(٥) اسكيف، أقدم الشهادات على عقيدة الإفخارستيا، ص١٠٦-١٠٩.

في سر الإفخارستيا، وله نصوص كثيرة في الرد على الوثنيين باستخدام الإفخارستيا.[١]

سابعاً: الآباء الشرقيون:

منهم القديس "أثناسيوس" الرسولي المتوفى سنة ٣٧٣ بعد ميلاد المسيح، ويُعرف عند المسيحيين بأنه بطل الأرثوذكسية العظيم الذي قيل عنه: لولا أثناسيوس لصار العالم كله آريوسياً، يقول (أثناسيوس) بخصوص سر الإفخارستيا: "سوف ترون الشمامسة يحضّرون الخبز وكأس الخمر ويضعونهم على المائدة....بعد النطق بالصلوات العجيبة والعظيمة حينئذٍ يصير الخبز جسد ربنا يسوع المسيح والخمر يصير دمه".[٢]

ومنهم القديس (كيرلس الأورشليمي) المتوفى سنة ٣٨٦ للميلاد، الذي يُعد من أعظم مَن تحدّثوا عن التعاليم اللاهوتية في الإفخارستيا، ومن جملة أقواله: "لنتقدم بثقة كاملة نتناول جسد ودم المسيح لأن جسده يُقدّم إليكم في شكل الخبز ودمه في شكل الخمر، هكذا بالتناول من جسد ودم المسيح تصيرون جسداً واحداً معه.... وهكذا حين ينتقل جسده ودمه إلى أجسادنا نصير حاملين للمسيح كما قال المغبوط بطرس (شركاء الطبيعة الإلهية)".[٣]

ومنهم القديس (غريغوريوس النيصي) أسقف نيص في تركيا، المتوفى سنة ٣٩٥للميلاد، وله الكثير من الكلام حول مسألة العشاء الرباني وقد جمعه في كتاب سمّاه (مقالات لتعليم الموعوظين والمعمّدين حديثاً بخصوص سر الإفخارستيا) يقول فيه: "نحن نؤمن أن الخبز الذي تقدّس بكلمة الله يتحول إلى جسد الله الكلمة، إنه يتحول إلى الجسد عن طريق الكلمة كما قال (هو ذا جسدي) الله وحده بطبيعتنا القابلة للفساد لكي بالاشتراك في ألوهيته تتأله الطبيعة البشرية، لهذا السبب وحّد نفسه (بتدبير النعمة) بكل المؤمنين عن طريق الجسد الذي من الخبز والخمر، هكذا يوحّد نفسه بأجساد لكي بالاتحاد بذاك الذي هو غير فاسد يستطيع الإنسان أن يشترك في عدم الفساد وهو يسكب ذلك بقوة صلاة الإفخارستيا محولاً طبيعة العناصر المرئية إلى شيءٍ خالد".[٤]

ومنهم القديس (يوحنا ذهبي الفم) المتوفى سنة ٤٠٧ للميلاد، وكان أسقفاً للقسطنطينية ومعلّماً للكنيسة، تحدّث عن الإفخارستيا ومكانة هذا السر في المسيحيين، يقول: "ليس أحد من بين البشر هو الذي يحوّل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح، لكن المسيح نفسه الذي صُلب عنّا، إن الكاهن يقف متمثلاً بالمسيح وينطق بالكلمات، ولكن القوة والنعمة هي قوة ونعمة الله....هذا هو جسدي، هذه الكلمات تحوّل القرابين تماماً....بالرغم من أنها قيلت مرة واحدة فمنذ ذلك الحين وفي هذا الزمان وحتى يجيء، في كل الكنائس على كل مائدة تتم وتتحقق بها الذبيحة الكاملة".[٥]

ثامناً: الآباء الغربيون:

ومنهم القديس) أمبروسيوس) المتوفى سنة ٣٩٧ للميلاد، الذي كان أسقفاً على مدينة ميلان، وكان قد كتب عدة مقالات عن الأسرار، يقول: "فإن كانت بركة الإنسان لها مثل هذه القوة حتى تغيّر قوانين الطبيعة فماذا نقول عن ذلك التقديس الإلهي الذي تعمل فيه نفس كلمات الرب المخلّص، لأن ذلك السر الذي تتناولونه يصير هكذا بكلمة المسيح ....إنه جسد المسيح بالحقيقة الذي صُلب ودُفن، وهذا هو بالحقيقة سر جسده، والرب يسوع نفسه يعلن (هذا هو جسدي)، قبل

---

(١) انظر: باسيلي، الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، ص١٠٣-١٠٥.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص١١٠.
(٣) المرجع السابق، ص١٢١.
(٤) باسيلي، الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، ص١٢٦.
(٥) المرجع السابق، ص١٣٢.

بركة الكلمات تكلّم عن الخبز، وبعد التقديس تكلّم عن طبيعة أخرى، عن الجسد".[١]

ومنهم القديس (أوغسطينوس) المتوفى سنة ٤٣٠ للميلاد، وهو واحد من أعمدة الكنيسة الكبار، وكان لمؤلفاته أثر كبير في اللاهوت المسيحي، وكان يدعو الإفخارستيا (سر التقوى) و(علامة الوحدة) ورباط المحبة)، يقول: "الخبز الذي نراه على المذبح والذي تقدّس بكلمة الله هو جسد المسيح، والكأس والذي تقدّس بكلمة الله هو دم المسيح .... الذي نراه هو خبز وكأس وعيناك تؤكدان ذلك، ولكن ما يتطلع إليه إيمانك هو أن الخبز هو جسد المسيح والكأس هي دم المسيح.... الذي أعطى تلاميذه الخبز والكأس هو نفسه الذي يقدّس اليوم هذه الأشياء، ليس إنساناً هو الذي يقدّس جسد ودم المسيح هنا أمامك، ولكن المسيح نفسه الذي صُلب لأجلك، الكلمات ينطقها فم الكاهن ولكن الجسد والدم يتقدسان بقوة الله ونعمته".[٢]

كل هؤلاء الآباء والقديسين والكهنة واللاهوتيين تكلموا عن الإفخارستيا وقاموا بها ودرَّسوها واستنتجوا منها القيم والمعاني الدينية، وقد استخدم اللاهوتيون المسيحيون كلامهم وشهاداتهم للدلالة على أن الإفخارستيا ليست وليدة القرون المتأخرة، بل مورست في طقوس الكنائس المسيحية منذ عصر الرسل وما بعدهم ثم عصر الآباء وحتى اليوم.

المطلب الرابع: الحضور الإلهي للمسيح في سر الإفخارستيا:

تبين معنا في المطالب السابقة أن عناصر الإفخارستيا لا تبقى بعد مباركة الكاهن عليها خبزاً وخمراً بسيطين، بل يتناولهما المؤمن على أنهما جسد المسيح نفسه ودمه نفسه، وذلك يتم باستحالة وانتقال الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه، وهذه الاستحالة سرية لا تُدرك بالحواس، **ودليل هذه الاستحالة** هو أقوال المسيح نفسه، بالإضافة إلى القداسات المنتشرة في الكنائس المختلفة، وكذلك أقوال الآباء التي سبق عرضها في المطلب السابق.

١- أقوال السيد المسيح:

يرى المسيحيون أنه وردت عبارات في الكتاب المقدّس على لسان المسيح تفيد حصول الاستحالة المشار إليها، يقول المسيح: "أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم" [يوحنا: ٥/٦]، وحين سلّم تلاميذه السر قال لهم: "خذوا كلوا هذا هو جسدي .... هذا هو دمي" [متى: ٢٦/٢٦، ٢٨].

٢- القداسات المستعملة في الكنائس:

إذا رجعنا إلى كتب القداسات المستعملة في الكنائس سنجدها متفقة في تضرعاتها على الكلمات التالية: "ليحل روحك القدوس على هذه القرابين الموضوعة، ويطهرها وينقلها ويظهرها قدساً لقديسيك، وهذا الخبز يجعله جسداً مقدساً له، وهذه الكأس أيضاً دماً كريماً للعهد الجديد..."[٣]

ويرى المسيحيون أن الخبز والخمر في هذا السر المقدّس هما جسد المسيح ودمه، فيجب أن تقدّم لهما العبادة والسجود، يقول القديس (يوحنا ذهبي الفم): "هذا الجسد لما كان بعد في المذود خجل منه المجوس، ورجال كفرة وبرابرة تركوا أوطانهم وبيوتهم وقطعوا طريقاً طويلة، وأتوا بخوف وارتجاف كثير وسجدوا له، فلنقتديَنَّ إذاً بالبرابرة على الأقل نحن أبناء السموات؛ لأن

(١) اسكيف، أقدم الشهادات على عقيدة الإفخارستيا، ص٤٢-٤٧.
(٢) باسيلي، الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، ص١٣٦.
(٣) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٩٨.

أولئك مع أنهم رأوه في مذود وضمن كوخ ولم يروا شيئاً مما تراه أنت الآن تقدموا برعب كثير، وأما أنت فلست تراه في مذود بل على مذبح، ولست ترى امرأة حاملة إياه بل كاهناً واقفاً وروحاً طائراً على الموضوعات ونازلاً عليها بغزارة، لأنك لست تنظر الجسد وحده فقط على بسيط الحال مثل أولئك، لكنك تعلم أيضاً قدرته ....وليس خافياً عليك شيء مما تمم به لأنك متعلم جميع الأسرار".(١)

المطلب الخامس: المعاني الروحية للعشاء الرباني:

يرى المسيحيون أن الكثير من المعاني الروحية تنضوي ضمن شعيرة العشاء الرباني؛ والسبب في ذلك هو أن **العشاء الرباني يمثّل الجانب الأهم والأكثر شعبية بين الشعائر الدينية،** فلذلك كان طبيعياً أن يطرح اللاهوتيون المسيحيون الكثير من الآراء والإشارات الروحية فيه ويستنبطوا منه المعاني العقائدية التي تتناسب مع الفلسفة المسيحية الكبرى، وبناءً على ذلك رأى المسيحيون في العشاء الرباني انعكاساً لقضية القربان والذبيحة وبياناً لمعالمها وإجراءاتها في المسيحية.

كما رأوا فيه مدخلاً **مهماً للشركة المقدسة،** وهي التي تقوم على توحيد المؤمنين بعضهم مع بعض ثم دمجهم في اللاهوت المسيحي عن طريق التناول.

ورأى المسيحيون في العشاء الرباني رمزاً للشكر الإلهي على نعمة فداء البشرية بالصلب واستحقاق الخلاص بذلك؛ تعبيراً عن موت الخطيئة وتجاوزها بالاندماج بالمسيح ونوال النعمة الإلهية.

أولاً: الإفخارستيا سر القربان:

تقدمت الإشارة إلى أن مسألة القربان تعدّ قضية جوهرية في صلب الكثير من الديانات السابقة بما في ذلك الديانات السماوية، وما زالت تفسيرات اللاهوتيين والمؤرخين وعلماء الاجتماع تظهر من كل وادٍ تفسيراً لهذه الظاهرة، وكلٌ من جهته جَهِدَ في تحديد معناها وردّها إلى الخوف أو الفرح.

ولعل **المعنى الروحي في شعيرة القربان يمكن تحديديه بأن الإنسان حين يتجه إلى الله بصلاته وعباداته تبرز له حاجة نفسية هي أن يقدّم لله ذبيحةً أو قرباناً تمثّل أغلى ما لديه وأهم ما في حياته،** وذلك تعبيراً منه عن حاجته إلى الشعور بالسكينة النفسية التي تُبنى على رضا الله عنه.

هذا الشعور المشار إليه يعبّر عنه المسيحيون بـ **(العطش إلى الله)** و(التوق إلى الله)، ورد في المزامير: "عطشت نفسي إلى الله الحي" [مزمور: ٢/٤٢].

ويفسّر المسيحيون مسألة التوق إلى الله والعطش إليه أن المؤمن المسيحي حين يشعر بهذا التوق فإنه **يعترف بأن الله كائن لا شيء خارجه سوى غياهب الظلمة والفراغ والعبثية،** فهو وحده علة كل موجود ومعناه وغايته، وأن يتوق المؤمن إلى الله يعني أن يحبه من كل قلبه وذهنه وكيانه، كما يعني أن يعترف ويشعر بأنه ليس في آخر المطاف سوى خطيئة واحدة هي عدم التوق إلى الله.(٢)

وعندما يشعر الإنسان بالعطش إلى الله ويعي الخطيئة التي يتخبط بها ويتطلع إلى الحياة الحقة فإنه لا بد من ذبيحة، وهو بذبيحته يقدّم نفسه وكل ما لديه لله، وباعتبار أن الخطيئة تقف حجرَ عثرة في طريق الإنسان نحو الله فإن الإنسان يتوسّل بهذه الذبيحة لينال الصفح والمغفرة،

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٠.

(٢) انظر: شميمن، الافخارستيا سر الملكوت، ص١٤٩.

وتكون هذه الذبيحة له كفارة عن خطاياه ليلقي على الله أثقال عذابه وآلامه التي رافقته منذ ولادته.[١]

ويرى المسيحيون أن جميع الإجراءات التي تحويها شعيرة القربان المسيحي قد نُقّيَت وجُدِّدَت، وظهرت بأجلى بيان على أنها ذبيحة الحب الكامل، وعليه الحياة الكاملة التي تعني أن يبذل الإنسان نفسه بالكامل في المسيح.

ويرى المسيحيون أنه بالمسيح أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ليفديهم عن خطيئة أبيهم الموروثة، وفي المسيح أحب الإنسان الله حتى أسلمه ذاته، وفي سبيل العمليتين السابقتين ساد الحب كل شيء وانتشر في العالم، وهذا هو منطق الحب الذي يؤمن به المسيحيون.[٢]

فهذه الذبيحة باعتبار أنها ذبيحة محبة فقد تمكنت بالمحبة فقط من منح مغفرة الخطايا، ونشرها بين البشر، فارتوى عطش الإنسان الذي كان يشعر به نحو الله منذ فجر الخليقة؛ إذ صارت الحياة الأبدية في المسيح طعامه وحياته بإجراء هذه الذبيحة.

ويبقى **موضوع هذا السر وفلسفة عطش الإنسان صعبة الفهم في كثيرٍ من جزئياتها؛** إذ السر فيها غير ظاهر بشكل واضح، إلا أن المنطق المسيحي يرى لذلك تبريراً، فيقولون إن كنه هذا السر مغمورٌ بالفرح، بمعنى أن مشاعر الإنسان من حيث إظهار سعادته الكبيرة في انتهاء عهد الخطيئة ومغفرة الخطايا ربما تحول دون ظهور هذا السر بشكلٍ واضح.

ويعتقد المسيحيون أن إجراء هذا السر يُداخل حياة المسيح بحياة المؤمنين به، ويجعل من ذبيحته وذبيحتهم واحدة ويجعل قربانه قربانهم، لا سيما أن المسيح قال: "أثبتوا فيّ وأنا فيكم" [يوحنا: ١٥/٤].

ثانياً: الإفخارستيا سر الشركة وسر الوحدة

يرى المسيحيون أن العشاء الرباني يمثل **مظهراً مهماً من مظاهر الوحدة بين الأتباع في المسيحية،** ومن هذا القبيل يطلقون عليه (سر الوحدة)، ويستدلون على ذلك بأقوال بعض آباء الكنيسة، يقول القدّيس أغناطيوس: "إنها الوحدة في الإيمان والمحبة"[٣]، ويقول القديس (باسيليوس الكبير)[٤]، "أما نحن المشتركين في الخبز الواحد والكأس الواحدة فاجعلنا جميعاً متحدين بعضنا ببعض في شركة روح قدس واحد".[٥]

وهذه الوحدة المشار إليها في الكلام المسيحي تتوضّح أكثر في مفهوم الشركة، إذ يرون أن العشاء الرباني **شعيرة تُشرك المؤمنين فيها ظاهراً في التناول ومعنى في الاشتراك الاعتقادي والمصيري،** هذا على **المستوى الأول** من الشركة.

أما **المستوى الثاني والأهم للشركة فهي شركة جميع المؤمنين المتناولين في جسد المسيح،** وإن كان هذا السر يتم في جميع كنائس الأرض فإن جسد المسيح واحد ودمه واحد في جميع الأمكنة والأزمنة، والمسيح حاضر فيها بذاته، ولا يمكن أن يُفهم ذلك إلا بالإيمان.[٦]

---

(١) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٥١.

(٣) سلسلة آباء الكنيسة الأولى، الآباء الرسوليون، ص٣٤٤.

(٤) باسيليوس (٣٢٩ - ٣٧٩) ولد في قيصرية الكبادوك، وأُرسل في سن مبكرة إلى مدرسة قيصرية، ثم انطلق يبحث عن النساك في الإسكندرية وصعيد مصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين، فأُعجب جدًا بحياتهم، فعاد ليبيع كل ما يخصه ويوزعه على الفقراء، ويبحث عن مكانٍ للوحدة، كان صارمًا في نسكه، حتى أضنى جسده، توفي سنة ٣٧٩ م، انظر: https://ar.wikipedia.org.

(٥) باسيليوس الكبير، الصلاة الإفخارستية، ص١٩.

(٦) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٩٩.

وعليه فإذا كان الجسد المقدّس يُفصل ويقسّم في سر العشاء الرباني ويوزّع على المؤمنين تحت شكلي الخبز والخمر اللذين بهما يصير الجسد والدم منظورين، إلا أنهما **كاملان بذاتهما وغيرُ منقسمين،** ولهذا **يؤمن المسيحيون أن كل جزء من هذا السر المقدّس حتى أصغر الأجزاء منه ليس هو جزءاً من جسد المسيح ودمه، بل به ينال المؤمن جسد المسيح كله ودمه كله.**

إن القربان الذي يتناوله المسيحيون في القداس الإلهي والمكون من الخبز والخمر، هو مكون للشركة بين كل المسيحيين المؤمنين المتناولين لهذا القربان، فإن المؤمنين في كل مكان يتناولون نفس الجسد فيشكلون جسداً واحداً، وفي ذلك يقول بولس الرسول: "كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح، والخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح، فإننا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد، لأننا نشترك في الخبز الواحد" [كورنثوس١: ١٠/١٦-٢١]، وقال القديس يوحنا فم الذهب: "قال شركة ولم يقل مجرد مساهمة لأنه شاء أن يوضح ويثبت أبلغ اتحاد وانضمام، وكما أن الخبز يتألف من حبات كثيرة حتى أن الحب لا يستبين قط لكنه موجود فهكذا يكون اتحادنا في المسيح اتحادنا الواحد مع الآخر لأننا كلنا نتغذى من جسد واحد".(١)

ومن نصوص القداس الإلهي وترتيلاته يقول المسيحيون: "اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارة لأجسادنا وأنفسنا وأرواحنا، لنصير جسداً واحداً وروحاً واحداً، ونجد نصيباً وميراثاً من جميع القديسين الذين أرضوك منذ البدء"(٢)، وبذلك يصبح بين المسيحيين وحدة دينية روحية، تدفعهم إلى أن يتوحدوا في الحياة كلها الدينية والدنيوية ويبتعدوا عن التفرق والتشتت، وسميت الإفخارستيا من أجل ذلك بسر الشركة وسر الجماعة وسر الكنيسة.

وقد فهمت المعمودية أيضاً على أنها شركة في المسيح فكانت الأسرار كلها تدعو إلى الوحدة بين المؤمنين، لكن القربان المقدس أوضح وأجلى من غيره في ذلك إذ **يفترض التناول من القربان أن يكون المتناول منه متصالحاً مع كل المؤمنين لأنهم إخوة وأخوات في عائلة الله الواحدة،** وبذلك تكون الإفخارستيا أيضاً تحدياً مستمراً في البحث عن العلاقات الملائمة في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ودافعاً قوياً ضد كل أنواع الظلم والاضطهاد والعنصرية.

فإذا شارك المؤمن في الإفخارستيا ولم يقف موقفاً إيجابياً من الإصلاح الاجتماعي فإنه يناقض نفسه ويجعل من العبادة منظراً شكلانياً لا أكثر، كما تدفع العبادة الإفخارستية إلى تبادل السلام والاعتراف المتبادل بالخطايا وحمل الخبز والخمر إلى المرضى والمسجونين من كل أنحاء العالم دون تفرقة بين أحد.(٣)

ويبقى الانقسام بين الكنائس المسيحية حاجزاً كبيراً أمام تحقيق هذا المقصد الديني، فكيف يشكل القربان وحدة بين المتناولين منه إذا كانوا مختلفين في معاني هذا التناول وإذا كانوا مختلفين على قضايا دينية أهم من القربان المقدس؟

ثالثاً: الإفخارستيا سر الشكر:

يعتقد المسيحيون أن شعيرة العشاء الرباني تتضمن سر الشكر، إذ يعدّ المسيحيون أن أداء طقس الإفخارستيا يخاطب البشر فيه خالقهم، ويقدمون له الشكر بواسطة المسيح، ومن هذا المنطلق كان اسم (الإفخارستيا) هو أحب الأسماء إلى آباء الكنيسة خلال القرنين الأول والثاني.

---

(١) ذهبي الفم (يوحنا)، القداس الإلهي، ص٣١، ولجنة الحياة الكنسية، مدخل إلى الطقس الكنسي، ص٣٧.
(٢) المحرقي، القيم الروحية في سر القربان، ص٩٨.
(٣) انظر: ليما، المعمودية والإفخارستيا والكهنوت، ص٥٠.

ويعلق بابوات الكنيسة على سر الإفخارستيا: "إذ يقف الإنسان أمام العرش الإلهي..... يعود إليه الفرح، فلا يجد لديه ما يقدمه سوى (الشكر)، فالإفخارستيا هي حالة الإنسان الكامل، هي الحياة في الفردوس.....مقدمين بالحق تسبحة الشكر اللائقة به".(١)

ومهما تغير شكل القربان المقدس ومهما كانت طقوس التناول مختلفة عن شكل القرابين الدينية الباقية تبقى **الإفخارستيا في اعتقاد المسيحيين ذبيحة**، فالمسيح حين أسس السر قال: "هذا هو جسدي...هذا هو دمي" واللحم والدم عنصران للذبيحة الحقيقية، كما أن فصل عنصري الذبيحة عن بعضهما يعبر عن طقوس الذبيحة العبرية، ففي سفر التثنية: "إحترز ألّا تأكل الدم، لأن الدم هو النفس فلا تأكل النفس مع اللحم، فتعمل محرقاتك لا يؤكل منها شيء البتة، اللحم والدم على مذبح الرب إلهك، وأما ذبائحك فيسفك دمها على مذبح الرب" [تثنية: ١٢/٢٣-٢٧]، فيلاحظ أن الدم واللحم يفصل الحديث عنهما في التوراة كما فصل المسيح الكلام عليهما، فاستنتج بولس الرسول كلمته الشهيرة: "المسيح فصحنا ذبح لأجلنا" [كورنثوس١: ٥/٧]، وقد بين ذلك المسيح نفسه عندما قال كما نقل عنه متى: "هذا هو دمي الذي يسفك عنكم" [متى: ٢٦/٢٨]، فتبقى الإفخارستيا ذبيحة، وذبيحة قربانية حقيقية، لكنها اتخذت شكلاً جديداً بسبب العهد الجديد الذي حصل بين الله الأب والبشر.(٢)

إن **رمزية القربان المقدس من وجهة النظر اللاهوتية تتجلى في طقسها وشكلها**، فتحضير الخبز القرباني يشير إلى ذبح حمل الفصح ويعبر سكب الخمر في الكأس عن تدفق الدم والماء من جنب المسيح المصلوب، ممثلة بذلك أبرز عنصرين في الذبيحة، فلا يجب أن تفقد الإفخارستيا تعلقها بالذبائح القربانية اليهودية التي تعبر عن كامل العبودية للإله طلباً للمغفرة.(٣)

ثم إن **هذه الذبيحة المقدمة عن كل الناس ليس للإنسان فضل فيها أبداً**، لأنها ليست باستحقاقاته، بل هي باستحقاقات المسيح، فالذي مات هو ابن الإله، أي أن الفضل كله يعود فيها لله، والمسيحيون يقدمون القربان عن الأحياء والأموات، كي تصبح الإفخارستيا ذبيحة شكر عامة لله على نعمه وآلائه على الخليقة(٤)، إذاً **سر الإفخارستيا امتدادٌ لذبيحة الصليب الواحدة** تقوم بها الكنيسة على الدوام لتجعل تلك الذبيحة الأبدية حاضرة في وسط المؤمنين بالمسيح إلهاً، لكن ذلك لا يعني أن المسيح يذبح كل مرة في القربان، فما يحصل في القربان لا يحصل له البتة، إنما يحصل للمتناولين من القربان، فهذه أهم القيم والمعاني الدينية والكنسية التي تتمخض عنها الليتورجيا الإفخارستية واللاهوت القرباني المسيحي، وإن كان هناك الكثير من المعاني والقيم الأخرى، فإن هذا الطقس ضارب في جذوره عبر التاريخ المسيحي، فأعان ذلك على استنتاج الكثير من المعاني الروحية.

---

(١) انظر: ملطي (تادرس يعقوب)، المسيح في سر الإفخارستيا، ص١٣.
(٢) انظر: المسكين، الإفخارستيا عشاء الرب، ص٢٠٠.
(٣) انظر: اليسوعي، الإفخارستيا الله فينا، ص٣٩.
(٤) انظر: المحرقي، القيم الروحية في سر القربان، ص٢٩.

المبحث الثاني: العناصر الليتورجية في طقس القربان

وبناءً على المنزلة المشار إليها في المبحث السابق للعشاء الرباني فقد **أحاطت بها الكثير من النُظُم العبادية والتراتيل والصلوات** التي تشكّل طقوساً ذات أهمية في المسيحية، ولقد **تعارف المسيحيون على إطلاق لفظ (ليتورجيا) على هذه الطقوس والتراتيل والأساليب الخدمية** التي ترافق العبادات في المسيحية لا سيما العبادة الأهم الإفخارستيا.

المطلب الأول: تعريف الليتورجيا وفوائد معرفتها وتطورها:

أولاً: مفهوم الليتورجيا:

كلمة (ليتورجيا) لفظة يونانية، وتعني في الأصل اليوناني الكلاسيكي خدمة عامة تؤدى لأجل الجماعة، فهي كلمة مؤلفة من كلمتين:

- (ليوو) أو (ليئوس): وتعني الجماعة.
- (أرجيا) أو (أرجيئوو) وتعني عمل.[١]

فالمعنى العام لها هو العمل الجماعي أو الشعبي، ومن هنا استعملت هذه الكلمة للإشارة إلى أي عمل شعبي من أي نوع كان من غير اقتصار على الإشارة إلى الأعمال الدينية.

ومنذ الترجمة السبعينيّة[٢] للعهد القديم في القرن الثالث قبل الميلاد **استخدمت الكلمة خصيصاً لتحمل معنى (الخدمات التي كانت تقدّم في الهيكل اليهودي)**، ويستخدم كُتّاب العهد الجديد ترجمة كلمة ليتورجيا مرتين بمعنى العبادة، ورد في شأن زكريا عليه السلام "ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته" [لوقا: ٢٣/١]، "وبينما هم يخدمون الرب" [أعمال الرسل: ٢/١٣]، وباقي المرات التي وردت فيها كانت تعني (الخدمة) سواء الخدمة الروحية أم الجسدية.

وعندما تكلّم (بولس) عن خدّام الله أو عن نفسه خادماً ليسوع المسيح فإنه استخدم كلمة (ليتورجوس) في الأصل اليوناني لرسالة رومية ليشير بها تحديداً إلى الخدمة الكهنوتية.

ولقد **انحصر استخدام الكلمة في كنيسة العهد الجديد لتشير إلى طقس الإفخارستيا باعتبارها العمل الشعبي الأساس في الكنيسة**، كما يمكن أن تستخدم أحياناً لتشير إلى **الصلوات الطقسية** في الكنيسة بأنواعها كافةً.[٣]

ثانياً: فوائد معرفة الليتورجيا:

يرى المسيحيون أن **لمعرفة الليتورجيا الفوائد التالية**:

١- **عمق الخدمة الإلهيّة الصائرة في الكنيسة.**

٢- **الليتورجيا تجعل الجميع يغوصون أكثر فأكثر في أعماق العبادة الإلهيّة؛** لأنّها تعلّم ما الذي يحدث بالضبط في العبادة الإلهيّة.

٣- **تساعد الليتورجيا من خلال معطياتها على معرفة ما هو الأمر الأساسيّ في العبادة الإلهيّة** الذي لا غنى عنه، **وما هو الشيء الثانويّ** والشكليّ العابر.[٤]

---

(١) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٣٢، وملطي، المسيح في سر الإفخارستيا، ص٥.

(٢) الترجمة السبعينية: وهي ترجمة السبعين شيخاً من اليهود للكتاب المقدس، ويُطلق عليها أيضاً (الترجمة اليونانية السكندرية)، ويرى اليهود أنها إحدى الأحداث العظيمة في تاريخهم، وقد تمت هذه الترجمة سنة ٢٤٧ ق.م، وحظيت باعتراف المجتمع اليهودي في نفس السنة، انظر: ناظم (سلوى)، الترجمة السبعينية للعهد القديم بين الواقع والأسطورة، ص١٧-١٨.

(٣) انظر: المقاري (أثناسيوس)، معجم المصطلحات الكنسية، ٤٤/٣.

(٤) انظر: موقع المطران: https://almoutran.com.

وهكذا يظهر لنا أنّ **هدف الليتورجيا مزدوج** وهو:

نظريّ: معرفة وفهم العبادة الذي احتلّ مكاناً مركزياً في الكنيسة وأسهم إسهاماً أساسياً في حياتها.

عمليّ: الكشف عن المعنى الأصيل والعميق للخدمة، كي تستطيع الكنيسة أن تتمّم عبادتها بشكل صحيح. (١)

ثالثاً: تطوّر الليتورجيا فرعاً لاهوتيّاً:

لم تكن ممارسة الشعائر العملية والطقوس مقترنة بأي نص من نصوص الليتورجيا أيام المسيح، وهذا ما تشير إليه نصوص الكتاب المقدسة التي يستدل بها المسيحيون على الأسرار ونسبتها للمسيح، لذا فإن **الليتورجيا المعروفة في أيامنا ليس لها أصلٌ كتابي،** وهي عبارة عن اجتهاد بشري محض.

وأقدم نصوص لليتورجيا الموجودة بين أيدي رجال الكنيسة هي نصوص **منسوبة إلى بعض حواريي السيد المسيح** عليه السلام كيعقوب (أخو السيد المسيح) ويوحنا الحواري، واستمر رجال الدين في تأليف نصوص الليتورجيا أو ما يسمونه بـ الأنافورا زمناً طويلاً يقوى ويضعف حسب ما تقتضيه ظروف الجماعة المسيحية.

ويُلمح **الجانب التطوري** في نصوص الليتورجيا فيما يخص الشعائر الدينية **بأن أداء الأسرار والطقوس أصبح لا ينفكّ عن نصوص ليتورجية معروفة في الكنيسة، وتختلف هذه النصوص من كنيسة مليّة إلى كنيسة أخرى،** ومن طقس إقليمي إلى آخر، فللكنائس الأرثوذكسية الشرقية نصوص ليتورجية خاصة بها، وكذلك الكنائس الإنجيلية فللغربية منها نصوص وللشرقية نصوص أخرى.

وتطورت الليتورجية في القرن الرابع والخامس، لكن فيما بعد توقف التطور نحو القرن العاشر وخسرت حيويتها الأصلية بسبب قانونية الطقوس، ونتيجة الانفصال بين الإكليروس والشعب والاهتمام بقداسة الأمور الطقسية فتقلصت الليتورجية تحت ثقل القوانين الكنسية، وفي عصر النهضة أخذت تنشط وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعائر وآليات أدائها.

رابعاً: بداية تنوع طقوس الليتورجيا:

نالت شعيرة العشاء الرباني (الإفخارستيا) جل اهتمام الكنيسة المسيحية على مر العصور، وكانت حادثة العشاء الأخير الذي ترويه الأناجيل للسيد المسيح مع تلاميذه نقطة البداية لظهور التشكيلات الليتورجية المتنوعة والمختلفة شرقاً وغرباً، وبالرغم من بساطة ما تم في ذاك العشاء الأخير إلا أن المسيحيين يرون فيه العمق والغنى الكثير على بساطته.

نشأت الليتورجيات وتطورت أساليب إقامة العشاء الرباني من خلالها، ولم تكتسب وجهها الثابت إلا بعد زمن طويل، ففي بداية الأمر كانت هناك حرية في إقامة الشعائر، ولم يكن مشتركاً بين الكنائس سوى بنية الصلاة الإفخارستية، ثم نشأت أساليب عبادة ونصوص صلاة تداولها الناس، فشاعت حتى أصبحت سنناً وعادات، ولم تلبث أن تحولت إلى قوانين وليتورجيات.

وقديماً **كان لكل منطقة كنسية أو كما تسمى (إيبارشيَّة) أنافورا خاصة بها،** والقرون الثلاثة الأولى لا تعطي شواهد كافية يستدل بها على مراحل نمو الطقس الليتورجي، لكن من المؤكد أن القرن الثالث هو الوقت الذي بدأت فيه الليتورجيات بالنمو لتأخذ على مدى الزمن شكلها المحدد.

وبعد ظهور (آريوس) اتجهت الكنائس إلى تحديد شكل ليتورجي يحميها مما تظنه انحرافاً

---

(١) انظر: موقع المطران: https://almoutran.com.

كأقوال (آريوس)، وتداخلت هذه الضرورة مع عوامل أخرى في القرن الرابع الميلادي مثل ظهور مراكز كنسية ذات سيادة سياسية أصبحت هي الكنائس الأم التي التأمت حولها مجموعة من الكنائس، فأصبحت هذه الكنائس الأم مصدراً للتعليم والتنظيم والتشريع، ككنيسة القسطنطينية وكنيسة روما، وتمكنت بما لها من سيادة على الكنائس التابعة لها أن تفرض نصوصها وليتورجياتها عليها، ومن هنا أصبحت كتب الصلوات الليتورجية سبباً لظهور التشابه والتمايز الطقسي بين الكنائس.(١)

وسأقوم في المطلب الثالث بعرض الهيكل العام الذي تقام الليتورجيا الإفخارستية من خلاله وآليات إجرائه وإقامته ثم أبين في المطلب الأخير أساليب إقامته المعاصرة واختلاف الكنائس فيها.

المطلب الثاني: الاستعداد لتناول سر الإفخارستيا:

بناءً على أهمية الإفخارستيا من ناحية وتعاليم الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد التي تشير إلى الاستعداد لتناول وتقديم القربان رأى المسيحيون أن **اشتراك المؤمن في الإفخارستيا يجب ألّا يكون اقتحاماً، بل يجب أن يستعد المسيحي له استعداداً لائقاً**؛ لأنه مزمع أن يتقرب من الرب ويتناول من مائدته التي تشتهي الملائكة أن تطلع عليها.

أولاً: أدلة الاستعداد:

ولهذا الأمر بالاستعداد للتناول وحضور القربان أدلة يعتمد عليها المسيحيون، منها:

١- **من العهد القديم:** أمر الله موسى أن يستعد الشعب ويغسلوا ثيابهم ويتطهروا لليوم الثالث لإعطائهم الشريعة، "اذهب إلى الشعب وقدسهم اليوم وغداً وليغسلوا ثيابهم، ويكونوا مستعدين لليوم الثالث" [خروج: ١٩/١٠-١١]،

٢- **من العهد الجديد:** يقول (بولس): "ولكن ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس، لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه" [كورنثوس١: ٢٩/٢٨]، يستنبط المسيحيون من هذا الإعلان الإشارة إلى العقاب الشديد الذي يستحقه الذين يتقدمون لمناولة جسد الرب ودمه بقلوب شريرة وضمائر نجسة، فهم يدينون أنفسهم بهذا الأمر.

٣- **عظمة السر وواضعه:** يرى المسيحيون أن عظمة السر وجلال واضعه يقتضيان هذا الاستعداد.

٤- **مفعول السر:** يرى المسيحيون أن مفاعيل السر الخلاصية تحتم على المؤمن الاستعداد له.(٢)

وبناءً على ما سبق رأى المسيحيون أن حضور الإفخارستيا يجب أن يكون مسبوقاً بالاستعداد الملائم، والسبب الأهم أن هذا الحضور يمثّل في فكرهم اتحاداً بالإله واشتراكاً معه، فلا بد للمؤمن أن يكون مستعداً روحياً وجسدياً.

ثانياً: الاستعداد الروحي للإفخارستيا:

يقوم الاستعداد الروحي على أمورٍ ثلاثة، هي الإيمان بسر الإفخارستيا، والمحبة والسلام، والتوبة والاعتراف.

١- الإيمان بسر الإفخارستيا:

---

(١) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٣٤-٣٥.

(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/٢٧٩-٢٨٢.

يقوم الإيمان بسر الإفخارستيا بنية الاستعداد لحضور القربان الإلهي وتناوله على ركنين أساسيين هما **الإيمان بالاستحالة والإيمان بالجسد الكامل غير المنكسر**، أما الإيمان بالإستحالة فهي الاعتقاد بأن الخبز والخمر يصيران حقيقة وفعلاً جسد المسيح ودمه نفسه، وذلك بالقوة الإلهية التي تحل عليهما[١]، لذا **يؤمن الأرثوذكس والكاثوليك بالتحول السري غير المنظور للخبز والخمر بالقوة الإلهية وبفعل الروح القدس**، بحيث يتغيّر الجوهر مع بقاء المظهر.

وأما الإيمان بالجسد الكامل غير المنكسر فإن الكنيسة تؤمن بأن جسد المسيح لا ينقسم ولا ينكسر، وإن قسّمه الكاهن إلى أجزاء حسب ما يظهر أمام أعين الناس، فكل جوهرة صغيرة تعدّ جسداً كاملاً، وكل من يتناول إنما يتناول جسداً كاملاً في صورة هذه الجوهرة، ومثال ذلك الصوت الخارج من فم المتكلم قد يسمعه فرد واحد وقد يسمعه مجموعة أفراد، وفي الحالتين هو صوت واحد خارج من فم واحد لشخص واحد لا يتأثر بكثرة عدد سامعيه ولا بندرتهم.[٢]

٢- المحبة والسلام:

يرى المسيحيون أن الله أحب الناس ولم يأتمن على خلاصهم أحداً، لا ملاكاً ولا نبياً ولا غير ذلك، إنما بذل ابنه الوحيد لأجل خلاصهم، فقدّم المسيح مثالاً حياً للمحبة الباذلة، والله لا يطلب شيئاً سوى أن يقابل البشر هذا الحب بحبٍ مماثل، فمن هنا كان الشهداء والقديسون يتقدمون للاستشهاد بفرح وسرور لأنهم وهبوا أنفسهم لله، وأوصى الله عباده أن يحب بعضهم بعضاً، "وصية جديدة أنّ أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً" [يوحنا: ١٣/٣٤-٤٥]، كما أن مفهوم المحبة في المسيحية يذهب إلى أبعد من ذلك، فيرى المسيحيون أن محبة الأعداء واجبة، وهذا أمرٌ صعبٌ على النفس البشرية، أن تقدّم حباً مقابل إهانة، وتقدّم بركة مقابل لعنة، لكن المسيحيين يرون أن المسيح جسّد هذا الأمر في صورة عملية وهو على الصليب عندما طلب الغفران لصالبيه قائلاً: "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" [لوقا: ٢٣/٣٤].

وأما مسألة السلام والتصالح مع الآخرين فيستدلون عليها من الكتاب المقدس بالوصية التالية: "إن قدّمت قربانك على المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك وحينئذٍ تعال وقدّم قربانك" [متى: ٥/ ٢٣-٢٤].

٣- التوبة والاعتراف:

من أهم متطلبات الاستعداد الروحي لتناول الإفخارستيا أن يفحص الإنسان نفسه فحصاً جيداً ويقدّم توبة حقيقية واعترافاً صادقاً[٣]، يقول (بولس): "ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب الخمر من الكأس لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب".[كورنثوس١: ١١/٢٨-٢٩].

ويرى المسيحيون أن التوبة عمل مستمر، تجعل القلب يحتفظ بنقاوته على الدوام، يقول القديس (رويس): "إن الذي يتقدّم للتناول ينبغي أن يكون داخله بنقاوة أحشاء العذراء مريم التي حملت المسيح داخلها"[٤].

ويأتي دور الاعتراف في المرحلة الأخيرة فيدعم توبته بالجلوس مع أب الاعتراف ليعترف

---

(١) انظر: مينا، علم اللاهوت، ص٢٩١.
(٢) انظر: متاؤوس، كيف تستفيد من القداس الإلهي، ص١٦٩.
(٣) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/٢٨٤-٢٨٥، وكساب (حنانيا)، مجموعة الشرع الكنسي، ص٦٦١.
(٤) إبراهيم، سر الإفخارستيا في الطقوس والقوانين الكنسية، ص٣١.

بخطاياه التي فعلها، عندها يقرأ له الكاهن التحليل ليحله من رباطات خطاياه، فيكون بذلك مستحقاً للتناول من جسد المسيح ودمه.[١]

ثالثاً: الاستعداد الجسدي للتناول:

يرى المسيحيون أن حضور التناول والاشتراك به يتطلب جملة من الممارسات التي تمثّل استعداداً جسدياً للتناول.

١-ضبط حواس الجسد الظاهرة:

الحواس هي قوة طبيعية خلقها الله في الإنسان ليدرك بها كل ما يدور حوله من تغييرات، كما أنها بمنزلة النوافذ للجسد، تستقبل كل ما يوجه إليها من خارجه، وباعتبار أن هذه الحواس هي نوافذ مفتوحة على العالم الخارجي يجب ضبطها بإحكام حتى لا يتسرب من خلالها ما يلوّث الفكر وينجس القلب.

وضبط حواس الجسد يتحقق بالتدريب المستمر بين ما هو خير وما هو شر، لذلك يقول (بولس): "أما الطعام القوي فللبالغين الذين بسبب التمرن قد صارت الحواس مدربة على التمييز بين الخير والشر" [عبرانيية: ٥/١٤].

ومع أن الحواس محسوبة على الجسد لكنها تقف في المنتصف بين الروح والجسد، فتدريبها وضبطها يجعلها تعمل لصالح الروح وضد رغبات الجسد، وإهمالها يجعلها تلبي رغبات الجسد وشهواته.[٢]

٢-الاحتراس في الأكل:

ومما تجدر الإشارة إليه قبل البدء بشرح هذه الأفكار أن كلمة (الاحتراس) هي لفظ كنسي المقصود به الامتناع أو التوقف عن شيءٍ ما لفترة زمنية محددة، كالتوقف عن الأكل استعداداً لعملٍ روحي لازم وضروري، والتناول يأتي في قمة الأعمال الروحية اللازمة والضرورية للحياة الروحية والجسدية بالنسبة للمسيحي، وحددت الكنيسة زمن هذا الانقطاع بتسع ساعات على الأقل.

واستدلت الكنيسة على فرض الصوم الانقطاعي بأدلة منها:

أ. بطرس الرسول أوصى تلاميذه قائلاً: (لا تأخذ القداس إلا وأنت صائم نقي).

ب. أشار القديس (أبوليدس)[٣] إلى ذلك بقوله: (وكل مؤمن فليعلم أنه إن تناول السرائر قبل أن يذوق شيئاً ولا سيما إن كان عنده أمانة فليتناول، فإذا دفع له أحدٌ سم الموت فإنه لا يؤلمه).[٤]

واستدل المسيحيون على تحديد المدة اللازمة للانقطاع عن الطعام قبل التناول **بتسع ساعات** بما يلي:

أ. **رمز التجسد الإلهي في الحشا البتولي،** فلقد مكث المسيح في بطن العذراء مدة تسعة شهور قبل ولادته.

---

(١) إبراهيم، سر الإفخارستيا في الطقوس والقوانين الكنسية، ص٣٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٨، سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٨٤/١.

(٣) هو أحد بطاركة روما، وكان فاضلاً بين أبناء جيله فاختاروه لكرسي روما، وكان مداوماً على تعليم شعبه وحراسته من الآراء الوثنية، مثبّتاً إياهم على الإيمان بالسيد المسيح، وله في القوانين الآبائية ثمانية وثمانين قانوناً، انظر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت: https://st-takla.org

(٤) انظر: إبراهيم، سر الإفخارستيا في الطقوس والقوانين الكنسية، ص٤٨-٤٩.

ب. الانقطاع مدة تسع ساعات **يساعد الجسم على هضم المأكولات الأرضية، ويجعل الجسد كقبر جديد.**

ت. **إشارة إلى فترة الآلام وقت الصلب.**[١]

ومن الجدير بالذكر أن الأناجيل تروي أن المسيح عليه السلام في الليلة التي أسس فيها لسر العشاء الرباني أكل مع تلاميذه خروف الفصح، "وفيما هم يأكلون (خروف الفصح) أخذ الخبز وبارك وكسّر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي" [متى: ٢٦/٢٦]، والكتب المسيحية تعترف بهذا الأمر وتقره، ويبقى السؤال هنا ما معنى الانقطاع عن الأكل إذا كان المسيح وبحضوره شخصياً أعطى تلاميذه ليتناولوا بعد أن أكلوا خروف الفصح مباشرة، فلم يكن المسيح صائماً ولا تلاميذه، وربما يكون موضوع الصيام والانقطاع دخيلاً على التعليم المسيحي، بأن يكون لوناً من ألوان التأثير البولسي أو الوثني.

٣-الاحتراس في النوم:

يقصد المسيحيون بهذا الأمر الامتناع عن تلبية رغبات الجسد الجنسية للمتزوجين، وذلك بهدف الانصراف لفترة زمنية عن تلبية رغبات الجسد والاهتمام بما للروح، **أما غير المتزوجين فإن الاحتراس في النوم هو حفظ طهارة الفكر أثناء النهار بحفظ حواس الجسد الظاهرة من المعثرات التي تثير غرائزه،** حتى لا ينعكس ذلك على الإفرازات الجسدية.[٢]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكنيسة لا تعدّ المعاشرة الزوجية خطيئة ولا نجاسة على خلاف الشريعة اليهودية، لكن ممارستها في الليلة السابقة للتناول يعد فطراً للجسد، ومن يفطر لا يجوز له التناول، وهذا الامتناع مأخوذٌ من الشريعة التوراتية، فالمسيحيون يرون أن الله عندما كان يريد أن يخاطب عبده موسى أمام بني إسرائيل كان يأمره أن ينادي بينهم بأن يعتزلوا نساءهم ثلاثة أيام ويتطهروا حتى يخاطبه الله أمامهم [خروج: ١٩/١٦].

وتنص التوراة على أنه "إذا حدث من رجلٍ اضطجاع زرع يرحض كل جسده بماء ويكون نجساً إلى المساء وكل ثوب وكل جلد يكون عليه اضطجاع زرع يغسل بماءٍ ويكون نجساً إلى المساء، والمرأة التي يضطجع معها رجل اضطجاع زرع يستحمان بماء ويكونان نجسين إلى المساء" [اللاويين: ١٥/١٦-١٨].

٤-النظافة الجسدية:

يرى المسيحيون أن الله يقبل العبد الخاطئ عندما يأتي إليه ويتوب على أي حالة كان، لكن في الوقت نفسه لا مانع من أن يأتي إليه بمظهر لائق مقبول؛ لأن ذلك أدعى لفرح الله وسروره، ومن هنا فإن لنظافة الجسد المرتبة الثانية في الأهمية بعد نقاوة القلب وطهارة الفكر والضمير.[٣]

المطلب الثالث: الخطوات الإجرائية في العشاء الرباني:

كان اهتمام المسيحيين بالعشاء الرباني ترجمة عملية لكونه الشعيرة الأهم والأقدس، ومع ذلك فقد **كانت حادثته** المنسوبة للمسيح **غاية في البساطة،** لكن الاجتهادات الآبائية في إجراء

---

(١) انظر: إبراهيم، سر الإفخارستيا في الطقوس والقوانين الكنسية، ص٥٠-٥٣.
(٢) انظر: حليم (عادل)، الجنس والزواج، ص١٠٤.
(٣) انظر: يوأنس، بستان الروح، ١٩٥/١.

هذا السر أخذت نطاقاً واسعاً فيما يُعرف بالخولاجيات، حتى غدا السر مختلفاً في شروطه وإجراءاته وخطواته عن البساطة المشار إليها، فغدت **غاية في التعقيد**، ولم تكتمل البنية لإقامة هذا السر إلا في القرن الخامس عشر للميلاد.

والكنيسة في أيامنا تلتزم بإقامة هذا السر حسب الوصايا والتعاليم الآبائية، فليس من المقبول أن يحضر الكاهن ورعايا الكنيسة حول المذبح أو الهيكل ضمن الكنيسة ثم يقوم بكسر الخبز وبلّها بالخمر ثم تقديمها للحاضرين بهذه البساطة، بل لا بد من وجود مجموعة كبيرة من الإجراءات الطقسية يُقدّم هذا السر من خلالها.

وسأقوم بعرض هذه الخطوات مشيراً إلى أهم إجراءاتها والدلالات الرمزية التي تصحبها.

يرى المسيحيون أن الإجراءات التي تتألف منها شعيرة (العشاء الرباني) تنقسم إلى ثلاثة أقسام، الأول: تقدمة الحمل، والثاني: قدّاس الكلمة، والثالث: قدّاس المؤمنين.

وسأقوم بعرض الإجراءات العامة لهذه الأقسام الثلاثة دون الدخول في تفصيلاتها تجنباً للإطالة.

أولاً: تقدمة الحمل:

يتألف طقس تقديم الحمل من عدة إجراءات هي كما يلي:

١- استبراء الحمل ومسح ظهره، ثم استبراء الخمر.
٢- غسل الكاهن ليديه.
٣- مسح الكاهن لخبز التقدمة بيديه فوق وأسفل مع صلاة.
٤- تذكارات الحمل.
٥- دورة الحمل حول المذبح.
٦- رشومات الحمل.
٧- مزج الخمر بالماء في الكأس.
٨- ترتيل الذُّكصا.
٩- صلاة الشكر.
١٠- أوشية التقدمة، أو صلاة الغطاء.
١١- صلاة التحليل.

وسأعرض نبذة موجزة عن كل خطوة من هذه الخطوات.

١- استبراء الحمل ومسح ظهره، ثم استبراء الخمر:

طقس استبراء الحمل بسيط للغاية، لا يعدو **اختيار الحمل ووضعه على يمين المذبح، ولا تصاحبه أي ممارسات ليتورجية**، ويتم فيه التأكد من أن القربان كامل المواصفات وليس فيه عيب، ثم التأكد من كمال الاستدارة، أي كون الجزء الخاص بالمسيح من القربان موضوع من جهة الكاهن، أما استبراء الخمر فيكون بعد أن يضع الكاهن الحمل على المذبح، ويتم فيه التأكد من سلامته وأنه بلا شوائب.(١)

وترى بعض الكنائس كالكنيسة اليونانية أن تقديم الحمل يرمز إلى مجيء العذراء إلى المغارة لتلد ابنها البكر، واستخراج الحمل واختياره يشير إلى ولادة المسيح.(٢)

---

(١) انظر: غريال الخامس، الترتيب الطقسي، ص٦٤، المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٢٨٦.
(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٢٦/١.

٢- غسل الكاهن ليديه:

جميع الخولاجيات المخطوطة تذكر هذا الأمر، وغسل اليدين **يكون بعد اختيار الحمل** "ويُحضَر الحمل ويغسل القس يديه بماء، ويمسح القربان بعد تصفحه واختيار ما يصلح منه".[١]

ينقل الأنبا (أثناسيوس المقاري) أن المخطوطات الخولاجية تنقسم في هذه الجزيئة **ثلاثة أقسام**، الأول يرى أن غسل الكاهن ليديه لا تصاحبه أية صلوات وهو الأقدم، والثاني يرى أن الكاهن يجب عليه أن يصاحب غسل يديه بتلاوة من المزامير، والثالث يرى وجوب مقارنة غسل الكاهن ليديه بتلاوات وصلوات غير معينة[٢]، وغسل الكاهن ليديه أثناء طقس تقديم الحمل إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه عند اقترابه من هذه الذبيحة من طهارة القلب ونقاوة الضمير.[٣]

٣- مسح الكاهن لخبز التقدمة بيديه فوق وأسفل مع صلاة:

يرى المسيحيون أن هذه الجزئية تتألف من ممارستين طقسيتين، وذلك بأن يأخذ الكاهن القربان ثم يمسحه على الطريقة التي يعتقد المسيحيون أن المسيح مُسح بعا قبل تسليمه لسمعان الكاهن، وبعد ذلك يدوّرُ الكاهن القربان على يديه كدوران سمعان الكاهن بالمسيح في الهيكل، ثم يتسلمه كاهن آخر ويضعه في المذود ويلفه بالخرق كما فعلت العذراء عند الولادة بالمسيح.[٤]

٤- تذكارات الحمل:

بعد الخطوة السابقة يطلب الكاهن أدعية وطلبات من أجل الأحياء الذين سألوه أن يذكرهم، ثم من أجل المسافرين والمرضى، ثم لأجل الراقدين على الإيمان.[٥]

٥- دورة الحَمَل حول المذبح:

يلف الكاهن الحمل بلفافة حرير إشارة إلى الأقطمة التي لفت بها العذراء ابنها يسوع وقت ولادته [لوقا: ٧/٢].[٦]

ومن النصوص الخولاجية التي وصلت حول هذه الجزئية تتضح النقاط التالية:

أ. يردد الكاهن (مجداً وإكراماً للثالوث) وهو واقف عند المذبح.

ب. يحمل الحمل مكشوفاً على يديه.

ت. بعد انتهاء الكاهن من ترديداته يناول الحمل للشماس الخادم معه والواقف على يمينه، فيتلقاه الشماس من يده على لفافة من لفائف الهيكل ويغطي الحمل بأطرافها، ويدور به حول المذبح.[٧]

ودورة الحمل في المذبح على يد الكاهن إشارة إلى عمل سمعان الشيخ الذي حمل المسيح

---

(١) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٢٩٣، نقلاً عن مخطوط لأبي البركات المعروف بابن كبر بعنوان كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، المكتبة الأهلية بباريس، رقم (٢٠٣)، لوح ١٧.

(٢) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٢٩٥-٢٩٦.

(٣) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٣٠/١.

(٤) انظر: ابن سباع، الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة، ص١٨٠.

(٥) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٢٤/١-٣٢٥.

(٦) انظر: المرجع السابق، ٣٢٧/١.

(٧) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٣١١.

على ذراعيه وطاف به في المذبح [لوقا: ٢٨/٢][١]، بعد ذلك يضع الشماس الحمل على المذبح في صينية إشارة إلى عمل العذراء حين أضجعت المسيح في مذود بعد تقطيمه، أي بعد لفّه في قطع القماش.[٢]

٦- رشومات الحَمَل:

تشير الخولاجيات القديمة إلى وجوب ثلاث رشمات على القربان بداية، يقول (ابن كبر)[٣]: "عند مسح القربان بالماء قبل تقدمته يرشم الكاهن بالصليب على كل قربانة ثلاثاً ويقول: مجداً وكرامة للثالوث المقدّس الآب والابن والروح القدس، وعند قوله في صلاة السر باركهما قدّسهما طهّرهما يصلّب على القربان والكأس جملةً ثلاثاً".[٤]

٧- مزج الخمر بالماء في الكأس:

تشير المصادر الطقسية إلى أن مزج الخمر بالماء بعد صبه في الكأس هو من اختصاص الشماس وليس الكاهن.[٥]

ومن نفس هذه القوانين نعرف أن الشمامسة هم الذين يمزجون الخمر بنحو ثلثه من الماء "والذين يناولون من الكأس - أي الشمامسة – فليعرفوا ألّا يتركوا فيه ماء كثيراً جداً خارجاً عن الحدود، ولا يزيد عن الثلث"[٦]، ويرى المسيحيون أن لوضع الخمر في الصينية معنى روحي يذكّر المسيحيين بآلام المسيح وموته.[٧]

٨- ترتيل الذكصا:

حين يبدأ الكاهن صلاته بقوله: "مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثالوث القدوس، الآب والابن والروح القدس..."، يردد الشماس قائلاً: "واحد هو الآب القدوس، واحد هو الابن القدوس، واحد هو الروح القدس..." فيجيبه الشعب قائلين: "المجد للآب والابن والروح القدس ...آمين"، وهذه الصيغة من الصلاة يسميها المسيحيون بـ (الذّكصا)، وهي أقدم صلاة مسيحية بعد صلاة "أبانا الذي في السموات..."، وتراتيل الذكصا موجودة في جميع كنائس العالم شرقية كانت أم غربية، وفي النهاية يرشم لجميع ذواتهم مرة واحدة.[٨]

٩- صلاة الشكر:

تبدأ بإعطاء الكاهن سلام المسيح للشعب بقوله: "السلام لجميعكم" فيجيبيه الشعب: "ولروحك أيضاً" "نشكر صانع الخيرات الرحوم الله أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح لأنه

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٣٣/١.
(٢) انظر: المرجع السابق، ٣٢٨/١.
(٣) هو أبو البركات بن الأسعد، القبطي اليعقوبي المعروف بـ (ابن كبر)، كان كاتب السلطان بيبرس الداوداري، من آثاره: (جلاء العقول في علم الأصول) المعروف بـ (كشف الأسرار الخفية في أسباب المسيحية)، و(مصباح الظلمة وايضاح الخدمة في الفقه الكنسي)، و(ردود على اليهود والمسلمين) وغيرها، توفي سنة ٧٦٤ه ١٣٦٣م، انظر: عمر بن رضا كحالة الدمشقي، معجم المؤلفين، ٤١/٣.
(٤) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٢٩٣، نقلاً عن مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لابن كبر، لوح ١٨.
(٥) عوض (جرجس فيلوفاؤس)، قوانين القديس باسيليوس الكبير، ص٢٣١.
(٦) المرجع السابق، ص٢٣٣.
(٧) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٣٧/١.
(٨) انظر: بباوي (جورج حبيب)، معاني رشم الصليب، ص٦٢.

سترنا وأعاننا وحفظنا وقبلنا إليه وأشفق علينا وعضدنا ...أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح نشكرك على كل حال ومن أجل كل حال ...".[١]، وبعد أن ينتهي الكاهن من صلاة الشكر يعيد تغطية الخبز والخمر والأبروسفارين (غطاء الصحن) في الصينية بلفافة، ويرون أن هذا يذكّر بهروب يسوع المسيح إلى أرض مصر وتغيبه في الناصرة مُخفِياً مجد الإله على عموم البشر [متى: ٢/١٣-١٥]، وفي الوقت نفسه يشير إلى تكفين المسيح ودفنه في القبر، أما الأبروسفارين فيشير إلى الحجر الكبير الذي دُحرج على باب القبر.[٢]

١٠- أوشية التقدمة، أو صلاة الغطاء:

بعدما يرفع الكاهن (صلاة الشكر) يصلي أوشية التقدمة سرًا مخاطبًا الابن قائلاً:

"أيها السيد الرب يسوع المسيح، أنت هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، وسبقت أن تجعل ذاتك حملاً بغير عيب عن حياة العالم، نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر أظهر وجهك على هذا الخبز وعلى هذه الكأس هذين اللذين وضعناهما على هذه المائدة الكهنوتية التي لك" ثم يرشم على الخبز والكأس ثلاث صلبان، قائلاً: "باركهما، قدسهما، طهرهما وانقلهما (حولهما)"، ويشير إلى الخبز قائلاً: "لكي هذا الخبز يصير جسدك المقدس" ويشير إلى الكأس قائلاً: "والمزيج الذي في هذه الكأس يصير دمك الكريم ليكونا لنا جميعاً ارتقاء وشفاء وخلاصاً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا".[٣]

١١- صلوات التحليل:

يوجد ثلاث صلوات تحليل تقال مع إجراء سر الإفخارستيا، وسميت بالتحليل لأن معنى الحل من الخطايا موجود في كلٍ منها، وهي: تحليل الابن وتحليل الخدّام وتحليل الآب.

- **تحليل الابن:** سمّي بذلك لأنه موجه لأقنوم الابن، ويُقال في آخر صلوات رفع البخور، ونصه كما يلي: "أيها السيد الرب يسوع المسيح الابن الوحيد وكلمة الله الآب ... ارزقنا رحمتك واقطع عنا كل رباطات خطايانا ... اللهم أنعم علينا بغفران خطايانا" (ثم يرشم على المعترف ويقول) باركنا حللنا املأنا من مخافتك وقومنا إلى إرادتك الصالحة ...." [٤]

- **تحليل الخدّام:** يجلس الشماس أمام المذبح وباقي الخدّام، ويقف الكاهن خلفهم ويتلو هذا التحليل سراً: "عبيدك يا رب خدام هذا اليوم القمامصة والقساوسة والشمامسة الأكليروس وكل الشعب يكونون محللين من فم الثالثوث الأقدس الآب والابن والروح القدس ومن فم الكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية ومن أفواه الاثني عشر رسولًا ....[٥]

- **تحليل الآب:** وهذه الترتيلة تُقال قبل التناول مباشرة، وهي صلاة سرية خاصة بالكاهن، يقول فيها: "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل ...ليكن يا سيدنا عبيدك آبائي وإخوتي وحقارتي محللين ابدأ بقبول توبة عبيدك منهم نوراً للمعرفة وغفراناً للخطايا وإن كنا قد أخطأنا إليك بالقول أو بالفعل فسامح واغفر لنا كصالح ومحب للبشر اللهم حللنا وحلل شعبك من كل خطية

---

(١) اسحاق (عماد)، الخولاجي المقدس، ص١٣٢.
(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٣٨/١.
(٣) المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٣٤٣-٣٤٤.
(٤) انظر: موقع الأنبا تكلاهيمانوت https://st-takla.org، والمقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٣٥.
(٥) انظر: موقع الأنبا تكلاهيمانوت https://st-takla.org

..."[1].

فهذه البنود الأحد عشر هي الإجراءات الطقسية التي يشتمل عليها القسم الأول من القداس الإفخارستي وهو طقس تقدمة الحمل.

ثانياً: قدّاس الكلمة (الموعوظين) وقراءاته:

قدّاس الكلمة **هو القسم الثاني من الإجراءات الطقسية في سر الإفخارستيا**، ويُقرأ فيه أقسام من الكتاب المقدّس لذا يسمى قدّاس الكلمة، بالإضافة إلى قراءات أخرى من الأوشيات والصلوات، وكان الاجتماع الإفخارستي مباحاً لكل من أراد أن يحضر، أما الصلاة فهي أمر أخر؛ إذ لم يكن ميسراً لمن لم يتعمد أن يحضر الصلاة الجماعية.

فكان **من المحتم على كل من لم يصر بعد مسيحياً أن يخرج بعد العظة التي يقدّمها الكاهن**، أما الموعوظون الذين قبلوا الإيمان لكنهم لم يتحدوا بالكنيسة بعد من خلال نوال الأسرار فكانوا ينالون البركة من الأسقف بهدوء ثم ينادي الشماس: "ليخرج الموعوظون...لينصرف الموعوظون"، ويرى بعض العلماء أن قدّاس الكلمة كان منفصلاً عن قدّاس الإفخارستيا، ثم أُلحق به بعد مجمع نيقية في القرن الرابع.[2]

أما **الكتب المسموح بقراءتها في الكنيسة** فيرى المسيحيون أن الكنيسة وضعت منذ بدايتها قوانين تحدد أسماء الكتب القانونية المسموح بقراءتها في الخدمة الليتورجية من ضمن الكتب الكثيرة التي شاع استخدامها عند الهراطقة والخارجين عن الكنيسة، ويرى المسيحيون أنه ظهر في القرون المسيحية الأولى عدة كتب وضعها المبتدعون ونسبوها زوراً إلى مؤلفين مشهود لهم بحسن العبادة والقداسة تضليلاً للبسطاء، ومنها الإنجيل المنسوب إلى الرسول توما الذي وضعه أصحاب بدعة ماني وغيره، وهناك كتب أخرى شوهها المبتدعون بالتحريف فرفضتها المجامع، فيرى المسيحيون أن هذه الكتب كانت خالية من التحريف في عهد الرسل فاستشهد بها الرسل، وبعد ذلك طالها التحريف فحرمتها الكنيسة.

ويورد الفصل الأخير من الكتاب الثامن من سلسلة كتب المراسيم الرسولية[3] بياناً بالكتب القانونية التي تُقرأ في الكنيسة، "لتكن الكتب الآتية مكرمة ومقدسة عندكم جميعاً أنتم الإكليريكيين والعلمانيين – أي عموم رعايا الكنيسة - :

العهد القديم: لموسى خمسة، ليشوع بن نون واحد، للقضاة واحد، لراعوث واحد، للملوك أربعة، سفر أخبار الأيام اثنان، لعزرا اثنان، لأستير واحد، ليهوديت واحد، للمكابيين ثلاثة، لأيوب واحد، كتاب المزامير مئة وواحد وخمسون، كتب سليمان خمسة، للأنبياء ستة عشر.

أما كتب العهد الجديد فهي: الأناجيل الأربعة لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا، رسائل بولس أربع عشرة رسالة، ليعقوب واحدة، ليوحنا ثلاث، ليهوذا واحدة، لبطرس اثنتان، وأعمالنا نحن

---

(١) انظر: موقع الأنبا تكلاهيمانوت https://st-takla.org

(٢) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٣٧٠.

(٣) كتاب المراسيم الرسولية هو عبارة عن سلسلة مؤلفة من ثماني كتب تم تأليفه في القرن الرابع عشر الميلادي باللغة اليونانية، أما الكتب السبعة الأولى فقد ترجمت إلى العربية وهي ما يُعرف الآن باسم (الدسقولية) ونشرها الدكتور وليم فان سليمان قلادة سنة ١٩٧٩م، وأما الكتاب الثامن والأخير في السلسلة فقد تُرجم إلى العربية وقام بنشره الراهب أثناسيوس المقاري، ويحوي أقدم نص كامل لصلوات القداس الإلهي، حيث يرجع هذا النص الليتورجي إلى حوالي سنة ٢٦٠م، بالإضافة إلى أن الفصل الأخير من هذا الكتاب الثامن يحوي مجموعة قوانين هامة للغاية، وهي القوانين المعروفة في كل الكنائس باسم (قوانين الرسل)، انظر: المقاري (أثناسيوس)، المراسيم الرسولية، ١/٥٠-٥٧.

الرسل".[١]

ويتألف قداس الكلمة في الإفخارستيا من **أربع خطوات** هي:

١- رفع البخور ودورة البخور في الكنيسة.

بعد صلوات التحليل يصعد الكاهن والشماس إلى الهيكل، فيتناول الشماس المجمرة ويعطيها للكاهن، ويتوجه للشرق ويرفع البخور خمس رفعات، ويقول معها أوشية بخور البولس، ثم يدور الكاهن حول المذبح، وأعلى رتبة موجودة هي التي تقوم بهذه الدورة حول الكنيسة كلها إشارة إلى أن العالم كله سمع رسائل بولس الرسول، ويقول: "يا رب المعرفة ورازق الحكمة ... أنعم علينا وعلى شعبك كله بعقل غير منشغل وفهم نقي لنفهم منفعة تعاليمك المقدسة"[٢]، وفي دورة الكاهن حول المذبح بالبخور والشماس أمامه حاملاً الإنجيل إشارة إلى كرازة الرسل في الخليقة كلها.[٣]

٢- القراءات:

القراءات الكنسية هي الفصول الكتابية المختارة من أسفار الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، واختيار فصولٍ معينة من الكتاب المقدس لتُتلى في القداسات هو طقس قديم، يرجع إلى نشأة القداسات نفسها تزامناً مع نشأة الليتورجيا المسيحية، ويرى المسيحيون أن مثل هذا النظام كان قائماً في ليتورجيا المجامع اليهودية أيام وجود المسيح، فقد كانت قراءات السبوت منظمة على مدى ثلاث سنوات.[٤]

ونظراً إلى أن أسفار العهد الجديد لم تكن مجموعة في كتاب واحد قبل أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث فقد كانت كل كنيسة تقرأ من الأناجيل أو الرسائل الموجهة إليها من الرسول الذي كتبها، ثم بدأت الكنائس تتبادل النسخ المحفوظة عند كل منها.

مما سبق يتضح اهتمام الكنيسة منذ بداياتها بقراءة النصوص المقدسة، حيث كانت تعدّ هذه القراءات الغذاء الروحي اليومي للشعب ، ويرجع الحرص في ذلك إلى أن غالبية الذين آمنوا بالمسيح في البدايات كانوا أميون من الطبقات البسيطة.

وكان النموذج الأصلي للقراءات الكتابية خلال دورتها السنوية الليتورجية في الممارسات الديرية عبارة عن ترتيل كتاب المزامير كله على فترات زمنية معينة، وكانت النواة التي ابتدأت عندها ما عُرف باسم دورة زمنية لقراءات الكتاب المقدس، وكان توزيع فصول القراءات الكتابية في نواته الأولية يشمل سنة كاملة، وكانت الأناجيل مستثناة من القراءات.

أما القراءات الطقسية الموجودة في الكنائس المعاصرة فهي **تتوزع على ثلاثة أنظمة**، وهي كما يأتي:

أ. الاختيار الحر لنصوص الأسفار المقدسة.

ب. القراءات المتصلة للأسفار المقدّسة على التتابع بانتظامٍ رتيب.

ت. **نظام يجمع بين النظامين السابقين.**[٥]

٣- العظة:

---

(١) المقاري (أثناسيوس)، المراسيم الرسولية، ٨٥/٨.

(٢) انظر: موقع الأنبا تكلاهيمانوت https://st-takla.org

(٣) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٣٦٦/١.

(٤) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٤٢١.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٤٢٧-٤٢٨.

يفرّق المسيحيون بين الوعظ والتعليم، فالوعظ هو كرازة بالإيمان المسيحي لغير المسيحيين لكي يقبلوا الإيمان، وهو مهمة الكنيسة الأساسية التي استطاعت أن تجذب بواسطته الكثير من غير المؤمنين إلى المسيحية، أما التعليم فهو شرح الإيمان للمؤمنين الذين قبلوا فعلاً المعمودية ومُسحوا بالميرون المقدّس وتناولوا من الجسد المقدّس والدم الكريم، فتعليمهم هو تعريفهم بأسرار هذا الإيمان.(١)

والكتابات الآبائية القديمة لا تفرّق مثل هذا التفريق بين (الوعظ) و(التعليم)، فيمكن أن يحل أحدهما محل الآخر، والمصادر الطقسية السحيقة في القدم تجعل من العظة أو التعليم بنداً رئيساً في القدّاس لا غنى عنه.

ويطلق المسيحيون على آباء الكنيسة والرسل والقديسين (معلمي تعليم التقوى)، فقد كان من أهم شروط اختيار الأساقفة أن يكونوا قادرين على التعليم، وهو أحد أهم الشروط في اختيار الأسقف، فقد كتب القديس (أثناسيوس الرسولي) عن أهمية الوعظ بعد قراءة الإنجيل في القدّاس موبخاً أحد الأساقفة لأنه أراد أن يتخلى عن وظيفته الأسقفية: "والآن قد صرتَ أسقفاً والشعب ينظر أن يتغذى على يديك من تعاليم الكتب المقدسة وحدها، فأي عذرٍ يكون لك عندما يأتي الرب يسوع ويجد خرافه تعاني المجاعة بسبب عدم التغذية"(٢)

٤- أوشية (الطويل الأناة) وما بعدها من أواشي:

هذه الأوشية تُعرف في الكتب الطقسية بهذا الاسم، وتُعرف اليوم باسم أوشية سر الإنجيل، تتكون من ترتيلة تختص بالإنجيل في مطلعها، وبعد ذلك تشتمل على الدعاء للمرضى والمسافرين وطلب النعم الأرضية والسمائية وغير ذلك، والأدعية المشار إليها كلها يدعو بها الكاهن سراً.(٣)

ونص هذه الأوشية كما يأتي: "أيها الطويل الأناة الكثير الرحمة الحقيقي اقبل سؤالاتنا وطلباتنا منا اقبل ابتهالاتنا وتوبتنا واعترافنا على مذبحك المقدس غير الدنس السمائي فلنستحق سماع أناجيلك المقدسة ... اذكر يا رب مرضى شعبك افتقدهم بالمراحم والرأفات اشفهم اذكر يا رب آباءنا وأخوتنا المسافرين ردهم إلى أوطانهم بسلام وعافية اذكر يا رب ثمرات الأرض باركها اذكر يا رب مياه النهر باركها أصعدها كنعمتك...."(٤)

وهذه التراتيل تمثّل نهاية طقس الموعوظين، وبعدها يباركهم الأسقف ويُنادي الشماس بخروجهم، وبعد خروج الموعوظين كانت الأبواب تُغلق ليبدأ القسم الثالث والأخير من القداس وهو قدّاس المؤمنين، لكن بعد أن تمّ إلغاء التفرقة بين الموعوظين والمؤمنين في القرن السادس لم تعد الأبواب تُغلق ليقتصر بقية الطقس على المؤمنين فقط، واليوم تبقى أبواب الكنيسة مفتوحة ليخرج من يخرج ويدخل من يريد في أي وقت، بمعنى أن طقس التناول لم يعد مغلقاً، إذ أصبح المعتقد السائد في اللاهوت المسيحي أن فصل القداسات عن التناول يضعف السر الإفخارستي ويُضعف من دور الكنيسة ومهمتها الأساس في إعلان ملكوت الله والحياة الجديدة.(٥)

ثالثاً: قدّاس المؤمنين:

وهو الإجراء الأهم في الليتورجيا الإفخارستية، وكانت الكنيسة القديمة تحصر حضور هذا

---

(١) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٥٠٦.
(٢) المرجع السابق، ص٥٠٧.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٥١٤.
(٤) انظر: موقع الأنبا تكلاهيمانوت https://st-takla.org
(٥) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٥٣١، ٥٣٠.

الطقس وممارسة هذا القدّاس في المؤمنين فقط، ولم يكن يحضره الموعوظون، فالمؤمن هو من تعمّد باسم الآب والابن والروح القدس، أما الموعوظ فهو من آمن بالمسيح لكن لم تتم بعد إجراءات تعميده وتكريسه في المسيحية، وسبقت الإشارة أنه كان يُنادى بالموعوظين للخروج من الكنيسة أثناء إجراء هذا الطقس؛ إذ لم يكن مسموحاً أن يشترك هؤلاء في التناول.

وبعد القرن السادس الميلادي أخذت هذه التفرقة تتلاشى من الفكر المسيحي شيئاً فشيئاً، وفي أيامنا لم يعد لهذه التفرقة أيُّ وجود فيما يخص حضور العشاء الإفخارستي والاشتراك فيه.

ويتألف طقس قدّاس المؤمنين من عدة إجراءات وأوشيات وصلوات، والأركان الأهم في إقامته ثلاثة هي: طقس الاستدعاء وطقس القسمة وطقس التناول.

١ـ طقس الاستدعاء:

والمقصود به استدعاء الأقانيم الثلاثة أو واحدٍ منها ليحل على القرابين ويقدّسه ويجعل منها جسد المسيح ودمه، وليحل أيضاً على الحاضرين ليؤهلهم لقبول الأسرار المقدسة، ويكون هذا بعد نداء الشماس بالسجود "اسجدوا لله بخوف ورعدة" أو "اسجدوا لله الآب ضابط الكل"، والمراد بالسجود هنا هو طأطأة الرأس فقط بمعنى الانحناء، وليس السجود بالنزول للأرض ووضع الجبهة عليها.

بعد أن يأمر الشماس الحاضرين بالسجود يقول الكاهن سراً: "نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر لا تخزنا بالخزي الأبدي ولا تطرحنا نحن عبيدك ولا تصرفنا عن وجهك ولا تقل لنا إنني لست أعرفكم .... اسمع يا رب طلبة شعبك والتفت إلى تنهد عبدك ومن أجل خطاياي خاصة ونجاسات قلبي لا تحرم شعبك حلول روحك القدوس".(١)

وحين يسكت الكاهن يقول الشعب ثلاث مرات: "ارحمنا يا الله ضابط الكل"، ثم يقول الكاهن جهراً: "لأن شعبك وبيعتك يطلبون إليك قائلين: "ارحمنا يا الله الآب ضابط الكل"، ثم يأمر الشماس الشعب بالسجود من جديد، فيقول الكاهن سراً: "وأرسل إلى أسفل من علوك المقدس ومن مسكنك المستعد البارقليط روحك القدوس علينا نحن عبيدك وعلى هذه القرابين التي لك المكرمة، على هذا الخبز وعلى هذه الكأس، لكي يتطهرا وينتقلا".

ويقول الكاهن: "وهذا الخبز يجعله جسداً مقدساً للمسيح" فيجيب الشعب آمين، ثم يقول الكاهن: "وهذه الكأس أيضاً دمٌ كريمٌ للعهد الجديد الذي له" فيجيب الشعب آمين.(٢)

٢ـ طقس القسمة:

المقصود بها صلاة (كسر الخبز) وهي بذلك إحدى الممارسات الطقسية الأساس في خدمة الكنيسة، ودليلها عند المسيحيين أن المسيح بعد أن بارك على الخبز كسّره وقسّمه وأعطاه لتلاميذه قائلاً: "خذوا كلوا هذا هو جسدي".

ويتميز طقس القسمة من ببين طقوس القدّاس أنه يقبل الكثير من الصلوات بأنواعها المختلفة، ولا يوجد له نسق معين بحيث لا يختلف، بل ربما يتجاوز عدد الأوشيات الموجودة في الكنيسة خمسين أوشية تقرأ كل كنيسة منها ما تريد.

ويجري على مرحلتين، أولهما عند قول الكاهن "وقسّمه"، فيقسم الكاهن القربانة إلى ثلث وثلثين، والمرحلة الثانية تتم بعد حلول الروح القدس في القربان، فيقوم الكاهن بتقسيم الخبز إلى

---

(١) المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٧٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٧٨٧-٧٨٨.

أجزاء وقطع.[١]

٣- طقس التناول:

يرى المسيحيون أن التناول في القداس الإلهي والاتحاد بالمسيح هو ثمرة الصلاة وعربون الميراث الأبدي للحياة الأبدية في السماء، ولحظة التناول من الأسرار الإلهية هي لحظة من الأبدية تومض للساكنين على الأرض[٢]، ويعتقد المسيحيون أن تناول المؤمنين يحقق الغاية للإفخارستيا "أن تأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي" [لوقا: ٣٠/٢٢].

وأما الطقس العام للتناول فهو كما يلي:

يقبّل الكاهن الجسد الطاهر بفمه، ثم يأخذه بيده، وبعدها يناول الكاهن الشماس الخادم، ثم بقية الإكليروس، ثم يصعد إلى الهيكل ويناول الخدّام الموجودين فيه، وبعد أن يفرغ من مناولة الذين في الهيكل ينزل إلى الشعب فيناولهم الرجال أولاً ثم النساء، ويقول الكاهن عند المناولة: "جسد عمانوئيل إلهنا، هذا هو بالحقيقة آمين" فيجيب المتناول: "آمين"[٣]، وهكذا يتم سر الإفخارستيا ويخرج المصلون من الكنيسة.

المطلب الرابع: ضرورة التناول

ترسخت في العقلية المسيحية الأهمية الكبرى للتناول، فحظي طقس هذه الشعيرة بالأولوية البحثية في المكتبة المسيحية ضمن الكتابات اللاهوتية، فأصبح التناول من جسد المسيح بالعشاء الرباني ضرورة لا تقبل الجدل عند المسيحيين.

ولهذه الضرورة بعض الاعتبارات في الفكر المسيحي، ولعل أهمها الزاوية التاريخية التي يعتقدها المسيحيون، إذ يؤمنون بتأسيس السيد المسيح لهذا السر في الليلة التي سبقت يوم تسليمه نفسه ليُصلب، ثم توارد الرسل ذلك، ثم جاءت كتابات الآباء مؤكدة هذا السر مضيفة له الكثير من الليتورجيات التي تصاحب إقامته والأوشيات التي تُتلى أثناءه.

من هنا اكتسبت إقامة سر الإفخارستيا ضرورة تاريخية متأصلة في الفكر المسيحي، لذا فإننا أثناء الحديث عن ضرورة التناول في المسيحية ينبغي أن نقسم البحث قسمين، أولهما الضرورة التاريخية وهي الضرورة الأساس، ثانيهما الضرورات الأخرى الثانوية.

أولاً: الضرورة التاريخية للتناول الإفخارستي:

ابتدأ الاعتقاد بالتناول الإفخارستي وضرورة إجرائه بما يعتقده المسيحيون من أن **المسيح هو الذي أسس هذا السر المقدّس**، تروي الأناجيل أن المسيح وعد تلاميذه بإعطائهم جسده ودمه، وقال عن نفسه: " أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم" [يوحنا: ٥١/٦]، فأوضح أنه القوت الموافق لطبيعة الروح، وقال عن جسده إنه حياة النفوس والأرواح "فمن يأكلني فهو يحيى بي" [يوحنا: ٥٧/٦].

"وفي ليلة آلامه أخذ خبزاً وبارك وكسّر وأعطى تلاميذه وقال عن الخبز: "خذوا كلوا هذا هو جسدي" وعن الكأس: "اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطاي" [يوحنا: ٢٦/٢٦-٢٨]، ثم أعطى رسله سلطاناً أن يصنعوه لذكره كما صنع [لوقا: ١٩/٢٢]، فكان عمل المسيح وقوله مبرهناً على أن جسده ودمه هو طعام

---

(١) انظر: المقاري، القداس الإلهي سر ملكوت الله، ص٨٨٨-٨٩٢.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص٩٢٨.
(٣)المرجع السابق، ص٩٤٠.

النفوس وغذاء الأرواح.

وبناءً على ما تقدم **أصبح من الواجب على كل مؤمن يريد حياة نفسه أو تقوية روحه أن يتناول من جسد المسيح ودمه،** وألّا يُهمل أمراً يتوقف عليه اتحاده مع الله وثباته فيه ونموه في الحياة الروحية، ومَن يهمل هذا الواجب لا تكن نفسه حية "قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم" [يوحنا: ٥٣/٦].

ويروي سفر أعمال الرسل أن **الرسل ساروا على الطريق التي رسمها لهم المسيح، "** وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات" [أعمال الرسل: ٤٢/٢]، وسلّموا السر الذي استلموه لخلفائهم من بعدهم "لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزاً" [أعمال: ٢٣/١١].

وكذلك أمرت الكنيسة بنيها أن يتقدموا إلى التناول من جسد المسيح ودمه باستمرار، وقد فرضت عليهم أن يفعلوا ذلك مرة واحدة في كل سنة على الأقل في الصوم الكبير، وإذا تأملنا في تاريخ الكنيسة نجد أن آباء الكنيسة كانوا يحافظون على إقامة الإفخارستيا والتناول، ويحرصون على مناولة الجميع كهنة وعلمانيين حتى الأطفال.(١)

ثانياً: الأسباب الثانوية لاعتبار التناول ضرورة:

١- يعدّ المسيحيون التناول من الإفخارستيا **التزاماً بالعهد الإلهي بين المسيح وتلاميذه وأتباعه في كل زمان ومكان،** وهو مكتوب بالدم، فإقامة العشاء الرباني هو وفاء بعهد المسيح وإعلان ولاءٍ له.(٢)

٢- يعتقد المسيحيون أن التناول من الإفخارستيا **يذكّرهم بشكر رب السماء مصدر كل عطية صالحة.**(٣)

٣- يرى المسيحيون في الاجتماع الإفخارستي إشارة تذكارية إلى **اجتماعهم في السماء عند العرش السماوي.**(٤)

فمن التسلسل التاريخي للمواظبة على التناول وجب التناول على كل جميع الأفراد المسيحيين، لاسيما إذا أضفنا إلى ذلك اعتقاد المسيحيين بأن التناول غذاء للروح وثبات في المسيح وسبب للاتحاد ومغفرة الخطايا والخلاص من الخطيئة.

المطلب الخامس: فوائد التناول:

يرى المسيحيون أن لتناول سر الإفخارستيا الكثير من **الفوائد الروحية،** ويجعلون من هذه الفوائد مادةً لتحريك النفوس الفاترة عن الاشتراك في هذا السر من ناحية، ومادة أيضاً لتنبيه المتراخين في واجباتهم الدينية من ناحية ثانية.

ويسرد المسيحيون على ذلك الكثير من الفوائد التي يضيق البحث بذكرها، وسأتعرّض هنا لأهم تلك الفوائد:

أولاً: تطهير النفس من أدران الخطيئة: يرى المسيحيون أن الفائدة الأهم لتناول سر الإفخارستيا هو تطهير النفوس من أدران الخطيئة وتمتعها برحمة الله وغفران الخطايا "من أجل كثيرين

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفسية شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٧٦/١-٢٧٧، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٢٠.

(٢) انظر: مقار، القضايا المسيحية الكبرى، ص٥٠٢، ودول ري، الأسرار حياة الإيمان، ١٣١.

(٣) انظر: فورد (جورج)، القول الصريح في سيرة يسوع المسيح، ص٤٥٦.

(٤) درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٣٩٠.

لمغفرة الخطايا" [متى: ٢٨/٢٦]، وبيان ذلك أن كونه يعطى لمغفرة الخطايا فذلك لأن سر الإفخارستيا في الفكر المسيحي هو عين ذبيحة الصليب، بمعنى أن هذه التقدمة تشبه تقدمة المسيح نفسه ليموت على الصليب، وموت المسيح على الصليب إنما كان لغفران الخطايا، فما حصل عليه المؤمن المسيحي بهذه التقدمة ينال ثمرته بإجراء هذا السر.(١)

ثانياً: حضور المسيح السري: فبحضوره يهب المؤمنين النعمة والحق والحياة [يوحنا: ١٧/١].(٢)

ثالثاً: حياة النفوس والحياة الأبدية: النفس في الفكر المسيحي لا تحيا بغير الخبز الحي النازل من السماء وهي حياة دائمة أبدية، والخبز السماوي يغذي النفس ويقويها، ويساعدها على النمو الروحي والسير في طريق الكمال.(٣)

رابعاً: إنعاش النفس وتنشيطها: وتكون النفس بذلك مواظبة على الصلاة ومجاهدة حتى الموت ضد الخطيئة، وإذا لم يتناول المؤمن فإن قواه ستخور في الطريق نتيجة انعدام القوت السماوي.(٤)

خامساً: الثبات في المسيح: ثبات الإنسان في المسيح وثبات المسيح فيه هو معنى الاتحاد بالجسدين كما يتحد الغذاء بالجسد، والفائدة من ذلك خلاص الإنسان من جرثومة الموت المتأصلة في الطبيعة البشرية من جرّاء معصية.(٥)

سادساً: وحدة المتناولين: التناول في اعتقاد المسيحيين يصيّر الكثرة المسيحية واحدةً متحدةً في المسيح اتحاداً روحياً، "إننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد" [كورنثوس١: ٢٦/١١].(٦)

سابعاً: اكتساب محبة المسيح: وذلك حين يتذكر المتناول موت المسيح عنه، فتزداد محبة المسيح في قلبه.

ثامناً: نوال الصفات الإيجابية: لأن التناول يمثّل خلاصاً للنفس والجسد، وهو دواء لكل داء روحي، وفيه تُشفى عاهات النفس وتُقمع شهواتها، ويُعاد إليها جمالها المشوه بالخطيئة.(٧)

تعقيب على موضوع القربان والعشاء الرباني:

تبين لنا من العرض السابق أن **القربان المقدّس شكّل ظاهرة فريدة في تاريخ الشعوب، وأن دلالته الرمزية كانت متجذرة في النفوس البشرية منذ فجر البشرية.**

واتخذ القربان في المسيحية مظهراً دلالياً مختلفاً عن باقي الأديان وبقية **الشعوب تمثّل هذا**

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٩١/١-٢٩٢.
(٢) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٨٥.
(٣) انظر: دول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص٣١، وسلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٩٢/١-٢٩٣، وفورد، القول الصريح في سيرة يسوع المسيح، ص٤٥٦.
(٤) انظر: عازر، توافق العقائد الأرثوذكسية، ص٨٨-٨٩، وسلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٩٤/١.
(٥) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٩٤/١-٢٩٥.
(٦) انظر: فورد، القول الصريح في سيرة يسوع المسيح، ص٤٥٦، وسلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٩٥/١.
(٧) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٩٢، وسلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٩٦/١.

المظهر بمائدة التناول المعروفة بـ (سر الإفخارستيا)، إذ اعتقد المسيحيون أن المسيح أسس هذا السر قبل صلبه بليلة واحد، وغدا هذا السر الشعيرة الأهم بين سائر الشعائر المسيحية، ونال من الاهتمام ما لم يحظَ به أي سر من الأسرار.

والناظر في النصوص المسيحية والكتابات الكثيرة التي حاولت التأريخ والتقعيد والتنظيم لهذا السر وآليات إقامته وطقوسه وإجراءاته الكثيرة وتَعَدُّد النصوص الليتورجية والأواشي التي تصاحب إقامته والدلالات الروحية والنفسية التي تتضمنها إقامة هذا السر ويستفيدها المتناول سيدرك سبب اهتمام المسيحيين بهذا السر إلى هذه الدرجة، ولعل السبب في ذلك أن **كثرة التنظيمات التي أحاطت بالإفخارستيا جعلت منه الأمر الأهم الذي تستطيع المسيحية أن تقدمه لأتباعها على مر التاريخ المسيحي**، لا سيما إذا تذكرنا أن هذا السر ينطوي على العقيدة الأهم التي تقوم عليها المسيحية وهي عقيدة (الخلاص) التي تفرعت منها العقائد المسيحية كافةً وجاءت التعليمات الدينية مبنية عليها.

أولاً: الخلاف المسيحي حول فحوى العشاء الرباني:

ونظراً للمكانة المرموقة التي يحتلها هذا السر فإنه من المنطقي أن تُجمع الكنائس والطوائف المسيحية على اعتباراته وإقامته ومفعوله السري في النفوس البشرية نتيجةً منطقية لتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، لكن الأمر لم يأت على هذا السياق، فلقد كانت مشكلة العشاء الرباني من **المشاكل العقائدية الشائكة التي أثارت في الساحة المسيحية انقساماً كبيراً**، ليس فقط بين الكاثوليك والكنائس المصلحة بل بين الكنائس المصلحة نفسها، وقد اشتد النزاع حول هذه المسألة في اجتماع (مربورغ) بين اللوثريين والزونكليين، لدرجة أن (لوثر) لم يقبل أن يدعو الفريق المعارض له أنهم إخوة لهم في المسيحية حتى يقبلوا عقيدة حلول جسد المسيح كاملاً في الخبز والخمر.

فالكاثوليك والأرثوذكس يؤمنون بالعشاء الرباني حسب العرض السابق الذي أوضحته من حيث مكانته وأهميته وحضور المسيح فيه والاتحاد به إلى غير ذلك.

وأما البروتستانت فقد كان لهم موقفٌ مختلف، حتى اختلفوا فيما بينهم حول هذا السر، وتتشكل البروتستانتية من ثلاث فرق وطوائف هي اللوثريون أتباع (مارتن لوثر) والزونكليين أتباع (زونكلي) والكالفينيين أتباع (جون كالفن)، وهذا التعدد في الطوائف أمر أصيل في البروتستانتية منذ فجر نشأتها وليس وليد اختلاف أو مبنياً عليه مع أن الاختلاف حاصل.

يرى (كالفن) أن **الله يستخدم هذه الفرائض الخارجية المحسوسة كي يوصل ويشرح للمؤمنين به حقائق روحية**، فالعشاء الرباني يشير إلى موت المسيح وقيامته، ويشير إلى عملية التغذية لأرواح أتباعه، ويشير أيضاً إلى عملية الفداء التي قام بها المسيح على الصليب.

ولا يجب الخلط بين العلامة المنظورة للعشاء الأخير وما يحتويه من حقيقة روحية، فإن هذه العلامة الخارجية تعلن أن جسد السيد المسيح هو مأكل روحي حقيقي وأن دمه مشرب حقيقي هما طعام الفرد المسيحي إلى يوم القيامة.(١)

لذا فإن **دلالة هذا السر عند (كالفن)** ما هي إلا **دلالة رمزية** وليست حقيقية، لكن هل هذا يعني أن المؤمن لا يتناول إلا خبزاً ونبيذاً مجردين من دم المسيح؟ أثناء إجابة (كالفن) على هذا الأمر يحاول أن يميز موقفه العقدي عن (لوثر) و(زونجلي) يقول فيه ما معناه: إننا إذا سُئلنا فيما إذا كان الخمر والخبز هما جسد المسيح فإننا نجيب بأن الخمر والخبز هما علامتان تمثلان الجسد والدم، ولكن هاتان التسميتان (جسد ودم) أعطيتا لهما لأنهما أداتان استخدمهما السيد

(١) انظر: لوريمر، تاريخ الكنيسة، ص٢٥٨، والخضري (حنا)، جون كالفن (حياته وتعاليمه)، ص٢٥٥.

المسيح لتوزيعهما على المؤمنين به.[١]

هذا النص يبين بوضوح أن مسألة العشاء الرباني **ليست مسألة يمكن حملها على الحقيقة** كما يدعي ذلك المسيحيون، إذ ذاك هو اعتقاد الكاثوليك، حيث يعتقدون أن مسألة العشاء الرباني هي طقس يحضر فيه السيد المسيح وببركة الكاهن يتحول الخمر والخبز إلى لحم ودم المسيح.

وخالفهم في ذلك (كالفن)، وكلامه أقرب إلى المنطق، إذ لا يمكن حمل هذا الأمر على الحقيقة الظاهرة؛ **لأن ادعاء استحالة الخمر والخبز إلى لحم ودم لا يمكن تصديقه بحال من الأحوال، إلا إذا حملنا الكلام على المجاز والرمز**، فيكون العشاء الرباني فريضةً - أو طقساً - يرمز إلى حضور السيد المسيح، ويرمز إلى تذكر تلك الليلة الأخيرة التي قضاها المسيح مع تلاميذه.

ومن أجل أن يوضح (كالفن) كلامه رجع إلى حادثة ظهور الروح القدس لـ (يوحنا) على شكل حمامة، فإن الروح القدس غير منظور، ومع ذلك فإنه استخدم هيئة منظورة لكي يستطيع (يوحنا) أن يراه، وهذا يشبه إلى حد كبير اشتراك المسيحي في جسد المسيح، هو سر روحي لا يمكن أن يرى بالعين أو يسمع بالأذن أو يُفهم بالعقل، لأن حقيقة وجود المسيح – برأيهم – في الخبز والخمر حقيقة روحية وليست حقيقة مادية، ومع أنهم يرون أنه حاضر روحياً إلا أنه لا يصح تحديده وتقييده بمادتي الخبز والخمر، إنه موجود وحاضر أثناء العشاء الرباني لكن لا يمكن للعين البشرية أن تراه، فكما أن (يوحنا) لم ير إلا شكل الحمامة فكذلك المشترك في العشاء الرباني لا يرى إلا الخبز والخمر، وفيهما يحضر المسيح روحياً، والذي يساعد المؤمن على إدراك حضور المسيح هو الروح القدس الذي يعطي بقوته التأثير اللازم لإدراك هذه الحقيقة الروحية، فعندما يعمل فيه الروح القدس فإنه يدرك بأنه يتغذّى روحياً من جسد المسيح ودمه.[٢]

وحضور السيد المسيح في هذا العشاء الأخير **لا يعني تقييده بمادتي الخمر والخبز، أو حصره فيهما**، فكالفن يرى أن هذا الاعتقاد - الذي يطابق رأي الكاثوليك – فيه **تقليل من شأن السيد المسيح**، يقول (كالفن): "دعنا لا نقلل بأي شكل من مجد المسيح السماوي، وهو ما يحدث عندما نحضره في هذه العناصر المادية القابلة للفساد".[٣]

فكالفن يرى أن المسيح يحضر روحياً في نفس الوقت الذي تقام فيه العلامات الخارجية، وهنا يختلف في مفهومه عن الكنيسة الكاثوليكية وعن (لوثر) و(زونجلي) كما سبقت الإشارة، فإن الكنيسة الكاثوليكية نادت بفكرة التحول، أي أن مادتي الخبز والخمر تتحولان جزئياً وكلياً إلى جسد المسيح المؤلف من اللحم والدم، ومع أن الخبز والخمر يظلان حسب الظاهر خبزاً وخمراً ولا يفقدان أي شيء من خواصهما الطبيعية لا في الطعم ولا في اللون بل تتحولان بطريقة معجزة إلى دم ولحم السيد المسيح.

أما **(لوثر)** فكان يقول في هذه المسألة بما سمّوه (الحضور الجوهري المزدوج)[٤]، فيرى أن المسيح **يحل في الخمر والخبز بطريقة فعلية وحقيقية وحرفية، وحلوله في هاتين المادتين**

---

(١) انظر: الخضري، جون كالفن (حياته وتعاليمه)، ص٢٥٥، وموسينيه (رولان)، تاريخ الحضارات العام (القرانان السادس عشر والسابع عشر)، ٩٩/٤، وبيرنجيه (جان)، موسوعة تاريخ أوربا العام منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ٢٨٨/٢.

(٢) انظر: إيبرتس (هاري)، مصلح في المنفى، ص١٥٨، والخضري، جون كالفن، ص٢٥٥، وحاطوم (نور الدين)، تاريخ عصر النهضة الأوربية، ص١٨٢.

(٣) إيبرتس، مصلح في المنفى، ص١٥٧-١٥٨.

(٤) انظر: اليسوعي (صبحي)، تاريخ الكنيسة المفصل، ٨١/٣.

لا يلاشي الخمر والخبز، بل يبقيان كما كانا ويُضاف إليهما المسيح.[١]

ويرجع (لوثر) إلى الكتاب المقدس ليستنبط بعض الشواهد التي تؤيد نظريته هذه، فوجد بعض الإعلانات التي تشير إلى هذا المعنى، مثل "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا، وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي" [متى: ٢٦/٢٦-٢٩]، "وقال لهم شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم، لأني أقول لكم إني لا آكل منه بعد حتى يكمل في ملكوت الله، ثم تناول كاساً وشكر وقال خذوا هذه واقتسموها بينكم، لأني أقول لكم إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله، وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم اصنعوا هذا لذكري، وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم" [لوقا: ٢٢/١٥-٢٠]، وغيرها من الأدلة التي تحتوي المضمون نفسه.

رفض (لوثر) أي تفسير رمزي لهذه النصوص، فإن الحضور الذي يتكلم عنه (لوثر) هو حضور مزدوج، الخبز والخمر من ناحية، والجسد مؤلفٌ من اللحم والدم من ناحية أخرى.

والفرق بين مفهوم (لوثر) والكنائس الكاثوليكية التي تتمسك بالتحول الكلي والجزئي هو أن **(لوثر) ينادي بأن حضور المسيح حقيقة حرفية لكنها لا تلاشي حقيقة وجود الخبز والخمر، بينما الكنائس التي تنادي بالتحول الكلي فهي تعلّم بأن وجود جسد المسيح ودمه يُلاشي عنصري الخبز والخمر.**

وقد رفض (كالفن) أيضاً مفهوم (زونجلي) فإن الأخير يعتقد أن فريضة العشاء الرباني **تعني ذكرى موت السيد المسيح وقيامته،** لذلك فإنه في كل مرة يجتمع الأخوات والأخوة حول المائدة يتذكرون موت ذلك الذي أسلم نفسه من أجلهم، ثم ينادون بخبز الخلاص العظيم الذي قدمه المسيح للعالم بموته.[٢]

كان **(كالفن) يعتقد أن المسيح حاضرٌ فعلاً وحقاً في المائدة ولكن بطريقة روحية وليس بطريقة مادية ملموسة ومحسوسة،** ويرفض تعاليم آباء الكنيسة التي تعني بأن السيد المسيح ينزل من السماء بناسوته في العشاء الرباني، ويحل في الخمر والخبز بحيث يمكن مضغه بالفم وبلعه بالحنجرة.

يرفض (كالفن) هذه التعاليم لأنه كان **يعتقد أن ناسوت المسيح موجود في السماء،** لأنه يعتقد بأن الذي صعد بطريقة منظورة أمام التلاميذ هو المسيح كله بناسوته ولاهوته، وأن المسيح جالس عن يمين الآب، محتفظاً بناسوته، ولذلك فإن المسيح المقيم في السماء مع الأب وعن يمينه لا ينزل في المائدة، بل إنه يحضر بطريقة روحية.

ويتلخص الخلاف بين (كالفن) وغيره بأنه يرى أن الحضور للمسيح في الإفخارستيا برأيه رمزي روحي، وبرأي (لوثر) حقيقي مختلط مع الخبز والخمر مع الاحتفاظ بخواصهما، وبرأي (زونجلي) رمز تذكاري فقط، وبرأي الكنائس الكاثوليكية هو حضور حقيقي يزيل خواص الخمر والخبز فيتحولان إلى لحم السيد المسيح ودمه.

وبناءً على هذا الخلاف اختلف المسيحيون أيضاً في ضرورة إقامة العشاء الرباني بالنسبة إلى الخلاص المسيحي، جاء في (علم اللاهوت النظامي) أن الكنيسة الإنجيلية تعلّم أن إقامة

---

(١) انظر: الخضري، جون كالفن، ص٢٥٦.

(٢) انظر: دادو، حركة الإصلاح الديني عند (جون كالفن) وأثره في المجتمعات الأوربية في بداية العصر الحديث، ص٢٢٢.

السرين - المعمودية والعشاء الرباني - واجبة ولكنهما ليسا واسطتين ضرورتين للخلاص أي قد يمكن تحقيق الخلاص بدونهما.(١)

إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية تعتقدان غير ذلك، فالأسرار باعتقادهم **وسائط لازمة للنعمة**، بمعنى أنّ الفوائد التي يشار بها إليها لا يمكن نوالها بدون ممارسة الأسرار، فلا تحصل مغفرة الخطايا ولا نوال النعمة بدون إقامة الأسرار قبول المؤمن المسيحي لجسد المسيح ودمه غذاءً لروحه.

وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية أن العشاء الرباني فيه **قوة ذاتية حقيقية**، فلا يستطيع المرء أن ينال نعمة الفداء أو تكفير المسيح عن خطاياه إلا بالعشاء الرباني، أما قول لوثر فإنه يدل على مدى أهمية العشاء الرباني بالنسبة للخلاص عنده، وأن المسيح يحضر فيه حضوراً حقيقياً بطريقة معجزة، فهو متفق بالفحوى العامة مع الكاثوليك والأرثوذكس، إلا أنه يختلف عنهم اختلافاً بسيطاً وهو رفض (لوثر) استعمال اصطلاح (الاستحالة)، حيث قال بالوجود المزدوج، ولعل إصراره على استعمال اصطلاح (الوجود المزدوج) كان تخفيفاً لفكرة الاستحالة غير المعقولة.(٢)

والخلاف السابق حول أهمية العشاء الرباني **يضعف من فاعلية العشاء الرباني في نفوس المؤمنين** من أتباع الفرق المسيحية المختلفة، ويُشير أيضاً إلى اعتبار آخر هو **الإبهام النصي** الذي أحاط بهذا السر، فالنص الوارد في الأناجيل الذي يثبت تأسيس المسيح للعشاء الرباني لا يوضح أي تعاليم أخرى غير الأمر بإقامة هذا السر تذكراً للمسيح لا غير.

والنصوص الأخرى الواردة في الرسائل كذلك لا تسعف الموقف، وتبقى كثير من المحاور تدول في فلك الإبهام والجهالة، فمن أين يستدل المسيحيون على فاعلية هذا السر وأوقات إقامته ومدلوله الروحي وغيرها من المحاور التي لا نص فيها؟

هنا تأتي **الاجتهادات الآبائية المتناقضة** فيما بينها لتؤسس لإجراءات وخطوات وممارسات ليتورجية واجبة الأداء مع الإفخارستيا مختلفة فيما بينها بحسب الكنيسة التي يُقام فيها القدّاس.

هذه الممارسات المختلفة وفقدان النص في بعض المواطن وكثرة الاعتقادات غير المنطقية حول الإفخارستيا أدى لحدوث الخلاف السابق عرضه وظهور دعاة الإصلاح الديني بفكرهم الناقد للتقليد الكاثوليكي الذي كان سائداً في الكنائس المسيحية، ومن المنطقي أن تتأثر مكانة العشاء الرباني وضرورة تناوله في فكر أتباع المسيحية بعد حدوث مثل هذا الاختلاف حول أهم الشعائر الدينية.

ثانياً: الأثر الوثني في القربان المسيحي (العشاء الرباني):

أسهم القربان إسهاماً مركزياً في الديانات القديمة؛ فقد شكّل القربان فيها الوسيلة الرئيسة في العلاقة بين الإنسان والآلهة، فالقربان يشير إلى تضحية قديمة جداً في تاريخ الإنسانية هي (التضحية البشرية إرضاءً للآلهة)، ومن هنا فإنه من المؤكد أنه **بإمكان الناظر في التاريخ أن يعثر على أمثلة قديمة في الفكر الوثني القديم والمعاصر للعشاء الرباني**، لأن لاهوت القداس المسيحي يتضمن إشارات إلى تصورات سابقة في العهد القديم ويتضمن إشارات غير مباشرة إلى الذبائح القديمة بشكل عام، ومن الواضح أن الكنيسة بتبنيها ذبيحة المسيح والمشاركة في لحمه ودمه كانت تستثير الدفائن العميقة في النفس البشرية الوثنية، وتشير إلى ضرورة إحياء هذا الفكر من جديد.

إذاً من الطبيعي أن نجد الديانات القديمة والجديدة والسماوية تعترف بوجود القربان

---

(١) انظر: عجيبة، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، ص٦٠١.

(٢) انظر: الخضري (حنا)، تاريخ الفكر المسيحي، ص٣٢٨.

وأهميته، وهذا أمر **يندرج ضمن السلوكات المتوقعة لأتباع الديانات على اختلافها** إذا اعتبرنا أن التدين حاجة وفطرة في النفوس البشرية، فهي مجبولة على التدين والخضوع لقوة أعلى منها، والقربان سلوك وشعيرة متوقعة من المتدينين لأنه الطريقة المثلى التي يعتقد أتباع الديانات المختلفة جدواها في استرضاء الآلهة ونيل الغفران والصفح منها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه من الخطأ أن نحكم على الظواهر والعادات القديمة بعقليتنا الحديثة؛ لأن وعي الإنسان البدائي يختلف عن وعي الإنسان الحديث في كثير من الأمور، فلقد كان الاختراع عند البدائيين مختلفاً عما نعرفه اليوم، فحياتهم كانت تسير على وتيرة واحدة جيلاً بعد جيل، وكانت اللغة هي العامل الأكثر تبدلاً، وبالتأكيد فإن الشعائر الدينية ورموزها الكثيرة تطورت على هذه الطريقة تقريباً، لكن علم الأنثروبولوجيا لا يجيب عن سؤال منطقي هو: أين ومتى حصل هذا التطور؟[١]

إذاً فليس الأثر الوثني في القربان المسيحي هو بوجود مسألة القربان، إذ قد تبين معنا أن فلسفة القربان تكاد تكون مسألة فطرية يلجأ إليه المتدينون جميعاً، و**يتحدد الأثر الوثني في السلوكات المنهجية والليتورجية والطقس الواجب إقامته إحياءً لهذه الشعيرة،** ومن هنا فإنه ليس من المستغرب أن نعثر على شعوب وديانات تؤدي شعائر دينية تقترب كثيراً من شعائر المسيحية بما في ذلك العشاء الرباني، يقول (ديورانت): "وكان الاشتراك الجماعي في تناول الطعام والشراب المقدسين من المظاهر الكثيرة الحدوث في أديان البحر الأبيض المتوسط، وكثيراً ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام **ستحلّ فيه بهذا التقديس قوة الإله،** ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين في تناوله".[٢]

- يورد (أندريه نايتون) مثالاً عن **شعوب الأزتك** الذين كانوا يمارسون شعيرة (أكل الله)، فيروي ما رآه المبشرون المسيحيون في تلك البلاد في القرن السادس عشر، إذ إن هؤلاء الهنود كانوا يصنعون قطعة من الكعك الكبير جداً على صورة معبودهم (هويتزيلوبوشيتي) ويحملون الكعكة المصنوعة من بذور الخشخاش وينشدون: (وفي اليوم التالي مات جسد هويتزيلوبوشيتي)، ويعتقدون أن الذي ذبحه هو الكاهن (كويتز الكوتل) وقد قتله برمح مصنوع من حجر الصوان وأصابه في قلبه، ومات الإله (هويتزيلوبوشيتي) أمام موكتيزوما وأمام السادن الذي كلّمه الإله حقاً وظهر أمامه وجعل نفسه له قرباناً، ولما مات وزعوا جسده بينهم وأعطوا قلبه لموكتيزوما، وباقي أعضائه وزعت على الباقين، وفي كل عام كانوا يصنعون الكعكة على صورته، فيكسرونها ويوزعونها بينهم ويأكلونها وهم يعتقدون أنهم أكلوا جسد معبودهم ويقولون وهم يأكلون: (ها قد أكلنا ربنا، إننا نحفظ الإله ونحرسه حين نأكله.[٣]

ولا يستطيع العاقل أن يتجاهل هذه النصوص القربانية الرمزية: الكعكة التي تشبه خبز القداس، والإله الذي يتجلى أمام الكاهن كما يتجلى المسيح في القداس والذي يتم عندما تُثقب الكعكة برمح صغير (كما في القداس الأرثوذكسي) حيث يُطعن الخبز بآلة صغيرة على المذبح، وغيرها من اعتقادات توافق القداس المسيحي الذي يُقام إحياءً لذكراه وتقديساً لموته واشتراك المؤمنين في تناول جسده ودمه.

- كذلك نجد **في ديانة ميثرا الفارسي** تقاطعات كبيرة مع المسيحية فيما يخص مسألة القربان، فالميثراسية انتشرت قبل انتشار المسيحية، وقد تضمن كتاب (الغصن الذهبي) الحديث

---

(١) انظر: نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص١٤٤.
(٢) ديورانت، قصة الحضارة، ١٥١/٣.
(٣) انظر: نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص١٤٥.

عن الميثراسية وشعائرها، وأورد طقوساً مشابهة للقداس المسيحي، فمن ذلك مثلاً الطقس الذي نجد فيه الإله ميثرا يحمل ثوراً ليضحي به من أجل إخصاب الأرض في موكب مهيب من المؤمنين الذين يحملون المشاعل ويُنشدون للإله ميثرا، كذلك حين يتناول المؤمنون بميثرا الطعام المقدّس الذي هو عبارة عن قطع من الخبز مرسومٍ عليها صلبانٌ كما هو الحال تماماً في الخبز المستعمل في القداس المسيحي في أيامنا، كذلك الأجراس التي تُستخدم أثناء إقامة هذا الطقس كما تُستخدم في المسيحية.

ويرى مؤرخو الأديان أن **التضحية في دين ميثرا هي تضحية ذاتية كما هي في المسيحية،** فميثرا يضحي بنفسه من أجل إخصاب الأرض وتخليص شعبه تماماً كما يؤمن المسيحيون بأن المسيح حمل صليبه وضحى بنفسه، وتحّول الثور الذبيح إلى الإله ميثرا كما كان يعتقده الميثراسيون يوازي تحوّل الإله المسيحي إلى طعام وشراب هما الخبز والخمر ثم تحوّلهما في القداس إلى المسيح نفسه.(١)

يقول (محمد يحيى): "وكان أهم احتفالاتهم – أتباع ميثرا – المقدسة العماد والتثبيت والعشاء الإلهي الذي كان متناولوه يشتركون في طبيعة ميثرا الإلهية بتناول الخبز والنبيذ"(٢)، ويقول (شارل جنيبير): "ونقل إلينا جوستين – أحد المدافعين عن المسيحية في القرن الثاني الميلادي – أن أسرار ميثرا احتوت على نوع من الشعائر يفرض تقديم كأس من الشراب وقطعة خبز إلى المؤمن مع النطق ببعض العبارات المعروفة آنذاك"(٣)، ويقول العقاد: "والعشاء الرباني كان معروفاً في عبادة ميثرا على الطريقة التي عُرف بها في المسيحية، بل كان الخبز الذي يتناوله عبّاد ميثرا في ذلك العشاء يصنع على شكل الصليب".(٤)

وأخيراً يقول (آرنست كيللت): "إن التشابه بين الطقوس السرية لديانة ميثرا والمسيحية مذهلة، وهي محيرة فعلاً لدرجة أن السبب الوحيد الذي أعطاه آباء الكنيسة تبريراً لذلك كان قولهم إن الشيطان كان يقلّد المسيح"(٥)، ويقول أيضاً: "وفي رأيي على أي حال أنه من المستحيل الاعتقاد بأن هذا التشابه جاء عرضاً، فلا بد أن تكون واحدة قد استعارت من الأخرى، أو أن يكون الارتباط متبادلاً، إن الميثراسية لها طقوسها المتعلقة بالعشاء الرباني ومن الصعب التفريق بينها وبين ما في عقيدتنا (المسيحية)".(٦)

– **القربان في الديانات اليونانية طقس مغرق في القدم،** فقد كان اليونانيون المتعبدون بالأديان الوثنية يقيمون بعض الطقوس السرية التي من أهمها (التناول) أو (العشاء الرباني)، ففي العبادة (الأليوسية) كانوا يتناولون كما يقول (ديورانت) عشاءً ربانياً مقدساً إحياءً لذكرى (ديميتير) ويشربون مزيجاً من دقيق الحنطة والماء، ويأكلون كعكاً مقدساً".(٧)

وفي عبادة (ديونيسس) كانوا يقيمون بعض الاحتفالات التي تمثل موت الإله (ديونيسس) وبعثه، وكان أهم هذه الاحتفالات أن يمسك النساء بماعز أو ثور أو رجل في بعض الأحيان اعتقاداً منهم أن الإله قد تقمّصه، ويقمن بتقطيعه إرباً وهو على قيد الحياة إحياءً لذكرى تمزيق

---

(١) انظر: نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص١٤٦.
(٢) يحيى (محمد)، رحلتي من الكفر إلى الإيمان (قصة إسلام الكاتبة الأمريكية مريم جميلة)، ص١٤٤.
(٣) جينيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، ص٧٧.
(٤) العقاد (عباس محمود)، الله، ص١٤٨.
(٥) عبد الوهاب (أحمد)، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص٨٠.
(٦) المرجع السابق، ص٨١.
(٧) انظر: ديورانت، قصة الحضارة، ٣٤٢/٦، وعمران (أحمد)، العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية، ص٢٠٩.

(ديونيسس)، ثم يشربن دمه ويأكلن لحمه عشاءً ربانياً مقدساً، اعتقاداً منهم أن الإله سيدخل بهذه الطريقة إلى أجسامهن ويستحوذ على أرواحهن، وكن في هذه الحماسة القدسية يؤمن بأنهن سيصبحن هن والإله شيئاً واحداً.(١)

- يرى المؤرخون أن تعليم انتقال الشكل أو التحول السري من الخبز إلى اللحم كان **معروفاً لدى الأديان الهندية القديمة قبل ظهور المسيحية بقرون عدة**، وكان البراهمة يعلمون تلاميذهم أن كعكة الأرز التي يقدّمونها أضحيةً إنما هي بديل عن الكائنات البشرية، وأن ذلك الكعك يتحول إلى أجسام رجال حقيقيين على يد الكاهن.(٢)

يقول الدكتور (محمد وصفي): "إن الإفخارستيا فكرة مأخوذة من مشركي الهند، فإن قدماءهم يتوقف ظاهر عباداتهم على قربان النار، يشعلها رب البيت صباحاً ويبعث مع حرارتها صلاة حارة يستنزل بها رحمة القوة المستترة وراء الطبيعة، ورب البيت مثل الآب أو الكاهن تشارك امرأته في تقديم القربان شراب مخمر ومن أقراص دقيق معجون بالسمن كقربان المسيحيين"(٣)، وهذه الاعتقادات مذكورة في أسفار (الفيدا) التي تسبق الأناجيل بكثير، والتي أخذ الهنود منها أكثر أقوالهم.(٤)

والمقارنات السابقة بين القداسات المختلفة في الديانات الوثنية وبين القداس المسيحي ما هي إلا غيضٌ من فيضٍ من الأمثلة الكثيرة التي يمكن ذكرها للمقارنة بين القدّاس المسيحي وبين الذبائح والقرابين عند الوثنيين، فهناك ثروة هائلة من الأمثلة المتوفرة بهذا الخصوص، وكل من يعرف شيئاً عن هذه الأديان لا يمكنه إلا أن يلحظ التقارب الكبير بينها وبين القداس المسيحي.

ويقول (جينيبر): "ولم يكن قد قدّر لأي طقس من طقوس الأسرار الوثنية أن يذخر بمعانٍ وفيرة وبآمال جذابة مثل ما ذخرت به الطقوس الخاصة بالقربان لدى بولس، غير أنها كانت من قبيل عائلة الطقوس الوثنية ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودي، لقد أدخلت في كنيسة الحواريين (قطعة من الوثنية)".(٥)

ومما سبق يتبين أن **القرابين كانت تؤلف جزءاً مهماً من عبادة الأمم القديمة**، بل تكاد تكون العلامة الفارقة عندهم للدين، فالرجل المتدين في عرفهم هو الذي يتذكّر آلهته بتقدم القرابين لها، وكانت مسألة القربان عندهم أبرز من العبادات العملية كالصلوات؛ لأن الإنسان البدائي لم يكن يفهم آنذاك من الحياة إلا مفهومها المادي، وهو يرى بعينه ويدرك أن ما يُقدّم إليه يؤثر في نفسه كثيراً، لذا كان من الطبيعي أن يتصور أن القرابين هي أوقع في نفوس الآلهة من أي شيء، فقدّمها على كل شيء، وجعل منها عبادة يتقرب بها إلى الآلهة كما يتقرب أهل الأديان السماوية إلى الإله بالدعاء والصلوات.

وإن القربان المقدس في المسيحية يعدّ شكلاً من أشكال التأثر الوثني في المسيحية، فجذور **العشاء الرباني في الضمير المسيحي من خبز وخمر تعود إلى العادات التي كانت مألوفة لدى الأمم الوثنية**.

وهنا يتبين بجلاء تام ووضوح التشابه الكبير بين المسيحية والوثنية بالنسبة لشعيرة العشاء الرباني، فالتشابه كبير لدرجة صعوبة التفريق – كما أشار (آرنست كلليت) _ بينهما، لذلك يقول (جينيبير): "هل نحن بحاجة إلى إيضاح أوجه الشبه الساطعة بين هذه الطقوس والشعائر

---

(١) انظر: ديورانت، قصة الحضارة، ٣٣٩/٦.
(٢) انظر: فريزر (جيمس)، الغصن الذهبي، ص٦٢٩.
(٣) نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص١٤٥.
(٤) انظر: وصفي (محمد)، المسيح والتثليث، ص١٣٤.
(٥) جينيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١١٠.

المختلفة وبين طقوس التعميد وشعائره والقربان عند المسيحية؟"[1]، وهذا يعني بالتأكيد أن واحدة استعارت من الأخرى، والمنطقي أن اللاحق هو المتأثر بالسابق، واللاحق هنا هو المسيحية، فقد ظهرت تلك الديانات الوثنية وانتشرت في بلاد اليونان والرومان والفرس قبل ظهور المسيحية بمئات السنين.

وقد أشار بعض الباحثين إلى التأثر المسيحي في العشاء الرباني بالوثنيات القديمة حتى في التسمية، يقول (آرنولد توينبي): "والعشاء الرباني المسيحي قد استعير اسمه [sacramentum] من أحد الطقوس الرومانية الوثنية حين ينذر المجند نفسه للجيش الروماني".[2]

ثالثاً: موقف الإسلام من العشاء الرباني:

إذا أردنا تحديد الموقف الإسلامي من مسألة العشاء الرباني فإننا بحاجة إلى مناقشة عدة نقاط في هذا الشأن، منها الاختلاف بين الروايات وقضية الثبوت التاريخي لفعل المسيح وتوارد الأناجيل على ذكر هذا الأمر واشتراط التواتر للإيمان به قضيةً عقائدية أساسية بالإضافة إلى مسألة غاية في الأهمية هي (الاستحالة).

١ـ قضية الاستحالة:

أما **مسألة الاستحالة فقد ناقشها العلامة (رحمت الله الهندي)** وردّها بردود، أذكر منها ما يلي:

(الأول) يرى المسيحيون أن الخبز والخمر يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه ويصيران مسيحاً كاملاً، إذا استحالا مسيحاً كاملاً حياً بلاهوته وناسوته الذي أخذه من مريم عليهما السلام، فلا بد أن **يشاهد فيهما عوارض الجسم الإنساني** ويوجد فيه الجلد والعظام والدم وغيرها من الأعضاء لكنها لا توجد فيه بل جميع عوارض الخبز والخمر باقية كما كانت، فإذا نظرهما أحد أو لمسهما أو ذاقهما فإنه لا يحس شيئاً غير الخبز والخمر، وإذا حفظ الخبز سيطرأ عليه الفساد الذي يطرأ على الخبز لا الفساد الذي يطرأ على الجسم الإنساني.

لكن كلام العلامة (الهندي) من هذه الناحية يمكن ردّه بأن بعض المسيحيين يرون أن الخبز والخمر يبقيان على حالهما ويحتفظان بخواصهما.

(الثاني) إن حضور المسيح بلاهوته في أمكنة متعددة في آن واحد وإن كان ممكناً حسب الاعتقاد المسيحي لكنه **باعتبار ناسوته غير ممكن**؛ لأنه بهذا الاعتبار كان مثلنا حتى كان يجوع ويأكل ويشرب وينام ويخاف من اليهود ويفر منهم، فكيف يمكن تعدده بهذا الاعتبار بالجسم الواحد في أمكنة غير محصورة في آن واحد حقيقة؟ والعجب أنه ما وُجد قبل عروجه إلى السماء بهذا الاعتبار في مكانين فضلاً عن الأمكنة غير المتناهية، إذ لم يثبت شيٌ في الأناجيل من هذا القبيل، وكذا بعد عروجه إلى السماء فكيف يوجد بعد زمن طويل هذا الاعتقاد بالاعتبار المذكور في أمكنة غير محصورة في آن واحد.

وكذلك يمكن مناقشة العلامة (الهندي) في هذه الناحية بأن البروتستانت لا سيما الكالفينيين يقولون بالحضور الروحي لا الجسمي، والزونجليين كذلك يقولون بحمل هذه الحادثة على التذكر لا أكثر.

(الثالث) إذا فرضنا أن الملايين من الكهنة في العالم قدسوا في آن واحد واستحالت تقدمة كل إلى المسيح الذي تولد من العذراء، فلا يخلو إمّا أن يكون كل من هؤلاء **المسيحيين الحادثين عين الآخر أو غيره**، والثاني باطل على زعمهم والأول باطل في نفس الأمر لأن مادة كلٍ غيرُ

---

(١) جينيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، ص٧٧.

(٢) توينبي (آرنولد)، مختصر دراسة للتاريخ، ٢٠٠/٣.

مادة الآخر.

(الرابع) إذا استحال الخبز مسيحاً كاملاً تحت يد الكاهن فكسر هذا الكاهن هذا الخبز كسرات كثيرة وأجزاء صغيرة فلا يخلوا إمّا أن **يتقطع المسيح قطعة قطعة** على عدد الكسرات والأجزاء أو يستحيل كل كسرة وجزء مسيحاً كاملاً أيضاً فعلى الأول لا يكون المتناول متناولاً مسيحاً كاملاً، وعلى الثاني من أين جاءت هؤلاء المسحاء لأنه ما حصل بالتقدمة إلا المسيح الواحد؟.

(الخامس) لو كان العشاء الرباني الذي كان قبل صلبه بيسير نفس الذبيحة التي حصلت على الصليب لزم أن يكون كافياً لخلاص العالم، فلا **حاجة إلى أن يصلب على الخشبة من أيدي اليهود مرة أخرى** لأن المسيح ما جاء إلى العالم إلا ليخلص الناس بذبيحة مرة واحدة.

(السادس) لو صح ما ادعوه لزم أن يكون المسيحيون أخبث من اليهود لأن **اليهود ما آلموه إلا مرة واحدة** وما أكلوا لحمه، وهؤلاء يؤلمونه ويذبحونه كل يوم في أمكنة غير محصورة، ويأكلون لحمه ويشربون دمه؟

(السابع) جاء في لوقا قول المسيح: "اصنعوا هذا لذكري" فلو كان هذا العشاء هو نفس الذبيحة لما **صح أن يكون تذكرة** لأن الشيء لا يكون تذكرة لنفسه.(١)

وهذه الانتقادات التي وجهها العلامة الهندي من شأنها أن تُضعف الموقف المسيحي المؤمن بالعشاء الرباني إذا طرحت عليه، وتبقى الأسئلة والاستنتاجات التي قالها الهندي موجّهة إلى الفكر المسيحي وعصية على الحل، وإبان هذا الأمر لابد للفكر المسيحي من حركة تحليلية ونقدية جديدة تجاه هذه الشعيرة.

ولقد **لقيت دعوى الاستحالة رفضاً ومعارضة من المسيحيين أنفسهم**، فممن أشار إلى معارضتها مثلاً **(ديورانت)، حيث قال**: "أعلن مجلس لاتيران في عام ١٢١٥م أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية في الدين المسيحي، وأضاف مجلس ترنت إلى هذا القول في عام ١٢٦٠م أن كل جزء من الخبز المقدّس مهما كُسر يحتوي جسم عيسى المسيح كله ودمه وروحه، وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوربية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر في الأديان البدائية وهي أكل الإله".(٢)

يقول (**إلياس مقار**): "إذ إن المنادين بفكرة الاستحالة يتمسكون بحرفية قول المسيح (هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم اصنعوا هذا لذكري) غير أنه لا يمكن الأخذ بهذه الحرفية؛ لأن الأخذ بها يعني أن المسيح إذ كسر الخبز وقدم الكأس في العلية معناه أن جسده المكسور ودمه المسفوك قد قُدّما في العلية... وبأي معنى يمكن أن يكون الجسد في الوقت نفسه صحيحاً ومكسوراً والدم مسفوكاً وغير مسفوك؟ ... في الواقع إن الاستحالة تواجه من العقوبات الكتابية ما لا يستطيع تخطيه بتاتاً"(٣)، ويقول (عوض سمعان): "إن خبز العشاء الرباني وخمره لم يتحولوا إلى جسد المسيح ودمه عند قوله الأول (إنه جسدي وعن الثاني إنه دمي) بل ظلا خبزاً وخمراً عاديين كما كانا من قبل، وهذا دليل على أن حديث المسيح عنهما كان حديثاً مجازياً....إن المسيح لم يعط العشاء الرباني لتلاميذه لكي يقدموه بدورهم ذبيحةً لله لأجل التكفير عن خطاياهم ....بل أعطاهم إياه لكي بالأكل والشرب منه يتذكرون محبته الفائقة التي تجلت في ذبيحته هذه حتى تطيب قلوبهم وتظل على ولائها له في كل حين وذلك لأجل خيرهم

---

(١) انظر: الهندي، إظهار الحق، ٣٢٦/٢-٣٣٧.
(٢) ديورانت، قصة الحضارة، ١٨/١٦.
(٣) مقار، القضايا المسيحية الكبرى، ص٥٠٩-٥١٠.

وفائدتهم".[1]

٢- قضية ثبوت تأسيس المسيح للإفخارستيا:

يدعي المسيحيون أن السيد المسيح هو الذي أسس العشاء الرباني في ليلة اليوم الذي صُلب فيه، وتواردت الأناجيل على ذكر هذه الحادثة ونسبتها إلى السيد المسيح، لكن إذا رجعنا إلى هذه النصوص سنجد أنها مختلفة فيما بينها، وهذا الاختلاف يُضعف الثقة في صحة هذه الرواية، كما يحمل دلالة مهمة هي عدم فعل المسيح لهذا الأمر الذي تشير إليه الأناجيل وترويه، بمعنى أنه قد يرجّح أن المسيح لم يؤسس لهذا السر، وأن الأمر قد يكون فرية ممن يدعي الانتساب إليه، لا سيما إذا قارنا فحوى هذه النصوص بنصوص أخرى تحوي معانيَ تجعل من أمر المسيح بالعشاء الرباني وفعله له واستعانته بالخمر لتأسيس هذا السر أمراً مستبعداً.

لعل القديس **يوحنا فهم صعوبة الإيمان العقلاني بمسألة العشاء الرباني،** لا سيما من خلال الطرح المسيحي لهذه الفكرة، **فحاول التقديم لهذا الأمر بقصة أخرى بيّن فيها إمكانية قدرة المسيح على تحويل الماء إلى خمر،** "....قال لهم يسوع املؤوا الأجران ماءً فملؤوها إلى فوق، ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ فقدموا، فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هي لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا دعا رئيس المتكأ العريس، وقال له كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن" [يوحنا: ٢/٧-١٠].

لعل (يوحنا) أورد هذا النص **إشارةً تمهيدية إلى إمكانية تحول الماء إلى خمر على يد المسيح، ولم يورد أصحاب الأناجيل الثلاثة شيئاً من هذه القصة** ولا أي إشارة لحصول هذه المعجزة، وإذا أغفلت الأناجيل الثلاثة مثل هذه الحادثة – على فرض صحتها – فإنهم يكونون متهاونين في نقل الدين، وكيف يقبل المسيحيون مثل هذه القصة مع أن شرط الدين والأحداث التي تُبنى العقائد عليها التواتر، وإذا كانت غير صحيحة كان إنجيل يوحنا غير موثوق به وبما أورد من أمور وأحداث لا سيما تأسيس المسيح للعشاء الرباني.

وما يؤيد هذا الأمر أن هناك الكثير **من الأحداث ذكرها (يوحنا) في إنجيله لم تتعرض لها الأناجيل** الأخرى كحادثة غسل المسيح أقدام تلاميذه ومسحه لأقدامهم بمنديل وأمره لهم أن يقتدوا به في التواضع "ثم صب ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها، فجاء إلى سمعان بطرس فقال له ذاك يا سيد أنت تغسل رجلي.... فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض" [يوحنا: ١٣/٥-٦، ١٤].

٣-تحريم الخمر في المسيحية:

لم يرد نص واحد يبيح شرب الخمر أو استحلال شربه، إنما ورد في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد الكثير من الأدلة التي تشير إلى حرمة الخمر أو تصرّح بها، ومن المعلوم أن الخمر عنصرٌ أساس في العشاء الرباني في المسيحية، فكيف يستقيم هذا؟

ورد في الكتاب المقدس: "ويل للمبكرين صباحاً يتبعون المسكر للمتأخرين في العتمة تلهبهم الخمر، وصار العود والرباب والدف **والناي والخمر ولائمهم** وإلى فعل الرب لا ينظرون وعمل يديه لا يرون" [إشعياء: ٥/١١-١٢]، "الخمر مستهزئة المسكر عجاج ومن يترنّح بها فليس بحكيم" [أمثال: ٢٠/١٦]، "محب الفرح إنسان معوز **محب الخمر** والدهن لا يستغني" [أمثال: ٢١/١٧]، "لا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة" [أفسس: ٥/١٨]، "وأما الآن فكتبت

(١) سمعان، الكهنوت، ص٢٤٦-٢٥٠.

إليكم إن كان أحد مدعواً أخاً زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتاماً أو **سكيراً أو خاطفاً لا تخالطوا** ولا تؤاكلوا مثل هذا" [كورنثوس١: ١١/٥].

هذه النصوص وغيرها الكثير يستنبط منها **تحريم الخمر والتحذير من الاختلاط بمن يشربها ويتعاطاها،** فكيف يأمر المسيح بتناول الخمر بعد تحريمه؟ إضافةً إلى أن النصوص التي تتحدث عن العشاء الرباني تنص على أن المسيح لم يشرب من الخمر، "ثم تناول كاساً وشكر وقال خذوا هذه واقتسموها بينكم، لأني أقول لكم إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله" [لوقا: ١٧/٢٢]، هذا النص وأمثاله التي أوردت إعطاء المسيح الكأس لتلاميذه وامتناعه عن الشرب [مرقس: ٢٥/١٤ ومتى: ٢٦/٢٦] فيها تناقض واضح، إذ كيف يمتنع المسيح عن أمر لكونه محرماً في الشريعة ثم يعطيه تلاميذه ليقتسموه بينهم؟

٤-أسبقية رسائل (بولس) في تقرير العشاء الرباني على الأناجيل المعروفة:

من المعلوم تاريخياً أن **رسائل (بولس) هي أقدم ما كُتب في العهد الجديد،** إذ تاريخ تدوينها متقدم على تاريخ تدوين الأناجيل بعقود، وعليه فالأناجيل وما ورد فيها من كلام عن العشاء الرباني مسبوقة بما تكلّمه بولس حول هذا الأمر.

ولقد **قرر (بولس) هذه الفريضة في الإصحاحين العاشر والحادي عشر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس،** جاء في الإصحاح العاشر: "كأس البركة التي نباركها أليست في شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح؟ فإننا نحن الكثيرين خبز واحد، لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد ..... أليس الذين يأكلون الذبائح هم شركاء المسيح" [كورنثوس١: ١٦/١٠-١٨].

وفي الإصحاح الحاي عشر يقول (بولس): "لأني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً، أن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر ...." [كورنثوس١: ٢٣/١١-٢٤].

يتضح من النصين السابقين أن **بولس كان أول من نطق بالعشاء الرباني حادثةً تاريخية، وجعل منها فريضة للاتحاد بالمسيح** بأكل جسده وشرب دمه، فأدخل إلى المسيحية أكل لحم المسيح وشرب دمه ممثلاً في خبز وخمر قرباناً مقدساً يجلب الخلاص لمقيمي هذه الشعيرة.

وهذا ما يؤكده **(هيام ماكبي)** في كتابه (بولس صانع الأساطير)، حيث يقول: "إن أول تأكيد لهذا – فكرة أن المسيح سنّ طقس العشاء الرباني في المسيحية – نجده في رسائل بولس، التي نجد فيها أيضاً أول إشارة إلى فكرة القربان المقدس، أي الفكرة التي تقول بوجود قوة للخلاص في جسد المسيح ودمه، فمن أقواله يتضح تماماً أن بولس هو مخترع القربان المقدس كفكرة وسنة راسخة الجذور، فهو يقول بكل وضوح إن هذا القربان قد تأسس بناءً على وحيٍ تلقاه شخصياً، إذ يقول (لأني تسلمت من الرب ما سلمتكم)".(١)

وإلى **مثل هذا يذهب (شارل جنيبير)،** حيث يقول: "إن النقد الحر يتجه أكثر فأكثر إلى الإجماع على أن العبارة التي يُقال إن المسيح أقام عليها عقيدة التناول (خذوا كلوا هذا جسدي، خذوا واشربوا هذا دمي) ليست سوى تفسير من عند بولس غريبة كل الغرابة عن فكر المسيح".(٢)

ويقول (تقي العثماني): "إن إنجيل متى ومرقس حين ذكرا هذه القصة – قصة العشاء الرباني – لم يشفعا ذلك بأمر من عند عيسى عليه السلام يجعل هذا الأمر طقساً دائماً، وهذا الحكم قد وضعه بولس لأول مرة، وبما أن لوقا تلميذ بولس فقلده، وذلك ما يعترف به العلماء

---

(١) انظر: حلمي (مصطفى)، الإسلام والأديان، ص١٤٠-١٤١نقلاً عن (هيام ماكبي) بولس صانع الأساطير.
(٢) جينيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٣٩.

المسيحيون بدورهم، يقول (بوركت) (إذا قرأت قصة العشاء الرباني في إنجيل مرقس لا تجد فيه أي أمر بالاستمرار على هذا العمل، لكن بولس عندما يذكر عمل يسوع هذا يزيد الجملة الآتية ناحلاً إياها إليك [اصنعوا هذا لذكري])".[١]

ومن المؤكد أن مصدر **بولس في تقرير هذه الشعيرة يعود إلى البيئة التي نشأ وتربى فيها**، لا سيما أفكار وأسرار (ميثرا) الذي انتشرت ديانته وعبادته في (طرسوس) التي نشأ بولس فيها.

٥-تناول العشاء سبب الحصول على الغفران:

يقول عوض سمعان: "جعلَ التناول من العشاء الرباني هو السبيل للحصول على الغفران عن عدم وجود أساس له في الكتاب المقدس.... فإنه يحول السبيل إلى الغفران من عمل روحاني في النفس بواسطة التوبة والإيمان الحقيقي إلى عمل جسماني بواسطة الأكل والشرب الماديين، الأمر الذي يتعارض مع مبادئ المسيحية جميعاً".[٢]

من العرض السابق يتبين أن شعيرة العشاء الرباني متناقضة مع العقل والمنطق، فضلاً عن أن الأدلة الكتابية يحوطها الشك والريبة والتناقض، والأظهر والأوضح من هذا كله هو التأثر الوثني الشديد للمسيحية بما عاصرته من ديانات استطاعت أن تلقّح المسيحية بأفكارها وأساطيرها مما أسهم في إنتاج فكرٍ مسيحي وثني قائم على أساطير متعددة من أهمها تجسد ابن الإله وتقديمه سراً لتلاميذه من خبز وخمر يتحولان إلى دمه ولحمه كي يتذكروا بإقامته موت المخلّص لهم.

---

(١) العثماني، ما هي النصرانية، ص١٦٨.
(٢) سمعان، الكهنوت، ص٢٧٣.

المبحث الثالث: تقديس المكان في الفكر المسيحي

تتميز الشعائر الدينية في المسيحية **باتساع مفهومها وشمولها**، فحتى **الأماكن تتعلق بها بعض الشعائر الدينية في المسيحية، وتدور هذه الشعائر في المسيحية حول مفهوم التقديس**، والمقصود بذلك تعظيمها وتقديسها.

المطلب الأول: تقديس المكان في الفكر المسيحي ووجود المسيحيين في القدس:

من المبادئ التي تشترك فيها جميع الثقافات، والإيمان بها من العقائد الدينية الأولى في حياة الإنسان .... فالناس وجدوا عندما أمعنوا النظر في العالم من حولهم، أن بعض الأمكنة تُشعر بسحر لا يقاوم .... تختلف اختلافاً جذرياً عن غيرها من البقاع، فكانت تلك النظرة تشكل موقعاً أساساً في رؤيتهم للعالم، وتضرب بجذورها إلى مستويات أعمق كثيراً من مستوى العقل الواعي.

تضرب فكرة قداسة المكان في جذورها إلى التاريخ البشري القديم، ولعلها **صاحبت يقظة الإنسان الحضارية في المجتمعات القديمة**، ويعتقد مؤرخو الأديان أن **منح المكان القداسة هو أمر من أقدم تجليات الدين في جميع الثقافات**.(١)

والأماكن المقدسة في الفكر المسيحي **ذات قدرة جبارة على اجتذاب الناس**؛ لأن المسيحي يرى فيها ما يألفه في أعمق المستويات، وما يعد جوهر الإنسانية جمعاء، وقد **تضمّن المتخيل المسيحي الكثير من المعاني التي تؤكد عمق الوحدة التي تربط أطراف الجغرافية الروحية المسيحية**، فصار للقدس مكانة كبيرة في الفكر المسيحي؛ إذ هي محراب المسيح ومهده.

وحين انتشرت المسيحية واعتنق الرومان ديانتها وأصبحت المسيحية ديانة الدولة الرسمية سنة ٣٢٥م أُعيدت (أورشليم) إلى سابق عهدها – قبل عصر الاضطهاد المسيحي - من البناء، وزالت الأنصاب الوثنية منها، وفي هذا العهد تجددت الشعائر ذات المظاهر الدينية المسيحية في (القدس)، فبنى الإمبراطور قسطنطين الأول كنيسة القبر المقدّس، وأنشأت أمه كنيستين هما كنيسة الميلاد في بيت لحم وكنيسة القيامة في القدس، وبدأت (القدس) تجتذب وفود الحجيج المسيحيين، وأصبحت مركزاً لحياة النساك والانخراط في سلك الرهبنة.(٢)

ولقد **أقام المسيحيون أثناء وجودهم في القدس مجموعة من الآثار التي بقي الكثير منها إلى اليوم**، وبقيت شاهدة على وجودهم وذهب الكثير منها نتيجة الغزو والاحتلال الصليبي لها، وحاول المسلمون منذ أيام الخليفة العادل عمر بن الخطاب أن يحافظوا على تلك المعالم المسيحية، ويقيموا أصحابها على إدارتها، ويمنعوا أحداً من المساس بها، وبقي المجموع الإجمالي للآثار المسيحية داخل القدس ٣٧ معلماً، منها تسع عشرة كنيسة، وثمانية عشر طريقاً.(٣)

المطلب الثاني: المقدسات المسيحية داخل أورشليم:

كان **لظهور السيد المسيح في القدس** - بعد ولادته في بيت لحم – أثر واضح **وسبب**

---

(١) انظر: آرمسترونغ (كارين)، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد معاني، دار سطور بالقاهرة، مصر، ١٩٩٨م، ص١١.

(٢) كتن (هنري)، فلسطين في ضوء الحق والعدل، ص٣.

(٣) انظر: خوري (شحادة) وخوري (نقولا)، خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، ص١١٩، انظر: العارف (عارف باشا)، تاريخ القدس، ص٧١..

تاريخي لإجلال المسيحيين لهذه المدينة المشرفة، ولقد حكم القدس أسرتان من (المكابيين)، أولاهما أسرة (حشمتاي) وكان منها عشرة ملوك، والثانية أسرة (هيرود) التي كانت مسايرة للرومان المسيطرين والتعاون معهم في حكم البلاد.

وكان (هيرود) يدين باليهودية، وحين عيّنه الرومان للملكية عامل اليهود بقسوة كما تشير إلى ذلك نصوص التوراة، وفي عهده ولد السيد المسيح في بيت لحم كما تروي الأناجيل، وفيها حصلت معجزة ظهور النجم التي ترويها أيضاً الأناجيل.

ويذكر المؤرخ اليهودي (يوسيفيوس) أن شائعةً سرت بين الناس في تلك الأيام بأن الله قد قرر إنهاء حكم الرومان الأجانب، وأن إشارة سماوية قد أنذرت الناس بظهور ملك يهودي جديد، فجفل هيرود لهذا الخبر، وبادر في الحال إلى جميع رجال الدين وكتّاب الناس، وطلب منهم أن يعلموه حين يولد المسيح ويدلوه على المكان الذي يولد فيه، ثم مات (هيرود) سنة ٤ قبل الميلاد بعد أن عانى اليهود منه أشد المعاناة التي كانت سبباً في إزالة الكثير من أسر القدس العريقة من الوجود، وخلف (هيرود) ابنه (أرخيلاوس)، فصار اليهود يطالبونه بتخليد ضحاياهم الذين ذهبوا قرابين تعسف أبيه وأطماعه، فحمل عليهم حملة قوية وأجرى مذبحة قُتل فيها ثلاثة آلاف شخص في يوم واحد.(١)

وقد صادف حصول هذه الفوضى أن **مرّ يوسف النجار بفلسطين في طريق عودته من مصر**، فسمع بحكم (أرخيلاوس) مكان أبيه فلم يمكث في القدس، وتوجّه إلى الناصرة وأخذ معه السيد المسيح وأمه، وهناك قضى المسيح طفولته، ولما شبّ السيد المسيح ذهب في رحلته الدعوية من الجليل إلى القدس، وبعد وصول السيد المسيح إلى القدس **ابتدأ دعوته إلى المسيحية بين اليهود والرومان**، وأصبحت (أورشليم) حاضرة المسيحية، مما جعل لها في الفكر المسيحي المكانة المرموقة السامية.

مما سبق يتبين كيف ارتباط **المسيحيين بالقدس ارتباطاً عقائدياً كبيراً**، وهم أيضاً يحجون إليها من مختلف بلاد العالم إلى الآن ما عدا الأقباط الأرثوذكس المصريين، فقد منعهم البابا شنودة الثالث من زيارة الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم وغيرها مادامت ترزح تحت نير الاحتلال الصهيوني، ويركز المسيحيون على زيارة بيت لحم جنوب بيت المقدس، ويعتمد سكانها – وأكثرهم مسيحيون – على الحجاج في موارد دخلهم، وبنى فيها الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٣٠م كنيسة في الموضع الذي تذكر الروايات أنه شهد ميلاد المسيح.(٢)

و**يزور المسيحيون ويحجون إلى (كنيسة القيامة)** في بيت المقدس التي يدعون أن فيها قبر المسيح، ومع أنها في حوزة الأرثوذكس إلا أن لجميع الطوائف الأخرى نصيب فيها.

والفتح الإسلامي زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام ١٦هـ/٦٣٨م **لم يمس القبر المقدس بسوء**، بل ترك للمسيحيين الحرية الدينية، وألزم المسلمون أنفسهم بذلك في وثيقة "العهدة العمرية"، التي أعطى بموجبها (عمر بن الخطاب) للمسيحيين أماناً لأنفسهم وكنائسهم فلم يلحقها أي أذى، إنما رفض أن يصلي في كنيسة القيامة، حين حضرت الصلاة وهو فيها؛ لئلا يحذو المسلمون حذوه ويصلون فيها وشيد بالقرب منها مسجداً سمي (مسجد عمر).

وفي عام ٣٢٥هـ/٩٣٦م **شهدت المدينة اضطرابات بين المسيحيين واليهود، وأحرق اليهود في أثنائها مبنى الكنيسة**، وفي عهد الخليفة العباسي المأمون رمم بناء كنيسة القيامة عام ٢٠١هـ/٨١٧م، وقد سمح الخليفة هارون الرشيد سابقاً للملك شارلمان بإرسال بعثه إلى القدس للحصول على امتيازات معينة في القدس، وهذا ما حصل حيث أرسل بطريرك القدس مفتاح

---

(١) انظر: الخليلي، العتبات المقدسة، ٥/٧٥-٧٦.

(٢) انظر: الزحيلي (وهبة)، مكانة القدس في الأديان السماوية، ص٢٥.

الكنيسة إلى شارلمان.

ويوجد في القدس أيضاً كنائس وأديرة يبلغ عددها (١٩) كنيسة تتبع مختلف الطوائف المسيحية، والقدس غنية بارتباطاتها بالعهدين القديم والجديد، وقد أُقيمت كنائس ومعابد على جميع الأماكن المتصلة بالأحداث والشخصيات المذكورة في الكتاب المقدس.

وكانت **القدس موضع عناية السيد المسيح عليه السلام بنشر رسالته** حيث كان يطوف المدن والقرى كلها في فلسطين، يعلّم في مجتمعها ويكرّز ببشارة الملكوت الإلهي، وكما يقول الدكتور (وهبة الزحيلي): "لا يُنكر تعلّق المسيحيين بالقدس من الناحية الدينية والتاريخية على مر التاريخ القديم والحديث".[١]

ولعله من المفيد أن نتعرض لذكر أهم المؤسسات المسيحية في القدس، والمقصود بالمؤسسات هي الكنائس ودور العبادة والمجمعات الدينية وكل ما يتصل بالشعائر المكانية في المسيحية قديماً (معلماً أثرياً) كان أم حديثاً.

أ. **الروم الأرثوذكس:** وهي الجالية القديمة التي عاشت في القدس منذ العصور المسيحية الأولى، ولاقت الكثير من الاضطهاد على يد الرومان واليهود واللاتين، وبعد ذلك أصبحوا يستمتعون بجميع حقوقهم أيام الحكم الإسلامي للقدس، وأهم ممتلكاتهم في القدس:

١- (دير أبينا إبراهيم) في الجنوب الشرقي لساحة القيامة، وفيه كنيستان.

٢- (الدير المركزي الكبير) ويقع في حارة النصارى، وفيه ثلاث كنائس وهيكلان.

٣- (كنيسة القديسة مريم) في وادي قدرون، ويُعتقد أن فيها قبر العذراء ويوسف النجار.

٤- (دير الجليل) ويقع فوق جبل الطور، وفيه كنيستان، ويعتقد المسيحيون أن المسيح ظهر في موضعه لتلاميذه بعد القيامة.

٥- (دير حبس المسيح) ويقع على طريق الآلام.

٦- (دير سمعان) غربي القدس، وفيه قبر القديس سمعان.[٢] بالإضافة إلى ما يقارب عشرين موضعاً تابعاً لهم.

ب. **الروم الكاثوليك:** أنشأ أبروشيتهم البطريرك (مكسيموس مظلوم) سنة ٩٤٨م، ويقع مقرها في حارة الموارنة، ولهم فيها نائب بطريركي يتبع بطريرك الروم الكاثوليك في دمشق، ومؤسساتهم في القدس هي:

١- (كنيسة القديسة حنة) بين باب حطة وباب الأسباط شمال الحرم.

٢- (كنيسة القديسة فرونيكا) تقع على طريق الآلام.

ت. **اللاتين الكاثوليك:** أنشأ الرومان بطريركيتهم في القدس سنة ١٨٤٧، ولهم فيها عدة رهبانات أهمها:

١-الفرنسيسكان: أهم مؤسساتهم:

- (دير المخلص) أو (دير اللاتين)، ويقع شمال غربي حارة النصارى.
- الكازانوفا (الدار الجديدة) بين الباب الجديد ودير الإفرنج.
- (دير مار فرنسيس) شمال قبر النبي داود.

٢- **الدومنيكان**: جاؤوا إلى القدس سنة ١٨٨٢م، ولهم فيها: (دير سان إيتيان) شمال باب العمود.

٣- **الآباء الكرمليكون**: جاؤوا إليها سنة ١٦٣٦م، ولهم فيها دير صغير باسم القديسة تريزا.

---

(١) انظر: الزحيلي، مكانة القدس في الأديان السماوية، ص٢٧.

(٢) انظر: اسكندر (ميخائيل)، القدس عبر التاريخ، ص٢٠، والعارف، تاريخ القدس، ص٢٣٩-٢٤٣.

٤- **راهبات الكرمل**: ولهن دير على جبل صهيون، وهن لا يظهرن لأحد أبداً إلا للضرورة القصوى جداً.(١)

بالإضافة إلى ما يقارب عشرين تنظيماً دينياً للاتين الكاثوليك في القدس.

ث. الأرمن: وهما فئتان، إحداهما قديمة تعيش في (دير مار آركنجل)، وطائفة أخرى حديثة جاءت للقدس بعد اضطهاد الأرمن على يد الأتراك في الحرب العالمية الأولى ويعيشون في (دير مار يعقوب) ولهم أربع كنائس في القدس.(٢)

ج. الأقباط: عاشوا في القدس منذ منتصف القرن الرابع الميلادي، وكانوا مخلصين لصلاح الدين، فردّ لهم أموالهم التي اغتصبها الصليبيون، وأهم ممتلكاتهم:

١- (دير السلطان) وفيه كنيستان.

٢- (دير مار انطونيوس) شمال شرقي القيامة، وفيه كنيستان.

٣- (دير مار جرجس) في حارة الموارنة قرب باب الخليل.(٣)

ح. **السريان**: جاؤوا إلى القدس منذ القرن الميلادي الأول، وازداد عددهم أيام الصليبيين ثم رحلوا معهم، وقلّ عددهم بعد ذلك، وأهم ممتلكاتهم:

١- (دير مار جرجس) بين حارتي الأرمن واليهود.

٢- (دير العدس) على طريق الآلام.(٤)

خ. **الموارنة**: ينتمون لطائفة (مار مارون) الذي عاش في لبنان في القرن الرابع الميلادي، ويعيشون في دير باسمهم بحارة الموارنة بين سوق علون وحارة الأرمن.(٥)

وبالإضافة إلى هذه الطوائف المسيحية وممتلكاتها في القدس يوجد العديد من الطوائف الأخرى يضيق المقام بذكرها لها بعض المؤسسات في القدس، منها الأحباش والروس والألمان والإنجليز والأمريكان وغيرهم.

المطلب الثالث: المقدسات المسيحية خارج أورشليم:

أيضاً يتوجه المسيحيون بالتقديس والتعظيم إلى بعض المعالم خارج مدينة القدس، ويرون أن هذه المعالم لها ارتباط بالسيد المسيح أو ورد ذكرها ضمن الكتاب المقدس، وأهمها المواضع التالية:

أولاً: ممر جنازة البتول وكنيسة نياحها: على بعد عشرين متراً من باب النبي داود يوجد عمود على حائط، تذكاراً للأعجوبة التي حصلت عندما كان تلاميذ المسيح حاملين جسد السيدة العذراء مريم إلى قبرها في الجشمانية شرقي القدس، هجم عليهم أحد اليهود المتعصبين وتجاسر على أن يدفع التابوت المقدس من يد حامليه فيبست يده في الحال، وعميت عيناه وعينا كل من شاركه هذا الفعل الرديء، لكنهم ندموا على عملهم فصلى التلاميذ من أجلهم فشفاهم الله وآمنوا بالمسيحية، فوُضع هذا العمود تذكاراً لهذه الحادثة ومكان حدوثها، وإلى جانب هذا العمود نجد كنيسة (نياحة البتول) وهي كنيسة حديثة البناء يسكنها الرهبان البندكت الألمان، وتقع بالقرب

---

(١) انظر: اسكندر، القدس عبر التاريخ، ص١٢١-١٢٤، والعارف، تاريخ القدس، ص٢٤٣-٢٥٠.
(٢) انظر: اسكندر، القدس عبر التاريخ، ص١٢٤.
(٣) انظر: العارف، تاريخ القدس، ص٢٥٢-٢٥٣.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢٥٥-٢٥٦.
(٥) انظر: اسكندر، القدس عبر التاريخ، ص١٢٥.

من (عليّة صهيون) وهو المكان الذي عاشت فيه العذراء في بيت يوحنا حتى وفاتها وكان ذلك بناءً على طلب المسيح.[١]

ثانياً: كنيسة حبس المسيح في دار قيافا: بعد الخروج من باب النبي داود نجد طريقاً مرتفعاً يؤدي إلى دير الأرمن وكنيسة باسم حبس المسيح، ويعتقد المسيحيون أن المسيح اقتيد لسؤاله قبل تقديمه للمجمع اليهودي إلى هذا المكان، ويشير الكتّاب إلى مغارة بكى فيها المسيح عندما سمع صياح الديك بعد منتصف الليل، وهي بعد ١٠٠ متر من دار قيافا، وبها آثار للفسيفساء وحولها بعض مبانٍ متهدمة يُظن أنها من بقايا كنيسة قديمة باسم بطرس.[٢]

ثالثاً: عليّة صهيون: في جنوب شرقي دار قيافا نجد العلية التي يرجّح أنها كانت فوق سطح منزل القديس مرقس الرسول، وفيها أُعِدّ للمسيح الفصح ثم العشاء الرباني، وحلّ على التلاميذ الروح القدس بعد صعوده إلى السماء، وصارت هذه العلية ملتقى المسيحيين الأوائل، وفي هذه العلية ظهر المسيح للرسل مساء أحد القيامة، وعاد للظهور في الأحد التالي لتثبيت إيمان تلميذه توما.

وتذكر كتب التاريخ أن هذا المكان كان في يد المسيحيين حتى سنة ١٣٥م، وكانوا يتخذون من الطابق الأعلى كنيسة يصلون فيها، وقد شيدت الملكة (هيلانة) كنيسة باسم الملك داود وقد تهدمت على يد الفرس، ثم أُعيد بناؤها فنجت من الزلزال الذي خرّب أكثر القدس سنة ١٢١٩م وتم تجديد بنائها سنة ١٣٤٢ م على ما هي عليه الآن.[٣]

رابعاً: بركة السلطان وجبل المؤامرة وحقل الفخاري وبئر المجوس: جنوب باب الخليل نجد بركة السلطان، وهي عبارة عن حوض طبيعي يتجمع فيه ماء المطر، وإلى جانبه يقع جبل المؤامرة، ودُعي بهذا الاسم منذ القرن الثاني عشر للميلاد لقربه من دار قيافا الذي اجتمع فيه زعماء اليهود للتآمر على المسيح، وفي غربها يوجد حقل الفخاري، وهو الحقل الذي اشتراه اليهود بثلاثين قطعة من الفضة بعد أن ردّ يهوذا الاسخريوطي هذا المبلغ حين ندم على تسليم المسيح لهم، وإلى جنوب الحقل قليلاً يوجد بئرٌ يسمى ببئر الراحة، حيث تذكر المراجع أن البتول استراحت عنده وهي في طريقها إلى بيت لحم، ويسمى أيضاً بئر المجوس؛ حيث ظهر لهم النجم من جديد بعد غيابه عنهم في هذا المكان.[٤]

خامساً: مقدسات وادي قدرون (يهوشافاط): ويقع على بعد كيلومترين من القدس، ويعتقد اليهود أن القيامة ستكون في هذا الوادي، "أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط وأحاكمهم هناك على شعبي وميراثي إسرائيل الذين بددوهم بين الأمم وقسموا أرضي"[يوئيل: ٣/٢]، ومن مقدّسات هذا المكان:

١- مكان استشهاد القديس (اسطفانوس)[٥]، بعد أن رجمه اليهود في قاع هذا الوادي.
٢- قبور (أبشالوم) وهو ابن النبي داود الذي قُتل في ثورة سياسية قادها ضد أبيه، وكان

---

(١) انظر: اسكندر، القدس عبر التاريخ، ص١٤٩.
(٢) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٥٠-١٥١.
(٤) انظر: اسكندر، القدس عبر التاريخ، ص١٥١-١٥٢
(٥) هو القديس (اسطفانوس) وأول شهيد مسيحي، حاكمه اليهود في بيت المقدس، فدافع عن نفسه دفاعاً حمل فيه عليهم حملة شعواء، واتهم اليهود فيه باضطهاد الأنبياء وقتل المسيح، وعندها أخذوه خارج القدس ورجموه بالحجارة حتى مات سنة ٣٦م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٥٦.

اليهود يرمونه بالحجارة حين يمرون عليه إشارة إلى عقوقه لأبيه، وإلى جانبه قبر (يهوشافاط) وهو أحد الملوك، وبجواره قبر (القديس يعقوب)، وإلى جانبه قبر يدعوه اليهود بقبر (زكريا النبي)، ويسميه المسلمون (قبر زوجة فرعون)، وجميع هذه القبور تمتاز بزخرفتها، وقد أقيمت لتعظيم هؤلاء الأشخاص وليس لمجرد الدفن[١].

٣- كفر سلوام وبركة سلوام وبئر يعقوب وكنيسة المخلص: تبعد كفر سلوم ٣٠٠ متر عن قبر زكريا، وقد استعملها النساك المسيحيون صوامعَ للعبادة من القرن الرابع حتى القرن السابع، وعلى مقربة منها عين ماء قديمة تمتلئ منها بركة (سلوام) التي اغتسل فيها الرجل الذي وُلد أعمى فأبصر بعد أن طلى المسيح عينيه بالطين وأمره بالاغتسال فيها، وإلى جانبها بئر يعقوب يُقال بأن (أيوب النبي) حفرها، وإلى جانبها قليلاً كانت قديماً كنيسة باسم (المخلّص المنير).[٢]

سادساً: الجشمانية وكنائسها: بعد وادي قدرون شرقاً يوجد مكان يسمى بالجشمانية أي معصرة الزيت، ورد ذكرها كثيراً في الأناجيل، وهي مزار مسيحي مقدس، حيث كان المسيح يتردد إليها، ويقضي الليالي فيها في الصلاة، وقد دُفنت فيها العذراء مريم، وفيها تم القبض على المسيح، وقد أُقيمت فيها كنيسة أمام الدرج المؤدي إلى قبر مريم البتول، ولقد تهدّمت الكنيسة مرتين، وأُعيد بناؤها ثالث مرة في القرن الخامس عشر للميلاد، وما زالت أنقاضها باقية للآن.[٣]

سابعاً: مقدسات جبل الزيتونة:

١- في الطريق إلى جبل الزيتون من جهة الشرق يوجد مغارة مستديرة قطرها ٣٥ متر، اشتهرت بانتسابها إلى إرمياء النبي، ويُقال إنه كتب مراثيه المشهورة فيها.

٢- جبل الزيتون الذي يسمى أيضاً بجبل الطور له ثلاث قمم، تسمى الشمالية منها (جبل الجليل)، وعلى القمة الثانية يوجد مكان الصعود، والقمة الثالثة فيها قبور الأنبياء، ويُقال إن الملكة (هيلانة) شيّدت كنيسة محل الصعود، ولم يبق منها سوى قبة صغيرة حافظ عليها صلاح الدين لأن المسلمين يحترمون مكان صعود المسيح تبعاً لإيماننا بأن المسيح قد رُفع حياً إلى السماء، وكذلك الصخرة التي صعد المسيح منها إلى السماء فإنها لا تزال قائمة إلى يومنا، ويبدو عليها أثراً لقدمٍ يُعتقد بأنها إحدى أقدام المسيح عليه السلام.[٤]

٣- كنيسة ظهور الملاك جبرائيل للعذارء مريم: ذكرها المؤرخون منذ القرن الرابع الميلادي، وتقع في جنوب غرب قمة الجليل، يعتقد المسيحيون أن الملاك جبرائيل ظهر للعذراء في موضع هذه لكنيسة عندما كانت ذاهبة لتصلي في جبل الزيتون، فبشرها بأنها ستنتقل من هذا العالم الفاني بعد ثلاثة أيام.

٤- كنيسة الأبانا ودير الكرمليات: إلى جانب الشرق من جبل الزيتون يوجد ديرٌ فسيحٌ لراهبات الكرمل، وبه كنيسة تسمى (الأبانا)، يعتقد المسيحيون أن المسيح علّم تلاميذه صلاة (أبانا الذي في السموات....)، ويوجد في ذلك الموضع كنيسة من القرن الرابع الميلادي، يُقال إن المسيح التقى في موضعها مع مريم المجدلية وأختها

---

(١) انظر: اسكندر، القدس عبر التاريخ، ص١٥٢-١٥٣.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٥٤.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٥٤، ١٥٧.
(٤) انظر: اسكندر، القدس عبر التاريخ، ص١٥٨.

مرثا، وعزّاهما على موت أخيهما لعازر، ثم ذهب معهما حيث أقامه من بين الأموات في اليوم الرابع بعد دفنه [يوحنا: ١٢/١٧]، ويعتقد المسيحيون أن المسيح بدأ بركوب الأتان في أحد الشعانين من هذا المكان، منطلقاً به إلى الهيكل داخل أورشليم.(١)

المطلب الرابع: المقدسات المسيحية في أوربا:

المقدسات المسيحية في أوربا كثيرة، وهي غالباً كنائس تُبنى على أساس ذكرى تاريخية أو رمز مقدس أثراً لنبي أو قديس من قميص أو شعر أو حجر مسه أو جلس عليه، والمقدسات المسيحية في أوربا تكاد لا تحصى، إلى جانب ما يؤمن بعض المسيحيين بأنه مواقع لظهورات العذراء، وتحولت إلى أماكن مقدسة، يحجّ إليها ملايين المسيحيين.

وروما هي المكان الذي يعتقد الكاثوليك أن الكنيسة الكاثوليكية الرسولية تأسست فيها رسمياً والتي بدأها القديس بطرس، وشكلت قضية أوليّة بطرس والسلطة الممنوحة له من قبل يسوع وتقدّمه على سائر التلاميذ الاثني عشر بناءً أساسياً في الكنيسة الكاثوليكية والصرح البابوي، في حين أن كنيسة القيامة في القدس لا تزال أكثر الأماكن قدسية لدى الأرثوذكس، وتجنباً للإطالة سأعرض أهم ثلاثة مواقع للمقدسات المسيحية في أوربا.

أولاً: كنيسة القديس بطرس الأول: وهي أكبر كنيسة في إيطاليا، ويُعتقد أنها تضم جسد القديس بطرس الذي تعدّه الكاثوليك (أول بابا)، وباعتبار قداسة هذا المنصب يعتقدون أن مكان وجود جسده هو مكان لمغفرة الذنوب، فيحجون إليها، ويُقال إن البابا (بنيناس الثامن) أعلن أنه سيُقام عيد كبير في عام ١٣٠٠م، وعرض أنه سيغفر جميع ذنوب من يأتون للتعبد في كنيسة القديس بطرس في ذلك العام، وقيل إن عدداً من جملة من جاء في ذلك العام كان منهم مليونا زائر دخلوا المدينة مع كلٍ منهم نذر يناسبه ووضعوا ما معهم من الكنوز أمام قبر القديس بطرس، وقد بلغت هذه الكنوز من الكثرة حتى اشتغل البابوات المساعدون المسيحيون يعملون بالمجاريف ليلاً ونهاراً لجمع تلك النقود.(٢)

ثانياً: كنيسة (لورد): تقع في بلدة (لورد) في الجنوب الغربي من فرنسا، ولقد أصبحت سنة ١٨٥٨م محجاً يقصده المرضى المسيحيون من الكاثوليك التماساً للشفاء، ويعتقد المسيحيون أن العذراء قد تجلت في ذلك المكان مرات عدّة، أشهرها أنها تجلت في مغارة ضمن هذه الكنيسة لفتاة ريفية اسمها (برنادت).(٣)

ثالثاً: كنيسة (فاطيما): تقع في البرتغال، و(فاطيما) هي مدينة في لشبونة البرتغالية، وقد دخلها المسلمون سنة ٧١٠م، وبقيت حتى القرن الحادي عشر الميلادي، ويُقال إن السيدة (مريم العذراء) وامرأة جليلة اسمها (فاطمة) جاءتا ست مرات متجليتين لثلاثة أطفال عام (١٩١٦م)، وبسبب ذلك دارت الشمس ثلاث دورات، وظهر منها ملاك يشع نوراً باهراً، وأوصت (العذراء) مَن ظهرت لهم بالأضاحي والاستغفار والدعوة للهداية، وقد أُقيم في مكان التجلي كنيسة أصبحت محجاً يقصده المسيحيون من مختلف أرجاء الأرض.(٤)

تعقيب على تقديس الأماكن في المسيحية:

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٥٩-١٦٠.
(٢) انظر: ديورانت، قصة الحضارة، ١٦/٤٣.
(٣) الصفار (فاضل)، فقه الشعائر الدينية، ١/٨٠.
(٤) انظر: المؤمن (ماجدة)، الحج عبر الحضارات والأمم، ص١٢٨.

من الطبيعي أن يتعلق الإنسان المتدين بأماكن تبعث في نفسه الطمأنينة القلبية والراحة النفسية وتثير في مخيلته ذكريات وأشجاناً اكتسبها من ثقافته الدينية ومحيطه الفكري، وإذا سلّمنا بهذا الكلام فإننا نحكم عندها بأن **التعلق ببعض الأماكن وتقديسها غريزة دينية في جميع الأديان السماوية وأكثر الديانات الوضعية**.

ولا يخلو من الغريزة المشار إليها سوى الأديان البدائية؛ وذلك لأنها تقوم على أدنى مقدار من التركيب العقائدي والأفكار والتراث الديني، فمن هنا ليس من المستغرب أن يتّجه المسيحيون إلى أماكن احتفت بشخصيات وذكريات هي محل إجلال وإكبار في نفوسهم فيعظمونها ويحترمونها.

ومن المهم هنا أن أشير إلى أمرين، أولهما أن الطبيعة التقديسية للأماكن في الفكر المسيحي تتعلق بها بعض الشعائر الدينية العملية، كالحج مثلاً، فهو شعيرة دينية لا ترقى إلى مرتبة الفرضية، لكن أداءها مرتبط بالأماكن المقدسة ككنيسة القيامة وكنيسة المهد وكنيسة القديس بطرس.

الأمر الآخر هو أن بقية الأماكن المقدسة التي يقصدها المسيحيون للزيارة والتي ترتبط بأحداث دينية أو شخصيات معتبرة أيضاً تتعلق بها شعيرة مهمة في الفكر المسيحي هي شعيرة (تعظيم الأماكن)، وهي شعيرة لا تتطلب الإقامة كما سبقت الإشارة، إنما المقصود بها تقديس المكان المراد واحترامه وعدم تدنيسه.

وبناءً على ذلك فإن **عامة الأماكن المقدسة في المسيحية تتطلب الإجلال والاحترام،** وبعضها تطلب تنفيذ شعائر عملية كالحج، وربما تطلب بعضها كلا الأمرين.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الكثير من الأماكن التي يقصدها المسيحيون بالتعظيم والتقديس **لم تخل من تدنيس معنوي لها،** رغم كونها أماكن معظمة ورغم أن المقصود باعتبارها هو التقديس والتطهير، وهذا الأمر أكثر ما يوجد في القدس ومعالمها المسيحية.

يقول المستر (آشبي): "إن السلام الذي بشّر به السيد المسيح قد يكون ظاهراً في أي مكان آخر إلا بين جدران كنيسة القيامة؛ حيث تأصلت العداوة والبغضاء منذ عصور وأجيال بين الروم واللاتين والأرمن والأقباط وما إلى ذلك من الطوائف المسيحية المتنافرة..... منهم من يصلي قبل الآخر ..... ومنهم من يكنس هذه الناحية أو تلك من أنحاء الكنيسة..... وأيهم على صواب في اعتقاده أكثر من الآخر..... وإنه ليُخيّل للمرء الذي يتتبع أنباء هذه الاختلافات أنه ليس لهذه الكنيسة التي يقدّسها جميع الطوائف المسيحية في العالم أية صلة بتعاليم السيد المسيح".(١)

ولقد بلغ الخلاف أشدّه بين الروم واللاتين خلال احتلال الصليبيين للقدس سنة ١٠٩٩م، فاغتصب الروم بعض أملاك اللاتين، وكانت كلمة اللاتين هي العليا قبل هذا التاريخ، فاستُبدلوا بالروم، وحين استرجع صلاح الدين القدس سنة ١١٨٧م ردّ إلى اللاتين أملاكهم.(٢)

وكذلك اختلف اللاتين مع غيرهم من باقي الطوائف حول (كنيسة الجلجلة) سنة ١٤٩٣م، فحكم قاضي المسلمين في القدس للآخرين بالقسم الشمالي منها، على أن يبقى القسم الجنوبي مشتركاً بين جميع الطوائف.

ولم يكن يمر يوم واحد على المسيحيين في القدس دون أن تحدث فوضى وتترافع الطوائف المختلفة إلى قاضي المسلمين، حتى وضعت السلطة نظاماً يفرض على الحجاج الزائرين أن يقفوا عند أبواب المدينة، وأن ينتظروا صدور الإذن لهم بدخول المدينة، وعندما يُؤذن لهم

---

(١) اشبي (سي آر)، مدونة القدس، ص١٣٣.

(٢) انظر: العارف، تاريخ القدس، ص٢٦٩.

بالدخول يصحبهم دليل أقامته الدولة من أجل فض النزاع المترقب الحدوث.[١]

واختلفت الطوائف المسيحية في أواسط القرن السادس عشر على أحقية الدخول أولاً إلى القبر المقدس في يوم سبت النور، فانعقد مجلس في دار المحكمة الشرعية حضره عدد من قضاة المسلمين ورؤساء المسيحية وممثلي الطوائف، فتقرر أن يكون الدخول إلى القبر المقدس على الشكل التالي: يدخل أولاً رئيس الأحباش، ثم رئيس الروم، ثم رئيس الأرمن، ثم رئيس السريان، ثم رئيس الأقباط، وبعد ذلك يخرج هؤلاء وهم يحملون الشموع على الترتيب نفسه.

وحصلت بعد ذلك خلافات كثيرة لا داعي لذكرها، إلا الخلافات ذات الأثر البالغ بين المسيحيين، ففي المدة الواقعة بين ١٦٤٠م و١٦٥٨م قامت منازعة خطيرة بين الروم والأرمن من أجل بعض الأماكن المقدسة، ومنها الدير المعروف بـ (دير مار يعقوب)، فاستولى عليه الأرمن في بداية الأمر، ثم استصدر الروم من السلطان أمراً بانتزاعه منهم، ثم عاد الأرمن فتغلبوا وحصلوا أيضاً من السلطان على أمر باسترجاعه من الروم، وما كان الخلاف حول هذا الدير ينتهي في كل مرة إلا بسفك الدماء وتدخل السلطة.

وفي سنة ١٦٧٥ اتفق الأرمن واللاتين ضد الروم، فحصل على أثر ذلك شغب قُتل فيه راهب من الروم وجُرح اثنان، فاستحصل الروم على فرمان من السلطان يقضي بنزع كل ما وضعه اللاتين فوق القبر المقدس وتسليم القبر للروم فقط، وفي سنة ١٦٨٩م عاد اللاتين فغلبوا، وحصلوا على فرمان يقضي بمنحهم القباب التي في كنيسة القيامة، كما مُنحوا حق الصلاة على القبر المقدس، وكان هذا القرار قد تم إصداره من قِبل السلطان العثماني بعد تهديد الحكومة الفرنسية لتركيا التي كانت قد غُلبت في معركة فيينا سنة ١٦٨٣م ضد روسيا وبولونيا والنمسا.[٢]

ولقد كانت سنة ١٨١١م من أشد السنوات على مسيحيي بيت المقدس؛ إذ توترت الصلات بين الروم واللاتين من ناحية وبين الروم والأرمن من ناحية ثانية؛ وذلك بسبب اختلافاتهم المتكررة حول الأماكن المقدسة، ووصل الخلاف إلى حد الهجوم وسفك الدماء، وانتهى هذا النزاع بمنح الروم حق تعمير ما احترق من الكنائس التابعة لإدارتهم، وتسلّم الأرمن جميع الكنائس التي كانت لهم من قبل بشرط أن يدفعوا للروم تكاليف تعمير الكنائس التي خرّبوها وترميمها.[٣]

بالإضافة إلى كثيرٍ من الخلافات التي نشأت بين الطوائف والعرقيات المسيحية في القدس والتي يضيق المكان بذكرها، ومن شأن هذه الخلافات أن تبث روح الفرقة وتُؤكد النزعة التعصبية التي كان يعيشها المسيحيون في القدس، ومن شأنها أيضاً أن تلغي فكرة التقديس المكاني - التي كانت موجودة في الفكر المسيحي – بنتيجة ما يحصل على إثرها من فوضى وتخريب للكنائس وتدمير وإحراق لها وسفك دماء في سبيل إثبات الذات بشتى الطرق والوسائل.

---

(١) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٧١.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٧٢.

المبحث الرابع: الشعائر الزمنية

إن **ظاهرة تقديس الزمان معروفة في تاريخ الفكر الديني** عند البشر وأتباع جميع الديانات كافةً، فلكلٍ منهم أوقات وأيام مقدسة ترتبط بمعانٍ دينية يعظمها أتباع هذا الدين، فإذاً جميع الأمم قدّست أياماً معينة لمناسبات خاصة، وفي هذه الأيام المقدسة تُجري الأمم على اختلافها طقوساً مناسبة وملائمة لتفكيرهم ونمط حياتهم حسب الثقافة الدينية السائدة لديهم، ومن السائد عُرفاً أن تسمّى هذه الأيام والمناسبات (أعياد).

مما سبق ندرك أنه **ليس في الوجود أمة قديمة أو حديثة بدائية أو متحضرة إلا لها أعيادها ومواسمها التي تقدّسها وتحترمها،** وتعدّ إقامة هذه الأعياد طقساً من طقوس عبادتها وتقليداً تعتز به.

المطلب الأول: تقديس الزمان في الفكر المسيحي (الأعياد والمواسم الدينية):

عاش المسيحيون الحقبة الأولى من تاريخهم **في أورشليم بين اليهود،** وكان لليهود **أعياد يقيمونها ويعظمونها،** وورد بعضها في الكتاب المقدس، "وعمل يربعام عيداً في الشهر الثامن في اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذي في يهوذا ..... وأصعد على المذبح الذي عمل في بيت إيل في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن في الشهر الذي ابتدعه من قلبه فعمل عيداً لبني اسرائيل وصعد على المذبح ليوقد" [ملوك١: ٣٢/١٢-٣٣].

ولقد كانت الأعياد هي الفرص التي تُؤلف بين المسيحيين، وعاملاً فعالاً في إنضاج الثقافة المسيحية، بالإضافة إلى دورها الاجتماعي الذي اكتسبت منه المسيحية الانتشار والعالمية، وعليه يرى المسيحيون أن الكنيسة المقدسة رتّبت بإرشادٍ من الروح القدس أعياداً مخصوصة، إكراماً لله تعالى وتذكاراً لنعمه وبركاته التي أفاضها بسخاءٍ على بني الإنسان.

ويعتقدون أنهم حين يحتفلون بالميلاد مثلاً فإنهم **يتذكرون بصورة محسوسة لطف الله وإحسانه عليهم،** ويدركون من عمق المحبة الإلهية الفائقة لهم؛ لأنه تنازل عن ابنه الوحيد لهم، وقدّمه فداءً عنهم، فتمتلئ القلوب فرحاً، وتفيض الألسنة شكراً، ويظل رسم ذلك اليوم وحوادثه العجيبة عالقة بأذهانهم طيلة أيام حياتهم؛ بسبب إعادة الاحتفاء به سنوياً.(١)

والأعياد في المسيحية تُقسم أقساماً ثلاثة هي (أعياد سيّديه كبرى) و(أعياد سيدية صغرى) و(أعياد غير سيدية).

فالأعياد السيدية الكبرى والصغرى **ترتبط بالسيد المسيح عليه السلام، وتشير إلى أحداثٍ تتعلق بشخصه،** كالميلاد والختان والقيامة وغيرها، أما الأعياد غير السيدية فهي ترتبط برجال الدين والقديسين عبر التاريخ، وهي كثيرة جداً، وسأشير في هذا المقام إلى أشهرها وأهمها.

ولقد **أجاز (بولس) للمسيحيين أن يتخذوا من أخبار القديسين وتواريخهم أعياداً يقيمونها ويعظمونها،** "اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم" [عبرانيين: ٧/١٣].

يقول القديس (باسيليوس): "إن القديسين لا يحتاجون إلى أن نجري لهم ذكراً ونوجه إليهم مديحاً، لكنا محتاجون جداً إلى رواية أخبارهم كي يتهيأ لنا الاقتداء بهم، إنه كما يخرج النور من النور والنفحة الطيبة من العطر الزكي كذلك من ذكر أتعاب القديسين نرى نور الحق ونستنشق عرف التقوى".(٢)

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤١٩/٢.

(٢) مينا، علم اللاهوت، ص٨٣.

مع أننا إذا تصفحنا العهد الجديد **فلن نجد الأمر الشديد بإقامة الاحتفالات بالأعياد**، لكنّ المسيحيين يرون هذا الموضوع من زاوية مختلفة، إذ يعتقدون بوجوب الاحتفال بالأعياد، ولهم على ذلك الدليلان الآتيان:

١- **أظهر يسوع نفسه اعتباره للأعياد وقدسيتها بحضوره فيها وممارسته لها** "فقال اذهبوا إلى المدينة إلى فلان وقولوا له المعلم يقول إن وقتي قريب عندك اصنع الفصح مع تلاميذي، ففعل التلاميذ كما أمرهم يسوع وأعدوا الفصح" [متى: ٢٦/١٨-١٩]، "وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح" [لوقا: ٢/٤١]، "وبعد هذا كان عيد لليهود فصعد يسوع إلى أورشليم" [يوحنا: ٥/١]، وغيرها من الإعلانات التي تدل على حضور المسيح للأعياد ومشاركته فيها ومباركته لها وفي ذلك ما يدل على شرعيتها، ولو لم تكن مشروعة لنهى عنها.

٢-كان **الرسل يحتفلون بهذه الأعياد**، وقد باركوها وأمروا بها صريحاً، وهم – في معتقد المسيحيين –كانوا ناطقين بالروح القدس، فالرسول (بولس) أمر بإقامة عيد الفصح بقوله: "لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبح لأجلنا، إذاً لنعيّد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الإخلاص والحق" [كورنثوس١: ٥/٧-٨]

فمن هنا صارت جميع الكنائس في العالم – عدا البروتستانتية – تؤمن وتحتفل بالأعياد.

ويرى المسيحيون أنه من أهم فوائد الأعياد أنها **تثبت روح الدين وتربي عاطفة التقوى وحب الفضيلة في قلوب الصغار والكبار**، وينقل القمص (يوحنا سلامة) عن أحد الآباء قوله: "لقد وضعت الأعياد لغايات نبيلة معروفة، أي لكي يتمكن بها المؤمنون من عبادة الله وإكرامه وتذكّر أسرار التجسد والفداء وأعمال أولياء الله وحياتهم اللامعة بالقداسة والورع ".[١]

وتنقسم الأعياد السيدية إلى نوعين هما الكبرى والصغرى، فالأعياد السيدية الكبرى بحسب ترتيبها الزمني هي:

١-البشارة ٢- الميلاد ٣- الغطاس ٤- الشعانين ٥- القيامة (الفصح) ٦- الصعود ٧- العنصرة.

والأعياد السيدية الصغرى هي:

١-الختان ٢- دخول المسيح الهيكل ٣- دخول المسيح أرض مصر ٤- حضور المسيح عرس قانا ٥- التجلي ٦- خميس العهد ٧- أحد توما.

المطلب الثاني: الأعياد السيدية الكبرى:

تتعلق هذه الأعياد بالسيد المسيح عليه السلام، وتوصف بالكبرى تبعاً لمكانتها في الفكر المسيحي.

أولاً: عيد القيامة (الفصح):

وأساس عيد الفصح هو تذكار خروج بني إسرائيل من مصر[٢]، والفصح كلمة سريانية معناها السرور والفرح، استعارها العبريون وصاروا يطلقونها على يوم خروجهم من مصر، وكان اليهود يقدمون فيه قرابين للذبح، فيختارون أفضل حملانهم لهذه المناسبة، وبعد رفع المسيح اختلفت دلالة الفصح بالنسبة للمسيحيين، واختلف مفهوم الحَمَل الذي يتم تقديمه، فصار اليوم يوم فرح بخروج يسوع من القبر وقيامه من بين الأموات.

---

(١) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٤٢٢.

(٢) انظر: السقا (أحمد حجازي)، الأدلة الكتابية على فساد النصرانية، ص٢٤٣.

ويحتل هذا العيد في الفكر المسيحي المرتبة الأهم والمكانة الأرفع بين بقية الأعياد، ويعتقد المسيحيون أن عيد القيامة "عيدٌ باهر، فيه أشرقت أنوار القيامة وسطعت على جميع شعب الله وجلت بأشعتها دجى الظلمات، وفيه سحق يسوع رأس الحية وحطّم متاريس الجحيم، وقام منتصراً على الهاوية نافضاً أوجاع الموت" [أعمال الرسل: ٢٤/٢] وبه كان فرح السمائيين والأرضيين وتهليل نفوس الآباء والأنبياء والصديقين، وبهذا يدعوه آباء الكنيسة بأسماء تدل على سمو منزلته كـ (أكليل الأعياد) (أعظم الأعياد) (يوم الرب العظيم) (عيد الأعياد) (عيد الفصح المجيد) وغيرها من الأسماء.(١)

و**تحتفل الكنائس المسيحية بهذا اليوم في شهر نيسان على اختلاف بينهم في موعده باليوم المحدد**، والاحتفال بهذا اليوم هو خاتمة لشعائر متعددة يقوم بها المسيحيون، وهي كما يلي:

١- **بدايةً الصوم الكبير**، وهو أربعون يوماً قبل الفصح، ويبدؤون الصوم بيوم الأربعاء ويسمونه (أربعاء الرماد).

٢- **أسبوع الآلام**، وهو آخر أسبوع في فترة الصوم، ويشير إلى الأحداث التي قادت إلى موت المسيح وقيامته.

٣- **أحد السعف**، وهو الأحد الذي يسبق الفصح، وهو إحياء ذكرى دخول المسيح بيت المقدس ظافراً.

٤- **خميس العهد**، ويشير إلى العشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه واعتقاله وسجنه.

٥- **الجمعة الحزينة**، وهي السابقة لعيد الفصح، وتشير إلى موت المسيح على الصليب.

٦- **سبت النور**، وهو الذي يسبق عيد الفصح، ويشير إلى موت المسيح، وهو يوم الانتظار وترقب قيام المسيح.(٢)

ويعتقد المسيحيون أن الاحتفال السنوي بهذا العيد قديم في الفكر المسيحي، ومرتبط بنشأة الكنائس، وللمسيحيين على هذا العيد ملاحظات مهمة هي:

١- أن **يتم الاحتفال** بهذا العيد المجيد **يوم الأحد** لا غيره.

٢- أن **يكون العيد في الأحد الذي يلي فصح اليهود**، لا معهم ولا قبلهم، وقد تتأخر إقامة هذا العيد عند بعض الكنائس أسبوعاً أو أسبوعين تبعاً للقاعدة الحسابية التقويمية المستعملة لدى هذه الكنائس.

٣- **تحتفل** الكنيسة **بهذا العيد ليلاً** منذ بداية الاحتفال به، وتنتهي من إقامة القداس بعد منتصف الليل مراعاة للوقت الذي قام فيه المسيح، لأنه قام باكراً والظلام باق، "وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكراً والظلام باق فنظرت الحجر مرفوعاً عن القبر" [يوحنا: ١/٢٠]، وطبقاً لهذا أمر الرسل بالاحتفال بهذا العيد ليلاً حتى تنتهي الكنيسة من الاحتفال وإقامة الشعائر الدينية في الوقت المناسب والموافق لقيامة المسيح.(٣)

وفي أثناء الاستعداد للاحتفال بعيد القيامة تُغلق الكنيسة أبواب الهيكل قبل عمل تذكار القيامة إشارة إلى غلق أبواب الفردوس بواسطة آدم، وبعد ذلك يتم فتح الأبواب المغلقة إشارة إلى فتح الفردوس بواسطة المسيح وزوال العداوة التي تسببت لآدم وذريته بالغواية، وبعد غلق الأبواب

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٢٤/٢-٤٢٥.
(٢) انظر: الحقيل (إبراهيم)، أعياد الكفار وموقف المسلم منها، ص٤٠.
(٣) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٢٩/٢.

ترتل الكنيسة بلسان الكاهن (**المسيح قد قام**) فيجاوبه كاهن آخر (حقاً قام) وذلك إشارة إلى إذاعة بشرى القيامة بواسطة الملاك، فقد ورد في الكتاب المقدس أن النسوة اللاتي ذهبن إلى القبر ليطيبن جسد المسيح وسألن الملاك عنه جَاوَبَهُنَّ قائلاً (قد قام) "فقال لهن لا تندهشن أنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب قد قام ليس هو ههنا هوذا الموضع الذي وضعوه فيه" [لوقا: ٦/١٦].

ثم بعد ذلك يتلو الكاهن مقطعاً من المزامير فيهتف الكاهن من الخارج (ارفعوا أيها الملوك أبوابكم) فيجاوب الآخر من الداخل (ارتفعن أيتها الأبواب الدهريات) ويبقى الكاهنان يرددان هذه الكلمات فيُفتح باب الهيكل، ويعتقد المسيحيون أن هذا الكلام هو الترنيمة التي أنشدتها الملائكة عند صعود المسيح.(١)

بعد ذلك يبدأ الكاهن والمحتفلون بالطواف حول أيقونة المسيح، وذلك إشارة إلى ظهور المسيح لتلاميذه والنسوة بعد قيامته [متى: ١٧/٣٨]، و[مرقس: ١٤/١٦]، و[لوقا: ٣٤/٢٤]، و[يوحنا: ١٩/٢٠]، والغرض من ذلك كله إعلان الفرح وإظهار الابتهاج بقيامة المسيح بصورة فعلية تحرك قلوب المؤمنين على حمد الرب وتمجيده، كما أنها في الفكر المسيحي تحقيق للوعد الذي وعده المسيح لتلاميذه: "الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح" [يوحنا: ٢٠/١٦].

ثانياً: عيد الميلاد:

يرى المسيحيون أن عيد الميلاد هو مبدأ الأسرار الإلهية، وينبوع النعم والبركات الخلاصية، عيد ميلاد الكلمة الأزلي الذي طربت له السموات وابتهجت الأرض، إذ فيه تبدلت وحشة العدل بأُنس الرحمة، ونسخ نور النعمة ظلام الناموس، وتمت النبوات، وأُنجزت المواعيد الإلهية.(٢)

و**لقد رتبت الكنيسة الاحتفال بهذا العيد للنعم التي هطلت فيه من عند الله**، وكي يتذكر أبناء الكنيسة ورعاياها محبة الله وتنازل ابنه الوحيد لخلاصهم "فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم" [متى: ٢١/١]، ويعتقد المسيحيون أيضاً أن أول من قدّس هذا العيد واحتفل به هم الملائكة في السماء، الذين زفوا للعالم البشري الفرح العام بولادة السيد المسيح "فقال لهم الملاك لا تخافوا فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب" [لوقا: ١٠/٢].

ويرى المسيحيون أنهم **تسلّموا الاحتفال بهذا العيد من الرسل** أيضاً بدليل ما جاء في أوامرهم "يا أخوتنا تحفظوا في أيام الأعياد التي منها عيد ميلاد الربى وكملوه في اليوم ٢٥ من شهر ٩ للعبرانيين الموافق ٢٩ من الشهر الرابع للمصريين، ولا تشتغلوا في يوم ميلاد المسيح لأن النعمة أُعطيت للبشر في ذلك اليوم".(٣)

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٣١/٢.
(٢) انظر: المرجع السابق، ٤٣٤/٢.
(٣) ابن عسال (أبو الفضائل)، المجموع الصفوي، ١٩٧/١.

ويسمى هذا العيد أيضاً بعيد (الكريسمس)، وله طقوسه وعباداته، ويصل الاحتفال به إلى ذروته بعد منتصف الليل، حيث تزين الكنائس، ويغني الناس أغاني الميلاد، وحين أصبحت المسيحية ديانة الدولة الرومانية ازداد الاهتمام بهذا العيد الذي صار يوافق عندهم عيد إله الضوء والحصاد، وأصبح القديس (نيكولاس)[١] رمزاً لتقديم الهدايا في هذا العيد، ثم حل اسم البابا (نويل) محله رمزاً لتقديم الهدايا لا سيما للأطفال.[٢]

يحتفل المسيحيون بهذا العيد ليلاً؛ لأن ولادة المسيح كانت في منتصف الليل في ليلة ٢٥ كانون الأول، ولقد أشار الكتاب المقدس إلى أن الولادة حدثت في الليل [لوقا: ٢/٨-١١]، وعليه ينقل القديس (باسيليوس) أن آباء مجمع نيقية قرروا أن يتقرب الإنسان فيها بالعبادة بالليل لتمجيد العيد.[٣]

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن موعد ميلاد السيد المسيح في ٢٥ كانون الأول هو تاريخ غير مجزوم به عند بعض المسيحيين، لكنهم وافقوا القائلين بأنها كانت في هذا التاريخ بالاحتفال بولادة المسيح، وحجتهم في ذلك أن **هذا التاريخ يُصادف أشد أيام السنة برودة**، ومن المقرر في التعليم المسيحي أن المسيح وُلد في البرد القارس، وبما أن هذا اليوم هو الأكثر برودة في السنة فلا اعتراض عندهم أن يكون المسيح ربما قد وُلد في هذا اليوم، لكن ليس على بالتأكيد.

والمسيحيون يحتفلون بهذا اليوم بإقامة القداس فيه، أما باقي مظاهر الاحتفال فليست من الدين في شيء، وإذا كان الاحتفال يرمز إلى ولادة السيد المسيح فإن ما يرافق هذا العيد من مظاهر الفجور يعد انتهاكاً لتعاليم المسيح، مثل احتساء الخمر بشكل مفرط، وما إن يحل الصباح حتى يكون الجميع قد خمروا وغاب وعيهم.[٤]

ثالثاً: عيد الظهور الإلهي (الغطاس):

تحتفل الكنيسة بهذا العيد سنوياً تذكاراً **لعماد المسيح وظهور سره الذي كان مكتوماً منذ الدهور**، وبهذا التعميد أيضاً ظهر سر الثالوث الأقدس، ومن المعلوم أن المسيح ظهر بجسمه في الأردن، وتعمّد بالماء على يد النبي يوحنا المعمدان، وعندها ظهر له الروح القدس بهيئة حمامة نازلاً ومستقراً عليه، فناداه الآب من السماء: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت" [متى: ٣/١٧]، ولهذا يسمى هذا العيد بعيد الظهور الإلهي لظهور هذا السر فيه، ويسمى أيضاً بعيد الغطاس لأن المسيح تقبّل العماد بالتغطيس في نهر الأردن.[٥]

ويعتقد المسيحيون أنهم **تسلّموا الاحتفال بهذا اليوم من الرسل**، بدليل ما جاء في أوامرهم في التعاليم الدسقولية والديداخية، "فليكن عندكم جليلاً عيد الظهور الذي هو الغطاس لأن الرب بدأ يُظهر فيه لاهوته في معموديته في الأردن من يوحنا، واعملوه في يوم ٦ من الشهر العاشر للعبرانيين و١١ من الشهر الخامس للمصريين .... لأن فيه ظهرت لاهوتية المسيح، وشهد له

---

(١) هو أسقف يوناني تعززت شهرته ليصبح من كبار القديسين المسيحيين، ولد سنة ٢٧٠م، كان أسقفاً على مدينة ميرا ليكيا في آسيا الصغرى، شارك في المجمع المسكوني الأول (نيقية)، ونُسجت حوله القصص وأنه هو (شفيع البحّارة)، عُرف بشخصية (بابا نويل) لأنه كان يوزع المال على المحتاجين ليلاً وهو متخف، توفي سنة ٣٤٣م، انظر: https://ar.wikipedia.org/

(٢) انظر: الحقيل، أعياد الكفار، ص٤٢.

(٣) ابن عسال، المجموع الصفوي، ١٧٦/١.

(٤) انظر: الباش، العقيدة النصرانية بين الإنجيل والقرآن، ٢٤٠/٢.

(٥) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٣٩/٢، ومجموعة الحياة الكنسية، مدخل إلى الطقس الكنسي، ص٥٢.

الآب في العماد، ونزل عليه الروح القدس بشبه حمامة"[١].

يحتفل المسيحيون في أيامنا بهذا العيد يوم ١٩ كانون الثاني، وللكاثوليك والبروتستانت في الاحتفال في هذا اليوم مناسبة آخرى يضمونها إلى الكلام السابق، وهي ذكرى تقديس المسيح حين كان رضيعاً على يد الرجال الثلاثة الذين قدموا من الشرق.[٢]

رابعاً: عيد العنصرة:

هو عيد عظيم بالنسبة للمسيحيين **ويحتوي أسراراً عظيمة**، لا سيما أنه كان من الأعياد الكبيرة عند الإسرائيليين (الفصح والحصاد والمظال)، وكان الإسرائيليون يسمونه يوم عيد الحصاد وعيد الجمع، وازداد هذا اليوم أهمية ومكانة في الفكر المسيحي بارتباطه بحادثة منح الروح القدس للرسل بعد صعود المسيح.

ارتبط هذا العيد في الفكر اليهودي بتكريسه لشكر الله تعالى بسبب **انتهاء موسم الحصاد** "وعيد الحصاد أبكار غلاتك التي تزرع في الحقل وعيد الجمع في نهاية السنة عندما تجمع غلاتك من الحقل" [خروج: ١٦/٢٣].

أصبح هذا العيد في الفكر المسيحي رمزاً وتذكاراً للأعجوبة التي قدّست الرسل بنوع خاص من الصلة مع الله وهي حلول الروح القدس على جمهور التلاميذ بشبه ألسنة نارية منقسمة كأنها من نار، استقرت على كل واحد منهم حين كانوا مجتمعين للصلاة في العلية، "ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة، وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم ألسنة منقسمة أنها من نار واستقرت على كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدؤوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا" [أعمال الرسل: ١/١-٤]، وفي ذلك اليوم الذي حل فيه الروح القدس على الرسل آمن ثلاثة آلاف شخص جدد، صدقوا نبوة المسيح من هذا الحدث العجيب الذي حصل لتلاميذه.

يرجع أصل وضع هذا العيد إلى التلاميذ، وهذا ما تدل عليه شهادات الكتاب وأقوال الآباء والتاريخ، ويعتقد المسيحيون أن الرسل أمروا بالاحتفال بهذا اليوم كما يتضح من أقوالهم، "ومن بعد عشرة أيام من الصعود فليكن لكم عيد عظيم لأنه في هذا اليوم وفي الساعة الثالثة أرسل إلينا ربنا يسوع المسيح الفارقليط الروح المعزي وامتلأنا من موهبته، وكلمنا بألسن ولغات جديدة كما كان يحركنا".[٣]

خامساً: عيد الصعود:

يرى المسيحيون أن هذا اليوم هو مجد بقية الأعياد؛ ففيه صعد المسيح إلى السماء بعد أن أتم عمل الفداء وأكمل كل التدبير الخلاصي بعد أربعين يوماً من قيامته، "وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأصعد إلى السماء" [لوقا: ٥١/٢٤]، "ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون وأخذته سحابة عن أعينهم" [أعمال الرسل: ٩/١].

تُصرّ الكنيسة على الاحتفال بهذا اليوم بناءً على الأدلة الآتية:

١- **تشبهاً بالملائكة التي فرحت به واستعدت لاستقباله استعداداً لائقاً بمقامه وجلاله**، وأخذت كلٌ منها تبشر الأخرى بقدومه "ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد" [مزمور: ٧/٢٤].

---

(١) ابن عسال، المجموع الصفوي، ١٩٧/١.
(٢) انظر: الحقيل، أعياد الكفار، ص٤٢-٤٣.
(٣) ابن عسال، المجموع الصفوي، ١٩٩/١.

٢- **تنفيذاً لنبوءة داود** التي دعا من خلالها جميع الأمم للترنم باسمه والاحتفال بذكرى صعوده بفرح وابتهاج "ملك الله على الأمم الله جلس على كرسي قدسه" [مزمور: ٨/٤٧].
٣- **طبقاً لما جاء في أوامر الرسل** "من أول يوم من الجمعة الأولى أحصوا أربعين يوماً إلى خامس السبوت – أي يوم الخميس – ثم اصنعوا عيد صعود الرب الذي أكمل فيه كل التدبيرات وكل الرتب وصعد إلى الله الآب الذي أرسله وجلس عن يمين القوة".(١)
٤- كذلك **تدل أقوال الآباء على سمو منزلته في الكنيسة منذ القديم**، فالقديس (كبريانوس) يقول: "ما من لسان بشري ولا ملائكي يستطيع أن يصف بحسب الواجب عظم الاحتفال والإكرام الذي صار للإله المتجسد بصعوده في هذا اليوم؛ لأنه لا يوصف ولا يُدرك"، والقديس (أبيفانوس) يقول: "إن هذا اليوم هو مجد بقية الأعياد وشرفها؛ لأنه يتضح أن الرب أكمل في هذا العيد عمل الراعي العظيم الذي أخبرنا عنه".(٢)

وتحتفل الكنيسة في أيامنا بهذا اليوم، **وتقصد الكنيسة في أيامنا باحتفالها بهذا اليوم** ما يلي:

١- **تحريض بنيها على شكر الرب الذي أنهض الطبيعة البشرية الساقطة** وأصعدها وأجلسها معه في السموات.
٢- **تعليم الرعايا أن الذي انحدر لأجل الخلاص هو الذي صعد فوق جميع السموات**، فواجبهم إظهار الفرحة.
٣- **تفهيم المسيحيين بأن يسوع الذي ارتفع سيأتي من جديد ليدين الناس**.(٣)

سادساً: عيد البشارة:

يعتقد المسيحيون أن العالم قبل مجيء المسيح كان سالكاً في الظلمة في أرض ظلال الموت ولما جاء ملء الزمان أرسل الله ملاكه إلى العذراء **حاملاً إليها بشرى تجسد ابنه الوحيد** من أحشائها النقية، فانتعشت القلوب واطمأنت النفوس؛ لأن إعلان مجيء المسيح هو أفضل البشائر وأكثرها نفعاً وفائدةً للجنس البشري.(٤)

ومعلوم أن الكنيسة - بمعنى الجماعة المسيحية – كانت هي التي أسرعت لقبول البشارة والمبشّر به، من هنا يرى المسيحيون أنه من الواجب عليهم أن يحتفلوا في كل عام بقبول ذكرى هذه البشارة تمجيداً للمسيح وإكراماً لتنازله.

ويستدل المسيحيون على الاحتفال بعيد البشارة بالأدلة التالية:

١- **أنه تنفيذٌ لصوت الوحي بلسان** إشعياء "هوذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له هو ذا أُجْرته معه وعملته قدامه" [إشعياء: ١٠/٤٠]، "قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك" [إشعياء: ١/٦٠].
٢- لأن **هذه البشارة كانت فاتحة الخلاص**؛ فعقب البشارة الولادة، وعقب الولادة الفداء، وبالفداء خلاص الجنس البشري.
٣- **اقتداءً بالعذراء التي** لما زُفّت إليها تلك البشرى وأذعنت لقبول السر الأعظم **تهللت ومجدت الله** وقالت: "فقالت مريم تعظم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلصي" [لوقا: ٤٦/١-٤٧].

---

(١) ابن عسال، المجموع الصفوي، ١٩٨/١.
(٢) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٤٣/٢.
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها.
(٤) المرجع السابق، ٤٤٤/٢.

ولقد تسلمت الكنيسة هذا العيد والاحتفال به من الرسل، فقد جاء في أوامرهم: "وأول الأعياد السيدية عيد البشارة من الله سبحانه على لسان جبريل الملك للسيدة مريم البتول والدة المخلص"(١)، ويتم الاحتفال به في ١٦ نيسان، فيصومه المسيحيون ويقيمون فيه القداس.(٢)

سابعاً: عيد الشعانين:

كلمة (شعانين) هي كلمة عبرية مأخوذة من (هوشعنا) التي تعني (يا رب خلّص)، وهذا العيد يأتي قبل الفصح بأسبوع، ويكون في الأحد الأخير من الصوم، واليوم الأول من أسبوع الآلام، وفيه يبارك الكاهن أغصان الشجر من الزيتون وسعف النخل، ويُجري الطواف الرمزي تذكاراً لدخول المسيح الاحتفالي إلى أورشليم، وذلك أن المسيح غادر بيت عنيا قبل الفصح بستة أيام، وسار إلى الهيكل، فكان الجم الغفير من الشعب يفرشون ثيابهم أمامه، وآخرون يقطعون أغصان الأشجار ويطرحونها في طريقه احتفاءً به [متى: ٩/٢١].

ولأهمية هذه الحادثة التي حصلت مع المسيح فقد **رتبت الكنيسة الاحتفال بهذه الذكرى في كل سنة**، وجعلته عيداً عاماً من أعيادها الكبرى لأسباب:

١- **لتذكر بنيها بذلك الاحتفال العظيم الذي استُقبل به يسوع.**

٢- **لترسم في أذهانهم وجوب الاستعداد القلبي الدائم لاستقبال يسوع في هيكل قلوبهم.**

٣- **لكي تعلمهم بهذا الاحتفال مطابقة الحقيقة للمثال**، فإن خروف الفصح كان يجب أن يُؤتى به يوم العاشر من الهلال ويبقى محفوظاً إلى الرابع عشر منه، وفي مثل هذا اليوم دخل يسوع أورشليم بصفته حَمَلُ الله الرافع خطايا العالم، وفي الرابع عشر منه ذُبح.(٣)

ومما تذكر الأناجيل أن المحتفلين بقدوم المسيح أثناء هذا اليوم كانوا قد استخدموا سعف النخيل وأغصان الشجر، وفي أيامنا تستخدم بعض الكنائس هذه الأمور أيضاً تشبهاً بمن سبقهم، لا سيما أن لكل نوع منها رمزاً يشير إلى معنى روحي، **فأوراق النخيل تشير إلى الظفر، وهي علامة النصر** الذي يهبه الله للمجاهدين المنتصرين، ويعتقد المسيحيون أيضاً أنها **تشير إلى إكليل الحياة** الذي وعد به المسيح الذين يحبونه، وأما **أغصان الزيتون فتشير إلى السلام**، كما أن عصيره يشير إلى القداسة، لهذا لما أرسل نوح الحمامة عادت وفي فمها غصن زيتون أخضر "فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض"[تكوين: ١١/٨] وذلك إشارة إلى حلول سلام الله على الأرض.(٤)

المطلب الثالث: الأعياد السيدية الصغرى:

وهي أعياد تتصل بشخص المسيح عليه السلام، لكنها تقل أهمية عن الأعياد السابقة، وهذه الأعياد هي: الختان وعرس قانا ودخول المسيح للهيكل وخميس العهد وأحد توما ودخول المسيح مصر والتجلي.

أولاً: عيد الختان:

كان الختان في العهد القديم أحد علامات العهد بين الله وشعبه "هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن منكم كل ذكر..." [تكوين: ١٧/٩-٧]، فالختان كان علامة عهد بين الله وإبراهيم الذي اختتن هو وأهل بيته، وتجدد ذلك العهد مع نبي الله موسى

---

(١) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٤٤٥-٤٤٦.

(٢) الحقيل، أعياد الكفار، ص٤٤.

(٣) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٤٤٧-٤٤٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، ٢/٤٤٩.

"وفي اليوم الثامن يختن لحم غرلته" [لاويين: ٣/١٢].

ويرى الباحثون أن الختان كان معروفاً قبل زمن إبراهيم، لأن المصريين كانوا يختتنون منذ عهد قديم جداً، لكن ختان نبي الله إبراهيم عليه السلام يُلمح فيه أنه تضمّن معنىً روحياً جديداً، فالذي يُفهم من سياق الأمر بالختان أنه يجب ألّا يقتصر على الختان الجسدي فقط، بل من الواجب أن يتحصّل بهذا الختان أثرٌ روحيٌ يمتد ليشمل القلب والضمير، بحيث ينال المختون الفائدة الروحية من هذا الأمر، وهذا المعنى يبدو واضحاً إذا قرأنا قول (موسى): "ويختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكي تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك لتحيا" [تثنية: ٦/٣٠]، وقول (بولس): "وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان الذي مدحه ليس من الناس بل من الله" [رومية: ٢٩/٢].(١)

وللختان في الفكر المسيحي ثلاث فوائد روحية:

١- **قطع شهوة النجاسة** من القلب وسائر أعضاء الجسد.
٢- **التزام الطاعة لوصايا الله.**
٣- **وهو رمزٌ للمعمودية.**

و**هذا التحول الدلالي في مفهوم الختان حصل في المسيحية على يد (بولس) الرسول،** فهو الذي أبطل شريعة الختان، مع أن المسيح عليه السلام قد خُتن ولم يغيّر شيئاً من هذا المفهوم، لكن المسيحيين - بناءً على رأي (بولس) وإلغائه لشريعة الختان – راحوا يؤولون فعل المسيح لهذا الأمر، مع أن الختان يتضمن معنى التطهير من الذنوب، فكيف يستقيم أن يكون للمسيح ذنوب وهو الله المتجسد في عقيدتهم؟ فقالوا: إن **المسيح إنما التزم بالختان لأنه أطاع الشريعة التي تأمر به؛** وذلك ليعلم أتباعه حفظ الوصايا، وأنه لولا أنه اختتن لما قبله اليهود ولما سمعوا كلامه، وكما أن هذا الأمر يشير إلى تواضعه؛ لأنه بولادته أخذ صورة إنسان، وبختانه أخذ صورة الخاطئ، فهذا من تواضعه.(٢)

أما أهداف الكنيسة من الاحتفال به فهي كما يلي:

١- **لتذكر أبناءها أن المسيح بختانه لم يكن محتاجاً للتطهير،** إنما هو أكرمَ الشريعة التي كانت مفروضة على شعب الله قديماً ليُعطي بذلك نموذجاً لإتمام الناموس.
٢- **تحريض الشعب المسيحي على التمثل بتواضع المسيح العجيب،** فإنه كما يقول الآباء كان في ختانه أعظم منه في ولادته، فإنه بولادته أخذ صورة إنسان، أما في ختانه فقد أخذ صورة خاطئ.(٣)

مما سبق يتبين لنا أن ختان المسيح في الفكر المسيحي كان منوطاً بمصلحة الشعب وتعليمه، وهو ليس بحاجة لإجراءٍ من هذا النوع، لكن ليعلّم تلاميذه التواضع، وليكون ذلك سبباً مبيحاً له لدخول مجتمع إسرائيل.

ثانياً: عيد عرس قانا (الجليل):

تحتفل الكنيسة به **تذكاراً للأعجوبة التي صنعها المسيح في ذلك اليوم،** وأورد هذه القصة يوحنا الإنجيلي فقط من بين كتبة الأناجيل، يقول (يوحنا): "وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك، ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس، ولما فرغت الخمر قالت

---

(١) انظر: مجموعة الحياة الكنسية، مدخل إلى اللاهوت الطقسي، ص٥١.
(٢) انظر: السرياني (سمعان)، الأعياد السيدية الصغرى، ص١٠.
(٣) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٥٢/٢.

أم يسوع له ليس لهم خمر، قال لها يسوع ما لي ولك يا امرأة لم تأتِ ساعتي بعد، قالت أمه للخدام مهما قال لكم فافعلوه، وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة، قال لهم يسوع املؤوا الأجران ماء فملؤوها إلى فوق، ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ فقدموا، فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هي لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا دعا رئيس المتكأ العريس، وقال له كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن" [يوحنا: ٢/١-١٠].

هذه القصة لم ترد إلا في إنجيل (يوحنا)، وتدور حولها الكثير من الشكوك والاستفهامات، إضافة إلى الشكوك الكثيرة التي تدور حول إنجيل (يوحنا) بأكمله.

ومن المعلوم أن المسيح قد صنع الكثير من المعجزات والآيات الدالة على صدقه في دعوته، وأورد القرآن الكريم الكثير من الآيات والمعجزات التي أيد الله تعالى بها السيد المسيح عليه السلام، وأورد الإنجيل كذلك الكثير من الآيات والأعاجيب التي صنعها المسيح، لكن الكنيسة المسيحية تخصّ هذه المعجزة دون غيرها بالاهتمام الكبير، وتجعل من ذكراها عيداً تحتفل به، والسبب أن **هذه المعجزة كانت باكورة ما فعله المسيح عليه السلام** حين شرع في الدعوة.

والحقيقة أنه **يصعب تصديق مثل هذه الحادثة، لا سيما أن الأناجيل الثلاثة لم تُشر إليها أبداً**، لكنّ المسيحيين اليوم يصرون على تذكرها وجعلها عيداً، ولعل السبب في هذا أن تصديق حدوث هذه الأعجوبة هو تمهيد لتصديق الأمر الأعجب والأغرب وهو تحوّل الخبز والخمر إلى دم المسيح وجسده أثناء العشاء الرباني، يقول القمص (سمعان السرياني): "الخمر الجديد التي حوّلها الرب يسوع تشير إلى سر الإفخارستيا؛ إذ نشرب الآن خمراً جديدة، قدّسها الرب يسوع، وأعطاها لنا دماً كريماً للعهد الجديد الذي له، فالخمر التي صيّرها الرب في عرس قانا انتهت أخيراً، أما الخمر الجديد الذي يعطيه لنا (دمه الكريم) فهو إلى حياة أبدية، أيضاً ذلك العرس انتهى، أما عرسه السمائي فهو بلا نهاية إلى دهر الدهور كلها".(١)

ثالثاً: عيد دخول المسيح إلى الهيكل:

يذكر تاريخ الكنيسة أن سمعان الشيخ الذي حمل السيد المسيح هو **أحد السبعين شيخاً الذين ترجموا التوراة من اللغة العبرية إلى اللغة اليونانية في مصر** بأمر ملكها (بطليموس)، فلما وصل إلى قوله "هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً" داخله الشك قائلاً: إنه لأمر ممتنع أن تلد عذراء، فألقى الله عليه سباتاً فرأى في رؤيا يقول له أنك لن تموت حتى ترى المسيح الرب مولوداً من عذراء، وعاش نحو ثلاثمائة سنة حتى حَمَل السيد على ذراعيه إذا أعلمه الروح القدس به فبارك الله قائلاً: "الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام" [لوقا: ٢/٢٩].

تروي الأناجيل أن سمعان الشيخ و(حنة النبية) التي كانت أيضًا تتعبد في الهيكل منتظرة خلاص الرب قد فرحا بالمسيح، "لأنه نور إعلان للأمم" [لوقا: ٢/٣٢]، أيضا تنبأ سمعان الشيخ عن مشاركة السيدة العذراء آلام ابنها: "وباركهما سمعان وقال لمريم أمه إن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تقاوم، وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف لتعلن أفكاراً من قلوب كثيرة" [لوقا: ٢/٣٤-٣٥].(٢)

كان **دخول السيد المسيح مع أمه في اليوم الأربعين وذلك إتمامًا لشريعة التوراة بالتحذير**

---

(١) السرياني، الأعياد السيدية الصغرى، ص٢١، ومجموعة الحياة الكنسية، مدخل إلى الطقس الكنسي، ص٥٢.

(٢) انظر: السرياني، الأعياد السيدية الصغرى، ص٢٦.

من دخول النفساء إلى المعبد قبل تمام أربعين يوماً، وبدخول السيد المسيح الهيكل تحققت أمنية (سمعان الشيخ).

وأثناء الاحتفال بعيد دخول المسيح إلى الهيكل يردد الكاهن عند دورته حول المذبح بعد أوشية الإنجيل وهو يحمل البشارة (الإنجيل) بيديه قائلاً الكلمات التي رددها (سمعان الشيخ) حين كان حاملاً المسيح بين يديه.[١]

رابعاً: عيد خميس العهد:

سُمّي بهذا الاسم لأن المسيح أعطى فيه للتلاميذ ولأتباعه عهداً جديداً "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر .... لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" [متى: ٢٦/٢٦-٢٨]، ويقع هذا اليوم **ضمن أسبوع الآلام** الذي يمتاز في الفكر المسيحي بطقوسه الروحية، وتحتفل الكنيسة فيه بتذكار استلامها العهد الجديد من المسيح.[٢]

خامساً: عيد أحد توما:

وهو **الأحد الأول بعد قيامة المسيح**، أي في **اليوم الثامن من قيامته**، وفيه أيضاً **ظهر المسيح** - بعد ظهوره الأول – لتلاميذه من جديد، ومن الشخصيات البارزة في حادثة الظهور هذه هو (توما)، فقد كان مع التلاميذ في هذه المرة **فأراد السيد المسيح أن يزيل شكوكه فأراه أول شيء آثار المسامير على يديه**، فآمن مباشرة حين ذلك بأن المسيح قام من بين الأموات.[٣]

"أما توما أحد الاثني عشر الذي يقال له التوام فلم يكن معهم حين جاء يسوع، فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب فقال لهم إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع أصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن، وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضاً داخلاً وتوما معهم فجاء يسوع والأبواب مغلقة ووقف في الوسط وقال سلام لكم، ثم قال لتوما هات أصبعك إلى هنا وأبصر يدي وهات يدك وضعها في جنبي ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً، أجاب توما وقال له ربي وإلهي، قال له يسوع لأنك رأيتني يا توما آمنت طوبى للذين آمنوا ولم يروا" [يوحنا: ٢٠/٢٤-٢٩]

سادساً: عيد دخول المسيح إلى أرض مصر:

تروي الأناجيل أن (يوسف النجار) خطيب السيدة مريم العذراء جاءه ملاك الرب جبريل وأمره أن يأخذ المسيح وأمه وأن يخرج بهم من فلسطين إلى مصر، حفاظاً على حياة المسيح من بطش الملك (هيرودس) الذي كاد أن يطلب الطفل كي يقتله، "وبعدما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر" [متى: ٢/١٣-١٤].

ويرى المسيحيون أن **دخول السيد المسيح مصر كان خيراً وتعزية وبركة لشعبها**، وكانت فاتحة حياة جديدة بدخول معرفة الرب فيها وتطهيرها من الوثنية، ويعتقدون أيضاً أن الأصنام قد سقطت فيها حين دخل المسيح إليها[٤]، و**رتبت الكنيسة الاحتفال بهذا اليوم تمجيداً للمسيح وشكراً للرب، وتعليماً للناس أن يهربوا من الشر دائماً.**

ويعتقد المسيحيون أن **مجيء يوسف الصديق إلى مصر** وإشباعه العالم من غلاتها كان

---

(١) مجموعة الحياة الكنسية، مدخل إلى الطقس الكنسي، ص٥٢.
(٢) انظر: السرياني، الأعياد السيدية الصغرى، ص٣٧.
(٣) انظر: مجموعة الحياة الكنسية، مدخل إلى الطقس الكنسي، ص٥٤.
(٤) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٤٥٢.

رمزاً عن مجيء يوسف البار إليها ومعه السيد المسيح معطي الحياة.[١]

سادساً: عيد التجلي:

المقصود بالتجلي هو ظهور المسيح عليه السلام بلاهوته أمام تلاميذه، أو إظهار عنصره الإلهي لهم، وتروي جميع الأناجيل هذه الحادثة، والمقصد من حدوث هذا الأمر **تأكيد المسيح على بنوته لله وأنه ليس فقط أحد الأنبياء**.[٢]

ورد في متى: "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين، وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور، وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه، فجعل بطرس يقول ليسوع يا رب جيد أن نكون ههنا فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة، وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا، ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جداً، فجاء يسوع ولمسهم وقال قوموا ولا تخافوا، فرفعوا أعينهم ولم يروا أحدا إلا يسوع وحده" [متى: ١٧/١-٨]، وأورد إنجيلا مرقس ولوقا هذه الحادثة مع اختلاف في عدد الأيام في لوقا، فصار هذا اليوم عيداً تحتفل به الكنيسة سنوياً.

ويرى المسيحيون أن **المسيح إنما قصد بفعل ذلك أمام أعين تلاميذه** الأمور الآتية:

١- **لإقرارهم أنه المسيح ابن الله الحي**، ثم ليريهم أنه ليس إيليا أو موسى أو أحد الأنبياء كما يقول الناس "ولما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان، فقالوا قومٌ يوحنا المعمدان وآخرون إيليا وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء"[متى: ١٦/١٤].

٢- **ليريهم مجد لاهوته قبل آلامه، فعند صلبه لا يشكون أن ذلك بإرادته**.

٣- **ليريهم مجد لاهوته قبل قيامته، لكي يتأكدوا عندما يقوم بمجد لاهوته أنه ليس عن مكافأة بل إنه** – لاهوته – **كان له ومعه منذ الأزل**.[٣]

ويعتقد المسيحيون أن **لهذا العيد أهمية روحية كبيرة**، وتتضح هذه الأهمية في النقاط التالية:

١- عيد التجلي يذكر **المسيحيين بمجد لاهوته الأزلي**.

٢- **يعلّم** عيد التجلي **أهمية الصلاة**، لا سيما أن لوقا الإنجيلي ذكر أن حدوث هذا التجلي كان وقت صلاة يسوع، إذاً فالصلاة هي التي استجلبت هذا التجلي.

٣- حدث هذا التجلي بعد أن صعد المسيح بتلاميذه إلى الجبل، أي بعيداً عن صخب العالم، حيث الهدوء والسكون والخلوة التامة، فاستطاعوا أن ينظروه ويتمتعوا بما لم تره عين ولم تسمع به أذن، ومن هنا جاءت فكرة **صعود الآباء الرهبان إلى البراري والجبال والقفاري للتمتع بجمال الحياة مع المسيح**.

٤- يدل هذا التجلي على **اتصال الكنيسة بالسمائيين**، وشركتهما الواحدة، فالتلاميذ الموجودون يمثلون الكنيسة، وموسى وإيلياء يمثلون السمائيين.[٤]

---

(١) انظر: السرياني، الأعياد السيدية الصغرى، ص٦٥.

(٢) انظر: مجموعة الحياة الكنسية، مدخل إلى الطقس الكنسي، ص٥٢.

(٣) انظر: السرياني، الأعياد السيدية الصغرى، ص٨٠-٨١، وسلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٤٤٩-٤٥٠.

(٤) انظر: السرياني، الأعياد السيدية الصغرى، ص٨٢-٨٥.

المطلب الرابع: الأعياد غير السيدية:

يحتفل المسيحيون بأعياد أخرى تختلف عن الأعياد التي تقدم الكلام عنها، **وتسمى بالأعياد غير السيدية**، وتختلف عن السيدية **من حيث عدم صلتها بالسيد المسيح**، وهذه الأعياد كثيرة في المسيحية، ويختلف اعتبارها من طائفة إلى أخرى، ومن هنا فقد نجد لكل طائفة في المسيحية أعياداً غير سيدية تختص بها، لا سيما إذا وضعنا في الحسبان أن الأعياد غير السيدية ترتبط بقسم كبير منها بالقديسين، وليس جميع القديسين محل اعتبار واحترام في الطوائف المسيحية، إذاً طبيعي أن تكثر هذه الأعياد وتتنوع.

والكلام يطول حول هذه الأعياد، لذا من المناسب الاقتصار على أهم هذه الأعياد، ولعل أهمها ثلاثة هي (أعياد القديسين) (أعياد العذراء) و(عيد ميكائيل).

أولاً: أعياد القديسين:

كان لانتشار المسيحية ثمناً غالياً دفعه المسيحيون الأوائل، فكان سبباً في إراقة دمائهم وسفكها، ومن هنا خصصت الكنيسة أياماً دون أخرى للانقطاع التام عن الأعمال من أجل التحدث بأخبار المجاهدين الأوائل الذين أكملوا سعي المسيح بعد رفعه، ومعلومٌ أن الشرائع المدنية أجمعت على إكرام من أتى عملاً جليلاً أفاد أمته ونفع وطنه، فبعض الأمم تنصب لهؤلاء التماثيل، وبعضها تحتفظ بأقوالهم، وبعضها تحتفل بذكراهم في أيام معينة من السنة.

والمسيحية تأمر أتباعها بهذا الأمر، وتجعل منه واجباً وحقاً شرعياً، يقول (بولس): "فأعطوا الجميع حقوقهم الجزية لمن له الجزية والجباية لمن له الجباية والخوف لمن له الخوف والإكرام لمن له الإكرام" [رومية: ٧/١٣].

و**رتّبت الكنيسة منذ القديم الاحتفال بذكرى هؤلاء الشهداء**، ويعتقدون أن هذا الأمر إنما حصل اعتماداً على تعاليم الكتاب المقدس وما تسلّمه الآباء من بولس خاصة.

ويرى المسيحيون أن **ذكر الصديقين لا يكون إلا بصنع التذكارات لهم في أيام معينة** تخليداً لذكرهم، قال القديس (يوحنا ذهبي الفم): "إنه لا شيء أنفع لنا من التأمل بسيرة القديسين وإعادة التبصر والتروي في أعماله".[١]

ولكيلا يبقى أمر هذه الأعياد فوضى فقد أنشأت الكنيسة سجلاً لأعمال القديسين وأسمائهم وإنجازاتهم يُسمّى بـ (السنكسار)، وهي كلمة يونانية تعني (جامع الأخبار)، وتتم قراءة هذا السنكسار على مدار السنة بأكملها، ولا يكاد يمر يوم إلا ويُذكر فيها سيرة شهيد أو قدّيس.[٢]

أما **الغرض من الاحتفال بأعياد القديسين** فإن المسيحيين يحددون الفائدة منها بالنقاط التالية:

١- إحياءً لأسمائهم وتجديداً لذكرهم وتخليداً لآثارهم.
٢- اعترافاً بفضلهم ومكافأة لهم على أتعابهم.
٣- لكي يتذكروا أعمالهم التي كان لها باع كبير في إنشاء الكنيسة المسيحية وتطويرها.
٤- للدلالة على أنهم وإن ماتوا فهم أحياء بخلاف الأشرار.
٥- اعترافاً بالحياة الأبدية التي فيها ينال المؤمن المجد الذي لا يبلى.
٦- إحياءً لذكر الفضيلة التي نالوها بما قدّموا من أعمال وجهاد.
٧- تمييزاً لهم عن الأشرار كما ميّزهم الله في الدنيا وسيميز بينهم في الآخرة.

---

(١) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٥٥/٢.
(٢) انظر: فهمي (أنطونيوس)، بين الطقس والعقيدة، ص٧٣، والشيخي (موسى)، تقديس الأشخاص عند النصارى وآثاره، ص٣١٨.

٨- الاحتفال بأعياد القديسين يشكل فرصة مهمة للالتقاء بأرواحهم وطلب بركتهم.[١]

ثانياً: أعياد العذراء:

يحتفل المسيحيون بمناسبات عديدة تتصل بالسيدة مريم العذراء، **وتتمحور أكثر هذه الأعياد حول ظهورات السيدة مريم في أماكن مختلفة في العالم المسيحي**، وبناءً على ذلك فمن الطبيعي أن تستقل كل طائفة أو إقليم بأعياد مختصة بالسيدة مريم حسب ظهورها في ذلك الإقليم.

وللاحتفال بأعياد السيدة مريم العذراء الفوائد التالية:

١- **إكراماً للسيدة مريم العذراء** بسبب النعم التي نالتها بما أنها والدة الرب والمخلّص.

٢- **تمثلاً بالرب يسوع الذي أكرمها بخضوعه لها** "ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها" [لوقا: ٥١/٢]، وبإجابة طلبها في عرس قانا، وباعتنائه بها وهو على الصليب.

٣- **تنفيذاً لنبوءتها بأن جميع الأجيال تطوبها - أي تذكرها بالخير فتقول (طوبى لها) -** "فقالت مريم تعظم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلصي، لأنه نظر إلى اتضاع أمته فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني، لأن القدير صنع بي عظائم" [لوقا: ٤٦/١-٤٩].[٢]

ثالثاً: عيد ميخائيل:

يؤمن المسيحيون أن الملائكة هم جواهر روحية تامة، وقد خلقهم الله أرواحاً خادمة لأجل المقرر خلاصهم كي يرثوا الخلاص "أليس جميعهم أرواحاً خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص" [عبرانيين: ١٤/١]، وقد زينهم بطبيعة عاقلة شريفة أجل وأكرم من طبيعة النفوس الأخرى، وعددهم أكثر من أن يُحصى[٣]، وباعتبار أن الملائكة كانت لهم أفضل المواقف مع المؤمنين والقديسين فقد **عينت الكنيسة أياماً تحتفل فيها بذكرى أعمال الملاك (ميخائيل) رئيس الملائكة ورفاقه الصالحين**، ورسمت أيضاً صور أشخاصهم التي تجلوا فيها للقديسين، وتحتفل الكنيسة بهذا العيد في ٢٩ كانون الأول.[٤]

وغرض الكنيسة من إقامة الأعياد للملاك (ميخائيل) وسائر الملائكة الأمور التالية:

١- **تذكير أبناء الكنيسة ورعاياها بما للملاك (ميخائيل) وشركائه من الملائكة من الخدمة الجليلة.**

٢- **تكريماً لهؤلاء الملائكة** وإعراباً عن شكر الكنيسة لجميلهم، واعترافاً بحسن صنيعهم تشبيهاً لهم بالقديسين.

٣- **لحمل بنيها على التشبه بهذه المخلوقات العلوية** في تمجيد الله وخدمة شعبه.[٥]

تعقيب على الأعياد عند المسيحيين:

إنه من الطبيعي أن تستأثر الأمم بأعيادٍ وأيامٍ ومناسبات تحيي فيها ذكرياتٍ وماضياً تفتخر به وتعتز، ويكون الاحتفال بهذه الأعياد نمطاً من أنماط الحفاظ على القيمة الحضارية التي تتسم

---

(١) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٦١/٢-٤٦٢، فهمي، بين الطقس والعقيدة، ص٧٤-٧٥.

(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٦٢/٢.

(٣) انظر: المرجع السابق، ٤٦٣/٢.

(٤) انظر: الحقيل، أعياد الكفار وموقف الإسلام منها، ص٤٤.

(٥) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٦٤/٢.

بها هذه الديانة أو تلك، وهو عاملٌ مهم في الاعتقاد البشري يتلاءم مع الطبيعية الفطرية في الإنسان الذي يخاف أن يفقد مآثره أو ينساها، كما أن اتخاذ الأعياد وإحياءها هو من أهم عوامل البقاء بالنسبة للأمة الثيوقراطية – أي الأمة التي تتمتع بنظام سياسي ذو صبغة دينية -؛ إذ يحفظ لها وحدتها، ويضمن لها نوعاً من البقاء في الذاكرة قد يطول أو يقصر.

وبالتأكيد فإن المسيحية ليست مستثناة من الكلام السابق، فالأعياد فيها أكثر من أن تُحصى، وبعضها أعيادٌ مجمع عليها بين الطوائف المسيحية وبعضها الآخر تنفرد به كنائس أو طوائف محددة ولا يعترف به غيرها.

إن وجود هذه الأعياد في المسيحية ليس أمراً مستغرباً، إنما المستغرب **هو التقاطعات الكثيرة والتشابه الكبير بينها وبين الأعياد التي كانت موجودة في الأمم الوثنية**، هذا التشابه موجود في أكثر الأعياد التي تعترف بها المسيحية اليوم، وربما تعطينا هذه التقاطعات إشاراتٍ ودلالات مهمة تجزم باستقاء المسيحية من الوثنيات أعيادها وطقوسها، بحيث يستطيع الباحثون بتجرد أن يجزموا بأن العديد من هذه الأعياد ما هي إلا لونٌ من ألوان التأثير الوثني في المسيحية.

ومن الملاحظ على أعياد المسيحية أنها قد **وُقِّتت بذكاء من قِبل الكنيسة**، وصار يُحتفل بها في أيام الأعياد الوثنية نفسها، وبالتأكيد كان آباء الكنيسة يعرفون أن هذه الأعياد **وثنية ذات طابع شعبي**، وباعتبار أن المسيحية قد أصبحت ديانة الكثير من هؤلاء الوثنيين فإن اقتلاع هذه الأعياد قد يضر بالمسيحية، وهذا طبعاً لا يعني أن الأعياد المسيحية بأكملها تنحدر من الأعياد الوثنية، بل المقصود هو وجود التشابه الكبير بين الكثير من الأعياد المسيحية والأعياد الوثنية.

وتذكر بعض المراجع أن **الكنيسة حاولت أثناء نشأتها تحييد العقائد الوثنية**، وأن تجتثها من أذهان المعتنقين الجدد، لكن ذلك لم يكن سهلاً، بل **كانت الوثنية أقوى شكيمة** من المسيحية، بحيث استطاعت أن تُرسّخ في الفكر المسيحي الكثير من اعتقاداتها وتأثيراتها الزائفة، فكانت المسيحية الأولى هي الخاسرة في هذه المواجهة.

يقول (أندريه نايتون): "لا بد من الملاحظة أن الشعوب الوثنية أحبطت جهود الكنيسة لانتزاع الطابع الوثني عن بعض الأديان، وجعلت من ذلك مستحيلاً، مما أدى بالكنيسة نفسها إلى أن تتبنى التقاليد والشعائر الوثنية، وتخلع عليها ألقاباً مسيحية".(١)

ولقد أوردتُ أثناء الكلام عن الأعياد السيدية الكبرى عيد القيامة في مقدمة الأعياد؛ كونه أهم الأعياد المسيحية؛ وذلك لما يُبنى عليه من أثر عقائدي مهم تقوم عليه المسيحية بأكملها في العصر الحاضر، ويأتي بعده في الأهمية عيد الميلاد، ويعتقد الكثير من الباحثين أن عيد الميلاد هو العيد الأهم في المسيحية، ولعل هذه الرؤية توافق الاعتقاد المسيحي بأهمية هذا العيد وأولويته.

ومع أن عيد الميلاد له من الأهمية الشأن الكبير فإن الدهشة ستكون كبيرة حين ندرك أن **تاريخ الميلاد في المسيحية ظل ملتبساً لفترة طويلة من الزمن**، وأنه ليس هناك مصدر تاريخي موثوق يمكن اعتماده لتحديد التاريخ الصحيح لميلاد المسيح؛ إذ **لم يعتن المسيحيون بتاريخ ميلاد المسيح وتحديد يومه بقدر عنايتهم بتاريخ موته** حسب اعتقادهم، وبسبب ذلك من اعتقادات فقد كانت احتفالات موته وبعثه أهم الموضوعات المثارة في مطلع تأسيس المسيحية، ولم يُعلن تاريخ ميلاد المسيح إلا في عام ١٣٠ تقريباً على لسان البابا (تيليسفور).(٢)

وبالرغم من التأخر في تحديد يوم ميلاد المسيح فإن **التاريخ الذي تم إعلانه لم يسلم من**

---

(١) نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٥١.

(٢) انظر: نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٥٢.

النقد، فأصبح التاريخ المعلن عن ولادة السيد المسيح يعاني من **تقلبات كثيرة** إلى أن **تم الاتفاق على أن يكون يوم ٦ كانون الثاني هو يوم الميلاد**؛ إذ كان المسيحيون يعتقدون أن هذا هو **أثبت التواريخ وأقربها إلى** الصحة، لكن الكنيسة في تلك الأزمنة كانت تعرف أن الاحتفال بالعيد الشمسي الكبير يكون في يوم ٢٥ كانون الأول وهو ما درج عليه الوثنيون، فهو تاريخ الانقلاب الشمسي الشتائي في التقويم الروماني القديم في تقويم جوليان، وهو كذلك يوم ولادة الإله الوثني ميثرا إله الشمس، وقد اضطرت الكنيسة تحت ضغوط قوية وبسبب استمرار الاحتفالات الشعبية الوثنية بميثرا أن تختار هذا النهار أيضاً للاحتفال بميلاد المسيح.(١)

ولعل من **الأمور التي ساعدت على هذا الانتقال** في ميلاد المسيح - من التاريخ الرائج ٦ تشرين الثاني إلى ٢٥ كانون الأول – هو **التأثر بالمصطلحات والأوصاف التي تمنحها الكتب المقدسة للسيد المسيح بما يشبه الشمس وضياءها**، "بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلا، ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام" [لوقا: ١/٧٨-٧٩]، ويقول يوحنا: "فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس، والنور يضيء في الظلمة" [يوحنا: ١/٤-٥].

يقول العقاد: "فاليوم الخامس والعشرون من شهر ديسمبر الذي يُحتفل فيه بمولد المسيح كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس في العبادة المثرية، إذ كان الأقدمون يخطئون في الحساب الفلكي إلى عهد جوليان، فيعدّون هذا اليوم مبدأ الانقلاب الشمسي بدلاً من اليوم الحادي والعشرين في الحساب الحديث، وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على اختيار اليوم الخامس والعشرين لهذا السبب، وفضلت أن تختار لعيد الميلاد اليوم السادس من شهر يناير الذي تعمّد فيه المسيح، على هذا اليوم أيضاً كان عيد الإله ديونيسس عند اليونان وبعض سكان آسيا الصغرى، وكان قبل ذلك عيد أوزوريس عند المصريين".(٢)

أما **عيد الغطاس** فهو كذلك مزيج **من التقاليد الوثنية المسيحية**، ولقد احتفظت الكنيسة بيوم ٦ كانون الثاني - الذي كان يوم ميلاد المسيح – موعداً لتعميد المسيح، واتخذت الكنيسة الكاثوليكية تقليداً بأن تبارك مجاري الأنهار والأغادير والمسايل في ذلك اليوم، وربما يكون سبب ذلك أن العمادة كانت تتم بتغطيس المؤمن في النهر (نهر الأردن)، لكن هناك سبب أهم هو أن الكنيسة أرادت أن **تمحو من أذهان البسطاء العيد الوثني للماء الذي كان يُحتفل به في ذلك اليوم نفسه عند عُبّاد (إيزيس وأوزوريس)** فجعلت المسيحية منه يوم عماد المسيح.(٣)

وأما **عيد أحد الشعانين فلا يخلو من الأثر الوثني**، فقد كان الأطفال في أثينا عند الاحتفال بعيد قطف الفواكه يسيرون في موكب إلى المعبد الرئيس، وكان واحدٌ منهم يحمل غصن زيتون معلقاً عليه الخبز والخمر وأكواب العسل والزيت، يقول (نايتون): "وما زلنا إلى الآن نجد هذه الاحتفالات الوثنية في المناطق المتوسطية حيث يرفع الأطفال في قدّاس أحد الشعانين أغصاناً محملة بالفواكه المطبوخة والحلوى المستديرة ليباركها الله".(٤)

ومن المعلوم أن **أحد الشعانين هو مقدمة الاحتفال بعيد الفصح المسيحي**، حيث يقع في الأحد الأخير قبل عيد الفصح، ولقد كان **اختيار تاريخ الاحتفال بعيد الفصح محاولة للتوفيق بين الشعائر الوثنية وبين الإيمان المسيحي، وكذلك آلية الاحتفال بالقيامة وطقوسه مشابهة جداً لتلك التي كانت الوثنية فيها تحتفل بموت وقيامة الإله (أدونيس)**، وينقل (نايتون) عن

---

(١) انظر: نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٥٢.
(٢) العقاد، الله، ص١٤٧.
(٣) انظر: نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٥٤.
(٤) نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٥٥.

الكاتب الفرنسي (غيميه) أنه شاهد في مدينة (باتراس) اليونانية عام ١٩٠٠م مشهد احتفال بذكرى (دفن المسيح) في جوٍّ يذكّر بالاحتفالات القديمة لموت (أدونيس)، فعشية ليلة الجمعة الحزينة- لا سيما في الكنائس الكاثوليكية) يضعون نعشاً محاطاً بالزهور، ثم تمر الجماهير المحتشدة لتكريمه بحزن بالغ، ويقول (غيميه) إن ذلك ذكره بما كان يجري في مدينة (بيبلوس)، حيث كانوا يضعون نعشاً خشبياً محاطاً بالورد، وعليه صورة أدونيس.

ويقول (نايتون): "أما عن استعمال البيض ودهنه بمختلف الألوان وتقديمه بمناسبة عيد الفصح فإن هذا الرمز يعود إلى تاريخ وثني قديم، وهو رمز للحياة المقبلة ووعد، وكان ذلك رمزاً للبعث عند بعض الشعوب المتوسطية بشكل خاص، وإننا لنجد بيضاً من الطين في بعض معابد ما قبل التاريخ، كما نجد بيضاً من حجر في قبور الفراعنة المصريين....إن وجود البيض في نحوت المقابر الرومانية واليونانية كان يدل على معنى واضح هو الحياة المقبلة"[١]

هذا بالنسبة للأعياد السيدية، أما الأعياد غير السيدية فكذلك لا تخلو من الأثر الوثني، **فالأعياد المريمية (العذراء) تشهد بقوة على تأثير (سيبيل) و(إيزيس) فيها**، وهاتان المعبودتان كان لهما من الأهمية الشيء الكثير عند الوثنيين، ثم تمت مطابقة الاحتفال بأعياد العذراء على ما لهاتين المعبودتين من أعياد.

وكان الإمبراطور (يوليوس قيصر) هو الذي صحح التقويم، ونقل أعياد (سيبيل وإيزيس) من شهر آذار إلى شهر أيار، ولقد اختارت الكنيسة الكاثوليكية شهر أيار للاحتفال بأعياد السيدة مريم، وحين اختار البابا (غريغوري) العظيم يوم ١٥ آب للاحتفال بصعود مريم فقد خرج عن المألوف، لكنه اختار هذا الموعد عن قصد للتذكير بعيد آلهة القمر الوثنية عند اليونان.[٢]

أما **عيد القديسين**، فالمسيحيون يدعون أن الاحتفال بأعياد القديسين أمر قديم تسلّمته الكنيسة من المسيحيين الأوائل، فصار للقديسين أعيادٌ كثيرة، لكن أثناء تمحيص هذه الدعوى سنجد أن أول من قرر الاحتفال بهذه الأيام وتخصيص يومٍ لجميع هؤلاء القديسين مع إفراد أيامهم لكلٍ منهم هو البابا (غريغوري الرابع)[٣] سنة ٨٣٥م، وقد اختار أن يكون يوم جميع القديسين الأول من تشرين الثاني، ولم يكن هذا عن عبث، **ففي هذا اليوم كانت التقاليد عند الشعوب الوثنية تحتفل بعيد الموتى**.[٤]

مما سبق نستنبط أن **الكنيسة لم تحدد تواريخ أعيادها عشوائياً، بل كان ذلك عن تفكير طويل ووعي بأحاسيس رعاياها وميولهم الوثنية الكامنة في نفوس المؤمنين الجدد**، يقول (القديس أوغسطين): "إن الكنيسة الكاثوليكية قررت الاحتفال بأعياد الشهداء وتقديم الطعام لهم على طريقة الاحتفالات الوثنية الكبيرة، لكنها تراجعت بعد فترة بضغط من بعض الأتقياء"[٥]، ومما سبق يتبين أن **الكثير من الأعياد المسيحية لا سيما الأعياد السيدية تكاد تنبع من أصل وثني**، وهنا يتأكد لنا قول (ديورانت): "إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها"[٦]، وقول

---

(١) نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٥٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٥٧.

(٣) بابا الكنيسة الكاثوليكية في روما، ولد سنة ٧٩٥م في روما، وكان له تدخلات في إيقاف المشاكل بين الإمبراطور لويس الأول وأبنائه، وكان له دور أيضاً في تشكيل الإمبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣م، وتسلّم منصب البابوية من سنة ٨٢٧ إلى وفاته سنة ٨٤٤م، وتوفي في روما وعمره إحدى وخمسين سنة، انظر: https://ar.wikipedia.org/

(٤) انظر: نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٥٧.

(٥) انظر: نايتون، الأصول الوثنية للمسيحية، ص٥٨.

(٦) ديورانت، قصة الحضارة، ٢٧٥/١١.

(جينيبر): "إنه إن تعذر إرجاع كل لون من ألوان الطقوس المسيحية إلى الأصل الوثني الذي نبع منه، إلا أنه لا مجال للشك في أنّ الروح الوثنية في مظاهر العبادات العملية قد فرضت على المسيحية شيئاً فشيئاً"[١]، وفي سياق تفسير ظاهرة تحويل المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس مسيحية وتحويل أعياد الآلهة الوثنية إلى أعياد مسيحية يقول المؤرخ الغربي (جورج جوردون كولتون): "إن المسيحية حاولت التوفيق بينها وبين الأفكار الفجة السابقة، فسمحت بتدشين المعابد القديمة بما يتفق وطقوس الكنيسة الجديدة، مع الإبقاء على حفلات الوثنيين وأعياد آلهتهم كما هي على أن تحوَّل إلى احتفالات وأعياد مسيحية".[٢]

ومن هذا تتبين حقيقة قول القاضي (عبد الجبار الهمذاني) في عبارته الشهيرة مشيراً إلى الأثر الوثني في المسيحية حين قال: "فلا نجد إلا النصارى ترومت ولم تتنصر الروم".[٣]

(١) جينيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٦٠.

(٢) كولتون (جورج)، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ص٢٤.

(٣) عبد الجبار الهمذاني، تثبيت دلائل النبوة، دار المصطفى، (القاهرة)، د/ط.ت، ١٧٣/١.

الباب الثاني
الشعائر الكتابية والتعبدية

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الشعائر ذات السند الكتابي

الفصل الثاني: الشعائر الدينية المتعلقة بالعبادة

الفصل الأول
الشعائر ذات السند الكتابي

وفيه ستة مباحث

المبحث الأول: سر المعمودية

المبحث الثاني: سر مسحة الميرون (التثبيت)

المبحث الثالث: سر التوبة

المبحث الرابع: سر مسحة المرضى

المبحث الخامس: سر الزواج

المبحث السادس: سر الكهنوت

تقدّم معنا أن الشعائر الدينية في المسيحية تتنوع من حيث مصدريتها ومستندها إلى أنواع، ومن أهم هذه الأنواع **الشعائر ذات السند الكتابي**؛ إذ تحتل الصدارة بين الشعائر المسيحية، كما أن **المعنى العام** الأولي للشعائر الدينية في المسيحية يدور غالباً حول هذه **الشعائر الكتابية**، وتجمع هذا النوع من الشعائر وحدة موضوعية غير وحدة السند التشريعي هي وحدة الطابع العام المشترك بينها، ومن هنا سُمّيت هذه الشعائر بـ (الأسرار).

وقد تقدّم في الفصل الأول من هذه الرسالة الكلام التفصيلي عن معنى الأسرار وتعريفها وتحليلها، ولعله من المهم أن نشير هنا إلى أن معنى السرية في هذه الأسرار هو كونها أفعالاً منظورة ينال بها المؤمن نعماً غير منظورة.

إذاً **احتواء هذه الشعائر على أعمال ظاهرة منتجة نعماً غير ظاهرة هو معنى كونها أسراراً**، وهذا أمر مشترك بين جميع الشعائر التي سمّيتها (ذات السند الكتابي) كونها تستند في تشريعها على أدلة من الكتاب المقدس توضح ضرورة إقامتها وأساليب هذه الإقامة، إضافة إلى كونها مشتركة مع بعضها بمعنى السرية كما أشرت.

وتتعدد هذه الشعائر حسب المهام المتعلقة بها، وكذلك حسب إيمان الكنائس المسيحية بفاعلية هذه الأسرار ومضمونها الغيبي، وهي عند عامة المسيحيين سبعة أسرار، سر القربان (العشاء الرباني) وسر المعمودية، وسر تثبيت المعمودية (الميرون)، وسر التوبة والاعتراف، وسر مسحة المرضى، وسر الزواج، وسر الكهنوت.

ولعل ارتباط هذه الأسرار بعضها ببعض أسهم أيضاً في جعلها وحدة متكاملة في نسق عقائدي يجعلها متحدة ومتعلقة ببعضها، إذ **أكثر هذه الأسرار مترتب على غيره** منها، فالمعمودية باب الدخول في المسيحية، ولا تُنال النعمة المسيحية التي تحتويها المعمودية إلا بزيت الميرون، ولا يمكن للمسيحي أن يتقدّم إلى الاشتراك بالعشاء الرباني ما لم يُؤكد انتسابه إلى المسيحية بإجراء المعمودية، ونوال النعمة الإلهية المتضمنة في المعمودية والعشاء الرباني يقتضي التوبة والاعتراف بالذنب كي تتم عملية التطهير ويكون المرء متحققاً بالخلاص الذي يحتويه العشاء الرباني بالاشتراك في جسد المسيح وموته وقيامته، وهكذا غيرها من الأسرار يترتب بعضها على بعض.

وقد تحدثت في الفصل السابق عن سر القربان المسمّى بالعشاء الرباني، وتحدثت عن العناصر الليتورجية التي يتضمنها هذا السر وآليات إقامته وطقوسه المختلفة بين الكنائس والتي لا يتم إقامتة السر إلا بها.

وقد قمت بفصل سر القربان عن باقي الأسرار وأدرجته ضمن الشعائر ذات السند التاريخي – مع أنه يشترك مع الأسرار الستة المتبقية بمعنى السرية المشار إليه سابقاً – لأنه يحتوي سنداً واعتباراً تاريخياً مهماً في جميع الأديان السماوية والوضعية بحيث تفوق أهميته التاريخية سنده الكتابي ومصدره التشريعي في المسيحية؛ إذ هو أمر مشترك بين جميع الأديان حتى البدائية منها مع الاختلاف في الطقس والمضمون الروحي، فقد عرفت جميع الديانات أساليبَ معينة للتقرب من الآلهة المعبودة رجاء نفعها وخوفاً من بأسها.

المبحث الأول: سر المعمودية

تنبع أهمية المعمودية في المسيحية من أنها **الطريقة الوحيدة للدخول في المسيحية** حسب التعليم المسيحي، بالإضافة إلى فعل التطهير الذي يتم في طقسها، مما يشير إلى خلقِ الإنسان من جديد وهو خالٍ من الخطيئة طاهرٌ من آثارها منضمٌ إلى المسيحية مؤمنٌ بفاديها ومخلّصها.

وكانت المعمودية في الكنيسة الأولى تُمنح باسم يسوع فقط استدلالاً بالنصوص الواردة في سفر أعمال الرسل، لكن منذ نهاية القرن الأول المسيحي على أكثر تقدير أصبحت المعمودية تُمنح في كل مكان باسم الثالوث الآب والابن والروح القدس، وهذا الأمر دفع بعض اللاهوتيين إلى تفسير النصوص الواردة عن المعمودية في سفر الأعمال على أنها ليست صيغة للمعمودية، إنما كان الهدف منها التفريق بين المعمودية المسيحية وتلك التي كان يمارسها يوحنا المعمدان.(١)

المطلب الأول: المعمودية (المفهوم والتأسيس والأدلة):

أولاً: مفهوم المعمودية:

جاء في مختار الصحاح ما يلي: "و(العِماد) بالكسر الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث والواحدة عمادة، و(عَمَدَ) للشيء قصد له أي (تَعَمَّدَ) وهو ضد الخطأ، و(عَمَدَ) الشيء (فانْعَمَدَ) أي أقامه بعماد يعتمد عليه وبابهما ضرب، و(عَمُوْدُ) القوم و(عَمِيْدُهم) سيدهم، و(العُمْدَة) بالضم ما يعتمد عليه، و(اعْتَمَدَ) على الشيء اتكأ".(٢)

وفي المسيحية تُشتق كلمة (المعمودية) من كلمة (معموديتو) السريانية، والتي تعني "الغسل لأجل التطهير".(٣)

يقول (**حبيب جرجس**): "المعمودية **سر مقدس به نولد ميلاداً ثانياً بتغطيسنا في الماء ثلاث دفعات** على اسم الثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس".(٤)

ويعرّفها (دنيس كلارك): "المعمودية هي طقس أو شعيرة دينية تجري للمؤمن بتغطيسه بالماء أو بالرش، فيعلن بذلك إيمانه وتوبته عن الخطايا والتزامه لعمل إرادة الله".(٥)

يقول (**عوض سمعان**): "إن العماد بالمسيح هو إشهار الإيمان به أو بالأحرى **الاعتراف الرسمي بالموت معه والقيام معه،** وذلك بوساطة النزول في المعمودية والصعود منها".(٦)

وورد في كتاب (الأنوار في كشف الأسرار): "المعمودية هي السر الذي به يولد الإنسان الخاطئ المولود بدنس الأجداد المتواصل ولادة ثانية من الماء والروح القدس، وهي سر به يغطس الإنسان الخاطئ في الماء، وقد تعلّم الإيمان المسيحي ثلاث دفعات على اسم الآب والابن والروح القدس، فيطهر من كل خطيئة بواسطة النعمة الإلهية، ويصير إنساناً جديداً مبرراً ومقدّساً".(٧)

وبناءً على ما سبق فإن **المفهوم المسيحي العام للمعمودية** كما جاء في قاموس الكتاب المقدس هو **"طقس الغسل بالماء رمزاً للنقاوة والانخراط في سلك طائفة ما،** وقد عرف اليهود

---

(١) انظر: المقاري، معمودية الماء والروح، ص٢٦.
(٢) الرازي، مختار الصحاح، مادة (عمد)، ص٢١٨.
(٣) السليماني (حفيظ)الخلاص بين الوحي والمفاهيم البشرية، ص٥.
(٤) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٢٦.
(٥) كلارك، سيرة المسيح وتعاليمه، ص٢٧٦.
(٦) سمعان، الكهنوت، ص٣٨٥.
(٧) مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص١٣-١٤.

هذه العادة واستعملوها كما يُفهم من الكتاب المقدس، ولما جاء يسوع تبنى هذا الطقس وجعله فريضة في الكنيسة المسيحية، إذ إنه جعل التعميد بالماء باسم الثالوث الأقدس علامة على التطهير من الخطيئة والنجاسة وعلى الانتساب رسمياً إلى كنيسة المسيح، ويصرّح الله للمتعمد بوساطة هذه العلامة بغفران الخطايا ومنح الخلاص، أما المتعمد فيتعهد هو أو المسؤلون عنه بالطاعة لكلمة الله أو التكريس لخدمته، أي أن المعمودية تختم وتشهد على المؤمنين بالله بالإيمان والنبوة وغفران خطاياه بموت المسيح وقيامته".(١)

ومما يُلاحظ على معنى (العماد) الاصطلاحي في المسيحية مقارنةً بمعنى هذه الكلمة في اللغة العربية أن **كلمة (العماد) لا تشير - بمعناها الاصطلاحي - إلى المعنى المسيحي المقصود**، فكلمة (العماد) هي ترجمة عن كلمة BABTISMOS ذات الأصل اليوناني التي تشير إلى التغطيس بالماء والتي تدل على العملية المشار إليها في المسيحية، بينما كلمة (العماد) في العربية فهي بمعنى الانتصاب والوقوف، ومنها عمود البيت لأنه منتصب، فإذا حُمل اللفظ على ظاهره فلا يمكن إطلاقه على المعمودية المسيحية، إلا إذا قُصد بـ (العماد) المعنى الاصطلاحي الذي يمكن تأويله بالانتصاب والقيام الحياتي في المسيح من جديد، وإلا فلا تدل كلمة (العماد) على المعنى الإجرائي الذي يقوم به المسيحيون في الكنائس.(٢)

وبناءً على أهمية شعيرة المعمودية في المسيحية فقد أطلق الآباء عليها الكثير من التسميات التي تشير إلى المنحة الإلهية والبركة التي ينالها المؤمن من خلال إجراء التعميد، تسمى الولادة الثانية، والمسحة، والاستنارة، والخلاص، والعطية، والتقديس، والينبوع المقدس، وختم الإيمان، والتطهير، وماء الحياة الدائم، وغيرها من الأسماء.(٣)

ثانياً: تأسيس المعمودية وأدلتها:

ينسب المسيحيون تأسيس هذا السر إلى السيد المسيح:

- "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" [متى: ١٩/٢٨].
- "وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن" [مرقس: ١٥/١٦-١٦].
- "إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" [يوحنا: ٥/٣].

والأصل في مسألة العماد ما جاء في إنجيل متى من أن السيد المسيح جاء من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا المعمدان، وطلب منه أن يعمّده، "حينئذٍ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي! فأجاب يسوع وقال له: امسح الآن، لأن هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر، حينئذٍ مسح له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه، وصوت من السموات قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" [متى: ١٣/٣-١٧]، وغيرها كثير من الأدلة.

- يقول (**كيرلس الأورشليمي**): "عظيمة هي المعمودية، فهي معدة فداءً عن المأسورين وصفحاً عن الأوزار، وموتاً عن الخطيئة، وولادة ثانية للنفس، وثواباً نيراً وختماً مقدساً

---

(١) عبد الملك وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، ص٦٤٧.
(٢) انظر: عمران، العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية، ص١٥٦.
(٣) انظر: المقاري، معمودية الماء والروح، ص٣٨-٤٠، وحبيب (جورج)، المعمودية، ص٩٤-٩٥.

لا ينفك، ومركبة إلى السماء، إنها تعليم الفردوس وعلة الملكوت ومنحة التبني".[١]

- يقول (**أوغسطينوس**): "لنا ميلادان أحدهما أرضي والآخر سماوي، الأول من الجسد والثاني من الروح ..... الأول يجعلنا أبناء الجسد والثاني يجعلنا أبناء الروح، الأول يصيرنا أبناء الموت والثاني أبناء القيامة، الأول يجعلنا أبناء اللعنة والغضب والثاني أبناء البركة والمحبة، الأول يقيدنا بأغلال الخطيئة الأصلية والثاني يحلنا من رباطات كل خطية".[٢]

نتائج المعمودية وأنواعها:

بناءً على معنى العموم والشمولية الوارد في الأدلة الكتابية والآبائية سالفة الذكر رتّب المسيحيون النتائج التالية:

١- إن المعمودية سر عام لجميع البشر على السواء.
٢- إنها سر سيتمم إلى انقضاء الدهور غير محصور في مكان ولا زمان.
٣- إنها شرط لازم للحصول على الخلاص.[٣]

ومن الأدلة السابقة استنتج المسيحيون أن السيد المسيح هو الذي أسس سر المعمودية، فكل معمودية تجري في الكنيسة المسيحية تمتد بنسبتها وأصولها إلى المسيح، واستثنى المسيحيون من معمودية المسيح ثلاث معموديات:

أولاً: **معمودية النبي يوحنا لليهود**، مع أنهم يرون أن معمودية يوحنا أخذت مبدأها من السماء لكنها كانت رسماً فقط لمعمودية المسيح، وكانت تهيئ اليهود بنوع خاص لقبول المسيح وملكوته، فكانت بذلك معمودية للتوبة غير قادرة على استجلاب النعمة الإلهية، لهذا وجب على كل من عمّده يوحنا المعمدان أن يعيدوا اعتمادهم لمعمودية المسيح.

ثانياً: معمودية يوحنا المعمدان للمسيح هي أيضاً مما يستثنيه المسيحيون من المعمودية المسيحية.

ثالثاً: المعمودية التي كان تلاميذ المسيح يتممونها للناس في مدة حياة المسيح على الأرض، فهي ليست سوى مقدمة ورسم بسيط لظهور سر المعمودية المسيحية حسب الاعتقاد المسيحي.[٤]

المطلب الثاني: أهمية المعمودية وضرورة إقامتها وشروطها:

أولاً: ضرورة إقامة المعمودية وأهميتها:

تدور مسألة ضرورة المعمودية ولزوم إقامتها في محور قضية الخلاص المسيحي، وتُشكِّل المعمودية الباب الأول من أبواب الخلاص المشار إليه، إذاً الحاجة التي تجعل من المعمودية أمراً ملحاً هي كونها أساساً للخلاص، وعليه فكل من لا يعتمد يبقى تحت غضب الله، فالمعمودية هي علة وسبب تجديد الإيمان، ونوال غفران الخطايا واستقبال الروح القدس.[٥]

أشرت إلى أن المسيحيين يعتقدون أن أساس المعمودية هو عمل يسوع المسيح من موت وقيامة، وعليه **فالمعمودية تحمل المدلول الفدائي التاريخي**، وتعبّر عن هذا المدلول في حياة الإنسان بإجراء هذا الطقس المعمودي وإقامة شعيرته باسم الثالوث الآب والابن والروح

---

(١) درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص١٩٣.
(٢) المرجع السابق، ص١٩٣.
(٣) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٣٠.
(٤) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص١٥-١٧.
(٥) انظر: المسكين (متى)، المعمودية الأصول الأولى للمسيحية، ص١٢.

القدس.[1]

وتتضح ضرورة إقامة المعمودية بالأدلة الآتية:

١-أقوال المسيح والرسل:

أ. **أقوال المسيح:** "إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" [يوحنا: ٣/٥]، "من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدن" [مرقس: ١٦/١٦]، استنبط المسيحيون من هذين الدليلين أن من لا يعتمد يُدن ولا يستحق دخول ملكوت الله

ب. **أقوال الرسل**: قال (بطرس) لما سأله الذين قبلوا الإيمان بالمسيح ماذا نصنع؟ قال لهم: "توبوا وليعتمد كلٌ منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس" [أعمال: ٢/٣٧-٣٨]، وقال (بولس): "لا بأعمال في بر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس" [تيموثاوس: ٣/٥]

ت. **من قول يوحنا المعمدان**: "أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني .... هو سيعمدكم بالروح القدس" [متى: ٣/١١]، فمعمودية يوحنا كانت للتوبة، وأما معمودية المسيح فكانت للتوبة وغفران الخطايا وعطية الروح القدس [أعمال: ٢/٣٨]، والأولى كانت تمارس بالماء فقط، وأما الثانية فهي باسم الآب والابن والروح القدس [متى: ٢٨/١٩]، والأولى كانت مقتصرة على التائبين من شعب إسرائيل، أما الثانية فلجميع المؤمنين من اليهود وغيرهم [متى: ٢٨/١٩]، والأولى كانت معمودية وقتية، ويلزم الذين اعتمدوا بها أن يعيدوا اعتمادهم مرة ثانية حين الإيمان بالسيد المسيح [أعمال: ١٩/٥]، وأما معمودية المسيح فهي المعمودية الدائمة إلى انقضاء الدهر [متى: ٢٨/٢٠].

هذه النصوص وغيرها كثير كلها ناطقة بأن المعمودية لازمة للخلاص، وبدونها لا يمكن للإنسان أن يخلص.[2]

٢- **الأمر بالمعمودية وضرورة إقامتها كان ولا يزال هو التعليم الأشهر والأول في الكنيسة في جميع العصور**، قال القديس (يوستينوس الشهيد): "يجب أن نفتش ونعرف من أي طريق يمكننا أن ننال صفح الخطايا، ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها، ولنا في ذلك طريق واحدة فقط، وهي أن نعرف يسوع ونغتسل بالمعمودية لغفران الخطايا، وهكذا نبتدئ أن نعيش بالقداسة".[3]

ويقول القديس (يوحنا ذهبي الفم): "إن الذين كانوا قبل عمادهم أسرى فإنه يتمتعون الآن ببهاء الحرية، وصاروا أعضاء الكنيسة سالكين في نور البر الإلهي، بعدما كانوا سائرين في فيافي الضلال الحالك وظلام الخطيئة القاتم، حقاً إنهم الآن محررون، وليس ذلك فقط بل قديسون فأبرار فأبناء فورثة فأخوة المسيح وارثون معه فأعضاء لجسده الطاهر، فتأمل في العطايا الجزيلة والمواهب الثمينة التي يمنحها سر العماد".[4]

٣- مما يزيد أهمية المعمودية في الفكر المسيحي **الصلة التي بينها وبين الأسرار** الأخرى، فيربط المسيحيون بين المعمودية وبين العشاء الرباني مستدلين بقول بولس "وجميعهم اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً" [كورنثوس١: ١٠/٢-٣]،

---

(١) انظر: نجيب، المعمودية بين المفهوم والممارسة، ص٣٧.
(٢) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٣٢.
(٣) المرجع السابق، ص٣٣.
(٤) المرجع السابق، ص٣٤-٣٥، وانظر: بيشوي، سلسلة تبسيط الإيمان (المعمودية)، ص٢٥.

ومن هنا فإن بعض المسيحيين يعدّون المعمودية والعشاء الرباني ليسا بسرين منفصلين بل هما حقيقة واحدة ذات عملين وذبيحة واحدة ذات فعلين، كما يربط المسيحيون بين المعمودية والتوبة مستدلين بما جاء في أعمال الرسل: "توبوا وليعتمد كل واحدٍ منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس" [أعمال الرسل: ٣٨/٢]، كما يربطون بين المعمودية وسر الكهنوت، حيث إن رجال الكهنوت لا بد أن يكونوا معمّدين، كما أن الذين يمارسون سر التعميد هم رجال الكهنوت، فالرباط بينهما رباط متبادل، كما يربط المسيحيون بين المعمودية وبين سر التثبيت (الميرون)، فبعد الانتهاء من التعميد يحتاج المعمَّد إلى تثبيت التعميد.(١)

٤- نظراً للأهمية الكبيرة والمكانة المرموقة التي تحتلها المعمودية في الفكر المسيحي وشدة الأمر بإقامتها وعدم التفريط بها والنتيجة السلبية والحرمان المترتب على عدم إقامتها رأى المسيحيون أن **من مقتضيات العدل الإلهي أن يكون الله قد أعلن عن أهمية المعمودية ومكانتها السامية قبل تجسّد المسيح**، ليكون ذلك الإعلان بمنزلة التمهيد للبشرية لقبول العمادة، من هنا فإن الله رَمَزَ إلى المعمودية في مواطن كثيرة من العهد القديم، ولقد تحدّث آباء الكنيسة عن هذه الرموز باستفاضة ليشرحوا معناها وكيف تحققت في العهد الجديد بالمعمودية، وتجنباً للاستطالة سأورد أهم هذه الرموز دون الخوض في دلالتها اللاهوتية العميقة على الطريقة التي يشرحها بها آباء الكنيسة، والإشارة الرمزية فيها عموماً تشير إلى هبة الحياة بعد الموت الحكمي أو بعد العدم السابق، وأهم هذه المواطن هي:

١- **الروح الذي كان يرف على وجه المياه** عندما خلق الله العالم بالكلمة، "وكانت الأرض خَرِبَة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه" [تكوين: ٢/١]، ويشير هذا الإعلان إلى بث روح الحياة في المادة بعد أن كانت عدماً.

٢- **قصة طوفان نوح** التي ورد سردها في سفر التكوين، كذلك يرى المسيحيون أن هذا الطوفان كان سبباً لإحياء الأرواح التي رافقت نوحاً في طوفانه، يقول بطرس: "كانت أناة الله تنتظر مرة في أيام نوح إذ كان الفلك يُبنى الذي فيه خلص قليلون أي ثماني أنفس بالماء، الذي مثاله يخلصنا نحن الآن أي المعمودية لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح" [بطرس١: ٢٠/٣-٢١].(٢)

٣- **عبور البحر الأحمر**، والذي احتلت حادثته جانباً كبيراً من كتابات آباء الكنيسة رمزاً لمعمودية العهد الجديد، "فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهم وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم، فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل وصار السحاب والظلام وأضاء الليل فلم يقترب هذا إلى ذاك كل الليل، ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر، فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر" [خروج: ١٩/١٤-٢٣، ٣٠].(٣)

فهم المسيحيون أن البحر الوارد ذكره في هذه الحادثة ما هو إلا رمز إلى ماء المعمودية، والسحابة إشارة إلى نعمة الروح القدس، وفرعون كان رمزاً إلى الشيطان الذي ينسحق في مياه

---

(١) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٢١٥-٢١٦، وشنودة الثالث، اللاهوت المقارن، ص٣٣.
(٢) انظر: بيشوي، سلسلة تبسيط الإيمان (المعمودية)، ص١٦.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٠.

المعمودية، وبناءً على هذا الفهم قال بولس: "لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا أن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة، وجميعهم اجتازوا في البحر وجميعهم اعتمدوا لموسى وفي البحر" [كورنثوس١: ١٠/١-٢]، ويقول القديس (أوريجانوس) معلقاً على كلام بولس: "انظروا كيف يختلف شرح بولس الرسول لعبر البحر الأحمر عن القراءة التاريخية، فالذي يعدّه اليهود عبوراً للبحر يدعوه بولس معمودية، والذين يعتقدون أنها سحابة يبرهن القديس بولس على أنه الروح القدس، وهو يود أن تفسّر هذه الحادثة بنفس المعنى الذي قصده الرب بقوله: (إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله)".(١)

٤- **عبور الأردن إلى أرض كنعان:** ورد في الإصحاح الرابع من سفر يشوع تفصيل هذا العبور، ومما جاء فيه: "فدعا يشوع الاثني عشر رجلاً الذين عينهم من بني إسرائيل رجلاً واحداً من كل سبط، وقال لهم يشوع اعبروا أمام تابوت الرب إلهكم إلى وسط الأردن وارفعوا كل رجل حجراً واحداً على كتفه حسب عدد أسباط بني إسرائيل، لكي تكون هذه علامة في وسطكم إذا سأل غداً بنوكم قائلين ما لكم وهذه الحجارة، تقولون لهم إن مياه الأردن قد انفلقت أمام تابوت عهد الرب عند عبوره الأردن انفلقت مياه الأردن فتكون هذه الحجارة تذكاراً لبني إسرائيل إلى الدهر" [يشوع: ٤/٤-٧].

وكان العلامة (أوريجانوس) أول من فسّر هذا العبور على أنه رمزٌ للمعمودية المسيحية، وكل من جاء بعده اقتبس منه لا سيما القديس (غريغوريوس النيصي) حيث قال: "إن الشعب العبراني كما نعلم بعد آلامٍ كثيرة وبعد أن أتموا رحلتهم الشاقة في البرية لم يدخلوا أرض الموعد إلا بعد أن صاروا تحت إرشاد وقيادة يشوع الذي عبر بهم إلى الأردن، ومن المعروف أن يشوع انتخب اثني عشر حجراً ووضعها في الأردن، لكنه كان ينبئ عن مجيء الاثني عشر رسولاً خدّام المعمودية".(٢)

٥- **نزول نعمان السرياني في مياه الأردن:** كان نعمان رئيس جيش ملك آرام رجلاً أبرص، فشُفي من برصه بعد أن نزل إلى مياه الأردن وغطس فيها سبع مرات حسب ما أمره النبي إليشع، ورد في الكتاب المقدس: "ولما سمع إليشع رجل الله أن ملك إسرائيل قد مزق ثيابه أرسل إلى الملك يقول لماذا مزقت ثيابك ليأتِ إليّ فيعلم أنه يوجد نبي في إسرائيل، فجاء نعمان بخيله ومركباته ووقف عند باب بيت إليشع، فأرسل إليه إليشع رسولاً يقول اذهب واغتسل سبع مرات في الأردن فيرجع لحمك إليك وتطهر، فنزل وغطس في الأردن سبع مرات حسب قول رجل الله فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر" [ملوك٢: ٥/٨-١٠، ١٤].

فهم المسيحيون من هذا الأمر أيضاً أنه تمهيد ورمز لأهمية المعمودية المسيحية، وإشارة إلى دورها في إحياء الأجساد كما الأرواح.

٦- **ذبيحة النبي إيلياء التي قدّمها وسط المياه فقبلت بنارٍ من السماء:** تروي هذه الحادثة تحدي النبي إيلياء لعبّاد البعل، حين تحداهم أن يقدموا قرباناً ويقدّم هو قرباناً أيضاً، والقربان الذي تأكله النار يدل على حقيقة المعبود، " ثم قال إيليا للشعب أنا بقيت نبياً للرب وحدي وأنبياء البعل أربعمئة وخمسون رجلاً، فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثوراً واحداً ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا ناراً وأنا أقرب الثور الآخر واجعله على الحطب ولكن لا أضع ناراً، ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا ادعو باسم الرب والإله الذي يجيب بنار فهو الله فأجاب جميع الشعب وقالوا الكلام حسن، فأخذوا الثور الذي أُعطي لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح

---

(١) انظر: المقاري، معمودية الماء والروح، ص٦٨، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٢٨.
(٢) انظر: المقاري، معمودية الماء والروح، ص٧١.

إلى الظهر قائلين يا بعل أجبنا فلم يكن صوت ولا مجيب وكانوا يرقصون حول المذبح الذي عمل .... ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال املؤوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب، ثم قال ثنوا فثنوا وقال ثلثوا فثلثوا، فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضاً ماء، وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبي تقدم وقال أيها الرب إله إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ليعلم اليوم أنك أنت الله في إسرائيل وإني أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور، استجبني يا رب استجبني ليعلم هذا الشعب إنك أنت الرب الإله وإنك أنت حولت قلوبهم رجوعاً، فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التي في القناة، فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا الرب هو الله الرب هو الله" [ملوك١: ١٨/٢٢-٢٤، ٣٣-٣٩].

ووجه الإشارة الرمزية إلى المعمودية في هذه الحادثة هي أن **الإجابة الإلهية لدعوة إيلياء بنزول نارٍ على القربان كانت بعد إسالة الماء على المحرق ثلاث مرات،** فتمت بعد ذلك الإجابة الإلهية، فدل ذلك على المعمودية من حيث نوال الحياة والنعمة الإلهية بعد إجرائها بالماء باسم الآب والابن والروح القدس.(١)

٧- **الختان**: لعل الختان في المسيحية يُعدّ أبرز الرموز التي تشير إلى المعمودية، ويتميز بكونه رمزاً شخصياً يمارسه الإنسان في ذاته علامةَ عهد لا تُمحى من جسده، وسمةً تميز الإنسان من غيره من البشر، فالختان في الاعتقاد المسيحي كان هو ختم العهد الذي صار بين الله وإبراهيم ونسله "وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك... هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر، فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم" [التكوين: ١٧/٧، ١٠-١١]، وطبقاً للتقليد الكتابي كان الختان ملزماً لكل ولد عبراني عندما يبلغ من العمر ثمانية أيام [تكوين: ٢١/٤].

ويشرح بولس الرسول في العهد الجديد مفهوم الختان علامةً بين الله والإنسان يهدم بها الختان رمزاً قديماً بطل في العهد الجديد عندما حلّت المعمودية محله، وذلك في حديثه إلى اليهود الذين قبلوا المسيحية وتعمّدوا لكنهم ظلوا يحفظون الختان بوضعه العتيق، فيقول لهم: "إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس أفما تُحسب غرلته ختاناً، وتكون الغرلة التي من الطبيعة وهي تكمل الناموس تدينك أنت الذي في الكتاب والختان تتعدى الناموس، لأن اليهودي في الظاهر ليس يهودياً، ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختاناً، بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي، وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان، الذي مدحه ليس من الناس بل من الله" [رومية: ٢/٢٦/٢٩].

ويلخّص بولس الرسول قوله السابق فيقول: "ليس الختان شيئاً وليست الغرلة شيئاً بل حفظ وصايا الله" [كورنثوس١: ٧/١٩]، ثم يضرب ضربته النهائية فيقول: "ها أنا بولس أقول لكم إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً .... لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبة" [غلاطية: ٥/٢، ٦].

وحسب تعليم بولس فإن **ختان المسيح الذي كمله في نفسه ليُكمّل عن البشرية كلّها حكمَ الناموس قد أبطل الختان كعهد قديم بين الله وشعبه،** إذ حل عهد جديد بينهما بالمعمودية، "وبه أيضاً - المسيح - ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد، بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح، مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات"

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٢٨.

[كولوسي: ٢/١١-١٢].[١]

مما يترتب على أهمية المعمودية مسألة كان لها صدىً واسعٌ في المجتمعات المسيحية كافةً؛ وذلك نتيجة الخلاف الشديد الذي دار حولها وزيادة الشرخ المسيحي الذي أدت إليه، وهي مسألة **معمودية الأطفال**.

تتوجه البشارة المسيحية إلى الناس كافة حتى يقدر كل منهم أن يؤمن بالثالوث (الآب والابن والروح القدس) وأن يدخل في الكنيسة إذا تاب، والإيمان والمعمودية يتطلبان وجود (الرشد) الذي يضمن **العلاقة الواعية** بسر المعمودية عند الدخول في الكنيسة، **والكنيسة تقبل فقط الذين أدركوا الغاية والمعنى من انضمامهم إليها**، وبناءً على هذه النتيجة فإن الأطفال يجب أن يُقبلوا فقط إذا بلغوا ذلك الرشد، فإذا لم يبلغوا ذلك فهل يصحّ تعميدهم؟ أم أن تعميدهم يكون تبعاً لرغبة ذويهم؟ ثم هل يجب إعادة هذه المعمودية حين بلوغهم الرشد المشار إليه؟.

ولقد اتسعت رقعة الخلاف كثيراً في هذه المسألة، وإذا أردنا النظر في تفصيل الأقوال الواردة في هذه المسألة فإننا سنخرج بنتيجة مفادها أن الخلاف في هذه المسألة موجود حتى على مستوى الفرقة الواحدة، ولكل طائفة الكثير من الأدلة التي يعتمدونها استدلالاً لوجوب معمودية الأطفال أو منعاً لها أو مطالبةً بإعادتها حين البلوغ، **وفي كل فرقة من الفرق المسيحية سنجد كلا التيارين المنادي بضرورة تعميد الأطفال والمستثني للأطفال من هذه المعمودية** ويقبل الأولاد في الكنيسة دون عماد، والراعي في هذه الحالة يقوم بصلاة معينة على الطفل طالباً بركة الرب عليه وقيادته بروحه إلى أن يتّخذ هو نفسه في يومٍ ما قرار العماد، أما الرأي الثالث المطالب بإعادة التعميد حين بلوغ الرشد فهي فرقة واحدة تسمى (الأنابابتيست) طالبت بمعمودية الطفل بدايةً وبضرورة إعادتها حين البلوغ، لكنها سرعان ما اتخذت شكلاً ثورياً مما أدى إلى محاربتها من قبل جميع الفرق المسيحية المعاصرة لها.[٢]

ثانياً: شروط المعمودية:

ومن منطلق أهمية المعمودية في المسيحية **رتّب المسيحيون شرطين على المعمَّد** يجب عليه أن يخضع لهما قبل التعميد هما **الإيمان والصوم.**

فالإيمان المقصود هو النابع من القلب، الذي هو في المسيحية أحد أعمال الله، فعندما سألت الجموع المسيح قائلة: ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟ أجاب قائلاً: "هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله" [يوحنا: ٦/٢٨-٢٩]، فالإيمان المقصود هو فعل وعمل إيجابي، وليس مفهوماً نظرياً، وهو فكر قلبي يفضي إلى فعل بحسب ما يؤمن به الإنسان، وهو وإن كان فكرة لكنه يبقى من جملة العمل.[٣]

وأما الصوم فتشير المراجع المسيحية إلى وجوبه على طالب العماد، أما عدد الأيام فهي محل خلافٍ بينهم، فالبعض يصوم يومين، والبعض يصوم يوم الجمعة السابق للتعميد، والبعض يصوم أسبوعاً كاملاً قبل الخضوع للتعميد، وهذا الخلاف محصور في عماد البالغين فقط، أما عماد الأطفال فلا صوم فيها.[٤]

---

(١) انظر: المقاري، معمودية الماء والروح، ص٧٧، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٢٩.

(٢) انظر: بندلي (كوستي)، مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص٢٦٠-٢٧٠، وسلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٣٥-٣٩، وبيشوي، سلسلة تبسيط الإيمان (المعمودية)، ص٩-١٣، والخضري، جون كالفن، ص٢٤٤.

(٣) انظر: المقاري، معمودية الماء والروح، ص٤٢.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٤٤-٤٥.

المطلب الثالث: الإجراءات الطقسية للمعمودية:

يتضمن طقس المعمودية الكثير من الإجراءات التي يقوم الكاهن ببعضها ويقوم المعمَّد ببعضها الآخر، ولهذه الإجراءات أهمية توجب إقامتها رغم الاختلاف بين الفرق المسيحية في إقامتها وكيفيتها، وأهم خطوات المعمودية هو التغطيس بالماء، ورغم كون التغطيس أهم طقس فيها فهو مع ذلك محل خلاف بين الفرق.

أولاً: زمان المعمودية ومكانها:

يعتقد المسيحيون **أن للمعمودية في زمن الرسل ثلاثة مواسم هي عيد الفصح وعيد العنصرة وعيد الظهور الإلهي**، وحافظت الكنائس القديمة على هذه المواسم الثلاثة للتعميد مع بقاء ليلة القيامة هي أكثر هذه المناسبات شهرة في إجراء التعميد كونها الليلة الفاصلة بين حدثين عظيمين هما دفن المسيح في القبر وقيامته منتصراً على الموت بعد ثلاثة أيام، من هنا جاءت فكرة الغطس في المياه ثلاث مرات، وخروج المعمّد من الماء ثلاث مرات.(١)

أما بالنسبة لمكان إجراء المعمودية فمن المعلوم لدى المسيحيين أن المسيح اعتمد في مياه الأردن، وبولس الرسول عمّد سجان فيلبي في بيته، ويقول (ترتليان): "ليس فرق سواء اعتمد الإنسان في البحر أم في بحيرة أم في نهر؛ لأن الروح الواحد هو نفسه يقدّس الماء في كل مكان".(٢)

ثم بعد ذلك انحصرت مراسيم المعمودية داخل الكنيسة بعد انقضاء زمن الاضطهاد، وبعد أن بُنيت الكنائس في أرجاء المعمورة، فصار للمعمودية حجرة مخصصة لإجرائها يوجد بها جرن المعمودية، وكانت في البداية غير ملحقة بمبنى الكنيسة ثم ضُمت إليه، ويُدعى جرن المعمودية في الكنائس بـ (الأردن) وهو الاسم التقليدي الطقسي له.

ثانياً: قسم المعمودية المنظور:

القسم المنظور من المعمودية **يقوم على تغطيس المعمّد في الماء ثلاث مرات، مع تلاوة هذه العبارة: (يُعمَّد عبد الله فلان بن فلان باسم الآب والابن والروح القدس)**، فإذاً قوام هذه العملية هو أولاً مادة السر أو جوهره وهي الماء، ثانياً تتميم السر أي التغطيس للمتعمَّد وإعادة ذلك التغطيس ثلاث مرات، ثالثاً الكلمات الملفوظة في السر.(٣)

ومما يُشار إليه في هذا المقام **الخلاف الكبير الذي حصل بين الكنائس الكاثوليك والبروتستانت من ناحية والأرثوذكس من ناحية ثانية في مسألة نضح الماء وسكبه على المعمَّد بالرش دون التغطيس**، فقد اتخذ الكاثوليك والبروتستانت هذه الوسيلة واستعاضوا بها عن تغطيس المعمَّد بالماء، فصار الماء يُرشُّ على جبهة المعمّد إشارة إلى تعميده وتسليمه هذا السر دون غطسه بالماء ثلاثاً، في حين أن الأرثوذكس رأوا في هذه الطريقة ابتداعاً وخروجاً عن نهج المسيح، مستدلين بأن المسيح ويوحنا المعمدان والرسل جميعاً وآباء الكنيسة كلهم مارسوا التعميد بهذه الطريقة (التغطيس)، كما أن مدلول المعمودية الرمزي وكذلك الرموز المشيرة لها في الكتاب المقدس وكذلك جذر كلمة المعمودية اليوناني كل ذلك يشير إلى وجوب التغطيس في التعميد.

فمن هنا اشترط الأرثوذكس التغطيس في التعميد، ولا تحصل الفائدة الروحية المرجوة من

---

(١) انظر: كسّاب، مجموعة الشرع الكنسي، ص٢٣١.
(٢) المقاري، معمودية الماء والروح، ص١٣٢.
(٣) انظر: مسره، الأنوار في الأسرار، ص٢٦.

المعمودية إلا بالتغطيس، ولا يُقبل الرش إلا في حالات الضرورة المَرَضية.[١]

ثالثاً: شروط إجراء المعمودية:

قبل إجراء طقس المعمودية **تشترط الكنيسة في المعمَّد شروطاً هي**:

١- **الإيمان بيسوع المسيح والتأهب الجيد لقبول المعمودية** خلال مدة تحددها الكنيسة.
٢- **أن يعترف الإنسان بإيمانه** ويقر به علناً في بداية إجراء الطقس.
٣- **أن يتوب المعمَّد** البالغ عن خطاياه.
٤- **أن يرفض الشيطان** ويعلن جحوده له.
٥- **أن يتم إجراء طقس المعمودية على يد كاهن**.[٢]

رابعاً: الإجراءات الطقسية العامة للتعميد:

سأعرض هنا الهيكل العام للتعميد في الكنائس، مع ضرورة الإشارة إلى أن تفاصيل الإجراءات الطقسية للمعمودية تختلف من كنيسة إلى أخرى.

في بداية الأمر **يقوم الكاهن المخصص لإجراء المعمودية في الكنيسة بتبريك الماء المخصص للمعمودية**، ويتلو الترتيل الآتي الخاص بتبريك المياه:

"بقوتك غير المنظورة يا رب تصنع العجائب في أسرارك، وطوال تاريخ الخلاص استعملت الماء خليقتك، لتُفهمنا نعمة العماد .... يا رب انظر بحب إلى كنيستك وفجّر فيها نبع العماد، وبهذه المياه فليعط الروح القدس نعمة المسيح، لكي يغتسل الإنسان المخلوق على صورتك من الأدناس التي تشوه هذه الصورة .... نسألك يا رب بنعمة ابنك أن تأتي قوة الروح القدس على هذه المياه. آمين".[٣]

وأما تتميم السر وإكماله فيكون على النحو الآتي:

يبدأ الكاهن بالصلاة والدعاء ثم تتم قراءة الأواشي الخاصة بطقس المعمودية، وبعد ذلك تقرأ أجزاء من المزامير، ثم ينفخ الكاهن في الماء ثلاث مرات على مثال الصليب، وفي كل مرة يقول: (قدّس هذا الماء) بعد ذلك يرشمه أيضاً بمثال الصليب، وفي نهاية الرشم الثالث يخاطب الشماس الشعب قائلاً: (صلوا من أجل السلامة)، ثم يصلي قدّاس المعمودية ويختمه بالصلاة الربانية ثم التحاليل الثلاث، ثم يسكب الكاهن على ماء المعمودية من دهن المسحة (الميرون) ثلاث نقاط ويتلو بعضاً من سفر المزامير، بعد ذلك يأخذ الكاهن الطفل من الشماس وينزع عنه ثيابه، ويغطسه في الماء.[٤]

وبعد الانتهاء من عملية التغطيس يتم تلقين المعمَّد مبادئ الدين المسيحي، ويتلو الكاهن عليه أصول الدين المسيحي، فيأمره بالاعتقاد بالثالوث المقدس، وأن المعمودية التي أجراها هي باب الدخول إلى الجنة، وأن المسيح هو المتجسد الملتحم في بطن العذراء لفداء البشر وخلاصهم من خطاياهم، وأنه صُلب وقام من بين الأموات، وصعد إلى السماء، وسوف يعود إلى العالم آخر الزمان ليُدين الخلائق.[٥]

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٤٢-٤٦، وشنودة، اللاهوت المقارن، ص٢٩، ومسره، الأنوار في الأسرار، ص٢٧-٣٠.
(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١٠/٢، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٤٤.
(٣) درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٢٢٢-٢٢٣.
(٤) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة، ٣٥/٢-٦٠، ومسره، الأنوار في الأسرار، ص٢٢-٣٢،
(٥) درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٢٢٤-٢٢٥.

المطلب الرابع: القيم والمعاني الروحية لسر المعمودية:

يعتقد المسيحيون أن أحد أهم المشاكل في الوجود الإنساني هي **خضوع الإنسان لما يحس به من مشاعر ورغبات** في كيانه البيولوجي مما يجعل الطبيعة البشرية تظهر وكأنها موجودة قبل وجود الشخص وأن هذه الطبيعة هي التي تملي مطالبها على الإنسان في شكل ما نُسمّيه غرائز، ويعتقد المسيحيون أن خضوع الإنسان لهذه الطبيعة وتلك الرغبات يقضي على الحرية التي هي أساس الوجود البشري، ومما لا شك فيه أن هذه الرغبات نابعة من حقيقة مخلوقية الإنسان، وهي الحقيقة التي تفرض على الإنسان أن يواجه ضرورات الوجود والحياة، لكن ذلك سيؤدي إلى عجز الكيان البيولوجي عن مواجهة (القوانين الطبيعية) الخاصة بالوجود البيولوجي نفسه.

من هنا يعتقد المسيحيون أن **الإنسان بحاجة إلى تغيير جذري** يجعله كائناً وشخصاً دون أن يقع تحت تأثير وحتمية الضرورات البيولوجية التي يجعلها الإنسان محدود النظر قوام الحياة الإنسانية، وكيف يمكن أن يحصل هذا التغيير إذا ظل الإنسان في دائرة المخلوقية؟

من هنا تأتي ضرورة أن يولد الإنسان من الله نفسه بالمعنى الذي ذكره الإنجيل "من فوق" أو "من جديد" [يوحنا: ٣/٣، ٧]، أي يولد من جديد بالمعمودية، فالمعمودية تعطي هذا الكيان الجديد الذي يولد من فوق من الله لكي تكون الحياة الجديدة لكل شخص متأقنمة على أساس غير مخلوق أي على أساس الميلاد الجديد.(١)

ولقد تبين في المطالب السابقة المكانة المرموقة التي تحظى بها المعمودية في الفكر المسيحي، وبناءً على تلك المكانة يرتب المسيحيون على المعمودية الكثير من الفوائد الروحية التي ينالها المعمَّد من جرّاء عماده، لا سيما إذا تذكرنا أن المعمودية هي سر من الأسرار، والأسرار لها فاعلية هي محل إجماع عند المسيحيين، وهي النعمة غير المنظورة التي ينالها المؤمن من خلال إقامته للشعيرة بمادتها المنظورة، وهذا يحصل في الفترة التي فيها يُشاهَد الموعوظ بالإيمان المقدس غاطساً في مياه المعمودية وخادم السر ينطق كلمات التعميد، فتفعل النعمة الإلهية فعلاً غير منظور في طبيعة المعمَّد.

ومن أهم النتائج الروحية المترتبة على المعمودية ما يلي:

١- المعمودية تعيد الولادة الثانية وتجدد خلقة الإنسان روحياً
٢- التبرير وغفران الخطايا
٣- منح الإنسان نعمة التبني
٤- العتق من الخطيئة
٥- المعمودية هي موت مع المسيح وقيامة معه
٦- المعمودية انضمام لعضوية الكنيسة.(٢)

تعقيب على سر المعمودية:

إن الحديث عن المعمودية في المسيحية وما تتضمنه هذه الشعيرة من معانٍ روحية وفوائد وثمرات غير منظورة لهو شديد الأهمية، وذلك نظراً لمكانة المعمودية في الفكر المسيحي وأهميتها الاعتقادية من ناحية، ونظراً لكثرة الاهتمام العقائدي الذي حظيت به والكتابات

---

(١) انظر: زيزيولاس، الوجود شركة، ص٩٢-٩٤.
(٢) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٤٨-٥٠، وجبار (يوسف)، أسرار مقدسة، ص٣٣-٣٥، والمسكين، المعمودية، ص٥٦-٦٧، ونجم، المعمودية والإفخارستيا والكهنوت، ص٢٥.

اللاهوتية التي أحاطت بها، مما جعلها الشعيرة الثانية في الاهتمام المسيحي، وعند بعض الباحثين تنال المعمودية الدرجة الأولى في الاهتمام المسيحي كونها البوابة الرئيسة للدخول إلى المسيحية.

ومن الجدير بالذكر هنا أنه رغم الأهمية الكبيرة والمكانة المرموقة التي حظيت بها شعيرة المعمودية إلا أن الكثير من الخلافات دارت حولها، فالمكانة المرموقة لها لم تجعلها محل اتفاق بين الفرق والطوائف المسيحية.

أولاً: الجذور الوثنية للمعمودية:

تنطبق على المعمودية القاعدة العامة في الشعائر والطقوس المسيحية وهي صفة الطابع الوثني الذي تنحدر منه أغلب الطقوس التي تجري في المعمودية، والناظر فيما كُتب عن الطقوس الوثنية القديمة والوصف التحليلي لها يجد تطابقاً كبيراً بينها وبين المعمودية المسيحية بما لا يدع مجالاً للشك باستقاء المسيحية لهذه الشعيرة من الوثنيات القديمة.

وهذا الأمر لا ينكره المسيحيون، بل يقرونه، ويعدّون **وجود المعمودية في الأديان القديمة نوعاً من التقليد البشري للنفوس التي تطلب الطهر والنقاء،** حتى أن بعض الكتاب المسيحيين يعدّون الوضوء في الإسلام نوعاً من المعمودية؛ باعتبار أنه يتضمن اغتسالاً وتهيئة للصلاة.(١)

وكذلك فإن وعيَ الأقوال المسيحية التي تبرر استعمال الأمم الوثنية للماء في طقوسها، وتبرر كذلك رمزية الماء وأهميتها في ديانات الشرق القديمة تشير إلى أن **أهمية الماء عندهم لا تقتصر على نوال الطهارة** بل تشير إلى **كونه مصدراً للحياة والموت،** بمعنى أن الماء مزدوج المعنى ملتبسه، لأن الماء عندهم كان مصدراً للخوف أيضاً، فالبحر مريع، ويدل على الغرق، والماء محيط الخطيئة، ومحيط الشر(٢)، ف نشأت الكثير من الأساطير التي تدل على قتل الوحوش الأسطورية في الماء انطلاقاً من هذه الدلالة، فالرمز الأقوى والأجدر بالرسوخ في الفكر البشري هو كون الماء مصدر الحياة والموت، ويؤيد هذا المذهب قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء: ٣٠]

ويضيق بنا المقام إذا أردنا سرد طقوس التعميد كافةً عند جميع الأمم التي تقوم به، إنما نمرّ عليها مروراً سريعاً حسب ما يقتضي التوثيق التاريخي للبحث.

وبنظرة عامة إلى طقوس الأمم الوثنية فيما يخص مسألة التعميد سنجد أن **التعميد لديهم موافق للمسيحية في الكثير من الحيثيات،** فالمحور العام للمعمودية المسيحية هو تغطيس المعمَّد في المياه وإطلاق اسم أحد القديسين له ليكون شفيعاً ومثلاً له يحتذيه طوال حياته.

أما بالنسبة للأمم الوثنية فإن التعميد فيها على قسمين: تعميد الأطفال الصغار وتعميد الكبار، فعندما يعمدون الأطفال في الهند والتيبيت ومنغوليا فإنهم يوقدون الشموع ويحرقون البخور على المذابح ويقرأ الكهنة صلوات مخصوصة، وبعد ذلك يُغطسون المعمَّد في الماء ثلاث مرات، ثم يدعونه بالاسم الذي يريدون.(٣)

والهنود البراهمة يقومون كذلك بتعميد أولادهم، وحين يجرون التعميد يأخذ الكاهن الطفل فيلطخه بالوحل، ثم يغمسه بالماء ثلاث مرات، وعند غمسه في كل مرة يقول الكاهن: (يا أيها الرب العظيم إن هذا الطفل خاطئ، تلطخ بالخطيئة كتلطخه من وحل هذه القناة، فكما أن الماء ينظفه من الوحل طهره وخلصه من الخطيئة)، ثم يُعاهدون المعمد على الطاعة التامة للكهنة،

---

(١) انظر: بندلي، مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص٢٥٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٥٣.

(٣) انظر: التنير، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، ص١٧٩، والعاملي، الكتاب المقدس في الميزان، ص٣٧٧

وإذا كان كبيراً يضيفون أن يعاهدوه على حفظ أسرار الديانة.[١]

وكذلك **البوذيون** يعمدون أولادهم ويدعون أن بوذا تعمد بالماء المقدس، وفي أثناء تعميده كانت روح الله حاضرة، وكذلك روح القدس[٢]، وأتباع **(زوستر)** الإله الفارسي وكذلك المصريون يعمدون أولادهم صغاراً وكبار، ويقومون بنفس المراسم التي يقوم بها الهنود، ويُلبسون الشخص إكليلاً خاصاً، ويرسمون على جبينه صليباً[٣]، **والرومان القدماء** كانت العمادة عندهم في اليوم التاسع لولادة الذكر بالنسبة للمولود والثامن للأنثى، وبعد العمادة يعطي الكاهن للأبوين ورقة شهادة على أن ولدهما عُمِّد وخُلق ثانية، وبعد ذلك يعدونه من العائلة، ويتخذ المولود من هذا اليوم عيداً له.[٤]

وعند أتباع **(كوتز الكوتل)**، من المكسيكيين يدعى الأقارب والأصدقاء إلى بيت والد الطفل، ويقيمون الاحتفال بالعمادة التي يعدّونها الولادة الثانية[٥]، وفي **البرازيل** كان الأولاد من الذكور والإناث يعمَّدون في الهيكل المسمَّى (هيكل الصليب) وذلك بصب الماء من إبريق، ويسمون ماء العمادة (ماء الولادة الثانية).[٦]

أما **الأمم القديمة الأخرى غير الوثنية** فكذلك **توجد فيها طقوس التعميد بما يشابه ما هو موجود في المسيحية**، فعند **الصابئة** مثلاً إذا مرت على المولود خمسة وأربعون يوماً وجب أن يُعمَّد بعماد الولادة حتى يصبح طاهراً من دنس الولادة، حيث تذهب به أمه إلى أحد الكهنة، فينطلق بها إلى ساحل النهر، وبعد أداء بعض التراتيل الخاصة بهم يغترف الكاهن بعض حفنات من المياه ويصبها على الطفل قائلاً: "أعمّدك باسم الثلاثة الله ومندايس ويحيى، أعمّدك معمودية بهرام العظيم ابن روربي لتكون معموديتك حارسة لك ورافعة إياك إلى العلا"[٧]، ومن الجدير بالذكر أن الصابئة المندائيون في العراق ما زالوا يحافظون على هذا الطقس ويقيمونه على الطريقة التي سبق ذكرها.

فمما سبق **يتضح الأثر الوثني في المعمودية وطقوسها**، ومن البدهي أن الوثنيات متقدمة على المسيحية بقرون عديدة، فإذا وجدنا لديهم هذه الطقوس ثم وجدنا ما يوافقها في المسيحية ندرك حينها أن المسيحية استعارت هذه الطقوس من الوثنية، وربما يكون وجود هذا الطقس في المسيحية **نوعاً من التأثير البولسي** في المسيحية، لا سيما إذا صح كلام المؤرخين عن بولس بوصفه **شخصية ذات علم وخبرة بالديانات الوثنية وطقوسها**.

ثانياً: فوضى النصوص المسيحية المشيرة إلى العماد:

وردت في الكتاب المقدس الكثير من النصوص التي تشير إلى عماد المسيح وعماد يوحنا، وعماد التلاميذ، وهذه النصوص بمجملها تشير إلى حدوث عملية التعميد في أيام المسيح وعلى

---

(١) انظر: التنير، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، ص١٧٩، والعاملي، الكتاب المقدس في الميزان، ص٣٧٧، وعمران، العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية، ص١٨٣

(٢) انظر: الطهطاوي، النصرانية والإسلام، ص١٠٤، وزهران، إنجيل يوحنا في الميزان، ص٢٩٠

(٣) انظر: التنير، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، ص١٨٠، والعاملي، الكتاب المقدس في الميزان، ص ٣٧٨، وعمران، العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية، ص١٨٣

(٤) انظر: التنير، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، ص١٨٠، والعاملي، الكتاب المقدس في الميزان، ص٣٧٨، وعمران، العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية، ص١٨٤

(٥) انظر: التنير، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، ص١٨١، والعاملي، الكتاب المقدس في الميزان، ص٣٧٨، وعمران، العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية، ص١٨٤

(٦) انظر: التنير، العقاد الوثنية في الديانة النصرانية، ص١٨١، والعاملي، الكتاب المقدس في الميزان، ص٣٧٨، وعمران، العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية، ص١٨٤

(٧) الحسيني (عبد الرزاق)، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ص١٢١.

يديه، وتبقى **وظيفة هذه الدلالة أن ترسم الهيكلة العامة للمعمودية المسيحية**، أما أثناء تحليل هذه النصوص فإن **الكثير من المعطيات التاريخية والتحليلية ستختلف**.

فالمسيحيون يؤمنون أن المعمودية **تأسست في يوم العنصرة**، وهو اليوم الذي أعطى المسيح فيه الأمر للتلاميذ أن يبشروا بالمسيحية ويعمّدوا الأمم باسم الآب والابن والروح القدس، فهم يؤمنون أن معمودية التوبة والغفران والتبرير من الخطيئة إنما تأسست في هذا اليوم، ومع ذلك فقد كان المسيح قبل ذلك يعمّد الناس، وكان يوحنا المعمدان أيضاً يُجري العمادة للكثير من الناس.

فإذا اعتبرنا أن **معمودية يوحنا إنما كانت للتوبة من المعاصي لا أكثر**، وأن المسيح اعتمد على يد يوحنا رغم كونه غنياً عن هذا التعميد، **وأن المسيح أسس بعد ذلك المعمودية الحقيقية** التي تبرر الإنسان من الخطيئة، وكان يُعمّد الناس بها، **فكيف يستقيم أن يكون أسسها بعد قيامته في يوم العنصرة؟**

- جاء في إنجيل يوحنا: "بعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية ومكث معهم هناك وكان يعمد، وكان يوحنا أيضاً يعمد في عين نون بقرب ساليم لأنه كان هناك مياه كثيرة وكانوا يأتون ويعتمدون" [يوحنا: ٣/٢٢-٢٣].
- وورد أيضاً: "وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير، فجاؤوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت قد شهدت له هو يعمد والجميع يأتون إليه" [يوحنا: ٣/٢٥-٢٦]

النصان السابقان يفيدان أن المسيح كان يقيم العمادة ويُجريها على يديه، فهل هذه المعمودية من النوع الأول (عماد يوحنا) الذي ما كان إلا للتوبة ومغفرة الذنوب لا غير؟ أم أنها من النوع الثاني الخاص بالمسيح والذي كان للتبرير والخلاص من الخطيئة الذي لم يكن مؤسساً بعد؟

الإجابة المسيحية عن هذا السؤال أنها كانت من النوع الثاني بلا شك، وكيف يستقيم أن تكون من هذا النوع الذي لم يؤسسه المسيح بعد؟

وهناك التباس آخر بين النصوص التي تضمنت أن المسيح كان يعمّد الناس، كنص يوحنا: "بعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية ومكث معهم هناك وكان يعمد" [يوحنا: ٣/٢٢] وغيره من النصوص التي أشارت إلى أن المسيح كان يعمّد، وبين قضية تمجيد المسيح، أو حيازة المسيح للمجد في الفكر المسيحي.

جاء في إنجيل يوحنا: "وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحدٌ فليقبل إلي ويشرب، من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماءٍ حي، قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّدَ بعد" [يوحنا: ٧/٣٧-٣٩].

والالتباس هنا هو في تصور المسيح فارغاً من الروح القدس (التمجيد) لحظة واحدة، وأنه كان في يوم من الأيام غير ممجد وهو الذي يعطي المجد.

ومما يستدل به المسيحيون على أهمية المعمودية قول يوحنا المعمدان: "ولكن يأتي بعدي من هو أقوى مني" على أن المقصود بذلك هو المسيح.

لكن دلالة هذا النص على المسيح غير واضحة، بل **ربما تنصرف إلى غير المسيح من باب أولى، لأن التعبير بالبعدية لا تفيد الدلالة على المعاصر**، فالمسيح عليه السلام كان معاصراً ليوحنا المعمدان، بل تشير حتماً إلى القادم في المستقبل، لا إلى المعروف القريب الذي كان – المسيح – يعمّد بنفس طريقة يوحنا وقتئذٍ وفي أيامه بالذات.

ومما يؤيد هذا الأمر أن **يوحنا المعمدان طلب من الشعب الاستعداد لمجيء المسيح - المعاصر له – باستعدادات وأوامر تحتاج سنين طوال من الاستعداد، وهذا أيضاً يشير إلى صعوبة كون المسيح مقصوداً بكلام يوحنا االمعمدان،** "أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة، كل واد يمتلئ وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقاً سهلة، ويبصر كل بشر خلاص الله" [لوقا: ٣/٤-٦].

وبالرجوع إلى النصوص الخاصة التعميد سيتبين لنا التناقض الذي تحمله في طياتها، فإنجيل متّى يذكر أن المسيح ذهب إلى يوحنا وطلب منه أن يعمده، ولكن يوحنا طلب أن يعمَّد من المسيح، وفي نفس الإنجيل يخبر متى أن يوحنا لم يعرف المسيح، فيقول: "أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر، فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران" [متى: ١١/٢-٤].

يتضح من قول متى أن **يوحنا لم ير المسيح قبل ذلك** ولا عرف عنه شيئاً رغم ما سرده عن تعميد يوحنا للمسيح في الإصحاح الثالث، ويذكر يوحنا في إنجيله أن يوحنا المعمدان قد رأى المسيح قبل ذلك وعرفه [يوحنا: ١/٢٢].

ثالثاً: غاية المسيحية من تشريع المعمودية (عالمية الرسالة):

من المعلوم أن المسيحية ديانة خاصة ببني إسرائيل، فقد أقرّ السيد المسيح أنه **ما أُرسل إلا لبني إسرائيل الضالة،** ومن هنا كانت الديانة المسيحية محدودة المكان، فهي مقصورة على بني إسرائيل لا غير، لكن هذه الحقيقة **لم تعد تُناسب طموح أتباع المسيحية،** لا سيما من الأمم الوثنية التي اعتنقت المسيحية، أو مَن تأثر بالوثنية والفلسفات القديمة، فقد أصبح هؤلاء ينشدون العالمية والانتشار، وطبّقوا هذه الرغبة الدخيلة على المسيحية التي اعتنقوها.

حاول هؤلاء المعتنقون أن يلتمسوا في الكتاب المقدس أصلاً لهذه الدعوة، ومبرراً كتابياً لها من كلام السيد المسيح، فكان الإعلانات الثلاثة الوارد في أناجيل مرقس ومتى ولوقا جاهزة لهذه المهمة.

- ورد في إنجيل مرقس: "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها" [مرقس: ١٦/١٥].
- وجاء في متى: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" [متى: ١٩/٢٨].
- وجاء في لوقا: "وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم" [لوقا: ٤٧/٢٤].

كانت هذه الإعلانات الثلاثة بمنزلة **سلاحٍ مهم لتأكيد عالمية الرسالة المسيحية،** رغم اعتراف المسيح الواضح بمحدودية رسالته.

والحقيقة أن هذه الإعلانات متفاوتة في أهميتها في الفكر المسيحي، ويُعدّ الإعلان الوارد في متى أهم هذه الإعلانات وأعظمها شأناً، وهو الحجة التي تشتهر على ألسنة المسيحيين في أصقاع العالم كافةً مستدلين به على عالمية المسيحية.

والسبب وراء الإصرار على هذا الإعلان خاصة من بين الإعلانات الثلاثة هو أن إعلان متى يتضمّن قيمة إضافية لا يحتويها الإعلانان الآخران، وهو محور الحديث عن المعمودية وأهميتها في المسيحية، وهو أن هذا الإعلان **ربط بين عالمية المسيحية وبين أهمية إجراء المعمودية.**

فصارت عالمية الرسالة المسيحية مرتبطة بدعوى عالمية التعميد والأمر به، بهذا الاعتبار

ركّز المسيحيون على هذا الإعلان، وأعطوه الاهتمام الأكبر من بين سائر ما يدل على عالمية المسيحية.

والحقيقة **أن أول مَن تنبه إلى ضرورة تحويل المسيحية من دين عرقي إقليمي إلى عالمي هو بولس، صاحب الأثر الأكبر في تاريخ المسيحية**، ومن أهم ما يتميز به بولس قدرته بأساليبه الكثيرة على تحويل المبادئ الفكرية النظرية إلى سلوك عملي ذي ثمرة حسية.

وهذا الأمر المشار إليه مؤخراً هو بالضبط ما فعله بولس، فقد أراد أن يُخرج المسيحية عن صفتها الإقليمية حتى تكون قابلة لدخول الوثنيين واليهود من غير بني إسرائيل إليها.

ولقد قام بولس في سبيل هذه الغاية بكتابة الرسائل الأربع عشرة المعروفة المتممة للكتاب المقدس، وقام بمراسلة المدن والأقاليم البعيدة لا سيما الوثنية منها داعياً لها لاعتناق المسيحية ومبشراً بها.

ولقد ورد في الكتاب المقدّس أن **بولس كان على خلاف مع الحواريين** من أصحاب السيد المسيح، وكان خلافه معهم راجعاً لأسباب أهمها **تزويره وافتراؤه على المسيح**، وكان (بطرس) زعيم الحواريين ورئيسهم من أكثر أصحاب المسيح غيرة على دينه وشخصه، فمن هنا فقد كان على خلاف كبير مع بولس، وربما تكون مسألة عالمية المسيحية التي دعا إليها بولس أحد أهم محاور الخلاف بين بولس والحواريين.

ومما سبق نستنتج أنه يمكن فعلاً أن يُقال بأن **بولس الرسول هو صاحب فكرة عالمية الرسالة** ومؤسسها في المسيحية ليتيح المجال للوثنيين واليهود من غير بني إسرائيل الدخول في الديانة واعتناقها ومتابعة مسيرة التغيير والتزوير.

وأعود هنا إلى الإعلانات الثلاثة التي استند إليها المسيحيون للاستدلال على عالمية الرسالة المسيحية، ولعل هذه النصوص جميعاً لا تصلح أن تكون دليلاً مطمئناً للقول بهذه البدعة التي تمثّل خروجاً عن هدي المسيح وكلامه.

ولعل الحق في الكلام عن هذه الإعلانات الثلاثة أنها لا تصح نسبتها للسيد المسيح، وبيان ذلك أن **النص الأول**، "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها" [مرقس: ١٦/١٥]، هذا النص **لم يكن موجوداً في النسخة القياسية للكتاب المقدس**، ينقل الأستاذ (أحمد عبد الوهاب) في كتابه (حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر) قولَ (نينهام Nineham) عن إنجيل مرقس: "إن نهاية هذا الإنجيل غير متفق عليه في النسخ المختلفة، إذ إن الصحاح (١٦) من إنجيل مرقس يحتوي على (٢٠) عدداً، لكن الأعداد من (٩) إلى (٢٠) بالرغم من ظهورها في أغلب المخطوطات الموجودة إلى الآن من إنجيل مرقس إلا أن النسخة القياسية المراجعة للكتاب المقدس كانت على صواب تام في معاملتها لهذه الأعداد من (٩) إلى (٢٠) على أنها غير شرعية، ولذلك نقلتها من الأصل إلى الهامش، إن هذه الفقرة لا يمكن تحديد تاريخها الزمني بالضبط، ولكنها قُبلت جزءاً من إنجيل مرقس حوالي عام ١٨٠م، كما أن مؤلفها غير معروف البتة".(١)

وإذا صح هذا الكلام فإن إنجيل مرقس ينتهي عند الإصحاح الثامن منه، وعلى ذلك يكون النص المشار إليه من الجزء الدخيل، ومما يُشار إليه هنا أيضاً أن **كلاً من متى ولوقا قد اعتمد إنجيل (مرقس) أساساً ومادة أولية لهما، ومن هنا فإن ما جاء في أواخر هذين الإنجيلين من كلام عن عموم البشارة بالمسيحية هو كلام لا يصح؛ لاستناده إلى قسمٍ دخيل في إنجيل**

---

(١) عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص١٧، نقلاً عن كتاب:
D.E. Nineham ،Saint Mark ،p٤٤٩ – ٤٥٠.

(مرقس).

أما **النص الوارد في إنجيل متى** "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" [متى: ١٩/٢٨]، **فهو النص الأهم** في هذا المقام كونه يأمر بإجراء المعمودية إلى جانب تلمذة الأمم، وهو ما يجعل من المعمودية الباب الرئيس للدخول إلى المسيحية، وهذا الأمر ما تزال المسيحية تنادي به إلى يومنا هذا، وتجعل من المعمودية فرضاً من أهم الفرائض المسيحية بناءً على اقتران أمر السيد المسيح لتلاميذه بدعوة العالم بأكمله إلى المسيحية والأمر بتعميدهم.

لكن عند التمعّن في هذا الإعلان نجد أنه **منسوب إلى المسيح بعد قيامته حسب الرواية المسيحية**، أي أن المسيح لم يتكلّم بها أثناء حياته، ولم يسمعها منه أحد حوارييه حال كونه حياً، "لذلك فهي إن زُعم صدورها منه بعد القتل والصلب فتكون من قبيل الرؤى والأحلام أو الأوهام مما يدعو إلى الشك وعدم الاطمئنان كلية على تلك العبارات المنسوب صدورها إلى المسيح".(١)

ويقول (**عبد الأحد داود**)(٢): "إن تلك العبارات جُمل إلحاقية يجب طيّها، بمعنى أنها لم تكن في النسخ القديمة لهذا الإنجيل"(٣)، مما سبق يتبين ضعف الاستدلال بهذا الإعلان الذي يبني عليه المسيحيون أهمية المعمودية.

رابعاً: الخلافات حول المعمودية:

رغم الأهمية الكبيرة التي نالتها المعمودية في الفكر المسيحي إلا أن ذلك **لم يمنع أن تحصل حولها الكثير من الخلافات**، ومن شأن هذه الخلافات أن **تُضعف أهمية المعمودية في المسيحية**، وعليه فهي **تشكك في كثير من الأمور التي يعتقدها المسيحيون فيما يتعلق بالمعمودية**، وذلك **إضافة إلى الشك الحاصل في أساس تشريع المعمودية** والذي تقدّم الكلام عنه في الفرع الثالث السابق.

ويطول الكلام إذا أردنا تفصيل الحديث عن هذه الخلافات؛ إذ لكل فرقة رأي في هذه المحاور الخلافية وأدلة يعتمدها كل طرف في إثبات رأيه وتخطئة الطرف الآخر، ونستطيع أن نوجز هذه الخلافات في النقاط التالية:

١ـ **أهمية المعمودية وفاعليتها:** المعمودية حسب التعليم **الكاثوليكي والأرثوذكسي هي الوسيلة الأولى للخلاص**، وبها يحصل التطهير من الخطيئة ثم نوال التبرير، وكذلك فيها يحصل التجديد وهو الميلاد الثاني، وأخيراً تُنال بها العضوية في جسد المسيح، أما **البروتستانت** فلهم في المعمودية تعليم مختلف، فنوال الخلاص والتطهير والتبرير والتجديد والعضوية في جسد المسيح كل هذه المعاني لا علاقة لها بالمعمودية، إنما تُنال هذه النِعم بمجرد الإيمان بالمسيح، أما المعمودية **فهي مجرد علامة على المسيحية**، بمعنى الدخول في الديانة، **وهي كذلك طاعة وامتثال لأمر المسيح** الذي أمر بإجرائها وإقامتها، وسبب لتحصيل المغفرة لبعض الذنوب دون الخطيئة الموروثة.

وبناءً على ذلك فقد **فرّغ البروتستانت المعمودية من محتواها الروحي** الذي أشار إليه

---

(١) الطهطاوي، النصرانية والإسلام، ٢٩٧.

(٢) ولد عبد الأحد داود في مدينة (أرومية) في إيران سنة ١٨٦٧، وكان اسمه ديفيد بنجامين، وكان أستاذاً في علم اللاهوت، وقسيساً لطائفة الكلدان الكاثوليك، ومطلعاً على عدة لغات، وبعد دراسته للكتاب المقدس أعتنق الإسلام في مدينة إسطنبول، وألّف كتاباً في ذلك سمّاه (محمد في الكتاب المقدس)، توفي سنة ١٩٤٠م، انظر: https://ar.wikipedia.org/

(٣) الطهطاوي، النصرانية والإسلام، ٢٩٧، نقلاً عن عبد الأحد داود.

الكاثوليك والأرثوذكس، فلم يعد لها أي فائدة.

٢- **من الذي يتمم المعمودية:** يرى **الكاثوليك والأرثوذكس** أنه **لا يصح إجراء المعمودية إلا على يد كاهن شرعي،** وذلك بناءً على إيمان الكاثوليك والأرثوذكس بسر الكهنوت، فلا بد لطالب التعميد من أن يلجأ إلى كاهن مرتسم يقوم بمهمة التعميد، أما البروتستانت فإنهم لا يؤمنون بسر الكهنوت، بل يعتقدون بكهنوت جميع المؤمنين، وهو المبدأ الذي نادى به (لوثر) بداية وتبعه في هذه المناداة (كالفن)، فألغى البروتستانت بناءً على ذلك جميع الامتيازات الكهنوتية.

ومن هنا فإن **المعمودية تتم عند البروتستانت على يد أي خادم في الكنيسة، دون اشتراط أن يكون كاهناً،** فمن الجائز أن يكون قسيساً مبتدئاً أو شيخاً أو شماساً، أو امرأة خادمة في الكنيسة، أما كون المعمِّد كاهناً فلا يصح ذلك عند البروتستانت.(١)

٣- **تعميد الأطفال:** ويرى **الكاثوليك والأرثوذكس** أن **تعميد الأطفال واجب على ذويهم؛** وذلك تبعاً لضرورة صيرورتهم أعضاء في الكنيسة المسيحية، من هنا فإن على الوالدين إجراء التعميد لأبنائهم الصغار، وبعد إجراء التعميد يُسلّم الكاهن للوالدين بعض التعاليم الكنسية ويأخذ عليهم العهد أن يعلّموها لابنهم أثناء تربيتهم له، أما أكثر **البروتستانت** فإنهم يرون أن **التعميد لا حاجة له عند الأطفال ما لم يبلغوا سن التكليف،** بحيث يتحمل الإنسان إثم الخطيئة الموروثة ويخلص بإيمانه بالمسيح، ويكون عندها مكلّفاً تترتب عليه الذنوب والآثام، ومن هنا فإن التعميد يكون سبباً لمغفرة هذه الذنوب، لكنه لا يؤثر في الخطيئة الأصلية، ولا دور له في الخلاص منها، وعليه **فلا يصح إجراء المعمودية للأطفال الذين هم دون سن التكليف،** ويكون وقتها حين البلوغ ليحصل بها الدور البسيط الذي نسبه إليها البروتستانت، وتجدر الإشارة هنا إلى أن **الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية في مصر وافقت الكاثوليك والأرثوذكس في وجوب تعميد الأطفال على إيمان والديهم،** دون قبولهم الشخصي.(٢)

نستنتج أن أهمية **المعمودية لم تحل دون الوقوع في الكثير من الخلافات،** و**النصوص التي استدل بها المسيحيون على المعمودية يبدو فيها التكلف،** حتى حسب سياقها الإنجيلي اللغوي مما يؤكد أن المعمودية **وليدة التأثير الوثني.**

---

(١) الخضري، جون كالفن، ص٢٣٩، ولوريمر، تاريخ الكنيسة، ٢٣٠/٤، وعلي (كابان)، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، ص١١٣، وحاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوربية، ص١٨٦.

(٢) انظر: رولان، تاريخ الحضارات العام (القرنان السادس عشر والسابع عشر)، ٨٦/٤، ورمضان (عبد العظيم)، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث (من ظهور البورجوازية الأوربية إلى الحرب الباردة)، ١٢٣/١-١٢٤.

المبحث الثاني: سر مسحة الميرون (التثبيت)

يعدّ سر الميرون (التثبيت) السر الثالث في ترتيب الأهمية بالنسبة للأسرار المسيحية بعد الإفخارستيّا والمعمودية، ويعتقد المسيحيون بفاعلية كبيرة له، ويُعدّ السبب الأهم في إعمال النعمة الإلهية في النفوس المسيحية التي سبق أن تعمّدت ونالت الخلاص.

المطلب الأول: مسحة الميرون (المفهوم والتأسيس والأدلة):

أولاً: مفهوم مسحة الميرون:

جاء في معجم اللاهوت الكاثوليكي عن مسحة زيت الميرون: **"هي اشتراك في مسحة يسوع البنوية، مسحة روحية ننالها بالإيمان"**.(١)

ويقول (**يوحنا سلامة**): "سر المسحة هو السر الثاني – من حيث الإجراء بعد المعمودية - من أسرار الكنيسة السبعة، به ينال المتعمد مواهب الروح القدس لتثبيته في الإيمان وتقويته في النعمة ونموه في الحياة الروحية".(٢)

ولقد تبين في المبحث السابق أن الإنسان يولد بالمعمودية الولادة الثانية، ويتطهر ويتبرر ويتقدّس، لكن كما أن الإنسان في حياته الطبيعية لا يعيش بمجرد ولادته ودخوله للعالم، بل يحتاج إلى هواء ونور وقوت وعناية لحفظ وجوده وانتظام حاله ونموه بالتدريج ونشأته، فكذلك أيضاً في الحياة الروحية، فإن المؤمن منذ ولادته بالمعمودية ودخوله الحياة الروحية يحتاج إلى قوى الروح القدس التي هي هواه الروحي ونوره وغذاؤه، ويحتاج إليها لا لحفظ الحياة الروحية فقط بل لثباته أيضاً فيها ونموه في الكمال المسيحي، وهذا الأمر يُنال بمسحة الميرون التي تعطيه تلك القوة، فتحفظه في الحياة وتثبته في الإيمان.(٣)

ثانياً: أسماء مسحة الميرون:

نظراً إلى طبيعة هذا السر وأهميته الروحية فقد سمّاه المسيحيون بأسماء كثيرة، بعضها يدل على فعله الخارجي (المنظور) وبعضها الآخر يشير إلى المعنى الروحي الذي يتضمنه هذا السر (النعمة غير المنظورة)، وبعضها يشير إلى المعنيين سويةً.

فبالاعتبار الأول يسمّى (المسحة)، و(سر وضع الأيدي)، و(المسحة السرية) و(سر مسحة الميرون)، وبالاعتبار الثاني يسمّى (موهبة الروح القدس) و(علامة الروح)، و(سر الروح)، و(سر التثبيت)، و(سر الكمال)، وبحسب المعنى الثالث يسمّى (الختم) و(ختم الرب)، و(الختم الروحي)، و(ختمة الحياة الأبدية).(٤)

ثالثاً: الغاية من مسحة الميرون:

أشرت في الكلام السابق إلى الهدف والغاية من تشريع المسيحية لسر مسحة الميرون، وهو **التقدم والنمو في الحياة الروحية**، فكما توجد في الطبيعة البشرية للمولود جديداً قوة لازمة للنمو والنشوء كذلك توجد في القوى العقلية قوة كامنة تنمو وتزداد شيئاً فشيئاً، وكذلك المولود روحياً بالعماد تلزمه قوة لينمو روحياً، وهذه القوى تُمنح بسر الميرون.

ولما كانت الحياة الروحية في الفكر المسيحي تبدأ وتنمو في دائرة روحية لزم أن تأتي للمؤمن المسيحي هذه القوة المكملة للحياة من الروح العلوي، وبما أن هذه الحياة الروحية هي

---

(١) راهنر (كارل) وفور غريملير (هربرت)، معجم اللاهوت الكتابي، ص٧٣٧.
(٢) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٧١/٢.
(٣) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص٥٩-٦٠.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٦٠-٦١، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٦٠.

حياة إلهية لزم أن ينمّيها روح الله نفسه، فالمسيحي بالعماد يتطهر وبالميرون يتقوّى، وبالعماد ينجو من الموت والهلاك الأبدي كذلك فإنه بالميرون يحيا ويثبت في الحياة[١]، إضافة إلى الكثير من المعاني الروحية التي يضيفها المعتَقَد المسيحي حول سر الميرون وأهميته.

رابعاً: تأسيس سر مسحة الميرون:

يُقيم المسيحيون سر الميرون بعد المعمودية بشكل مباشر، ولا يوجد خلاف في هذا الأمر بالنسبة لتوقيت إقامة هذا السر، فهو لا ينفك عن المعمودية، لكن اتحاده معها وارتباطه بها لا ينفي كونه سراً مستقلاً بذاته ومؤسساً من المسيح شخصياً.

تأسيس المسيح لهذا السر أمر معلوم عند المسيحيين، ولهم على ذلك الأدلة التالية:

١- قول المسيح: ورد في إنجيل يوحنا: "وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحد فليأتِ إليّ ويشرب، من يؤمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي، قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه، لأنه لم يكن بعد أعطي الروح القدس لأن يسوع لم يكن قد مُجّد بعد" [يوحنا: ٣٧/٧]، يرى المسيحيون أن يسوع المسيح عزم ووعد صريحاً في هذا الإعلان أنه سيهب المؤمنين به الروح القدس، وأنه يتكلم بهذا الإعلان عن مواهب الروح القدس التي تُمنح لجميع المؤمنين به على الإطلاق وهي ضرورية ولا بد منها لهم.[٢]

مع أن **الإعلان السابق غير صريحٍ أبداً في الحديث عن سر المسحة،** لكنّ **المسيحيين ربطوا بين هذا السر وبين مواهب الروح القدس** وعملها في الإنسان، وجعلوا سر الميرون الطريقة التي تُنال بها هذه النعم وتتفعّل في الإنسان، ومن هنا التمسوا للميرون دليلاً من الكتاب المقدس، وباعتبار أن هذا الإعلان يشير إلى مواهب الروح القدس فقد جعلوه دليلاً على مسحة الميرون التي تُعطى مواهب الروح القدس من خلالها، مع أنه لا يشير إلى مسحة الميرون، كما أن منح مواهب الروح القدس قد يتم دون اللجوء إلى الميرون والمسح به، فلا داعي لحصر منح مواهب الروح القدس بالميرون، لا سيما أن المسيح ما ذكره ولا أشار إليه.

ومن المعلوم أن للروح القدس في الفكر المسيحي أعمالاً عظيمة في الفداء وحياة الكنيسة، فهو منذ البدء كان يبث روح الحياة في المادة، وهو الذي أعلن الحقائق الإلهية والنبوات للأنبياء، وهو الذي قدّس السيدة العذراء لحلول المسيح في أحشائها، وهو الذي قدّس الكنيسة وأنشأ فيها قوته المحيية - حسب التعبير المسيحي – وثبّتها ووحدها.[٣]

وبناءً على مكانة الروح القدس العظيمة ومهامه المقدّسة وأعماله التطهيرية فقد **وعد المسيح تلاميذه بحلول الروح القدس فيهم،** "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم" [يوحنا: ١٤/١٦-١٧].

وفي يوم العنصرة حدثت معجزة الروح القدس للتلاميذ، "وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدؤوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا" [أعمال الرسل: ١/١-٤]. وأثناء العنصرة المشار إليها منح الروح القدس التلاميذ النعمة الإلهية بنوع خاص من الصلة لم يحدث لأحد، وكانت هذه العملية في ذاك اليوم بمنزلة التثبيت للتلاميذ، أي أن الروح القدس ثبّتهم ومسحهم في ذلك اليوم، من هنا صار سر الميرون مؤسساً فعلياً بعد رفع المسيح من الأرض.

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٦١.
(٢) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص٦٢، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٦١.
(٣) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٦٢.

وجميع المواضع التي يشيد بها المسيحيون بمواهب الروح القدس وإعطائه للناس البركة والتقديس كل هذه الإعلانات **تزيد من أهمية سر مسحة الميرون** وتؤكدها، لأن الروح القدس إنما يمنح النعمة بالمسح، فتحل في الإنسان نعمة الله وتتفعّل فيه، ومن هنا فإنه يجب على البشر أيضاً أن يقيموا المسح لتحصيل النعمة الإلهية وتفعيلها في الإنسان، لكن باعتبار أن هذه المواهب غير منظورة بالنسبة للبشر فإنهم يحتاجون مادة منظورة يُنال هذا الأثر المشار إليه من خلالها، فاستعمل المسيحيون زيت الميرون لهذه الغاية.

٢- أفعال الرسل: كان الرسل يقيمون المعمودية للمؤمنين الجدد، ولم يكونوا يكتفون بها، بل لا بد بعدها من وضع الأيدي ومسح المؤمن.

- ورد في أعمال الرسل أنه بعدما تمجّد يسوع كان الرسل يمنحون الروح القدس للمؤمنين باسمه، وذلك بوضع الأيدي كما هو مصرّح به، "فلما سمع الرسل الذين هم في أورشليم أن السامرة قبلت كلام الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا، ولما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس لأنه لم يكن حلّ على أحد منهم لكنهم كانوا معتمدين فقط باسم الرب يسوع، حينئذٍ وضعا الأيدي عليهم فقبلوا الروح القدس" [أعمال الرسل: ٨/١٤-١٧].

يستدل المسيحيون بالإعلان السابق على أن الرسل لم يكونوا يمنحون للمؤمنين الروح القدس بالمعمودية، بل كانوا يفعلون ذلك بوضع الأيدي على المعتمدين، فيمنحونهم مواهب الروح القدس العمومية والضرورية لجميع المؤمنين.

- وهناك حادثة مماثلة أيضاً لما سبق، "فحدث فيما كان بولس في كورنثوس أن بولس بعدما اجتاز في النواحي العالية جاء إلى إفسس فإذ وجد تلاميذ - تلاميذ يوحنا المعمدان -، قال لهم هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم قالوا له لا وما سمعنا أنه يوجد الروح القدس، فقال لهم فبماذا اعتمدتم فقالوا بمعمودية يوحنا، فقال بولس إن يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بالمسيح يسوع، فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع، ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبؤون" [أعمال الرسل: ١٩/١-٦].

٣- أقوال الآباء والقديسين: ويستدل المسيحيون على تشريع سر الميرون بأقوال القديسين والآباء، فيُذكر أن الكنيسة قد تسلمت صنع الميرون المقدس من الرسل، وذلك أن الرسل حفظوا ما كان من الحنوط على جسد السيد المسيح حين دفنه، ثم أذابوه في زيت الزيتون وقدّسوه في علية صهيون، وجعلوا منه دهناً مقدّساً خاتماً للمعمودية، ووزعوه في كل الجهات، وصاروا يدهنون به المؤمنين[١]، وأقوال القديسين في هذا الشأن كثيرة جداً بحيث يصعب حصرها، ومنها على سبيل المثل قول القديس **(توما الاكويني)**[٢]: "التثبيت بالنسبة إلى العماد هو كالنمو بالنسبة إلى الولادة"[٣]، ويقول العلامة **(ترتليانوس)**: "بعد خروجنا من حميم المعمودية مسحنا بزيت مقدّس .... وبعد ذلك توضع اليد التي مع البركة تستدعي الروح القدس".[٤]

---

(١) انظر: جرجس (حبيب)، خلاصة الأصول الإيمانية في معتقدات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ص٧٧.

(٢) هو القديس توما الراهب والفيلسوف اللاهوتي الإيطالي، ولد سنة ١٢٢٥م، التحق بالرهبنة الدومينيكانية سنة ١٢٤٣م، لكنه سرعان ما رحل إلى باريس حيث تتلمذ على يد القديس ألبرت الكبير، وضع مذهباً فلسفياً يُعرف بـ (التومائية)، حاول فيه التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعاليم آباء الكنيسة الأوائل، أهم كتاب له (الخلاصة اللاهوتية)، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٦١.

(٣) دول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص٨٩.

(٤) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٦٦.

المطلب الثاني: أهمية مسحة الميرون:

يحظى سر الميرون في المسيحية بأهمية كبيرة، وتترتب هذه الأهمية في أكثر الأحيان على المعمودية، وتنبع منها، إذ المهمة الأساسية في الميرون هي تفعيل النعمة الإلهية التي يحظى بها المؤمن أساساً من خلال المعمودية، لكنها تبقى كامنة فيه لا نفع لها حتى يُمسح بالميرون المقدس.

وتتحدد أهمية الميرون وضرورة استخدامه من زاويتين، **الأولى الزاوية التاريخية، والثانية الزاوية الروحية.**

أولاً: مسحة الزيت المقدس تاريخياً:

يعتقد المسيحيون أن المسح بالزيت المقدس معروف عند أنبياء بني إسرائيل وملوكهم، وأن أول من استعمل الزيت للمسح والتبريك والتقديس هو نبي الله موسى عليه السلام.

ورد في سفر اللاويين: "ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه وقدسه، ونضح منه على المذبح سبع مرات ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها، وصب من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه، ثم قدم موسى بني هارون وألبسهم أقمصة ونطقهم بمناطق وشد لهم قلانس كما أمر الرب موسى" [لاويين: ٨/١٠-١٣].

إذاً فالله تعالى أمر موسى أن يمسح الهيكل والمذبح بالزيت المقدس لتقديسهما، وبعد ذلك أن يَمْسَحَ أخاه هارون كي يقدسه.

ولقد ورد في الكتاب المقدس أن الله **أمر صموئيل أن يمسح شاول** كي يكون مسيحاً مخلّصاً لبني إسرائيل "أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين فامسحه رئيساً لشعبي إسرائيل فيخلص شعبي من يد الفلسطينيين [صموئيل١: ٩/١٦].

وورد أيضاً أن **النبي إيليا** مسح إليشع نبياً: " فقال له الرب .... وامسح إليشع بن شافاط من آبل محولة نبياً عوض عنك" [ملوك١: ١٩/١٣-١٦]، ومنذ **عهد يعقوب صار المسح بالزيت من أهم الشعائر الدينية** المشيرة إلى التقديس وتكريم الناس والأماكن، وفي عهد بني إسرائيل وأنبيائهم كان المسح بالزيت مخصوصاً بالكهنة والملوك والأنبياء، ولذلك سُمّي هؤلاء مسحاء أي مختارين من الله ومباركين.(١)

ومع أن كتب اللاهوت المسيحي تورد هذه الحوادث والإعلانات التاريخية في معرض التأصيل لمسحة الميرون لكن الحقيقة لا يمكن الاعتماد عليها ولا حتى إيرادها في هذا الصدد؛ إذ يختلف المسح بالزيت قديماً عن الميرون المعروف في الكنيسة المسيحية من حيث المضمون والنتيجة الروحية، وهذا الفارق يجعل من الاستدلال على مسحة الميرون بالأدلة السابقة وبالحوادث التاريخية الواردة في الكتاب المقدس استدلالاً باطلاً.

ومن المعلوم في المسيحية أن المسيح أثناء تعميده على يد يوحنا المعمدان نزل عليه الروح القدس على هيئة حمامة واستقرّ عليه، ورافق هذا الاعتقاد استعمال بني إسرائيل للزيت والمسح به تقديساً وتبريكاً للكهنة والملوك والأنبياء.

فعملاً بالمعتقد السابق وجرياً على عادة بني إسرائيل في المسح بالزيت اقتبس المسيحيون هذا الفعل وأسسوا هذه الشعيرة بطقسها المعروف الذي يقوم - كما سيأتي بيانه – على وضع اليد من قِبل الكاهن على رأس الممسوح إشارة إلى نزول الروح القدس بهيئة حمامة على المسيح أثناء تعميده، ومن ثم مسح بعض المواضع بالزيت إتماماً للعادة اليهودية بمسح الكهنة والأنبياء والملوك، وإشارة إلى أن هذ المعتمد أصبح عضواً فعالاً في الكنيسة وحاز النعمة

---

(١) انظر: الطهطاوي، النصرانية والإسلام، ص٢٢٤.

الإلهية المُفَعَّلة فيه.

ومما يُذكر في هذا المقام أن المعتقد السائد تاريخياً في المسيحية أن تلاميذ المسيح حفظوا كمية من الحنوط الذي كان على جسد المسيح وقت دفنه، وأضافوه إلى الحنوط الذي أحضرته النسوة، ثم أذابوه في زيت الزيتون ووزعوه على الكنائس، فكان الرسل يدهنون به من يتعمّد من النصارى، ولما اتسع نطاق الكرازة المسيحية وامتد إلى بقعٍ واسعة من الأرض لم يعد بوضع الرسل أن يطوفوا أقطار الأرض لوضع أيديهم على المعتمدين ليمنحوهم بذلك موهبة الروح القدس، لهذا عوّضوا عن هذا الأمر بالمسح بالميرون، وأعطوا للقسوس الذين أقاموهم حق مسح المتعمدين به.(١)

ويروي القمص **(بولس سلامة)** أن القديس مرقس حينما قدم إلى مصر كان معه جزء من الزيت المختلط بحنوط جسد المسيح، فاستعمله لغرض المسح للمؤمنين الجدد، وتسلمه خلفاؤه من بعده إلى عهد أثناسيوس الرسولي، وقد أضاف هذا الجزء إلى عدد من العطورات، وطبخها مع بعضها، وبعد أن أتم طبخها هو والكهنة الموجودون معه بعث ببعضه إلى البلاد المسيحية، واستن البطاركة سنته من بعده حتى لا تنفد هذه الذخيرة، فكل مَن كان لديه جزء من حنوط المسيح فعل كما فعل مرقس.(٢)

وبعد عمل مرقس واتّباع الكثير من المسيحيين أساقفةً وكهنةً له أخذ الاهتمام بالميرون يزداد، وصارت أهميته تتنامى شيئاً فشيئاً، والعمل به يتطور من جيل إلى جيل، حتى صار الاعتقاد السائد بين الأساقفة في القرن الرابع أن سر الميرون هو الواسطة الوحيدة التي يحل بها الروح القدس، فصار للميرون طقوسه وليتورجيته الخاصة منذ ذلك الحين(٣)، واستمر الاعتقاد بالزيت المقدس وأهميته، وضرورة إقامة شعيرته وطقسه إلى هذه الأيام.

ثانياً: الزاوية الروحية:

يكتسب الميرون أهمية كذلك في الفكر المسيحي من خلال النتائج الروحية التي ينالها المؤمن من خلال إجراء السر، وسيتم الحديث عن هذه الفوائد باستفاضة وتفصيل في المطلب الرابع، وأشير هنا إلى أهم ما يعكس الأهمية الروحية لإجراء سر الميرون.

١- **إعلان الإيمان بالله**: يُثبت فيه الشخص إعلانه المسيحي عن توبته وإيمانه وتكريسه.

٢- **الانضمام إلى المسيحية**: يرى المسيحيون أن التثبيت انضمام إلى الطائفة التي يتبعها الشخص من خلال كنيسته المحلية ثم للطائفة التي يتبعها، ثم إلى المسيحية الجامعة.

٣- **تكريس الخدمة**: يشتمل على أن يحفظ الله الشخص دائماً متنامياً في خدمته، وهذا كالختم الذي لا يُمحى.(٤)

المطلب الثالث: الإجراءات الطقسية لسر (مسحة الميرون):

جرت العادة في أغلب الكنائس المسيحية أن يُثَبَّت المؤمن بإعطائه مسحة الميرون بعد المعمودية مباشرة، لكن بعض الكنائس الغربية بدأت تؤخر إجراء هذا السر للأولاد المتعمدين حتى تجاوزهم سن الطفولة، فعند البعض في السنة السابعة، وعند الآخرين في السن الثانية

---

(١) انظر: جرجس، خلاصة الأصول الإيمانية في معتقدات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ص٧٧.

(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٨٠-٨١.

(٣) انظر: سمعان، الكهنوت، ص٤٤٩-٤٥٠.

(٤) انظر: نجيب، المعمودية بين المفهوم والممارسة، ص٩٢-٩٣، ودول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص١٠٨-١٠٩، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٦٠، ١٠٩، وشنودة، اللاهوت المقارن، ص٣٧.

عشر، وسبب هذا التأخير هو انتظار أن يشترك الطفل في هذا السر بمعرفة كافية وعقل بالغ.[١]

وتتكون مسحة الميرون من الخطوات التالية:

١- **الدعاء:** يبدأ الكاهن طقس مسحة الميرون بالدعاء إلى الله داعياً حلول الروح القدس على المستنير (المعتمد) حديثاً، وكذلك يدعو أن يتقدّس الزيت وتحل فيه قوة الروح القدس، ويقول الكاهن أثناء ممارسة هذا الطقس: "أيها الإله الكلي الصلاح، انظر إلى هؤلاء المعمدين الذين نضع عليهم أيدينا، في العماد حررتهم من الخطيئة وولدتهم من الماء والروح كما وعدت، أحل الآن عليهم بروحك القدس، أعطهم ملء الروح الذي حل على ابنك يسوع، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة والمحبة البنيوية، املأهم من روح العبادة"[٢]

٢- **المسح بالزيت والرشم بالصليب:** تعدّ هذه الخطوة هي الأساس في المسح بالميرون، حيث يجري مسح جسم الشخص بالزيت المصنوع من عدد من أنواع العطور، ويتبع هذا المسح رشم مواضع متعددة في الجسم بالصليب على ستٍ وثلاثين رشمة على شكل الصليب نفسه.

والرشم بالصليب أثناء طقس الميرون مقسّم عند عامة الكنائس المسيحية إلى ستة مراحل، وهي حسب الترتيب الآتي:

أ. يبدأ بالرأس فيرشمه من الجبهة، ثم الأنف، ثم الفم والأذن اليمنى العين اليمنى والعين اليسرى.
ب. ثم يرشم القلب والسرة والظهر والصلب.
ت. يرشم مفصل الكتف الأيمن من فوق، ثم الإبط، ثم مفصل الكوع الأيمن، ثم ظهر المرفق، ثم مفصل الكف الأيمن، ثم ظهر وجه المفصل.
ث. ثم يرشم مفصل الكتف الأيسر من أعلاه، ثم الإبط الأيسر، ثم مفصل المرفق الأيسر، ثم ظهره، ثم مفصل الكف الأيسر، ثم وجه مفصل الكف الأيسر.
ج. ثم يرشم مفصل الورك الأيمن، ثم الحالب الأيمن، ثم مفصل الركبة اليمنى، ثم خلف المفصل، ثم مفصل القدم، ثم خلف المفصل.
ح. ثم يرشم مفصل الورك الأيسر، ثم الحالب الأيسر، ثم مفصل الركبة اليسرى، ثم خلف هذا المفصل، ثم مفصل القدم اليسرى، ثم خلف هذا المفصل.[٣]

والسبب في التقسيم السابق لطقس الرشم في مسحة الميرون هو اختلاف القراءات الليتورجية الموروثة ضمن كل خطوة من الخطوات السابقة، والقراءات في هذه الخطوات هي عبارة عن جمل بسيطة لا تكوّن تراتيل كالقراءات المعروفة في باقي الشعائر المسيحية وطقوسها، والترتيل هي كالتالي:

المرحلة الأولى: يقول الكاهن أثناءها: "باسم الآب والابن والروح القدس مسحة نعمة الروح القدس. آمين".

المرحلة الثانية: يقول: "مسحة عربون ملكوت السموات. آمين"

المرحلة الثالثة: يقول: "دهن شركة الحياة الأبدية غير المائتة. آمين"

المرحلة الرابعة: يقول: "كمال نعمة الروح القدس ودرع الإيمان والحق. آمين"

---

(١) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص٧١.

(٢) دول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص١٠٧.

(٣) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص٧٩-٨٠، وجبار، أسرار مقدسة، ص٨-٩، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٦١، ودرويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٢٦٨-٢٦٩.

المرحلة الخامسة: يقول: "أدهنك (يا فلان) بدهن مقدس باسم الآب والابن والروح القدس. آمين".[١]

ويعتقد المسيحيون أن الغاية من هذه الرشومات تهيئة المعمَّد وتدشينه بالميرون ليصير بمنزلة هيكلٍ للروح القدس، ويستدلون على هذا الاعتقاد بقول بولس: "أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم... إن كان أحد يفسد هيكل الله فسيفسده الله... لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو" [كورنثوس١: ٣/١٦-١٧].

٣- تلاوات نهاية الطقس: بعد إتمام الرشومات السابقة يضع الكاهن يده على رأس المعمَّد قائلاً: "تكون مباركاً ببركات السمائيين، وبركات الملائكة، يباركك الرب يسوع المسيح، (ثم ينفخ في وجه المعمَّد) باسمه اقبل الروح القدس، وكن إناءً طاهراً من قبل يسوع المسيح ربنا، ثم يلبس المعمَّد ثوباً أبيض ويقول: "لباس الحياة الأبدية غير الفاسدة. آمين"

ثم يختم الصلاة بعبارات هذه بعضها:

- بالمجد والكرامة كلله، الآب يبارك، الابن يكلل، والروح يقدس.
- اقبل الروح القدس، يا من نلت الصبغة المقدسة.
- اقبل روح الله الذي يملؤك مسرة.
- يسوع المسيح ابن الله، يملؤك قوة ونعمة، أيها المبارك، الذي نال العماد الطاهر.
- صرت مسكناً للروح القدس.

ويرد الجميع على هذه العبارات بعبارة "مستحق، مستحق، مستحق، (فلان) المسيحي آمين".[٢]

المطلب الرابع: القيم والمعاني والنتائج غير المنظورة لمسحة الميرون:

أهم الفوائد والقيم المترتبة على هذا السر ما يلي:

أولاً: نوال المؤمن الروح القدس: "فلما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا فانحدرا وصلّيا من أجلهم لكي ينالوا الروح القدس لأنه لم يكن قد حلّ على أحد منهم، غير أنهم كانوا معتمدين باسم يسوع، فحينئذٍ وضعا الأيدي عليهم فنالوا الروح القدس" [أعمال الرسل: ٨/١٤-١٧].

ثانياً: نوال إنارة العقل والمعرفة: يمنح الميرون قوة روحية تنير عقله وتجعله قادراً على تفهّم حقائق الإيمان "أما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء...وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلّمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق وليست كذباً " [يوحنا١: ٢/٢٠-٢٧].

ثالثاً: قوة الإرادة في العبادة ومخافة الرب: مسحة الميرون تمنح الإنسان تقوية الإرادة في العبادة وفي مخافة الرب، ويقول **(كيرلس الأورشليمي)**: "بعد ذلك يمسحكم على صدوركم لكي تلبسوا درع العدل وتثبتوا لدى حيل الشيطان، وكما أن المسيح بعد المعمودية وحلول الروح القدس خرج وحارب المعاند، هكذا أنتم بعد المعمودية المقدسة والمسحة السرية تثبتون لدى القوة المضادة لابسين سلاح الروح القدس الكامل وتحاربونها قائلين: إني أستطيع كل شيء في

(١) انظر: جبار، أسرار مقدسة، ص٩، ودرويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٢٦٩.
(٢) انظر: جبار، أسرار مقدسة، ص٩.

المسيح الذي يقويني".[١]

- **ختم موهبة الروح القدس:** والمقصود بهذا الختم استحقاق المؤمن تفعيل المواهب الروحية فيه، وبدء نوال النعم والعطايا من الروح القدس من قوة الإيمان والتثبيت فيه والتزام العبادة.[٢]

التعقيب على سر مسحة الميرون:

نال سر مسحة الميرون مكانة مهمة تلي مكانة المعمودية في العقيدة المسيحية، ورتّب عليه المسيحيون أثراً كبيراً في حياة الفرد، فرضاً لازماً على كل معتمد من المسيحيين، ومن الملاحظ أنه **لا يمكن نسبة هذا السر إلى المسيح، إذ المسيح لم يفعله أبداً، ولم يأمر به مطلقاً.**

مع أن **الإعلان الذي يستدل به المسيحيون ليس فيه أي إشارة إلى أن المقصود بوعد المسيح هو إعطاء مواهب الروح القدس، ولو أراد المسيح هذا الأمر لعبّر عنه بوضوح،** لا سيما أنه سر من الأسرار الأساسية وشعيرة من أهم الشعائر في المسيحية، فلا يصح بالمنطق أن يقصده المسيح وأن يهمّ بإيضاحه وتسليمه للتلاميذ، ثم لا يتكلم عنه ولا بإعلان واحد في الكتاب المقدس، إنما يشير إشارة إلى أمر محتمل - مع أنه لا يحتمل أن يكون المقصود به الميرون – فيأتي الأتباع ويجعلون منه أمراً أساساً في العبادة.

إذاً يصعب إرجاع تأسيس هذا السر إلى المسيح، بل يصعب فهم هذا التأسيس من أقوال المسيح، وعليه لا يمكن اعتبار هذا الأمر من الأسرار المقدسة، إذ الأسرار تنال المكانة الأسمى بين التعاليم المسيحية، إنما هو أمرٌ ابتدعه بعض البابوات وجعلوه أمراً حتمياً على كل مؤمن، وحتى لا يستهين أحدٌ بمكانة هذا السر بين الأسرار المقدّسة فقد رتّب عليه المسيحيون أثراً كبيراً يجعل منه المفتاح الرئيس في تفعيل الأسرار الروحية، فالشخص الذي لم يُمسح بالميرون لا ينال بركات الإيمان، ولا يمكن للمواهب الروحية التي نالها بالمعمودية أن تتفعّل فيه، بل يبقى إيمانه لا فائدة منه، ومعموديته بدون جدوى، حتى يُمسح بالميرون المقدّس.

وبناءً على فقدان المرجعية النصية الواضحة لسر مسحة الميرون فقد اختلفت الفرق المسيحية حول هذا السر؛ وما ذاك إلا لأنه في النهاية من ابتداع البابوات والآباء الأوائل، مع أن للمسح بالزيت المقدس شأناً عظيماً في الفكر اليهودي، لكنه لا يمكن أن يُقاس على سر الميرون لاختلافهما في المعنى والمضمون.

بناءً على ما سبق اختلفت الكنائس والفرق حول مسألة وجوب المسح بالزيت المقدّس بعد التعميد وعدم وجوبه.

فالكاثوليك والأرثوذكس اعترفوا بمكانة هذا السر ووجوب ممارسته وانحصار تفعيل مواهب الروح القدس في هذا السر، ومع اتفاقهم على الهيكل العام لسر الميرون لكنهم اختلفوا في حيثيات متعددة تتعلق به.

أولاً: حافظت الأرثوذكسية على التعليم الآبائي القديم القائل بأن التثبيت بالميرون يكون بعد التعميد مباشرة، حتى لو كان المعمَّد طفلاً صغيراً، أما الكاثوليك فإنهم لا يؤمنون بوجوب الاقتران بين المعمودية والتثبيت إذا كان المعتمد طفلاً، فهم يؤخرون إجراء هذا السر إلى ما بعد البلوغ؛ كي يشترك الممسوح بهذا السر بمعرفة كافية وعقل ناضج.[٣]

ثانياً: تكتفي بعض الكنائس الكاثوليكية بإقامة هذا السر بوضع اليد على رأس المعمّد دون

---

(١) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٧٨، وانظر: جبار، أسرار مقدسة، ص٨.
(٢) انظر: جبار، أسرار مقدسة، ص٨.
(٣) انظر: شنودة، اللاهوت المقارن، ١٢/١.

مسحه، ويسمون وضع اليد هذا أيضاً مسحاً، فيضع الكاهن يده على الشخص الذي يُمارس له التثبيت، أما الأرثوذكس فإنهم لا يرون إتمام هذا السر إلا من خلال الجمع بين المسح بالميرون ووضع الأيدي.(١)

ثالثاً: كانت الكنائس قديماً تستعمل زيت الزيتون لإتمام هذا السر، أما الكنائس التالية للعصور الأولى فقد بدأت تخلط زيت الزيتون بأنواع كثيرة من العطور قد يصل إلى ثلاثين نوعاً، وهذا خلاف ما كانت عليه الكنائس الأولى، لا سيما بعد نفاد المادة التي أخذها التلاميذ من جسد المسيح وصاروا يمسحون بها الناس، فتحول المسح بعد ذلك إلى زيت الزيتون.(٢)

رابعاً: الأمر الأخير الذي تختلف فيه الكنائس التي تؤمن بالتثبيت والمسح بالميرون هو القراءات، إذ الترديدات - العبارات القصيرة - التي يرددها الكاهن تبقى متقاربة جداً بين الكنائس التي تقيم سر التثبيت، أما القراءات الطويلة فإنها مختلفة كذلك بين الكنائس.

والخلافات السابقة وإن كانت بسيطة لكنها تصب في بوتقة عدم وجود المرجعية النصية المشار إليها سابقاً.

أما البروتستانت فإنهم لا يؤمنون بسر مسحة الميرون مطلقاً ولا يعترفون بها، ويعدّون الكلام عن المواهب الروحية والفوائد الكثيرة التي يتكلّم عنها الكاثوليك والأرثوذكس نوعاً من التكلّف والتصنع، ولا يصحّ أن يكون الميرون سراً مقدّساً تُنال به البركات الإلهية عن طريق الروح القدس وتتفعل من خلاله النعمة الإلهية وغير ذلك من الكلام؛ لأن ذلك كله إنما يتم بالإيمان بالمسيح ثم بإجراء المعمودية لا غير، فيتحصّل المؤمن على جميع البركات المشار إليها بالتعميد دون مسحة الميرون.(٣)

مع أن القمص الأرثوذكسي القبطي (**يوحنا سلامة**) يذكر في كتابه (اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة) **أن البروتستانت يؤمنون بالميرون** كالأرثوذكس تماماً، **لكنه أخطأ في هذا الأمر**، وعندما سرد بعض النقول والشهادات البروتستانتية عن الإيمان البروتستانتي بمسحة الميرون كانت جميع النقول التي نقلها تتحدث عن المعمودية وليست عن الميرون.(٤)

من مجمل الكلام السابق يتبين أن **المسيح لم يشرّع المسح بالزيت** ولا أمر به، يقول (عوض سمعان): "إن الروح القدس حل على التلاميذ دون أن يضع المسيح يده عليهم، كما أنه لم يأمرهم بوضع أيديهم على المؤمنين لكي يحل الروح عليهم، ولذلك نرى أنه عندما آمن (كرنيليوس) والذين معه كما قال لهم بطرس الرسول عند فداء المسيح وقيامته من الأموات حل عليهم الروح القدس في الحال، وهذا دليل على أنه يحلّ بمجرد الإيمان بالمسيح، أو بالأحرى الإيمان الحقيقي به، وليس بواسطة وضع فريق من الناس مهما كان شأنهم".(٥)

ويرى بعض المسيحيين أن في نزول الروح القدس على المسيح بهيئة حمامة واستقراره عليه بعد خروجه معمّداً من نهر الأردن دليل على سر التثبيت، يقول (زكي شنودة): "إن المسيح حل عليه الروح القدس شبه حمامة على إثر عماده في نهر الأردن، هكذا يجب مسح المعتمد بالميرون وهو الزيت المقدس على إثر خروجه من المعمودية، لأن **الميرون هو عوض عن الحمامة** التي حلّت على السيد المسيح بعد عماده".(٦)

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٥٨.
(٢) انظر: سمعان، الكهنوت، ٤٥٠.
(٣) انظر: شنودة، اللاهوت المقارن، ١٢/١.
(٤) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٧٤/١-٧٥.
(٥) سمعان، الكهنوت، ص٤٣٥.
(٦) شنودة، تاريخ الأقباط، ٢٦٦/١.

لكن السؤال الآن ما **العلاقة بين الحمامة وبين سر الميرون؟ حقيقة لن نجد بينهما أي علاقة**، ولا حتى إشارة رمزية تشير إلى حلول الميرون محل نزول الحمامة على المسيح.

من هنا يتبين أن لتشريع سر مسحة الميرون وجعله فرضاً من الفرائض في المسيحية سبباً آخر، **يبين (عوض سمعان) أن** المسح بالزيت المقدّس دخيل على المسيحية، وهو إنما **جاء نتيجة إرادة بعض الأساقفة أن يمسحوا المؤمنين الذين قبلوا المعمودية بالزيت المقدس وذلك في القرن الثاني الميلادي**، "لأنهم وجدوا أن كلمة المسحة هي التي يُشتق منها اسم المسيح بمعنى الممسوح في كل اللغات، وبعد ذلك أخذ شأن الاعتقاد بهذا الزيت يتطور شيئاً فشيئاً، حتى ذهب كثير من الأساقفة في القرن الرابع إلى أنه هو الوساطة الوحيدة التي يحل بها الروح القدس".(١)

ويقول أيضاً في مسألة نوال نعم الروح القدس من خلال مسحة الميرون: "إنها **بنيت على فهم بعض النصوص الكتابية فهماً يختلف عن المقصود منه**، فهي تجعل الوساطة لحلول الروح القدس على البشر وساطة مادية خارجية، لا علاقة لها بالتوبة والإيمان الحقيقي والصلة الروحية بالله، فإذا أضفنا إلى ذلك الذين يمسحون بالزيت مرات متعددة لا تظهر فيهم آثار الروح القدس وطول الأناة واللطف والوداعة والتعفف نتيجةً مباشرة لهذا المسيح، اتضح لنا أن الاعتقاد لا يؤيده وحي أو اختبار، بل هو تنكّر للحقائق المسيحية وعودة إلى الطقوس اليهودية التي لا تجدي ولا تفيد".(٢)

مما سبق نستنتج أن القول بوجوب المسحة بزيت الميرون على كل مسيحي متعمد وانحصار تفعيل النعم الإلهية بواسطة الروح القدس عن طريق هذه المسحة، كل هذه أقاويل لا دليل عليها، وهذا بالطبع ينفي تأسيس المسيح لسر الميرون، وعليه يلغي عدّه كسرٍ من الأسرار المقدسة.

وهنا تظهر لدينا مسألة أُخرى تجب الإشارة إليها، والمقصود بها الأجواء المصاحبة لأداء مسحة الميرون، إذ من الواضح فيما تقدّم أن هذه المسحة تُعطى على ستة وثلاثين موضعاً في الجسد، بما في ذلك المواضع الحرجة، فكيف يستقيم في الحياء أن تُعطى المسحة على هذه المواضع لا سيما إذا كان الممسوح أنثى؟!

وحين توجيه هذا الاعتراض إلى المسيحيين نجد أنهم يجيبون بأن المسحة المذكورة تُعطى على هذا الشكل للأطفال حديثي الولادة فقط، أما إذا كان الممسوح كبيراً فإنهم يضعون عليه لباساً أبيضاً ساتراً ثم يتم مسحه، أو يُمسح على الرأس والوجه واليدين فقط.(٣)

---

(١) سمعان، الكهنوت، ص٤٤٩-٤٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥١-٤٥٢.

(٣) انظر: غريغوريوس، موسوعة أسرار الكنيسة، ٢٤٣/٣-٢٤٤، وسليمان، الدسقولية (تعليم الرسل)، ص١٧١.

المبحث الثالث: سر التوبة

تتفق الديانة المسيحية مع سائر الديانات السماوية في أهمية التوبة والغفران، وتعدّها أمراً واجباً على كل مؤمن، فلا بد في المسيحية من التوبة لتحصيل مغفرة الذنوب والمعاصي.

فالإنسان - حسب الاعتقاد المسيحي – **ينال بالمعمودية والتثبيت والإفخارستيا المواهب الروحية** الضرورية لكي يصير مسيحياً وينمو في التقوى وينال الحياة الأبدية والغبطة، فالمعمودية تطهّر الخاطئ من كل خطيئة جبرية كانت أو طوعية، وتدخله ملكوت نعمة الله، ومسحة الميرون تمنحه قوة جديدة لثباته ونجاحه في حياته من خلال تفعيل نعمة الروح القدس ومواهبه فيه، وسر الإفخارستيا يغذّيه غذاءً إلهياً، ويجعله متحداً بالمسيح، ويمنحه الحياة الأبدية.

لكن بما أن الإنسان بعد تنقيته من الخطيئة بالمعمودية لا يُعتق عتقاً كليّاً من الخطايا الإرادية؛ **وذلك بسبب الفساد الأزلي فيه** والذي هو الميل إلى الشر، **وكذلك لا يتحرر من شهواته وغرائزه** فقد سرّه الله بمحبته **وأقام له في الكنيسة سراً هو بمنزلة علاج خلاصي** للذنوب والمعاصي التي يقترفها، **وهو سر التوبة.**(١)

المطلب الأول: المفهوم والتأسيس لسر التوبة:

ترتبط التوبة في المسيحية بالاعتراف، فالحديث عن التوبة هو حديث عن الاعتراف؛ إذ هو طريقها المعروف.

أولاً: تعريف التوبة: مفهوم التوبة في اللغة هو **الرجوع عن المعصية إلى الطاعة،** ويُقال (تاب الله على الإنسان) أي عاد عليه بالمغفرة.(٢)

أما **المعنى الاصطلاحي** فهي **تغيير في الفكر يصحبه أسف وندامة على عمل شيءٍ لم يكن عامله يتمنى وقوعه،** ويمكن أن تصحب الندامة الخطية بدون قصد تركها ... والتوبة حزن وندامة على ارتكاب الشر والابتعاد عن الخطية، وبذل الجهد في الاتكال التام على نعمة الله ومساعدة الروح القدس للابتعاد عنها والانقياد إلى مشيئة الله.(٣)

ويعرّفها **(جراسيموس مسره)** بأنها: "عمل مقدس به يصفح راعي الكنيسة الروحي بقوة الروح القدس للمسيحي التائب والمعترف عن جميع خطاياه التي فعلها بعد المعمودية واعترف بها فيتجدد تبريره ويتقدّس كما كان في الساعة التي خرج فيها من المعمودية".(٤)

ويعرّفها **(حبيب جرجس)** بقوله: "سر التوبة هو سر مقدّس به يرجع الخاطئ إلى الله ويتصالح معه تعالى باعترافه بخطاياه أمام كاهن الله ليحصل على حل منه بالسلطان المعطى له من الرب يسوع".(٥)

أما **الاعتراف فهو الركن الرئيس للتوبة،** وهذا الأمر عند عامة الفرق المسيحية باستثناء البروتستانت.

والاعتراف في اصطلاح المسيحية هو إقرار الخاطئ بخطاياه رجلاً كان أم امراة أمام كاهن الله، إقراراً مصحوباً بالندامة والتأسف والعزم الثابت على ترك الخطيئة وعدم الرجوع إليها، لينال الحل منه بالسلطان المعطى له من الله.(٦)

---

(١) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص١٩١-١٩٢.
(٢) انظر: الرازي، مختار الصحاح، مادة (ت ا ب)، ص٨٠.
(٣) انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص٢٢٤.
(٤) مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص١٩٢.
(٥) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٤١.
(٦) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٣٣٧.

ويعرّفه (**زكي شنودة**) بقوله: "هو اعتراف الإنسان للكاهن بخطاياه وذنوبه وجرائره ومعاصيه".(١)

فالاعتراف يقوم على إفضاء المسيحي للكاهن بكل ما فعله من آثام وذنوب، وبهذا الاعتراف يُغفر ذنبه ويُعفى من العقوبة الأخروية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن للاعتراف في الفكر المسيحي مفهوماً واسعاً، فهو يشمل معانيَ روحية وإيمانية متعددة أهمها:

- الإقرار والمجاهرة بالإيمان.
- الإقرار بالخطيئة والاعتراف بها.
- الشكر لله.(٢)

ثانياً: تأسيس سر التوبة والاعتراف:

يرى المسيحيون أن **المسيح وعد بتأسيس هذا السر مرتين قبل أن يؤسسه، الأولى** عندما اعترف القديس بطرس عنه وعن سائر التلاميذ بأن المسيح هو ابن الله الحي فقال له المسيح: "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنِ كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات" [متى: ١٦/١٨-١٩]، والمرة **الثانية** حين وعد التلاميذ قائلاً: "الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء" [متى: ١٨/١٨].

فهم المسيحيون من الإعلانين السابقين أنهما وعدٌ من المسيح للتلاميذ وعلى رأسهم بطرس **أن يؤسس لهم سراً يجعل الصلاحية لهم في إقامته وتفعيله بين الناس.**

ووفقاً للوعد السابق يرى المسيحيون أن المسيح أسس هذا السر بعد قيامته من بين الأموات، حين ظهر لتلاميذه وقال لهم: "سلام لكم كما أرسلني الآب أرسلكم أنا، ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس، من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت" [يوحنا: ٢٠/ ٢١-٢٣](٣)، بنى المسيحيون على هذا الإعلان أن المسيح أعطى الرسل وخلفاءهم سلطانه الإلهي أن يحلوا ويربطوا خطايا البشر، وأن يتركوها ويمسكوها بواسطة الروح القدس، أي بقوته وفعله غير المنظور في عمل مقدس منظور، فمن هنا جعل المسيحيون التوبة سراً مقدساً مستوفياً جميع الأوصاف المطلوبة كأي سر من أسرار الكنيسة، وكذلك يستدل المسيحيون على أهمية هذا السر وتأكيد تشريعه بأقوال آباء الكنيسة، ولا حاجة لسردها هنا.(٤)

ولقد ورد في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد إعلانات أخرى اتخذها المسيحيون أدلة على مسألة الاعتراف، منها:

في العهد القديم:

- "إذا أخطأ أحدكم أو مسَّ شيئاً نجساً أو إذا حلف .... يقر بما أخطأ به ويأتي إلى الرب بذبيحة ملائمة عن خطيئته .... فيكفّر عنه الكاهن من خطيئته" [لاويين: ٥/١-٦].
- "اعترف شاول الملك أمام صموئيل بأنه خاطئ إلى الله وإلى صموئيل أيضاً ولذلك طلب المغفرة من صموئيل كتائب إلى الله" [صموئيل: ٩/١٥].
- "وتأتي إلى الكاهن الذي يكون في تلك الأيام وتقول له اعترف اليوم للرب إلهك" [تثنية:

---

(١) شنودة، تاريخ الأقباط، ١/٢٦٩.
(٢) انظر: المقاري (أثناسيوس)، التاريخ الطقسي لسر التوبة والاعتراف، ص٢٩، ٣٢.
(٣) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٤١-١٤٢.
(٤) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص١٩٥-١٩٧، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٤٣.

٣/٢٦].

وفي العهد الجديد:

- كان يوحنا المعمدان يكرّز بالتوبة قائلاً: "توبوا لأنه قد اقترب منكم ملكوت السموات .... حينئذٍ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية، وجميع الكوره المحيطة بالأردن، واعتمدوا منه معترفين بخطاياهم" [متى: ٣/١-٦].
- "وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون معترفين ومخبرين بأفعالهم" [أعمال الرسل: ١٩/١٨].
- "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا" [يعقوب: ٥/١٦].(١)

المطلب الثاني: أهمية التوبة وشروطها

أولاً أهمية التوبة:

يرى المسيحيون أن للتوبة أهمية في تحديد مصير الإنسان، و**يتحدد ذلك في النقاط التالية:**

١- **التوبة شرط أساس في مسألة الخلاص،** "إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون" [لوقا: ١٣/٣].
٢- **التوبة تسبق المعمودية** "توبوا وليعتمد كل منكم على اسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا" [أعمال الرسل: ٢/٢٨].
٣- **التوبة تلازم الإيمان وتسبقه،** فالإيمان بدون توبة لا يخلّص أحداً عند عامة المسيحيين - باستثناء البروتستانت – لأن عدم التوبة سبب في هلاك الإنسان كما تقدم.
٤- **التوبة تسبق التناول** من الأسرار المقدسة "ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب دينونة لنفسه" [كورنثوس١: ١١/٢٧].(٢)

ولقد أشرت سابقاً إلى أن المسيحيين حين يتكلمون عن التوبة وشروطها فإنهم يتكلمون عن الاعتراف؛ إذ الاعتراف هو الطريقة المثلى والوحيدة للتوبة في المسيحية.

ويعتقد المسيحيون أن **الاعتراف على يد الآب الكاهن هو اعتراف لله في نفس الوقت** لأن الإنسان وإن اعترف للكاهن لكنه عندما فعل الشر فإنه أساء لله وصنع الخطيئة له، ولذلك قال داود: "لك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك صنعت" [مزامير: ٥١/٤]، كما أن الاعتراف على الكاهن واجب لأنه هو المؤتمن من قبل الله في توزيع نعمه السمائية، يقول بولس: "كخدام المسيح ووكلاء سرائر الله" [كورنثوس١: ٤/٩].

ويعتقد المسيحيون أن **الاعتراف إلى الله مباشرة دون الاعتراف على الكاهن لا يوافق الإنسان؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يردع نفسه باعترافه إلى الله مباشرة لأنه لا يراه،** فلو كان يهابُ اللهَ فلماذا يخطئ وهو يعلم بوجوده.(٣)

من هنا يبرر المسيحيون الدليل العقلي على وجوب الاعتراف إلى الكاهن لا إلى الله مباشرة، فلا بد إذاً من كاهن بشري منظور كوكيل عن الله للمحاسبة والردع، ويعتقدون أنه من اللائق للعدل الإلهي أن يجعل الذي يحاكم الإنسان على خطاياه هو إنسان مثله تحت الآلام يعرف ضعفه، يقول بولس: "لأن كل رئيس كهنة مأخوذ من الناس يقام لأجل الناس في ما لله

---

(١) انظر: خليل، التوبة والاعتراف عقائدياً وروحياً وطقسياً، ص٥٥-٥٧.
(٢) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ٣٣٦-٣٣٧.
(٣) انظر: خليل، التوبة والاعتراف (عقائدياً، روحياً، طقسياً)، ص٦٠.

لكي يقدم قرابين وذبائح عن الخطايا، قادراً أن يترفق بالجهال والضالين إذ هو أيضاً محاط بالضعف" [عبرانيين: ٥/١-٢].[١]

كما أن الاعتراف على يد الكاهن ضروري حتى يعين الإنسان على توضيح الخطأ من الصواب.

ثانياً: شروط التوبة:

وللتوبة شروط مهمة، ولكل شرط منها كثيرٌ من الآثار الروحية والترتيبات الإيمانية تُظهر أهمية هذه الشروط وآثارها:

١ـ الشروط العامة:

أ. انسحاق القلب: على التائب أن يشعر بثقل خطاياه ويعترف أنه اقترف أمام الله جريمة استحق بها بُعد الله عنه، فعليه أن يحزن ويتوجع أنه أغضب الله وتعدّى على شريعته، وإذا فُقد هذا (الانسحاق) فإن التوبة غير حقيقية[٢]، بل رياء ظاهري "لأن الحزن الذي بحسب مشيئة الله يُنشئ توبة لخلاص بلا ندامة" [كورنثوس٢: ٧/١٠].

ب. عزم ثابت على إصلاح السيرة: فالإنسان الذي امتُحن ببعض الخطايا وعزم على السلوك بالسيرة الحسنة عليه أن يضع حداً للأمور الماضية، ويجعل لنفسه بداية جديدة بعد ارتكابه الخطايا، وكأن حياته قد تجددت بالتوبة.[٣]

ت. إيمان وطيد بالمسيح يسوع ورجاء في تحننه: مهما كان حزن الإنسان عميقاً، ومهما كان عزمه على إصلاح عيشته وتحسينها في المستقبل ثابتاً فإنه لا يمكن أن يستحق الغفران دون الإيمان والرجاء بيسوع المسيح[٤]، "ليس بأحدٍ غيره الخلاص لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص" [أعمال الرسل: ٤/١٢]

ث. اعتراف شفوي بالخطأ أمام الأب الروحي: تروي الأناجيل أن المسيح قال لتلاميذه: "اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت" [متى: ٢٠/٢٣]، وعليه فليس بإمكان الكهنة أن يغفروا الخطايا أو يمسكوها دون أن يعلموها ويفحصوها، ولا يتم ذلك إلا بالاعتراف بها، كما أن مسألة وجوب الاعتراف إلى الكاهن مؤيدة بالكثير من أقوال الآباء القدماء التي يصعب حصرها، ما يدل على أهميتها ووجوبها، ومن ناحية ثانية هي مؤيدة أيضاً بشهادات المجامع الإقليمية والمسكونية، كمجمع (اللاذقية) الذي كان بين سنة ٣٤٣ إلى ٣٨١م، والمجمع المسكوني السادس (مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨١م) الذي تضمّن التفصيل الكامل لهذه المسألة ووجوب اطلاع الكاهن على خطيئة المعترف بالتفصيل.

٢ـ شروط المعترف وواجباته:

يرتب المسيحيون على المعترف جملة من الشروط والواجبات ينبغي على المعترف أن يلتزم بها قبل الاعتراف وأثناءه وبعده أيضاً.

أ. شروط المعترف قبل الاعتراف:

وهي **شروط تدور حول شروط التوبة السابقة البيان،** أهمها:

- أن يكون تائباً نادماً ندامة كاملة حباً بالله لا طمعاً في ثواب أو خوفاً من عقاب.

---

(١) انظر: خليل، التوبة والاعتراف، ص٦٠.
(٢) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٤٦-١٤٧.
(٣) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار، ص٢٠٥.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢٠٦.

- أن يترك الخطيئة ويرجع عنها ويهرب من الأسباب التي تقود إليها.
- أن يجزم بكل قلبه ألّا يخطئ فيما بعد.
- أن يفحص ضميره ويمتحن نفسه هل سار بموجب وصايا الله، وأيّة وصية خالفها، وأية خطيئة ارتكبها سواء في حق الله أو حق القريب أو نفسه بالقول أو الفعل أو الفكر.
- أن يختار طبيباً روحياً ماهراً.(١)

ب. شروط المعترف أثناء الاعتراف:

- أن يعترف بقلب منسحق وروح منكسرة وتذلل أمام الله.
- أن يكون صادقاً في اعترافه عالماً أن الله ناظر إليه وشاهد من السماء وسامع اعترافه.
- أن تكون غايته شفاء نفسه وخلاص روحه في يوم الرب.
- أن يكشف لطبيبه الروحي كل أمراضه الكبيرة والصغيرة والخفيفة والثقيلة، دون أن يُخفي شيئاً منها.
- ألّا يعتذر عن خطيئته ولا ينسب علة فعلها لغيره.(٢)

ث: واجبات المعترف بعد الاعتراف:

- أن يتمم كل ما يفرضه عليه معلمه الروحي من التأديبات الروحية والقوانين الكنسية.
- أن يعزم على إصلاح سيرته في المستقبل بأن يعيش بخوف الله ويقضي زمن غربته في البر والطهارة.
- ألّا يترك طبيبه دون مسوغ شرعي أو سبب قانوني.
- أن يواظب على الصلوات ملتمساً من الله بتذلل أن يقبله ويصفح عنه.(٣)

المطلب الثالث: الإجراءات الطقسية لسر التوبة والاعتراف:

يتميز سر التوبة عن باقي الأسرار في المسيحية ببساطة طقسه وإجراءاته، إذ يقوم الطقس بأكمله على فكرة واحدة هي الإفضاء بالذنب المقترف للكاهن مع ما يصاحب هذا الاعتراف من ندامة وإظهار للانكسار والخضوع.

أولاً: خطوات الاعتراف: يرى المسيحيون أن **المسيحية سارت في عهد الرسل على سيرة بني إسرائيل في اعترافهم العلني بالذنوب أمام الكهنة** بعد تقديم القربان في المذبح، يقول لوقا: "كان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم" [أعمال الرسل: ١٨/١٩]، لكن نظراً لطبيعة الإنسان والخجل الذي فيه ومراعاة لشعوره القلبي المنسحق وللضمير الحي الذي دفعه إلى التوبة من ذنبه فقد رتب آباء الكنيسة أن يكون الاعتراف سراً لا جهراً.(٤)

ويذكر **(ديورانت)**: "أن المسيح غفر الخطايا، وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها قدرة الربط والحل، وأن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين، ومن بطرس إلى البابوات، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن، واستبدلت بطريقة الاعتراف السري".(٥)

وفي سنة ١٢١٥م قرر مجمع اللاتيران الرابع أن يتكرر الاعتراف والعشاء كل عام، وإذا

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١٧٨/٢-١٧٩.
(٢) انظر: المرجع السابق، ١٨٠/٢-١٨١.
(٣) انظر: المرجع السابق، ١٨٢/٢-١٨٤.
(٤) انظر: سوريال (صليب)، دراسات في أسفار موسى الخمسة، ص٢٧٨.
(٥) ديورانت، قصة الحضارة، ١٤/١٦-١٥.

أهملها إنسان حُرم من جميع خدمات الكنيسة ومن دفنه دفنة مسيحية.[١]

وللمسيحيين تراتيل معينة يرتلونها أثناء تأدية هذا الطقس، ويذكر البابا شنودة الثالث أن الكنيسة وضعت صلوات يومية تطلب فيها التوبة، يقول المصلي في صلاة النوم "هو ذا أنا عتيد أن أقف أمام الديان العادل مرعوباً ومرتعباً من أجل كثرة ذنوبي.... فتوبي يا نفس ما دمت في الأرض ساكنة، أي جواب تجيبين وأنت على سرير الخطايا منطرحة، وفي إخضاع الجسم متهاونة".

وفي صلاة الغروب يقول: "إذا كان الصديق بالجهد يخلص، فأين أظهر أنا الخاطئ؟".

وفي صلاة نصف الليل يقول: "أعطني يا رب ينابيع دموع كثيرة، كما أعطيت في القديم للمرأة الخاطئة، طهرنا من دنس الجسد والروح، وانقلنا إلى سيرة روحانية، لكي نسعى بالروح ولا نكمل شهوة الجسد".[٢]

وطريقة **التوبة الفردية** كما يلي:

يذهب الشخص الخاطئ إلى غرفة يستقبله فيها الكاهن باسم أبي الابن الضال، وباسم الكنيسة ليتصالح معها ومع الله بواسطة الكاهن، ويرشم الكاهن على جبين الخاطئ إشارة الصليب باسم الآب والابن والروح القدس، ثم يقول الكاهن: "ليعطك الله أن تعرف خطاياك على ضوء محبته، ادن من الله بثقة، فهو لا يريد موت الخاطئ بل أن يرتد ويحيا ليقبلك الله، وقد جاء يدعو لا للأبرار بل الخطاة فثق به". ويجيب المذنب آمين.

وبعد ذلك يقرأ الكاهن نصاً من الكتاب المقدّس من النصوص التي تتحدث عن رحمة الله، وبعد ذلك يعترف التائب بخطاياه ويشدد على ما يجب أن يتغير في حياته كي يعيد الصداقة التامة مع الله، ويساعد الكاهن التائب على التوبة، والكاهن ملزم أن يكتم السر بحكم وظيفته، ثم يفرض الكاهن على التائب تكفيراً مناسباً لفظاعة الخطيئة وطبيعتها، كالصلاة، أو قراءةكتابية، أو أي عمل فيه طاعة، وهذا ما يسمية المسيحيون بـ (التأديبات الكنسية).

بعد ذلك يصلي التائب، وقد يشاركه في الصلاة الكاهن، وهي صلاة يطلب فيها الغفران، وتتألف من الصلاة المعروفة في المسيحية أبانا الذي في السموات ..... ثم يقول: "اذكر مراحمك يا رب وإحساناتك لأنها منذ الأزل هي، لا تذكر خطايا صباي ولا معاصي كرحمتك اذكرني أنت من أجل جودك يا رب" [مزامير: ٦/٢٥-٧].

ثم يقول: "ارحمني يا الله حسب رحمتك، حسب كثرة رأفتك امح معاصيّ اغسلني كثيراً من إثمي ومن خطيئتي طهرني، لأني عارف بمعاصيّ وخطيئتي أمامي دائماً، إليك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك صنعت قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله روحاً مستقيماً جدد في داخلي" [مزامير: ١/٥١-٤، ١٠]، ثم يقول: يا أبت قد أخطأت إلى السماء وأمامك ولا أستحق بعد أن أُدعى لك ابناً، يا رب اشفق علي أنا الخاطئ، يا يسوع المسيح مخلّص العالم، أسألك كاللص الذي فتحت له باب الفردوس اذكرني يا رب في ملكوتك، يا رب أخطأت إليك وإلى إخوتي، لكن عندك المغفرة، فاقبل ندامتي وأعطني القوة لأعيش وفقاً لمحبتك، أيها الرب يسوع يا من شئت أن تُدعى صديق الخطاة، بحق سر موتك وقيامتك خلصني من خطاياي، ليكن سلامك في داخلي لكي أحيا أكثر فأكثر في الحب والعدالة والحق، أيها الرب يسوع المسيح يا حمل الله الحامل خطيئة العالم، بحق نعمة روحك القدوس تنازل وصالحني مع الآب، اغسلني بدمك من كل هفوة واجعلني إنساناً يحيا ليذيع مجدك، أيها الروح القدوس ينبوع المحبة، إني أدعوك بثقة، طهرني

---

(١) انظر: المرجع السابق، ١٥/١٦.

(٢) درويش، الكنيسة أسراراها وطقوسها، ص٣٤٤.

وأعطني أن أحيا ابناً للنور.[١]

ثم بعد ذلك يقف الكاهن ويبسط يديه أو يده اليمنى فوق رأس التائب، ويلفظ صيغة التحليل: "وأنا باسم الآب والابن والروح القدس أحلك من خطاياك" ويرسم على التائب إشارة الصليب[٢]، ثم يدعو الكاهن التائب إلى فعل الشكر ويجيبه التائب، فيقول الكاهن: أدّ الشكر لله لأنه صالح، فيقول التائب: إنه إلى الأبد صالح، فيقول الكاهن: قد غفر الله خطاياك، فاذهب بسلام المسيح، فيقول التائب: الشكر لله.[٣]

أما **التوبة الجماعية** فلها **طقس مشابه للتوبة الفردية** كما يلي:

تبدأ بغناء أنشودة الافتتاح التي تتضمن دعوة إلى التوبة والثقة بالله، ثم يسلّم الكاهن على الجماعة، ويتلو مقدمة تتضمن دعوة إلى الصلاة، ثم يقول: "أرسل روحك يا رب وليغسلنا في ينابيع التوبة الصافية، وليجعل منا ذبيحة حية لنستطيع أن نرتل مجدك في كل مكان وأن نعترف برحمتك يسوع المسيح ربنا. آمين".

"أيها الرب إلهنا حبك أقوى من إهانتنا، إنك تستقبل من يحاول أن يعود إليك، انظر إلينا بحسب محبتك، فنحن نعترف أننا أخطأنا إليك، هبنا أن نحتفل بسر رأفتك وأن تغير حياتنا لنعرف معك الفرح الذي لا يزول بالمسيح ربنا. آمين"[٤]، ثم يختار نصاً من الإنجيل يبشر بالمغفرة ويدعو إلى الارتداد عن المعصية، من هذه النصوص: [متى: ٣/١-٤، ١٢/١٢-١٧، ٩/٩-١٣] و[لوقا: ٢/٨-١٤، ٤/٦-١٦، ٢١/١٤-٣٦، ٣٨/١٢-٢٤].

ثم يعطي الكاهن وقتاً للصمت كي يتمكن كل واحدٍ من فحص ضميره، ومن اتخاذ موقف الندامة، وبوسع الكاهن أو أحد الخدام أو أحد الحاضرين أن يساعد الباقين بجمل قصيرة أو بأدعية تناسب الموقف، بعد ذلك يُدعى الحاضرون للوقوف أو الركوع بالانحناء ويتلون معاً اعتراف جماعي "أنا أعتراف لله"، ثم يجيبون على طلب الكاهن وأدعيته، ويشتركون في نشيد ويختمون هذا الطقس بالصلاة الربية.[٥]

ثم يقول الكاهن: "يا رب بمحبتك جعلتنا نشعر بفرح حضورك وبغزارة غفرانك، فنريد أن نمدحك ونشكرك، أبعد عنا ما قد يفصلنا عنك وعن إخوتنا، نسألك ذلك بيسوع المسيح ربنا، أيها الإله الذي صالحت البشرية جمعاء، إذ أعطيتها ابنك الحبيب أعطنا أن نتذوق هذه المصالحة في واقع حياتنا لكي يشرق على العالم فرح قيامتك بيسوع. آمين"[٦]

ولا يوجد وقت محدد لصلاة التوبة، وغالباً ما تُؤدى في أيام الأعياد، كعيد الشعانين وعيد الفصح وأعياد الآحاد، وقد يصاحب صلاة التوبة بعض أنواع القرابين التي تُقدّم حسب المناسبات وما تقتضيه الطقوس.[٧]

ثانياً: التأديبات الكنسية:

تعدّ التأديبات الكنسية مترتبة على التوبة، فيرى المسيحيون أن الكنيسة اعتادت **أن تفرض على التائب بعض القصاصات التأديبية**، والقصد من هذه القصاصات **تأديب الخاطئ وإصلاح**

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤٤-٣٤٦.
(٢) درويش، الكنيسة أسراراها وطقوسها، ص٣٤٧.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٤٨.
(٤) المرجع السابق، ص٣٤٩.
(٥) المرجع السابق، ص٣٥٠-٣٥١.
(٦) المرجع السابق، ص٣٥١.
(٧) المرجع السابق، ص٣٥٢.

حاله وتقويم سيرته.[١]

ويستدل المسيحيون على تشريع هذه التأديبات بأقوال بولس في رسائله، يقول في رسالته إلى العبرانيين: "لأن الذي يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابنٍ يقبله، إن كنتم تحتملون التأديب يعاملكم الله كالبنين فأي ابنٍ لا يؤدبه أبوه؟" [عبرانيين: ١٢/٦-٧]، ويقول أيضاً: "ولكن إذ قد حُكم علينا نؤدب من الرب لكيلا ندان مع العالم" [كورنثوس١: ١١/٣٢]. **وأشهر التأديبات الموجودة في الكنيسة هي الصوم الخصوصي**، بمعنى صوم غير الأيام المفروضة، **وكذلك بعض الصلوات**، وتوزيع جزء من ماله صدقة على الفقراء، وتأخير التناول من الأسرار المقدسة وقتاً يُناسب ثقل الخطيئة التي اعترف بها المعترف

ويرى المسيحيون أن هذه التأديبات ما هي إلا بمنزلة عقاقير روحية تعالج بها أمراض النفس للتهذيب والتقويم، وذلك استدلالاً بما فعله بولس في رسالته إلى أهالي كورنثوس مع المختلط بالدم، فإنه حكم عليه أولاً بالفرز من الكنسية، فلما أنتجت هذه التأديبات الغرض المقصود منها أرجعه بقوله: "مثل هذا يكفيه هذا القصاص الذي من الأكثرين حتى تكونوا بالعكس تسامحونه بالحري وتعزونه لئلا يُبتلع مثل هذا من الحزن المفرط، لذلك أطلب أن تمكنوا له المحبة" [كورنثوس٢: ٢/٦-٨].

ولقد ورد ذكر هذه القوانين التأديبية في الأوامر الرسولية (الدسقولية) والمجامع المقدسة، وشهد لها الآباء الأوائل، وكل هذه الأمور يعتقدها المسيحيون أدلةً يستدلون بها على التأديبات الكنسية، ويخصّ المسيحيون استعمال هذه التأديبات الكنسية في حق المصرّ على الاستمرار في المعصية والخطيئة، لا سيما في حال عدم توبته عنها، إذ تستخدم في حقه وقتها أشد التأديبات، أو لاقترافه خطأً فاضحاً بين الجماعة.[٢]

ويقسّم المسيحيون التائبين إلى أربعة أقسام:

١- **رتبة الباكين** الذين لم يكن لهم حق في حضور الخدمة الشريفة، وكانوا قديماً يقفون خارج الكنيسة ويتضرعون بدموع إلى الداخلين إلى الكنيسة ليصلوا من أجلهم.

٢- **رتبة السامعين** الذين كان مسموحاً لهم أن يدخلوا إلى الكنيسة ويقفوا في موضع خاص بهم، ويسمعوا التعليم وكلام الله والصلوات.

٣- **رتبة الراكعين** الذين كانوا يقفون مدة أكثر من الأولين ركوعاً أمام باب الكنيسة.

٤- **رتبة المشتركين** الذين كانوا يشتركون مع المؤمنين في الصلاة دون أن يتناولوا من الأسرار المقدسة.[٣]

وينظر المسيحيون إلى هذه التفرقة بين رتب التائبين على أنها أنواع من التأديبات، إذ كما هو واضح يتم استبعاد البعض من المشاركة في العبادة والخدمة، ويتم الحكم على البعض بالبقاء مدةً وهم راكعون وغير مسموح لهم أيضاً بالمشاركة في طقوس العبادات، والبعض يُسمح لهم بالدخول والاستماع فقط دون الاشتراك بالعبادة والخدمة، **وكانت الكنيسة قديماً تستخدم هذه التفرقة بين التائبين نوعاً من التأديب لهم**، وكل مرتبة تتضمن أنواعاً من الذنوب والمعاصي التي يأتي الشخص تائباً عنها، فالغرض منها إصلاح حال الخاطئ ليس إلا.

والأمر الأكثر أهمية في قضية التأديبات الكنسية هو خطورة استعمال هذه التأديبات أو العقوبات الكنسية بدون خبرة ودراية في علاج الخاطئ، فتكون حينها هذه التأديبات داء بدلاً من

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٦١.
(٢) انظر: المقاري، التاريخ الطقسي لسر التوبة والاعتراف، ص٤٢.
(٣) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٦١.

أن تكون دواء، جاء في الدسقولية: "لتشف الذين ضلوا بالخطيئة كطبيب للعاجز، ومشارك للمتعبين، وأنت الآن طبيب كنيسة الرب، فقدّم الأشفية اللائقة بكل واحدٍ من المرضى لتشفيهم وتنجيهم بكل شكل، ولترتّبهم في الكنيسة".(١)

ولقد صار الكتاب الثاني من مجموعة كتب المراسيم الرسولية دليلاً رعائياً شاملاً نصائح مطولة في معالجة الخاطئ، ولقد فوّضت الكنيسة للأسقف سلطة توقيع العقوبة أو التأديب على الخاطئ؛ لحفظ سلامة الرعية، داعيةً له أن يحكم على الذين أخطؤوا بالرحمة والرأفة، فإن كان واجب الأسقف ألّا يغفل عن خطايا الشعب وينهر الذين يخطئون ويعاقبهم على ما يفعلون فعليه أيضاً أن يؤدب بوداعة الذين لا يريدون أن يرجعوا إلى الخطايا، وأن يتقبّل الذين يتوبون برحمة ورأفة ويبشرهم بالخلاص.

جاء في التعاليم الدسقولية: "أَرْجِع (أيها الأسقف) ذاك الذي طُرِد خارجاً، أي لا تسمح بأن الذي يكون في خطاياه وطُرد خارجاً على سبيل العقاب أن يستمر مبعداً، بل اقبله إليك وردّه إلى داخل شعب الكنيسة البار"(٢)

والفقرة الأكثر شهرة من النصوص الدسقولية المنتشرة في كتب اللاهوت التي تحمل مضموناً رعائياً مميزاً هي التالية:

"وأنت إذا رأيت الذي أخطأ فاغضب يسيراً، ومُر أن يخرج، فإذا خرج فليوبّخه الشمامسة، ويطلبوه ويمسكوه خارج الكنيسة، وليدخلوا فيسألوك من أجله .... حينئذٍ تأمر أن يُدخل، وإذا وجدت بالفحص أنه تائب، أو بالجملة يستحق أن تقبله إليك في الكنيسة، فحدد له أيام صوم حسب درجة مخالفته، أسبوعين أو ثلاثة أو أربعة أو سبعة، وهكذا اتركه وعرّفه الواجبات على الذي أخطأ ليتأدب .... هكذا يجب أن نصنع بالذين يتوبون عن خطاياهم، أي نفصلهم زماناً معيناً كمقدار خطيئتهم، وبعد هذا إذا تابوا نقبلهم إلينا كما يقبل الآباء أبناءهم إليهم".(٣)

ولقد أورد (القرطبي) في كتابه (الإعلام) مجموعة من القوانين التي يطبقها البابوات المسيحيون تأديباتٍ على الخطاة، وهي على سبيل الإيجاز:

- **العابثون بالصبيان** لا يغفرون لهم ولا يعطونهم قرباناً أبداً ولا عند وفاتهم، إن كل من أتى هذه الفاحشة (أسقفاً) فليُعزل، ويبعد إبعاداً شديداً دائماً، وإن كان من غيرهم فلينكل له نكالاً شديداً ويضرب الفاعل والمفعول مئة سوط، ويُنفيان النفي الدائم، ولا يعطيهم أحد (من الكهنة) توبة، ومن أعطاهم وقَبِلَ قربانهم عُزِل وأُبعِد ولم يُعط توبة وغرم خمسة أرطال ذهباً.
- **لا ينكح رجل قريبته إلى سبع بطون**، فإن أصر على ذلك فلا يُغفر له، ولا يُعطى قرباناً وإن مات، وإن أقلع عنها حُرم القربان خمس عشرة سنة، ثم تُقبل بعد ذلك توبته ويُعطى القربان، أما المرأة فلا تُعطى قرباناً إلا عند وفاتها.
- مَن **أتى بهيمةً** وكان له زوجة لا يُعطى القربان إلا بعد ثلاثين سنة، وإن لم تكن له زوجة فبعد خمس وعشرين.
- ومن **تزوّج من غير بركة القسيسين** فإنه يُغرّم مئة دينار، ويُضرب الزوجان مئة سوط.
- من **قتل حراً عمداً** فإنه يُحرم من الكنيسة والدخول إليها والاشتراك في القربان إلى آخر حياته.
- من **قتل عبده** يُحرم القربان سنتين.

---

(١) سليمان (وليم)، الدسقولية – تعاليم الرسل، ص١١٤.
(٢) سليمان (وليم)، الدسقولية – تعاليم الرسل، ص١١١.
(٣) المرجع السابق، ص٩٩-١٠١

- من **قتل خطأً** يحرم القربان خمس سنين.[١]

الغاية من التأديبات الكنسية:

يرى المسيحيون أن غاية الكنيسة من فرض القوانين التأديبية هي غاية الله نفسه، إذ يعتقد المسيحيون أن الله يعاقب شعبه بنوعين يسمّى الأول قصاصاً، وهو ليس وفاءً لعدل الله، بل هو جزاء للعاصي على معصيته ونتيجة من نتائج غضب الله عليه "لأن غضب الله معلن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم الذين يحجزون الحق بالإثم" [رومية: ١٨/١].

والنوع الثاني يسمّى تأديباً، وهو نتيجة محبة الله لشعبه وشفقته عليهم، "ولكن إذ قد حكم علينا أن نؤدب من الرب لكيلا ندان مع العالم" [كورنثوس١: ٣٢/١١]، والغاية من هذا النوع من التأديب تقويم الاعوجاج وإصلاح الحال.

إذاً **الغاية الأساسية للكنيسة من قوننة التأديبات الكنسية** هي:

١- **تقويم الشعب وخلاص نفوسهم في يوم الرب:**
٢- **لتكون كمحك لاختبار توبة التائب، وأثمارها التي تنجم عنها.**
٣- **لأنها رياضة تَقَويَّة تدل التائبين على الوجه والواسطة اللذين بهما يجب أن ينطقوا ويعترفوا أمام الله.**
٤- **لتكون قيداً ولجاماً للنفس** حتى لا تجمح إلى الخطيئة ثانية.[٢]

فوائد التأديبات الكنسية:

يرى المسيحيون أن للتأديبات الكنسية فوائد مترتبة على الغايات التي شرعت التأديبات من أجلها، **وأهم هذه الفوائد:**

١- **تساعد على تضميد قروح الخاطئ،** وشفاء النفس من أمراضها الروحية بنعمة الله.
٢- **تبث في الإنسان التائب عاطفة الشوق إلى الفضيلة،** وتعوّده على إحراز العادات الحسنة.
٣- **تربي في الإنسان روح الانسحاق والخشوع،** وتولّد فيه الشعور بالخطيئة ونتائجها المريعة.
٤- **تنشئ التأديبات الكنسية في الإنسان التائب بغضاً للخطيئة،** واحتراساً من الوقوع فيها.[٣]

ثالثاً: صكوك الغفران:

عملاً بالمبدأ السابق (التأديبات الكنسية) فقد رتّبت الكنيسة الكاثوليكية نوعاً جديداً من التأديب، وهو أن يدفع التائب من الخطيئة مبلغاً مالياً لقاء صك من صكوك الغفران التي كانت تبيعها الكنيسة، وبشرائه لهذا الصك يكون قد تحلل من ذنبه، وبعض الصكوك أيضاً كانت تحتوي على التحليل من الذنوب الماضية في القديم وكذلك من الذنوب المستقبلية، وهذا الأمر يتم حسب ما يدفعه الشخص إلى الكاهن أو الأسقف أو المندوب عن الكنيسة.

ويكاد يُجمع أكثر الباحثين في التاريخ على أن بدعة (صكوك الغفران) التي ابتدعتها الكنيسة الكاثوليكية كانت **السبب الديني الأكبر لحركة الإصلاح الديني،** وشكّلت المنبع الأساس لضرورة الإصلاح في الغرب.

---

(١) انظر: القرطبي (محمد بن أحمد)، الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام، ص٤٠٥-٤٠٧.
(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١٨٩/٢-١٩٠.
(٣) انظر: المرجع السابق، ١٩١/٢.

١- تأصيل بدعة صكوك الغفران:

سبق بيان ما يعتقده المسيحيون بأن السيد المسيح قد منح الرسل قدرة مغفرة الخطايا، وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن[١]، لكن عند التحقيق في هذه المسألة يتبين لنا السبب الدنيوي المادي الذي انتشرت هذه الصكوك من خلاله.

كان رئيس الأساقفة في ألمانيا (ألبيرت)[٢] يتطلع بعين الرغبة إلى منصب رئيس أسقفية مقاطعة (ماينز)، لكن باعتبار أنه لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره وأن القانون يحظر الاحتفاظ بأكثر من منصب واحد فقد اضطر لدفع حوالي ٢٥٠٠٠٠ ألف دولار للبابا (ليو العاشر)[٣] لحيازة المنصبين، تلاقت رغبته تلك مع رغبة البابا (ليو العاشر) في الحصول على المال لبناء كاتدرائية القديس بطرس القائمة الآن في روما، وقد سمح البابا لألبرت أن يحتل كلا المنصبين شريطة أن يدفع له المبلغ المذكور، لكن بسبب ضخامة هذا المبلغ اقترح الكرسي البابوي على (ألبيرت) أن يستقرضه من عائلة ثرية في (أوغسبورغ)، وعندها صدر المرسوم البابوي الذي يجيز بيع الغفرانات كنوع تأمين لسداد (ألبيرت) لهذا القرض، فحصل (ليو) على مبلغ يقدّر بثلث المال المحتاج إليه في حين أن بقية المبلغ جمع بطريقة بيع الغفرانات.[٤]

كان هذا هو النظام المعتمد لجمع الأموال عن طريق بيع الغفرانات، لكن من الملاحظ أن هذا القانون الصادر قد أُسيء استخدامه إلى أبعد الحدود، فقد كان الهدف من إصداره مساعدة (ألبيرت)، ولقد ذهب وكيل العائلة التي استقرض منها (ألبيرت) ليتأكد من تحويل هذه الأموال إلى العائلة ففوجئ بأن أكثر من نصف المبلغ المتبرع به ضمن الصك يسرقه بائعو الغفران أنفسهم، ويستخدمون طرقاً وأساليبَ مبالغاً فيها لبيع الصكوك، ويبشرون الناس بغفران أخطر السيئات والخطايا لو اشترى الخاطئ صكاً، والمبلغ المادي يتحدد على ضوء حالة الخاطئ المادية ووضعه الاجتماعي، في حين أن بعض الغفرانات كانت تمنح للفقراء مجاناً.

ويرجع بعض الباحثين تقرير هذه المسألة إلى المجمع الكنسي الثاني عشر الذي يُسمّى مجمع لاتيران الرابع سنة ١٢١٥م، ذلك لأن هذا المجمع أنهى تعاليمه فيما يتعلق بأمر الغفران بأن يسوع المسيح كان قد قلّد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان منذ الأيام الأولى، وقد أُمر بأن تحفظ للكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي المثبتة بسلطان المجامع.[٥]

يرتبط الغفران بسرّ الندامة؛ فبعد أن يتوب الخاطئ عن خطيئته ويعترف بها يمنح الحل من قِبل الكاهن بشرط تقديم الفدية، ثم بعد ذلك فإن المعترف يتعين عليه الخضوع للتأديبات الكنسية

---

(١) انظر: ديورانت، قصة الحضارة، ١٤/٥.

(٢) هو القديس ألبرت (١٢٠٠ – ١٢٨٠) فيلسوف ولاهوتي ألماني، انضم عام ١٢٢٣ إلى الرهبنة الدومينيكانية، ثم حاضر في مواضيع اللاهوت في باريس حيث قرأ كتب أرسطو، ومن ثمّ حاول التوفيق بين اللاهوت المسيحي والفلسفة الأرسطوية، وكان أحد أساتذة القديس (توما الأكويني)، واعتبر قديساً سنة ١٩٣١. انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٦٢.

(٣) ليو العاشر (١٤٧٥ – ١٥٢١م) تولى البابوية منذ سنة ١٥١٣ حتى وفاته، ورعى حركة الأدب والفن، وجعل من روما عاصمة للثقافة الأوربية، وعُرف بمحاباته أنسبائه والمقربين إليه في محاولة لبسط سيطرته على إيطاليا كلها، وأجاز عام ١٥١٥م بيع صكوك الغفران في ألمانيا فأدى ذلك إلى إغضاب (مارتن لوثر) وقيام حركة الإصلاح الديني. انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٤٠١.

(٤) انظر: كيرنز (آيرل أي)، المسيحية عبر القرون (تاريخ الكنيسة المسيحية)، ص٣٣٦.

(٥) انظر: أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٧١.

من صلاة أو صوم أو صدقة أو تعذيب البدن بالضرب أو غير ذلك[١]، فكان بائعو الغفرانات يقولون إن جرم الخطيئة والعقاب أبديان ولكن قد يسامح الله عليهما، إلا أن هناك فدية مؤقتة يتوجب على التائب تقديمها، ويمكن أن يكون ذلك عن طريق تقديم مبلغ من المال للكنيسة.

٢- تعليل بدعة صكوك الغفران:

وجد رجال الكنيسة طريقةً تُرضي دينونة الله على الشخص المعترف، وذلك ببيع (صكوك الغفران) من خزينة الاستحقاق، ولهم في ذلك تعليل بأن الدم الذي قدمه المسيح كان كافياً للخلاص بمقدار أوفى وأكثر من حاجة الجنس البشري، وأن القديسين والشهداء عملوا الصالحات بما هو أكثر من اللازم، لذلك فقد عملوا بما هو كافٍ وزيادة، وتم إدخال الفائض إلى خزانة سماوية، ويمكن للبابا السحب من هذا الفائض لصالح المؤمنين الأحياء عن طريق (صك الغفران).[٢]

٣- نص صك الغفران:

بمرور الزمن أصبحت هذه الصكوك بدعة مترسّخةً في الفكر المسيحي، إذ كلما أراد بابا الكنيسة أن يجمع مالاً لشيءٍ ما طبع صكوك الغفران ووزعها على أتباعه ليبيعوها للناس، وسأورد نصاً لأحد صكوك الغفران:

((ربنا يسوع يرحمك يا (يكتب اسم الخاطئ) ويحلك باستحقاق آلامه الكلية القدسية، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، وأمحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر، وأردّك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة، وأقرنك في شركة القديسين، وأردّك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك، حتى أنه ساعة الموت يُغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويُفتح الباب الذي يُؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين طويلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن والروح القدس)).[٣]

يوضح لنا هذا الصك أن الخاطئ من خلاله يتطهر من ذنوبه ثم يُردّ إلى قداس الكنيسة فيكون واحداً من رعاياها المطهّرين ويصبح غير قابل أن تُؤثر فيه الذنوب والمعاصي مهما ارتكب منها وانغمس فيها، وهذا يُعدّ تحريضاً على الانغماس في الخطايا طالما أن مرتكبها سيكون بمنجاة من عذاب الآخرة، وكأن هذا الصك يُشكّل بطاقة أو جواز مرور للنعيم المقيم.

وجدت البابوية في فكرة بيع الصكوك مورداً مالياً غزيراً سهل المنال، وأخذ البابوات يرسلون مندوبين عنهم إلى الأقاليم الأوربية الغربية كافةً لبيع هذه الصكوك، وأقبل الأفراد على شراء هذه الصكوك كل حسب مقدرته المالية، بل بلغ الأمر بالبعض أنه كان يشتريها بدل أمواته نيابة عنهم لمغفرة ذنوبهم، ولم يكتف رجال الدين ببيعها بل كانوا يكلفون التجار أيضاً ببيعها، ويعطونهم على بيعها عمولةً قدرها الثلث، وكان لهذه الصكوك أسعار كالأسهم والسندات، فأصبحت مسألة بيع هذه الصكوك مسألة تجارية بحتة؛ إذ إن عملاء الكنيسة في هذا الصدد

---

(١) انظر: الإسكندري (عمر)، وحسن (سليم)، تاريخ أوربا الحديث وآثار حضاراتها، ص٥٠.
(٢) انظر: لوريمر، تاريخ الكنيسة، ٣٨/٤.
(٣) شلبي، مقارنة الأديان، ص٢٥٤. وقصاب (محمد عصام)، البحث عن الحقيقة الكبرى، ص٣٢٧.

كانوا من رجال المصارف المالية، فكانوا ينظمون البيع على أصول تجارية بحتة[١]، وبناءً على رفض البروتستانت لفكرة (صكوك الغفران) فقد أتبعوا رفضهم هذا برفض فكرة (المطهر) التي سيأتي بيانها في التعقيب.

٤- موقف رعايا الكنيسة من بيع صكوك الغفران:

أما العقلاء من رعايا الكنيسة فقد رضوا بها أول الأمر لأن انتشارها كان محدوداً من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن الأموال التي كانت تُجبى كانت تستخدم على ما ذكره البابوات لأحد أمرين:

الأول: بناء كنيسة جديدة تحمل اسم القديس (بطرس)، وذلك بسبب قدم الكنيسة الحالية وعدم صلاحيتها للترميم.

الثاني: تمويل الحروب الصليبية التي كانت موجّهة نحو الشرق بهدف القضاء على الجيش العثماني وإقامة إمارة صليبية مقرّها بيت المقدس.[٢]

هكذا كان موضوع هذه الصكوك في بدايته، لكن الذي حدث بعد ذلك وجد البابوات في هذه الصكوك باباً واسعاً لجلب الأموال وتوسيع ممتلكاتهم الخاصة، فكان منهم أن أعطوا هذه الصكوك مدىً أوسع وأفقاً أكبر في غفرانها للذنوب والخطايا، لذلك وُجد الكثير من رعايا الكنيسة ممن قام بمهاجمة هذه البدعة لأجل إلغائها، وفي مقدمة هؤلاء المصلح الألماني **(مارتن لوثر)**، الذي كان أول من قام بمهاجمة (يوحنا تيتزل)[٣] وهو الراهب الذي كان متفرغاً منذ سنة ١٥٠٠م لتوزيع الغفرانات فقط، ثم بعد ذلك هاجم (لوثر) البابا (ليو العاشر) بشخصه لإلغاء هذه البدعة.[٤]

وسأورد شاهدين يبينان رفض بعض رعايا الكنيسة لهذه البدعة:

أ. **(مايكونيوس)** وهو راهب فرنسسكاني سمع بصنيع (تيتزل) فكتب تقريراً عن هذا سنة ١٥١٧م يقول فيه: "إن ما قاله هذا الراهب الجاهل وبشّر به أمر لا يصدّق، لقد أعطى خطابات مختومة ضمّنها أن الخطايا التي يعتزم المرء أن يرتكبها سوف تُغفر له، وقال إن البابا يملك سلطاناً يفوق سلطان الرسل والملائكة والقديسين، بل يفوق سلطان العذراء مريم نفسها، لأن هؤلاء جميعاً كانوا أتباعاً للمسيح، أما البابا فإنه ندّ للمسيح".[٥]

---

(١) انظر: مظهر (سليمان)، قصة الديانات، ص٤٦٣. وعجيبة، أثر الكنيسة على الفكر الأوربي، ص٥٤.

(٢) انظر: السباتين (راجح)، المسيحية البروتستانتية وعلاقتها بالصهيونية في الولايات المتحدة، ص١١.

(٣) يوحنا تيتزل ١٤٦٥ – ١٥١٩م، راهب وواعظ ألماني، ينتسب إلى الرهبنة الدومنيكية الكاثوليكية، وكان هو المفتش الأكبر لمحاكم التفتيش في بولندا، حصل الكثير من المجادلات والمخاصمات بينه وبين (مارتن لوثر) والسبب في ذلك بدعة بيع الصكوك التي كانت وراء شهرة تيتزل، وكان يدافع عن مشروعية هذه البدعة بشكل قوي خاصة أن المال الذي كان يجمعه منها كان مخصصاً لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس، تمت إدانة تيتزل بتهمة الفساد الأخلاقي وبالرشوة والتزوير، وأدت هذه التهمة إلى انسحابه من الحياة العامة واعتزاله في دير الرهبان الدومينيكان حتى وفاته سنة ١٥١٩م. انظر: https://ar.wikipedia.org.

(٤) look: Schaff، (Philip)، History of the Christian Church، Publisher: Grand Rapids، hristian CLassics Ethereal Library، ٢٠٠٢، ٦/٨٦.

(٥) السباتين، المسيحية البروتستانتية وعلاقتها بالصهيونية في الولايات المتحدة، ص١٣.

ب. ينقل (**هربرت فيشر**)[١] في كتابه (أصول التاريخ الأوربي الحديث) قولاً لأحد المعاصرين لـ (تيتزل) دون أن يذكر اسمه يقول: "إنه ليس من المعقول ما ذهب إليه هذا الراهب الجاهل الأحمق حين قال للناس إنهم إذا ما أسهموا عن طواعية واشتروا الثواب وصك الغفران فإن كل تلال (سانت أنابورج) ستستحيل إلى كتلة هائلة من فضة صافية، وأنه ما إن سُمع رنين العملة في الصندوق حتى تكون روح من دفعت الأموال من أجله في طريقها إلى الفردوس"[٢]

نتبين مما سبق عدم رضا الكثير من رعايا الكنيسة بهذه البدعة، وإن كان أكثرهم قد قبلها في بدايتها، لكن حين تبينت الأمور رفض الكثير منهم هذه البدعة؛ ذلك لأن الفرد المسيحي الخاطئ كان يقول بلسان حاله: "لست أبالي كم أرتكب من الذنوب أمام الله، لأن من السهل عليّ أن أتخلص من كل ذنوبي ومما يترتب عليها من العقاب بالمغفرة وصكوك الغفران التي يمنحني إياها البابا الذي ابتاعها"[٣]

المطلب الرابع: القيم والمعاني لسر التوبة:

أولاً: نتائج التوبة:

يرتب المسيحيون على سر التوبة الكثير من النتائج التي ينالها التائب إذا كانت توبته صادقة ومتكاملة الأركان والشروط، ويستدل المسيحيون لكل نتيجة من هذه النتائج بإعلانات من الكتاب المقدس، ومن أهم هذه النتائج:

١- **مسامحة الخاطئ ونيله غفران خطاياه:** "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم" [يوحنا١: ٩/١].

٢- **محو الخطيئة وعدم ذكر الله لها:** "فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيا لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تُذكر عليه في بره الذي عمل يحيا" [حزقيال: ٢١/١٨-٢٢].

٣- **التطهر والتبرر من الخطيئة وآثارها:** "اغسلني كثيراً من إثمي ومن خطيئتي طهرني، لأني عارف بمعاصي وخطيئتي أمامي دائماً" [مزامير: ٢/٥١].

٤- **نيل الخلاص والحصول على رجاء الحياة الأبدية:** "فقال له يسوع اليوم حصل خلاص لهذا البيت" [لوقا: ٩/١٩].

٥- **الانعتاق من عقاب الخطيئة:** "أقول لكم بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون" [لوقا: ٣/١٣].

٦- **المصالحة مع الله ونوال سلامه:** جاء في رسالة بولس إلى أهل رومية: "فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح" [رومية: ١/٥].

٧- **الحصول على رتبة البنوة التي فقدها الخاطئ بخطيئته:** "لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش

---

(١) هربرت ألبرت لورانس فيشر، مؤرخ إنكليزي، عُرف بإيمانه العميق بتقدم العقل وروح التسامح، من أشهر آثاره: (الإمبراطورية الوسيطية) نشره عام ١٩١٣، و(أصول التاريخ الأوربي الحديث) نشره عام ١٩٣٥. انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٣٣٩.

(٢) فيشر (هربرت)، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية، ص١٠٠.

(٣) مخزوم (محمد)، مدخل لدراسة التاريخ الأوربي (عصر النهضة)، ص١١٣.

وكان ضالاً فوجد فابتدؤوا يفرحون" [لوقا: ١٥/٢٤].[١]

ثانياً: علامات قبول التوبة:

من علامات قبول التوبة عند المسيحيين كما هي في كتب اللاهوت المسيحي ما يلي:

١- **الاعتراف بالخطأ أمام الله** في الصلاة وأمام الكاهن في الكنيسة، والاعتراف بالخطأ إلى من أذنب إليه، والإقرار بالخطأ في النفس أيضاً، فيرى المسيحيون أن توفيق الإنسان للإقرار بالخطأ لهو **دليل على أن الله سيقبل توبته** ويمحو خطيئته.

٢- **الشعور بالخجل** والخزي من بشاعة الخطيئة.

٣- **الندم والألم والبكاء** أثناء تأدية العقوبة التي يراها الكاهن ويفرضها على التائب.

٤- **إصلاح نتائج الخطأ** على قدر المستطاع.

٥- **الإشفاق على المخطئين** لأنه من شأن التوبة المقبولة الصحيحة أن تنزع من قلب التائب كل قسوة.

٦- **اعتياد الوداعة** والهدوء وعدم المخاصمة والصياح وقلة الكلام.

٧- **الإحساس بالحرارة الروحية** التي تجعل الإنسان في تغيير حياته إلى الأفضل، فالتوبة تولّد داخل قلب الشخص محبةً نحو الله.

٨- **السير في حياة الفضيلة**.[٢]

ثالثاً: أنواع الخطايا من حيث قابليتها لمغفرة وعدم قابليتها:

يرى المسيحيون أن الخطايا تنقسم إلى قسمين من حيث إمكانية محوها ومغفرتها بالتوبة وعدم إمكانية هذا الأمر:

١- خطايا قابلة للمغفرة:

يرى المسيحيون أن الحالة العامة في جميع الذنوب تقريباً حسب ما يُعلّم الكتاب المقدس أنها قابلة للمغفرة، بشرط أن تتقدمها توبة صحيحة واعتراف بندامة وإيمان تام بالمسيح، ودليل هذا ما قاله المسيح: "لأني لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة" [متى: ٩/١٣]، **فأغلب الخطايا تقريباً قابلة للمغفرة الإلهية**، ويقسّم المسيحيون الخطايا إلى نوعين:

أ. الخطيئة الأصلية الموروثة.

ب. الخطيئة الشخصية الفردية.

أما **الخطيئة الأصلية والموروثة** فهي تلك **التي ينسبها المسيحيون إلى آدم عليه السلام** حينما عصى الله وأكل من الشجرة المحرمة عليه هو وزوجه، فيعتقد المسيحيون أن الله لم يغفر لآدم خطيئته، بل لم تقتصر هذه الخطيئة على آدم وحواء، فامتدت بحكم الدم الموبوء إلى جميع الأجيال، ويشير بولس إلى هذه العقيدة بقوله: "من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع" [رومية: ٥/١٢].

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ الكنيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ص١٧١-١٧٢، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٦٠، وجبّار، أسرار مقدّسة، ص١٢-١٣، وخليل، التوبة والاعتراف (عقائدياً، روحياً، طقسياً)، ص٣٥-٣٦.

(٢) انظر: شنودة الثالث، حياة التوبة والنقاوة، ص٢٢٠-٢٤٦، وحنا (ناشد)، خمس وخمسون حقيقة من حقائق الإيمان الأساسية، ص٢٥، ويماري (دونالد)، عقائد أساسية (مدخل في علم اللاهوت)، ص١١٧-١١٨.

يقول القس (**لبيب ميخائيل**): "لقد كان آدم نائباً وممثلاً لجميع الجنس البشري الذي كان في صلبه يوم تعدى وصية الله، فبعد طرده من الجنة وُلِدَ نسلٌ ساقط .... وتحت حكم الموت والدنيوية التي استحقها بعصيانه وتمرده على الله، وقد ورث هذا النسل عن أبويه الأولين حياة العداوة لله والتمرد على شرائعه ووصاياه".(١)

مما سبق يتبين أن النوع الأول من الخطايا التي تقبل المغفرة وهي خطيئة آدم الموروثة إنما يتم الخلاص منها بالإيمان بالمسيح وأنه أُرسل فداءً عن البشرية.

أما **النوع الثاني من هذه الخطايا فهو الخطايا الشخصية الفردية**.

يعتقد المسيحيون أن أنواعاً كثيرة من الذنوب التي **يقترفها الإنسان** قد غفرها المسيح للناس، فالمسيح غفر لبطرس الذي أنكره في البداية، وقبل الزانية والعشّار واللص، فلا توجد خطيئة غير قابلة للمغفرة طالما للإنسان نية التوبة.

٢- خطايا غير قابلة للتوبة لأن صاحبها لا يتوب:

يرى المسيحيون أن هناك **خطيئتين لا تقبلان التوبة والمحو هما التجديف واليأس**.

أما بالنسبة للتجديف فالمقصود به الكذب والافتراء بأي صورة كانت، ويرى المسيحيون أن التجديف الذي لا يقبل التوبة إنما هو التجديف على الروح القدس لا غير، يقول المسيح: "الحق أقول لكم إن جميع الخطايا تُغفر لبني البشر والتجاديف التي يجدفونها، ولكن من جدف على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية؛ لأنهم قالوا إن معه روحاً نجساً" [مرقس: ٣/٢٨-٣٠].

ويرى المسيحيون أن التجديف الذي تحدّث عنه المسيح والذي لا يُغفر ليس عبارة عن خطية مجردة بقدر ما هو حالة روحية معينة يصل فيها الإنسان إلى الفساد الطوعي والعناد والمقاومة المقصودة للمعرفة الصريحة ولتأنيبات الضمير الشاهد بتأثير الروح القدس في القلب.

فإذا كان الحال كذلك فإن هذه الخطيئة ليست كالزنى أو القتل أو السرقة، فقد يتكلم الإنسان ضد المسيح، وقد يجدّف عليه بعدم إيمانه به كما كان بولس قبل اعتناقه المسيحية، لكن كل هذه الأمور تُغفر بتأثير الروح القدس الذي يقود إلى التوبة، أما الذي يعتاد رفض عمل الروح القدس وتأثيره، ويتعمّد إخماد صوت ضميره الذي يؤنبه فإنه يُحرم من الغفران حرماناً أبدياً؛ إذ يفقد بذلك كل وسيلة لإرشاده وتأنيبه، لأن مهمة الروح القدس إثارة القلوب وإرشادها وإقناعها بالحق "ومتى جاء ذاك - الروح القدس – يبكت العالم على بر وعلى خطيئة" [يوحنا: ١٦/٨].

فالروح القدس هو الذي يبكت الإنسان على خطيئته ويرشده إلى التوبة، وعليه فرفض عمل الروح القدس في النفس الإنسانية هو رفض للهداية والرشاد والتوبة، وهذا معنى التجديف، وهو الاستهانة بلاهوته وذاته الإلهية، لذلك يكون صاحب هذا الفعل غير مستحق للمغفرة.(٢)

وأما اليأس فللمسيحيين نظرة خاصة إليه، فهم يرون أن الله يغفر كل ذنوب الخاطئ وشروره وآثامه وسيئاته إذا أقبل إليه تائباً نادماً وباكياً ومستغفراً، لكن الله لا يغفر الانتحار المعنوي، وهو اليأس الشرير، الذي يجعل الإنسان يصر على خطاياه حتى النفس الأخير،

---

(١) ميخائيل (لبيب)، قضية الصليب، ص٧.

(٢) انظر: خليل، التوبة والاعتراف (عقائدياً، روحياً، طقسياً)، ص٤٧-٤٨، والهاشمي (محمد فؤاد)، حوار بين مسلم ومسيحي، ص١٢٤.

ويرى أنه لا فائدة من توبته لأن ذنوبه أكثر وأكبر من أن تُغفر.

يرى المسيحيون أن هذه الفكرة هي فكرة الشيطان الخبيث الذي يريد هلاك كل الناس، فالسيد المسيح لم يأتِ ليُهلك الناس بل ليخلّص من قد هلك، وإن الوقوع في اليأس المشار إليه يجعل الإنسان ينجر إلى الكثير من المعاصي الكبيرة جداً، كالسقوط في الكفر أو الإلحاد، أو الالتجاء للسحرة، وطلب مساعدة الشيطان(١)، يقول القديس (يوحنا ذهبي الفم): "أخطأت؟ فادخل الكنيسة وامسح خطيئتك، كلما أخطأت تب عن الخطيئة، ولا تيأس من ذاتك، وإن أخطأت ثانية فتب ثانية أيضاً، ولا تسقط من الرجاء بالخيرات الموعود بها"(٢)

تعقيب على سر التوبة في المسيحية:

نشأت في الميدان اللاهوتي المسيحي اختلافات كثيرة فيما يتعلق بسر التوبة، لا سيما فيما يتعلق بصكوك الغفران، ولقد كان لهذا الاختلاف صدىً واسعٌ فلقد كانت هذه الخلافات السبب المباشر في التفرقة المسيحية وانشقاق الصف الديني، ولقد حدا الاختلاف في موضوع التوبة بين الفرق المسيحية إلى إنكار مكانتها وأهميتها ومفعولها بالنسبة للبروتستانت، ومن المعلوم أن التوبة سرٌ من الأسرار، والأسرار هي المظهر العملي للعقيدة الدينية في المسيحية، وعليه فإن إنكارها أو الاختلاف فيها هو إنكار واختلاف في العقيدة نفسها.

ولقد أشرت سابقاً إلى أن الاختلاف في محاور العقيدة من شأنه أن يضعف العقيدة، وبالأولى يُضعف الثقة في الموضوع المختلف فيه، ويقلل من أهميته.

أولاً: الاختلاف بين الفرق حول التوبة:

وأهم نقاط الاختلاف في المسيحية بين الفرق فيما يتعلق بسر التوبة هي النقاط التالية:

١- يختلف المسيحيون فيما بينهم حول سر التوبة، **فالكاثوليك والأرثوذكس يؤمنون بسر المعمودية**، ويجعلونها أحد الأسرار السبعة، **أما البروتستانت فإن التوبة عندهم لا ترقى لأن تكون سراً مقدساً**، إنما هي عمل بسيط يقوم به المؤمن دون حاجة إلى طقوس وترتيبات كنسية، ومن هنا فإنهم لا يعدونها سراً مقدساً، ولا تنال عندهم الرتبة والمكانة المرموقة التي تنالها عند الكاثوليك والأرثوذكس، وبناءً على هذه المكانة للتوبة عند الكاثوليك فإنهم يطلقون عليها أسماء متعددة (التجديد) (الولادة الجديدة) (الخلاص)، والمقصود بهذه الألفاظ هو عملية التوبة، أما الأرثوذكس فإنهم يقصدون بهذه التسميات سر المعمودية.

٢- **قضية الوساطة البشرية** بين الله وبين الناس هي مسألة **مترتبة على سر التوبة وعلى طقسه المعمول به في الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية**، فلا بد من وجود وسيط ذو صفة كهنوتية يتولى إيصال هذا الخاطئ إلى ربه وتبريره من خطيئته، وعليه مصالحته مع الله، **أما البروتستانت فإنهم لا يعترفون بهذا الأمر**، ولا بالسلطة الكهنوتية، بل من القواعد الأساس في الإصلاح الديني (كهنوت جميع المؤمنين)، فالمؤمن البروتستانتي لا يحتاج وسيطاً بينه وبين الله، ولقد انسحب أمر إنكار البروتستانت لدور الكهنة في سر التوبة إلى إنكارهم جميع الترتيبات الكنسية لهذا السر؛ بما أن هذه الترتيبات تتم على أيدي الكهنة، يقول (البابا شنودة): "أما الطوائف البروتستانتية فتقدم توبة منفصلة تماماً عن الكنيسة، مجرد عمل فردي لا علاقة له بالكهنوت، لأن البروتستانتية لا تؤمن بالكهنوت إنما تؤمن بعلاقة مباشرة مع

---

(١) انظر: مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالجيزة، مبادئ العقيدة المسيحية أصالتها وفاعليتها، ص٢٣، وخليل، التوبة والاعتراف (عقائدياً، روحياً، طقسياً)، ص٤٩، وشنودة، حياة التوبة والنقاوة، ص٧٠.

(٢) انظر: خليل، التوبة والاعتراف (عقائدياً، روحياً، طقسياً)، ص٥٠.

الله".[١]

يقول اللاهوتي البروتستانتي (**عوض سمعان**) في معرض ردّه على القائلين بالوساطة الكهنوتية:

"إننا لا ننكر أهمية وجود قسوس بين كل جماعة مسيحية، يكونون شيوخاً في السن وفي الإيمان، وذلك لرعاية المؤمنين الذين فيها، ولكن ما ننكره هو أنه يجب أن نعترف لهؤلاء القسوس بخطايانا حتى ننال غفراناً لها، كما يتضح مما يلي:

إن الآيات لا تدل على أن المؤمنين يجب أن يعترفوا بخطاياهم للقسوس أو الشيوخ، بل أن يعترفوا بها للأشخاص الذين يخطئون إليهم، كما أنها لا تدل على أن القسوس يغفرون الخطيئة، أو يتوسطون لأجل غفرانها، بل نقول: (إن كان قد فعل المريض خطيئة تُغفر له) أي أن الله هو الذي يغفرها له وليس القسوس".[٢]

فالاعتراف لا يكون قانونياً ولا مجدياً إلا إذا كان مقدماً للشخص المساء إليه، وبما أن الخطايا التي يأتيها الإنسان هي قبل كل شيء إساءة لله لتعارضها مع الوصايا الإلهية فيجب إذاً أن يُعترف بها لله وحده.[٣]

٣- **الخلاف حول المطهر:** هذا الخلاف مترتب على عدم توبة الإنسان أو عدم قبول توبته، فإذا تاب الخاطئ على أيّة طريقة كانت سواء على الطريقة الكاثوليكية والأرثوذكسية بالاعتراف للكاهن، أو على الطريقة البروتستانتية بالاعتراف لمن أخطأ في حقه، ثم لم تُقبل توبته، أو أنه أهمل التوبة فلم يتب من خطيئته، فما مصيره حينئذٍ؟

يعتقد الكاثوليك بـ (المطهر)، وهو مكان مؤقت تمكث فيه أرواح الخاطئين ممن لم يتب أو تاب ولم تكن توبته صادقة وخالصة، فتمكث روحه في ذلك المكان معتقلة حتى تصل إلى درجة النقاوة والطهر، وتُعذّب في النار في المطهر عذاباً أليماً حتى لا يبقى عليها شيء من الخطايا، وعندها يُسمح لها بالدخول إلى ملكوت الله.[٤]

أما الأرثوذكس فإنهم لا يؤمنون بهذا الأمر، فلا يوجد عندهم بعد الموت إلا النعيم للأبرار والجحيم للفجار، وأما البروتستانت فإنهم أنكروا أيضاً المطهر، ولم يعترفوا به، وسبب ذلك أن الكاثوليك استخدموا فكرة المطهر والخلاص منه بصكوك الغفران، وهي الفكرة التي رفضها البروتستانت وقاوموها أشد المقاومة.

٤- **يعتقد الكاثوليك والأرثوذكس بأن الخلاص المطلق للإنسان يتم بالتوبة بعد التبرير من الخطيئة الأصلية،** فلا بد للإنسان من التوبة؛ لأن احتمال خطأ الإنسان موجود ما دامت الخطيئة موجودة، والتوبة تخلص الإنسان من العقوبة وتجعله مستحقاً لدم المسيح، **أما البروتستانت فلا صلة عندهم بين الخلاص والتوبة،** فالخلاص إنما يتم بدم المسيح فقط وليس بالتوبة، ولا دخل للأعمال في خلاص الشخص، والتوبة هي عمل من الأعمال.[٥]

٥- **اختلفت الفرق المسيحية فيما بينها فيما يخص صكوك الغفران،** إذ يعتقد الكاثوليك بأن مغفرة الخطايا يمكن أن توهب بلا توبة، بل يكون ذلك على أساس أن للكنيسة الحق في أن تعطي ما تشاء من الغفرانات التي تأخذها من ذخيرة استحقاق المسيح والقديسين، فأباح بابوات الكاثوليك لأنفسهم أن يبيعوا صكوك الغفران للأحياء عن خطاياهم، وحتى عن خطايا موتاهم

---

(١) شنودة، اللاهوت المقارن، ص١٣٣.
(٢) سمعان، الكهنوت، ص٣٨٩.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٩١.
(٤) انظر: شنودة، تاريخ الأقباط، ٢٧٨/١.
(٥) انظر: البابا شنودة، اللاهوت المقارن، ص١٣٣-١٣٤.

الموجودين في المطهر.

أما الأرثوذكس والبروتستانت فإن هذا المبدأ مرفوضٌ عندهم، فلا يمكن للإنسان أن ينال الخلاص والتبرير من الخطايا عند الأرثوذكس إلا بالتوبة والاعتراف، أما البروتستانت فإن الخلاص من الخطيئة الأساس يكون بالإيمان بالمسيح، أما الخطايا والذنوب الأخرى فالخلاص منها يكون بتركها والاعتذار ممن أُسيء إليه.

٦- **وقع خلاف بين الفرق المسيحية فيما يخص مسألة التأديبات الكنسية، فأقرّها الأرثوذكس، ورفضها الكاثوليك والبروتستانت،** وعدّها الرافضون وفاءً للعدل الإلهي الذي أهانه الخاطئ بخطاياه، وهذا الوفاء ليس من حق أحد إلا الله، لكن الأرثوذكس يبررون ما يذهبون إليه بفعل بولس الرسول حين وضع تأديباً على المختلط بالدم في رسالته إلى أهالي كورنثوس فقال: "يسلم هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح" وبعد أن تاب المختلط بالدم أرجعه بولس إلى الكنيسة، فيرون أن بولس قصد من ذلك إصلاح نفس الخاطئ وتأديبه.(١)

ومن المهم أن نذكر هنا أن موضوع التأديبات الكنسية وكيفية استعمالها أخذ عند الأرثوذكس بُعداً كبيراً حتى وصل إلى الشطط، ولقد تقدّم أن الأصل الأرثوذكسي في التأديبات هو فرض بعض الصلوات أو صوم بعض الأيام أو حرمان من الاشتراك في الإفخارستيا على الخاطئ، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، إذ تطور الأمر على يد الساقفة الأرثوذكس إلى حد التطرف، فإذا كان الخاطئ عازباً منعوه من الزواج، وإذا كان متزوجاً أمروه باعتزال زوجته، أو بالانزواء في أحد الأديرة إلى أن يأذنوا له بالعودة إلى بيته، وهذا ما حدا بكثير من الخاطئين إلى تأجيل الاعتراف بخطاياهم إلى سن الشيخوخة.(٢)

ثانياً: المخاطب في التوبة:

يرى الدكتور (**عادل درويش**) أن الملحظ الأهم في مسألة التوبة عند الفرق المسيحية كافةً حتى عند من لا يقول بالاعتراف أن التوبة تتوجه للمسيح وليس لله تعالى بما أن المسيح قدّم دمه تكفيراً عن خطايا البشر، قال كاتب أعمال الرسل: "له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا" [أعمال الرسل: ٤٣/١٠].(٣)

حتى عندما يتوجه المسيحيون بالتوبة والاعتراف إلى الله طالبين منه المغفرة فإنهم يقصدون بذلك المسيح الابن والعنصر الإلهي الموجود فيه، وهم يفعلون ذلك رغم إيمانهم بالعهد القديم والإعلانات المبثوثة فيه التي تأمر بطلب الغفران من الله وحده، "إليك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك صنعت" [مزامير: ٤/٥١]، "وبينما أنا أتكلم وأصلي وأعترف بخطيئتي وخطيئة شعبي إسرائيل وأطرح تضرري أمام الرب إلهي عن جبل قدس إلهي" [دانيال: ٢٠/٩].

ثالثاً: وساطة الكهنة ودعوة المسيح إلى التوبة وعدم ادعائه مغفرة الذنوب:

يقول الأنبا (**ساويرس**): "أتظن في نفسك أن مخلوقاً يغفر خطيئة أو يعتق أحداً من عبودية إبليس؟ لو كان لمخلوق استطاعة ذلك لسمي خالقاً، وما نزل أحد من المخلوقين إلى الجحيم، بل كانوا كلهم يغلبون إبليس وينعتقون من سلطانه، ولم يكن للمخلوقين استطاعة ذلك، من أجل كونهم من بني آدم خطاة، مغلوبين من الشيطان، وليس لواحد منهم القدرة على أن يخلص نفسه فضلاً عن غيره".(٤)

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٥٨.
(٢) انظر: سمعان، الكهنوت، ص٣٩٩.
(٣) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٣٦٨.
(٤) ساويرس، ذبيحة الاعتراف، ص٤٠-٤١.

هذا الكلام ينقل الحجة المنطقية في الاعتراض على مسألة التوبة وكيفية طقسها، ويستبعد أن يكون المسيح قد وكّل أحداً بمغفرة الخطايا، مع أن المسيحيين ينسبون للمسيح تأسيس هذا السر بعد حادثة القيامة، حين نفخ في وجوه تلاميذه وقال لهم: "اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت" [يوحنا: ٢٠/٢٢-٢٣].

والحقيقة أن هذا النص يشوبه الشك إلى درجة كبيرة، فمن ناحية أولى يمكن فهم جميع الكلام الذي تكلّم به المسيح بعد قيامته على أنه نوع من الرؤى[١]، ومن ناحية ثانية أن دعوة المسيح أتباعه إلى التوبة متناسقة مع دعوة الأنبياء السابقين واللاحقين عليهم السلام أجمعين إلى التوبة وترك المعاصي.

ولقد ورد في الكتاب المقدس الأمر الملحّ والمتكرر من الأنبياء لأتباعهم بالتوبة والإنابة، والسيد المسيح عليه السلام لم يخرج عن هذا الإطار الدعوي، فقد كان داعياً إلى التوبة والإنابة، وقد تأكدت هذه الحقيقة في كثير من النصوص المنسوبة إليه التي تقدّم ذكر بعضها، وكان من أنبل التعاليم التي نادى بها المسيح أن يغفر الناس بعضهم لبعض عما ارتكبوه من أخطاء وإساءات وجرائم وآثام، وأن يعفو بعضهم عن بعض دائماً عفو القادر المنتصر الذي يستطيع أن ينتقم ويستطيع أن يقابل الشر بالشر.[٢]

والنصوص المنسوبة إلى المسيح **في موضوع التوبة كلها تشير إلى أن المقصود هو الخطايا التي يُخطئ الناس بها تجاه بعضهم أو تجاه خالقهم**، وليس المقصود بذلك الخطيئة الموروثة، يقول الدكتور (أحمد غنيم): "إننا نجد عند المسيح عليه السلام حديثاً بل أحاديث عن الخطيئة وعن الخطايا، ولكن أية خطيئة وأي خطايا هذه؟ إنها تلك الخطيئة والخطايا التي يرتكبها الناس أنفسهم بما تقترف أيديهم وألسنتهم ولكن دون إشارة ولا تلميح من قريب ولا من بعيد إلى خطيئة سابقة موروثة عن أبيهم آدم وعن أمهم حواء، نرى هذا صريحاً غاية الصراحة في أقوال المسيح عليه السلام كافةً كما وردت في بقية الأناجيل".[٣]

ومن الملاحظ في المعتقد المسيحي فيما يخص قضية التوبة أن المسيحيين **جعلوا إرادة الآباء الروحيين ملزمة لله**، فعلى الله أن يغفر لمن جاء إليهم تائباً واعترف على أيديهم، وكذلك لمن اشترى منهم صكاً من صكوك الغفران، فجعلوا مشيئة الله خاضعة لمشيئتهم، مستدلين بالقول المنسوب للمسيح: "الحق أقول لكم ما تربطونه في الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلونه في الأرض يكون محلولاً في السماء" [متى: ١٨/١٨].[٤]

فالمسيح عليه السلام أمر بالتوبة والندم على ما فعله الإنسان من معاصٍ، وطلب الغفران من الله، وأن يبادر الإنسان في فعل الخيرات، وهذا الأمر لا تختلف فيه دعوة المسيح عن باقي الأنبياء في مهمتهم الدعوية، إذ **مضمون الرسالات العقائدي قاسم مشترك بين جميع الرسالات السماوية**، ومن هنا فإن دعوة المسيح إلى التوبة تتناسق مع دعوة باقي الرسل إلى التوبة، وتوافقها في المضمون والشروط، كما هو ملاحظ من شروط التوبة في المسيحية، إذ يلحظ فيها القارئ موافقة شبه تامة لشروط التوبة في الإسلام.

من هنا ندرك أن **وضع المسيح لسر التوبة في يد الأساقفة، وإعطاءهم الحق في غفران الخطايا وإمساكها وجعل مشيئة الله وإرادته تابعة لمشيئة الكهنة وإرادتهم هو أمر لا صحة له**، ولا يمكن حمل هذا الأمر على قول المسيح الذي يستدل به المسيحيون "الحق أقول لكم ما

---

(١) انظر: الحداد (يوسف)، مصادر الوحي الإنجيلي (تاريخ المسيحية/ الإنجيل بحسب لوقا)، ٥١٦/٢.
(٢) انظر: شنودة (زكي)، المسيح، ص١٢٩.
(٣) ساويرس، ذبيحة الاعتراف، ص٤٠-٤١.
(٤) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ٣٧٥٤.

تربطونه في الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلونه في الأرض يكون محلولاً في السماء" [متى: ١٨/١٨]؛ لأنه من الممكن فهم هذا الإعلان بغير الفهم الذي فهمه المسيحيون منه.

فمن الممكن أن نحمل كلام المسيح - إن صح - **على أنه من باب الرجاء والتحفيز لأصحابه** للتمسك بالحق والثبات عليه، أو أنه بيان لمكانتهم عند الله وعلو قدرهم، حتى يدعون الله بأن يغفر للناس ويرحمهم عسى أن يكون ذلك مستجاباً، **ويمكن فهم غفران الخطايا وإمساكها على رجاء المسيح أن يدعو التلاميذ للمخطئين بأن يغفر الله لهم**، وهذا الفهم يجعل من رسالة المسيح - من حيث التوبة – رسالة متناسبة تماماً مع سائر الرسالات السماوية.

هذا فيما يخص التوبة على أيدي الرسل والتلاميذ من أصحاب المسيح، **أما مسألة جعل هذا الأمر في يد البابوات وأنّهم تسلّموا هذا السر من التلاميذ فهو أمر لا صحة له مطلقاً**، ولا يمكن أن تصح هذه العقيدة، إذ لا دليل عليها أبداً.

ولا ننسى أن **حركة النقد الداخلي في المسيحية التي قامت على أيدي البروتستانت توجّهت أول ما توجّهت إلى نقد السلطة الروحية المدّعاة من قِبل بابوات الكنيسة**، تلك السلطة التي كانت باباً من أبواب الجشع والتسلط والمآرب الدنيوية الدنيئة، لا سيما ادعاء الوساطة الواجب الإذعان إليها وقدرتهم على مغفرة الذنوب، حيث إنهم مارسوا أشدّ أنواع التنافس في الدنيا لا لإعمارها ولا لإصلاح حال الرعية ورعاية شؤونهم ومصالحهم، بل لإعمار قصورهم هم وثرواتهم وممتلكاتهم الخاصة، حتى كانت أيديهم ملطخة بدماء كل من خالفهم، وكان الحرمان هو العقوبة الأبسط والأدنى لمن يجاهر بمخالفة هذه السلطة الروحية للبابوات.

لقد كان باستطاعة الكنيسة أن تحتفظ بحقوقها القدسية المستمدة من الكتب المقدسة العبرية والتقاليد المسيحية لو أنّ رجالها تمسكوا بأهداب الفضيلة والورع، لكن نظرة بسيطة في كتب تاريخ الكنيسة الغربية تؤكد عكس ذلك؛ حيث إن أكثر رجال الكنيسة الغربية ارتضوا ما في أخلاق زمانهم من خير وشر، فكانوا هم أنفسهم مرآة تعكس أخلاق غير رجال الدين بما تنطوي عليه من الإباحية واللاأخلاقية.

يقول (لوريمر): "لقد سلّم المؤرخون أن البابوية خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر والجزء الأول من القرن السادس عشر وصلت إلى أدنى درك خلقياً وروحياً، كانت بابويةً دنيوية.... وكانت مركزاً لبلاط فاسد عاجز عن تقديم قيادة روحية وإرشادات كنسية، وحقاً كان هذا البلاط يغوص منحدراً إلى أدنى درك في القيم الأخلاقية"[١]

آثرت أن أنقل هذا النص بحرفيته من كتاب (تاريخ الكنيسة) للمؤرخ (جون لوريمر)، حيث إنه يكشف بوضوح تام التدهور الأخلاقي الذي وصل إليه حال رجال الكنيسة من البابوات، وإذا كان هذا حال البابوات فكيف بمن دونهم في المنزلة من الرهبان والقساوسة وعامة رعايا الكنيسة.

ولقد وجّهت ضد البابوية الكثير من الاتهامات، إلا أن التهمة الأكثر شناعة هي الفساد الخلقي، ومن الغريب أن هذه الظاهرة لم تكن نادرة الحصول، بل استمرت زمناً حتى اتخذت أشكالاً واضحة وتسميات محددة **كالنقولاوية والسيمونية**

يقول (**ايتين دينيه**)[٢] الذي سمّى نفسه بعد إسلامه بـ (ناصر الدين) في كتابه (أشعة من نور

---

(١) لوريمر، تاريخ الكنيسة، ٣٥/٤.

(٢) ناصِر الدّين دِينِيه (١٨٦١ - ١٩٢٩ م)، إتينّ دينيه، مستشرق: فرنسي، تعلم العربية وحذق أدبها، له (لوحات) محفوظة في المتاحف الفرنسية أمضى جانبا من حياته في بلدة (بوسعادة) بالجزائر، وكان يقيم فيها نصف السنة من كل عام، وجهز لنفسه قبراً بها أوصى أن يدفن فيه، أعلن سنة ١٩٢٧ اعتناقه الإسلام، وأشهد

الإسلام): "إن هؤلاء الوسطاء شر البلايا على الأديان، وإنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نيتهم، وقد أدرك المسيح نفسه ذلك، ألم يطرد بائعي الهيكل؟ غير أن أتباعه لم يفعلوا مثل ما فعل، واليوم إذا عاد عيسى فكم يطرد من أمثال بائعي الهيكل؟ كذلك ما أكثر البلايا والمصائب! بل ما أكثر المذابح والمجازر التي يكون سببها هؤلاء الوسطاء، سواء كانت بين العائلات أو بين الشعوب، وهم في ذلك كله يصيحون باسم الرب".(١)

ويقول (**جون لوريمر**): "هناك اتهامات كثيرة ضد البابوية، لكن التهمة الأكثر انتشاراً كانت الاستغلال المالي، ضجّ الناس بالشكوى من أعلى حاكم إلى أدنى قروي بأن الكنيسة عاشت للمال، ومن داخل الكنيسة ضغط البابا على الأساقفة، الذين عصروا الكهنة، الذين هم بدورهم عصروا الشعب".(٢)

يقول (**ول ديورانت**): "إن هذه الحياة الخليعة موضوع يتكرر وصفه في الأدب الإيطالي، فـ (بوكاتشيو)(٣) يتحدث عما في حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ومن انغماس في الملذات طبيعية كانت أو غير طبيعية، ووصف ماستشيو الرهبان والإخوان بأنهم (خدم الشيطان) ومنغمسون في الفسق واللواط والشره وبيع الوظائف الدينية والخروج على الدين، ويقرّ بأنه وجد رجال الجيش أرقى خُلُقاً من رجال الدين".(٤)

تقول القديسة (**كترين السينائية**)(٥): "إنك أينما ولّيت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين، أو الطوائف الدينية المختلفة، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا، سواء كانوا صغاراً في السن أو كباراً، لم تر إلا شراً ورذيلة، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة، إنهم كلّهم ضيّقُو العقل شرهون بخلاء، تخلّوا عن رعاية الأرواح، اتخذوا بطونهم إلهاً لهم، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة، حيث يتمرّغون في الأقذار، ويقضون حياتهم في الفسق والفجور، ويُطعمون أبناءهم من مال الفقراء، ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجون".(٦)

جمهوراً من علماء الجزائر بحضور مفتيها ووزير العدل في المملكة التونسية أنه اختار الإسلام دينا قبل عشرات السنين ولم يجهر به إلا في ذلك اليوم، وله كثيرة تصانيف بالفرنسية منها (Mohamet) في السيرة النبويّة، ومن كتبه بالفرنسية (حياة العرب) و(حياة الصحراء) و(أشعة من نور الإسلام) وغيرها. انظر: الزركلي، (خير الدين)، الأعلام، ٨٣/١.

(١) دينيه (ايتين)، أشعة خاصة بنور الإسلام، ص٢٣، وشلبي، أضواء على المسيحية، ص١٣٠.

(٢) لوريمر، تاريخ الكنيسة، ٣٧/٤.

(٣) جيوفاني بوكاتشيو ١٣١٣ – ١٣٧٥، شاعر وكاتب إيطالي، أسهم مع بترارك في إرساء الحركة الإنسانية في أواخر العصر الوسيط، واشتهر بمجموعته القصصية (ديكاميرون) (Decameron) نشرها سنة ١٣٤٨م، وكانت هذه القصص مصدراً للكثير من المفكرين والفنانين استمدوا منه بعض إلهاماتهم الفنية والفكرية أمثال تشوسر وشكسبير وغيرهما، ويُعرف بوكاتشيو بأنه (أبو النثر الإيطالي). انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص١١٩.

(٤) ديورانت، قصة الحضارة، ٨٤/٢١.

(٥) ولدت القديسة كاترين السينائية سنة ١٣٤٧م، وهي من سيينا المدينة الإيطالية، ولُقّبت حين وُلدت (يرفروسيني) أي الفرح والبهجة، وعُرف عنها أنها كانت ترى المسيح منذ طفولتها حيث رأته لأول مرة وهي في سن الخامسة، ولما كبرت ظهر لها القديس دومينيك وأقنعها أن تكون راهبة وأن تقيم في منزلها لا في الدير شريطة أن تبقى قائمة على خدمة الفقراء والمحتاجين، وكانت نشيطة جداً من الناحية السياسية وكتابة الرسائل إلى الحكّام ورجال الدين، وفي أواخر حياتها أُعطيت لقب (شفيعة روما) أطلقه عليها البابا بيوس الثاني عشر، انظر: https://popefrancis-ar.org/

(٦) ديورانت، قصة الحضارة، ٨٥/٢١

إن **مظاهر الفساد في الحياة الاجتماعية والأخلاقية وجدت ردود فعل منددة ورافضة لها،** وكان ذلك من قِبل العديد من المفكرين ورجال الحكم والكنيسة عامةً ودعاة الإصلاح خاصةً، وكان ذلك بمنزلة دعوة منهم إلى تطهير الأخلاق الاجتماعية مما يعتريها، وليس من الصواب أن نقول إنه لم يكن بين رجال الدين في ذلك العصر أناسٌ مستقيمون، لأنّ في ذلك تجنّي على الحقيقة والتاريخ، لكن الغالبية العظمى من رجال الدين كانت على الصورة التي وصفناها، إذ أصبح الفساد هو الطابع العام والسمة المميزة لهم.

مما سبق ندرك أنه من المؤكد أن **وساطة الأب الروحي** في غفران الخطايا بالاعتراف أو صكوك الغفران **هي سلطة مدعاة مكذوبة لا أصل لها** ولا دليل عليها، وكانت بمنزلة الشعلة التي قام عليها الإصلاح الديني رافضاً هذه الخرافات ملغياً فكرة الكهنوت الخاص بطبقاته ورتبه المعروفة، والذي بموجبه يُقام نظام خاص أو طبقة خاصة من الناس يتوسطون في العبادة بين الله والناس، فطالب الإصلاحيون بإلغاء هذا النظام، وأن يكون بإمكان جميع المؤمنين أن يتصلوا بالله مباشرةً دون وساطة أحد.

المبحث الرابع: سر مسحة المرضى

يندرج سر مسحة المرضى ضمن نسيج الأسرار المقدسة عند عامة المسيحيين، وينال أهمية لا يستهان بها في الفكر المسيحي، ومع أن الطوائف الإصلاحية ضمن البروتستانت لا يولونه أيّة أهمية لكنه عند الكاثوليك يحظى بمكانة مرموقة، بل ربما تجاوزت أهميته لديهم أهمية مسحة الميرون؛ فزيت الميرون يستعمل مرة في العمر عند التثبيت بعد المعمودية، ولا يستعمل ثانية، أما مسحة المرضى فيتكرر استعماله بتكرر وجود المقتضي له وهو المرض.

كما أن فائدة الميرون سراً مقدساً تكون في حدود الفائدة الروحية، فتفعّل في الإنسان مواهب الروح القدس حيث ينال بها ثمرة الإيمان وينضم إلى الكنيسة، أما مسحة المرضى فنتيجتها وفائدتها لا تقتصر على الجانب الروحي، فهي تشمل الجانب الروحي وتتعداه إلى الجوانب الجسدية أيضاً؛ إذ يتم بها الاستشفاء من الأسقام الجسدية والروحية في آن واحد.

المطلب الأول: سر مسحة المرضى (المفهوم والتأسيس وأقوال الآباء)

أولاً: مفهوم (مسحة المرضى):

عرّف كُتاب المسيحية هذا السر بتعريفات متعددة، نورد أهمها فيما يلي:

يقول (**زكي شنودة**): "سر مسحة المرضى هو **سر يمسح الكاهن بمقتضاه المريض بزيت مقدس، ويستمد له الشفاء من الله روحياً وجسدياً**"(١)

وعرّفه (**جاد المنفلوطي**): "سر تحل فيه النعمة بواسطة المسح بالزيت والصلاة وبخدمة الكاهن على كل من يصيبه مرض خطير من المعمّدين فتُغفر له خطاياه، وتزداد قوة نفسه".(٢)

ويعرّفه (**حبيب جرجس**): "هو سر مقدّس ينال به المريض المؤمن شفاء أمراضه الروحية والجسدية؛ إذ يمسحه الكاهن بزيت مقدس ويستمد له النعمة الإلهية، ويسمى سر الزيت المقدّس".(٣)

والتعريفات السابقة كلها تدور حول معنى واحد هو محور هذا السر شكلاً وفاعليةً وهو وجود المرض والزيت المقدس ووجود وسيط روحي (كاهن) يمسح المريض بهذا الزيت.

بالإضافة إلى ما سبق فإن القائلين بهذا السر ووجوب إقامته للمريض **يقرنونه عادةً بين هذا السر وبين سر التوبة، فلا بد للمريض أن يستعد لإجراء هذا السر بالتوبة والاعتراف بداية.**

ولمسحة المرضى أسماء متعددة عند المسيحيين منها: (سر القنديل) و(سر الزيت المقدس) و(المسحة المقدسة) و(زيت الصلاة) و(المسحة الأخيرة).

وجاء في معجم اللاهوت الكتابي: "إن **المرض يوحي قبل كل شيء بحالة ضعف وهزال،** فتنحصر فيما يمكن رؤيته من إصابة جلدية أو قروح أو كسور أو حمى واضطراب، وبين الأمراض المذكورة في الكتاب المقدس ضعف البصر، والعمى والعقم .... من العلاجات المستعملة إذ ذاك العصائب والزيت، والزيت الممزوج خمراً، والاستحمام بالزيت والدهون".(٤)

ويقول القمص (**يوحنا سلامة**): "سر مسحة الزيت المقدس هو الخامس من أسرار الكنيسة السبعة، وتمارسه منذ نشأتها إلى الآن لكل من اعتراه مرض أو أصابه ضعف جسدي، إذ تُقدّس الزيت، وتمسح به المريض بعد أن تستمد له من الله نعمة الشفاء من أمراضه الروحية

---

(١) شنودة، تاريخ الأقباط، ٢٧٠/١.
(٢) المنفلوطي، المسيحية في العصور الوسطى، ص١٠٥.
(٣) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٧٧.
(٤) معجم اللاهوت الكتابي، ص٧٢٣.

والجسدية، والكنيسة تعدّه سراً وتتممه كغيره من الأسرار للمؤمنين فقط".[١]

ثانياً: تأسيس سر مسحة المرضى:

ينسب المسيحيون تأسيس سر مسحة المرضى إلى السيد المسيح، ويعتقدون أن **السيد المسيح أعطى لتلاميذه قدرة وإمكانية شفاء الأمراض**، والرسل بدورهم سلّموا آباء الكنيسة والبابوات والكهنة هذه القدرة، ويستدلون على ذلك ببعض الإعلانات الواردة في العهد الجديد، أهمها ما يلي:

- "ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف .... اشفوا مرضى طهروا برصى أقيموا موتى أخرجوا شياطين مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا" [متى: ١/١٠، ٥-٨].
- "أية مدينة دخلتموها وقبلوكم فكلوا مما يقدم لكم، واشفوا المرضى الذين فيها وقولوا لهم قد اقترب منكم ملكوت الله" [لوقا: ٨/١٠، ٩].
- "أمريضٌ أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تشفي المريض والرب يقيمه وإن كان قد فعل خطية تغفر له" [يعقوب: ١٤/٥-١٥].[٢]

بناءً على هذه الإعلانات الكتابية **نسب المسيحيون تأسيس هذا السر إلى السيد المسيح،** فهو الذي أعطى للتلاميذ هذ القدرة الخارقة على شفاء الناس وإبرائهم، لا سيما في إعلان متى ولوقا.

أما **إعلان يعقوب فهو من كلامه، ولم ينسبه** – كما فعل متى ولوقا – **إلى السيد المسيح،** لكنه يصلح مع ذلك أن يكون دليلاً على سر مسحة المرضى في الفكر المسيحي؛ لأن التلاميذ لا يأتون بشيء من عندهم، بل كل ما يفعلونه إنما يكون بإلهام من الروح القدس.[٣]

ثالثاً: أقوال آباء الكنيسة عن مسحة المرضى:

يرى المسيحيون أن سر مسحة المرضى كان مستعملاً منذ الأزمنة الرسولية؛ لأن الكنيسة الأولى لم تكن تتوانى في استعمال شيءٍ مما تسلمته، لا سيما أن يعقوب الرسول وهو أحد التلاميذ أوصى بإجراء هذا السر بوضوح تام، ومما يؤيد هذا الادعاء أن أقوال آباء الكنيسة الأوائل حول هذا السر وفاعليته.

يقول القديس (**يوحنا فم الذهب**) في معرض مقارنته بين الآباء الجسديين والكهنة: "أما هؤلاء فكثيراً ما خلّصوا نفساً مريضة وقريبة من الهلاك، وجعلوا عذاب البعض خفيفاً جداً .... ليس بالتعليم فقط بل بمساعدتهم بالصلوات أيضاً، لأن سلطانهم في غفران الخطايا لا ينحصر في البرهة التي يلدوننا فيها بالمعمودية، بل يمتد إلى ما بعدها أيضاً، يقول: (أمريضٌ أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تشفي المريض والرب يقيمه وإن كان قد فعل خطية تغفر له) ثم إن الوالدين الطبيعيين لا يستطيعان أن ينفعا أولادهما بشيء إذا سقطوا تحت غضب أحد من ذي التقدم والاقتدار في هذه الدار، لكن الكهنة يسترضون لهم لا رئيساً ولا ملكاً أرضياً، بل الله ذاته الذي يغضبونه مراراً كثيرة".[٤]

ويقول القديس (**كيرلس الأورشليمي**): "أما أنت فإذا كنت موجعاً في أجزاء جسدك وآمنت بالحقيقة أن دعاءك باسم الرب .... يحل مصيبتك فصل هذه الكلمات وادع بها عن نفسك، لأنك

---

(١) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١٩٥/٢.
(٢) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٣) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٧٨.
(٤) المرجع السابق، ص١٨١-١٨٢.

تعمل عملاً أفضل من أولئك المؤمنين بالسحر، إذا كنت تقدم المجد لله لا للأرواح النجسة، وإني لمتذكر الكتاب الإلهي حيث يقول: (أمريضٌ أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تشفي المريض والرب يقيمه وإن كان قد فعل خطية تغفر له).[١]

يقول القديس (**غريغوريوس**): "يمسح المريض بزيت على اسم الآب والابن والروح القدس ويقول له: لا يبقَ فيك الروح النجس مختفياً، بل فلتسكن فيك قوة المسيح الإله والروح القدس لكي تُشفى بتتميم هذا السر وبمسحة الزيت المقدس وبصلواتنا بقوة الثالوث القدوس، وتعود إلى الصحة التامة".[٢]

المطلب الثاني: أهمية سر مسحة المرضى وشروطها:

أولاً: أهمية سر سحة المرضى:

يضفي المسيحيون على سر مسحة المرضى بعض الأهمية اللاهوتية، وهذه الأهمية تجعل من إقامة هذا السر وعمله أمراً مطلوباً، وتجعل المسيحيين يحرصون على إقامته وتتجلى هذه الأهمية في النقاط التالية:

١- مسحة المرضى **تجعل الإنسان يحرص أولاً على شفاء الروح**، يقول الأنبا (غريغوريوس): "بحكم الرابطة القوية بين الروح والجسد فإذا مرضت الروح مرض الجسد معها لارتباطهما الوثيق معاً، وعليه لا يُشفى الجسد إلا إذا شُفيت الروح أولاً، لذلك يتطلب الرب من هؤلاء المرضى الذين حصدوا في أجسادهم نتائج خطاياهم فمرضوا في أجسادهم، لذلك يأمرهم صراحة بالاعتراف على الكاهن، والاعتراف المطلوب هو شكوى النفس من النفس أمام الله على يد الكاهن باعتباره ممثلاً للسلطة الإلهية.[٣]

من **هنا يتبين الارتباط العقائدي بين سرّي التوبة والاعتراف ومسحة المرضى في المسيحية**، فحتى تأتي مسحة المرضى بفاعليتها ينبغي أن تُسبق بالاعتراف بالخطايا، إذ الآلام والأمراض التي يعانيها المريض ما هي إلا نتيجة من نتائج الفساد الروحي للخاطئ، فالمعاصي والذنوب تبعث في الإنسان الأمراض والأسقام، وعليه لا بد حتى يستحق الإنسان من الله نعمة الشفاء من أن يبادر بالتوبة والاعتراف حتى يُشفى روحياً أولاً وبعد ذلك يُشفى بالجسد من الأمراض والأسقام.

٢- **مسحة المرضى هي اختبار من الله للإنسان المريض، والغاية** من هذا الاختبار هو **إشعار الإنسان بخطيئته وضرورة توبته منها**، ورد في معجم اللاهوت الكتابي: "يهدف اختبار المرض إلى إرهاف الشعور بالخطيئة عند الإنسان، وإننا نلاحظ ذلك بالفعل في مزامير التضرع، إذ إن طلب الشفاء مصحوب دائماً بالاقرار بالأخطاء".[٤]

٣- لمسحة المرضى في المسيحية **أهمية اجتماعية**، فالمسيحيون يعتقدون أن حضور الروح القدس أثناءها يوحّد بين الكهنة وعائلة المريض وأصدقائه الموجودين معه، فيكونون **أشبه بكنيسة محلية صغيرة**، قائدها الروح القدس.[٥]

---

(١) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٨٢.
(٣) غريغوريوس، القيم الروحية المنطوية في سر مسحة المرضى، ص١٠-١١.
(٤) معجم اللاهوت الكتابي، ص٧٢٣.
(٥) انظر: يعقوب (تادرس)، عطية الروح القدس، ص٥٨.

ثانياً: شروط مسحة المرضى:
يشترط المسيحيون **عدة شروط لسر مسحة المرضى**، أهمها:

١- **يمارس هذا السر من قِبل القساوسة فقط.**
٢- **على الكاهن والمريض أن يمتنعا عن الطعام** قبل إجراء السر بست ساعات ليكون الجسم في حالة من الجوع والاتضاع تناسب حالة جوع النفس وتوقانها للبر الإلهي.
٣- يشترط لإجراء مسحة المرضى **وجود حالة مرض حقيقي.**
٤- يشترط **إجراء سر التوبة والاعتراف قبل مسحة المرضى.**(١)

ثالثاً: ويشترط المسيحيون أيضاً على الكاهن في سر مسحة المرضى ما يلي:

١- أن **يحث الرعية على وجوب ممارسة هذا السر وقت حدوث المرض.**
٢- **أن يسرع لإجابة الدعوة** بدون تسويف أو إهمال إذا دُعي لإقامة هذا السر.
٣- أن يتمم السر ليس فرضاً أو تأديةً واجب كيفما اتفق، بل أن يكون صائماً مستعداً استعداداً لائقاً.
٤- **أن يراعي الترتيبات الكنسية** وأوامرها في تتميم سر التوبة للمريض وأخذ اعترافه ثم مسحه بالزيت.(٢)

رابعاً: واجبات المريض وأقاربه:

١- يجب على المريض وأقاربه الحاضرين أن **يقرنوا إيمانهم بإيمان الشخص المصلي،** فإيمان الكاهن المصلي وحده غير كافٍ لنيل فوائد السر.
٢- **أن يوجد عند المريض وأقاربه حسن ظن وثقة في خادم الأسرار** (الكاهن).
٣- أن **يشترك الحاضرون مع الكاهن في الصلاة ولو بالنية.**
٤- أن **يعاهد المريض النفس على أن يعيش مستقيماً** ويسلك متواضعاً مع الناس جميعاً.(٣)

المطلب الثالث: الإجراءات الطقسية لسر مسحة المرضى:

يتألف طقس مسحة المرضى من سبع صلوات، ولكل صلاة فصول انتخبتها الكنيسة من العهدين القديم والجديد، وكلها تشير إلى التذكير برحمة الله للخطاة التائبين ومحبته لهم وحنانه عليهم، وترتيب هذه الصلوات قديم جداً في الكنيسة، ويُنسب هذا الترتيب إلى القديس (أبيفانوس).

يقيم سر مسحة المرضى سبعة كهنة أو أقل إن لم يوجد، وسبب ذلك ألّا تنسب قوة الشفاء لشخص واحد، فعندما يشترك عدة كهنة لا يعرف مَن بسببه تم الشفاء وإن كان الشفاء يتم بقوة السر، ومستند هذا التعدد قول الرسول يعقوب: "فيدع قسوس الكنيسة".

يُصلَّى على زيت نقيٍ (زيت زيتون) لأن الزيت رمز للفرح والنور واستنارة القلب، ولأنه الزيت يُستخدم للتداوي، ويتم إحضار سبع فتائل من القطن الناصع البياض، وتُقام سبع صلوات، يتولى كل كاهن من الكهنة قراءة صلاة منها، وفي بداية كل صلاة يتم إشعال إحدى الفتائل الموجودة، وبما أن الصلوات متشابهة إلى حد كبير بينها فسأقتصر على ذكر الصلاة

---

(١) انظر: غريغوريوس، القيم الروحية المنطوية في سر مسحة المرضى، ص٣٢، ودرويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٣٩٢.
(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ص٢١٦-٢١٧.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢١٧-٢١٨.

الأولى منها فقط، وهي كما يلي:
يبدأ الكاهن بالصلاة بقوله "ارحمنا يا الله" ثم يتلو صلاة أبانا الذي في السموات، ونصها كما يلي:
"أبانا الذي في السماوات. ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير، بالمسيح يسوع ربنا لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين"
ثم يتلو صلاة الشكر التي تبدأ بـ: " نشكر صانع الخيرات الرحوم الله أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح لأنه سترنا وأعاننا وحفظنا وقبلنا إليه وأشفق علينا وعضدنا ...أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح نشكرك على كل حال ومن أجل كل حال ... ".
ثم يتلو الكاهن من سفر المزامير الإصحاح الواحد والخمسين الذي يتألف من عشرين إعلاناً، وهو إصحاح ينص على التوبة وطلبها، وذلك استكمالاً للتوبة المأمور بها أثناء سر مسحة المرضى، والكاهن هنا هو الذي يقرأ إصحاح التوبة لأن المريض ربما يكون في حالة لا يستطيع معها تقديم الندامة الكاملة والاعتراف.
وبعدها يقرأ (أوشية المرضى) ونصها الآتي:
"وأيضا فلنسأل الله ضابط الكل، أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر، اذكر يا رب مرضى شعبك، تعهّدهم بالمراحم والرأفات اشفهم، انزع عنهم وعنا كلّ مرضٍ وكلّ سقمٍ، وروح الأمراض اطرده. والذين أبطؤوا مطروحين في الأمراض أقمهم وعزهم ... ونحن أيضاً يا رب، أمراض نفوسنا، اشفها والتي لأجسادنا عافها، أيها الطبيب الحقيقي الذي لأنفسنا وأجسادنا، يا مدبر كلّ جسدٍ تعهدنا بخلاصك لكي المسيح إلهنا ينعم لنا ولهم بالعافية والشفاء ويغفر لنا خطايانا"
ثم يخاطب الشماس الحضور قائلاً: "من الرب نطلب شفاء المريض" فيقرأ الكاهن طلبة الصلاة الأولى كما يلي:
"أعطيت نعمتك أيها المتأني على أيدي رسلك الأطهار يا محب البشر، لكي يشفوا بمسحتك المقدسة كل ضربات وكل أسقام الآتين إليك، وإلى مواهبك بأمانة، فالآن أيضاً طهّرنا بيمينك من كل مرض ... يا مَنْ أمر المرضى أن يدعوا قسوس الكنيسة الذين هم خدام لاهوتك ويدهنوهم بالزيت المقدس ليخلصوا، نَجِّ أيها الصالح عبيدك من قِبَل هذه المسحة المقدسةاشف يا رب أنفسنا وأجسادنا برشمك الإلهي ويدك العالية.... يا مَنْ أعطيت النعمة للأنبياء والملوك ورؤساء الآباء، اجعل في هذا الزيت الشفاء للذين يُدهنون منه"
ثم يقرأ الكاهن على الزيت سراً الكلمات التالية:
"أيها الرب الرؤوف الشافي أنفسنا وأجسادنا، قَدِّس هذا الزيت ليكون لكل الذين يُمْسَحون به شفاءً لهم من أدناس الروح وآلام الجسد، لكي بهذا يتمجد اسمك القدوس، لأن لك المجد والخلاص، ونرسل لك إلى فوق المجد والكرامة، أيها الآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين"، وبعد ذلك يقرأ جزءاً من رسالة يعقوب، وفيه النص الذي يستدل به المسيحيون على تشريع سر مسحة المرضى.
وبعدها يقرأ الكاهن صلاة التقديسات (قدوسٌ الله) كما يلي:
"قدوس الله، قدوس القوى، قدوس الحي الذي لا يموت، الذي ولد من العذراء، ارحمنا، قدوس الله، قدوس القوى، قدوس الحي الذي لا يموت، الذي صلب عنا، ارحمنا، قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الحي الذي لا يموت.... يا رب افتقد مرضى شعبك، اشفهم من أجل اسمك

القدوس، آباؤنا وإخوتنا الذين رقدوا، يا رب نيّح نفوسهم".

ثم يقرأ الإعلانات التالية من المزامير: "يا رب لا تبكتني بغضبك، ولا تؤدبني برجزك، ارحمني يا رب فإني ضعيف. اشفني يا رب فإن عظامي قلقت" [مزامير: ١/ ٢-٦]، ويُتبعها بنص من إنجيل يوحنا: [٥/١-١٧].

ثم يُتلى قانون الإيمان النيقاوي: "بالحقيقة نؤمن بإله واحد، الله الآب، ضابط الكل...."

ثم يبدأ الكاهن بدهن المريض بالزيت على شكل صليب في وجهه وصدره ويديه، فيدهن في وجهه بدايةً لأن الرأس مركز كل الحواس، ثم على قلبه لأنه مركز احتواء الأفكار الشريرة، ثم في يديه لأنهما آلة كل عمل، وتم تعيين هذه الأعضاء للمسح بالزيت لتكون على شكل صليب وكل ذلك باسم الثالوث للدلالة على أن الثالوث هو الفاعل في السر.(١)

المطلب الرابع: القيم والمعاني في سر مسحة المرضى:

يرتب المسيحيون على إجراء سر مسحة المرضى بعض **الفوائد الجسدية والروحية**، أهمها ما يلي:

١- **شفاء الأمراض الجسدية:** ليس معنى هذا الأمر أن الشفاء سيكون محتماً بعد إجراء هذا السر، بل ربما يُتبع هذا السر بموت المريض وعدم الشفاء، فيرى المسيحيون أن حدوث الشفاء وعدمه متعلق بإيمان الممسوح بهذا السر وجدواه، فإذا لم يفعل السر فعله في جسد المريض ونفسه فإن المشكلة ليست في السر.

٢- **شفاء الأمراض الروحية:** يجب على المتقدم لهذا السر أن يسبقه بطلب العلاج الروحي من الذنب الذي هو مبعث الألم وسبب المرض، بمعنى أنه يجب عليه أن يلجأ إلى الله قبل أن يلجأ إلى الكاهن طالباً مسحة المرضى أو الطبيب المعالج من المرض، فلا يمكن لسر مسحة المرضى أن يُثمر شفاءً للمسوح به ما لم يكن مشفوعاً بطلب التوبة والاعتراف على يد الكاهن.(٢)

تعقيب على سر مسحة المرضى:

يحظى هذا السر بمكانة مرموقة في العقيدة المسيحية، ومع ذلك فإنه من الممكن أن تُلمح في هذا السر جوانب تخضع للنقد العلمي بمعاييرَ عدة حسب ما يلي:

أولاً: تأسيس سر مسحة المرضى وتاريخه:

يصنّف المسيحيون سر مسحة المرضى ضمن الأسرار السبعة، التي تتضمن قاسماً مشتركاً هو الأصل الكتابي لها حسب الاعتقاد المسيحي، ما يعني أن الكتاب المقدس يتضمن أدلة تفصيلية عن هذا السر والأمر بإقامته وجوباً كما الحال بباقي الأسرار التي يسميها المسيحيون أحياناً بـ (الفرائض).

وأثناء السرد السابق تبين أن **أصل الأمر بإقامة هذا السر ليس السيد المسيح** أو تعاليمه المنسوبة إليه في الكتاب المقدس، **بل هو أحد الحواريين (يعقوب)**، فهو الذي شرّع هذا السر وأمر بإقامته وفصّل آلياته، ومن الصعب في المنطق الديني أن ترقى تعاليم وتشريعات أحد الحواريين إلى رتبة الفرضية، وتحتل مكاناً مهماً بين سائر الفرائض المسيحية.

ومن المعلوم أن **فتح مثل هذا الباب في التشريع على مستوى الفريضة والوجوب**

---

(١) نظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٢١٦-٢٢٦، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٨٥، ودرويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ٣٩٢-٣٩٨.

(٢) انظر: جبار، أسرار مقدسة، ص١١٥.

للاجتهادات البشرية سيفتح باباً من الفوضى العارمة في الدين، وسبباً من أهم أسباب الاختلاف والافتراق حول القضايا الدينية.

ومع أن المسيحيين يصرون على أن تأسيس هذا السر يرجع إلى السيد المسيح من خلال إعطائه للرسل القدرة على شفاء المرضى ومغفرة الذنوب إلا أن **هذه النسبة لا تصح من ناحيتين**:

أولهما: السلطان الممنوح لهم من المسيح جاء عاماً، "ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف" [متى: ١/١٠]، لم يبين المسيح في كلامه أن شفاء المرضى يستدعي أن يوجب له سر منظم بتعاليم الرسل، ثم يأتي الآباء فيتممون تكوين هذا السر بقراءاته وترتيبات طقوسه حتى يصير سراً مقدساً.

ولو كان الاستدلال بهذا الإعلان في نسبة التأسيس المبدئي لهذا السر إلى السيد المسيح لوجب وجود سر آخر هو (إخراج الأرواح النجسة)، وهو أولى من شفاء المرضى، لأن سلطان (إخراج الأرواح النجسة) متقدم على سلطان (شفاء المرضى) بالنص، وتقديم الشيء بالذكر إنما يكون إشارة إلى تقدّم أهميته وأولويته على ما تمّ تأخيره عنه، ولو جازت نسبة التأسيس المبدئي للمسيح لكان من الأولى كما أشرت وجود سر خاص أكثر تقديساً وأهميةً من مسحة المرضى وشفاؤهم هو (إخراج الأرواح النجسة).

ثانياً: التاريخ المحدد لتأسيس هذا السر غير معلوم، يقول (**حبيب جرجس**): "قد مارس الرسل هذا السر عندما أرسلهم المسيح للكرازة كما قال مرقس الإنجيلي (ودهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم) وإن كنا لا نعلم الوقت الذي أسس فيه الرب يسوع هذا السر وأمر به، فلا عجب في ذلك؛ لأن أشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع لك تُكتب واحدة واحدة".(١)

النص السابق يتضمن اعترافاً خطيراً من أحد بابوات المسيحية، ويشير إلى وجود الكثير من الممارسات التي ينسبها المسيحيون إلى المسيح وهي منقطعة التدوين وغير مسجلة عنه في الرعيل الأول الذي عاصر المسيح، بما فيه هذا السر إذ لا يُعرف وقت محدد لبدء تأسيسه.

ويُرجع المؤرخ المسيحي (**شارل جينيبر**) أصل مسحة المرضى إلى أنها كانت ضمن تقاليد اليهود الأساسية(٢)، ومع ذلك يصر المسيحيون على أن هذه المسحة كانت مستعملة منذ عصر الرسل.

ثانياً: تطور إقامة السر عبر القرون:

كذلك اختلفت أساليب إقامة هذا السر بين المسيحيين عبر العصور، **فالممارسات تطورت وتباينت** في كل عصر عن السابق، يذكر (**تسيو دول ري**) في كتابه (حياة الأسرار) أن الكنيسة عاشت مسحة المرضى عبر العصور والثقافات بطرق متنوعة، فقد كانت تُمارس في القرنين الثاني والثالث بأن يقوم الكهنة والأساقفة بزيارة المرضى ويضعوا عليهم الأيادي، ويصلي الكهنة ومساعدوهم، **وكانت العبارات والطقوس متروكة للإلهام الشخصي**، أي لم تكن الكنيسة قد حددت بعد التراتيل والصلوات الواجبة في إقامة هذا السر.

وبعد ذلك **في القرن الرابع ظهرت صلوات تبريك الزيت على يد أحد الأساقفة**، فجاء في التقليد الرسولي "إذا قدّم أحدٌ زيتاً فليشكر الأسقف كما عند تقديمه الخبز (أيها الإله إنك تقدّس هذا الزيت، الذي به مسحت الملوك والكهنة والأنبياء لخدمة من يقبلونه، فليُمنح التعزية كل من يذوقه، والصحة كل من يستعمله).(٣)

---

(١) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٦٥.
(٢) انظر: جينيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٥١.
(٣) انظر: دول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص٣٩٧.

كما يذكر أيضاً أن صلاة البركة التي كانت تُمارس في الشرق أثناء إقامة هذا السر هي **صلاة مستقاة بالمعنى من نصوص الصلوات الرومانية القديمة.**

فصلاة البركة هي كما يلي: "نسألك أن ترسل من علو سمائك قوة ابنك الوحيدة الشفائية على هذا الزيت.... لكي يبعد كل مرض وكل عجز..... ولكي يمنح المرضى النعمة وغفران الخطايا، وليكن لهم دواءً للحياة والخلاص ليجلب لهم الصحة وكمال النفس والجسد والروح والقوة الكافية، لكي يتمجد اسم ابنك يسوع المسيح الذي صُلب وقام من الموت لأجلنا، والذي حمل أمراضنا وضعفنا والذي سوف يأتي ليدين الأحياء والأموات".

أما **الصلاة التي كان يمارسها الرومان** فهي: "أرسل يا رب من علو السماء الروح القدس إلى زيت الزيتون هذا، الذي تنازلت فعصرته من هذه الشجرة الصلبة لكي يسعف أجسادنا ويصبح ببركتك لمن يُمسح به أو يُبشّر به دواءً للروح والجسد، وليطرد كل ألم وكل ضعف وكل مرض".(١)

كما أن **سر مسحة المرضى تم حصرها في العصور التالية للقرن الخامس الميلادي ضمن صلاحيات الكهنة والقساوسة، مع أنها كانت تستخدم قبل ذلك بشكل فردي،** ولا يُشترط أن يكون القائم على هذا السر قسيساً، يتضح ذلك مما كتبه البابا (زخيا الأول) سنة ٤١٦ شارحاً لرسالة يعقوب: (هل فيكم مريض) فقال: "لا شك في أن هذا النص يعني المؤمنين المرضى الذين يحق لهم أن يمسحوا بالزيت، بهذا الزيت الذي كرّمه الأسقف بحق، ليس للإكليروس فحسب، بل للمسيحيين كافة أن يستعملوا المسحة إذا ما اشتد المرض عليهم أو على ذويهم.... ولا يجوز منحه للخطاة".(٢)

ويقول القديس (**سيزير**) أسقف (آرل) الذي عاش في القرن الخامس الميلادي: "كلما عرض مرض ما فليتناول المريض جسد المسيح ودمه، وليطلب بتواضع وإيمان الزيت الذي كرسه الكهنة، وليمسح به جسده ليتم فيه ما كُتب".(٣)

الكلام السابق يعطي الصلاحية لجميع المرضى بممارسة سر مسحة المرضى ولا يشترط أن يكون كاهناً أو قسيساً، لكن البابا (**زخيا**) بين في تعليقه على إعلان يعقوب أن هذه المسحة لا تُمنح للخطاة إلا **بعد التصالح على فراش الموت،** ولعل هذا الكلام هو الذي جعل هذه المسحة مرتبطة عند الكثير من المسيحيين بالموت، لا سيما في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، حيث لم يعد أحدٌ من البابوات يمنح أحداً هذا السر إلا إذا كان على فراش الموت وبعد التوبة والمناولة الخيرة لكي تكون المصالحة مع الله تامة، ومن هنا سمّيت بـ (السر الأخير) أو (المسحة الأخيرة).

وبناءً على ما سبق اقتصر منح سر مسحة المرضى للمرضى المشرفين على الموت دون غيرهم، وهذا الأمر أكد عليه أيضاً مجمع ترنت المنعقد سنة ١٥٤٥ إلى ١٥٦٣، ولما كان القساوسة يمارسونه على المرضى فقط عند مشارفة الموت فقد أحدث ذلك صدمة نفسية بين المرضى الذين يتمنون الشفاء وبين القساوسة الذين يذكرونهم بالموت.

مما سبق تتضح النقاط الخلافية حول هذا السر في تأسيسه وكيفية إقامته والتراتيل والقراءات فيه ومَن له حق في إقامة هذا السر، بالإضافة إلى الخلاف الأكبر بين الفرق المسيحية في اعتبار هذا السر بين البروتستانت من ناحية والكاثوليك والأرثوذكس من ناحية أخرى.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٠٤.
(٢) درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٣٨٧.
(٣) المرجع السابق، ص٣٨٧.

ثالثاً: الإيمان بسرية مسحة المرضى:

هذه أيضاً إحدى قضايا الخلاف بين الفرق المسيحية، **فالكاثوليك والأرثوذكس يؤمنون بأن سر مسحة المرضى هو أحد الأسرار السبعة المقدسة**، أما **البروتستانت** فإنهم على نقيض ذلك، **لا يعترفون بمسحة المرضى سراً مقدّساً**، ومع أنهم يؤمنون بسرّي التعميد والعشاء الرباني لكنهم يسمونهم (فرائض) ويرفضون جميع الأسرار المتبقية، حتى يرفضون تسميتها بـ (الأسرار).

يقول البابا (**شنودة الثالث**): "إن البروتستانت ليست عندهم صلاة مسحة المرضى سواء أكانت سراً من أسرار الكنيسة أم لا، وهم لا يؤمنون بالأسرار أو بأية صلاة طقسية، ولا بالصلاة على المرضى سراً كنسياً فيه تقديس الزيت والدهن به".(١)

وبناءً على الخلاف الذي سبقت الإشارة إليه في وقت إجراء سر مسحة المرضى فقد قررت الكنيسة الكاثوليكية عدم إجراء سر مسحة المرضى إلا عند إشراف الشخص على الموت، أما الأرثوذكس فيُمارس هذا السر عندهم حين يمرض الشخص سواء كان مرضه الأخير أم لا، يقول (**حبيب جرجس**): "ما تفعله كنيسة رومية في هذا السر من عدم منحه إلا للمشرفين على الموت بزعم أنه مسحة أخيرة للمريض حتى إنهم لا يمسحونه إلا عند اقتراب وفاته فهو تعليم غريب مخالف لقول يعقوب الرسول وأقوال الآباء وعادة الكنيسة القديمة، ولم تبدأ هذه البدعة إلا في القرن الثاني عشر"(٢)، ومما ينبني على هذا أيضاً النتائج التي يرتبها الكاثوليك والأرثوذكس على هذا السر، حيث يعتقد الكاثوليك في هذه النتائج أنها تعود على الشخص عند موته، أما الأرثوذكس فإنهم يعتقدون أن فائدة مسحة المرضى تعود على كل الأشخاص الذين يحضرون صلاة القنديل، حتى على البيت الذي تُقام فيه هذه الصلاة.(٣)

رابعاً: مبنى الإيمان بفاعلية مسحة المرضى:

من أحد المَلَاحظ المهمة في قضية مسحة المرضى في المسيحية أن هذه القضية **مبنية أساساً على الاعتقاد بألوهية السيد المسيح كما هو السائد لدى عامة المسيحيين**، مع أن هذه القضية محل خلاف بين المسيحيين أنفسهم على مر التاريخ، **فنحن نؤمن بأن الله تعالى أعطى السيد المسيح من المعجزات ما يقدر به على شفاء المرضى وإبراء أشد الأمراض وأعسرها**، بل الخلق وإحياء الموتى هما المعجزتان الأشهر والأعظم للسيد المسيح عليه السلام، قال تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٤٩].

لكننا نؤمن أن السيد المسيح كان يفعل كل ذلك بوصفه نبياً ورسولاً، لا بأي اعتبار آخر، أما المسيحيون فإنهم نظروا إلى أفعال السيد المسيح على أنها أفعال إلهية لا تصرفات بشرية، يقول (مجدي مرجان): "لقد كانت هذه المعجزات التي لجأ إليها عيسى لتأييد دعواه ولحمل الناس على تصديقه باباً نفذت منه دعوى القول بتأليهه، فما دام يشفي الأمراض والأوجاع ويرد البصر والحياة ويأتي بالخوارق التي يعجز عنها سائر البشر فلا شك أنه ليس إنساناً عادياً، والأرجح أنه إله أو ابن إله أو بعض إله نَزَلَ من السماء أو أتى إلى الأرض ليعرض على الناس مكنات الآلهة وقدراتها على البشر".(٤)

---

(١) شنودة، اللاهوت المقارن، ص١٨.
(٢) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٧٧.
(٣) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٤٠٢.
(٤) مرجان، الله واحد أم ثالوث، ص٦٨.

ولقد **صرّحت النصوص الإنجيلية بأن المسيح كان يطلب شفاء المرضى وإحياء الموتى بقدرة الله**، ويدعو الله أن يتقبل منه كما في قصة العشرة البرص التي سردها لوقا في إنجيله [لوقا: ١٧/١١-١٩]، فمن المُلاحظ أن المسيح قبل أن يقوم بإبراء هؤلاء البُرص أمرهم بالذهاب إلى الهيكل ليقدّموا أنفسهم للكهنة كي يحاولوا شفاءهم، ولما رأى منهم طوعاً وتنفيذاً لأوامره شفاهم من مرضهم، فعاد أحدهم إلى المسيح يشكره ويمجّد الله رب عيسى، فدل ذلك على أن المجد لله رب المسيح الذي هو مصدر المعجزات والشكر للمسيح الذي أجرى الله على يديه المعجزة.

إن **المسيح هنا شأنه شأن باقي الأنبياء الذين أجرى الله على أيديهم المعجزات تأييداً لهم وتصديقاً لدعواهم**، لكن الأمر اختلط بالنسبة للمسيحيين، حتى صار شفاء المرضى ناتجاً عن ألوهية المسيح، وأخذ الشطط بُعداً أكبر من ذلك حين نسب المسيحيون القدرة على شفاء المرضى إلى الرسل، فصار لهم من المعجزات مثلما للمسيح تماماً، مدّعين أن الروح القدس أيدهم بهذه المعجزات والخوارق، حتى نسبوا إليهم أموراً تنم على قدرات شفائية غريبة منهم، يروي سفر أعمال الرسل لبطرس أنه حينما كان واقفاً على باب الهيكل جاءه سائل أعرج يسأل الناس إحساناً، فسأله فيمن سأل، فقال له بطرس: "ليس لي فضة ولا ذهب، ولكن الذي لي فإياه أعطيك باسم يسوع المسيح الناصري، قُمْ وامشِ، ومسكه بيده اليمنى وأقامه ففي الحال تشددت رجلاه وكعباه فوثب ووقف وصار يمشي ودخل معهما إلى الهيكل وهو يمشي ويسبح لله" [أعمال: ٣/٦-٨]، وجاء في سفر الأعمال أيضاً: "إنهم كانوا يحملون المرضى في الشوارع ويضعونهم على فُرُشٍ وأسرّةٍ حتى إذا جاء بطرس يخيم ولو ظله على أحدٍ منهم واجتمع جمهور المدن المحيطة إلى أورشليم حاملين مرضى ومعذّبين من أرواح نجسة وكانوا يُبرَؤون جميعهم" [أعمال: ٥/١٥-١٦].

وازداد الشطط أكثر حين زعم الآباء وراثة هذا الأمر من الرسل، وأضافوا إليه وجوب وجود الزيت أثناء إجراء المسحة، ووجوب مباركة هذا الزيت من قِبل الكاهن، علماً أن المسيح لم يستخدم الزيت أبداً في شفاء المرضى، يقول: (دول ري): "لم يمسح يسوع أحداً بالزيت قط".(١)

يقول (**عوض سمعان**): "إذا رجعنا إلى التاريخ نرى أن المسيحيين في القرنين الأول والثاني كانوا يعتمدون في أمر الشفاء على صلاة الإيمان وحدها، لكن الذين أتوا بعدهم في القرن الثالث تسرّب إلى ذهنهم الظن بأن الزيت هو الذي يشفي المرض، وما لبث هذا الظن طويلاً حتى أصبح عقيدة لديهم، فقد قرر مجمع بافيا سنة ٨٥٩ م أن في هذا الزيت سراً، وأنه يُطهّر أيضاً من الخطايا والآثام، ولذلك أخذ بعض رجال الدين يدهنون به المشرفين على الموت حتى ينطلق هؤلاء إلى العالم الآخر أطهاراً أنقياء".(٢)

من الأمور السابق عرضها يتبين **كثرة التساؤلات والاختلافات حول سر مسحة المرضى، وهذا الأمر يضعف من أهمية هذا السرّ ومن مكانته في العقيدة المسيحية**، ولا ننسى أن مسحة المرضى هو محل إهمال وإنكار لدى فرقة من أكبر الفرق المسيحية هي البروتستانت، وحتى الفرق التي تؤمن به تختلف فيما بينها إلى درجة كبيرة في كيفية إقامته وطقوسه، بالإضافة إلى التطور الكبير الذي طرأ على هذا السر منذ تأسيسه أيام الرسل – حسب ما يعتقد المسيحيون – حتى هذه الأيام.

كل هذه الأمور تشير إلى **عدم إمكانية الثقة في دعوى تأسيس المسيح لهذا السر**، بل

---

(١) دول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص٣٨٨.

(٢) سمعان، الكهنوت، ص٤٣١، وانظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٤١٩-٤٢٠.

يمكن أن يُعدّ سراً دخيلاً على المسيحية، أو في أحسن الأحوال هو ممارسة تقليدية أخذها المسيحيون عن اليهود الذين كانوا يمسحون مرضاهم بالزيت الذي يقدّسه الكاهن، أي ما هو إلا لونٌ من ألوان التأثر المسيحي باليهود.

المبحث الخامس: سر الزواج

الزواج أمر فطري، فطر الله عليه البشر، وهو أمر له أحكامه المخصوصة في جميع الأديان، وتتميز المسيحية عن غيرها في هذا المضمار أنها بالإضافة إلى النظرة الفطرية إلى الزواج فقد **أضافت عليه توجيهات ووصايا وتعليمات بحيث جعلت منه أمراً مقدساً وسراً من أسرار الكنيسة السبعة.**

وعلاقة هذا السر مع باقي الأسرار في المسيحية أن الأسرار الثلاثة الأولى من أسرار الكنيسة (المعمودية والميرون والعشاء الرباني) لها فاعلية عامة هي أن يصير المتقدس بها مسيحياً، وينمو في الإيمان المسيحي، وبالنتيجة يحصل من يقيم هذه الشعائر الثلاث على الخلاص الأبدي، وأما سرّي التوبة ومسحة المرضى فقد أُقيما بوصفهما علاجاً وشفاءً للأمراض، فالأول للأمراض الروحية والثاني للأمراض الجسدية والروحية معاً.

ويوجد سران آخران هما (الزيجة) و(الكهنوت)، ولم يُعيَّن هذان السران لجميع البشر، وليسا ضروريين بحيث لا يمكن لأحدٍ من رعايا الكنيسة الاستغناء عنهما، مع ذلك ينال هذان السران مرتبة من الضرورة المطلقة المناسبة لمقاصد الكنيسة على سبيل الإجمال، وهذه المناسبة هي حفظ وجود الكنيسة بالزيجة وإقامة خدّام لأسرارها وطقوسها بالكهنوت.

فالزيجة تمنح المؤمن نعمة لولادة الأولاد بالناموس البشري الطبيعي، والكهنوت يمنح المؤمن نعمةً لإعادة ولادة أبناء الكنيسة وتربيتهم للحياة الأبدية.(١)

المطلب الأول: مفهوم (سر الزواج) وأدلته:

أولاً: تعريف الزواج:

وردت عدة تعريفات للزواج في كتب اللاهوت المسيحي، أهمها ما يلي:

- عرّفه **(حبيب جرجس)** بأنه: "سر مقدّس به يرتبط ويتحد الرجل والمرأة اتحاداً مقدساً بنعمة الروح القدس للحصول على ولادة البنين وتربيتهم التربية المسيحية".(٢)
- عرّفه **(زكي شنودة)** بأنه: "سر تُمنح بمقتضاه النعمة الإلهية بواسطة صلاة الكاهن على الزوجين اللذين ارتبطا علناً أمام الكنيسة بوعد كل منهما للآخر أن يحفظ الأمانة ويصون العهد".(٣)
- وعرّفه الأنبا **(غريغوريوس)** بأنه: "الرابطة الروحية التي تتم بفاعلية نعمة الروح القدس التي تنحدر من السماء بناءً على استدعاء الكاهن، فتُؤلف بين العروسين الرجل والمرأة، وتوحّد بينهما، وتصيّرهما جسداً واحداً، فيكون كل منهما ملكاً للآخر، ووقفاً عليه وحراماً على غيره، وذلك لإقامة أسرة طاهرة تحيا بالتعاون والحب لإيلاد أولاداً طاهرين، وإنماء الكنيسة وملكوت الله على الأرض".(٤)
- وجاء في **مشروع قانون الأحوال الشخصية للأقباط الأرثوذكس** "سر مقدس يتم بصلاة الإكليل على يد كاهن طبقاً لطقوس الكنيسة يرتبط به رجل وامرأة بقصد تكوين أسرة والتعاون على شؤون الحياة ويثبّت بعقد يجريه الكاهن".(٥)

---

(١) انظر: مسره، الأنوار في كشف الأسرار السبعة، ص٢٧٣.
(٢) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٨٨.
(٣) شنودة، تاريخ الأقباط، ٢٧٠/١.
(٤) غريغوريوس، القيم الروحية في سر الزيجة، ص٩.
(٥) تادرس يعقوب (تادرس)، شرح الأحوال الشخصية للمصريين الغير مسلمين، ص٢٦.

فالمعنى العام للزواج في المسيحية يدور حول **عدّ الزواج ناموساً طبيعياً، أي أنه قانون إلهي يجمع بين رجل وامرأة تحل له، يكوّنان معاً بإشراف الكاهن ومباركته رباطاً أبدياً تكاملياً لا يُحَل.**

ثانياً: أدلة سر الزواج:

يستدل المسيحيون على سر الزواج كتابياً بأدلة كثرة منها:

١. "خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً أو أنثى، خلقهم وباركهم الله، وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملؤوا الأرض" [تكوين: ١/٢٧-٢٨].
٢. "إن الذي خلق منذ البدء خلقهما ذكراً وأنثى، قال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذ ليسا بعدُ اثنين بل جسدٌ واحد، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان". [متى: ١٩/٤-٦].
٣. والدليل الأهم عند المسيحيين فيما يخص مسألة الزواج هو حضور المسيح عرس قانا الجليل، الذي باركه بتشريفه وملأه نعمة، وبعمل المسيح هذا صار الزواج سراً مقدساً.
٤. ويقول (بولس) أيضاً: "ليكن الزواج مكرماً عند كل واحد والمضجع غير نجس" [عبرانيين: ١٣/٤].

ثالثاً: تأسيس سر الزوج

يرى المسيحيون **أن الله تعالى أسسه منذ البدء، وثبّته يسوع المسيح** ورفع شأنه فجعله سراً مقدساً في كنيسته، لكن لم يرد في الإنجيل وقت تأسيس يسوع سر الزواج ولا كيفية ذلك شأنه شأن أمورٍ كثيرة صنعها المسيح أمام تلاميذه ولم يرد ذكرها في الكتاب المقدس كما يقول يوحنا: "وآياتٍ أُخر كثيرة صنعها يسوع قدّام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب" [يوحنا: ٢٠/٣٠].

وقد **ارتأى بعض الآباء أن المسيح أسس سر الزيجة لما حضر عرس قانا الجليل،** وباركه بحضوره، **وقال بعضهم إنه أسسه بخطابه للفريسيين في الزواج الحقيقي** [متى: ١٩/٣-١٢]، ورأى آخرون أيضاً أن المسيح أسس هذا السر بعد قيامته من بين الأموات في مدة ظهوره للتلاميذ لمدة أربعين يوماً وهو يتكلم معهم عن الأمور المختصة بملكوت الله، وعلى كل حال فإن **المعتقد السائد في الكنيسة أن سر الزيجة قائم في الكنيسة منذ تأسيسها.**(١)

مما سبق يتضح أن للزيجة في المسيحية مكانةً مرموقة، لا سيما أن حضور المسيح عرس قانا الجليل أعطى لهذا الأمر بُعداً مختلفاً، فصار الزواج سراً مقدساً له مكانة الفرائض السبعة عند عامة الفرق المسيحية.

يقول **حبيب جرجس**: "يتضح جلياً أن رباط الزيجة يصور اتحاد المسيح بالكنيسة، وعلى هذا يكون سر الزواج سراً عظيماً؛ لأنه مادام رباط الزيجة هو صورة حقيقية في جوهره يصوره سرياً اتحاد المسيح بالكنيسة، وهذا الاتحاد هو بلا ريب مقدس وبريء من الدنس، فمن الضرورة أن نُسلم بأن الزيجة أيضاً قد تقدست في الشريعة المسيحية وامتلأت نعمة بوجه سري واستوفت شروط السر، وأنها من الأسرار المقدسة، خصوصاً وأن الرسول يقول: تخضع المرأة لرجلها كما تخضع الكنيسة للمسيح، وأن يحب الرجل امرأته كما أحب المسيح الكنيسة، فهذه المقابلة لا محل لها على الإطلاق لو لم ينل الزوجان نعمة خاصة بسر الزواج".(٢)

---

(١) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٨٩-١٩٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٩٠-١٩١.

ثالثاً: الغاية من سر الزيجة في المسيحية:

للزيجة في المسيحية غايتان، **أولهما: نمو النوع البشري** وحفظه بالتناسل حسب الأمر الإلهي "أثمروا وأكثروا وملؤوا الأرض" [التكوين: ٢٨/١]، وكذلك يشمل النمو هنا نمو وازدياد أعضاء كنيسة الله.

ثانيتهما هي التعاون والتعاضد ومساعدة كلٍ من الزوجين للآخر وفقاً لما ورد في التكوين: "ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له معيناً نظيره"[التكوين: ١٨/٢]، ولذلك خلق الله المرأة من ضلع آدم ليكون بينهما اتحاد طبيعي، ويكون رباطهما قوياً، ويعيشا كل حياتها بدون انفصال.

وبعد أن سقط الإنسان في الخطيئة أُضيفت إلى الغايتين المذكورتين غاية ثالثة هي تحصين الإنسان من الخطيئة وكبح جماح الشهوات بالاقتران الشرعي.

المطلب الثاني: شروط الزواج المسيحي وخصائصه:

ليس الزواج المسيحي مجرد عقد بين رجل وامرأة، بل ينظر المسيحيون إلى هذا الأمر باعتبار وجود طرف ثالث غير الرجل والمرأة وهو الله الذي يجمع بينهما ويربط بينهما بالروح القدس ويجعلهما جسداً واحداً، وبناءً عليه يحل الواحد للآخر، فبعد أن يتم ذلك لم يعد في مقدورهما ولا بإرادتهما أن يحلا هذا الرباط من غير إذن الله؛ لأن الله قد دخل بينهما في هذا الرباط، والروح القدس جمع بينهما.

بناءً على ذلك يعدّ المسيحيون الزواج رباطاً مقدساً يربطه الله، وسراً مقدساً يحل الله فيه نعمة غير منظورة هي نعمة الروح القدس، ومن شأن هذه النعمة الإلهية غير المنظورة أن تجعل من الرجل والمرأة جسداً واحداً.

من هنا **رتّب المسيحيون شروطاً ينبغي مراعاتها أثناء إقامة سر الزواج، وهي كما يلي:**

أولاً: شروط الزواج المسيحي:

١- **أن يكون كلٌ من الزوج والزوجة مسيحياً**: قد نالا سر التعميد وسر مسحة الميرون، وأن يكونا قد تناولا من الأسرار المقدسة، وأن يكونا سالكين في حياة التوبة، بمعنى أن الواجب أن يكون كلٌ من الرجل والمرأة قد حصل على الشروط اللازمة التي تجعل منه مسيحياً حقيقياً (المعمودية، الميرون، التوبة، التناول). "لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين"[كورنثوس٢: ١٤/٦].

٢- **صلاحية كلٍ من الرجل والمرأة للزواج**: لا بد أيضاً أن يكون كلٌ من الرجل والمرأة مكتملاً، الرجل بصفات الرجولة والمرأة بصفات الأنوثة، وأهمية ذلك تتضح بعد الزواج عندما تحدث بعض المشاكل بين الزوجين فيكون ذلك نتيجة عدم اكتمال البناء النفسي للرجل أو للمرأة، فحدوث المشاكل بين الرجل والمرأة بعد الزواج دليل على فقدان شرط (صلاحية الرجل والمرأة للزواج)، وهذا أيضاً دليل على أن الله لم يكن حاضراً وقت إجراء هذا العقد بسبب نقصان أحد الشروط، وعليه فإن عقد الزواج يعدّ غير قائم، ولو حصل الزواج، فالعقد غير ناجز والزواج غير صحيح، كما أن الله لم يكن حاضراً وقت إجراء العقد؛ لأن الله لا يُخدع، وعليه يصح الفصل بين الرجل والمرأة في هذا العقد، وإذا تم الفصل فإنه لا يكون طلاقاً، بل إن الزواج ذاته غير قائم منذ البداية لفقدانه شرطاً من شروط قيام الزواج.

٣- **الرضى بين الزوجين.**

٤- **أن يكونا بعيدين عن القرابة** المعينة درجاتها من قوانين الكنيسة، وهذه القرابة هي من

حيثيات أربع: النسب، والمصاهرة، والتبني، والقرابة الروحية.[١]

٥- **أن يتم الزواج بمعرفة الكاهن في الكنيسة**: وأن يكون الكاهن هو المباشر لعقد الزواج الذي يتضمن الإعلان عن أن هذه الرابطة مقدسة، وأن الزواج مكرّم؛ لأنه يُباشر بمعرفة الكاهن ممثل السلطة الدينية والحضور الإلهي وبوساطته، والكنيسة هي المكان المخصص للعبادة، وهذا في نفس الوقت توكيد أكثر لرضا الله عن رباط الزواج وتأكيد لقدسية الزواج ذاته، وبما أن الزواج سرٌ من الأسرار المقدسة فإن الأسرار لا تتم إلا في الكنيسة، وإقامتها خارج الكنيسة تحتاج إلى إذن من رجال الكهنوت، بالإضافة إلى أنها تبقى حالات استثنائية لا تُذكر.

٦- **أن يكونا متحّدين بالاعتقاد حسب الفرق المسيحية**: **كأن يكونا أرثوذكسيين**، وهذا الشرط يضيفه الأرثوذكس؛ لأنهم يرون أنه لا وجه لنوال غير الأرثوذكسيين إكليلاً أرثوذكسياً من يد كاهن أرثوذكسي قبل أن يعترف بالإيمان الأرثوذكسي، ومتى كان أحد العروسين غير أرثوذكسي فإنه يُشترط أن ينضمّ إلى الأرثوذكسية أولاً.[٢]

ثانياً: خصائص الزواج المسيحي:

يتميز الزواج المسيحي بخاصتين هما:

١- وحدانية الزيجة:

فالكنيسة **لا تسمح للرجل بأكثر من زوجة واحدة** ولا تعترف بالتعدد، ودليل ذلك أن الله خلق في البداية آدم ثم خلق له حواء، ولم يكن يوجد أكثر من آدم رجلاً، ولا أكثر من حواء امرأة، فالرباط المقدس ين الرجل والمرأة يجعل باقي النساء حراماً عليه، ويجعل باقي الرجال أيضاً حراماً عليها.

ولقد **خالفت المسيحية بهذا القيد جميع الديانات السماوية**، فحتى اليهودية تبيح تعدد النساء، ومن المعلوم أن العهد القديم هو عهد الشريعة بالنسبة للمسيحيين، وهم مأمورون بالتقيّد بتعاليم التوراة والتزامها وإقامتها، لكن للمسيحيين في هذه المسالة رأياً آخر، إذ **يعتقدون أن المسيح ردّ الأمر بالنسبة للزواج إلى صورته الأولى، وهي صورة الخلقة التي خلق الله الإنسان عليها، فصحح الأخطاء التي نشأت في هذا المجال** نتيجة رغبات البشر.

مع أن تعدد الزوجات في العهد القديم وارد في حق الأنبياء، وأنبياء العهد القديم هم محل إجلال واحترام وتوقير عند المسيحيين، **فلا يصح أن يكون الخطأ المذكور (الرغبات البشرية) مناسباً كتعليل لتعدد زوجاتهم**، فيعقوب النبي كان له عدد من النساء منهن بلهة وراحيل وليئة وزلفة، وداود وسليمان الكثير من الأنبياء لم يكن أحد منهم مفرداً في الزواج.

٢- عدم انحلال الزواج:

الزيجة في المسيحية هي رباط أبدي، لذلك تسمى المرأة شريكة الحياة ويسمى الرجل شريك الحياة، ومن هنا تنبع أهمية التدقيق في اختيار الزوج، والاهتمام بالرابطة الفكرية التي تربط بين الرجل والمرأة.[٣]

---

(١) للتوسع انظر: أبو السعود (رمضان)، شرح أحكام الأحوال الشخصية لغير المسلمين، دار الجامعة الجديدة، د/ط، ص١٣٢.

(٢) انظر: جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٩٥-١٩٦، وغريغوريوس، الزواج في المفهوم المسيحي، ص١٠-٢٠، وجبّار، أسرار مقدسة، ص١١٨.

(٣) انظر: غريغوريوس، الزواج في المفهوم المسيحي، ص٢٤-٢٧، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٩٦.

ولقد ورد في الكتاب المقدس في سفر التثنية ما يخالف هذا: "إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فان أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها و أطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست لأن ذلك رجس لدى الرب فلا تجلب خطية على الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيبا" [تثنية: ٢٤/١-٤]، وسيأتي بيان ذلك في التعقيب.

المطلب الثالث: طقس سر الزواج وأهدافه:

أولاً: طقس سر الزواج:

والمقصود به العمل المنظور في إتمام هذا السر، والخطوات الليتورجية التي يفعلها كلٌ من الكاهن والزوجين أثناء إقامة السر، والعمل المنظور في سر الزواج يتألف من أمرين جوهريين، أولهما إقرار كلٍ من العروسين علناً أمام الكنيسة بأنهما قابلان للزواج بحريتهما التامة ورضاهما المتبادل، وتعاهدهما بحفظ الأمانة الزوجية إلى آخر لحظة من حياتهما، وثانيهما البركة التي تتم في العقد وصلاة الإكليل اللذين يتممهما الكاهن.

أما **فعل النعمة غير المنظورة في هذا السر فيمكن تحديدها بأن النعمة الإلهية حسب تعليم الرسول (بولس) تحوّل الزيجة الطبيعية إلى عمل مقدّس يصوّر اتحاد المسيح بالكنيسة اتحاداً سرياً**[١]، ويمكن إيضاح المعنى السابق بالنقاط التالية:

١- إن **النعمة الإلهية تقدّس رباط الزوجية** وتجعله رباطاً روحياً؛ لأن اتحاد المسيح بالكنيسة هو اتحاد روحي مقدس، ولذلك يقول (بولس): "ليكن الزواج مكرماً عند كل واحد والمضجع غير نجس" [عبرانيين: ١٣/٤].

٢- **النعمة الإلهية تساعد على أن يدوم رباط الزيجة غير منفصل،** كما أن اتحاد المسيح بالكنيسة هو اتحاد أبدي.

٣- **النعمة الإلهية تساعد الزوجين مدة حياتهما على إتمام الواجبات المفروضة على كلٍ منهما نحو الآخر** حسب النموذج السامي في اتحاد المسيح بالكنيسة حسب وصية الرسول (بولس): "أيها النساء اخضعن لرجالكن....كما تخضع الكنيسة للمسيح ....أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها" [أفسس: ٥/٢٢-٢٥]، فبقوة النعمة الإلهية وبمعاضدتها يؤدي كل من الزوجين واجباته نحو الآخر.[٢]

فالكنيسة تبارك الزواج وتدعو للمتزوجين وتقدم لهم النصائح، والكنيسة تحرص على اعتراف وتناول الخطيبين قبل الزواج لكي يخلصا من كل أخطاء الماضي، ويبدأ كل منهما في الزواج حياة جديدة مقدسة، وقديماً كان سر الزواج يتم بعد رفع البخور في وقت باكر، ويتناول الزوجان الأسرار المقدسة، ويعيشان ثلاثة أيام بدون خلطة زوجية يقضيانها في أحد الأديرة، وبعد ذلك ينتقلان إلى معيشتهما المشتركة، لكن هذا الأمر أصبح في أيامنا اختيارياً.

وتبقى الكنيسة هي المسؤولة عن رعاية الزوجين حديثي الزواج، وهذا الأمر يكون من

---

(١) انظر: جراسيموس، الأنوار في كشف الأسرار السبعة، ص٢٨٢، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٩٣.

(٢) انظر: جراسيموس، الأنوار في كشف الأسرار السبعة، ص٢٨٥، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٩٤-١٩٥.

واجبات الكاهن الذي عقد لهما، والسبب في ذلك أن هذه الحياة الجديدة عليهما تحتاج إلى توجيه حتى تبدأ بدون مشاكل، وإن حصل شيء فإنه يُعالج في أوانه قبل أن يكبر، ومن هنا فإنه من الواجب على الكاهن أن يكون لديه كشف بالزيجات الجديدة، وعناوينها وتاريخ كل زيجة، يضعها جميعاً موضعاً لافتقاده.(١)

ثانياً: أهداف الزواج في المسيحية:

يهدف الزواج في المسيحية إلى:

١- **اتحاد الحب الروحي:** وهو الهدف الأول من الزواج المسيحي "أن يصير الاثنان واحداً" [متى: ١٩/٥]، والحب المُشار إليه هنا هو الحب الروحاني المقدس، الذي ينتج من تدخل الروح القدس في سر الزواج.

٢- **التعاون في الحياة**: "ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له معيناً نظيره" [تكوين: ٢/١٨]، فالهدف هو التعاون على أساس التناظر والمساواة، وأخذ ضلع آدم وخلقها منه إشارة إلى المساواة في حقها، إذ لم تُخلق من الرأس أو من الرجلين.

٣- **خلاص النفس**: وهذا هو الهدف البعيد للزواج المسيحي، فقضية الخلاص هي غاية الوجود الإنساني المسيحي، والزواج المقدس يساعد الإنسان في ضبط مسار حياته الروحية فيساعده الزواج في الحماية من الغواية والخطيئة.

٤- **استمرار النوع الإنساني**: وهو هدف مقدس ومبارك، حيث يستمر من خلاله النوع الإنساني، وتتعاقب أجيال البشر الممجدون لله، ومن هنا فإن الزواج يعدّ عطية من الله، "المرأة التي أعطيتها لي....التي جعلتها معي" [تكوين: ٣/١٢]

٥- **خلق المزيد من القديسين**: فالزوجان يتقدسان ويرثان الملكوت في المسيح، وأولادهما وبناتهما سوف يصلون جميعاً بالتربية الروحية الأمينة إلى نفس الميراث السماوي، فمن هنا تتحول عملية الإنجاب إلى معنى روحي.(٢)

فالأسرة المسيحية تتألف من إنسان ثابت في الله يتزوج بامرأة ثابتة في الله، فإذا أنجب هؤلاء أبناءً يكون هؤلاء الأبناء – في المعتقد المسيحي – أبناء لله، لذا يرتب بعض المسيحيين على الزواج هدف (حصول الحياة الروحية المشتركة)، بحيث تصلي الأسرة معاً، ويمكن أن تتناول معاً من الأسرار المقدسة وتجتمع معاً على تمجيد الله في جلسة روحية في البيت.(٣)

المطلب الرابع: المسائل ذات الصلة:

يتعلق بموضوع الزواج في المسيحية الكثير من المسائل التي توضح أحكامه وتبيّن أبعاده، ولا غرابة أن يبلغ الاهتمام بالزواج مبلغاً عظيماً لاسيما إذا تذكرنا أنه في المسيحية سرٌ مقدسٌ، وهو سبب كافٍ ليتفرع عن هذا السر الكثير من الترتيبات والأحكام، وسأعرض أهمها فيما يلي:

أولاً: الطلاق في المسيحية:

جاءت التعليمات المسيحية محرّمة للطلاق مانعة لحدوثه، ويعدّ المسيحيون الطلاق ظاهرة اجتماعية بغيضة منذ العهد القديم، مع أن شريعة العهد القديم سمحت لليهود بالطلاق، ومع ذلك أعلن الوحي فيها أن الله يبغض الطلاق، "لأنه يكره الطلاق قال الرب إله إسرائيل" [ملاخي: ٢/١٦].

---

(١) انظر: شنودة الثالث: الأسرة الروحية السعيدة، ص٧٨.

(٢) انظر: جبار، أسرار مقدسة، ص١١٨-١٢٠.

(٣) انظر: شنودة، الأسرة الروحية السعيدة، ص٨٣.

من هنا **لم يكن مفاجئاً أن يعلن المسيح في عظة الجبل تحريم الطلاق،** "قيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني" [متى: ٥/٣١-٣٢]، "كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني" [لوقا: ١٦/١٨].

وبعد ذلك **أكّد المسيح تحريمه للطلاق بصورة واضحة في جوابه للفريسيين** الذين سألوه عن أسباب الطلاق فقال: "وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب، فأجاب وقال لهم أما قرأتم إن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى، وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان، قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاق فتطلق، قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا، وأقول لكم إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنى وتزوج بأخرى يزني والذي يتزوج بمطلقة يزني، قال له تلاميذه إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج، فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أُعطي لهم" [متى: ١٩/٣-١١].

فبين المسيح أن شريعة الزواج كانت منذ بدء الخليقة زوجاً واحداً لزوجة واحدة، وأن الزواج كان أبدياً، كما يرى المسيحيون أنه بعد خروج الإنسان من الفردوس تبادل الرجل والمرأة استيعاب شخصيتهما وفرديتهما، وأصبح الزواج بالنسبة لهم تسامياً على الضرورة الطبيعية من خلال المحبة بينهما، وحتى حين يحاول آباء الكنيسة ترتيب أولويات أغراض الزواج فإنهم يعطون الأولوية للجانب الشخصي الذاتي، أي الشركة بين الزوجين قبل الغرض من الزواج الذي هو النسل.(١)

وفي هذا الإطار الروحي فإن **حديث المسيح عن الطلاق وتحريمه يجعل وحدة الزيجة ودوامها سمتي الزواج بحسب التدبير الإلهي في التشريع المسيحي.**

وقد عاش المسيحيون عصورهم الأولى في ظل الدولة الرومانية والبيزنطية، ويروي المؤرخون المسيحيون أن المسيحيين التزموا بشريعة الإنجيل مع أن قوانين هذه الدول تسمح بالطلاق حتى لو حكم القاضي المدني بخلاف ذلك، ولم يسمحوا للمعايير الزوجية التي كانت مراعاة أن تخبو من حياتهم وممارستهم للزيجة، فقد كانوا يجحدون كل صور الطلاق غير الموافقة لإيمانهم، يقول القديس (غريغوريوس): "إن الطلاق مخالف لقوانيننا حتى لو حكم القاضي الروماني بخلاف ذلك، والسند في ذلك هو كلام المسيح المتضمن الوعد بالقوة التي يمنحها لكل من وضع في قلبه الأمانة لوصايا الإنجيل (ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أُعطي لهم.....من استطاع أن يقبل فليقبل".(٢)

وقد تبين من الإعلانات السابقة أن المبرر الوحيد للطلاق عند عامة المسيحيين – لا سيما الأرثوذكس - هو الزنى، ومع ذلك فإنه لو حدث الطلاق لهذه العلة فإن الحال الأمثل للرجل أن يبقى دون زواج بقية عمره، لأن المسيحية ترى في الزواج الثاني - بعد حدوث الطلاق – تنازلاً إلى مستوى الضعف البشري أو الضرورة الطبيعية، وليس هو الزواج كما تأسس منذ البدء والذي يتضمن العهد الأبدي والشركة الكاملة بين الزوجين، ومن هنا فليس في الكنائس القبطية طقوس للزواج الثاني.

يقول القديس (**أبيفانوس**): "الزيجة الأولى هي في توافق تام مع الشريعة، بينما الزيجة

---

(١) انظر: المقاري (أثناسيوس)، التدبير الإلهي في بنيان الكنيسة، ص٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٠١.

الثانية مسموح بها عن تنازل، أما الثالثة فمذمومة، ومن يزيد عن ذلك فهو ذو ميول حيوانية".[١]

أما الطلاق لغير علة الزنى فهو أمر مرفوض في المسيحية، وهذا الأمر واضح في كلام (بولس) الرسول: "وأما المتزوجون فأوصيهن لا أنا بل الرب ألّا تفارق المرأة رجلها، وإن فارقته فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها، ولا يترك الرجل امرأته" [كورنثوس١: ٧/١٠-١١].

والسبب في تشدد الكنيسة إلى درجة كبيرة في عدم السماح بحدوث الطلاق هو أن **الكنيسة كانت تعدّ نفسها مسؤولة أمام الله عن الاستقرار الروحي لدى رعاياها**، ومسؤولة أيضاً عن المطلقين والمطلقات مهما تراوحت درجات خطئهم في واقعة الطلاق بما أنهم لا يزالون من رعايا الكنيسة، وتقتضي هذه الرِعاية أن تكون الكنيسة حائلة بين وقوع الطلاق ما أمكن، وعن بقاء رعاياها في جو من الأمان والاستقرار العائلي الذي ينعكس على الاستقرار الروحي الذي ينشده جميع المؤمنين.

ونجمل العرض السابق بقول (حبيب جرجس): "فمن هذه النصوص المقدسة يتضح أن الزيجة سر مقدس لا ينفك عقد رباطها إلا لسببين: أولهما الموت الذي يجعل الزوج الحي حراً من رباط الزواج، وثانيهما الزنى الذي ينجس رباط الزيجة".[٢]

وكتعقيب على ما سبق:

يتضح أن ما استدل به المسيحيون من أدلة على تحريم الطلاق يتناقض مع شريعة التوراة التي جاء المسيح متبعاً لها غير ناقض لما جاء فيها، ولقد ورد في الكتاب المقدس ما يدل على إباحة الطلاق، فقد جاء في سفر التثنية "إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيبَ شيءٍ وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست لأن ذلك رجس لدى الرب فلا تجلب خطية على الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيبا" [تثنية: ٢٤/١-٤].

ولقد خالف المسيحيون هذا النص الصريح، وادعوا أن موسى أجاز الطلاق لقومه بسبب ما كانوا عليه من البداوة والقساوة.

ويعلل المسيحيون تحريم الطلاق بما يترتب عليه من مضار ومشاكل، ومنها:

١- يضاد الطلاق الناموس الزوجي وينافي العلة الغائية التي من أجلها انعقد، فيصير أحد الزوجين به أسوأ حالاً من الآخر.

٢- يضر الطلاق بسعادة الزوجين فيزيل المحبة المتبادلة بينهما، ويهدم ما كان قد بناه الزوجان من الإخلاص لوقت طويل.

٣- يضر الطلاق بتربية النسل التربية الصحيحة.

٤- يضر الطلاق بخير الجماعة المسيحية؛ لأنه ينزع السلام من العائلات، ويلقي الشقاق بين أفراد الجماعة.[٣]

لكن الحقيقة أن هذه التعليلات لتحريم الطلاق إنما تنطبق على الطلاق الذي ليس له سبب، أما الحالات التي تتطلب الانفصال الزوجي بالطلاق فلا تشملها هذه التعليلات حتماً؛ لأن بقاء

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٢.

(٢) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص١٩٧.

(٣) انظر: سوريال (صليب)، دراسات في قوانين الأحوال الشخصية، ص١٣٩.

عقد الزوجية حينها قائماً مع توفر أسباب انفصاله سيكون أسوأ لما سيترتب عليه من تعاسة الزوجين وتفاقم الخصام والشقاق، والأمر الآخر أن ارتباط انفكاك الزواج بالزنى فقط سيكون مدعاة إلى ارتكاب هذا الجرم حين حصول الشقاق بين الزوجين واليأس من الانفصال.(١)

وبناءً على هذا المنع الجائر كان من الطبيعي أن تصدح الأصوات بين أتباع المسيحية مطالبين برفع هذا المنع وإزالة قيوده، ولقد حدث شيء من هذا القبيل في بعض البلدان التي تدين بالمسيحية، منها إيطاليا وأمريكا واليونان وإنكلترا وغيرها، فكان لزاماً على الكنيسة إضافة مواد قانونية جديدة إلى قانون الأحوال الشخصية تبيح الطلاق إضافة إلى علة الزنى.(٢)

من أهم هذه المواد القانونية:

١- هروب الزوجة مع رجل غريب ليس من محارمها أو مبيتها معه دون علم زوجها وإذنه بغير ضرورة.

٢- ظهور خطابات صادرة من أحد الزوجين لشخص غريب تدل على وجود علاقة آثمة بينهما.

٣- وجود رجل غريب مع الزوجة في منزل الزوجية بحالة مريبة.

٤- الشذوذ الجنسي.

٥- الخروج عن الدين المسيحي.

٦- الحكم ببعض العقوبات الجنائية.

٧- الاعتداء على حياة أحد الزوجين أو الإيذاء الجسيم.(٣)

أضاف القساوسة هذه المواد القانونية نظراً للضيق التشريعي في مسألة الطلاق، وخالفوا بذلك الأوامر المنسوبة للسيد المسيح في الكتاب المقدس التي تمنع الطلاق حتى في الحالات المشار إليها ضمن هذه القوانين، وكان الأسلم في مسألة الطلاق بالنسبة للمسيحيين هو الرجوع إلى تعاليم التوراة التي تبيح الطلاق في حالات الشقاق والتي تُطبّق عليها الحالات المذكورة في هذه القوانين، وعدم اللجوء إلى تشريعات قانونية استدراكاً للضرر والضيق الواقع في التمسك بما يُنسب إلى المسيح من تحريم الطلاق إلا لعلة الزنى.

أما **الآثار المترتبة** على الطلاق في قوانين الأحوال الشخصية في البلدان التي تدين بالمسيحية فهي:

١- **انحلال الزوجية من خلال الحكم النهائي الصادر به** فتزول حقوق كلٍ من الزوجين وواجباته قِبَلَ الآخر، ولا يرث أحدهما الآخر عند موته.

٢- **يجوز لكلٍ من الزوجين بعد الحكم بالطلاق أن يتزوج من شخص آخر**، إلا إذا نصَّ الحكم على حرمانِ أحدهما أو كليهما من الزواج، وفي هذه الحالة لا يجوز لمن قُضي بحرمانه أن يتزوج إلا بتصريح من المجلس.

٣- **يجوز لمن وقع بينهما طلاق الرجوع إلى بعضهما** بقرار يصدر من المجلس المِلّي العام بعد استيفاء الإجراءات الدينية التي تقتضيها قوانين الكنيسة.

٤- **يجوز الحكم بالنفقة أو بتعويض لمن حُكم له بالطلاق** على الزوج الآخر.

---

(١) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٤٧٧.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٤٧٨.

(٣) انظر: الأهواني (حسام الدين)، شرح مبادئ الأحوال الشخصية في شريعة الأقباط الأرثوذكس، ص٢٠٠-٢١٠.

٥- **حضانة الأولاد تكون للزوج الذي صدر حكم الطلاق لمصلحته** ما لم يأمر المجلس بحضانة الأولاد أو بعضهم للزوج الآخر أو لمن له حق الحضانة بعده، ومع ذلك يحتفظ كلا الأبوين بعد الطلاق بحقه في ملاحظة أولاده وتربيتهم أيَّاً كان الشخص الذي عُهد إليه بحضانتهم.

٦- **لا يؤثر حكم الطلاق على ما للأولاد من الحقوق** قِبَلَ والديهم.(١)

ثانياً: تعدد الزوجات في المسيحية:

إن **وحدة الزواج في المسيحية أمر مسلّم به عند جميع الفرق المسيحية** في كنائس العالم كافةً على اختلاف مذاهبهم، رغم الخلاف الكبير بين هذه الفرق في مواضيع ذات شأن كبير في اللاهوت والتفسير لكن هذه النقطة بالذات لم تكن في يوم من الأيام موضع خلاف، فآمن بها المسيحيون ركناً ثابتاً من أركان الزواج المسيحي، وهذا يدل على أن هذا الأمر هو عقيدة راسخة وليست موضع جدل بين المسيحيين، وهذا الإجماع المشار إليه هو من جهة التشريعات المدنية بالإضافة إلى الجهة الكنسية.(٢)

والمشكلة التي يواجهها المسيحيون بالنسبة لهذا المعتقد هو إباحة التعدد في العهد القديم الذي هو عهد الشريعة بالنسبة للمسيحيين، وكمحاولة لتبرير هذا التحوّل في التشريع يجيب المسيحيون عن مجمل الأسئلة التي تعرضها الأطراف المنازعة بما يلي:

يرى المسيحيون أن آدم عليه السلام كان في الجنة بتولاً، وكذلك كانت حواء، ولكنهما بعد الخطيئة فقدا حالتهما الأولى السامية الفائقة للطبيعة، فأحسا بحالة العري، فكساهما الله وستر عريهما، وبعد أن طُردا من الفردوس "عرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين" [تكوين: ٤/١].

ولم يكتف الإنسان بالنزول من سمو البتولية إلى عفة الزواج الواحد، بل **تدرج البعض إلى تعدد الزوجات،** وبدأت الشهوة تسيطر على الرجال، "إن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا" [تكوين: ٦/٢].

وبعد ذلك كثر الشر في الأرض، ولم يكتف الناس بالزنى، بل انحطوا أكثر من ذلك إلى الشذوذ الجنسي كما ظهر ذلك ببشاعة أعمال أهل سدوم، وانحدرت البشرية إلى أسوأ من ذلك، فعبدت الأصنام، ووسط هذا الجو الوثني الفاسد كان تعدد الزوجات يعدّ عملاً شريفاً إذا قيس بالممارسات الأخرى.

وهنا كان **لا بد من سياسة تدّرج لإنقاذ الإنسان،** فانتقى الله (إبراهيم) ليجعله نواةً لشعب جديد، وظهرت أيضاً في عهده مسألة تعدد الزوجات، مع أن الله لم يأمر بها لكنه تسامح في هذا الأمر؛ فقد كانت له ظروفه الخاصة من جهة، ومن جهة أخرى فإن المستوى البشري المعاصر لم يكن يسمح وقتذاك بالسمو الذي أراده الله للإنسان.

ويضرب المسيحيون مثالاً للتدرج التشريعي الذي عامل الله به شعبه أنه لم يكن هناك طلاق، ولكن لما ظهر فساد البشرية فإن الله لم يلغه دفعة واحدة، إنما تركهم فترة طويلة في حريتهم المطلقة، يستخدمون الطلاق دون قيد ولا شرط، ثم قيّدهم في الشريعة التوراتية بكتاب يعطى للمطلقة، إذاً لم يكن السبب في تشريع الطلاق كونه أمراً يتماشى مع قصد الله، إنما هو

---

(١) انظر: سوريال، دراسات في قوانين الأحوال الشخصية، ص١٧٧، وتوفيق (عبد الناصر)، أحكام الأسرة عند المسيحيين ومدى تطبيقها بالمحاكم، ص٤٠٤.

(٢) انظر: شنودة، شريعة الزوجة الواحدة، ص٩.

تنازل من الله ليُماشي ضعف الإنسان.[١]

ولقد كان تعدد الزوجات في ذلك الحين ضرورةً تقتضيها تلك الأزمنة كي يستطيع الشعب بعد تكاثره وتعدده الوقوف في وجه الوثنية والقضاء عليها، من أجل هذا كانت كثرة النسل بركة توارثها الآباء وسعوا إلى نيلها، كما ورد في العهد القديم: "وأجعل نسلك كتراب الأرض، حتى إن استطاع أحد أن يعدّ تراب الأرض فنسلك أيضاً يعد" [تكوين: ١٦/١٣]، ونفس هذه البركة أعطاها الله أيضاً لإسحاق ويعقوب.

أما المسيحيون فيرون أن **كثرة زوجات الأنبياء ليس إشارة إلى جواز التعدد** في تلك المرحلة أو تفضيله على الزوجة الواحدة، إنما **هو إشارة تحمل رمزاً إلى أمر آخر**، يقول **(أوغسطين)**: "كانت زوجات الآباء الكثيرات **رمزاً لكنائس مستقبلة من شعوب كثيرة تخضع لعريس واحد هو المسيح**، أما سر الزواج بواحدة في أيامنا فيشير إلى وحدتنا جميعاً في خضوعنا لله، نحن الذين سنصبح فيما بعد مدينة سمائية واحدة".[٢]

لذا فإن **الهدف الأول من تعدد الزوجات في عهد الأنبياء السابقين هو مقاومة طغيان الوثنية** التي كانت قد انتشرت بشكل مريع، ولذلك يرى المسيحيون أن فكرة الله في اختيار شعب يعبده تقوم على ثلاثة أعمدة هي، عزل هذا الشعب، وإنماؤه، وتعليمه.

أما فكرة العزل فكانت عندما قال الله لإبراهيم: "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك" [تكوين: ١/١٢-٢].

ويرى المسيحيون أن العزل كان لازماً حتى لا يتأثر شعب الله بالوثنية فيعتنقوها نتيجة اختلاطهم بالوثنيين، وكان من مظاهر هذه السياسة: السكن المنفرد، وعدم التزاوج مع شعوب الأرض الوثنية، وعدم التعامل معهم، ولقد حرص (إبراهيم) على تنفيذ هذا في تزويجه لابنه إسحاق كما يروي سفر التكوين: "فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض ألّا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحق" [تكوين: ٣/٢٤-٤]، كما حرص أيضاً على هذا الأمر إسحاق في تزويجه ابنه يعقوب: "فدعا إسحق يعقوب وباركه وأوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان، قم اذهب إلى فدان آرام إلى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك" [تكوين: ١/٢٨-٢].

ويرى المسيحيون أن سياسة العزل هذه لا تكفي وحدها، لأن الشعب المؤمن حتى إن اعتزل عن الوثنيين فإنه من الممكن أن يطغوا عليه ويستعبدوه ويخضعوه لعبادتهم إذا كان قليلاً وضعيفاً، إذاً لا بد أن يصحب العزل عملية إنماء في العدد حتى يستطيع هذا الشعب الصمود أمام قوة أعدائه، وعملية الإنماء هذه صحبها بالضرورة تعدد في الزوجات لأن الأمر لم يكن سهلاً إذ هو تكوين شعب من فرد واحد، لذا فإن المقصود من هذا التعدد ليس كثرة الزوجات إنما كثرة البنين الذين تلدهم الزوجات.[٣]

وبعد ذلك أعطى الله لموسى الشريعة، وألزم بها شعباً عنيداً قاسياً متذمراً كثير الشهوات، **ولم يكن مناسباً أن يمنع الله تعدد الزوجات حينها لسببين:**

أولهما: لأن ذلك لم يكن مناسباً لمستوى الشعب الإسرائيلي، وإلا انحرف إلى الزنى.

ثانيهما: لأن ذلك لم يكن مناسباً للرغبة في مقاومة الجور الوثني الطاغي المحيط بالشعب.

إنما كان المناسب وقتها التدرج معهم بالسماح لمن يريد من هذا الشعب باتخاذ نساءٍ

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٢٥-٢٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٩-٣٠.

(٣) انظر: شنودة، شريعة الزوجة الواحدة، ص٣١.

زوجات، مع رفع فكره ليتسامى بفكرة الزواج فيتخذها بغرض روحي لتكوين شعب الله.
ومن هنا بدأ التدرج في وضع حدود لتعدد الزواج، **تتضح هذه الحدود في النقاط التالية**:

١- تحريم الكثير من أنواع الزيجات السائرة، كالزواج من الأخت، والزواج بالأختين، وحالات أخرى مذكورة في سفر اللاويين تبلغ ١٧ حالة كلها كانت ممارسة.
٢- الأمر بالابتعاد عن النساء في ظروف روحية معينة، كحالات التقدم للأكل من ذبائح الله المقدسة.
٣- الأمر بالابتعاد عن النساء لظروف خاصة بهن.(١)

فإذاً يرى المسيحيون أن **إباحة تعدد الزوجات كان ضرورة اقتضتها الظروف التي عاشها الأنبياء قديماً، بالإضافة إلى الظروف التي عانى منها شعب إسرائيل**، فكانت المشيئة الإلهية تهدف إلى تحديد هذه المسألة في حدود الزوجة الواحدة على ذات الحال التي ابتدأ الله البشرية عليها، لكن الحكمة الإلهية اقتضت التدرج في تحديد هذا الأمر، إلى أن جاء زمن المسيح الذي أصبح الوضع فيه ملائماً لتحديد هذه التعددية، فأعلن نقض الناموس من هذه الناحية وتحريم التعدد على المؤمنين.

وتعقيباً على الكلام السابق:

فإننا لو أعدنا النظر في حيثيات هذه القضية (منع تعدد الزوجات) لتبين لنا الكثير من نقاط النقد حول هذا المعتقد.

فقضية خلق حواء لآدم وإفراد الله تعالى لها من بين النساء كان جرياً على السنة الكونية في الخلق، وهو المعنى المشار إليه في قوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون} [الذاريات: ٤٩].

كما أن **الالتصاق المذكور في القول المنسوب للمسيح** "من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً" إنما **المقصود به المودة والمحبة بين الرجل وزوجته**، وليس كما فهمه المسيحيون من لزوم الاقتصار على زوجة واحدة وعدم صحة زواجه بالثانية لأنه ملتصق بالأولى؛ لأن الإنسان قبل ذلك كان يعيش مع والديه وهو ملتصق بهم أيضاً، وهما أكثر من واحد، فالمقصود بذلك حتماً هو الالتصاق المعنوي.(٢)

أما **نصوص التوراة فإنه لم ير فيها أيُّ نص يحرّم التعدد أو يمنعه**، بل من المعلوم أنه ورد فيها ما يؤيد ذلك، ومن المعلوم أن السيد المسيح - حسب الإيمان المسيحي – لم يأتِ لينقض الناموس.

ولقد نقل الدكتور (**عادل درويش**) عن الكاردينال (**جيمس ستافورد**)(٣) أن **رسالة المسيح كانت أخلاقية، ولم تكن لسنّ قوانين وإصدار تشريعات**، ودليل ذلك ما جاء في إنجيل لوقا: "وقال له واحد من الجمع يا معلم قل لأخي أن يقاسمني الميراث، فقال له يا إنسان من أقامني عليكما قاضياً أو مقسّماً" [لوقا: ١٢/١٣-١٤]، ثم بيّن ستافورد أن عيسى عليه السلام شرّع أخلاقيات جديدة، وصاحبها إبطال ما يقابلها في التوراة، وذكر سبعَ نقاط أساسية خالف فيها الإنجيل التوراة، وأهم نقطتين تتصلان ببحثنا هما:

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٣٤-٣٥.
(٢) انظر: عبد الباقي (زيدان)، المرأة بين الدين والمجتمع، ص٧٧.
(٣) هو كاهن كاثوليكي أمريكي، ولد سنة ١٩٣٢ في الولايات المتحدة، وتم تكريسه كاردينالاً سنة ١٩٧٦، توفي سنة٢٠٠٣م، انظر: https://ar.wikipedia.org

أ. عقوبة الزاني في التوراة القتل [اللاويين: ٢٠/ ١١-١٨]، وخالف الإنجيل فترك الزانية بدون عقاب [يوحنا: ١١/٨]. ب. أباحت التوراة الطلاق [تثنية: ٢٤/ ١-٤]، وحرّمه الإنجيل [مرقس: ١٠/ ٦-١٢].

أما مسألة مخالفة المسيح لتعليم الإنجيل في قضية تعدد الزوجات فلا وجود لها، وليس فيها أي دليل صريح، وجميع النصوص التي يستدل بها المسيحيون على تحريم تعدد الزواج لا تحمل على هذه الدلالة، بل تدل بمفهومها على تحريم الطلاق، نعم، لكن لا دلالة لها على تحريم التعدد، **فحادثة سؤال الفريسيين للمسيح** هي الدليل الأهم الذي يستند إليه المسيحيون، لكن هذا السؤال لا علاقة له بالتعدد، فالفريسيون في الفقرة الأولى **سألوا المسيح عن الطلاق وحكمه،** ولم يسأله أحد عن التعدد، فملابسات النص توضح أن المقصود منه تحريم الطلاق لا تحريم التعدد.

وأما الجملة الثانية من هذا النص وهي: "من طلق امرأته إلا بسبب الزنى وتزوج بأخرى يزني والذي يتزوج بمطلقة يزني" هذه الجملة أيضاً لا تدل على ما ذهبوا إليه من منع التعدد، فقوله: "من طلق امرأته إلا بسبب الزنى وتزوج بأخرى يزني" هذا الرجل حين تزوج الثانية كانت الأولى مطلقة، فهو لم يعدد، فكيف يكون زانياً؟ وقوله: "والذي يتزوج بمطلقة يزني" هذا أيضاً ربما تزوج المطلقة وكانت بالنسبة له الزوجة الأولى، فكيف يزني؟

من الواضح أن هذا **الدليل لا يمكن الاستشهاد به لمنع التعدد في المسيحية،** إذ مفهومه لا يشير إلا إلى منع الطلاق.

أما قول (بولس): "ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدةٍ رجلها" [كورنثوس١: ٢/٧] فأيضاً لا يصلح للاستشهاد به على منع التعدد، إذ لو كان هذا هو المعنى لقال: ليكن لكل واحد امرأة واحدة، وليكن لكل امرأة زوج واحد، عندها يمكن صرف كلامه إلى منع التعدد.(١)

علماً أن **المتبادر إلى الذهن من كلام (بولس) هو النهي عن العلاقات غير الشرعية مع الأجانب،** بدليل بقية هذا الإعلان "وليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل، وكذلك الرجل أيضاً ليس له تسلط على جسده بل للمرأة، فالإشارة هنا واضحة تبين أن المقصود هو أهمية الاحتفاظ بالحقوق الجسدية بين الزوجين، والنهي عن إنشاء علاقات محرمة جسدية للرجل مع غير زوجته، وللمرأة مع غير زوجها.

مما سبق يتبين أنه **لم يرد النهي عن تعدد النساء في الكتاب المقدس،** بل إنه قد **ورد في رسائل (بولس) ما يبيح التعدد بمعناه ومقتضاه،** فحين سئِل (بولس) عن شروط الأساقفة والشمامسة كتب رسالته إلى تيموثاوس يقول فيها: "يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بَعْلَ امرأة واحدة.... وليكن الشمامسة لكل بعل امرأة واحدة" [تيموثاوس: ٢/٣]، وفي إلزام الأسقف والشماس بالزوجة الواحدة دليل على جواز التعدد في حق غيرهم.

ولقد نشأت في المجتمعات المسيحية طوائف نادت بإباحة التعدد ودافعت عنه، منها فرقة (الأنابابتيست) التي نشأت في ألمانيا، ومنها أيضاً الموارنة الأمريكان، التي كانت تنظر إلى أن تعدد الزوجات في المسيحية نظام إلهي.(٢)

ومما ثبت في الفصول السابقة أن **المسيحية وقعت تحت نير التأثير الوثني في كثير من القضايا، ويبدو أن قضية منع تعدد الزوجات هي إحدى القضايا التي تأثرت المسيحية فيها بالأمم الوثنية،** فاليونان والرومان كان لهم تقاليد تحرّم تعدد الزوجات المعقود عليهن، فكان

---

(١) انظر: الخزرجي (أبو عبيدة)، بين الإسلام والمسيحية، ص٨٠.

(٢) انظر: شلبي (رؤوف)، الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، ص٣٢١.

نظام وحدة الزيجة نظاماً قديماً جرى عليه العمل في البلدان الوثنية التي بدأت تنشر فيه المسيحية، ومسايرةً لهذا الوضع والعرف العام في هذه البلاد فقد حرّمت الكنيسة تعدد الزوجات.(١)

يقول (**جورجي زيدان**): النصرانية ليس فيها نص صريح يمنع أتباعها من التزوج بامرأتين أو أكثر، ولو شاؤوا لكان تعدد الزوجات جائزاً عندهم".(٢)

وهذا يدل على أن **الكنيسة وحدها هي التي ابتدعت القول بمنع تعدد الزوجات خضوعاً لمؤثرات أجنبية لم يأت بها السيد المسيح عليه السلام.**

ومن المعلوم أن بعض الرجال لا يمكنه الاكتفاء بزوجة واحدة، وربما تتعدد هذه الحالة فتبلغ حداً بالحري أن يوضع له تشريع يتناسب مع حالته، وإلا فسيُفتح عليه باب آخر هو الحرام والعلاقات الآثمة.

وفي الحقيقة لقد **ترتب على منع الكنيسة أتباعها من تعدد الزوجات وإلزامها لهم بالاقتصار على زوجة واحدة الكثير من المساوئ، فانتشر البغاء، وتعدد علاقات الرجل بالنساء،** حتى وصل الأمر ببعض الدول كروما مثلاً أن تسن القوانين التي تحدد عمل العاهرات وصار لهم في الدولة سجلٌ معترفٌ به، وأخذ الأمر بالشطط أكثر فأكثر إلى أن بلغ ما نسمعه في وقتنا الحاضر من دعاوى الانحلال الخلقي والاعتراف بحقوق الشواذ والعاهرات والعلاقات غير الشريفة والكثير مما يشابهها مما انتشر وذاع في أيامنا.

وهذا بلا شك نتيجة حتمية لانتشار الفوضى الأخلاقية في الغرب ومنع الكنيسة من تعدد الزوجات ومحاولتها إغلاق هذا الباب، لكن النتيجة كانت أسوأ مما يمكن أن يُتصوّر.

ولو أن المسيحية فتحت باب قبول تعدد الزوجات وأباحت ذلك لرعاياها لاستطاعت أن تتجاوز أكثر الأزمة الأخلاقية التي تعاني منها، ولبرز أعلام من روّاد الفكر الملتزم يحاربون الانحلال الخلقي ويسعون إلى تحقيق الفضيلة وتكريس قيم العفة والشرف بين الناس.

يقول (إيتين دينييه): لم يحقق تحريم تعدد الزوجات في المسيحية الغرض المقصود منه، بل أسفر عن نتائج خطيرة من الدعارة والعوانس من النساء وأبناء غير الشرعيين".(٣)

وشاع في عامة أمم الغرب أيضاً اتخاذ الخادنات والخليلات والأخلاء، وترتب على ذلك هجر النساء لبيت الزوجية وفرار الأزواج مع عشيقاتهم، حتى صارت المجاهرة بهذه الأمور شيئاً عادياً، ومن الطبيعي أن يترتب على هذا الأمر كثرة أولاد السفاح، فمثلاً زادت في فرنسا على ٥٠ % من الأولاد، وظهرت أرقام ونسب مخيفة حقاً من حيث عدد أولاد السفاح وأعداد العاهرات وغيرها.(٤)

وتشير الأرقام والإحصائيات إلى أن **العالم الغربي يواجه الآن مشكلة الحرام أكثر من الحلال في شأن المواليد،** وأن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ما يتجاوز ٦٠ %، وأن البلاد الإسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام تعدد الزوجات.(٥)

وبناءً على هذه النسب وأمثالها فقد ظهرت الحاجة في بلدان أوربا والغرب عموماً إلى الخروج عن النظام المسيحي المعروف بالنسبة لموضوع التعدد، والمطالبة بإلغائه.

---

(١) انظر: وافي (علي)، المرأة في الإسلام، ص١٦١.
(٢) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٤٦٦.
(٣) دينييه (إيتين)، أشعة خاصة بنور الإسلام، ص٢٣٠.
(٤) انظر: عويس (عبد الحليم)، تعدد الزوجات لا تعدد العشيقات، ص٤٠.
(٥) انظر: يوسف (حسين)، أهداف الأسرة في الإسلام والتيارات المضادة، ص١٠٣.

قال (**شوبنهور**)[١]: "إن قوانين الزواج في أوربا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا، وضاعفت علينا واجباتنا، على أنها ما دامت أباحت للمرأة حقوقاً مثل الرجل كان من اللازم أيضاً أن تمنحها عقلاً مثل عقله، ولا تقوم امرأة من الأمم التي تجيز تعدد الزوجات بتكفل شؤونها، والمتزوجات عندنا عدد قليل وغيرهن لا يحصين عدداً، تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هائمة متحسرة، وبين ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن شاق الأعمال، وربما ابتذلن فيعشن متلبسات بالخزي والعار.[٢]

وقد أعلنت أستاذة جامعية في ألمانيا بأن حل مشكلة المرأة الألمانية هو إباحة تعدد الزوجات كما هو في التشريع الإسلامي؛ وذلك رغبة في حماية المرأة الألمانية من احتراف البغاء، فقالت: "إنني أفضل أن أكون من عشر نساء لرجل ناجح على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل فاشل تافه .... إن هذا ليس رأيي وحدي بل هو رأي كثير من نساء ألمانيا".[٣]

وقد دعا مؤتمر الشباب العالمي المنعقد في ألمانيا سنة ١٩٨٤م إلى تعدد الزوجات حلاً لمشكلة تكاثر النساء، وأعلن كبير أساقفة إنكلترا أنه لا يوجد علاج لمنع التحلل والإنهيار العائلي إلا بإباحة تعدد الزوجات.[٤]

مما سبق يتبين أن مسألة منع تعدد الزوجات في المسيحية يشوبها الكثير من الاعتراضات والمخالفات المنطقية، والأهم من هذا كله أنها تفتقر إلى الدليل النقلي، وكل الأدلة التي يسوقها المسيحيون لا تصلح للاستشهاد بها على هذه القضية.

ولعل **الأسلم في هذه القضة أن يؤمن الجميع بأن تعدد الزوجات قانون طبيعي**، وهو أمر لا ترفضه الطبيعة ولا القيم البشرية الإنسانية، ومن هنا جاء الإسلام مقراً له مبيناً وموضحاً أحكامه بشتّى تفاصيلها، أما المسيحية فإنها إنما قصدت بمنع حدوث هذا التعدد تعليم رعاياها العفة، لكن المشكلة أن النتيجة جاءت على عكس المنشود، فانجرف الكثير من أتباع المسيحية في كثير من البلدان إلى الرذيلة والدعارة، وبنفس الوقت كثرت العوانس من ناحية والعاملات في البغاء من ناحية ثانية والأولاد غير الشرعيين من ناحية ثالثة.

ومما يُشار إليه في نهاية المطاف في هذا المبحث **تفضيل المسيحيين للبتولية على الزواج**:

من المعلوم أن السيد المسيح عليه السلام كان بتولاً، لم يتزوج، بناءً على هذه الصفة للمسيح فقد ترسّخ في الفكر المسيحي تفضيل حال البتولية على الزواج.

ولعل الذي رسّخ هذه الأفضلية للتبتل على الزواج هو كلام (بولس) الرسول، فقد سرد (بولس) في رسالته الأولى إلى أهالي كورنثوس الحديث مفصلاً عن البتولية، وبيّن أن للبتولية منزلة لا ينالها المتزوج، يقول (بولس): "لأني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا، لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله .... أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق.... وأما العذارى فليس عندي أمر من الله فيهن ولكني أعطي رأياً كمن رحمه الرب أن يكون أميناً .... غير المتزوج

---

(١) آرثر شوبنهور المولود سنة ١٧٨٨م، فيلسوف ألماني، قال إن إرادة الإنسان اللاعقلانية العمياء وليس العقل هي التي تقرر معظم ما نفعله في حياتنا، وإن مطالب هذه الإرادة لا تشبع، ومن هنا كان مقدّراً على الفرد أن يحيا في قلق وألم، وإنه لا سبيل إلى الخلاص من هذا الوضع إلا بإنكار الذات، أهم مؤلفاته: (العالم كإرادة وفكر)، توفي سنة ١٨٦٠م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٢٦٤.

(٢) انظر: سالم (محمد) ومحمد (شعبان)، نظام الأسرة في الإسلام، ص٣٨.

(٣) عويس، تعدد الزوجات لا تعدد العشيقات، ص٢٠.

(٤) انظر: آل بوطامي (أحمد)، الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب، ص٥٨.

يهتم فيما للرب كيف يُرضي الرب، وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يُرضي امرأته .... من زُوّج فحسناً يفعل ومن لا يُزوّج يفعل أحسن" [كورنثوس١: ٧/٧-٣٦]، فمن قول بولس هذا يتضح أن حالة العزوبية أفضل في المعتقد المسيحي من الزواج وأشرف.

المبحث السادس: سر الكهنوت

يحتل رجال الدين في المسيحية مكانة مرموقة جداً، وتعدّ الشعائر الخاصة برجال الدين ورتبهم ومهامهم من أهم الشعائر الدينية في المسيحية، لا سيما إذا اعتبرنا المسيحية ديانةً كهنوتية، فإن لرجال الدين دوراً قيادياً وروحياً كبيراً في الكنيسة؛ إذ هم الوسطاء بين المؤمنين والله من ناحية وبين المؤمنين والمسيح من ناحية ثانية، كما أن لهم الدور الأهم في إعلان الشعائر الدينية وتطبيقها في حياة المؤمنين، وقد شهد التاريخ المسيحي اتساعاً هائلاً لسلطة رجال الدين في الكنيسة وخارجها حتى أصبح للبابوات الكلمة النافذة في تعيين الأباطرة وإقالتهم من مناصبهم، وصارت مسألة الحصول على رضا البابوات ومباركتهم همّ الكثير من الملوك على امتداد تاريخ طويل، مما حدا بالكثير من رجال الدين إلى التعسف في استخدام سلطتهم لمآرب دنيوية تنفّر الناس من الدين ورجاله، وتطوّر هذا التيار المناهض لرجال الدين ليشكّل فيما بعد حركةً إصلاحية شملت بلدان أوربا كافّة.

المطلب الأول: تعريف سر الكهنوت وتأسيسه:

أولاً: تعريف الكاهن:

ورد في قاموس الكتاب المقدس: **"الكاهن هو خادم دين الله،** وفي اصطلاح الكتاب المقدس الشخص المخصص لتقديم الذبائح".(١)

وبيّن **(عوض سمعان)** مفهوم هذا المصطلح وأبعاده فقال: "كلمة الكهنوت على وزن الملكوت والجبروت، هي المصدر من كلمة كاهن، وكلمة كوهين العبرية المرادفة للكلمة الأخيرة تدل على الاقتراب من الله على أساس ذبيحة مقبولة أمامه، كما تدل على الإنباء بأموره تعالى للآخرين، وذلك بوصف العمل الثاني مترتباً على العمل الأول، أما الكلمة اللاتينية المترجمة [كاهن] فمعناها كما يقول علماء اللغات [يأتي المُعَبِّر] ولذلك فإن المراد بها أن الكاهن هو الشخص الذي يعبر العالم ليأتي إلى الله".(٢)

ثانياً: تعريف سر الكهنوت:

عرّفه **(حبيب جرجس)** فقال: "يُراد بهذا السر رتبة الإكليريكيين للوظائف المعينة بالكنيسة، ومنزلة هذا السر تسمو فوق كل سمو، لأن ما يتولاه الكاهن من السلطان على غفران الخطايا وعلى تقديم سر جسد المسيح ودمه مما يفوق إدراك العقل البشري".(٣)

ويعرّفه **(تسيو دول)**: "هو الطقس الذي يجعل من مؤمن عادي شماساً وكاهناً وأسقفاً".(٤)

مما سبق يتبين أن سر الكهنوت هو السر الذي يحصل به الامتياز الكهنوتي للشخص، وذلك بعد مباركته وتقديسه من قِبَل البابا، فينال بذلك رتبة من رتب الكنيسة، ويصير مؤهلاً لحمل رسالة المسيح والتبشير بها بين الناس، كما توكل إليه مهمة من مهام الكنيسة بحيث يحمل جزءاً من المسؤولية الرعوية، ويصير عضواً في الخدمة المكرسة.

ثالثاً: تأسيس سر الكهنوت:

يؤمن المسيحيون أن السيد المسيح هو الذي أسس سر الكهنوت، فقد ورد في الكتاب المقدس أن المسيح انتخب من أتباعه اثني عشر رجلاً وجعلهم رسلاً وسلّمهم سر الكهنوت، وبعد

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص٧٩١.
(٢) سمعان، الكهنوت، ص١٧.
(٣) جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٢١٣.
(٤) تسيو دول، الأسرار حياة الإيمان، ص٢٩٣.

ذلك انتخب أيضاً سبعين رجلاً وجعلهم كهنة ومبشرين بدين المسيح.

جاء في إنجيل مرقس: "وأقام اثني عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا، ويكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين" [مرقس: ٣/١٤-١٥]، وجاء في لوقا: "وبعد ذلك عين الرب سبعين آخرين أيضاً وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهه إلى كل مدينة وموضع حيث كان هو مزمعاً أن يأتي، فقال لهم إن الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده، اذهبوا ها أنا أرسلكم مثل حملان بين ذئاب" [لوقا: ١٠/٣-٤].

رأى المسيحيون في هذين الإعلانين تأسيساً لسر الكهنوت من قِبَل المسيح، فالمسيح اختار هؤلاء، وباختياره لهم أعطاهم قدرات عظيمة، وأمرهم بالبشارة وخدمة المؤمنين، وجعلهم أمناء على شريعته، فمن هذا الاختيار والمواهب المعطاة بناءً عليه تأسس سر الكهنوت بفعل المسيح، ودليل المواهب المعطاة لهم ما ورد في إنجيل يوحنا: "ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس، من غفرتم خطاياه تُغفر، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت" [يوحنا: ٢٠/٢١-٢٣]، "الحق أقول لكم ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء" [متى: ١٨/١٨]، وقال بولس لـ (تيموثاوس): "لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي المشيخة" [تيموثاوس: ٤/١٥].

وقال لأسقف أفسس: "وما سمعته مني بشهود كثيرين أودعته أناساً أمناء يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضاً" [تيموثاوس: ٢/٢].

رأى المسيحيون في هذه الإعلانات على لسان (بولس) إكمالاً وتتميماً لتأسيس المسيح لسر الكهنوت، وبياناً لأحقية الكهنة والرسل الأولين في استخلاف مَن يشاؤون وإقامة كهنة باختيارهم الخاص، وكذلك يرون فيها إمكان توارث هذا الحق وتسليمه لمن يأتي من بعدهم على المنوال نفسه الذي استلموه ممن قبلهم.

يقول القمص (**يوحنا سلامة**): "إن المسيح اختار فئة مخصوصة من المؤمنين للكهنوت وسمّاهم رسلاً وعهد إليهم بتدبير كنيسته وسياسة شعبه وإرشاد الناس إلى طريق الحق والخلاص، وأنابهم عنه في رعاية خرافه الناطقة، وأيدهم بالقوة كما أخذها من الآب، ومنحهم السلطان على ربط الخطايا وحلها وغفرانها ومسكها، وإقامة أسراره ومنحها للمؤمنين باسمه، وأمر بالطاعة لهم وسماع كلمتهم، وهدد بالعقاب الصارم لمن يخالفهم ناسباً الطاعة لهم طاعة له ولأبيه كما أن احتقارهم احتقار له ولأبيه أيضاً، واعداً أن يكون معهم ومع خلفائهم إلى انقضاء العالم، حفظ الرسل لأنفسهم هذه الحقوق الممنوحة لهم من الله، واستعملوها فيما يؤول إلى تدبير الكنيسة، فأقاموا لهم نوّاباً وخلفاء مانحين (بوضع اليد) القوة التي أُعطوها من الرب، مثبتين أنها من الروح القدس نفسه، وخوّلهم الحق دون غيرهم في تعليم وإرشاد المؤمنين وتتميم الأسرار الإلهية، وفوّضوا لهم رسامة القسوس واختيار الأمناء الأكفاء لهذه الخدمة المقدسة والحائزين للصفات التي أوضحوها لهم".[١]

تعقيب على تأسيس المسيح لسر الكهنوت:

يؤمن المسيحيون - كما تقدم - أن المسيح هو الذي أسس سر الكهنوت، لكن الحقيقة أن **وجود الكهنوت سابق على وجود المسيح بقرون كثيرة،** والكتاب المقدّس يؤكد هذا الأمر، ويعدّ المسيحيون المسيح هو الكاهن الأعظم، مع أنهم يعترفون أن المسيح لم ينسب إلى نفسه لقب الكاهن قط.[٢]

---

(١) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٢٦٥.

(٢) انظر: تسيو دول، الأسرار حياة الإيمان، ص٢٨٦.

أما الإعلانات الكثيرة التي وردت في الكتاب المقدّس والتي تتضمن التصريح بوجود الكهنة قبل بعثة المسيح بل قبل ولادته فإن للمسيحيين فيها رأي مختلف، فبالدرجة الأولى **يعد المسيحيون أن الكهنوت فيها لم يكن من قِبَل السر، بل كان عملاً دينياً اعتيادياً خالياً من أي مفعول سري**، لا سيما أن المسيح لم يكن قد تسلّمه بعد، إذ على يد المسيح تحول الكهنوت إلى سر، وليس قبل ذلك.

الأمر الآخر أن للمسيحيين قاعدة تأويلية رمزية لكل أمر ديني أو إلهي كان قبل المسيح، ولقد بيّنت فحوى هذه القاعدة الأساس في الفكر الديني المسيحي ضمن الفصول السابقة، ومما يُشار إليه في هذا المقام أن قضية وجود الكهنوت قبل السيد المسيح تخضع للعملية التأويلية الرمزية ذاتها.

فيربط المسيحيون بين الكهنوت قبل المسيح والكهنوت في عهده، حيث يمنحون الوجود الكهنوتي قبل المسيح بُعداً رمزياً، فيجعلون للممارسات الكهنوتية القديمة رموزاً تشير إلى ظهور الكهنوت في العصور اللاحقة على يد المسيح، فمثلاً ذبيحة المحرقة التي كان اليهود يمارسونها والتي كانت تتضمن تقديم قربان إلى الهيكل تنفيذاً لله وإرضاءً لمشيئته تشير إلى وجود المسيح على وصفه الذي أرضى الله ونفّذ مشيئته إلى التمام، حتى أن قربان الدقيق الملتوت بالزيت عند اليهود أعطاها المسيحيون مدلولاً رمزياً يشير إلى حياة المسيح المملوءة بالروح القدس(١)، فالذبائح والقرابين كانت رموزاً تشير إلى المسيح من نواحٍ كثيرة، ولقد استفاض (**عوض سمعان**) في شرح هذه الرموز في كتابه (الكهنوت).

وبناءً على هذه المعاني والصفات في شخص المسيح التي أشارت إليها الممارسات الكهنوتية القديمة فقد رتّب المسيحيون على ذلك أن الأفعال الكهنوتية اختلفت دلالاتها وإشاراتها في عهد المسيح وعلى يده ويد أتباعه، وأصبحت تحمل معانيها التامة الحقيقية.

ومن هنا أعطى المسيح للرسل السلطان والحق لتعليم الأمم والتبشير بالمسيحية بين الناس، وخصّهم بالقدرة على إقامة الأسرار وتتميمها، ورد في يوحنا: "دُفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" [متى: ٢٨/١٨-١٩].

وبناءً على ما تقدّم يتضح وجود الكهنوت في العهود السابقة على المسيح، وأن الكهنوت المسيحي هو امتداد للكهنوت القديم، مع أن الترتيبات الكهنوتية لم تكن موجودة في حياة المسيح، ولا أشار إليها في تعليمه ولا في تأسيسه الذي يدعيه المسيحيون، ثم ظهرت الرتب الكهنوتية المعروفة اليوم، وصار الكهنوت سراً يُمارس بالرسامة التي لا يحق لأحدٍ إجراؤها إلا كبار الكهنة ورؤساؤهم والأساقفة الذين حصّلوا موهبة الروح القدس بوضع أيديهم على الإنسان كي يصبح كاهناً.

المطلب الثاني: الرتب الكهنوتية (وظائف الكهنوت):

يعتقد المسيحيون أن سر الكهنوت منذ تأسيسه على يد المسيح قُسّم إلى ثلاث درجات، الأسقفية والقسوسية والشمامسة، ولكل درجة من هذه الدرجات واجبات وحقوق ممتازة لا تشاركها فيها الأخرى، ويرى المسيحيون أن للكنيسة على هذا التقسيم براهين قوية، كما تشتمل كل درجة منها على درجات أخرى نبينها فيما يأتي:

أولاً: الرتبة الأولى (الأسقفية):

---

(١) انظر: سمعان، الكهنوت، ص٢٢٤.

يستدل المسيحيون على هذه الرتبة وامتيازاتها بأقوال (بولس) الرسول، ويعتقد المسيحيون أن (بولس) أقام كلاً من تلميذيه (تيموثاوس) و(تيطس) أساقفة، وأعطاهم مهام تدل على امتياز الأساقفة، قال بولس في رسالته إلى تلميذه (تيموثاوس): "أناشدك أمام الله والرب يسوع المسيح والملائكة المختارين أن تحفظ هذا بدون غرض ولا تعمل شيئاً بمحاباة، لا تضع يداً على أحد بالعجلة ولا تشترك في خطايا الآخرين احفظ نفسك طاهرا" [تيموثاوس١: ٥/٢١-٢٢]، وكتب إلى تلميذه (تيطس): " من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم في كل مدينة شيوخاً كما أوصيتك" [تيطس: ١/٥]

يستدل المسيحيون بالإعلانين السابقين وغيرهما على أن الأساقفة ممتازون عن الشيوخ (القسوس)، وأن لهم من الصلاحيات والحقوق ما ليس للقساوسة، حتى أن مسألة إقامة هؤلاء القساوسة هو من صلاحيات الأساقفة.

وكان الأسقف قائد الجماعة المسيحية، وكان إماماً للاحتفال الإفخارستي، ويحيط به مجمع القسوس والشمامسة الذين كانوا يساعدونه في مهامه[١]، وقد كان الأساقفة في العصور المسيحية الأولى يشتغلون بالتعليم والتبشير بوصفهم القدوة التي تُحتذى، وأهم عمل كانوا يقومون به هو دعم التوجهات الكنسية كافةً في جميع المجالات من خلال ممارسة الأخلاق الحسنة ومبادئ الإيمان الصحيح، وبعد ذلك تطورت مرتبة الأسقف إثر تطور الشعائر والطقوس الدينية في المسيحية، فأصبح الأسقف رئيساً للعبادات الجماعية.[٢]

وفي أواخر القرن الميلادي الثاني ومطلع القرن الثالث كان الأسقف هو الرئيس الفعلي للشؤون والقضايا الدينية كافةً[٣]، وبما أن هذه المرتبة هي العليا في الرُتب الكهنوتية فإنها تضم ثلاثة مسميات لدى المسيحيين هي (البطاركة والمطارنة والأساقفة)، وهؤلاء يُدعون بـ (رؤساء)؛ لأنهم يرأسون القساوسة والكهنة والرعية والمدبّرين والمعلمين، ويعتقد المسيحيون أن هذه الدرجات الثلاث وُجدت في بدء التاريخ المسيحي بشهادة التاريخ الكنسي وأقوال المجتمع المسكونية.

فالتاريخ يروي أنه لما امتد الإيمان المسيحي إلى المدن والقُرى وكثُر عدد المؤمنين عيّن الرسل لكل مدينة أو كنيسة كبيرة أسقفاً كان يتولاها ويرعاها بنفسه، فعين (بولس) (تيموثاوس) أسقفاً على مدينة أفسس و(تيطس) على مدينة كريت، ولما اتسع نطاق المسيحية أكثر وانتشرت في بلاد كثيرة لم يعد في إمكان الأسقف القيام بجميع واجبات الأسقفية من حيث تعليم الرعية وتدبير شؤونهم وتعهّد الكنائس المجاورة دعت الضرورة أن يُقيم أساقفة المدن مساعدين لهم في المدن الأخرى.[٤]

أما التسميات الأخرى للأسقف فهي تشير إلى المضمون ذاته والمهام ذاتها، واختلفت التسمية بناءً على اختلاف المركز الديني، فمثلاً كنيسة أنطاكيا كانت تسمي الأسقف بـ (البطريرك)، ويرى البعض أيضاً أن تسمية (البابا) كذلك كانت تشير إلى الكاهن الذي يتولى مهمات الأسقف نفسها، وأول من أطلقها على الأسقف هم أتباع كنيسة الإسكندرية، ثم توسّع معناها لتدل على رئيس الفرقة الكاثوليكية في روما.[٥]

وفي العصور الوسطى كان البابا هو رأس الكنيسة والحاكم المطلق فيها، وجميع رجال

---

(١) انظر: ليما، المعمودية والإفخارستيا والكهنوت، ص٧٤.
(٢) انظر: جينيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٣٦-١٣٧، ولوريمر، تاريخ الكنيسة المفصل، ١٧٣/٣.
(٣) انظر: المنفلوطي، المسيحية في العصور الوسطى، ص٩٣.
(٤) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٤١/٢.
(٥) انظر: المرجع السابق، ٢٤٣/٢.

الدين كانوا يدينون له بالولاء التام، ويوجّهون جميع الرعايا للخضوع له وتنفيذ أوامره، أما سبب ظهور هذا الاسم بين رجال الإكليروس فهو أن رجال الإكليروس كان كل واحد منهم يخاطب مَن فوقه بالأب، فالتبس ذلك، فاخترعوا لبطريرك الإسكندرية لقب (البابا) دفعاً للاشتراك في اسم الأب، وجعله أباً للكل، ثم انتقل هذا الاسم إلى بطريرك روما، وأبقوا اسم البطريرك على أسقف الإسكندرية.(١)

ومن الممكن الفصل بين المسميات الثلاث السابقة (المطران والبطريرك والبابا) ضمن رتبة الأسقفية بأن البابا هو رئيس أساقفة كل مذهب أو فرقة من فرق المسيحية، كبابا الإسكندرية وبابا روما، والبطريرك هو رئيس الأساقفة والمسؤول الديني الأول في كل قطر من الأقطار، والمطران هو رئيس أساقفة المدينة الأم أو العاصمة للمدن والقرى المجاورة لها وهي ما تُعرف اليوم بالأبرشيات.(٢)

أما مهام الأسقف فأشار إليها (بولس) بالإعلانات التالية:

- "لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك لأنك إذا فعلت هذا تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضاً" [تيموثاوس١: ١٦/٤].

- "أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس النبطي بالاعتراف الحسن، أن تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح.... أوصِ الأغنياء في الدهر الحاضر ألّا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى بل على الله الحي الذي يمنحنا كل شيء بغنى للتمتع وأن يصنعوا صلاحاً وأن يكونوا أغنياء في أعمال صالحة وأن يكونوا أسخياء في العطاء كرماء في التوزيع" [تيموثاوس١: ١٣/٦-١٤، ١٧-١٨].

- "اكرز بالكلمة اعكف على ذلك في وقت مناسب وغير مناسب وَبِّخْ انتهر عظ بكل أناة وتعليم" [تيموثاوس٢: ٢/٤]

فأهم مهام الأسقف هي:

١- حق الرسامة: أي وضع اليد لرسامة القسوس والشمامسة.
٢- الحكم في قضايا الكنيسة.
٣- رعاية الكهنة المرسومين وتولي أمورهم.
٤- القضاء بين الإكليروس.
٥- أن يتفقّد الشعب بنفسه.
٦- أن يتعاهد الكنائس المجاورة له.
٧- تقديس الميرون.(٣)

ثانياً: الرتبة الثانية (القسوسية):

وهذه الرتبة هي الوسطى في الترتيب الكهنوتي، وينطوي تحتها (الخوريبسكوبوس) المعروف بالخوري، و(الأبروطس) وهو القمص، و(القس)، ودليل وجوب وجود القساوسة في الكنيسة في الفكر المسيحي هو عمل الرسل أنفسهم، جاء في سفر أعمال الرسل: "وانتَخَبَا لهم قسوساً في كل كنيسة ثم صَلَّيَا بأصوام واستودعاهم للرب الذي كانوا قد آمنوا به" [أعمال

(١) انظر: حماية (محمود)، في العبادات المسيحية دراسة نقدية، ص٩٠.
(٢) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٥٢٨.
(٣) انظر: فؤاد (ألفرد)، نظم الياقوت في سر الكهنوت، ص٣٥، ٣٨.

الرسل: ٢٣/١٤]، "ومن ميليتس أرسل إلى أفسس واستدعى قسوس الكنيسة" [أعمال الرسل: ١٧/٢٠].

وكان (الخوربيسكويوس) يُسام كخليفة لأسقف المدينة على القرى والمزارع، لكن هذه الوظيفة أُلغيت الآن، وتم استبدالها بوظيفة (الأبروطس) وهو القمص نائب الأسقف، ولا فرق بينه وبين (الخوربيسكوبوس) إلا من حيث أن صلاحيات القمص أقل، ويرى البعض أن القمص هو الأسقف إذا كان متزوجاً، وبزواجه تقل صلاحياته وينزل إلى هذه الرتبة.(١)

أما (القس) فهي لفظة سريانية معناها الشيخ الكبير، وقد جاءت في الكتاب المقدس بهذا المعنى فأُطلق على القساوسة (الشيوخ) في عدة مواضع.

وأحياناً قد يُطلق بعض الكتّاب على القسوس اسم (الأساقفة)، وهذا لا ينفي المعنى الحرفي نظراً لوجود التقارب بين معنى كلٍ من الاسمين، فالأسقف معناه الرقيب أو الناظر، والقس معناه الشيخ، وهو يتضمن ذلك، فهو أيضاً رقيب وناظر على الشعب، أما الأسقف فعلى الجميع.(٢)

ووظيفة القسيس هي تقديس القرابين، وإجراء المعمودية، وإجراء سر الزواج، والتعليم، وتعيين الشمامسة وتكليفهم بالخدمات، وتفصيل ذلك:

١- يجلس في الكنيسة معلماً ومؤدباً وقاضياً.
٢- إقامة الأسرار والإشراف على تطبيقها.
٣- له الحق أن يرسم من أراد كاهناً أو شماساً.
٤- الحكم على الكهنة والشمامسة.
٥- إيقاف الكهنة والشمامسة عن الخدمة، وفصلهم منها إذا تعدوا القانون.
٦- حرمان الكهنة والشمامسة من الاشتراك في الكنيسة.
٧- سلطان الحل والربط.
٨- غفران الخطايا ومسكها.
٩- فصل المسيحي من الشركة إذا ارتكب جرماً أو ذنباً كبيراً.(٣)

ثالثاً: الرتبة الثالثة (الشماسية):

تكلّم عن هذه الرتبة (بولس) الرسول في مطلع رسالته إلى (فيلبي) فقال: "من بولس إلى جميع القديسين في المسيح يسوع الذي في فيلبي مع أساقفة وشمامسة" [فيلبي: ١/١]، وقال لـ (تيموثاوس): "فيجب أن يكون الأسقف بلا لوم ... كذلك يجب أن يكون الشمامسة ذوي وقار لا ذوي لسانين، غير مولعين بالخمر ولا طامعين بالربح القبيح" [تيموثاوس١: ٢/٣، ٨].

وهذه الرتبة ينطوي تحتها ثلاث درجات، (أبوذياكن) و(أغنسطس) و(أبصليتس)، ويؤمن المسيحيون أن هذه الرتبة أدنى من الرتبتين السابقتين، ودليل ذلك أن (بولس) ذكر هذه الرتبة في رسائله بعد الأساقفة والقسوس، كما في الإعلانات السابقة.

والشمامسة لا يوصفون بأنهم كهنة، بل هم مساعدو الكهنة، لذلك تبقى واجباتهم أقل، وصلاحياتهم محدودة، وتدور أكثر واجباتهم على توزيع الصدقة على الأرامل كما جاء في أعمال الرسل: "وفي تلك الأيام إذ تكاثر التلاميذ حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين أن

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٤٦/٢.
(٢) انظر: المرجع السابق، ٢٧٢/٢.
(٣) انظر: فؤاد (ألفرد)، نظم الياقوت في سر الكهنوت، ص٤٢-٥٤، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٢١٠.

أراملهم كن يُغفل عنهن في الخدمة اليومية، فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ وقالوا لا يرضي أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد، فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم مشهوداً لهم ومملوئين من الروح القدس وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة" [أعمال الرسل: ٦/١-٤]، وبالإضافة إلى ذلك يحق للشماس أن يعظ في الكنيسة ويعلّم الإنجيل لكن بإذن من الأسقف.

أما (الأبوذياكن) فهو تابع للشماس ومعين له في أعماله، و(الأغنسطس) فهو القارئ لنصوص الإنجيل، و(الأبصليتس) فهو المخصص للتراتيل، وهؤلاء ليس لهم أن يعملوا سوى هذه الأمور.(١)

المطلب الثالث: الصفات العامة لرجال الدين وكيفية رسامتهم:

يؤمن المسيحيون أن الوظيفة الكهنوتية لرعاة الكنيسة **تقتضي أن يكونوا مميزين بثلاثة أمور**:

١- **أنهم سفراء المسيح**؛ لأن نسبتهم إليه كنسبة سفراء الدول لملوكها، "إذاً نسعى كسفراء عن المسيح كأنّ الله يعظ بنا نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله" [كورنثوس٢: ٥/٢٠].

٢- **خدّام المسيح ووكلاء سرائر الله**، "هكذا فليحسبنا الإنسان خدامَ المسيح ووكلاء سرائر الله" [كورنثوس١: ٤/١]، فالله أقامهم لخدمة إنجيله: "الذي صرت أنا خادماً له حسب موهبة نعمة الله المعطاة لي حسب فعل قوته" [إفسس: ٣/٧].

٣- **وهم كهنة لأنهم مدعوون من الرب لتقديم الذبيحة غير الدموية**، ذبيحة جسد الرب ودمه الأقدسين، التي يقدّمها الكهنة على مذابح العهد الجديد، "حتى أكون خادماً ليسوع المسيح لأجل الأمم مباشراً لإنجيل الله ككاهن ليكون قربان الأمم مقبولاً مقدساً بالروح القدس" [رومية: ١٥/١٦].(٢)

أولاً: الصفات الخاصة برعاة الكنيسة:

يرى المسيحيون أن الراعي يجب أن يكون مثالاً للرعية، لا سيما من حيث سلامة القلب من العلل الروحية والمعاصي، ويرى المسيحيون أن الكتاب المقدس أوضَحَ الصفات التي يجب أن يتصف بها الخادم أيّاً كانت رتبته في الكنيسة، وهي على الترتيب التالي كما وردت في رسالة (بولس) الأولى إلى تلميذه (تيموثاوس) وفي رسالته إلى تلميذه (تيطس):

١- **"أن يكون بلا لومٍ كوكيل الله":** ومعنى ذلك أن يكون كاملاً خالياً من العيوب التي تشين وظيفته وتضر صيت كنيسته، فيكون بذلك مرآةً لحياة المسيح فيه كما قال (بولس): "لا أحيا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" [غلاطية: ٢/٢٠].

٢- **"بعل امرأة واحدة":** وهذه العبارة تمنع الإكليروس من أن يتزوجوا امرأة ثانية في أي حال، ولا تستلزم أن يكون الأسقف متزوجاً، فالمعنى أن مَن نُدب إلى الأسقفية ممن سبق زواجهم لا يجب أن يكون إلا ممن تزوج زيجة واحدة لا غير.

٣- **"صاحياً":** أي يجب أن يكون يقظاً متنبهاً لواجباته غير غافل عنها.

٤- **"عاقلاً":** أي متروياً في كلامه وتصرفاته حتى لا يستهين به أحد ولا تنحط قيمته بين

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٢٤٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ٢/٦٨.

الناس.

٥- **"محتشماً":** في لباسه وحديثه، وفي مشيته وجلوسه، وفي كل أعماله وأقواله وتصرفاته، معتزلاً كل ما يُستحيا منه.

٦- **"مضيفاً للغرباء":** فحريٌ بالأسقف أن يجعل بيته مضيفاً لجميع مَن حوله، لا سيما الغرباء والبؤساء.

٧- **"صالحاً للتعليم":** أي أن يكون كفؤاً للخدمة، قادراً أن يُعلّم حقائق الدين، عارفاً الشريعة مهتماً بدراسة عامة العلوم والثقافات كي يستطيع إجابة كل من يسأله، ولكي يكون قادراً أن يعظ بالتعليم الصحيح.

٨- **"غير مدمن الخمر":** يؤمن المسيحيون أن الله حرّم على كهنة العهد القديم تعاطي المسكرات، فأحرى بكهنة العهد الجديد الذي هو عهد الكمال أن يتجنبوا هذه الرذيلة المتلفة للصحة، ولقد حرّمت القوانين الكنسية على الكاهن تناول المسكرات، وتوعدت بالقطع (الطرد من الكهنوت) من يأتيها، ومع هذا النهي الواضح فقد أباح (بولس) لتلميذه (تيموثاوس) الذي أقامه أسقفاً أن يستعمل الخمر من أجل أمراض معدته، "لا تكن فيما بعد شَرَّاب ماء بل استعمل خمراً قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة" [تيموثاوس١: ٢٣/٥].

٩- **"غير ضرّاب":** بأن يكون على صفة سيده - المسيح – الذي كان إذا شُتم لم يشتم عوضاً، وإذا تألم لم يهدد.

١٠- **"غير محب للمال ولا طامع بالربح القبيح":** "فإنكم تعلمون هذا أن كل زان أو نجس أو طماع الذي هو عابد للأوثان ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله" [إفسس: ٥/٥].

١١- **"حليماً غير مخاصم":** لأن الخصام فضلاً عن كونه من أعمال الجسد فهو معيب بالمؤمنين فكيف بالرعاة.

١٢- **"غير حديث الإيمان":** لأن حديث الإيمان لا يبعد أن ينتفخ ويتعاظم ظاناً نفسه أنه أفضل ممن تعتقوا في الديانة.

١٣- **"أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج":** بأن يكون مشهوداً له بالفضل وحسن السيرة من غير المؤمنين حتى قبل تعيينه، ولاشتراط هذا الأمر سببان، أولهما: حتى لا تزدري به رعيته وتعيره بسيرته السابقة، ثانيهما: لئلا يسقط من تعييرهم فتصغر نفسه عند توبيخ غيره، أو ينتقم منهم فيترك وظيفته ويعود إلى سيرته الماضية.

١٤- **"غير معجب بنفسه":** لأن إعجاب الإنسان بنفسه يقوده إلى الاهتمام بإرضاء نفسه وإهمال ما عليه لغيره.

١٥- **"غير غضوب":** لأن الغضوب يهيج عند الخصام، ويكون كثير المعاصي، والغضب من أعمال الجسد المنهي عنها.

١٦- **"محباً للخير":** يجب أن يكون الراعي محباً للخير لجميع الناس لا سيما لأهل الإيمان متمثلاً بالمسيح الذي كان يجول يصنع الخير مع الناس.

١٧- **"ضابطاً نفسه":** يجب أن يكون الراعي قاهراً جسده، فيغمض عينيه عن النظر إلى الباطل، ويسد أذنيه عن سماع الكلمات الرديئة والأغاني المجونية، ويلجم لسانه عن التكلم بالشر، ويحفظ يديه من أن تمتد إلى الإثم.[١]

---

(١) انظر: المقاري (باسيليوس)، السلطان الروحي في الكنيسة، ص١٢٢-١٣٠، وسلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٦٩/١-٧٧.

ثانياً: رسامة رعاة الكنيسة (الأسقف والقس والشماس):

يقيم المسيحيون طقوساً مخصوصة لإجراء مراسيم رسامة رعايا الكنيسة، وهذه المراسيم حتمية وإلزامية، ولا يصح ترقية الكاهن إلى أي رتبة أو درجة كهنوتية إلا بإجراء ما يناسبها من طقوس.

١- **رسامة الأسقف:** يرى المسيحيون أن رسامة الكاهن أسقفاً يكون يوم الأحد، ويجب أن يوجد أثناء هذا الطقس أسقفان على الأقل مع رئيس الأساقفة (البابا أو البطريرك)، ويبدأ هذا الطقس بالبابا أو البطريرك، حيث يبدأ برشم الكاهن وهو يقول: (فلان أسقف)، ثم يتلو البطريرك دعاءً مرتلاً، ثم يتجه إلى جهة الشرق فيقرأ دعاءً ثانياً، ثم يتجه إلى الغرب ويضع يده على رأس الكاهن المراد ترقيته ويصلي.

وبعد انتهائه من الصلاة يخاطب رئيس الشمامسة الشعب والمرتلين: قفوا حسناً، ثم يضع الأساقفة أيديهم ويتلو البطريرك صلاة التكريس، ثم يضع البطريرك يده ويرشمه ثلاثاً على اسم الثالوث المقدّس قائلاً: ندعوك أسقفاً، ثم يلبسه بذلة الكهنوت الخاصة برتبته ويعطيه العصا الرعوية والصليب والإنجيل، ثم يدخله إلى الهيكل ويقول له: نعماً أيها العبد الصالح والأمين، كنت أميناً في القليل فأُقيمك على الكثير، ادخل إلى فرح سيدك.(١)

٢- **رسامة القسيس:** تبدأ رسامة القس بموعظة يلقيها الأسقف على الحاضرين، بعدها يسأل الشماس الذي تتم ترقيته إلى قسيس: أتريد أن تصبح كاهناً معاوناً للأساقفة في الكهنوت لخدمة وقيادة شعب الله وبهدى الروح القدس؟ فيجيب: نعم أريد ذلك.

ثم يسأله الأسقف: أتريد أن تتمم بأمانة خدمة الكلمة والتبشير بالإنجيل وعرض الإيمان؟ فيجيب: نعم أريد.

ثم يسأله: أتريد أن تحتفل بإيمان أسرار الكنيسة بحسب تقليد الكنيسة وتقديس الشعب المسيحي؟ فيجيبه: نعم أريد.

ثم يسأله: أتريد يوماً بعد يوم أن تتحد أكثر فأكثر بالكاهن الأعلى يسوع المسيح الذي قدّم ذاته عنا لأبيه، وأن تتكرس معه لله لأجل خلاص البشر؟ فيجيب: نعم أريد.

ثم يسأله أخيراً: أَتَعِدُ بأن تعيش بالاتحاد مع أسقفك بالاحترام والطاعة؟ فيجيب: نعم أتعهّد بذلك.

ثم يجثو الشماس على ركبتيه فيضع الأسقف يديه على رأسه وهو صامت، ويضع كل الأساقفة الموجودين أيديهم أيضاً معه، فيحل الروح القدس في هذا الصمت، وبعد لحظات من الصمت يقرأ الكاهن صلاة التكريس الخاصة بذلك.

ثم يدهن الأسقف يد الشماس بالميرون ويقول: ربنا يسوع المسيح الذي كرّسه والده بالروح القدس وملأه قوة هو يعطيك القوة لتقديس الشعب المسيحي وتقدمة ذبيحة الإفخارستيا لله، ثم يسلّمه الخبز والكأس المخصصة للقداس ويقول: اقبل تقدمة الشعب المقدّس وقدّمها لله، عليك أن تعطي ما أنت صانع، وأن تعيش ما تعمل، وأن تطبق حياتك على سر الصليب، ثم يتمم القسيس الجديد القدّاس، ويدعو جميع الموجودين إلى التناول من كأسه.(٢)

٣- **رسامة الشماس:** رسامة الشماس هي الأبسط بين الرتب الكهنوتية، وطقسها بسيط

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٢٥٧-٢٦٠.

(٢) انظر: دول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص٣١٩-٣٢١، وسلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٢٥٥-٢٥٧.

أيضاً، ويتولى رسامته الأسقف إذا كان موجوداً أو القسيس إن لم يوجد الأسقف، وتتم في وقت القدّاس بأن يدعو الأسقف أو القسيس طالبي الشمامسية، ويأخذ منهم العهد بتتميم المهام الموكلة إليهم بجدية وإخلاص، ثم يرتل الحاضرون ترتيل (جميع القديسين)، ثم يقرأ الأسقف صلاة التكريس الخاصة بتكريس الشمامسة، ثم يتابعون أداء القدّاس ويصيرون مساعدين للقساوسة.(١)

التعقيب: على سر الكهنوت:

حاز سر الكهنوت نصيباً وافراً من الاهتمام المسيحي، وتميّز من غيره من الأسرار بأمرين، أولهما طابع التقديس الذي طبع به المسيحيون عامة هذا السر، وثانيهما: الزاوية التطورية الشعبية التي اتصف بها هذا السر.

فلقد خضع سر الكهنوت في الفكر المسيحي إلى معيار تطوري غير ثابت على مر التاريخ المسيحي، واتضح هذا المعيار في تعدد الوظائف الكهنوتية للكاهن وتطورها من ناحية، وظهور الدرجات ضمن الرتب الكهنوتية من ناحية ثانية، والتطور الدلالي للرتبة الواحدة من ناحية ثالثة.

ولعل الملحظ الأهم والأشد تأثيراً في السُلّم الكهنوتي هو الناحية الثالثة التي سبقت الإشارة إليها، فلقد كان المسيحيون في العصور الأولى يعيشون تحت الحكم الديني من قِبل الأسقف، فكان هو رئيس الجماعة والمنظّم الروحي والآمر الناهي فيها.

بعد ذلك تطور هذا الأمر ليتبلور مفهوم (البابا)، الذي طغى بصلاحياته ونفوذه على الأسقف، وصار صاحب الولاء المطلق الذي يجب أن يظهره له الجميع، وهذا كان المنطلق المبدئي الذي تأسست منه (البابوية).

أولاً: اختلاف الفرق المسيحية في الإيمان بسر الكهنوت:

تختلف الكنائس المسيحية في الإيمان بسر الكهنوت، شأنه في ذلك شأن باقي الأسرار التي لا يُجمع المسيحيون على الإيمان بها، فالبروتستانت لا يعتقدون بسرية الكهنوت، ولا يضفون عليه أية قداسة، بل فكرة وجود الكهنوت في المسيحية أمرٌ مرفوض في اعتقادهم، والكاهن عندهم ليست رتبة دينية مميزة، بل هو راعٍ وخادمٌ لا أكثر، وإذا ما أقرّوا بالكهنوت نسبوا هذه الصفة لجميع المؤمنين بالمسيح، لذا كانت قضية (كهنوت جميع المؤمنين) إحدى أهم الأسس التي قامت عليها الحركة الإصلاحية البروتستانتية.

أما **الكاثوليك والأرثوذكس فإنهم يعترفون بالكهنوت والرتب المتضمنة فيه، ويعدّونه سراً من الأسرار المقدسة،** وتمييز الإنسان بأنه كاهن أسقفاً أو قساً أو شماساً هو كناية عن تعظيم وإجلال هذا الشخص من ناحية، وإعطائه مهمات وواجبات تتناسب مع رتبته الدينية من ناحية ثانية.(٢)

أما قضية تمييز بطرس من غيره من الرسل وإعطائه الإمكانيات والصلاحيات التي يشير إليها النص ضمن الكتاب المقدس فهي وإن فهمها الكاثوليك والأرثوذكس على أنها امتيازات شخصية أسندها المسيح إلى بطرس لكن للبروتستانت في هذا الإعلان فهم آخر، فهم يؤمنون **بأن الوعد الذي ذكره المسيح لبطرس ليس وعداً مخصوصاً له، إنما هو لكل تلاميذ المسيح،** وأن الحل والربط المذكورين يفسّران بأن بطرس ينال مكانة المجتهد في الكنيسة، فيُحرّم ما هو محرّم وضد إرادة الله، ويحلل ما هو محلل ولا يتنافى مع التعاليم الإلهية، ومجال اجتهاده في هذا

---

(١) انظر: دول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص٣٢٤-٣٢٥، وسلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢٥١/٢-٢٥٥.

(٢) انظر: شنودة، تاريخ الأقباط، ٢٧٦/١، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٢٣٩، وشنودة الثالث، اللاهوت المقارن، ١٢/١.

الأمر هو في أساليب البشارة المسيحية، وأساليب بيان أحكام الحلال والحرام لأتباع المسيحية.[١]

وبناءً على ما سبق فإنه ليس للكهنوت في البروتستانتية طقوس ومراسيم كما هي عند الكاثوليك والأرثوذكس، مع أن البروتستانت يؤمنون بوضع اليد في إقامة الخُدّام، لكن هذا الطقس معاصر ولا وجود له في العقيدة القديمة التي يتبعها البروتستانت.[٢]

ثانياً: البابوية نشأتها وتطورها:

تُعدّ البابوية قضية محورية شديدة الأهمية في التاريخ المسيحي، وكان لها دور في إعادة قولبة الكثير من المفاهيم الدينية على النحو الذي يُرضي البابا ويجعله المرجعية الأولى والعظمى في المسيحية.

تميزت القرون الوسطى وبدايات عصر النهضة الأوربية بتأثير الدين بشكل عام على عقول الناس وتفكيرهم؛ ذلك لأن سيطرة الكنيسة على حياة رعاياها وعقليتهم لم تكن محدودة من ناحية، وكان لرجال الدين دور فاعل في توجيه الحياة في شتّى مجالاتها من ناحية أخرى.

وكان التفكير في ذلك الوقت جلّه متمحوراً حول الناحية الدينية والأخروية دون الاهتمام بالنواحي الدنيوية، ومن هنا ازداد نفوذ الكنيسة وأصبحت تهيمن على المجال الفكري، وكان العلماء هم أنفسهم رجال الدين، وتعاليمهم مسلّم بها ولا تقبل النقاش.

يدّعي الكاثوليك أن الكنيسة الأم في روما هي الحاكمة على جميع الكنائس والفرق والطوائف الأخرى، وأن البابا المقيم فيها هو صاحب السلطة المطلقة على جميع رعايا الدين المسيحي، ويرجع تاريخ الكنيسة الرومانية إلى النصف الثاني من القرن الأول، حيث يدّعي الكهنة الكاثوليك أن بطرس هو الذي أسس هذه الكنيسة، وأن قبره لا يزال فيها.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنه رغم تقدّم تاريخ تأسيس الكنيسة الرومانية مقارنة بغيرها من الكنائس المسيحية لكن البابوية بمعناها السلبي لم يبدأ تأسيسها إلا في القرن الخامس الميلادي، ويُرجع البعض تاريخ بداية تأسيس البابوية إلى سنة ٤٤٥م، حين أصدر الإمبراطور الروماني قراراً يقضي بجعل بابا روما رئيساً عاماً للكنائس المسيحية.[٣]

كان هذا التاريخ إيذاناً بتأسيس سلطة تسلّط وجشع ومطامع دنيئة في تاريخ المسيحية، **وكان لهذا الأمر أسبابه الدينية والسياسية والتاريخية.**

١- الأسباب الدينية:

ابتدأت هذه الأسباب بادعاء بابا روما أنه الوريث الشرعي لكرسي بطرس رئيس الرسل وتلاميذ المسيح، فأعلن أن الولاء التام يجب أن يكون له، وأن كلمته يجب أن تكون النافذة في المجتمع المسيحي، وانضم إلى هذا الأمر البعثات التبشيرية التي كانت المسيحية حريصة على إرسالها، وكلّما دانت أمة من الأمم أو شعب من الشعوب بالمسيحية أعلنت الولاء والطاعة المطلقة لبابا روما، مما ساعد على زيادة نفوذه واتساع سلطته ضمن البلاد المسيحية.

٢- الأسباب السياسية:

لعل أبرز هذه الأسباب هو الضعف السياسي الذي حل ببعض الأقطار المسيحية، مما أعطى فرصة سانحة لحلول البابا محل الإمبراطور، والأساقفة محل حكّام الأقاليم، وأيضاً حلّ رجال

---

(١) المركز اللوثري، جواب وسؤال، ص٧٩/٢.

(٢) انظر: شنودة الثالث، اللاهوت المقارن، ١٤٣/١، وجرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص٢٢٦.

(٣) انظر: الطهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان، ص٢٠٦، والحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٦٥.

الإكليروس محل مجلس السيناتور في روما[١]، مما أعطى نفوذاً وقوة سياسية كبيرة لرعاة الكنائس المسيحية، وأضفى على صفتهم الدينية صفة رجال السياسة والمعنيين بالحكم، ونجح الإكليروس بانتهاز هذه الفرصة، فكانت لهم بصمات سلبية ونقاط سوداء في تاريخ المسيحية لا تنمحي ولا تُنسى.

٣- الأسباب التاريخية:

بدأت بوادر النفوذ البابوي بالاتساع تاريخياً منذ أن أعلن الإمبراطور قسطنطين نقل مقر السلطة السياسية من روما إلى القسطنطينية، فأصبح كرسي الحكم الروماني في روما شبه شاغر، أما الإمبراطور فقد صار مقامه في القسطنطينية، منذ ذلك الوقت استطاع البابا في روما بسط نفوذه السياسي على روما، فانتقلت الرياسة السياسية إلى الكنيسة التي يرأسها البابا، وبناءً على النفوذ السياسي السابق فقد استطاع البابوات أن يشنوا حملات حربية صليبية على الكثير من الأقطار المجاورة بإشارة من البابا رئيس الكنيسة.[٢]

بناءً على الأسباب سالفة الذكر نشأت البابوية في المسيحية، وكانت هذه النشأة مقترنة بطرح الكثير من المفاهيم الدينية والأفكار الجديدة التي تخدم مصالح البابوات خاصة ورجال الدين المسيحي عامة.

فأصبح الاعتقاد السائد في المسيحية أن لآباء الكنيسة حقوقاً دينية وإمكانيات كهنوتية لا يتمتع بها أحد، ويرون أن الإنجيل هو مَن منحهم هذه السلطة الدينية والإمكانيات الموروثة عن المسيح والذي سلّمها إلى تلميذه (بطرس): "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنِ كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيتك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات" [متى: ١٦/١٨-١٩].

هذا الإعلان شديد الأهمية في الإيمان المسيحي؛ فقد أعطى صلاحياتٍ غير محدودة لبطرس، وهذه الصلاحيات تجعل منه قادراً على فعل أي أمر مهما كان، فكل ما على الأرض محدود بحدود بقدرات بطرس، ولو اقتصر الأمر على بطرس لكانت المشكلة أقل ضرراً وتأثيراً.

المشكلة أن هذا الأمر أخذ في الشطط مأخذاً كبيراً، حتى صار جميع الكهنة والبابوات في الكنيسة يتمتعون بهذه الصلاحيات والإمكانيات، مستدلين بأمرين:

أولهما: أقوال المسيح التي منح التلاميذ ورجال الدين فيها صلاحيات كبيرة، أهم هذه الأقوال:

أ. "الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء، وأقول لكم أيضاً إن اتفق اثنان منكم على الأرض أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قِبَل أبي" [متى: ١٨/١٨-١٩].

ب. "ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين وشفاء أمراض، وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله ويشفوا المرضى" [لوقا: ٩/١-٢].

ت. "فقال لهم يسوع أيضاً سلام، كما أرسلني الآب أرسلكم أنا، ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس، من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت" [يوحنا: ٢٠/٢١-٢٣].

---

(١) انظر: اليسوعي، تاريخ الكنيسة المفصل، ١٥٢/٢.

(٢) انظر: دوبيناه (ميرل)، تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر، ٢٣٣/١.

بهذه النصوص أصبح لرجال الدين - في اعتقاد المسيحيين – السلطة العظمى على جميع مَن دونهم من رعايا المسيحية، وصار لهم سلطان الحل والربط سواء في الأمور الدينية أو الدنيوية، كما أصبحوا مميزين بقدراتهم الخارقة على شفاء المرضى وإخراج الشياطين ومغفرة الذنوب[١]، وترتّب على ذلك الكثير من الأمور التي سيأتي بيانها.

ثانيهما: ادعاء البابوات وراثة الكرسي البابوي عن بطرس الذي ورثه عن المسيح إلى جميع الكهنة ورجال الدين.

ويذكر الدكتور (**عادل درويش**) أن الأسقف (**إجناسيوس**) أسقف كنيسة أنطاكيا كتب إلى المسيحيين من رعايا الكنيسة ما يلي:

"عليكم أن تطيعوا آباء الكنيسة كما أطاع المسيح أباه، أطيعوا أئمتكم الروحانيين كما تطيعوا الرسل، ولا يباشر أحدٌ منكم شأناً من الشؤون التي تقوم بها الكنيسة بدون حضور آباء الكنيسة، أنّى يوجد الأسقف فإن حضوره يعد حضوراً للمسيح نفسه تبعاً لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية، والأب والأئمة الروحانيون لهم سلطان لقيادتنا وإرشادنا باسم المسيح، فمن أيديهم نتلقى حياة الطهر عن طريق التعميد، وهم الذين يعطوننا الخبز المقدس في العشاء الرباني، وهم الذين يربوننا لنصبح أبناء الله، وهم عوض عيسى وآباؤنا الروحانيون، فعلينا أن نتعمق في احترامهم وحبهم وطاعتهم، وكل رجال الكنيسة العظام من الآب المقدس إلى الأسقف يصدرون الأوامر لتنفيذ الكنيسة ولسلامة المسيحيين من الذنوب والهموم النفسية وتشجيعهم على فهم حياة الكنيسة، والمسيحيون أعضاء يتكون منهم جسد عيسى المقدّس فعليهم أن يمتثلوا لأوامر الأساقفة وأن يسلموا أنفسهم للآباء الروحانيين".[٢]

والحقيقة التاريخية تشير إلى أن دور **البابوات المتسلط على الرعية ابتدأ منذ منتصف القرن الخامس**، ويسجّل التاريخ أن القرن الخامس كان مسبوقاً بكثير من الممارسات القمعية والإلزامية في حق رعايا الكنيسة، لعل الأصح في هذه المسألة أن القرن الرابع الميلادي سجّل منذ مجمع نيقية البداية الرسمية للتسلط البابوي، بدليل ما حصل فيه من حمل الناس على الإيمان بما ارتآه القلة المعددة من البابوات المؤيدين بالسلطان السياسي الإمبراطوري ضد الكثرة الموحّدة بزعامة (آريوس)، فاستطاعت القلة أن يفرضوا رأيهم على رعايا الكنيسة سواء وافق هذا الرأي الحق أم لا.

ولقد كان إعطاء بابوات الكنيسة الصلاحيات المطلقة في كل الأمور منحدراً كبيراً بل هاوية تاريخية هوت فيها البابوية، وترتب على هذا الأمر ظهور الكثير من المفاسد، **أهمها خمسة:** (العمل اللاأخلاقي المنظّم، والتعسف في استخدام عقوبة الحرمان، وبيع صكوك الغفران، فرض الكتاب المقدس باللغة اللاتينية واحتكار فهمه وتفسير نصوصه، تحويل الأموال إلى ملكية الكنيسة وجمعها بالطريق غير المشروعة)، وهي بالتفصيل:

١- العمل اللاأخلاقي والفاسد المنظّم:

وجّهت ضد البابوية الكثير من الاتهامات، إلا أن التهمة الأكثر شناعة هي الفساد الخلقي، ومن الغريب أن هذه الظاهرة لم تكن نادرة الحصول، بل استمرت زمناً حتى اتخذت أشكالاً واضحة وتسميات محددة، منها ما يلي:

أ. النقولاوية:

---

(١) انظر: الخزرجي، بين الإسلام والمسيحية، ص٧٧.

(٢) درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٥٣٩-٥٤٠.

وهي الفساد الخُلُقي الذي عمّ أرجاء الكنيسة الغربية، فإن كثرة الانحرافات في المراكز الدينية جعلها تزاحم المراكز الدنيوية، وتسبقها في الفساد والدعارة والفجور، فكانوا متهمين بعدم العفّة والتسرّي[١]والزواج المحرم في شريعتهم على الكهنة[٢]، وانتشرت هذه الحالة حتى بين البابوات.[٣]

ب. السيمونية:

المعنى الذي يطلق عليه هذا المصطلح هو **المتاجرة بالوظائف والرتب الكنسية، وترتبط هذه التسمية بقصة (سيمون الساحر)** التي وردت في الكتاب المقدّس في سفر أعمال الرسل، ومفادها أن هذا الرجل كان ساحراً، وكان يُدهش شعب السامرة بسحره فيجعلهم يتبعونه أينما وُجد، وبعد ذلك زار بطرس الرسول ويوحنّا البلاد التي كان فيها سيمون، وشاهد الناس ما يقومان به، ورأى أيضاً سيمون ذلك، فأراد أن يشتري ذلك منهما، "ولما رأى سيمون أنه بوضع أيدي الرسل يعطى الروح القدس قدم لهما دراهم، قائلاً أعطياني أنا أيضاً هذا السلطان حتى أي من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس، فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله بدراهم، ليس لك نصيب ولا قرعة في هذا الأمر لأن قلبك ليس مستقيماً أمام الله، فتب من شرك هذا واطلب إلى الله عسى أن يغفر لك فكر قلبك، لأني أراك في مرارة المر ورباط الظلم، فأجاب سيمون وقال اطلبا أنتما إلى الرب من أجلي لكيلا يأتي عليّ شيء مما ذكرتما" [أعمال الرسل: ٨/١٨-٢٤].

فمن هنا أصبحت (السيمونية) تطلق على كل من يتاجر في الوظائف الكنسية[٤]، فقام رجال الدين بعملية التصرف في المراكز الدينية، وذلك وسيلةً لزيادة مواردهم المادية، وقامت العائلات الغنية بشرائها لأولادهم مقابل مبالغ طائلة، فأصبحت أغلبية مناصب الأساقفة ميراثاً لأبناء السادات، مختصاً بهم دون غيرهم.

٢- عقوبة الحرمان:

الحرمان هو القطيعة، وتشمل القطيعة الدينية والدنيوية، وهي من العقوبات التي كان يصدرها بابوات الكنيسة، ويُقاطع المحروم بموجبها دينياً ودنيوياً، وهي نوعان:

أ. **الحرمان الفردي: ويقاطع بموجبها المحروم بطريقة فردية وشخصية**، ويُحكم بها على فرد معين مقصود بالذات، فيعدّ بذلك منبوذاً ومطروداً من المجتمع المسيحي، يقول الأسقف فيها النص التالي: ((إننا بموجب السلطة الإلهية التي منحها القديس بطرس إلى الأساقفة ننبذ فلاناً من حجر أمه الكنيسة المقدسة، فليلعن في المدينة وفي الحقول وفي بيته، وعلى كل مسيحي ألا يكلمه ولا يؤاكله، وعلى أي راهب ألا يقيم له القداس، ولا يتناول القربان، وأن يُدفن كما يدفن الحمار، كما أن المشاعل التي ألقينا بها من أيدينا ستنطفئ وأن ضوء حياته سيخمد إن لم يتب

---

(١) أخذت هذه التسمية في المسيحية معنى اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطاً جنسياً، انظر: قصة الحضارة، ٣٨٢/٢١.

(٢) الزواج المحرّم: باعتبار أن للبابا السلطة التي يستطيع من خلالها تشريع الأحكام الدينية لرعايا الكنيسة فإن البابا (غريغوري السابع) أصدر في القرن الحادي عشر قراراً بتحريم زواج رجال الدين، من القسس والأساقفة والشمامسة، فصار الزواج محرّماً على رجال الكنيسة عملاً بهذا القرار، انظر: المخلصي (منصور)، الكنيسة عبر التاريخ، ص١٣٩.

(٣) انظر: بردي (أدوار)، تاريخ الحضارات العام، ٣١٦/٣، والعريني (السيد الباز)، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص٤٥٢.

(٤) انظر: عبد الملك، (بطرس)، قاموس الكتاب المقدّس، ص٤٧٩.

ويقدم ترضية))[١]

ب. **الحرمان الجماعي: وهذه العقوبة تقع على مجتمع بأكمله،** قد يكون هذا المجتمع مدينة أو مقاطعة أو مملكة أو إقليماً بأسره، وإذا وقعت هذه العقوبة على مجتمع فإن أبواب الكنائس تغلق في وجه ذاك المجتمع، ولا يجد أصحاب هذا المجتمع المحروم أحداً يقضي لهم مصالحهم المرتبطة بالكنيسة، كطقوس الزواج والتعميد والجنائز وغيرها، فمن خلال هذا الحرمان تكاد العلاقة بين أصحاب المجتمع المحروم وبين العالم المسيحي أن تقطع كليّاً.[٢]

قرارات الحرمان هذه كانت تصدر من الكنيسة بغضّ النظر عن مكانة المحروم ووظيفته، فقد يكون رجلاً من عامة رعايا الكنيسة وقد يكون ذا منصب فيها وقد يكون إمبراطوراً أو ملكاً، فحتى الملوك ربما تنالهم أحكام الحرمان، وبهذا الأسلوب فرضت الكنيسة سلطانها حتى على الملوك، ولم ينج بعض الملوك من أحكام الحرمان هذه، إذ إنه من المعلوم تاريخياً أن المجمع الثالث عشر الذي انعقد في مدينة ليون في فرنسا سنة ١٢٤٥م بأمر من (إنوسنت الرابع) كان لأجل عزل (فردريك) ملك فرنسا وأصدر قراراً بحرمانه، وهذا المجمع لم تسلم كنيسة فرنسا حتى الآن بصحته.[٣]

ومن البديهي أن قرارات الحرمان التي **كانت تصدر في حق بعض الملوك** لها أثر في نفوس شعوبهم، كما أنه يدعو الملوك من جانبهم إلى حماية أنفسهم، وأقلّ ما يمكنهم فعله أن يثيروا القالة على رجال الكهنوت، ويكبروا صغائرهم، ويروجوا عنهم ما يحط من قداستهم حتى ينفردوا بالسلطان لأنفسهم.

٣- صكوك الغفران:

وقد سبق الحديث عن هذا الأمر بالتفصيل.

٤- فرض الكتاب المقدس باللغة اللاتينية واحتكار فهمه وتفسير نصوصه:

كان هذا العامل أحد أهم العوامل التي تكاتفت لتعبّر عن الضغط الديني والذهني والنفسي الذي كانت الكنيسة في روما تسببه للناس آنذاك، حيث **كانت اللغة اللاتينية اللغة الرسمية للإكليروس الروماني، وكان الكتاب المقدس** – قبل حركة الإصلاح - **مكتوباً باللغة اللاتينية،** وفي الوقت نفسه كان عامة الشعب لا يعرفون اللاتينية، وعليه فإنه ليس باستطاعتهم فهم الكتاب المقدّس.[٤]

ولعل الواحد منّا يستغرب حين يتصوّر منظر رعايا الكنيسة وهم يصلون فيها ويرددون تراتيلها بلغة لا يفهمونها، ومن هنا **جاءت الحاجة إلى ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغات الأوربية المحلية** حتى يفهم الناس كتابهم المقدّس، ويقيموا صلاة يفهمون معانيها، لكن البابوات وقفوا لتلك المحاولات بالمرصاد ومنعوا ذلك، فقتلوا من استطاعوا الوصول إليه ممن قاموا بترجمة الكتاب المقدس، وحكموا عليهم بأنهم هراطقة، وحاربوا من لم يستطيعوا الوصول إليه، وحرّموا قراءة ترجمة الكتاب المقدّس التي وضعوها:

أ. في عام ١٣٩٠م بدأ أحد قساوسة مدينة (براج) بإلقاء مواعظه الكنسية باللغة "التشيكية"

---

(١) كردعلي (محمد)، تاريخ الحضارة في القرون الوسطى والحديثة، ص٧١.
(٢) انظر: أحمد (عبد القادر)، العصور الوسطى الأوربية، ص٢٤٣.
(٣) انظر: أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٦٩.
(٤) انظر: رزقي (صموئيل)، تجديد الفكر الديني في المسيحية، ص١١٤، وشلبي، أضواء على المسيحية، ص١٢٩.

بدلاً من اللغة اللاتينية، فعدّت الكنيسة هذا الأمر هرطقة وبدعة، وتمّ اتهام القس (جون هس)[١] بالهرطقة لنفس السبب، فهرب من مدينة (براج)، وحينما انعقد مجمع (كونستانس) قام الملك بمنح (جون هس) تصريحاً بالسفر ليدافع عن نفسه ويشرح وجهة نظره للمجمع، لكن هذا التصريح بالمرور سالماً لم يكن إلا فخاً منصوباً له، فإنه ما إن وصل إلى حدود مدينة (كونستانس) حتى قُبضَ عليه وذلك سنة ١٤١٤م، وحصلت له محاكمة من المحاكمات التي كانت تجري في محاكم التفتيش الشهيرة، وانتهت بإدانته وذلك لإصراره على عدم التخلي عن رأيه، وأُحرِق حياً سنة ١٤١٥م.[٢]

ب. في عام ١٥٣٧م قامت الكنيسة بإخضاع (وليم تندل) لمحكمة التفتيش التي حكمت عليه بالهرطقة ثمّ الموت إحراقاً؛ لأنه قام بترجمة العهد الجديد إلى اللغة الإنجليزية الدارجة آنذاك، ولكنه قبل قتله إحراقاً كان قد استطاع القيام بتهريب عدد من نسخ ترجمته هذه إلى إنكلترا.[٣]

ت. في عام ١٥٤٥م أصدر مجمع (ترنت) قرارات كان من ضمنها منع قراءة ترجمة الكتاب المقدس التي وضعها (مارتن لوثر)، وذلك لأنه تبين - برأيهم - أنه إذا سُمح لكل إنسان بدون تمييز قراءة الكتاب المقدس المترجم إلى لغة الشعب فإن تهوّر البشر الناجم عن قراءته يسبب شراً أكثر من الخير، لذلك وجب الحصول على إذن خاص للسماح بقراءة الكتاب المقدّس المترجم إلى لغة الشعب.[٤]

يُستفاد مما سبق أن **الناس كانوا يصلّون بلغةٍ لا يفهمونها**، ويرتلون في الكنيسة تراتيل لا يفهمونها، ولم يكونوا يقرؤون كتابهم المقدس وذلك لأنه مكتوب بلغة لا يعرفونها من ناحية؛ حيث كانت قلة قليلة من فئات المجتمع المتعلمة ورجال الدين هي فقط التي تعرف اللاتينية، وليس لديهم الإذن في قراءته من ناحية أخرى.

وراح البابوات بعد ذلك – مستغلين احتكار قراءة الكتاب المقدس وفهمه – **يفرضون على الناس عقائد وشعائر لم ترد في الكتاب المقدّس قط** من ناحية ومتعارضة مع منطق العقل والفهم السليم تعارضاً واضحاً، وشكّلت هذه العقائد نقطةً انطلق منها المطالبون بالإصلاح الديني، من أبرز هذه العقائد والشعائر:

أ. عصمة البابا وتقديسه وامتلاكه القدرة على محو الذنوب وغفرانها.
ب. الأحقية باحتكار الكنيسة للكتاب المقدّس بالفهم والتفسير.
ت. وجوب الصلاة باللغة اللاتينية.
ث. تحريم الزواج على الكهنة والرهبان ورجال الدين.
ج. إباحة وضع صور وتماثيل القديسين ومريم العذراء في الكنائس وأماكن العبادة، وجواز التوجّه لها بالصلاة.[٥]

---

(١) مصلح ديني من أبناء بوهيميا (تشيكوسلوفاكيا اليوم)، يُعدّ زعيم حركة الإصلاح الديني الوطني التشيكي، ولد سنة ١٣٧٢م، وعمل فترة في حقل التبشير، ثم انتُخب رئيساً لجامعة براغ، وحوكم أمام مجمع كونستانس، فاعتبره القضاة هرطيقاً، وحكموا عليه بالإعدام حرقاً، وتم تنفيذ الحكم في حقه سنة ١٤١٥م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٤٧٣.
(٢) انظر: ريبوني (إنريكو)، الإلحاد وأسبابه (الصفحة السوداء للكنيسة)، ص٨٧-٨٨.
(٣) فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية، ص٩٧-٩٨.
(٤) انظر: حبيب، (صموئيل)، المسيح ثائراً، ص١٢٤.
(٥) انظر: أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٧٠.

وغيرها العديد من العقائد التي استطاعت البابوية أن تفرضها على الشعوب التابعة لها من خلال انفراد القائمين عليها بفهم الكتاب المقدس وتفسيره.

٥- تحويل الأموال إلى ملكية الكنيسة، وجمعها للأموال بالطرق غير المشروعة:

كان الاستغلال المالي من أهم الاتهامات التي وجّهت ضد البابوية، حيث ضجّ الناس بذلك من أعلى حاكم إلى أدنى قروي، وكما يحكي (جون لوريمر) إن **رجال الكنيسة كانوا يخترعون طرقاً جديدة لتنمية دخولهم**، فقد كان هناك محصّلون مخصوصون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف، كانوا يُطالبون بعشر دخل الكاهن، ويحصلون على كل حصيلة الكاهن عن السنة الأولى من خدمته، والضرائب كانت تُفرض سنوياً على رؤساء الدول، وكما أن الكنيسة في فرنسا وألمانيا كانت قد استولت على ما يتراوح بين ثلث إلى نصف أملاك الدولة.(١)

كان لهذا الكلام أثره في نفوس رعايا الكنيسة، حيث إن الناس في تلك الفترة أصبحوا لا يفكرون في البابوية على أنها مؤسسة للدين أو الإلهام، لكن بالأحرى **ملكية خاصة بكبار رجال الدين (الإكليروس) وجدت لتحصد امتيازات ومكاسب اقتصادية**.

تاجرت البابوية بنفوذها، وفرضت ضرائب على جميع أديرة الرجال والنساء، وعلى الكنائس الداخلة في الحماية البابوية، وفرض البابوات على كل أسقف في أول اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الناحية النظرية جميع إيراده في السنة الأولى، وذلك لقاء تثبيته في منصبه، وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يعيّنون رؤساء أساقفة لقاء الطيلسان وهو شريط من الصوف الأبيض يقدّم تأييداً لسلطته.(٢)

يرى الكثيرون أن **هذا المبدأ هو الفكرة الأساسية في الإصلاح الإنجيلي**، وتندرج ضمنه الكثير من الفرعيات، **فالإصلاح الإنجيلي ألغى فكرة الكهنوت الخاص، بطبقاته ورتبه المعروفة**، الذي بموجبه يُقام نظام خاص أو طبقة خاصة من الناس يتوسطون في العبادة بين الله والناس، فطالب الإصلاحيون بإلغاء هذا النظام، وأن يكون بإمكان جميع المؤمنين أن يتصلوا بالله رأساً دون وساطة أحد، فالكاهن هو إنسان من البشر، يكون وسيطاً بين الله والناس، ليقدّم الذبائح والقرابين والصلوات نيابة عن البشر، ليصالحهم مع الله ويتشفّع لهم أمام الله، هذه الوظيفة موجودة في الديانة اليهودية، ويرجع بعض الباحثين هذه الوظيفة إلى الديانات الوثنية القديمة، وسبب وجود هذه الوظيفة هو تعبير عن شعور الناس في كل زمان بتقصيرهم مع خالقهم أيّاً كان تصورهم لهذا الإله، وشعورهم بضرورة إرضائه والتكفير عن ذنوبهم بتقديم قرابين وذبائح لترضيه، وإذا أرادوا ذلك فلا بد أن يكون هذا الأمر عن طريق وسطاء يقومون بتقديم هذه الذبائح والصلوات إلى الله وهم الكهنة.(٣)

وبناءً على وجوب وجود الوساطة سالفة الذكر فإن البابوية نتيجة تعرضها لعوامل الضعف ابتدأت تعطي لرجال الدين سلطاناً على حياة الناس، حتى في القرون الوسطى كانت سلطة الكهنة قوية جداً، فجعلت البابوية من (الإكليروس) وسطاء بين الله وبين الناس، واتخذت لنفسها ولرجالها سلطة واسعة.

من أجل ذلك كان من المبادئ التي نادى بها دعاة الإصلاح أن من حق كل مؤمن أن يتقدّم

---

(١) انظر: لوريمر، تاريخ الكنيسة، ٣٧/٤، وشلبي، المسيحية، ص٢٥٦.
(٢) انظر: ديورانت، ٧٠/٢١-٧١، وعجيبة، أثر الكنيسة على الفكر الأوربي، ص١٦، وعلي، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، ص٥١.
(٣) انظر: اليسوعي، تاريخ الكنيسة المفصل، ص٦٨، وفارس (فايز)، أضواء على الإصلاح الإنجيلي، ص٥٤.

لله مباشرة دون وسيط، وأن السيد المسيح جعل جميع المؤمنين ملوكاً وكهنة لله، وكل من يتوب توبة صادقة ويعترف إلى الله بخطاياه ينال الغفران دون حاجة إلى وساطة بشرية، بل كل إنسان يمكنه أن ينال الرحمة بواسطة الوسيط الوحيد وهو السيد المسيح.(١)

ومما يتصل بهذا المبدأ ما يسمى **بحرية التفكير المسيحي**، حيث إن البابوية حرمت في العصور الوسطى على الناس التفكير الحر، **وأحرقت الآلاف من الناس والعلماء بتهمة الهرطقة**، فكان للكنيسة وحدها الحق في إصدار الأحكام والمقررات المتعلقة بالأمور الدينية والدنيوية على السواء، وعلى رعاياها أن يقبلوا ذلك دون سؤال أو استفهام، لكن مجيء الإصلاح كان سبباً في تخفيف وطأة الكنيسة وقسوتها على رعاياها، فصار باستطاعة المسيحي أن يُبدي رأيه في أي مسألة علمية بما يتفق مع العقل غير مقيّد بما حددته البابوية للشعب في مجال التفكير الحر.

وتتولد عن حرية التفكير قيم كثيرة في مختلف جوانب الحياة، لذلك ينقل المؤرخون البروتستانت أن الكنيسة الإنجيلية كانت تدرّب أبناءها على الحرية، وتؤيد كل نظام يدعو إليها.(٢)

وقد كان لهذا المبدأ الأثر العميق في حياة الشعوب، **فما كادت المبادئ البروتستانتية تتوطد حتى ابتدأت أفكار الناس تتجه إلى الحرية**، حتى قال **(ماكس فيبر)**(٣): "إن التطورات العظيمة التي طرأت على تفكير العالم سياسياً واقتصادياً كانت نتيجة لما قدمه لوثر وكالفن من أفكار"(٤)، لكن يبقى الأمر بالنسبة لهذا الأمر على النحو الذي أسلفت من أن البروتستانت اقتدوا بتعاليم لوثر وكالفن لا بسلوكهما.

وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر زاد الفساد بين رجال الإكليروس بصورة كبيرة مما أدى إلى إثارة الرأي العام للمسيحيين ضدهم، وكنتيجة حتمية ومنطقية لاشتغال الكهنة بمصالحهم الشخصية وإهمال واجباتهم الرعوية **فقد انحطّ حال الشعب**، لا سيما أن **الوعظ في الكنائس كان نادراً جداً**، بسبب جهل معظم الكهنة، وأدى هذا إلى جهل الناس بتعاليم الدين، فمثلاً القدّاس كان يُتلى باللغة اللاتينية التي كانت غير مفهومة للعامة، والمصدر الوحيد لتعليم الناس كانت مواعظ الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان، الذين كانوا في هذه الفترة - العصور الوسطى - قد فتر حماسهم.

تبيّن في هذه الفترة بجلاء **عجز الكنيسة وعدم قدرتها على مواجهة الحاجات المتزايدة لرعاياها**، هذه الحاجات التي كانت في نمو وتزايد، لكن حدث العكس؛ إذ إن اهتمام الكهنة بمصالحهم الشخصية أدى بهم إلى إهمال حاجات الناس، وكان هناك عجز واضح في ذلك، **وعاشت ألوف من الفقراء لا تجد من يقدّم لها شيئاً من احتياجات الروح أو الجسد**، وذلك بعد أن طغى حب المال على الكهنة، فتوقفوا عن بذل العطايا والإعانات التي كانوا يقدمونها للناس

---

(١) انظر: موريسون (آرنولد)، تاريخ حياة لوثر زعيم الإصلاح، ص١١٩.

(٢) انظر: فارس، أضواء على الإصلاح الإنجيلي، ص٦٠.

(٣) ولد ماكس فيبر في مدينة إرفورت في ألمانيا عام ١٨٦٤م في وسط عائلي بروتستانتي من الطبقة الثرية، وقد شغف بالتاريخ والفلسفة وعلم اللاهوت والجماليات، وقد اشتهر ماكس فيبر بأنه أحد المفكرين الذين انهمكوا في تحليل ظاهرة الحداثة وكيفية نشوئها، ألّف ماكس فيبر مجموعة من الدراسات يمكن أن تدخل تحت علم الاجتماع الديني لعل من أهمها (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) التي حاول فيها أن يناهض الفكر الماركسي في أساسه وجوهره، توفي سنة ١٩٢٠ انظر: https://ar.wikipedia.org/

(٤) فيبر (ماكس)، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ص٧.

في فترات سابقة.[١]

ثم إن الالتجاء إلى القديسين وطلب شفاعتهم، وشراء الغفران بالمال وانهماك البابوات في الفساد والرذيلة، وسلاح الحرمان الذي كان في أيدي الكهنة سيفاً مسلطاً على رقاب من لا يُقدّم لهم فروض الطاعة والولاء، كل ذلك كان سبباً وضع الناس في حالة من الخنوع واللامبالاة بما يجري في الأوساط الكنسية من الفساد والرذيلة لأن كل واحد يريد أن ينجو بنفسه، وأدى هذا إلى انحطاط الحالة الروحية بين الناس، فتفشت بينهم الشرور، وعم الفساد واستشرى.

كل الأمور التي سبق الحديث عنها **ترتبت على السلطة المطلقة والأحقية المزعومة التي ادعاها البابوات لأنفسهم ناسبين فتح هذا الباب إلى المسيح** الذي منح الصلاحيات العامة لبطرس ولباقي التلاميذ، وهم ورثوها عنهم.

ثالثاً: عصمة البابا:

مسألة عصمة البابا – عند الكاثوليك - هي مسألة جوهرية في الفكر المسيحي ما بعد عصر النهضة، ولقد كانت هذه المسألة محوراً خلافياً مهماً بين المسيحيين، وسبباً في زيادة الشرخ وتفريق الصف بين أتباع المسيحية، كما أنها شكّلت بالنسبة للبروتستانت مصدراً تشريعياً معتمداً في كثير من المسائل المستجدة نظراً إلى محدودية نصوص الكتاب المقدس بالمقارنة مع الحوادث المستحدثة مع أخذ التغيرات الحياتية والسياسية بعين الاعتبار.

ومعنى العصمة في حق البابا **"أن البابا يُحفظ بصفته مسؤولاً عن خدمة المشاركة بين جميع الكنائس من كل ضلال بفضل عون الروح القدس"**.[٢]

والبابا بالنسبة للمسيحيين عموماً هو خليفة المسيح في الأرض، وله صلاحيات كثيرة سبق بيانها، وهو رأس الكنيسة ومصدر ولايتها، والحارس لقوانينها ونظمها وعقائدها.

والناظر في عقائد الكاثوليك ونظمهم يدرك أنهم استغنوا في كثير من المواضع عن نصوص الكتاب المقدس وقرارات المجامع بعدما أثبتوا عصمة بابا الكنيسة الرومانية، وصار للبابا الحكم في كثير من الأحكام الاعتقادية والتشريعات الأخلاقية بوصفه معصوماً عن الخطأ.

وبقيت مسألة عصمة البابا مثار أخذ وردّ بين علماء اللاهوت المسيحي حتى انعقد مجمع رومية الفاتيكاني سنة ١٨٦٩م فقرر عصمة البابا وحرّم مخالفتها.

وقد أدهش إعلان هذا القرار العالم المتمدن، فتم الإعلان عن هذه العقيدة في ١٨٧٠/٧/١٨م ببيان جاء فيه:

"نُعلن ونعلّم عقيدةً أوحى بها الله: حين يتكلم الحبر الروماني رسمياً، أي حين يقوم بوظيفته راعياً جميع المسيحيين ومعلمهم، فيحدد بحكم سلطته الرسولية أنَّ تعليماً في الإيمان أو الأخلاق يجب على الكنيسة أن تؤمن به، فإنه يتمتع بعون الله الموعود به في شخص القديس بطرس بتلك العصمة عن الخطأ، التي شاء الفادي الإلهي أن توفر لكنيسته حين تُحدد التعليم في الإيمان والأخلاق، وبناءً على ذلك فإن هذه التحديدات التي يعلنها الحبر الروماني هي غير قابلة للتعديل في حد ذاتها".[٣]

يقول الأب **(بولس إلياس)**: "لقد خوّل السيد المسيح الكنيسة عَيْنَ السلطان الذي تلقاه من أبيه السماوي عندما قال لتلاميذه: (كما أرسلني الآب هكذا أنا أرسلكم) وذلك يشمل سلطان الكهنوت والتدبير والتعليم .... وعصمة الكنيسة هذه امتياز تنعم به هي والبابا على رأسها نائب المسيح

---

(١) المنفلوطي، المسيحية في العصور الوسطى، ص١٦٣.

(٢) اليسوعي (صبحي)، معجم الإيمان المسيحي، ص٣٢٨.

(٣) دوميج (جرفييه)، الإيمان الكاثوليكي (نصوص صادرة عن السلطة الكنسية)، ص٢٥٤، وكمبي (جان)، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ص٣١٤.

المنظور، ولا يُعَدّ البابا معصوماً عن الضلال إلا عندما يُعلن أو يرذل بطريقة احتفالية عقيدة من عقائد الإيمان أو تعليماً له مساس بالآداب المسيحية، ولا تزال هذه المرحلة معمولاً بها حتى الآن".[١]

وكان **للظروف السياسية** التي مرّت بها الدولة الرومانية **أثر** أيضاً في جعل البابا الوحدة المرجعية في الأمور الدينية كافةً، لا سيما حين استقلّ البابا في روما عن الإمبراطور.

ولقد وضع البابا **(جريجوري السابع)**[٢] عدة مبادئ سمّاها بـ (الأوامر الإلهية) ونصّها كما يلي:

١- لا يُلقّب أحد بالمسكوني إلا البابا فهو وحده الذي يتمتع بسلطة عالمية.
٢- لا يقبّل الأمراء رِجْلَي أحدٍ غيره، وعلى جميع الأمراء العلمانيين أن يُقبّلوا قَدَمي البابا.
٣- لا يُعلن في الكنائس باسم أحدٍ غيره، ولا يُذاع على الأرض بذكر أحدٍ غيره.
٤- لا يباح لأحدٍ غيره بمبايعة القياصرة وتوليتهم، وله وحده سلطة تعيين الأساقفة وعزلهم.
٥- للبابا الحق في عزل الأباطرة.
٦- لا يجوز عقد مجمع ديني عام إلا بأمر من البابا، ولا يُسمّى المجمع مسكونياً إلا بأمره.
٧- ليس لأي فرد أن يلغي قراراً بابوياً، وللبابا الحق أن يلغي قرارات غيره.
٨- للبابا الحق في محاكمة جميع الناس، وليس لأحد الحق في محاكمته.
٩- لا يُسأل البابا عمّا يفعل ولا يُحاكم على تصرفاته.
١٠- للبابا وحده الحق في أن يُعفي الرعايا ويحلّهم من العهود وايمان الولاء التي قسموها لحكامهم.[٣]

ومن الجدير بالذكر أن مسألة عصمة البابا كانت - كما أسلفت – مثار اعتراض من الكثير من عقلاء المسيحية، ومنذ أن بدأت تلوح في الأفق خلال القرن الخامس عشر بدأت انتقادات علماء اللاهوت تحاول مجابهتها، لا سيما من دعاة الإصلاح الديني، فنجد مثلاً في كلمات **(جون ويكلف)**[٤] ما يشير إلى هذا المعنى، يقول: "ليس للبابا قوة في الربط والحل أكثر من أي كاهن".[٥]

وكذلك بعد إقرار هذه العقيدة في شأن البابا من خلال مجمع روما الفاتيكاني سنة ١٨٦٩م ارتفعت الكثير من الأصوات تُطالب بإلغاء هذا الأمر، وتناهض قرارات هذا المجمع بسبب هذه

---

(١) رزق (هاني)، يسوع المسيح في ناسوته ولاهوته، ص١٩٠.

(٢) غريغوري السابع القديس ١٠٨٥ – ١٠٢٠) Saint Gregory VIIم) بابا روما، تولى البابوية منذ سنة ١٠٧٣م حتى آخر عمره، يعدّ أحد أبرز البابوات المصلحين في القرون الوسطى، عزز سلطة الكرسي الرسولي الزمنية، وأدخل إصلاحات واسعة على الإدارة الكنسية، ونشب صراع بينه وبين الامبراطور هنري الرابع حول من يعيّن كبار الأساقفة، هل هو البابا أم أنه الإمبراطور، وقد أسفر النزاع عن هزيمة هنري وإعلانه خضوعه للبابا في مدينة (كانوسّا) سنة ١٠٧٧، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٢٩٩

(٣) انظر: الشتيوي (محمد رجب)، المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية، ص٣٥٥-٣٥٦.

(٤) كان ويكلف أستاذاً في جامعة أكسفورد، وأحد كبار المشتغلين بعلم اللاهوت قبل أن يصبح هرطيقاً، ولد سنة ١٣٢٤م من أبوين فقيرين، وكان هدفه في الحياة أن يكون أديباً، واتهم ويكلف البابوية بأنها عاونت العدو ضد ملك إنكلترا، وتقوم تعاليمه على أساس تعاليم (أوغسطين)، ومنها الاعتقاد بالقدر، ولقد كان لهذه لآرائه أثرٌ كبيرٌ في نفوس القاعدة الشعبية، وخاصة الطبقة الناقمة على تصرفات رجال الكنيسة، توفي سنة ١٣٨٤م، انظر: أباظة (فاروق)، دراسات في تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ص٢١٥.

(٥) اليسوعي، تاريخ الكنيسة المفصل، ٥٢/٤.

الفقرة، مما حدا بكثير منهم إلى هجران الكنيسة البابوية، فاعتزلوها وأطلقوا على أنفسهم (كاثوليك قدماء) رافضين البدع العصرية الجديدة كالعصمة البابوية، وعقدوا مجامع في كلٍ من ميونخ وبولونيا.(١)

أما **مسألة العصمة ذاتها بالنسبة للبابوات فقد كانت نتائجها غايةً في الفجور والدناءة وانعدام المروءة،** وبناءً على العصمة المزعومة أباح البابوات لأنفسهم إتيان أسوأ المعاصي، والإشهار بالانحلال الخلقي، كل ذلك حصل والبابا والكنيسة تدّعي العصمة.

ولقد سجّل التاريخ شهادات خطيرة جداً في هذا المقام، كلها تبين كيف كان البابوات يمثّلون العصمة في تصرفاتهم، ولقد أورد (ديورانت) وصفاً لما حدث في البابوية في القرن العاشر، يقول (**ديورانت**):

"وظل كرسي البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت لا ينال إلا بالرشا أو القتل، أو رغبات النساء ذوات القوام السامي والخلق الدنيء، وبقيت أسرة ثيوفيلاكت Theophylact، أحد كبار الموظفين في قصر البابا، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها، واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تنجح في اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسي البابوية (٩٠٤-٩١١)، كما أفلحت زوجته ثيودورا في تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤-٩٢٨)، وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع .... ثم رفعت مروزيا في عام ٩٣١ يوحنا الحادي عشر (٩٣١-٩٣٥) إلى كرسي البابوية، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعي من سرجيوس الثالث، وفي عام ٩٢٣ سَجَن ابنها ألبريك Alberic يوحنا هذا في قلعة سان أنجيلوا Sant' Angelo .... فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثاني عشر، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهتك والدعارة في قصر لاتيران ....."(٢).

كذلك شغل الكرسي البابوي بندكت منذ ١٠٣٢ إلى ١٠٤٥، وكان قد عُيّن في الثانية عشرة من عمره، فدنّس منصبه بحياة الفحش إلى حدٍّ جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من روما، ولما أتعبه منصب البابوية باعه إلى غريغوري السادس بألف أو ألفي رطل من الذهب.(٣)

ولو أردنا تقصّي الأحداث والحكايا التي تتحدث عن المجون والخلاعة وما شابهها من أحداث في تاريخ البابوات لضاق بنا المقام، بالإضافة إلى جرائم القتل وسفك الدماء والتعذيب في محاكم التفتيش.

فمسألة (عصمة البابا) **لا تستند إلى دليل،** وكيف يمكن أن تكون مستندة إلى دليل نصي وهي ما ظهرت إلى العلن بشكل جلي وواضح إلا في القرن التاسع عشر، فكيف يكون معصوماً طيلة التاريخ المسيحي القديم ولا يُعلن ذلك إلا بعد أكثر من ثمانية عشر قرناً.

كما أن هذه العصمة المزعومة **مرفوضة من الناحية التاريخية،** فالانقسامات الكبرى التي فرّقت المسيحية كانت قد حدثت والبابا موجود، وهو المعصوم، فكيف يقود المعصوم الديانة إلى التفرق والتشتت، وكيف يحدث ذلك وهو باعتقادهم مؤيد بالحق بين ظهرانيهم؟ أم لم يكن معصوماً لأن العصمة لم تكن قد أُعلنت بعد؟

ولقد شهدت بعض العصور الدينية (عصر الانشقاق الديني) تعدداً في البابا، وذلك عندما حصل خلاف بين كنيستي روما وأفينيون، فأقام الأساقفة في أفينيون (بندكت الثالث عشر) في

---

(١) انظر: الشتيوي، المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية، ص٤٥٦-٤٥٧.
(٢) ديورانت، قصة الحضارة، ٣/٢١٤-٢١٥.
(٣) المرجع السابق، ٣/٢١٩.

منصب البابوية خارجين عن البابا المعتمد في رومة (بونيفاس التاسع)، ثم استُغني عن كلٍ منهما وتنصيب (الاسكندر الخامس)، لكن بندكت وبونيفاس لم يتخليا عن مهامهما ومنصبهما، فصار البابوات ثلاثة في وقت واحد، فكيف يصح أن يكون هؤلاء الثلاثة معصومين؟ بل لا بد من معصوم واحد.

الفصل الثاني
الشعائر الدينية المتعلقة بالعبادة
وفيه أربعة مباحث

المبحث الأول: الصلاة

المبحث الثاني: الصوم

المبحث الثالث: الزكاة (الصدقة)

المبحث الرابع: الحج في المسيحية

تمهيد: العبادة في المسيحية

تبين في الفصول السابقة شمولية الشعائر الدينية لكثير من نواحي التشريع المسيحي، وتضمّن الهيكل الشعائري في المسيحية الكثير من الأجناس العقائدية والفكرية والعملية، ومن المهم هنا أن نشير إلى أن المسيحية تفصل بين العبادة والأسرار، فمفهوم الأسرار كما تقدّم في الفصول الأولى هو فعل منظور ينال به المسيحي نعمة غير منظورة، أما العبادة فهي تشمل النواحي التشريعية والممارسات الواردة في العهد القديم، والتي يقرّها المسيحيون، وإن تضمّن إقرارهم بها تغييراً في الفحوى والجوهر، كالصلاة والصيام والزكاة (الصدقة) والحج.

ومن هنا تحظى العبادات المسيحية بأهمية واضحة لأنها **محط الأمر الإلهي في العهد القديم ومحل إقرارٍ من المسيحيين في العهد الجديد**.

وأهم العبادات التي ستكون محور الحديث في هذا الفصل هي **الصلاة والصيام والصدقة والحج**، وهذه العبادات بمجموعها تعدّ جنساً من الشعائر الدينية في المسيحية يتضمّن أنواعاً حسب ما صدقات مفهوم العبادة.

والجانب الشعائري واضح في هذه العبادات أنها **وصايا الله في الكتاب المقدس وتحمل معانيَ دينية في طياتها وتنظّم الممارسات البشرية تجاه الله**.

ويرى بعض الباحثين تسمية هذه العبادات بـ **(الطقوس)**[1]، ولعل الأولى تسميتها بـ **(العبادات)** لأن معنى الطقوس يختلف عنها، فالطقوس هي الخطوات التنظيمية التي تصحب أداء الأسرار والعبادات، فلكل عبادة أو سر نوع من الترتيبات الطقسية المصاحبة لأدائه.

وتكاد **الديانات السماوية تتفق على المبادئ العامة للعبادات الدينية**، مع الاختلاف في الجوهر المشار إليه سابقاً، فالصلاة والصوم والزكاة والحج هي محل إجماع على كونها عبادات في الأديان السماوية، لكن تستقل كل ديانة بتفصيل العبادات من حيثيات متعددة، كأوقاتها وشروطها وآدابها وقراءاتها وغير ذلك.

ولقد **تعددت أيضاً مناهج المأمورين بهذه العبادات بين التوسط والإفراط والتفريط** حسب أتباع كل ديانة من الديانات السماوية، فلقد **تميّز منهج الإسلام بالوسطية** التي تقوم على التوازن في تشريع العبادات وأحكامها، فجعل الله تعالى الأمة الإسلامية أمةً وسطاً، تتسم بالوسطية في دينها وعباداتها واعتدال منهجها بين المنهج القائم على التفريط والجفاء والمنهج القائم على الغلو والإفراط والرهبانية.

أما **التفريط** فقد كان **منهج اليهود** في عباداتهم، والمقصود بالتفريط في حق اليهود التعلق الشديد بالمادة، فتعاليم التوراة الحالية تقدّس المادة، وتجعل المطلب الأساس في العبادات والغاية القصوى منها هو الانتفاع المادي العاجل مع التفريط الشديد بالثواب الأخروي، فغالباً لا يعمل أحدٌ منهم أمراً إلا لتحقيق كسب عاجل، أو خوفاً من عقوبة عاجلة، أما المآلات الأخروية فهي ليست محط اهتمام بالنسبة لليهود، وهذا المقصود بالتفريط.

وأما **الإفراط** فهو **السمة التي اتسمت بها العبادات المسيحية عموماً**، وهو منهج يقوم على الغلو والتشدد في العبادة، والاهتمام بالروحانيات وإهمال المادة مطلقاً، فالرهبنة في المسيحية مثلاً تقوم على العنت والمشقة وتكليف النفس الإنسانية فوق طاقتها واحتمالها، ومن هنا أصبحت بدعة مشوهة مؤذية لمن يتمسك بها.

ولقد امتازت الديانة المسيحية بأنها ذات أصول شرقية استمدت خصائصها من البيئة اليهودية التي ولدت في أحضانها، التي سرعان ما انتفضت عليها لتُعلن ولادة دين جديد بعيد كل

---

(١) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٥٥٩.

البُعد عن الفكر اليهودي، متفوقة عليه في تعاليمها ومضامينها ومقاصدها التشريعية.

ويعزو (**شارل جينيبر**) تفوق الديانة المسيحية على غيرها من الديانات المعاصرة لها إلى **عاملين** هما: **الأصل اليهودي**، و**الواقع الإنساني للسيد المسيح**.(١)

وبناءً على ذلك فقد **تأثرت العبادات في المسيحية بخطّين**، أحدهما مباشر والآخر غير مباشر، **الأول يمثله التيار اليهودي بعباداته التقليدية**، وهي العبادات ذاتها التي سار عليها السيد المسيح في حياته، واقتفى أثره من بعده الرسل ثابتين عليها.

وكان هؤلاء الرسل يهود في الأصل، ومن هنا فإنه ليس من المستغرب أن يكونوا قد اقتبسوا شكل عباداتهم من اليهود، وهذا ما يشير إليه سفر أعمال الرسل، فقد ورد فيه: "وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب" [أعمال الرسل: ٤٦/٢]، لكن سرعان ما انتشر الاعتقاد بين المسيحيين بأن الذبائح المقدمة في الهيكل لم تعد ضرورية بعد أن صار الاعتقاد السائد أن موت المسيح كان الذبيحة الحاسمة التي قُدِّمت فداءً وضحيةً عن العالم، ومن هنا ابتدأ الخلاف بين اليهودية والمسيحية.(٢)

أما **الخط الثاني** الذي تأثرت به المسيحية بشكل غير مباشر **فهو الفلسفات الوثنية** التي خالطتها وانتشرت بين شعوبها، ومما يؤكد هذا الكلام ما ذكره الدكتور (محمد مجدي مرجان) من أن تلاميذ المسيح اضطروا إلى نقل دعوته إلى الشعوب الوثنية من أجل إحياء هذه الدعوة، فاعتنقها الرومانيون واليونانيون وغيرهم، ومن أجل الإبقاء على النصرانية بين تلك الشعوب فإنهم طعّموا وأدخلوا على الدين بعض الطقوس والعادات والشعائر التي كانت منتشرة بين تلك الشعوب الوثنية، وظنّ هؤلاء المبشرون أن هذا يقرّب الديانة المسيحية إلى أذهان الوثنيين، ومع مرور الوقت ستتطهر من تلك العادات والطقوس وستعود إلى صفائها، ودخل الناس في النصرانية، وغضَّ الحواريون الطرف عن هذه العادات والشعائر الدينية، وذلك للإبقاء على الديانة، ولعل الناس أن يستقيموا بعد ذلك على المنهج الصحيح، إلا أن الذي حدث هو عكس ما توقعه هؤلاء المبشرون، فلقد تغلَّبت تلك الطقوس والشعائر الوثنية، وطمست جوهر الرسالة السماوية العظيمة التي أتى بها المسيح.(٣)

وبناءً على العاملين السابقين **انقسمت مناطق انتشار المسيحية بعد رفع السيد المسيح عليه السلام إلى بيئات ثلاث** مختلفة كما يلي:

١- **بيئة دينية يهودية تتعصّب لتوراتها** وتنكر وتنبذ المسيحية والمسيحيين.

٢- **بيئة دينية يهودية مسيحية تتمسك بالتوراة والإنجيل**، وتؤلف بينهما، وبمحاولة التأليف المشار إليها تبنت هذه البيئة التوراة وأضاعت الإنجيل.

٣- **بيئة مسيحية بحتة**، تنكر التوراة ولا تتبناها، ويمثّل هذه البيئة الفلاسفة أو الحكماء، وهؤلاء نبذوا التوراة واعتبروا تراثها هو الحكمة والفلسفة والمحبة المثالية التي جاء بها الفكر الرواقي الذي هو خليط من نتاجات الفكر الوثني والمسيحية، واجتهد هؤلاء في أن يجعلوا المسيحية فكرة عالمية أممية شاملة، دون ربطها بأرض وشعب أو بعرقية خاصة.(٤)

---

(١) انظر: جينيبر، المسيحية نشأتها وتطورها، ص٢٠٥.

(٢) انظر: الموحى (عبد الرزاق)، العبادات في الأديان السماوية، ص١٤٤.

(٣) انظر: مرجان، الله واحد أم ثالوث، ص١٧٢.

(٤) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٤٤.

ومن الضروري في نهاية هذا التقديم أن نشير إلى أمر مهم هو أن **الطابع الوثني** الذي سبقت الإشارة إليه والذي طُبعت به عامة الشعائر الدينية المسيحية يظهر أوضح ما يكون في مجالي العقيدة والأسرار، أما في مجال العبادة التي هي محور الحديث في هذا الفصل والتي تتألف من (الصلاة والصيام والصدقة والحج) **فلا يظهر الأثر الوثني فيها بوضوح**، بل تبدو العبادات المسيحية خالية أو شبه خالية من الأثر الوثني السلبي، والسبب في ذلك هو **ترتيب هذه المجالات الثلاثة في سُلّم الأهمية ضمن الدين المسيحي**، وإذا ما أدركنا هذا الترتيب المهم (العقائد ثم الأسرار ثم العبادات) فسنجد أن الأثر الوثني امتد لما هو أولى في الدين المسيحي، وحاز التأثير على الجوانب ذات الأهمية الكبيرة والتي تحظى باعتبار قوي في المسيحية وهما (العقائد والأسرار)، أما جانب العبادات في المسيحية فهو أقل أهمية بكثير مما يحظى به المجالان السابقان، لذا فلم يعره الوثنيون اهتماماً ملحوظاً في طبعه بطابع الوثنية كما فعلوا في العقائد والأسرار السبعة.

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول إن العبادات المسيحية المشار إليها هي **في أصلها بقية ما تبقى من الدين السماوي** الذي بُعث به السيد المسيح عليه السلام، وذلك بغضّ النظر عن طقوسها وماهيتها الحالية.

المطلب الأول: تعريف العبادة وأحكامها:

جاء في **دستور الكنيسة الإنجيلية**: "العبادة هي توجيه الروح إلى الله بإخلاص واحترام، إما في حركة صامتة أو بتغيير خارجي".(١)

وبناءً على التعريف السابق يرى المسيحيون أن العبادة هي انتعاشة القلب الذي عرف الآب المعطي والابن المخلّص والروح القدس الساكن، وهي إظهار ورع وامتنان لله، وهي مشغولية القلب، ليس باحتياجاته ولا حتى ببركاته بل بالله نفسه.(٢)

المطلب الثاني: حكم العبادة: يرى المسيحيون أن العبادة وإفراد الله بها أمرٌ واجب على كل مسيحي، وهذا الوجوب يستدل عليه من أمرين أولهما طبيعي والثاني وضعي:

١- **الدليل الطبيعي:** المراد به **الناموس الغريزي الذي فُطرت عليه الجبلة البشرية**، ومعنى ذلك أن الإنسان مركب من حقيقتين هما الجسد والنفس، فالجسم مفطور على طلب الأغذية ومثل ما يتحقق هذا الأمر في الطبيعة البشرية كذلك أيضاً يتحقق الانطباع في النفس العاقلة على طلب التدين والعبادة، وافتقارها إلى السلوكيات التعبدية، لكي تقدم إلى الخالق واجباتها، وعليه تُظهر افتقارها بين يديه كافتقار الجسم للغذاء، وهذا الأمر طبيعي فطري، ولا يُعقل وجود إنسانٍ طبيعي لا يشعر بهذه الحاجة بالعبادة، لكن يختلف الناس في طرق إشباعها والتعامل معها.

٢- **الدليل الوضعي:** أما الدليل الثاني على وجوب العبادة فهو دليل وضعي، ومعناه عند المسيحيين أن المطلع على حوادث الشعب المختار وتاريخ مؤمني الأجيال المسيحية الأولى لا ريب أنه سيقتنع أن رجال الدين كانوا يقدّمون صلوات وتضرعات وعبادات مناسبة لأحوال الزمان وظروف الأوان، وهذا هو الدليل الوضعي على وجوب العبادة.(٣)

المطلب الثالث: أهمية العبادة:

للعبادة في المسيحية أهمية كبيرة من نواحٍ متعددة:

أ. **إنها أول وصية في الناموس (الوصايا العشر)**: "ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً،

---

(١) داود (مرقس)، دستور الكنيسة الإنجيلية بمصر، ص٣٩.
(٢) انظر: مجموعة الخدمة المسيحية، العبادة (السجود)، ص٣.
(٣) انظر: الأنبا إيسيذورس، مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، ص٦-١١.

أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة...." [خروج: ٢٠/١-٤].

يرى المسيحيون في هذا النص تأصيلاً لمبدأ العبادة الكتابية، فهو وإن اشتمل على معانٍ أخلاقية لكن هذه المبادئ تندرج ضمن العبادات الدينية، كما أن الأمر فيه بوجوب إخلاص العبادة لله وتفريده بها واضحٌ بيّن.

ب. **أوصى الله بإنشاء الخيمة والهيكل لغرض العبادة.**

ت. **علّم الله الكثير من الأنبياء كيفية العبادة،** كإبراهيم وموسى وإشعياء وداود وغيرهم.

ث. **العبادة ستكون مشغولية الأبدية.**(١)

وبناءً على ما سبق فإن موضوع العبادة في المسيحية هو الله وحده، "فإنك لا تسجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور إله غيور هو" [خروج: ٣٤/١٤]، لكن للمسيحيين في هذا التوحيد توجيه خاص، فهم يرون أنه لا يمكن للإنسان الخاطئ أن يسجد لإله قدوس، بشكل مباشر دون وسيط، لذلك فإن موضوع العبادة يتم عن طريق مخصوص هو دم يسوع المسيح كذبيحة مقبولة من الآب البار، "فإذاً لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع" [عبرانيين: ١٠/١٩].

المطلب الرابع: شروط العبادة:

يرتب المسيحيون للعبادة شروطاً لا تصح إلا بها، أهمها ما يلي:

أ. **يجب أن تكون العبادة روحية،** "الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" [يوحنا: ٤/٢٤].

ب. **يجب أن تكون العبادة متسمة بالإخلاص،** فالله ينظر إلى القلب ليرى إن كانت الكلمات التي في شفاه العبد حقيقية وخالصة له ومعبرة عن كيانه فيقبلها، وإلا فلا تصح.

ت. **يجب أن تكون العبادة بفهم،** فالمسيحيون يرون أن الله لا يمنح مكافآت عن جهل، بل يريد أن تكون للإنسان معرفة بما يعلّمه الإنجيل.(٢)

المطلب الخامس: معوقات العبادة:

يؤمن المسيحيون أن العبادة هي أعلى مهمة للمؤمن، ومن هنا فلا بد للشيطان أن يتسلّط عليه لأجلها ويحاربه فيها، فيحدث بسبب ذلك بعض المعوقات التي تؤثر على العبادة فتمنع من قبولها:

أ. **الإرادة الذاتية**: والمراد بذلك أن **يتكل الإنسان على نفسه في العبادة، ويترك الأمر الإلهي بها،** فيكون ذلك سبباً في عدم قبول العبادة، "وأخذ ابنا هرون ناداب وأبيهو كل منهما مجمرته وجعلا فيهما ناراً ووضعا عليها بخوراً وقربا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها، فخرجت نارٌ من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب" [لاويين: ١٠/١]، يعتقد المسيحيون أن هذا القربان من ابني هارون كان قرباناً ذاتياً، لم يأمر الله به، وأن ابني هارون لم ينصاعا لأمر الله في تقديم القرابين المعهودة عند بني إسرائيل.

ب. **التشبه بالعالم:** يؤمن المسيحيون أن الفرد المسيحي ينبغي أن **يتسامى عن أن يكون من العالم،** والمقصود بتسامي المؤمن عن العالم في الفكر المسيحي هو أن يعتقد المسيحي أن المسيح هو مركز ومحيط الحياة المسيحية، ولذلك فالعبادة الحقة في المسيحية هي أن يكون الإنسان بعقله وممارساته الجسدية مركزاً على المسيح نفسه، وانشغال الفكر والقلب عن المسيح

---

(١) مجموعة الخدمة المسيحية، العبادة (السجود)، ص٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥.

والتعلق بالماديات والأسباب هو التشبه بالعالم.

ت. **الروح المنتقدة: النقد الهدّام للآخرين** هو أحد معوقات العبادة "فإذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضكم بعضاً فانظروا لئلا تفنوا بعضكم بعضاً" [غلاطية: ١٥/٥].

ث. **الكسل:** وذلك حين **يتقاعس عن بذل الطاقة التي يحتاجها لعبادة الله،** "غير متكاسلين في الاجتهاد حارين في الروح عابدين الرب" [رومية: ١١/١٢]، فالكسل الروحي يؤدي بالعبادة إلى الفشل الذريع، فالواجب على العبد أن يستبدل الكسل الروحي باليقظة الروحية والهمة والنشاط الجسديين في العبادة.

ج. **القلق:** على الإنسان أن يتجنب القلق وأن يشغل فكره في حضرة الله متأملاً في صلاحه وأعماله، "وأما منتظروا الرب فيجددون قوة يرفعون أجنحة كالنسور يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيون" [إشعياء: ٣١/٤٠].

ح. **الشكلية:** تحمل الشكلية الإنسان على **التركيز على الطقس والترتيبات** فقط، وهذا يؤدي بصاحبه إلى إهمال الجانب القلبي والروحي في العبادة، وبذلك يخرج صاحبها عن معنى العبادة الحقيقية ويعيش في حدود المادة والطقوس.

خ. **روح عدم الغفران:** كي تكون العبادة مقبولة يجب على الإنسان أن **يُظهر الغفران والمسامحة مع جميع الناس.**

د. **افتخار الشخص بملكاته وإنجازاته وتعلمه ومنافساته** تعوق العبادة أيضاً.(١)

مما سبق يتبين أن **محور العبادة في المسيحية إنما هي الأمور الروحية** ولا عبرة بخصوص الأماكن أو الأحوال من الترتيبات الطقسية مع ما لها من أهمية، إنما العبرة بحصول الاتصال الروحي.

المطلب السادس: أشكال العبادة: يقسم المسيحيون العبادة إلى أشكالٍ ثلاثة هي (العبادة الانفرادية والمنزلية أو العائلية والجمهورية):

١- **العبادة الانفرادية:** وهي أن **يكرّس كل فردٍ مسيحي وقتاً لعبادة الله على خلوة من الآخرين.**

٢- **العبادة المنزلية (العائلية):** وهي أن **يدعو رب المنزل أهل منزله فيقيمون عبادة جماعية فيما بينهم.**

٣- **العبادة الجمهورية:** وهي أن **يجتمع مجموعة من المؤمنين في مكان واحد،** ويُمارسون عبادة جماعية.(٢)

---

(١) انظر: مجموعة الخدمة المسيحية، العبادة (السجود)، ص٦.

(٢) نوري، إيمان المسيحي وواجباته، ص٩٠.

المبحث الأول: الصلاة

تعدّ **الصلاة في المسيحية ركناً من أركان الدين** العظمى، وهي أسمى امتيازات الإنسان المؤمن؛ فبواسطتها يقترب الإنسان من الله في المسيح، ويسكب أمامه سُؤل قلبه كطفل يلتمس من أبيه حاجاته.

ولقد قال بعض المسيحيين إن الدين هو عبارة عن قلب مقتنع بوجود الله، **والصلاة هي ترجمان ذلك القلب،** يعبّر بها عما يخالجه من الأشواق والعواطف، فبالنظر إلى اقتناع القلب بقداسة الله فإن الصلاة تمثّل كلمات التعظيم والتسبيح له، وبالنظر لإيمان القلب بجود الله وإحسانه فإن الصلاة هي عبارات الشكر والحمد، وبالنظر لوقوع الإنسان في الخطيئة فإن الصلاة هي كلمات التذلل والتواضع والاستغفار، وبالنسبة لاحتياج الإنسان إلى الله فإن الصلاة طلبات ودعاء من العبد لينال الخير والغفران والرحمة من الله.(١)

المطلب الأول: تعريف الصلاة وحكمها وأدلتها:

أولاً: تعريف الصلاة:

الصلاة **في اللغة:** أصلها في اللغة الدعاء، وسمّيت الصلاة المعروفة بهذا الاسم من باب تسمية الشيء ببعض أجزائه، وقيل إن الصلاة في أصل اللغة هي التعظيم، وسمّيت الصلاة المخصوصة بذلك لما فيها من تعظيم الله وتقديسه، **وهي أيضاً الركوع والسجود،** وجمعها صلوات، وهي من الملائكة دعاء واستغفار، ومن الله رحمة، وبذلك سُمّيت الصلاة لما فيها من الدعاء والاستغفار، والصلاة أيضاً لزوم ما فرضه الله تعالى.(٢)

أما **التعريف الاصطلاحي** للصلاة في المسيحية فلقد وردت تعريفات كثيرة لها في كتب اللاهوت المسيحي، أهمها:

١- يقول القمص **(يوحنا سلامة)**: "الصلاة معناها لغةً الدعاء، وفي الاصطلاح الديني ارتفاع العقل إلى الله وسكب النفس أمامه، أو بالصراخ إليه والاقتراب له والتضرع أمامه، أو مناجاة الروح خالقها فيما يجلب رحمة ويستمطر بركة ويدفع كربة ويرفع نقمة، وهي لازمة لكل امرئ لزوم الغذاء للجسد والهواء للتنفس والماء للارتواء".(٣)

٢- يقول **(ابن عسال)**(٤): "الصلاة مخاطبة الإنسان للإله تعالى بشكره وتمجيده والإقرار بربوبيته، وبالاعتراف له بذنوبنا والطلب منه ما يرضاه لنا".(٥)

٣- يقول القمص **(لوقا الأنطواني)**: "الصلاة هي رفع العقل والقلب إلى الله، أي صلة المخلوق بالخالق، أو هي رفع النوع الإنساني نحو الآب السماوي وليس شرود الفكر في الأمور الدنيوية .... مع الحب والشكر على النعم التي أسبغها الله على الإنسان مع الندم على ما اقترفه

---

(١) انظر: نوري، إيمان المسيحي وواجباته، ص٨٣.

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (صلا)، ٤٦٤/١٤، والرازي، مختار الصحاح، مادة (ص ل ا)، ص١٧٨.

(٣) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١٢٩/١.

(٤) هو أسعد بن إبراهيم بن جرجس بن أبي البشر ابن العسال (أبو اسحاق) عالم لاهوتي، عاش في القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي، من تصانيفه: (مجموع أصول الدين ومسموع محصول اليقين) ويعرف بـ (المجموع الصفوي)، و(تفسير رسائل ماربولس الرسول)، و(تفسير رؤيا ماريوحنا)، و(التبصرة المختصرة في العقائد النصرانية)، انظر: عمر بن رضا كحالة الدمشق، معجم المؤلفين، ٢٤٤/٢.

(٥) ابن عسال، المجموع الصفوي، ص١٥٦.

من أخطاء".[١]

وماهية الصلاة في المسيحية هي محادثة ومخاطبة المخلوق للخالق، والإنسان للإله، ويتم ذلك بأقوالٍ إلهية مناسبة لذاته العلية، وتلك الأقوال منقسمة إلى نوعين بحسب صدورها من المصلي، **فقد تكون وضعية**، أي معينة من قِبل الكنيسة، و**قد تكون تأليفية يرتجلها الإنسان** في ختام صلواته، وكلتاهما مشروعة وواجبة في الصلاة، فالأولى المحددة من الكنيسة هي مزامير النبي داود، وهي إعلانات من العهد القديم يعتقد المسيحيون أنها تنعش النفس الميتة، وترطب العقل القاسي، وتليّن الأفكار القاسية، وأما الثانية الارتجالية فهي التي تكون في ختام الصلاة، وتكون غالباً موافقة لمتطلبات الزمان وأحوال الداعي بها، وهي كذلك لازمة لكن ليس بالمقدار الذي يجب به النوع الأول؛ لأن كثيراً من الناس لا يستطيعون أن يرتجلوا بالدعاء.[٢]

ثانياً: أدلة الصلاة في المسيحية:

يستدل المسيحيون في هذا المقام بالكثير من الأدلة الواردة في الكتاب المقدس، منها:

١- الأدلة العامة:

وهي الأدلة التي تشير إلى أن المسيح كان يصلي في حياته، ويلتزم هذه الفريضة ولا يتركها، وهي كثيرة منها:

- "وإذ كان يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس" [لوقا: ٢٢/٣].
- "وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله" [لوقا: ١٢/٦].

٢- الأدلة التعليمية:

وهي الإعلانات التي تشير إلى تعليم المسيح الصلاة لتلاميذه، وتلقينهم أدعيتها، أهممها:

- "وإذ كان يصلي في موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه يا رب علمنا أن نصلي كما علم يوحنا أيضا تلاميذه، فقال لهم متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم، واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير" [لوقا: ١/١١-٤].

ثالثاً: حكم الصلاة في المسيحية:

يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح دعا أتباعه إلى الصلاة، وعلّمهم إياها وأمرهم بالتزامها وحضّهم عليها، وسيأتي بيان أوقات الصلاة بالتفصيل، بالإضافة إلى اختلاف المسيحيين في تعيين الأوقات، وتتضح دعوة السيد المسيح إلى الصلاة بما يلي:

١- دعوته إلى الصلاة بدون انقطاع: "وقال لهم أيضاً مثلاً في أنه ينبغي أن يصلى كل حين ولا يمل" [لوقا: ١/١٨]، فاتخذ المسيحيون من هذا المعنى قاعدة ليشدوا منها قوة الرباط بينهم وبين الله تعالى، فعمدوا في القرون المسيحية الأولى إلى أن يحددوا للصلاة محطات تجعلهم على الدوام في اتصال دائم مع خالقهم، بعد أن كانوا لا يؤيدون هذا التحديد لظنهم أن ذلك ينافي القاعدة السابقة، فقاموا بتقسيم النهار بين العمل والصلاة.[٣]

٢- التأكيد على الروحانية دون الشريعانية:

---

(١) الأنطواني (لوقا)، المواعظ الإلهية لقدسات آحاد وأعياد السنة القبطية، ص٢٧-٢٨.
(٢) انظر: إيسيذورس، مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، ص٢٠، ٢٥.
(٣) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٥٤.

أكد المسيح في صلاته على السلوك الروحاني والنظرة الإيجابية الصادقة لله تعالى من دون مباهاة أو رياء، "متى صليتم فلا تكونوا كالمرائين" [متى: ٦/٥]، ومعنى الشريعانية أي أن السيد المسيح لم يُلزم أتباعه بفرض عبادة محددة بطقوس محددة، بمعنى أن الصلاة ليس لها صفة الفريضة الشرعية، وحتى بعد رفعه وحصول القطيعة بين اليهود والمسيحية عام ٧٠م واضطرارهم لإقامة شعائر خاصة بهم ومع ذلك لم يقيموا طقساً ثانياً للصلاة، وعند ذلك أخذوا يتلون الصلاة ثلاث مرات في اليوم دون تحديد أوقات معينة.(١)

وبناءً على دعوة السيد المسيح إلى الصلاة بدون انقطاع وعلى كون الصلاة مرتكزة على الأمور الروحية التي تنال النصيب الأعظم في التشريع المسيحي فقد صنّف علماء اللاهوت الصلاة ضمن الواجبات.

إذاً فالصلاة في المسيحية ضرورةً على كل فرد من المسيحيين، **ومصدر هذا الحكم بضرورتها** ما يلي:

١- **الشعور بلزومها ووجوبها**: فإذا لم يكن شعور فلا تكن صلاة، ووجود الصلاة دون هذا الشعور يجعل منها طقساً لا فائدة منه، ولا ينال بها المؤمن شيئاً من المقاصد الروحية التي شُرعت لأجلها.

٢- **الاحتياج مطلقاً**: لا فرق بين الاحتياج حسب حاجات الروح أو حاجات الجسد، وإذا كان الجسد لا يحيا إلا بالطعام الذي مصدره الأرض والموافق لطبيعته الأرضية فكذلك الروح لا تحيا إلا بطعامها الروحي السماوي، وهو كلمة الله وخبز الحياة الأبدية، ولا يُنال هذا الطعام النفيس إلا بالصلاة، "فأجاب وقال مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله" [متى: ٤/٤].

٣- **الاشتياق العظيم إلى الله والرغبة الأكيدة في تسبيح جلاله** وشكره على ما وهب وأسبغ من آلاء.(٢)

وليست الصلاة في المسيحية ضرورية لأداء الشكر على النعمة فقط، بل لالتماس المساعدة الدائمة من الله، لأن الإنسان محوط بضيقات كثيرة وتجارب متعددة من العالم والجسد والشيطان، وكل واحدٍ من هؤلاء يناصبه العداء، والوسيلة الوحيدة التي يُقابل الإنسان بها هذه المصاعب هي الصلاة، "البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكائد إبليس .... وخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله، مصلين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح" [إفسس: ٦/١١-١٨].

المطلب الثاني: أهمية الصلاة وشروطها وكيفيتها:

أولاً: أهمية الصلاة في المسيحية:

وتتضح أهمية الصلاة في المسيحية أكثر **بالميزات والفضائل** التي تشتمل عليها الصلاة، وأهمها ما يلي:

١- الصلاة هي جوهر الحياة الدينية والممارسات المسيحية.

٢- الصلاة هي من طبيعة النفس الإنسانية؛ لأن الدين طبيعة النفس وجوهرها، والصلاة أهم ما في ذاك الجوهر.

٣- الصلاة هي المظهر الحقيقي المبرز للحياة الإنسانية التي لم تحجبها غيوم الآثام، ولم تلهُ بها

(١) انظر: إسحاق (جاك)، مجلة ما بين النهرين، العدد ٧٩، عام ١٩٩٣، ص٥٦.
(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/١٣١-١٣٢.

الأوهام.
٤- الصلاة إشعار للإنسان بحقيقة نفسه.
٥- الصلاة اتصال مباشر بين القلب والله.
٦- الصلاة هي المصدر الحقيقي لحياة الإيمان، وهي بمنزلة نبضات قلب الحياة الروحية الجديدة بالنسبة للمؤمن.(١)

ثانياً: شروط الصلاة المسيحية:

عملاً بالأهمية والمكانة السابقة يرتب المسيحيون شروطاً لا بد منها في تقديم الصلاة **حتى تكون تامة ومقبولة ومنتجة للثمرة الروحية المنشودة** منها.

١- أن تقدّم باسم المسيح:

يؤمن المسيحيون أن جميع أعمال الإنسان حتى تكون مقبولة من الله لا بد أن تكون **عن طريق المسيح الفادي**، وأن تكون مقدّمة باسمه، ويستدلون على ذلك بقول المسيح: "وفي ذلك اليوم لا تسألوني شيئاً الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم، إلى الآن لم تطلبوا شيئا باسمي اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً" [يوحنا: ١٦/٢٣-٢٤]، من هنا حصر المسيحيون جميع الممارسات الدينية لا سيما المشتملة على الطلبات والأدعية كالصلاة بوجوب تقديمها باسم السيد المسيح.

ويربط المسيحيون بين هذا الشرط الجوهري الأساس وبين قضية الصلب والفداء المعلومة في المسيحية، فالإنسان بسبب خطاياه أُقصي عن الحضرة الإلهية، وأصبح في شقاءٍ دائم، ومع هذه الحال لا يمكن أن تُقبل منه الأعمال، لكن لما حصل الفداء بدم المسيح كفارة عن خطايا البشر زال بُعد الإنسان عن الله، بل أصبح قريباً منه بسبب فداء المسيح له، وبناءً على ذلك أصبح من الواجب الأدبي على الإنسان أن يُقدّم جميع أعماله إلى الله عن طريق يسوع المسيح الذي فداه وأعاد تقريبه إلى ربه، "ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح" [إفسس: ٢/١٣](٢)، فالصلاة باسم المسيح في الفكر المسيحي هي صلاة حسب الاستحقاق، لكن هذا ليس الاستحقاق البشري، بل استحقاق المسيح على البشر، كما أن تقديمها باسم المسيح يوحّد بين إرادة المسيح وإرادة المصلي بحيث تصير طلبات المصلي هي طلبات المسيح، وصلاحه هو صلاح المسيح، فيصبح وكأن المسيح فيه ولأجله.(٣)

٢- أن تُقدّم بالإيمان أو أن يسبقها الإيمان:

الإيمان شرط جوهري أساس للصلاة، وهو في الفكر المسيحي المفتاح الذي يفتح للإنسان كنوز السماء، وبدونه تكون الصلاة عقيمة، "كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم" [مرقس: ١١/٢٤]، ويقول يعقوب: "ولكن ليطلب بإيمان غير مرتاب البتة، لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئاً من عند الرب" [يعقوب: ١/٦-٧].

و**قبل أن يؤمن الإنسان بإجابة طلباته عليه أن يعرف إرادة الله وما يوافقه من الطلبات وما**

---

(١) انظر: المسكين (متى)، حياة الصلاة، ص٩٥، وتاضروس (موريس)، أضواء على الإيمان المسيحي، ص٣٤.

(٢) انظر: نوري، إيمان المسيحي وواجباته، ص٨٣، والموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٥٨، وسلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/١٣٦.

(٣) انظر: نوري، إيمان المسيحي وواجباته، ص٨٣.

لا يوافقه، وحين يتمتع الإنسان بهذا الإيمان فإن صلاته ستكون مقبولة، وقد نال الكثير من الأتقياء طلباتهم بها، يقول (بولس) عن إبراهيم: "ولا بعدم إيمان ارتاب في وعد الله بل تَقَوّى بالإيمان معطياً مجداً لله، وتيقن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضاً وبحسب إيمانه أعطاه الله" [رومية: ٤/٢٠]، كما أن المرأة الكنعانية نالت من المسيح شفاء ابنتها بالإيمان، حتى مدح المسيح إيمانها قائلاً: "يا امرأة عظيم إيمانك ليكن لك كما تريدين" [متى: ١٥/١٨]، ومن هنا فإنه يجب أن يكون الإيمان أساس الصلاة.(١)

والشرطان السابقان هما محل إجماع من المسيحيين، فلا يصح تقديم الصلاة إلا بوجودهما، ويضيف بعض علماء اللاهوت شروطاً أخرى ثانوية، هي أقل أهمية من الشرطين السابقين، أهمها:

١- أن تكون بانسحاق لا بكبرياء وتشامخ.
٢- أن تكون بلجاج وإلحاح.
٣- أن تكون بمواظبة بدون انقطاع.
٤- أن تكون حسب مشيئة الرب بالنسبة لاستجابتها وقبولها، أي أن يفوّض صاحبها أمرها إلى الله.
٥- أن تكون بحرارة وثبات؛ إذ لا فائدة أن يطلب المرء اليوم شيئاً ويتركه غداً.
٦- أن تكون بإصغاء وانتباه.
٧- أن تكون قلوبنا متصالحة مع الجميع، خالية من أدران الحقد.
٨- يجب على المصلي لكي يسمع الله صلاته أن يسمع هو كلام الله ويعمل به.
٩- يجب على المصلي أن يكون صفوحاً عن زلات الغير.(٢)

أما عن **اشتراط الطهارة والوضوء** للصلاة فيرى المسيحيون أن التعاليم المسيحية **لا تفرض على الإنسان المصلي لله أن يتوضأ أو يغتسل قبل الصلاة بأية طريقة؛** لأن المسيح يريد قلوباً نظيفة وأفكاراً نقية تتجه إلى الله بإيمان، لذلك يمكن للإنسان أن يصلي في عمله أو بيته أو مدرسته دون أن يسبق صلاته وضوء أو اغتسال، فالمهم في الأمر هو الاختلاء بالله والشركة معه بغضّ النظر عن الزمان والمكان.(٣)

ثالثاً: كيفية الصلاة:

تشتمل الصلاة في المسيحية على حركات وهيئات متعددة، تدور كلها حول وجود الدعاء والتضرع به إلى الله، ولقد سبقت الإشارة إلى أن القراءات في الكنيسة وضعية وارتجالية، وكذلك لا توجد هيئة معينة ثابتة للصلاة.

ولقد ترتب على هذه السعة في هيئات الصلاة اختلافٌ بين الطوائف المسيحية في الهيئة المعتمدة في الصلاة، لذلك يقول (أبو زهرة): "ليس للصلاة في النصرانية ترتيب خاص، إنما هي أدعية تختلف من مكان إلى مكان، وغاية ما يلزم أن تحويه أن تكون على نسق الصلاة الربانية التي قدّمها لهم المسيح، وهي: أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك".(٤)

يتضح مما سبق أن الصلاة في المسيحية لا تتقيد بوضع معين ولا باتجاه معين، لكن غالباً

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/١٣٦.
(٢) انظر: نوري، إيمان المسيحي وواجباته، ص٨٤-٨٥، وسلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/١٣٧-١٣٩.
(٣) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٦٧٧.
(٤) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١١٣.

ما يتم الاتجاه أثناء أدائها نحو أورشليم، مستدلين بأن دانيال النبي كان يصلي متجهاً إلى أورشليم، "فلما علم دانيال بإمضاء الكتابة ذهب إلى بيته وكواه مفتوحة في عليته نحو أورشليم فجثا على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم وصلى وحمد قدام إلهه كما كان يفعل قبل ذلك" [دانيال: ٦/١٠]، وبعد ذلك صار اتجاه القبلة إلى الشرق كما سيأتي بيان ذلك.

أما كيفية أداء الصلاة في المسيحية فتتألف من الخطوات التالية:

١- الوقوف على القدمين.
٢- شد الوسط بالزنار.
٣- التوجه بالوجه إلى الشرق.
٤- الرشم بالأصبع مثال الصليب من فوق إلى أسفل ومن الشمال إلى اليمين.
٥- تلاوة ألفاظ الصلاة بخوف ورعدة تلاوة يكون الروح متحركاً نحو الباري.
٦- ومما يستحب في الصلاة رفع الأيدي مبسوطات الأكف لا سيما أوقات الطلبات.
٧- ورفع العينين إلى العلو.
٨- ودق الصدر عند الاستغفار ندماً على ما فرط من المعاصي، وأسفاً على ما فات من العمر بغير عمل صالح.
٩- والبكاء لمن يمكن.
١٠- ويتم أثناء الصلاة قراءة الصلاة الربية.[١]

رابعاً: عدد الصلوات ومواقيتها[٢]:

لم يرد في الكتاب المقدس تحديد عدد الصلوات التي يجب على المؤمن أن يصليها، لكن اليهود في العهد القديم كانوا يعبدون الله في الهيكل صباحاً ومساءً، ومن هنا فإنه من الواجب على المسيحي أن يصلي على الأقل مرتين في اليوم.

ويؤمن المسيحيون أنه رغم عدم تعيين المسيح لأعداد الصلوات المكتوبة استلمت الكنيسة تعيين أوقات الصلاة من الرسل أنفسهم، ولقد جاء في أوامر الرسل (الديداخي) أن يصلّي المؤمنون سبع مرات في اليوم في ساعات معينة[٣]، على النحو الآتي:

١- **صلاة الساعة الأولى**: وتسمى صلاة (باكر) وصلاة (الفجر) وصلاة (السحر)، ويتم أداؤها في بداية النهار مع الفجر لأن الصبح أو الفجر هو بداية ظهور النور الطبيعي، وقد رتّبت الكنيسة خدمة الصلاة في هذا الوقت لتذكّر رعاياها بظهور النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان "كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم" [يوحنا: ١/٩]
٢- **صلاة الساعة الثالثة**: رتبت الكنيسة الصلاة في هذا الوقت للتذكير بحادثة العنصرة التي حلّ فيها الروح القدس على التلاميذ وكان ذلك في الساعة الثالثة من بداية النهار، وفيها يطلب المصلون من الله الذي وهب التلاميذ الروح القدس أن يمنحهم إياه ويجدده في أحشائهم روحاً مستقيماً وقلباً نقياً يخلقه فيهم.
٣- **صلاة الساعة السادسة**: وتصلّى هذه الصلاة عند الظهيرة، وسبب تحديد الصلاة فيها التذكير بصلب المخلّص الذي تم في هذه الساعة من النهار، وما احتمله من آلام وأوجاع وتعذيب وهو معلّق على الصليب "ولما كانت الساعة السادسة كانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة

---

(١) انظر: المسكين (متى)، توجيهات في الصلاة، ص٧-٩، وجرجس، خلاصة الأصول الإيمانية في معتقدات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ص٣٤.
(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/١٤٩-١٥٥.
(٣) انظر: إيسيذورس، مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، ص٣٨.

التاسعة" [مرقس: ١٥/٣٣].

٤- **صلاة الساعة التاسعة**: رتبت الكنيسة الصلاة في هذه الساعة تذكاراً بالساعة التي مات فيها يسوع وأسلم فيها الجسد على الصليب، "ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً إيلي إيلي لما شبقتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني، فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادي إيليا، وللوقت ركض واحد منهم وأخذ اسفنجة وملأها خلاً وجعلها على قصبة وسقاه، وأما الباقون فقالوا اترك لنرى هل يأتي إيليا يخلصه، فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح" [متى: ٢٧/ ٤٦-٥٠].

٥- **صلاة الساعة الحادية عشر**: وتسمى صلاة الغروب، ورتّبت الكنيسة الصلاة في هذه الساعة تذكاراً للساعة التي أُنزل فيها جسد المسيح عن الصليب، "ولما كان المساء جاء رجل غني من الرامة اسمه يوسف وكان هو أيضاً تلميذاً ليسوع، فهذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع فأمر بيلاطس حينئذ أن يعطى الجسد، فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقي" [متى: ٢٧/٥٧]، ويصلي المسيحيون هذه الصلاة شكراً للمسيح الذي مات لأجلهم، وبموته أكمل الفداء واستراح من عمله وأراحهم من لعنة الخطيئة.

٦- **صلاة الساعة الثانية عشر**: وتسمى صلاة النوم، ورتّبت الكنيسة الصلاة في هذا الوقت تذكيراً بالساعة التي وُضع فيها يسوع في القبر، "وجاء أيضاً نيقوديموس الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حامل مزيجاً مراً وعوداً نحو مئة منا" [يوحنا: ١٩/٣٩]، كما أن الصلاة في هذا الوقت تشير أيضاً إلى آخر ساعة من عمر الإنسان، وبما أن النوم يذكّر الإنسان بالموت فإنه يجب على الإنسان أن يظهر التوبة والندامة في هذه الصلاة ويطلب الرحمة والغفران.

٧- **صلاة نصف الليل**: تقسم إلى ثلاث صلوات وهي (الهزيع الأول والثاني والثالث):

- **فصلاة الهزيع الأول** تُذكّر بمجيء المسيح الثاني الذي سيأتي العالم فجأة كاللص في نصف الليل، "لأنكم أنتم تعلمون بالتحقيق أن يوم الرب كلصّ في الليل هكذا يجيء" [تسالونيكي١: ٥/٢]، وغاية الكنيسة من ترتيب الصلاة في هذا الوقت هو تحريض النفس على التحلي بلباس الفضيلة والاستعداد لملاقاة يوم الرب.

- **صلاة الهزيع الثاني:** تذكّر بيوم الدينونة، وتحث على التوبة والندامة وطلب الرحمة قبل أن يأتي يوم الدينونة.

- **صلاة الهزيع الثالث** تحثُّ النفس على السهر واليقظة، حتى إذا جاء ابن الإنسان وجدهم ساهرين منتظرين له.

أما **تحديدها بسبع** لا أكثر فللأسباب الآتية:

١-**لأن مواهب الروح القدس سبع**، "ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب" [إشعياء: ١١/٢].

٢-**اقتداءً بداود النبي** الذي قال "سبع مرات في النهار سبحتك على أحكام عدلك" [مزامير: ١١٩/١٦٤].

٣-**لأن السبعة عدد كامل وُضع لسبعة أرواح الله**، "ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة أرواح الله" [رؤيا يوحنا: ٤/٥].(١)

وأما **تخصيص هذه الساعات** المعينة للصلاة فيها **فلأن أنبياء الله والرسل أصحاب المسيح كانوا يصلون في هذه الساعات بالتحديد حسب الاعتقاد المسيحي**.

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١٤٧/١.

بالإضافة إلى ما تقدم **يذهب بعض علماء اللاهوت المسيحي إلى أن الصلاة عندهم ليس لها عدد معين** من الصلوات كل يوم، كما أنه ليس لها مواقيت معلومة، بل كل ذلك قد وكل إلى نشاط المصلين ورغبتهم في العبادة.(١)

وأصحاب هذا الرأي يستدلون بما جاء في إنجيل لوقا في الإصحاح الثامن عشر ما نصه: "وقال لهم أيضاً مثلاً في أنه ينبغي أن يصلى كل حين، ولا يملّ" [لوقا: ١/١٨].

ورد في شرح إنجيل لوقا: "ينبغي أن يصلى كل حين ولا يملّ "هنا ترى أن صلاة المثابرة واللجاجة ليست من الأمور الممكنة فقط، ولكنها من الأمور الواجبة، فهي فرض عين لا فرض كفاية، وهذا خلاف ما علم به التلمود، محظور على الإنسان أن يصلى أكثر من ثلاث مرات في النهار، لأن الله يملّ الصلاة كل ساعة، ولقد أوصى المسيح بالصلاة من غير ملل لعلمه أن صلاة الروح تعب على الجسد، سيما إذا تأخرت الإجابة، فالروح نشيط والجسد ضعيف، وجاء في آخر رسالة بولس إلى أهل تسالونيكي "صلوا بلا انقطاع".(٢)

خامساً: أشكال الصلاة في المسيحية:

يتم أداء الصلاة في المسيحية حسب أشكال العبادة التي سبق بيانها في المطلب السابق، هناك الصلاة الفردية والجماعية أو الجمهورية والمنزلية أو العائلية.

١- **الصلاة الفردية:** وهي التي يؤديها المسيحي منفرداً، **والأفضل فيها ألّا يدع أحداً يطلع عليه أثناء أدائها،** "وأما انت فمتى صلّيت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية" [متى: ٦/٦]، كما أننا إذا تصفحنا الإعلانات الواردة في الإنجيل سنجد أن جميع الإعلانات التي تتكلم عن صلاة المسيح إنما تتكلم عن صلاة فردية، أي أن صلاة المسيح كلّها كانت فردية، ومن أمثلة الصلاة الفردية عند المسيحيين صلاة داود الواردة في المزامير: "اسمع يا الله صراخي وأصغ إلى صلاتي....." [مزامير: ٢/٦١]، وصلاة اللص على الصليب: "ثم قال ليسوع اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك....." [لوقا: ٤٢/٢٣]، وغيرها.

٢- **الصلاة الجماعية أو الجمهورية:** وهي الصلاة التي يشترك في أدائها جماعة من المسيحيين في الكنيسة أو خارجها، وفي أيامنا تعتمد الكنيسة على كتب تجمع الابتهالات والطلبات التي تتم قراءتها عادة في الصلاة الجماعية، تُعرف هذه الكتب بـ (الأنافورا) و(القطمارس)، ويتم عادة قراءة جزء من المزامير في بداية هذه الصلاة ثم يتبع ذلك قراءة الابتهال والدعاء، يقول صاحب كتاب (الصلاة مفتاح النهضة): "الصلاة الكنسية واحدة من أهم الخدمات التي نقدّمها في كنيستنا هي الصلاة الجماعية أثناء كل فترة من فترات العبادة التي تُقام بالكنيسة، فنحن عادة نفتتح عباداتنا بفترة صلاة جماعية يصلي فيها الجميع في وقت واحد".(٣)

٣- **الصلاة العائلية (المنزلية):** وتُؤدى هذه الصلاة بأن يجمع الرجل أهل بيته زوجته وأولاده، وتتم فيها قراءة بعض المقاطع من الكتاب المقدس، ثم يدعو ويطلب لهم المغفرة والبركة من الله، وليس لهذه الصلاة وقتٌ محددٌ تُؤدى فيه، فربما يكون ذلك على مائدة الطعام، أو قبل النوم أو في أي وقت كان، ولا بد في تمامها من توفير جو من الثقة والاطمئنان بين أفراد العائلة، وذلك بإتاحة وقتٍ كافٍ للمشاركة بينهم بحيث يعبّر كل شخص عن مشاكله وآرائه أمام

---

(١) انظر: نوري، إيمان المسيحي وواجباته، ص٨٧.
(٢) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٣٤.
(٣) واي شو (بول)، الصلاة مفتاح النهضة، ص٧٩.

بقية الأفراد.[١]

ومن المعلوم وجود أنواع أخرى من الصلاة في المسيحية، كالصلاة من أجل الموتى والمرضى والمسافرين، والصلاة من أجل المتألمين، وصلاة الشكر، والصلاة لأم الإله، وغيرها كثير.[٢]

المطلب الثالث: القيم والمعاني الروحية في الصلاة:

كان اليهود يصلون ثلاث مرات في اليوم، ويؤمنون أن الصلاة أرقى درجات الواجبات الدينية، وأعظم من كل الأعمال الصالحة، ولكن **المرائين من اليهود جعلوا الصلاة طقساً خالياً من العلاقة الروحية مع الله،** وكذلك كانوا يهتمون بحكم الناس عليهم ونظرتهم إليهم، ويريدون أن يعرفهم الناس أنهم أصحاب تقوى وورع، فكانوا يصلون في المجامع ليراهم جمهور العابدين، وفي زوايا الشوارع ليراهم الناس، وكانت صلاتهم للناس ليُسمعوهم كلمات المديح، ولم تكن نابعة عن محبة الله، ولا عن رغبتهم بأن يتصلوا بالله وأن يُنشؤوا العلاقات الروحانية مع الله، إنما كانت صلاتهم حباً للظهور، وإشباعاً لذواتهم من مدح الناس.

فلما جاء **المسيح طالب تلاميذه أن تكون صلاتهم بينهم وبين الله؛** وذلك لتكون للرب وليس للناس، وعلّمهم أن الله لا يهتم بكلمات الصلاة قدر ما يهتم بحالة المصلي الروحية، وعلّم أيضاً تلاميذه ألّا يعتمدوا على كثرة كلامهم في الصلاة فيكرروا باطلاً؛ لأن الصلاة ليست كلمات تُتلى، بل هي علاقة محبة لله وحوار حب معه، وأكّد المسيح لتلاميذه أن الله يعرف احتياجاتهم من قبل أن يسألوه؛ لأن الله ليس محتاجاً لمعرفة ما يحتاجه الناس، ولا لتكرار الطلب، لكنه يحب أن يخاطبه شعبه ويستند عليه ويلجأ إليه دائماً "لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه" [متى: ٦/٨].

بناءً على ما سبق **حَصَرَ المسيحيون المعاني الروحية للصلاة في المسيحية في ثلاثة معانٍ، المعنى الأول التمجيد أو التسبيح أو التقديس، والمعنى الثاني التشكر أو الحمد أو الثناء أو الاعتراف، والمعنى الثالث الطلب أو الدعاء أو الاستغاثة.**

ويرى المسيحيون أنه **من الواجب أن تشتمل الصلاة في المسيحية على هذه المعاني الثلاثة** كي يكون صاحبها عابداً بالروح والحق، ومَن اقتصر في صلاته على استحضار معنى من هذه المعاني وترك الباقي فقط أخطأ؛ لأن كلاً من هذه المعاني لازم، ومن الضروري أن يؤديه المصلي على جهة الوجوب؛ إذ النفس لا غنى لها عن الفوائد المرتبطة بكل معنى من هذه المعاني.

وباعتبار أن المعاني السابقة ضرورية ولا يمكن للإنسان أن يستغني عنها فقد أوجب المسيحيون القراءة من سفر (المزامير) في الصلاة؛ وسبب هذا الوجوب أن المزامير بمعانيها الواسعة والشاملة تشتمل على جميع المعاني السابقة المشار إليها، وسيأتي تفصيل بعض هذا الأمر بعد صفحات قليلة.[٣]

ويرى المسيحيون أنه إذا نجح المصلي باستحضار المعاني السابقة في الصلاة فإن نتاج ذلك سيكون عظيماً؛ لأن لهذه المعاني انعكاساً روحياً قوياً على نفس الإنسان المصلي، ومن نتائج هذا الانعكاس هو النشاط الداخلي الذي يشعر به المؤمن ويستقر في نفسه، **ولهذا النشاط فاعليته في نفس الإنسان، وتتجلى فاعلية هذا النشاط بما يلي:**

---

(١) انظر: واي شو، الصلاة مفتاح النهضة، ص٧٠.
(٢) انظر: درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، ص٦٧١.
(٣) انظر: إيسيذورس، مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، ص٣٥-٣٦.

١- **تحرير النفس**: وذلك يتم بإقصاء الشرير ورفع الخطيئة عن الإنسان، ولذلك طريقه المخصوص بأن يقاوم الإنسان فكره، ولا يخضع لتلذذ الأفكار الشريرة، فيؤدي هذا إلى استئصال الشر من النفس البشرية، لكن هذا الاستئصال إنما يتم بالقوة الإلهية التي تكون عوناً يرسله الله للإنسان حين يرى جهاده وصبره ضد الشر، ونيته الصالحة للخير.

٢- **تنقية القلب:** حتى لا يصدر من المسيحي حكمٌ على أحدٍ مهما كان، بل من الواجب عليه أن يُري جميع الناس بنية طاهرة وعيناً نقية حتى يصير كناموس ثابت طبيعي في نفسه ألّا يحقر أحداً ولا يزدري أحداً.

٣- **انسحاق الروح:** وذلك بأن تستطيع النفس أن تستجيب للأوامر الإلهية وأن تمتد معها في طريق القداسة والبر، وعند ذلك تأصل النعمة في نفس الإنسان، وتمتد جذورها حتى الأعماق، حتى تصير كلها في أحضان النعمة السماوية.

٤- **الإيمان والمثابرة**: وذلك بأن تستطيع النفس الثبات أمام الامتحانات الإلهية، وتتمتع بثبات في طلب النعم والمواهب بإيمان وثقة بأن الله أمين في وعده.(١)

ويؤمن المسيحيون أن للصلاة قوة روحية مباشرة، تظهر في استجابة طلب الداعي وقضاء حاجته، ولهذا الأمر الكثير من الشواهد في الكتاب المقدّس بعهديه.

وأمثلة ذلك أن نوحاً صلى بعد خروجه من الفلك، فتنسم الله رائحة الرضا وقال لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان، ولا أعود أميت كل حي مثلما فعلت [تكوين: ٨/٢١]، وصلى إبراهيم من أجل أبيمالك فشفاه الله [تكوين: ٢/١٧]، وصلى إسحاق من أجل زوجته لأنها كانت عاقراً فولدت [تكوين: ٢١/٥]، وصلى يعقوب طالباً بركة الله، فسمع الله له ومنحه البركة التي طلبها [تكوين: ٣٢/١١]، ولما استعبد المصريون بني إسرائيل استعباداً قاسياً، فتنهّد هؤلاء وصرخوا إلى الله فسمع أنينهم وأرسل موسى فخلّصهم [تكوين: ٣٣/٤]، ولما صعد موسى ليستلم الشريعة من الله عمل بنو إسرائيل عجلاً وعبدوه، فحمي غضب الرب وقال لموسى فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم، فتضرّع موسى أمامه وصلى لأجل ألّا يهلكم فصفح الرب عنهم [خروج: ٣/١].

هذه الأمثلة وغيرها كثير تشير إلى قوة الصلاة وقوة فاعليتها، واستجابة الله لمن يصلي وقضاء حاجته مهما كانت، وبهذا يؤمن المسيحيون ألَّا قوة تضارع قوة الصلاة، ولا شيء أقدر منها على جلب النعم من الله للإنسان، فالنفوس اليائسة والقلوب البائسة تجد في الصلاة انتعاشاً ورجاء، وكل خاطئ يتقدّم إلى الله بندامة وانسحاق قلب ينال بالصلاة رحمة الله وغفران خطاياه، وكل حزين يصلي يعطيه الله معزياً يمكث معه.(٢)

المطلب الرابع: المسائل ذات الصلة:

أولاً: الإهمال في أداء الصلاة وسن التكليف بها:

يؤمن المسيحيون كما سبق بالأهمية العظيمة للصلاة، وأثرها الكبير في ضبط سلوك الإنسان، وفائدتها في استجابة دعائه وقضاء حوائجه، وهي تضفي على النفس الكثير من الفضائل التي تكون سبباً في محبة الله له، وبذلك تكون الصلاة **سبباً لارتقاء الإنسان من حضيض الخطيئة إلى نوال النعمة الإلهية**.

يؤمن المسيحيون أيضاً أن **ترك الصلاة يولّد في الإنسان الكثير من المعاني السلبية،** فأول

---

(١) انظر: المسكين، حياة الصلاة، ص١٧-٢٢.

(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/١٤١-١٤٢.

نتيجة من نتائج ترك الصلاة وإهمالها البعد عن الله الذي هو سبب كل شر وفساد، واستمرار الإنسان في ترك الصلاة وإهمالها لا شك سيوقعه في هذا البعد، وبالتالي سيصبح قلبه قاسياً غير مكترث لخطورة الحال التي يعيشها.(١)

معلومٌ أن **قسوة القلب هي إحدى نتائج قلة الإيمان وضعفه،** وزوال المحبة الإلهية - التي يدور عليها التشريع المسيحي - من القلب، ولا شك أن القلب بهذه الحالة سيستبيح الشرور والمعاصي، "واسألوا إذاً وتضرعوا في كل حين لكي تُحسبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون وتقفوا قدّام ابن الإنسان" [لوقا: ٣٦/٢١].

حرصاً على عدم وقوع الإنسان في هذه الحال المزرية فقد وجّه (بولس) أتباعه إلى ضرورة الحفاظ على الصلاة وعدم التهاون بها علّها تكون سبباً في خلاص صاحبها، "واظبوا على الصلاة ساهرين فيها بالشكر، مصلين في ذلك لأجلنا نحن أيضاً" [كورنثوس١: ٢/٤-٣]، "صلوا بلا انقطاع" [تسالونيكي١: ١٧/٥].

نظراً للأهمية المشار إليها للصلاة وخطورة تركها وإهمالها فقد **رتّب علماء المسيحية ضرورة الأمر بالصلاة مع بداية البلوغ،** مع أن هذه القضية هي **محل خلاف** بين المسيحيين نظراً لاختلافهم في حكم الصلاة ووجوبها أساساً، وبعض العلماء الآخرين يرون ألَّا حاجة للأمر بالصلاة في سن معينة، أي لا حاجة لتحديد سن لوجوب الصلاة، لأن الصلاة برأيهم أمرٌ تلقائي ينبع من ذات الفرد وإرادته، وما دامت الصلاة طلباً ودعاء فكل الناس بحاجة لها، ويستوي بذلك الجميع دون قيد شرط أو سن.(٢)

ثانياً: الاتجاه نحو الشرق:

يؤمن المسيحيون – باستثناء البروتستانت - أن الكنيسة اعتادت منذ العصر الرسولي بناءً على أوامر الرسل أن تتجه في صلاتها نحو الشرق، وتجعل الشرق قبلتها، فقد ورد في قوانين ابن عسّال: "وتكون الصلاة وتُقام المعابد جهة الشرق، وفي الصلاة يجب الاتجاه بالوجه نحو الشرق؛ لأنها الجهة التي قال المسيح له المجد أنه يظهر منها في مجيئه الثاني".(٣)

ورد في سفر المزامير: "رتلوا للرب الذي صعد إلى سماء السموات نحو المشارق" [مزامير: ٨/٦٧]، وقال إشعياء: "لذلك في المشارق مجدوا الرب" [إشعياء: ١٥/٢٤].

صحيح أن المسيح لم يأمر في تعليمه باتخاذ الشرق قبلة للصلاة لكن يؤمن المسيحيون أن المسيح فضّل هذه الجهة على غيرها من الجهات بكثرة ذكره لها وبتحديده مجيئه الثاني من جهتها.(٤)

ثالثاً: استخدام الموسيقا والألحان الكنسية:

ارتبط أداء الصلاة المسيحية بالموسيقا، ولقد **ورد في الكتاب المقدس ذكر لكثير من الآلات الموسيقية،** ونظراً لأهمية الموسيقا وضرورة استعمالها في الكنائس أوردت بعض كتب اللاهوت تعريفاً لها، فالموسيقى "هي صناعة يُبحث فيها عن أحوال النغم من جهة تأليفه للذيذٍ ونافرٍ، وعن أحوال الأزمنة المتخللة بين النغمات من جهة طولٍ وقصرٍ، وهي تتم بجزأين: الأول علم التأليف، والثاني علم الإيقاع ويُسمّى الأصول، أما الترنم فهو تطريب الصوت وإتقان الغناء حتى يصير شجياً، والترنم الموزون يُقال له إنشاد".(٥)

---

(١) انظر: خليل (مرقس)، الخطية والرجوع إلى الله، ص١٣٢.
(٢) انظر: الموحي، العبادات في الأديان السماوية، ص١٥٨.
(٣) ابن عسّال، المجموع الصفوي، ص١٥٧.
(٤) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١٦٩/١.
(٥) داركين (خليل)، تفصيل الكتاب المقدس، ٥٠٨/٣-٥٠٩.

ويوضح القمص يوحنا سلامة مفهوم الألحان الكنسية بقوله: **"هي توسلات وابتهالات وتسابيح تُرفع إلى الله القدوس استدراراً لبركاته والتماساً لرضائه وشكراً على آلائه، بها** تُناجي قلوب المسيحيين ربها، وعلى أجنحتها ترتقي الأفكار إلى المراتب العلوية، وللألحان المضبوطة تأثير شديد في النفس، فإنها تنفذ إلى أعماق القلوب، وتثير فيها كل عاطفة تجب للخالق على خلائقه الناطقة، وقد سُرَّ الله تعالى بالأغاني والألحان المخصصة لتمجيده في العبادة الجمهورية، بل أوصى بها على ما جاء في سفر الخروج".[١]

ولقد ورد ذكر الموسيقا في العهد القديم مرتبطاً بأداء الشعائر والطقوس التقليدية، ومن أجل ذلك **تم وضع كتب للترانيم** والأناشيد في الكتاب المقدس، واهتم بنو إسرائيل باستعمال هذا الفن في تعبدهم لله في أعيادهم الدينية ومناسباتهم، فورد في أخبار الأيام الثاني: "ورثى إرميا يوشيا وكان جميع المغنيين والمغنيات يندبون يوشيا في مراثيهم إلى اليوم، وجعلوها فريضة على إسرائيل" [أخبار٢: ٢٥/٣٥].

رابعاً: أهمية الموسيقا عند اليهود:

آمن اليهود أن للموسيقا أثراً فعالاً في تنشيط العقل العبادي، فهي تساعد الجماعة على أداء العبادة أداءً حسناً، وتساعد على توجيه الشعور والأفكار لله، كما تستعمل كصيغة تعبيرية مباشرة عندما يؤدي الناس تهليلاتهم أو تسبيحاتهم أو صلواتهم، والله لا يرضى بأية موسيقا توضع لكلمات مقدسة، بل لا بد من موسيقا جديرة بقداسة المناسبة وجلالها.[٢]

وفي الكتاب المقدس أدلة وافرة جداً على استخدام الموسيقى، والاستعانة بها في العبادة أيضاً، ولا حاجة لسردها، إنما أذكر اثنين على سبيل المثال:

- يروي سفر الخروج أن بني إسرائيل لما عبروا البحر الأحمر نظم موسى تسبيحة ورنمها مع قومه، وكانت أخته مريم تنشدها مع جميع النسوة بالدفوف: "حينئذٍ رنّم موسى وبنو إسرائيل هذه التسبحة للرب وقالوا أرنم للرب فإنه قد تعظم .... فأخذت مريم النبية أخت هارون الدف بيدها وخرجت مع جميع النساء وراءها بدفوف ورقص، وأجابتهم مريم رنّموا للرب فقد تعظّم ...." [خروج: ١٥/١-٢٠].
- وعندما أصبح داود ملكاً قسّم وظائف اللاويين، فعيّن عدداً منهم من أجل الضرب بالعود: "فليأمر سيدنا عبيده خدّامه أن يفتشوا عن رجل يُحسن الضرب بالعود .... فقال لعبيده: أورشليم بأغاني وعيدان ورببات ودفوف وصنوج وإيوان" [أخبار٢: ١٣/٨، و١٥/٦-٢٨].

أما في المسيحية فكذلك الموسيقى ذات شأن مهم من الناحية الدينية، ونظراً لمكانتها في العبادة فقد **عدّوها العامل الوحيد الذي يُؤلف بين الفرق والطوائف المسيحية ويجمعها**، لذا فهي الطريقة الأمثل والصورة الأفضل التي ينقل المسيحي بها مشاعره إلى الله.[٣]

خامسا: أهمية الموسيقا في المسيحية:

لا زال المسيحيون إلى يومنا هذا يستخدمون الموسيقى في طقوسهم التعبدية لاعتقادهم أنها تُشكّل مع القراءات الكتابية وحدة متجانسة[٤]، **والمرتكز الرئيس** الكتابي الذي يشكّل المادة الأساس في الغناء والموسيقى في العبادة المسيحية هو **(سفر المزامير)**، وهو سفر مختلف في واضعه، ويُنسب إلى نبي الله داود (٧٣) إصحاحاً منه، ولسليمان إصحاحان أو مزموران هما

---

(١) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١٧٨/١.
(٢) انظر: جعفر (محمد كمال)، الإسلام بين الأديان، ص٢٢٢-٢٢٣.
(٣) انظر: جعفر، الإسلام بين الأديان، ص٢٢٧.
(٤) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٧١.

(٧٢، ١٢٧)، ولموسى مزمور واحد هو (٩٠)، ولإسحاق (١٢) مزمور وهي (٥٠، ٧٣-٨٣)، ولقورح المزامير التالية (٤-٤٩، ٨٥، ٨٧، ٨٨).[١]

واكتسبت المزامير أهمية إضافية في المسيحية من كثرة استعمال المسيح لها، حتى أن الأناجيل تذكر إن المسيح في آخر ساعات له كان يقرأ مقطعاً من المزامير، فقرأ قطعة من المزمور (٣١): "لا تدعني أُخزى مدى الدهر بعدلك نجني، أَمِلْ إليّ أُذنك سريعاً أنقذني، كن لي صخرة حصن، بيت ملجأ لتخليصي، لأن صخرتي ومعقلي أنت من أجل اسمك تهديني وتقودني، أخرجني من الشبكة التي خبؤوها لي لأنك أنت حصني، في يدك استودع روحي فديتني يا رب إله الحق، أبغضت الذين يراعون أباطيل كاذبة أما أنا فعلى الرب توكلت، أبتهج وأفرح برحمتك لأنك نظرت إلى مذلتي وعرفت في الشدائد نفسي، ولم تحبسني في يد العدو بل أقمت في الرحب رجلي، ارحمني يا رب لأني في ضيق" [المزامير: ٣١/١-٩].

وجرت العادة عند المسيحيين الأوائل أن يتلوا ويترنموا بالمزامير كما تشير إلى ذلك رسالة (بولس) إلى أهل إفسس "مكملين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب" [إفسس: ٥/١٩].

واهتم شرّاح الكتاب المقدس بالمزامير باعتبارها أناشيد صلاة يتلوها المصلي في مناجاته لله، وهي في الوقت نفسه تسابيح تمجّد الخالق الجليل على فضائله ونعمه على الناس.[٢]

ولقد قسّم علماء المسيحية المزامير إلى أقسامٍ ثلاثة:

١- **التسابيح:** وتستخدم للخدمة الطقسية (الليتورجيا)، وتتميز بطابعها الجماعي إذ يُشارك جموع من الشعب الموكب الاحتفالي بالمناسبة الدينية، ويتم توجيه النداء بها إلى جموع المصلين وإلى خدّام العبادة، وهذا يخلق عند المسيحيين جواً من الابتهاج والمشاعر الإيمانية، ومجموعة هذه التسابيح موجهة إما إلى الله مثل المزامير: (٨، ١٩، ٣٣، ٥٠، ٨٠، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٧، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٥) فبهذه المزامير يتغنى بنو إسرائيل بمعبودهم، أو أنها تشيد بأورشليم وبهيكلها، وتسمّى أناشيد صهيون، وهي: (٤٦، ٤٨، ٧٦، ٨٧، ١٢٢).

٢- **صلوات الاستغاثة والثقة والحمد:** وتتناول هذه المزامير تسبيح الرب المقدّس والعادل والمحسن، والقاسم المشترك بينها هو إظهار حالة الضيق والشدة، والاستغاثة صفة الصلاة التي تعبّر عن الثقة بالمعبود، والحمد يمثّل الشكر لله على انتهاء البلاء وسرور العباد في ذلك، ومن هذه المزامير: (٢٢، ٣٠، ٣١، ٥٤، ٥٦، ٦٠).

٣- **مزامير التعليم:** وهذا الصنف من المزامير موجّه للدرس والوعظ الديني على طريقة الأنبياء، وكذلك يتضمن الإرشادات الأخلاقية، ومنها: (٣٧، ٤٩، ٧٣، ١١٢، ١١٩، ١٢٧، ١٣٣).[٣]

وتتم قراءة المزامير المشار إليها مع الألحان أثناء تأدية طقس الصلاة الجماعية، ويركّز القساوسة على النغمات في التراتيل لأنها تنطوي عندهم على بُعد روحي عميق.

فالمسيحيون يرون أن الترتيل الكنسي المصحوب بألحان متوافقة وبتأليف الأنغام والأصوات يدخل بدون تكليف إلى نفس المصلي، ويحرّك فيه كل الصفات المقدسة السامية، ويرفع جميع حواسه وأفكاره وتأملاته إلى الله، وعندما يُشنّف آذان المصلي الواقف بخشوع ووقار ترتيل

---

(١) انظر: الأعظمي (محمد ضياء الرحمن)، اليهودية والمسيحية، ص١٣٧.
(٢) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٧٢.
(٣) انظر: مجموعة من العلماء اللاهوتيين، كتاب المزامير، ص١١-٢٠.

شريف ومؤثر فإنه يرتفع عن كل الاهتمامات الدنيوية، ويلتصق بكليته مع مصافّ سكان السماء حيث لا حزن ولا وجع ولا تنهّد، بل فرحة ولذة[١]، كما يؤمنون بأن نغمات الأناشيد العذبة والمتقنة تسبب للمصلي لذة عظيمة لا توصف، وتُعزّي النفس المعذبة بالآلام، وتُبعد عنها كل شدة وحزن، وتمنحها تعزية سريعة ثابتة، وتحثها على التوسل إلى الله وتُضرم فيها الشوق إلى العيشة السماوية الرغيدة، كما أن **للترتيل الكنسي قوة في تغيير الميول الرديئة إلى صالحة،** لأنه يجود على سامعيه بعبارات الانسحاق والخشوع، ويثبت في النفس روح الفضيلة ومحبة الصلاح واجتناب الخطيئة وكرهها، فيخرج المصلي من الكنيسة وقد تجدد قلبه وانتعشت روحه.[٢]

التعقيب:

نالت الصلاة منزلة مهمة في الدين المسيحي، لكن **هذه المنزلة لم تمنع أن يحصل حولها الكثير من الاختلاف والتنازع،** وحقيقةً هذا شأن أصحاب الفرق المسيحية في كل شعيرة أو عبادة في الدين المسيحي، فإن عامة الممارسات الدينية لم تخلُ من اختلاف يُضعف من قيمتها الروحية، وعليه يشكك في هذه العبادة ويذهب برونقها، وإن كانت مشروعة حسب ما يعتقدون.

أولاً: الاختلاف حول الصلاة:

إذا أردنا أن نتحدث عن الاختلاف في المسيحية حول أية عبادة أو شعيرة فإن أصابع الاتهام ستتوجه مباشرة إلى البروتستانت، هذه الفرقة الإصلاحية التي نبذت التعاليم البابوية والأساطير الأرثوذكسية، وحاولت إرجاع المسيحية إلى نقاوتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

وإذا وضعنا هذه القاعدة في الحسبان فالرأي الصواب سيكون حليف البروتستانت في عامة مسائل الاختلاف، مع أن القمص الأرثوذكسي (يوحنا سلامة) في كتابه (اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة) - الذي يعدّ أهم المراجع في باب الشعائر والعبادات المسيحية - حاول أثناء تأصيله لكثير من قضايا الدين أن يشمل البروتستانت ضمن آراء الكاثوليك والأرثوذكس، وأن يُظهرهم بمظهر الموافقين والمؤيدين لهم مستدلاً على جميع المسائل بأقوال منسوبة إلى المؤرخ البروتستانتي (موسهيم)، لكن من البديهي أن أقوال (موسهيم) غير معتبرة ولا دقيقة؛ فهي تُخالف الرأي المعتمد لدى البروتستانت حتى في قضايا الخلاف الأساس، كما تُخالف أيضاً قانون الكنيسة الإنجيلية الذي يُعدّ المرجع الأساس في الشعائر والعبادات المسيحية لدى البروتستانت، لذا فلا يُلتفت إلى أقوال (موسهيم) ولا إلى تأييده لباقي الفرق المسيحية في قضايا الخلاف، وهذا ما تؤكده الكتابات البروتستانتية، لا سيما المرجع الأهم لدى البروتستانت (أنظمة الدين المسيحي) لجون كالفن

أ- الاختلاف في الصلوات العامة:

تبين من المطالب السابقة أن الصلاة في المسيحية تنقسم إلى صلوات عامة وهي الصلوات السبع، وصلوات خاصة كالصلاة لأجل القديسين والصلاة لوالدة الإله والصلاة عن المسافرين والمتألمين وغيرها، والفرق المسيحية كلها تتفق على أشكال الصلاة الجمهورية والعائلية والفردية، لكن البروتستانت لا يعترفون بالصلوات السبع التي رتبها الرسل حسب الاعتقاد المسيحي، بل يعتقدون أنها دخيلة على المسيحية، بل من الواجب على المسيحي باعتقادهم أن يصلي متى شاء وكيف شاء، لذا فحتى مواقيت الصلاة المعلومة لدى باقي الفرق لا تعنيهم، ولا

(١) سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ١/١٨٥-١٨٦.
(٢) المرجع السابق، ١/١٨٧.

حتى الصلاة التي كان يصليها المسيح كل صباح ومساء، إنما يصلي الفرد منهم متى شاء وكيف ما شاء.[١]

ب- الاختلاف في الصلوات الخاصة والكتب الطقسية:

كذلك الصلوات الخاصة هي محل اختلاف بين المسيحيين، والمقصود بها الصلوات التي رتبتها الكنيسة كي تُصلى في ظروف خاصة، كالصلاة لأجل الموتى الراقدين، والصلاة لأم المسيح، والصلاة لأجل المرضى والمسافرين وغيرها، فقد خالف البروتستانت باقي الفرق المسيحية فيها، ولم يعترفوا بها، أما الكاثوليك والأرثوذكس فإنهم يقيمون هذه الصلاة في الظروف والأوقات التي عينتها الكنيسة، كما أن البروتستانت لا يستخدمون الكتب الطقسية التي يستخدمها الكاثوليك والأرثوذكس في صلاتهم.[٢]

ت- قراءة الصلاة:

يلتزم الكاثوليك والأرثوذكس في بداية صلاتهم بتلاوة (الصلاة الربانية أو الربية)، ويعدّون البدء بها نوعاً من الفريضة ضمن الصلاة، وإن كانوا يُتبعونها بتلاوات أُخرى لكن تبقى الصلاة الربانية هي الأساس الذي تقوم عليه الصلاة عندهم، كما يلتزمون أيضاً بقراءة نصٍّ من المزامير في بداية القسم الوعظي في الصلاة، أما **البروتستانت فإنهم لا يلتزمون بشيء من ذلك**، وربما يرددون في بعض اجتماعاتهم الصلاة الربانية لكن ذلك ليس على سبيل الإلزام، إنما لكونها صلاة صحيحة لا خطأ فيها شأنها شأن باقي أدعية المناجاة الواردة في الكتاب المقدّس دون أية خصوصية.[٣]

ث- لغة الصلاة:

عادةً ما **تُقام الصلاة في الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية** - لاسيما القبطية – **بلغة لا يفهمها عامة الشعب**، والمعتمد لدى الكاثوليك هي اللغة اللاتينية، وكذلك لدى عامة الأرثوذكس، سوى الكنيسة القبطية التي تُقيم الصلاة باللغة القبطية ذاتها، أما **البروتستانت فقد كان هذا الأمر أحد دوافع الإصلاح الديني الذي ساعد على تشكُّلهم وتكوينهم، فرفضوا الصلاة إلا باللغة المحلية** للكنيسة التي تُقيم الصلاة.[٤]

ج- قبلة الصلاة:

تقدّم في المطالب السابقة أن المسيحيين عامة يتجهون إلى جهة الشرق أثناء أدائهم للصلاة باعتباره موضع ظهور الرب من جديد، لكن البروتستانت يُخالفون في هذا الأمر، فهم يتجهون في صلاتهم إلى أي جهة كانت دون تحديد، لذلك يختلف موضع الهيكل في **الكنائس البروتستانتية** عنه في الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، **فلا حصرَ عندهم للقبلة في جهة محددة**.[٥]

ح- الرشم بالصليب:

---

(١) انظر: مجموعة من اللاهوتيين، دستور الكنيسة الإنجيلية، ص٤٠.
(٢) انظر: شنودة، اللاهوت المقارن، ١٣/١.
(٣) انظر: دول ري، الأسرار حياة الإيمان، ص٥٣٠.
(٤) انظر: وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ١٤٦/١.
(٥) انظر: شنودة، اللاهوت المقارن، ٢٠/١.

تقوم الكنائس **الكاثوليكية والأرثوذكس بتعليم وجوب رشم النفس بالصليب أثناء بداية الصلاة ونهايتها، فيرشم كلٌ واحدٍ من الحاضرين نفسه من اليسار إلى اليمين ومن فوق إلى أسفل، أما البروتستانت فيخالفونهم في ذلك أيضاً، فلا يرشمون أنفسهم** لا في بداية الصلاة ولا في نهايتها.

هذه أهم مواطن الخلاف في أداء الصلاة بين الكنائس المسيحية حسب الفرق، وهناك اختلافات أقل شأناً مما جرى الحديث عنها فلا داعي لذكرها، لكن على العموم تشير هذه الاختلافات إلى ما سبقت الإشارة إليه من ضعف الثقة في تعاليم الدين ووجود الاختلاف في الفرائض التي تُعدّ الحجر الأساس في بناء المسيحية، وهذا يفتح باب الشك في أصل هذه العبادة، لا سيما أنها تُؤدى في أيامنا على نحوٍ مختلف تماماً عمّا جاء به المسيح كما سيتضح في الفرع التالي.

ثانياً: بنية الصلاة المسيحية:

تحتل فريضة الصلاة مكانة سامية في جميع الديانات السماوية، وتُعد الصلة التي ترقى بروح الإنسان في معارج الملكوت الإلهي، فتكوّن الرابط الوثيق والحبل المتين بين الإنسان وخالقه، وأثرها في تهذيب النفوس وتصفية القلوب واضح لا يُنكر، لذا حقّ لها أن تنال الصدارة بين الفرائض الإلهية على غرار ما هي عليه في الإسلام.

أما **الصلاة المسيحية** التي يزعم المسيحيون أنهم تلقّوها عن السيد المسيح **فنحن في شأنها أمام أحد أمرين:**

الأمر الأول: أن نحمل الصلاة عندهم اصطلاحاً على المعنى اللغوي فقط، فتكون الصلاة محمولة على معنى الدعاء فقط، **ولا حاجة حينها لتعريفها اصطلاحاً،** ولا حاجة كذلك لأن يكون للمسيحية ترتيب مخصوص بالصلاة ولا أحكام مخصوصة، **وهذا الأمر غير موجود في المسيحية؛** لأن للصلاة عندهم أحكامها وشروطها ومواقيتها، لذا فإن **هذا الخيار غير وارد.**

الأمر الثاني: أن نحمل الصلاة في المسيحية على معناها الاصطلاحي، ولهذا الخيار مسّوغ قوي هو وجود الأحكام والترتيبات المسيحية للصلاة مما يعني وجود أحكامٍ خاصة، وهذا **يتطلب تحديد البُعد الاصطلاحي للصلاة** على النحو المُمَارس عندهم، وإذا اعتمدنا هذا الخيار **فستظهر لنا مشكلة أخرى** لا تتلاءم مع واقع الصلاة المسيحية الممارسة في الكنائس، وهذه المشكلة **هي وضع الصلاة المسيحية في السياق العام للصلوات الدينية** التي جاءت بها الأديان السماوية.

وبيان ذلك أن الصلاة السماوية متقاربة في مفاهيمها الاصطلاحية، وفي أفعالها وأركانها، والصلاة كما هو معلوم تتطلب القيام بحركات واتخاذ هيئات معينة، القيام والركوع والسجود، وهذه حقيقة أشار إليها القرآن الكريم في مواضع متعددة:

- قال تعالى: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة: ١٢٥].
- وقال أيضاً: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [الحج: ٢٦].
- وقال في شأن إسماعيل: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم: ٥٥].
- وقال أيضاً: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة: ٤٣].
- وقال في شأن مريم: {يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران: ٤٣].

تشير هذه الآيات إلى وجود الصلاة في الديانات السماوية جميعها، لاسيما الآية الأخيرة الموجّهة إلى السيدة مريم العذراء، أي المخاطب بها هم بنو إسرائيل، كما يُستنبط منها إشارة أخرى وهي أن **الصلاة تتطلب وجود هيئتين من مجمل هيئات الصلاة التي هي القيام والركوع والسجود والقنوت،** فأقل ما يُسمى صلاة هو اجتماع ركوع وسجود أو قيام وركوع أو قنوت وسجود، ودون ذلك لا تسمّى صلاة، **ولا يصحّ أن تسمى صلاة بمجرد وجود قنوت (دعاء) فيها،** بل لا بد من ركن أو هيئة أخرى تشاركه الوجود حتى تسمى صلاة، بل إن وجود الدعاء بمفرده هو صلاة في اللغة لا في الاصطلاح.

كما يُستنبط من الآيات اتحاد الهيئات للصلاة في جميع الديانات السماوية حتى السابقة على وجود اليهودية والمسيحية، وأن الأمر باتخاذ الهيئات المعروفة عندنا في الإسلام ليست على سبيل الخصوص.

هذا هو السياق العام للصلاة في الأديان السماوية، وإذا أردنا تطبيق هذه القاعدة على الصلاة المسيحية فإن النتيجة ستكون سلبية، لا سيّما الصلاة الحالية التي تُؤدّى في الكنائس، إذ **الصلاة في المسيحية لا تشتمل على هيئات وأوضاع،** بل قوامها رفع اليدين والدعاء مع تلاوة المزامير والصلاة الربانية، وهذا الاختصار في الهيئات والأركان كفيل بإخراج الصلاة المسيحية عن السياق العام للصلاة السماوية.

وبناءً على ما سبق **فإنه من الصعب أن تكون الصلاة التي يُؤديها المسيحيون هي ذات الصلاة التي بُعث بها السيد المسيح، أو التي صلّاها،** إذ من المعلوم أن المسيح كان يُصلّي صلاة اليهود في الهيكل، وصلاة اليهود لا بد أنها مندرجة ضمن السياق العام للصلاة السماوية كما مرّ بيان ذلك، لذا فإن الصلاة التي تُؤدى في الكنائس ليست هي الصلاة التي أمر بها المسيح وصلّاها ذاتها، ويبقى هذا الأمر محل اجتهاد، والله أعلم.

المبحث الثاني: الصوم

للصيام مرتبة معتبرة في التشريع الديني في المسيحية، وهو من أهم مظاهر التعبد عندهم؛ **وذلك لما تنطوي عليه هذه العبادة من آثار ومفعول قوي في تهذيب النفس وتنقية الضمير والسمو بالصائم إلى أفقٍ روحاني مشبع بالمحبة والنقاء.**

والصيام في المسيحية ليس أمراً على سبيل الفريضة، هذا هو المفهوم من كلام السيد المسيح في الكتاب المقدس، لكن رغم ذلك حاز الصيام نصيباً وافراً من كتابات شُرّاح الإنجيل، حتى صُنِّف **الصيام أحد الأركان العملية التي من الواجب على المسيحي التمسك بها** وهي الصلاة والصيام والصدقة.

وينطوي الصيام على بُعدٍ تاريخي مختلف في المسيحية، يمتد بذلك إلى جميع الديانات منذ أيام آدم أبي الخليقة، ويكتسي الصيام هذا البُعد في الفكر المسيحي من فكرة أن الصيام هو أقدم أمر إلهي عرفته البشرية منذ عهد الفردوس، فالله تعالى في بدء الخليقة أعطى للإنسان وصية أن يصوم عن شجرة معرفة الخير والشر، ثم أوهم الشيطان للإنسان أنه إذا أكل فسوف يعرف طريق الخلود، وعندما سقط الإنسان في هذا الاختبار والإغراء ظل يعيش في وهم شيطاني أنه لن يحيا إلا إذا أكل "نأكل لنعيش" فصارت لقمة العيش هدفاً لحياة الإنسان، فيتعب ويشقى ويعيش لأجلها.

ويربط المسيحيون بين الفكرة السابقة وبين المبدأ الأهم في الديانة المسيحية وهو وجود (كلمة الله) المتمثلة في المسيحي بهدف إيضاح أن أول مَن كشف عن المعنى الحقيقي للصيام هو السيد المسيح، فيرون أن خدعة السعي وراء لقمة العيش من أجل الحياة واستمرارها ظلت تراود الإنسان وتعمل في قلبه حتى جاء المسيح، ففضح أوهام الشيطان، وذلك عندما صام أربعين يوماً على الجبل، ثم صاغ خبرته الصيامية في عبارة صغيرة "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" [متى: ٤/٤].

وهنا انكشفت ألاعيب الشيطان، وتبيّن تماماً أن مصدر الحياة هو ابن الله الكلمة وليس الخبز وحده، بل إن الخبز هو معين للجسد لسدّ احتياجاته من الطاقة ليعمل وينشط، وليتحرك في اتجاه الملكوت الإلهي الأبدي.(١)

والصيام في صورته الحالية يصعب أن يُنسب إلى السيد المسيح، مع العلم أنه لم يرد في الإنجيل أي إعلان يأمر المسيح فيه بالصيام، وأمر بهذه الصيغة لا يمكن أن يُفهم على سبيل الفريضة، فالمسيح لم يزد على تزويد أتباعه ببعض التعاليم الأخلاقية التي يجب عليهم التزامها إذا كانوا صائمين لا أكثر.

كما تشير بعض إعلانات الكتاب المقدس إلى أمر ذي أهمية وهو أن **الصيام ربما يكون فرضاً في المسيحية لكن بعد حياة السيد المسيح وارتفاعه، أما في حياته فكان يلتمس لأصحابه العذر بألّا يصوموا،** يُفهم هذا الأمر من خلال ردّ المسيح على أحد تلاميذ يوحنا حين سأله عن الصيام، "حينئذ أتى إليه تلاميذ يوحنا قائلين لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً وأما تلاميذك فلا يصومون، فقال لهم يسوع هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم ولكن ستأتي أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون" [متى: ٩/١٤-١٥].

كما أن المتصفح لسيرة السيد المسيح من خلال الأناجيل سيجد أن **السيد المسيح أراد للصائمين عدم إظهار صومهم للآخرين؛** وذلك خوفاً عليهم من الرياء كما كان يفعل اليهود، "ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين

(١) انظر: جبّار، أسرار مقدسة، ص١٦٠.

الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك، لكيلا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية" [متى: ٦/١٦-١٨].

وبناءً على ما سبق فإنه **من الصعب أن تُكوّن هذه التشريعات الأخلاقية القليلة تشريعاً دينياً يُنسب إلى واحدٍ من رسل الله،** ومع ذلك فنحن المسلمين نؤمن أن الصيام شريعة إلهية سماوية مكتوبة على جميع الأمم السابقة، بما في ذلك المسيحية، لكن يبدو أن أيدي التحريف طالت هذا المبدأ التعبدي العظيم.

والقارئ للإعلان السابق في إنجيل متى ربما يلمح بعض الإشارات من السيد المسيح لتلاميذه التي تحثّهم على الصيام، لكن تمّ فهم هذه الإشارات ضمن القاعدة السابقة، وهي أن الصيام أمر مطلوب بعد رفع المسيح وليس أثناء حياته، كما أن طلبه ليس على سبيل الفريضة بل الاستحباب، وحصل بناءً على ذلك اختلاف وشرخ في المجتمع المسيحي انبنى حول تشريع الصيام ودرجة طلبه (من الفرضية أو الندب) حسب تعاليم المسيح وطلبه له.(١)

المطلب الأول: تعريف الصيام وأدلته:

أولاً: تعريف الصوم:

ورد في كتب اللاهوت عدة تعريفات للصيام كلّها متقاربة في المعنى، منها:

١- "وجوب الامتناع عن الزهومات – الأطعمة الدسمة - واللحوم في أوقات معينه، والقناعة بالبقول والخضراوات لإضعاف هذه الشهوة".(٢)

٢- "الصيام هو انقطاع اختياري عن الطعام وعن اللذات والتمتعات الجسدية إلى وقت معين ولأسباب خصوصية"(٣)

٣- ويعرّفه (شنودة الثالث) بقوله: "هو انقطاع عن الطعام فترة من الوقت، يعقبها طعام خالٍ من الدسم الحيواني".(٤)

٤- يقول (حبيب جرجس): "هو الانقطاع عن الطعام مدة من الزمان ثم يتعاطى في نهايتها طعاماً خالياً من الدسم"(٥)

إذاً فالمفهوم العام للصيام والمستنبط من التعريفات السابقة أن الصيام هو **امتناع عن بعض الأطعمة، واستعمال أطعمة أخرى بدلاً عنها،** والمقصود من هذا الامتناع **قهر الجسد وإذلاله** وقهر شهواته وعواطفه وميوله الدنيوية، وبما أن اللحوم والأطعمة الدسمة والشحوم لا تُناسب هذا القصد فهي تدخل ضمن قائمة الممنوعات، ويستدل المسيحيون على الاقتصار في الامتناع على بعض الأطعمة بما ورد في سفر (دانيال) يحكي عن صيامه، "في تلك الأيام أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع أيام، لم آكل طعاماً شهياً ولم يدخل في فمي لحمٌ ولا خمرٌ ولم أَدَّهِنْ حتى تمت ثلاثة أسابيع أيام" [دانيال: ١٠/٢-٣]

ثانياً: أدلة الصيام: يستدل المسيحيون على تشريع الصيام بأدلةٍ منها:

١- "حينئذ أتى إليه تلاميذ يوحنا قائلين لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً وأما تلاميذك فلا

---

(١) انظر: فارس (إبراهيم)، سبيل المسيح، ص٥٨.
(٢) ابن سباع (يوحنا)، الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة، ص٥٢.
(٣) مينا، علم اللاهوت، ص٥٩.
(٤) شنودة، روحانية الصوم، ص٢٠.
(٥) جرجس (حبيب)، المبادئ المسيحية لأرثوذكسية، ١٤٩/٢.

يصومون، فقال لهم يسوع هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم ولكن ستأتي أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون" [متى: ٩/١٤-١٥].

٢- "ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك، لكيلا تَظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية" [متى: ٦/١٦-١٨].

المطلب الثاني: شروط الصوم المسيحي وأهميته ولزومه وكيفيته:

أولاً: شروط الصوم: يرتب المسيحيون للصيام بعض الشروط الأدبية، وهي عبارة عن مجموعة من الأخلاق ينبغي على الصائم أن يتحلّى بها أثناء صيامه، وهي ما يلي:

١- **الشعور بالشكر والفرح:** يشترط المسيحيون على الصائم أن يشعر بأن الصيام فرصة للقاء المسيح في حريّة من احتياجات الجسد وملذاته، وأن يشعر بأن الصيام دعوة من المسيح للإنسان أن ينسلخ عن الاهتمام ليعيش معه.

٢- **الخشوع في الصيام:** كذلك يُشترط أن يكون الصيام **مصحوباً بالشعور الإنساني بعدم الاستحقاق بما أنه خاطئ وضعيف،** فيصوم حينها بإحساس الطاعة المجردة لوصية الله، وليس بإحساس المتفضل.

٣- **النسك في الصيام:** وهو **وجوب اختزال كل ما هو غير نافع،** فلا يأكل إلا ما يحتاجه الجسد، ويمتنع عن إشباعه بالملذات غير الضرورية.

٤- **التوبة الصادقة:** يشترط لصحة الصيام أن يكون **مصحوباً بتوبة صادقة** تقوم على فحص النفس والتدقيق في معالجة أخطائها.(١)

ثانياً: أهمية الصوم:

تنبع أهمية الصوم في الفكر المسيحي من عدة جوانب يتميز بها الصيام، ويمكن تحديد أهمها فيما يلي:

١-**توارد الأنبياء على الصيام:** يؤمن المسيحيون أنه على جبل التجلي وقف ثلاثة يضيئون بنور مجيد، وكانوا ثلاثتهم ممن أتقنوا الصوم، فصام كل واحدٍ منهم أربعين يوماً وليلة، هؤلاء هم موسى: "كان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلةً لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر" [خروج: ٣٤/٢٨]، وإيلياء: "فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب" [ملوك١: ١٩/٨]، والسيد المسيح: "فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً" [متى: ٤/٢]، وصام أيضاً غيرهم كثيرٌ من الأنبياء.

٢- **الصوم أقدم وصية عرفتها البشرية:** فقد كانت الوصية التي أعطاها الله لآدم أن يمتنع عن الأكل من صنف معين بالذات، بينما يمكنه أن يأكل باقي الأصناف، "وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" [تكوين: ٢/١٦-١٧].

٣- **محافظة الرسل على الصيام:** ينسب المسيحيون إلى الرسل أنهم صاموا على غرار صوم المسيح، لكن ليس في الكتاب المقدس أي إعلان يشير إلى صحة هذا الأمر، بل الواضح من

---

(١) انظر: جبّار، أسرار مقدسة، ص١٠٧-١٠٨.

الكتاب المقدس أن أصحاب المسيح لم يكونوا يصومون، ولأجل ذلك اعترض عليهم تلاميذ النبي يوحنا المعمدان، فالتمس لهم المسيح عُذراً وقال: "حينما يُرفع عنهم العريس حينئذٍ يصومون" [متى: ١٥/٩].

ويعتمد علماء اللاهوت في إثبات أن الرسل كانوا يصومون على إعلان ورد في أعمال الرسل: "وفيما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس: افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه، فصاموا حينئذٍ وصلّوا ووضعوا عليهما الأيدي" [أعمال الرسل: ١٣/٢-٣]، كما يفسّرون الإعلان التالي: "فجاع كثيراً واشتهى أن يأكل وبينما هم يهيئون له وقعت عليه غيبة" [أعمال الرسل: ١٠/١٠] بأن (بطرس) كان هنا صائماً، ولولا أنه صائم لما جاع[١]، مع أن هذا الإعلان لا يشير إلى شيءٍ من ذلك، فليس بالضرورة أن يصوم كي يكون جائعاً، فقد يكون جائعاً دون صيام.

٤- **دخول الصوم في العبادة الجماعية:** حيث يشترك فيه مجموعة من المؤمنين فيقدمون لله صوم يوم أو أكثر، ولهذا أمثلة في الكتاب المقدس، أبرزها الصوم الذي صامه جميع الشعب حين وقعوا في ضيقة أيام الملكة إستير حتى يصنع لهم الرب رحمة، "اذهب اجمع جميع اليهود الموجودين في شوشن وصوموا من جهتي ولا تأكلوا ولا تشربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً وأنا أيضاً وجواري نصوم كذلك" [إستير: ١٦/٤].

٥- **الصوم هبة من الله:** فالمسيحيون يرون أن الله الذي خلق الإنسان من جسدٍ وروح عرف أن الإنسان محتاج إلى الصوم في حياته الروحية لأجل نموه الروحي ومنفعته الأبدية، لذلك أمر بالصيام وأوصى به.[٢]

٦- **الصوم يسبق كل نعمة وخدمة:** يرى المسيحيون أن الصوم هو الشرط في استقبال كل نعمة أو بركة يقدّمها الله لعباده كي يكون العبد في حالة روحية تليق بتلك البركة، فالأعياد التي تحمل للإنسان بركات يجب أن تكون مسبوقة بالصوم، والتناول الذي يحمل بركاتٍ خاصة يجب أن يستعد له الإنسان أيضاً بالصوم، وكذلك القول في سر المعمودية والميرون ومسحة المرضى، وأيضاً الرسامات الكهنوتية يستقبلها الإنسان بالصوم، وبما أن السيد المسيح ابتدأ خدمته بفترة صيامٍ طالت أربعين يوماً لذا فإن كل كاهن جديد يُعطى فترة أربعين يوماً يقضيها صائماً في خلوة في أحد الأديرة قبل أن يبدأ خدمته.[٣]

٧- **الصوم يدرّب الإنسان على الفضائل ويعلّمه الالتزام:** يرى المسيحيون أن الصوم الحقيقي يدرّب الإنسان على ضبط نفسه، ويستمر منهج ضبط النفس معه منهجاً في الحياة، فالمؤمن يضبط نفسه في أيام الفطر كما في أيام الصيام رغم اختلاف أنواع الأطعمة ومواعيد الأكل، وبهذا يكون الصيام نافعاً له وبركة لحياته، ولا يكون عقوبة بل نعمة، ويرى المسيحيون أيضاً أن أكبر عقوبة كانت تقع على بعض الروحيين أن يأمره أب الاعتراف بأن يأكل مبكراً، أو يأكل لحماً أو طعاماً شهياً، وكان أب الاعتراف يفعل هذا إذا رأى أن هذا الابن الروحي قد بدأ ينشغل قلبه بالدنيا أو يظن في نفسه أنه صار ناسكاً أو زاهداً، فيخفض كبرياءه بالأكل، وبذلك يتخلّص من أفكار المجد الباطل.[٤]

ثالثاً: حكم الصيام ولزومه:

---

(١) انظر: شنودة، روحانية الصوم، ص١٠.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٢.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٢-١٣.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٦-١٧.

يؤمن المسيحيون أن الله أمر اليهود أن يصوموا يوماً واحداً في السنة، وهو يوم الكفارة العظيم: "ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر تذللون نفوسكم وكل عمل لا تعملون الوطني والغريب النازل في وسطكم" [لاويين: ٢٩/٦]، أما **في عهد المسيح فقد تغيّر الأمر وأصبح الصيام اختيارياً** كما تقدم ذلك، واللافت للانتباه في ذلك أن الكتابات المسيحية تؤمن أن الصيام ركن ديني إلى جانب الصلاة، ومع ذلك يبقى هذا الركن اختيارياً، فمن شاء أن يصوم ومن شاء فلا، ولا حرج في أي حالة منهما.

ورد في كتاب **(إيمان المسيحي وواجباته)**: "إننا لسنا ملزمين بالصيام بل مخيّرين، ولكن الصوم مناسب في أوقات الشدة والحزن، وعلى الخصوص في أوقات الحزن على خطايانا أو على فتورنا في الدين".(١)

وهناك تيّار آخر من علماء اللاهوت المسيحي يرون وجوب الصوم ولزومه على جميع المسيحيين، مؤيدين رأيهم بأدلة من الكتاب المقدّس وبشهادة القانون الكنسي، وأيضاً بشهادة بعض زعماء البروتستانت – دون عامة البروتستانت - الذين يخالفون الكاثوليك والأرثوذكس في أغلب الفروع الدينية، وتفصيل ذلك فيما يلي:

١- الشهادات الكتابية:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن **الشهادات الكتابية الدالة على لزوم الصيام أكثر من أن تُحصى، ولها جانبان، الأول من جهة السيد المسيح، والثاني من جهة الأنبياء والرسل التلاميذ.**

أما الجانب الأول فإنه من الثابت كتابياً أن المسيح صام أربعين يوماً بلا انقطاع، مع أنه لم يكن بحاجة إلى الصيام، ثم أشار إلى الصيام باعتباره الطريقة المثلى للانتصار على الشيطان فقال: "إن هذا الجنس لا يخرج إلا بالصلاة والصوم" [متى: ٢١/١٧]، حتى لما سُئل عن علة إهمال تلاميذه لم يجب بما يفيد عدم لزوم الصوم وضرورته، بل أوجبه عليهم بعد صعوده إلى السماء بقوله: "حين يرتفع العريس عنهم حينئذٍ يصومون" [متى: ١٦/٩].

وأما الجانب الآخر فإنه من الثابت لدى أصحاب هذا الاتجاه أن الأنبياء والرسل التلاميذ اهتموا بالصوم اهتماماً واضحاً، وجعلوه من أوائل واجباتهم المفروضة عليهم، لا سيما أثناء الشدائد والضيق، فموسى النبي صام مرتين كل مرة أربعين يوماً وأربعين ليلة، وإيلياء صام أربعين يوماً وليلة، وإستير صامت هي وشعبها ثلاثة أيام، ودانيال صام ثلاثة أسابيع، و(بولس) الذي يَعدّه المسيحيون المثل الأعلى بين الرسل في القيام بالواجبات الدينية كان يصوم أصواماً متتابعة حسب ما ورد في سفر الأعمال وفي رسالته الثانية إلى أهالي كورنثوس.

٢- القانون الكنسي:

ينقل القمص **(ميخائيل مينا)** أنه جاء في القانون الكنسي ما نصه: "أي أسقف أو قس أو شمّاس لا يصوم صوم الأربعين المقدسة الذي يسبق الفصح وكذلك صوم يومي الأربعاء والجمعة فليُقطع، إلا إذا كان عدم صومه ناشئاً عن مرض جسدي، وأما العالمي الذي يُفطر في أيام الصوم فليُفرز"(٢)، والقطع للكاهن هو صرفه من الخدمة الكنسية، والفرز للفرد المسيحي (العالمي) هو إقصاؤه عن الكنيسة.

٣- شهادة زعماء البروتستانت:

---

(١) نوري، إيمان المسيحي وواجباته، ص٨٨.
(٢) مينا، علم اللاهوت، ص٦٩-٧٠.

ينقل القمص (ميخائيل مينا) بعض الشهادات المنسوبة إلى (لوثر) و(كالفن)، التي تشير إلى ضرورة الصيام، يقول **(لوثر)**: "إنه من الواجب ممارسة الصوم قبل الأعياد السيدية، كالميلاد والفصح والعنصرة، وكذلك في يوم الجمعة من كل أسبوع"(١)، ويقول **(كالفن)**: "حُتِّم الصوم على المسيحيين كافة ولاسيما عند انتخاب الرعاة وفي الحوادث العظيمة وعند اشتداد الأزمات ووقوع الملمات مثل الحروب والأوبئة والمجاعات".(٢)

رابعاً: كيفية الصوم:

الكيفية العامة للصيام عند المسيحية أن **يمتنع الصائم عن الزهومات واللحوم ولا يأكل حيواناً ولا ما يتولد منه وما يستخرج من أصله، ويقنع بالبقول والخضروات.**

ويستدلون بما جاء في سفر حزقيال: "وأما أنت فخذ لك حنطة وشعيراً وفولاً وعدساً ودخناً وكرسنه (كمون) وضعها في وعاء واحد واصنعها لنفسك خبزا كعدد الأيام التي تتكئ فيها على جنبك" [حزقيال: ٤/٩]، هذا ما يقوله كثير من علماء اللاهوت المسيحي قديماً وحديثاً.

ويرى البروتستانت أن الصوم لا يصح إلا إذا انقطع الصائم انقطاعاً تاماً عن جميع أنواع الطعام والشراب سواء أكان حيواناً أم نباتاً أم غير ذلك.. لأن تحريم أنواع من الأكل والسماح بأكل أنواع أخرى وفي أيام معينة هو تعليم يعارضه الكتاب وينهى عنه(٣)، ويستدلون بكلام (بولس) في حديثه عن المضلين: "آمرين أن يمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر من المؤمنين وعارفي الحق، لأن كل خليقة الله جيدة ولا يرفض شيء إذا أخذ مع الشكر" [تيموثاوس١: ٤/٣-٤].

إذاً **فتحريم بعض أنواع من الطعام الذي خلق الله هو برأي البروتستانت دعوة إلى ضلال وتحريم لما أحل الله،** فكل ما خلق الله حسن وجيد ما دام آكله يؤدى شكر الله عليه، أما إذا قيل: إن دانيال حلل البقول واعتبرها طاهرة وحرم اللحوم وامتنع عن أكلها فالرد أن ذلك لم يكن صوماً منه وإلا اعتبرناه صائماً مدى الحياة في حين أن الصوم يوم له نهايته.

كذلك من مميزات الصوم الانقطاع التام طيلة اليوم عن الأكل والشرب مثل أهل نينوى [يونان ٣/٥-٧] وشعب إستير [استير ٤/١٥-١٦] فكل صوم فيه أكل وشرب لا يعدّ صوماً كتابياً.(٤)

وهذا الحديث يجعلنا ننتقل إلى **حكم الانقطاع** وفترته:

لا بد في الصيام المسيحي من فترة انقطاع كلّي عن الطعام والشراب، لأنه إذا بدأ الإنسان الأكل والشرب منذ بدء اليوم دون انقطاع لصار اسمه (نباتياً) لا صائماً، حتى أن معنى الصوم في اللغة هو الامتناع مطلقاً، لذا فلا بد مع إباحة المسيحيين لأكل بعض الأصناف من أن يسبقه فترة انقطاع كلي اختلف المسيحيون في تقديرها.

ويؤمن المسيحيون أنه لا بد أن تختلف **فترة الانقطاع المشار إليها من شخص لآخر؛** نظراً لاختلاف الناس في عدّة معطيات تؤثر في قدرة الإنسان على الامتناع الكلي، فالناس مختلفون في درجاتهم الروحية، ومختلفون في سنّهم وصحّتهم، ومختلفون في نوع عملهم، وكما يوجد حدٌّ أدنى لهذا الانقطاع، ففي الصوم الكبير مثلاً يكون حدّه أعلى من باقي الأصوام، وفي أسبوع الآلام يكون الحد أعلى حتى مما في الصوم الكبير.

والقاعدة المعمول بها في المسيحية **أن فترة الانقطاع تكون حسب إرشاد أب الاعتراف؛**

---

(١) مينا، علم اللاهوت، ص٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص٧١.
(٣) انظر: فارس (فايز)، حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، ص٢١٤.
(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢١٢.

وذلك حتى لا يبالغ بها البعض فتتعبهم جسدياً، كما قد تتعبهم روحيا فتجلب لهم أفكار المجد الباطل، وعلى النقيض فقد يتهاون البعض إلى درجة تفقده فائدة الصيام، لذا فمن الواجب في هذه الحالات أن يُشرف عليها أب الاعتراف.(١)

والمهم في المسيحية هو الوضع الروحي للإنسان لفترة الانقطاع، والطريقة التي يستفيد بها الإنسان روحياً من فترة الانقطاع، وطريقة الفائدة الروحية تتحقق إذا اتصفت فترة الانقطاع بالآتي:

١- ينبغي أن تكون فترة الانقطاع فترة زهد ونسك، أي بألّا يهتم الإنسان فيها بجسده.
٢- بعد فترة الانقطاع لا يصح للإنسان أن يأكل بشهوة.
٣- ينبغي للإنسان ألّا يضجر من فترة الانقطاع ويترقب نهايتها ليأكل.
٤- يجب على الإنسان أن يجعل حياته الروحية هي التي تقوده، وليست الحياة الجسدية بكافة نواحيها.

المطلب الثالث: أنواع الصيام والقيم والمعاني الروحية المتعلقة به:

أولاً: أنواع الصيام:

نستطيع تقسيم الصيام في المسيحية إلى أنواعٍ متعددة ومن حيثيات متعددة:

١- أنواع الصيام من حيث مضمونه:

يقسم الصيام في المسيحية من حيث مضمونه إلى قسمين:

أ. **صوم الصمت**: وهو الامتناع عن الكلام، وتلتزم به الكثير من الكنائس، ومستنده التشريعي هو مجمع الرسل الذي يرى المسيحيون أنه انعقد سنة ٥٠ أو ٥٢ للميلاد، وشكّل نواة المجامع اللاحقة، ولقد أقرّ هذا المجمع ضمن قراراته هذا النوع من الصيام، وهذا النوع من الصيام يلتزم به في أيامنا كثير من رجال الدين، وغالباً ما يرتبط بأيام الأعياد والمناسبات الدينية، وأما صيامه بالنسبة لرعايا الكنيسة عموماً فهو مرتبط عندهم بالرغبة الشخصية لا أكثر.(٢)

ب. **الصوم عن الطعام**: وهو الامتناع عن الطعام فترة من اليوم، ثم اتباعها بطعام نباتي حسب الاختلاف الذي تقدّم عرضه.

٢- أنواع الصيام حسب ما ورد في الكتاب المقدّس:

ينقسم الصيام حسب ورود أنواعه في الكتاب المقدس إلى أربعة أقسام:

أ. **الصوم الخصوصي بحسب ظروف الأوقات وأحوال الحياة**: والمقصود بهذا النوع **أشبه ما يكون بالنذر، وهو صوم يفرضه على نفسه الإنسان إذا وقع في شدة** أو حلّت به مصيبة أو نائبة من نوائب الدهر(٣)، ومثاله صيام النبي داود حين وقع بابنه مرضٌ فصام لأجله سبعة أيام [صموئيل٢: ١٢/١٦-١٨، ٢٠]، ومن هذا النوع أيضاً صيام نبي الله موسى حين صعد إلى الجبل ليقبل الشريعة: "وكان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر" [خروج: ٣٤/٢٨].

---

(١) انظر: شنودة، روحانية الصوم، ٢٠.
(٢) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٨٣-١٨٤.
(٣) انظر: إيسيذورس، مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، ص٤٥.

ب. **الصوم العمومي بحسب ظروف الأوقات وأحوال الحياة: وذلك عندما تشمل المحنة أو المصيبة شعباً أو أمة،** ويكون طريق الخلاص منها بتقديم عبادة جمهورية غير اعتيادية، يفرضونها على أنفسهم مدة مكابدة تلك المصيبة أو المحنة، ومتى خلصوا منها يتركوا ما فرضوه على أنفسهم، وغالباً يكون ما افترضوه على أنفسهم صوماً عاماً[١]، ومثال هذا الصيام صيام أهل (نينوى)، وهي المدينة التي زاغ أهلها عن الحق، وعملوا الشر أمام إله العالم، وارتكبوا أنواعاً من الآثام والخطأ، فأراد الله إبادتهم، لكنهم تابوا حينها، أخلصوا لله بواسطة النبي (يونان)، وصاموا صوماً جماعياً، فلم ينزل الله العقاب بهم [يونان: ٣/٧-١٠].

ت. **الصوم الخصوصي بحسب العبادة الواجبة: وهو الصوم الذي يفرضه الإنسان على نفسه بنية العبادة،** فيصير الصوم بهذه الأوقات التي يحددها الإنسان على نفسه اعتيادياً إلزامياً.[٢]

ومثال ذلك صيام (حنة) النبية: "وكانت نبية حنة بنت فنوئيل من سبط أشير وهي متقدمة في أيام كثيرة قد عاشت مع زوج سبع سنين بعد بكوريتها، وهي أرملة نحو أربع وثمانين سنة لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً" [لوقا: ٢/٣٦-٣٧].

ث. **الصوم العمومي بحسب العبادة الواجبة:** وهو الصوم الذي تفرضه الكنيسة على عامة رعاياها نوعاً من العبادة الجمهورية المشتركة، وتندرج ضمنه أكثر أنواع الصيام المعروفة في المسيحية.

٣- أنواع الصيام من حيث إخلاص النية فيه[٣]:

يقسّم المسيحيون الصيام من حيث إخلاص النية فيه وعدم إخلاصها إلى قسمين:

أ. **صوم المرائين:** طالبت الشريعة القديمة اليهود أن يصوموا يوم الكفارة العظيم، "ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر تذللون أنفسكم" [لاويين: ١٦/٢٩]، وبهذا التذلل لا يأكل اليهودي ولا يشرب ولا يستحم ولا يدهن رأسه بالعطور، وكأن امتناعه هذا هو إعلانٌ لتوبته وانكساره أمام الله، غير أن المرائين من اليهود مارسوا الصوم لأهدافهم الخاصة، فكانوا يصومون يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع لأنهما مخصصان لاجتماع الناس من أهل الريف والحضر للتسوّق، فكان بعض اليهود يصومون حينها بهدف إظهار تقواهم أمام الناس وليس تعبداً لله منهم، فكانوا يسيرون في الشوارع عابسين وقد غيّروا وجوههم ليدرك من يراهم أنهم صائمون.

ب. **صوم المؤمنين:** وهو الصيام الذي صامه المسيح وأوصى به، وسار على نهجه الرسل من بعده، على الطريقة التي أوصى بها يسوع المسيح، بأن يكون صومهم شخصياً بينهم وبين الله، فلا يعبسون ولا يغيرون وجوههم ليراهم الناس، بل يجب عليهم أن يدّهنوا بالطيب ويغسلوا وجوههم؛ ليرى الله وحده تواضعهم فيكافئهم بالجزاء السماوي.

٤- أنواع الصيام من حيث المفروض في الكنيسة[٤]:

يُقسّم الصيام في المسيحية حسب التعاليم المفروضة في الكنيسة – وهو آخر نوع تكلمنا عنه

---

(١) انظر: إيسيذورس، مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، ص٥٠.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص٥٦.
(٣) انظر: عبد النور (منيس)، شريعة المسيحية نحو الارتقاء الروحي، ص٤٣.
(٤) انظر: مينا، علم اللاهوت، ص٦٢-٦٥، وسلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٢/٣٧٢-٣٩٥.

(الصيام العمومي حسب العبادة الواجبة) – إلى المفردات التالية:

أ. **الصوم المقدّس**: ويُعرف أيضاً بالصوم الكبير، وعدد أيامه ٥٥ يوماً، منها الأربعون التي صامها المسيح "فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً" [متى: ٢/٤]، والخمسة عشر يوماً الباقي هي أسبوعا الاستعداد والآلام.
والأسبوع الأول منهما لتدريب المؤمن الصائم واستعداده حتى يستقبل هذا الصوم بطهارة نفس ونقاوة قلب، والأسبوع الثاني (الآلام) وهو أسبوع الفصح، وتوجب الكنيسة صيامه كي يتذكر الصائم ويشترك في آلام المسيح التي قاساها في هذا الأسبوع.

ب. **صوم الميلاد**: وعدد أيامه ٤٣ يوماً، ويبدأ في ١٦ تشرين الثاني، والحكمة في صيامه هي شكر الله على افتداء بني الإنسان بالمسيح.

ت. **صوم الرسل**: وعدد أيامه يزيد وينقص مراعاة للقاعدة المتفق عليها في المجامع المسكونية لضبط عيد الفصح كيلا يعيّد المسيحيون مع اليهود، وتتراوح مدته بين ١٥ إلى٤٩ يوماً، وحكمة صيامه شكر الله على ما أنعم به على الرسل من مواهب الروح القدس.

ث. **صوم السيدة مريم العذراء**، ومدته ١٥ يوماً، وأول من صامه هي السيدة مريم حسب الاعتقاد، ويبدأ صيامه ٧ آب، وفي بعض الكنائس ١٤ آب.

ج. **صوم أهل نينوى**: الذي به نجت تلك المدينة من غضب الله كما أشرت سابقاً، وأيامه ثلاثة، تبدأ بـ ١٨ شباط، والحكمة من صيامه أن تشمل الصائم الرحمة التي أنزلها الله على أهل نينوى.

ح. **صوم يومي الأربعاء والجمعة** على مدار السنة: ويستثنى من ذلك أيام الخمسين، وعيدي الميلاد والظهور إذا اتفقا فيهما، والحكمة من ذلك أن أحدهما تذكارٌ للمؤامرة على السيد المسيح، والآخر تذكار صلبه.

خ. صوم البرامون: ومعنى البرامون في الاصطلاح الكنسي هو الاستعداد للعيد أو ما قبل العيد، ويطلق عادة على الاستعداد الذي يسبق عيدي الميلاد والغطاس، وأوجبت الكنيسة صيامهما إشارة إلى فضل وقدسية اليومين التاليين لهما، فاليوم الأول بسبب فرح السمائيين والأرضيين بتجسّد الكلمة في العالم في هذا اليوم، "فقال لهم الملاك لا تخافوا فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب" [لوقا: ١٠/٢-١١].

واليوم الثاني بسبب ظهور الثالوث الأقدس فيه، "فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه، وصوت من السماوات قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" [متى: ١٦/٣-١٧].

ثانياً: فوائد الصيام في المسيحية والمشاعر المصاحبة له:

يرتب المسيحيون على الصيام بعض الفوائد الجسدية والنفسية والرحية، وأهم هذه الفوائد:

١- الصوم فترة راحة لبعض أجهزة الجسد.
٢- بالصوم يتخلّص الإنسان من البدانة والسمنة.
٣- الصوم يساعد على علاج كثير من الأمراض.
٤- الصوم يجعل الجسد خفيفاً ونشيطاً.(١)

وكذلك يؤمن المسيحيون أن الصيام تصحبه مشاعر جمة، وهي مشاعر يحتاجها المؤمن في حياته، فالذين يصومون ولا يستفيدون من صومهم لا بد أنهم صاموا بطريقة خاطئة، فالعيب

(١) انظر: شنودة، روحانية الصوم، ص٣١-٦٨.

ليس في الصيام إنما في طريقتهم، فقد يصوم الإنسان بطريق جسدية ولا يهتم بالفضائل المصاحبة للصوم، وأحياناً يخطئ المؤمن فيتخذ الصيام غاية في حد ذاتها وينسى أن الصيام وسيلة لإعطاء المعاني الروحية للنفس وتمتيعها بها.

وأهم الفضائل التي تصحب الصيام ما يلي:

١- **الصوم تصحبه التوبة:** يؤمن المسيحيون أنه لا بد للصائم من أن يكون فكره مقدساً وقلبه مقدساً وجسده مقدساً؛ لأن الصوم فترة تقرّب إلى الله، ومن هنا فإنه ينبغي عليه أن يتحلى بالتوبة، فيصوم بجسده عن الطعام، ويصوم بروحه عن كل شهوة أرضية، وعن جميع الملاذ الخاصة بالجسد، وبدون اصطحاب الصوم بالتوبة فإن الله لا يقبل الصوم، ويكون الإنسان قد عذّب نفسه بلا فائدة، ويشهد على ذلك صيام أهل نينوى وصيام يوئيل وصيام دانيال وغيرها، فكل هذه الأنواع من الصيام كانت مصحوبة بالتوبة حتى آتت ثمارها.

٢- **الصوم تصحبه الصلاة والعبادة:** يؤمن المسيحيون أن الصيام بدون صلاة هو مجرد عمل جسماني فاقد لطابعه الروحاني وفائدته الروحية، لأن صلاة واحدة يصليها الإنسان في صومه هي أعمق من مئة صلاة يصليها في غير الصيام، والاقتران بين الصلاة والصيام ورد مراراً في الكتاب المقدّس، ورد في سفر نحميا "فلما سمعت هذا الكلام جلست وبكيت ونحت أياماً وصمت وصليت أمام إله السماء" [نحميا: ٤/١].

٣- **الصوم مصحوب بالتذلل والبكاء:** يؤمن المسيحيون أن الصيام فترة تنسحق فيها الروح أمام الله بالتوبة والدموع وانكسار القلب واتضاعه، فتعرف الذات ضعفها، وتعلم أنها تراب ورماد فتلجأ إلى القوة العُليا، إذاً حين ينسحق الجسد بالجوع تنسحق الروح أيضاً، فتنحني أمام الله خاشعة ذليلة معترفة بخطاياها.

٤- **الصوم يصحبه الاعتكاف والصمت:** ورد في سفر يوئيل: "قدّسوا صوماً نادوا باعتكاف"، وتكررت هذه العبارة في هذا السفر مرتين [١٤/١، ١٥/٢]، فالإنسان في اعتكافه يصمت وينفرد وحده، فلا يجد من يكلّم سوى الله، فتنشغل روحه بالعمل الداخلي مع ربه، فالكلام يعطّله عن العبادة وتنقية الروح، وانفراده بالاعتكاف يساعده أيضاً على معالجة أمراضه الروحية، ويجعله متفرغاً لله.

٥- **الصوم يصحبه ضبط النفس:** حيث يضبط الإنسان نفسه ضد كل رغبة خاطئة، سواء كانت نابعة من داخله أو من تلبيس الشيطان عليه، وبالتالي يقهر الإنسان جسده، وبذلك تمسك الروح الموقف وتدبّر أمور الإنسان وحاجاته الروحية، وعندها يخضع الجسد وينقاد لها.

٦- **الصوم تصحبه الصدقة:** لأن الإنسان حين يجوع يشفق على الجائعين، وبهذا الشعور بالرحمة يقبل الله صيامه، ورد في إشعياء: "أليس هذا صوماً أختاره حل قيود الشر فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير، أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك إذا رأيت عرياناً أن تكسوه" [إشعياء: ٦/٥٨-٧].

المطلب الرابع: تطور شعيرة الصيام:

الأمر الجدير بالذكر أن **تشريع الصيام وفرضه بعد رفع السيد المسيح أصبح أمراً مباحاً،** بل أصبح حقاً تشريعياً لرجال الدين بدءاً من (بولس) إلى غيره من القديسين، وبما أن المسيحية تؤمن أن الكنيسة تسلّمت الحق التشريعي من الرسل فإن الكنائس مارست هذا الحق التشريعي أيضاً بإلزام الكثير من أبنائها بأنواعٍ من الصوم غير واردة في الكتاب المقدس ولا منسوبة للمسيح، إنما أجازت الكنيسة لنفسها هذا الحق التشريعي باعتبار وراثته عن الرسل.

وإذا أردنا التدقيق التاريخي لملاحظة تطور الصيام في المسيحية فإننا **نلحظ بداية هذا**

التطور في عصور المسيحية الأولى، وتحديداً على يد (بولس) الذي استطاع أن يخرج بالمسيحية عن أبرز معالمها وتعاليمها إلى مسيحية جديدة.

بدأ (بولس) بفرض أنواعاً من الصوم على المسيحيين، وهذا واضح لمن يقرأ رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس(١).

ومن جملة ما أحدثه بولس في الصيام أنه حين تم القبض عليه في روما بتهمة الدعوة إلى دين جديد لم يشأ حاكمها أن يحاكمه فأرسله إلى فلسطين، وبينما هم في الطريق هاج بهم البحر فصام بولس وأمر من معه بالصيام، واستمر ذلك أربعة عشر يوماً إلى أن نجوا من الغرق، فاتخذ المسيحيون هذا الصيام من بعده، ووافقوه لحادثة الحلول المعروفة في التاريخ المسيحي، وصار اسمه (صوم الرسل) مع أنه ليس من الشرع المسيحي في شيء.

سار الخط التطوري لشعيرة الصيام بشكل أكثر قوة واستعلاءً بعد وفاة (بولس)، فبموت (بولس) انتقل الحق التشريعي للكنيسة، وبذلك بدأت مرحلة جديدة من التحديد والتقنين للصيام، **فصار الأمر محدداً بأيامٍ وكيفيات وأطعمة** بعد أن لم يكن شيء من ذلك موجوداً، وكان الهدف من ظهور القوننة الكنسية للصيام - لا سيما في القرن الرابع للميلاد - هو **الإرضاء الروحي للصائمين** وإشعارهم بأداء الواجب الديني بعد أن تبيّن أن الصيام الكتابي تطوعي لا إجبار فيه.

بدأت الكنيسة المسيحية في منذ القرن الأول للميلاد بفرض أصنافٍ من الصيام بتحديد أيامها وأوقاتها، وكان ذلك أيضاً سبب خلافٍ بين الكنائس المسيحية.(٢)

وتردنا شهادة من القرن الأول للميلاد تشير إلى فرض الكنيسة في ذلك الحين أنواعاً من الصوم منها ما يستغرق يوماً أو يومين أو أربعين ساعة متوالية(٣)، وهذه شهادة مهمة جداً؛ فهي تؤكد بداية التغيير والتطور في العبادات المسيحية بعد حياة (بولس) بشكل مباشر، مع أن الشائع بين الكُتّاب أن التحريف ظهر عملياً في القرن الرابع.

وبعد ذلك **انتقلت شعيرة الصيام إلى مستوى آخر من التطور بعد الاختلاط المسيحي بالأمم الوثنية،** ومن المعلوم أن الوثنية لقّحت المسيحية بمبادئها الخاصة، فظهرت أفكارٌ جديدة بشأن الصيام المسيحي، وهي مخالفة بفحواها للمعلوم السائد في الفكر المسحي، ففي مجال الصيام تحّولت الدلالة الاصطلاحية لكلمة (صيام) من الامتناع عن الطعام والشراب مطلقاً إلى الامتناع عن أنواع معينة.

وبالتأثير الوثني ذاته ظهرت أصوام جديدة كصوم أسبوع الآلام الذي ظهر في القرن الثاني للميلاد، والذي أخذ بإيجاب الكنيسة له طابعاً شعبياً يصومه أكثر المسيحيين، وظهر كذلك صيام يومي الأربعاء والجمعة، لكن على سبيل الندب والاستحباب.(٤)

وينقل (**الندوي**) إنه في القرن الثالث ظهرت أيام مختلفة للصوم، كما أصبحت هناك حرية في إقامة هذه الشعيرة، فصار بعض المسيحيين يُنهي صيامه مع صياح الديك، والبعض يبقى صائماً حتى يحل الظلام، كما اختفى حينها صوم الأربعين (الكبير) - وهي الأيام التي يروي الكتاب المقدس أن المسيح صامها – حتى القرن الرابع الميلادي.(٥)

وكان **سبب إلغاء الصوم الكبير عند عامة المسيحيين التوسعة على الناس،** فبقي هذا

---

(١) انظر: العاملي (ناصر الدين)، الصوم في القديم والحديث، ص٢٩.

(٢) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٨٤.

(٣) انظر: الندوي (علي أبو الحسن)، الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى، ص١٩٢.

(٤) انظر: حمود (هادي)، منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، ص١٩٢.

(٥) انظر: الندوي، الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى، ص١٩٢.

الصوم في نطاق محدد تفرضه الكنيسة على بعض رعاياها من باب العقوبة، وباعتبار صعوبة هذا الصيام وطول مدته وعدم صراحة الكتاب المقدّس بإيجابه طالب بعض المسيحيين بإلغائه.(١)

وبناءً على فرض الصيام من جهة الكنيسة لأنواعٍ كثيرة من الصوم، وعدم صراحة الكتاب المقدس بالفرضية ولا بالكيفية **اختلفت الفرق المسيحية في التمسك بالصيام واتباعه،** وتم تشريع الكثير من أنواع الصوم التي لا تدخل ضمن الأنواع التي تم عرضها في المطلب السابق، وكان التزام المسيحيين بالصيام متفاوتاً أيضاً حسب ما يلي:

أولاً الصيام عند الكاثوليك:

يبدأ الكاثوليك صومهم من منتصف الليل إلى منتصف النهار، وكان الكاثوليك يأمرون الأطفال بالصيام منذ سن السابعة، وينتهي الصوم للرجال في سن الستين وللنساء في سن الخمسين، كما يقر الكاثوليك صيام الصمت، ثم جعلوه تشريعاً كنسياً.

ويلتزم الكاثوليك بالصوم الكبير، ويصومونه أربعين يوماً فقط تنتهي بعيد الفصح، وكان هذا الصيام يطول أربعين ساعة متواصلة في القِدَم، ثم تطور شيئاً فشيئاً ليصبح أربعين يوماً قياساً على صيام موسى وإيلياء وإليشع والمسيح.

ويصوم الكاثوليك أيضاً يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع، بالإضافة إلى أيام (١٤ أيلول) و(١٣ كانون الأول)، وتسمّى بأيام (الأمبر) وهي لفظة مأخوذة من معنى (الرماد) الذي كان اليهود يوارون به رؤوسهم دليلاً على خضوعهم لله.(٢)

ويصوم الكاثوليك أيضاً يوم (جميع القديسين) الذي تمّ فرضه في الكاثوليكية سنة ٦١٠م، يصومونه في اليوم الأول من تشرين الثاني.

وسار الأمر عند الكاثوليك على المنوال السابق إلى أن جاء البابا (بولس السادس)(٣)، وفي عام ١٩٦٦م أصدر (بولس السادس) مجموعة من القوانين الجديدة للصيام شملت أيام الميلاد و(الأمبر) مع تعديل مواعيد صوم الأمبر، فصار يومي الأمبر في (أربعاء الرماد) و(الجمعة الحزينة).(٤)

وصدر أيضاً أيام البابا (بولس السادس) بعض التعاليم الإكليريكية تعليم بالندب للصيام السابق على تناول الإفخارستيا، وأعطت الكنيسة الكاثوليكية أيضاً لرجال الدين السلطة بإعفاء من ترغب من أتباعها من الواجبات الدينية ومن ضمنها الصيام، فصار للآباء الحرية في منع مَن يريدون من الواجبات الدينية وإسقاطها عنهم.(٥)

كما صار الصيام يبدأ بالوجوب عندهم في سن الواحدة والعشرين غير ما كان عليه منذ السنة السابعة من العمر.(٦)

ثانياً: الصيام عند الأرثوذكس:

---

(١) انظر: لويس (يوسف)، شرح التعليم المسيحي، ص١٩٧.

(٢) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٨٧.

(٣) هو بابا الكاثوليك بولس المولود سنة ١٨٩٧م، تسلّم كرسي البابوية منذ عام ١٩٦٣ حتى وفاته، التزم بالنهج الذي رسمه سلفه البابا يوحنا الثالث والعشرون، وعمل من أجل إعادة اللحمة بين الكنيستين الشرقية والغربية، زار فلسطين سنة ١٩٦٤م، وألقى خطاباً في مقر الأمم المتحدة بنيويورك دعا فيه على السلام العالمي سنة ١٩٦٥م، توفي سنة ١٩٧٨م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص١٢١.

(٤) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٨٧.

(٥) انظر: الخطيب (علي)، الصيام من البداية حتى الإسلام، ص١٥٧.

(٦) انظر: مينا، علم اللاهوت، ص٢١١.

يصوم الأرثوذكس الصيام الكبير باعتباره أهم أنواع الصيام، ويمتد عندهم خمسين أو خمسة وخمسين يوماً، ويتبعون طريقة فلكية في حساب أيامه تزداد وتنقص، كما يصومون (يوم القدم) أي قدوم المسيح، ويقع قبل يوم الميلاد.

يصوم الأرثوذكس أيضاً صوم الميلاد الذي يمتد أربعين يوماً، ويصومون أيضاً العنصرة، وصوم العذراء، وصوم نينوى، والبرامون.

ويتضح لدى الأرثوذكس كثرة أيام الصيام عندهم، الذي قد يصل إلى ٢٦٦ يوماً في السنة، هذا إذا حسبنا الأيام التي أشرت إليها مع صيام يومي الأربعاء والجمعة المندوب لصيامها عندهم.

وأثناء جميع الأيام المشار إليها يترك الأرثوذكس أكل اللحوم والمشتقات الحيوانية كافة باستثناء أيام السبت والآحاد، فإنهم يأكلون فيهما كل الأصناف.(١)

ثالثاً: الصيام عند البروتستانت:

يؤمن عامة البروتستانت – على خلاف زعمائهم - أن الصيام في الأساس هو عبادة تطوعية، ولا يوجد صيامٌ واجبٌ في الجملة، ويبقى الصوم مسألة شخصية مشروطة بأن تكون نابعة من إحساس البروتستانتي بالحاجة إلى العبادة والتوبة.(٢)

ويحتجّ البروتستانت على منعهم لإيجاب الصيام على أحد بقول لبولس في رسالته إلى أهل كولوسي: "مرائين ينطقون بالكذب وضمائرهم مكوية، ويمنعون الناس من الزواج من أكل أطعمة خلقها الله ليتناولوها بشكرٍ كلٌ من آمن وعرف الحق" [كولوسي: ٢/٤-٣].

وبناءً على ذلك لا يأمر البروتستانت رعايا كنيستهم بالصيام أبداً، بل هم أيضاً يكرهون أنواع الصوم التي أوجدتها الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية.(٣)

التعقيب:

تميّز الصيام في المسيحية بكثرة المعاني الروحية التي أحاطت به، حتى غدا من أهم العبادات في المسيحية، وصار شعيرة ملازمة لأكثر أيام السنة لا سيما عند الأرثوذكس، الذين تجاوزت أيام صومهم ما بين الواجب والمندوب ٢٦٠ يوماً، وهو رقم يشير إلى اعتبار مهم للصيام في عقيدتهم.

لكن الناظر في التشريع المسيحي للصيام سيجد **كمّاً ظاهراً** من العبثية التشريعية تحيط بالصيام من جميع وجوهه دون استثناء.

تتنوع العبثية المشار إليها من حيثيات متعددة، كمصدرية التشريع الديني للصيام، وأسلوبه العملي، وأيامه واعتباره إلى غيرها من المحاور المهمة التي لم يسلم جميعها من العبثية المشار إليها.

ولعل في **كثرة الدخيل وتعدد الاجتهادات** البشرية سبباً كافياً لنقد التشريع المسيحي للصيام، لا سيما أن مطلق الألفاظ الواردة في العهد الجديد والمنسوبة للمسيح لا يمكن أن تتكون منها نظرية تشريعية البتة.

بل **غاية ما في الأمر لا يعدو أن يكون أمراً بالندب لا الوجوب،** وهو خلاف ما تعمل به الكنائس حالياً – ما عدا البروتستانت – وسيتضح هذا الأمر أكثر فيما يأتي.

ومن الممكن أن نوجّه للمسيحيين بعض الاعتراضات والتساؤلات التي تضع الصيام موضع

---

(١) انظر: الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٨٩.
(٢) انظر: الخطيب، الصيام من البداية حتى الإسلام، ص١٦١.
(٣) انظر: الخطيب، الصيام من البداية حتى الإسلام، ص١٦١-١٦٢.

الشك والريبة، وتكشف قناع الزيف والدخيل الذي ألحقه البابوات بتشريع الصيام.

أولاً: إن مجرد الانقطاع عن الطعام المحتوي للمشتقات الحيوانية والزهومات لا يمكن أن يسمّى صياماً، إذ المعنى المتبادر إلى الذهن عند إطلاق الصيام إنما هو الامتناع، وهو المعنى اللغوي، ومعنى الامتناع هو عدم تناول أي شيء البتة، فجاء المسيحيون وقيّدوا هذا الإطلاق بالمشتقات الحيوانية، وهو أمر خاطئ؛ لأن الحكمة المتبادرة إلى الأذهان من الصيام إنما هي إشعار الإنسان بالجوع والعطش، ومكابدة الإنسان لهذه المشاعر الجسدية وقهرها، ومن هنا يتعلم الإنسان كيف يقود نفسه ويتحكم بغرائزه ويضبطها، أما الامتناع النسبي فسينسف هذه الحكمة بأكملها.

فما الفائدة أن يمتنع الإنسان عن بعض الأطعمة وتكون له الحرية التامة بأن يملأ بطنه من الطعام النباتي؟

فقد يستغني بعض الناس عن المشتقات الحيوانية طيلة حياتهم، ويملؤون بطونهم بالطعام النباتي المتنوع، ويشعرون بعدم الحاجة إلى المشتقات الحيوانية أساساً، فكيف يكون هؤلاء صائمين.

وفي الحقيقة فإن في الطعام النباتي مندوحة لكثير من الناس، وفي تعدد أصنافه وكثرة أنواع ما يستطيع معه الإنسان أن يشعر بكامل الشبع والاكتفاء الغذائي من البروتين والمعادن، وعندها لن يشعر بشيء من الجوع أبداً، وسيكون صيامه من الناحية الدينية المسيحية صحيحاً مقبولاً، مع أنه لم يشعر بأي نوع من المكابدة للجوع والعطش، فأي صيامٍ صامه هذا؟

وإذا أردنا النظر في الأدلة الكتابية لتحديد آلية الصوم ضمن الأدلة المنسوبة إلى المسيح في الكتاب المقدس والتي يبني عليها كثير من المسيحيين الاعتقاد بوجوب الصيام **فلن نجد أي دليل يشير إلى الكيفية التي يصوم بها المسيحيون**، فلا شك أنها طريقة دخيلة، إذ لا دليل عليها من أقوال المسيح.

ومن المؤكد أنه **في هذه الحالة المفتقدة للنص الذي يحسم الموقف فإن الباب سينفتح على الأفهام البشرية**، وستتدخل الاجتهادات الآبائية في تحديد أبعاد هذا الأمر وتحديد نطاقه وكيفيته، لكن للأسف فقد تم الأمر بالطريقة التي زادت الفوضى التشريعية، وهذا شأن أفهام رجال الكهنوت الذين ظنوا لأنفسهم الحق المطلق في الاجتهاد في القضايا الشرعية على أي مستوى كان.

ومن الملاحظ أن رجال الكهنوت بالغوا في التعنت في مسألة الصيام حتى جعلوه فرضاً وركناً من أركان المسيحية، مع أن الإعلانات الكتابية لا تشهد لشيء من هذا القبيل.

ومن المؤكد أن **موضوع الصيام حصل حوله الكثير من الشطط** من حيث الاجتهادات البشرية وتحديدها لنطاقه، لا سيما ما فعلته كنيسة روما الكاثوليكية، التي حاولت في اجتهاداتها الخروج الكلي عن مفهوم الصيام، فقد صرّحت هذه الكنيسة لأبنائها بأكل اللحم والبيض في الصوم الأربعيني الكبير، وهو ما ورد في كتاب (اللاهوت الأدبي): "محرم على كل مؤمن مميز أن يأكل لحماً في أيام الصوم ..... ولكن في يومنا هذا يُفسح للمؤمنين تفسيحاً عاماً من هذه الشريعة في بلدان كثيرة، وقد يستثنى بضعة أيام، بل إن كثيراً من الأساقفة بحسب تقويض الحبر الروماني يفسحون لأبروشياتهم من هذه الشريعة، حتى من أكل اللحم في قسم كبير من مدة الصوم الأربعيني"(١)

كما زادت كنيسة روما الشطط في هذا الأمر، **فلم توجب الصيام إلا على من وصل إلى**

---

(١) غوري (بطرس)، مختصر اللاهوت الأدبي، ص٦٠٧.

الواحدة والعشرين من العمر، ولا ينفسخ الصيام عندها بأي مشروب يتناوله الصائم مهما كان.(١)

وهذه السعة في الصيام لا تقرها الأرثوذكس إلا في أحوال استثنائية كالمرض، لأنها مخالفة لوضع الكنيسة الأصلي للصيام برأيهم.(٢)

مما سبق يتبين الخطأ التشريعي في موضوع كيفية الصيام في المسيحية وأن مجرد الانقطاع عن الطعام الحيواني لا يعدّ صياماً؛ إذ قد يكتفي الكثير من الناس بالطعام النباتي، فكيف يكون مع هذا الاكتفاء صائماً؟

ثانياً: إذا نظرنا في **الأدلة التشريعية للصيام** التي جاءت على سبيل المثال والقصة فإنه من الصعب أن نستنتج منها الأمر التشريعي من المسيح بالصيام، بل **لا يُفهم منها أنه على سبيل الطلب أساساً بأي وجه كان.**

وحين نقرأ الكتاب المقدس يُصادفنا إعلان منسوب إلى (بولس) في رسالته الأولى إلى تيموثاوس، يقول فيها: "ولكن الروح يقول صريحاً إنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين، في رياء أقوال كاذبة موسومة ضمائرهم، مانعين عن الزواج وآمرين أن يمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر من المؤمنين وعارفي الحق" [تيموثاوس١: ١/٤].

حقيقة النبوءة السابقة من بولس شديدة الخطورة في قضية الصيام، **وكأن (بولس) يرى الامتناع عن تناول بعض الأطعمة نوعاً من التفريط وقلة الدين،** وأن الروح القدس يعلّم ذلك، فحرمان النفس من بعض المطعمات تنسكاً وقهراً للجسد هو نوعٌ من السلبية المشيرة إلى الارتداد عن الدين، وفي الحقيقة جميع الكنائس المسيحية – باستثناء البروتستانت - لا تحرم الصائم الطعام مطلقاً، بل تشير إلى منع بعض الأصناف كما هو واضح بيّن في الإعلان ذاته، وكأن الصيام هو ذات الأمر الذي جعله بولس علامة اتباع الشيطان، ولا يمكن أن يُفهم هذا الإعلان – بعد جمع أدلة الصيام ومقارنتها - إلا على هذا النحو.

ثالثاً: لو تأملنا في أدلة الصيام الكتابية في العهدين لا سيما القديم لعرفنا منها أن الصيام كان لا يُمارس إلا في أزمنة معينة يقسمها قاسم مشترك هو الشدة والضيق، فعامة الأدلة التي تتكلم عن صيام الأنبياء إنما تتكلم به على هذا النحو.

وقد جاء التشريع المسيحي الكتابي للصيام في هذا السياق ذاته، إذ الكتاب المقدس بعهديه هو محل إجلال واحترام من المسيحيين، وتقريباً جميع الإعلانات التي تشير إلى الصيام وتعرض صيام الأنبياء والصالحين إنما تصحب ذلك بالحديث عن معاناتهم وما تعرّضوا له من ظروف قاسية وغضب الرب على أقوام من بني إسرائيل وإرادة هلاكهم وغير ذلك، وفي تلك الحالات المشار إليها كان الناس أو الأنبياء يتقدمون لله بصيام وعبادة كي يرفع الضيق ويُفرّج الشدة.

ومن هنا فقد ارتبط الصيام بأحوال الضيق والكرب والهم، وحين وجّه البعض هذا الاعتراض إلى المسيحيين كان الرد بأن الإنسان المؤمن يعيش ضيقاً مستمراً وشدّة ملازمة لذا فهو مأمور بالصيام.(٣)

رابعاً: من جملة الاعتراضات التي يُعترض بها على مبدأ الصوم في المسيحية هو **تحديد الأيام، فالمسيحيون يرون أن المرجع الأساس في تشريع الصيام إنما هو كلام السيد المسيح، والمسيح عليه السلام لم يعيّن وقتاً للصوم،** لكن **جاء ذلك من جهة الآباء والكنيسة،** الذين

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩٨.
(٢) انظر: مينا، علم اللاهوت، ص٢١٢.
(٣) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٠٦/٢.

جعلوا لأنفسهم الحق في التشريع المسيحي وابتكار المواعيد والأيام التي ينبغي على المؤمن صيامها، ولقد أشرت إلى الفوضى التي حصلت إبان تحديد مواعيد الصيام بين الفرق المسيحية، حتى غدا الأمر غاية في الشطط.

فالكاثوليك حددوا لأنفسهم أياماً تصل إلى ما **يقارب ٦٠ يوماً**، بعضها واجب كصيام الأربعين، وبعضها الآخر مندوب، ومن المعلوم أن الكنيسة الكاثوليكية أقدم في الوجود من الأرثوذكسية، التي كانت تتبع الكنيسة الأم في روما أساساً، ولما استقلت الأرثوذكسية لم يحلُ لها هذا التشريع، لا سيّما أن الأرثوذكس اشتُهروا بنزعتهم المحافظة، التي حملتهم على ابتداع أنواعٍ كثيرة من الصيام.

ونتيجة النزعة المحافظة لديهم، والشطط في تشريع أنواع الصوم الكثير بتنوع كثير وجد **الأرثوذكس** أنفسهم أمام كمٍ كبير مرهق من الصيام **زاد على ٢٦٠ يوماً** في السنة، وهو تشريع ينطوي على قدرٍ كبير من المشقة، يصعب على الفرد المسيحي الالتزام به، فحاولوا التوفيق بين طلبهم للصيام وإيجاب كنيسة القسطنطينية له على أتباعها وبين صعوبته وكثرة أيامه بالتفريق بين عدة أنواع منه على جهة الوجوب أو الندب.

أما **البروتستانت** فقد نظروا إلى الأدلة بعقلانية ووعي وإنصاف، فرأوا فيها ما هو **كفيل بنسف التشريع الكنسي للصيام أساساً**، فلم يقصّروا في هذا المجال، إذ رجعوا بالصيام إلى مفهومه الكتابي الذي ورد عن المسيح، فلم يأمروا بوجوب صيام أي يوم من السنة، ولم يحملوا الأمر الكتابي على الوجوب، بل حملوا ذلك على الاستحباب والندب لا أكثر، وتحديد الأيام راجع إلى المؤمن الذي سيصوم دون تحديد عليه.

وهذا يدل على أن المسيح عندما تكلّم عن الصوم تكلّم به كفضيلة ندب إلى ممارستها لا أكثر، إذاً فلا وجه لإيجاب الكاثوليك والأرثوذكس للصيام على رعايا كنائسهم؛ لأن في ذلك خروجاً عن هدي المسيح وكلامه.

وبما أن الترتيبات المتعلقة بالصيام كلّها من وضع البابوات والكهنة فإن الخضوع لها ليس واجباً، ولعل النظر في الأدلة الكتابية يُفضي إلى أن أصح ما في الأمر هو ما فعلته فرقة البروتستانت.

يقول القس (**فايز فارس**): "والرب يتبرأ من كل صوم يفرضه الإنسان على نفسه أو غيره كفريضة دورية ثابتة، كما ورد في زكريا "قل لجميع شعب الأرض وللكهنة قائلاً لما صمتم ونحتم في الشهر الخامس والشهر السابع وذلك هذه السبعين سنة فهل صمتم صوماً لي أنا، ولما أكلتم ولما شربتم أفما كنتم أنتم الآكلين وأنتم الشاربين" [زكريا: ٧/٥-٦].

أي إن ما فعلتم كان من تلقاء أنفسكم بغير أمر مني، ومن ثم فلا شأن لي بأصوامكم ولا بأيامكم".(١)

ثم يقول بعد ذلك مؤكداً خطأ أنواع الصيام الدورية التي تعارف عليها جماهير المسيحية: "لذلك فأنواع الصيام التقليدية المفروضة بالإضافة إلى أنها بلا دواع شخصية أو عائلية أو كنسية فإنها لم يأمر بها الله، ولا تتمتع بمميزات الصوم الكتابي كالسرّية أو الانقطاع".(٢)

خامساً: العبادة في الصيام:

نظراً إلى الأدلة الواردة في العهد القديم والجديد حول الصيام وإلى التشريع الكنسي الذي حظي به الصيام يستنتج القارئ أنه **حين يتكلم المسيحيون عن الصيام فإنهم يتكلمون عن عبادة مهمة جداً.**

---

(١) فارس، حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، ص٢١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٦.

ومعنى العبادة في الصيام المسيحي ظاهر وواضح، فهو يتضمن انقطاعاً نسبياً عن مجموعة من الأطعمة تعبّداً لله، وإذا عرفنا هذا فإن توجيه هذه العبادة إلى غير الله غلط كبير.

وإذا نظرنا إلى واقع الصيام المسيحي فسنجد **نوعين من الصيام يندرجان ضمن الكلام السابق** هما (صيام العذراء) و(صيام الرسل)، فإن **فيهما توجيهاً للعبادة إلى غير الله**، وهذا الاعتراض **تقدّم به بعض المسيحيون أنفسهم**.(١)

مع العلم أن هذا الاعتراض من الممكن نقضه، وذلك أن نوعي الصيام المشار إليهما ليس في مضمونهما توجيه العبادة إلى غير الله أبداً، بل **هما** عند - الأرثوذكس خاصة – **نوع من الاقتداء بمن وضعهما لا أكثر**، لا سيما أن كل نوع من الصيامين المذكورين ينتهي بالأعياد المسماة ذاتها، فصوم الرسل ينتهي بيوم العنصرة وهو يوم ذكرى حلول الروح القدس على الرسل، وصوم العذراء ينتهي أيضاً بأحد الأيام التي تحتفل الكنيسة فيها بالعذراء.

ويرى القمص (**يوحنا سلامة**) أن تسمية هذين النوعين من الصيام إنما كان **من باب تسمية الشيء باسم واضعه**، كما كان أيضاً تكريماً لهم وتخليداً لذكراهم، وقال: "ومعلوم أن إسناد الشيء لواضعه أو قائله لا يوجبه دائماً له، والأمثلة على ذلك كثيرة منها تسمية التوراة بتوراة موسى، وشريعة موسى، ونشيد الإنشاد لسليمان، ومزامير داود، وأسفار الأنبياء، فإذا قرأنا أو رتّلنا أو صلّينا بهذه المزامير لا نكون حقاً قد قرأنا أو رتّلنا أو صلينا لموسى وداود ولغيرهما، ومثل ذلك صوم الرسل والعذراء".(٢)

لكن هذا **الكلام ليس دقيقاً لأمرين، أولهما** أنه **لم يرد في الكتاب المقدّس مطلقاً أن مريم العذراء صامت**، ولم يرد ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد، إذاً فلا دليل على صوم العذراء الذي يصومونه.

ثانيهما أن الناظر في صيام العذراء يجد فيه أن معنى العبادة والتقديس موجهٌ إليها لا إلى الله، إذ تتضمن صلواته الدعاء إلى العذراء مريم التشفّع للعذراء مريم في قضاء حاجاته ومصالحه الزمنية، كإطالة عمر الأولاد والنجاح في الامتحانات وشفاء الأمراض وغيرها، وهذه الأمور لا تُطلب من إنسان مهما كان شأنه.

ولقد ورد في الكتاب المقدس ما يشير إلى أن **بعض الرسل كانوا إذا توجّه إليهم أحد بالتعظيم أو التقديس رفضوا ذلك** وسارعوا في إنكاره، فقد جاء في سفر أعمال الرسل: "وكان يجلس في لسترة رجلٌ عاجزُ الرجلين مقعد من بطن أمه ولم يمش قط، هذا كان يسمع بولس يتكلم فشخص إليه وإذ رأى أن له إيماناً ليُشفى، قال بصوت عظيم قم على رجليك منتصباً فوثب وصار يمشي، فالجموع لما رأوا ما فعل بولس رفعوا صوتهم بلغة ليكاونية قائلين إن الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا، فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس إذ كان هو المتقدم في الكلام، فأتى كاهن زفس الذي كان قدام المدينة بثيران وأكاليل عند الأبواب مع الجموع وكان يريد أن يذبح، فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما واندفعا إلى الجمع صارخين، وقائلين أيها الرجال لماذا تفعلون هذا نحن أيضا بشر تحت آلام مثلكم نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها" [أعمال الرسل: ١٤/٨-١٥].

فهؤلاء حاولوا أن يقدّموا لبولس وبرنابا نوعاً من العبادة التي لا يصح تقديمها إلا إلى الله فرفضا ومزقا ثيابهما نتيجة خوفهما أن يتوجه إليهما أحدٌ بالعبادة، لا سيما أن المسيح قال: "حينئذ قال له يسوع اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد" [متى:

---

(١) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤٠٩/٢.

(٢) انظر: سلامة، اللآلئ النفيسة شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ٤١٠/٢.

١٠/٤].

سادساً: أكل البقول:

تقدّم أن المسيحيين يؤمنون بأن الصوم انقطاع عن أكل المشتقات الحيوانية واكتفاء بالبقول النباتية، مع أنه **ورد في رسالة (بولس) إلى أهل رومية ما يفيد كراهية هذا الأمر**، يقول (بولس): "واحد يؤمن أن يأكل كل شيء وأما الضعيف فيأكل بقولاً" [رومية: ٢/١٤]، فكيف يوجب المسيحيون على رعاياهم الصيام عن المشتقات الحيوانية ثم يصف (بولس) من يفعل ذلك بضعيف الإيمان؟

مما سبق يتبين لنا أن الصيام في المسيحية **أمر تعلّقت به فوضى تشريعية كبيرة**، مع أن الصيام في الأصل شريعة إلهية شرعها الله لجميع الديانات السماوية كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم، لكن اختلف المسيحيون فيه اختلافاً بيّناً من حيثيات متعددة، حتى غدا معها الصوم **قاصراً عن أن يوصف بكونه (تشريعاً)**، إنما هو محض اجتهادات لا قيمة لها ولا أثر لها بالإيجاب أو الرفض كونها اجتهادات بشرية مختلفة عاجزة عن وضع قاعدة يجتمع عليها اتباع المسيحية، ولقد **فهم البروتستانت هذه الحقيقة** رغم حرص زعمائهم الروحيين (لوثر وكالفن) على الإشارة إلى ضرورة الصيام، ولقد نقلت أقوالاً عن (لوثر وكالفن) تفيد أنهما كانا يأمران بالصيام، ويعدّانه أمراً محتماً، لكن يبدو أن أتباع البروتستانتية كانوا أكثر عقلية ووعياً من زعمائها، فرفض البروتستانت القول بوجوب الصيام، واقتصروا في تشريعه على كونه مندوباً مستحباً دون الوجوب.

المبحث الثالث: الزكاة (الصدقة)

إن أول ما يلفت الانتباه في موضوع الزكاة في المسيحية أنها **تأخذ اسم (الصدقة)** فلا يوجد التعبير بالزكاة عنها في الكتاب المقدس، لذا سيكون مصطلح (الصدقة) هو المعتمد في هذه الدراسة.

يشتمل التشريع المسيحي على بعض التعاليم التي تأمر بالصدقة، وتنال هذه التعاليم منزلة مهمة في التشريع؛ إذ **تندرج ضمن مفهوم المحبة** التي يؤكد عليها المسيحيون في النواحي الأخلاقية من التشريع الديني المسيحي، ورد في إنجيل يوحنا: "فكيف تقيم محبة الله في ذلك الذي يُغلق أحشاءه دون أخيه الإنسان" [يوحنا: ١٧/٣].

المطلب الأول: مفهوم الصدقة وأدلتها:

أولاً: مفهوم الصدقة وحكمها:

يؤمن المسيحيون بالشريعة اليهودية التي فرضت على أتباعها العشور، وكانت العشور في اليهودية تقوم على أن يقسم المرء أمواله من كل نوع أو جنس إلى عشرة أقسام في كل سنة، فيخرج العشر منها ويوزعه على الفقراء من اللاويين الكهنة والأيتام والأرامل دون أن يأكل صاحبه منه أو يأخذ منه أي شيء.

ورد في سفر التثنية: "متى فرغت من تعشير كل عشور محصولك في السنة الثالثة سنة العشور وأعطيت اللاوي والغريب واليتيم والأرملة فأكلوا في أبوابك وشبعوا، تقول أمام الرب إلهك قد نزعت المقدس من البيت وأيضاً أعطيته للاوي والغريب واليتيم والأرملة حسب كل وصيتك التي أوصيتني بها لم أتجاوز وصاياك ولا نسيتها، لم آكل منه في حزني ولا أخذت منه في نجاسة ولا أعطيت منه لأجل ميت بل سمعت لصوت الرب إلهي وعملت حسب كل ما أوصيتني" [تثنية: ١٢/٢٦-١٤]، كما ورد أيضاً اقتران أداء العشور ببركة الله التي يمنحها لمن التزم بأمره، "هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون في بيتي طعام وجربوني بهذا قال رب الجنود إن كنت لا أفتح لكم كوى السماوات وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع" [ملاخي: ١٠/٣].

ولقد كان المسيحيون قديماً يؤمنون بوجوب العشور عليهم، وأنه **فريضة كتابية** كما الحال عند اليهود، فكانت تؤخذ العشور من أموالهم النقدية ومن محاصيلهم وغلّاتهم الزراعية ومن نتاج الحيوانات، فتعطى لمن يستحقها من الفقراء والمساكين والأرامل والغريب.

وفي العصور التالية لمجمع نيقية **حدثت حركة تأويلية لمفهوم الصدقة والعشور** عندهم من حيث فرضيتها، ولقد أشرت سابقاً إلى تلك الحركة التأويلية التي غيّر فيها المسيحيون كثيراً من المفاهيم الاعتقادية والعملية، **فصار إعطاء العشر من الأموال غير محمول على أداء الواجب الديني، بل أصبحت الصدقة بمفهومها الواسع نوعاً من التطوع لا أكثر.**

ولم يعد المسيحيون يلتزمون بأداء العشر المفروض في التوراة عملاً بالعهد القديم، بل **أصبح أداء ذلك تطوعاً غير محدود بحدود العشر**، ونستطيع القول بأن مفهوم العشر قد أُلغي العمل به في المسيحية، واقتصر مفهوم الصدقة على ما يجود به المرء دون إلزامٍ أو تحديد، فاضمحلت الفريضة الكتابية وبقيت الصدقة غير محددة بكمٍ ولا كيفية.

يقول القس (**كرم**): "وحيث أن الإنسان مؤتمن على المال فيجب عليه أن يتصرّف في ضوء إمكاناته المادية، وإن تقديم بكور الغلات وبكور الحيوانات وما يقدّمه المرء للمعبد والكنيسة من

قرابين وعشور هي من أنواع الصدقة".[١]

بالإضافة إلى أن **هناك تياراً آخر في المسيحية ما زال يؤمن بأن أداء الصدقة واجب شرعاً** على كل مؤمن متدين بالمسيحية؛ **لأن فحوى الديانة المسيحية هو افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم**، وحفظ الإنسان بلا دنس من العالم.[٢]

ثانياً: أدلة الصدقة:

ورد في العهد القديم ذكر العشور مراتٍ كثيرة، وورد ذكر الصدقة في العهد الجديد أربع عشرة مرة حسب الأصل اليوناني [متى: ١/٦، ٢، ٣، ٤] [لوقا: ٤١/١١، ٣٣/١١٢] [أعمال الرسل: ٢/٣، ٣، ١٠، ٤/١٠، ٣١، ١٧/٢٤].

المطلب الثاني: شرط الزكاة وأنواعها:

للزكاة شرط واحد في المسيحية هو **أن تكون نابعة عن إخلاص من الإنسان، ودليل ذلك أن تكون في السر** لا في العلن[٣]، وهذا ما يتضح من سياق الأدلة التي تأمر بالصدقة.

وبناءً على الشرط السابق **تتنوع الصدقة إلى أنواع متعددة**:

أولاً: من حيث إخلاص النية في إخراجها (صدقة المرائين، وصدقة المؤمنين):

أ. **صدقة المرائين:** كانت الصدقة في العهد القديم فرضاً واجباً كما تقدّم، وكان متدينو اليهود يسعون للمبادرة بها، وكان البار عندهم هو الإنسان المعطي للصدقات، وهذا ما نادت به شريعة سيدنا موسى وحضّت عليه، فقد ورد في العهد القديم: "إذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريباً أو مستوطناً فيعيش معك" [لاويين: ٣٥/٢٥].

وأمرت أيضاً الشريعة الموسوية ببسط اليد للأخ المحتاج، "إن كان فقيراً أحدٌ من إخوتك في أحد أبوابك في أرضك التي يعطيك الرب إلهك فلا تُقَسِّ قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير" [تثنية: ٧/١٥].

ولقد **جاء المسيح مؤكداً القيمة الأخلاقية المتجسدة في الصدقة**، ومشيراً إلى دورها المهم في تنقية السرائر والقلوب، فقال: "أعطوا ما عندكم صدقة فهو ذا كل شيء يكون نقياً لكم" [لوقا: ٤١/١١]، وقال: "لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سر أن يعطيكم الملكوت، بيعوا ما لكم وأعطوا صدقة اعملوا لكم أكياساً لا تفنى وكنزاً لا ينفد في السماوات حيث لا يقرب سارق ولا يبلي سوس، لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً" [لوقا: ٣٢/١٢-٣٤].

ولقد **عاصر المسيح بعض المرائين في إعطاء الصدقة**، الذين كانت لهم عادة أن **يستأجروا موسيقياً يضرب بالبوق أمامهم** وهم يقدّمون عطاياهم للفقراء؛ **حتى ينالوا تمجيد الناس ومدحهم**، وكانوا يفعلون هذا في مجتمع العبادة حيث يوجد الكثير من الناس، فيظهر هؤلاء أمامهم بمظهر المتصدّق، وأحياناً يفعلون ذلك في أزقة الفقراء.[٤]

وقد **وبّخ المسيح أمثال هؤلاء المرائين** بقوله: "قد عرفتم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم .... كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه" [يوحنا: ٤٢/٥، ٤٤].

---

(١) الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٧٧، أوردها المؤلف من حوار شخصي أجراه مع القس المذكور وهو راعي الكنيسة الوطنية الإنجيلية ببغداد، سنة ١٩٩٦/٣/٦.

(٢) انظر: إيسيذورس، مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، ص٩٨.

(٣) انظر: عبد النور، شريعة المسيحية، ص٣٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ب. صدقة المؤمنين: طالب المسيح أن تكون الصدقة في الخفاء المطلق، لدرجة أن اليد اليسرى لا تدري ما تفعله اليُمنى، وهذا تعليم لأتباع المسيحية ألّا يفتخروا حتى في نفوسهم بما يقومون به من خير.

ووعد الكتاب المقدس مَن يلتزم بهذه التعاليم الأخلاقية بأن الآب السماوي سيكافئه بالمحبة "لأن المعطي المسرور يحبه الله" [كورنثوس٢: ٧/٩]، "في كل شيءٍ أريتكم أنه ينبغي هكذا أنكم تتعبون وتعضدون الضعفاء، متذكرين كلمات الرب يسوع أنه قال: مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ" [أعمال الرسل: ٣٥/٢٠].

فهذا التقسيم الأول لأنواع الصدقة حسب نية صاحبها من حيث الإخلاص والرياء.

ثانياً: أنواع الصدقة بالنسبة لجنس المتصدّق به:

الصَدقات من حيث جنس المتصدق به أنواع كثيرة منها مال أو عقار أو ثياب أو طعام أو قربان الهيكل وما يلزم الكنيسة من أدوات، وأيضاً تقديم الوقت أو المهارات والخبرات الشخصية للخدمة، كما صدقات فردية وأخرى جمهورية كالعشور والبكور والنذور والوقف الخيري

أ. الصدقة الفردية وهي التي تقدم من يد المتصدق للمحتاجين مباشرة ويجب أن تعطى في الخفاء كقول السيد المسيح: "احترزوا ألا تصنعوا برّكم قدام الناس لكي ينظروكم وإلاّ فليس لكم أجر عند أبيكم" [متى: ١/٦]، والصَدَقة الفردية يجب أن تنبع من القلب.

ب. الصدقة الجمهورية أو الجهارية: وهي التي يحملها المتصدق إلى الكاهن وتشمل تقديم العشور والبكور والنذور والوقف الخيري.

أ. العشور: التعشير هو تقديم جزء من عشرة أجزاء مما يرزق الله الإنسان، وأول من تشير إليه الكتب المقدسة كشخص قام بدفع العشور هو النبي إبراهيم الذي قام بدفع عشره إلى ملكي صادق ملك شاليم الذي كان كاهنا لله العليّ "وباركه وقال مبارك إبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك فأعطاه عشراً من كل شيء " [تكوين ١٩/١٤-٢٠]، ويُذكر أن هذا القانون كان يُمارس على أيام آدم ونوح وأولادهم من بعدهم، أيضاً يعقوب الذي نذر قائلاً: "إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس...وهذا الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطيني فإني أعشّره لك." [تكوين:٢٠/٢٨، ٢٢]، ثم أمر الله بالعشور في الشريعة أيام موسى النبي فقال: "تعشيراً تعشر كل محصول زرعك الذي يخرج من الحقل سنة بسنة" [تثنية: ٢٢/١٤].

وحينما كان يبتعد الشعب في القديم عن عبادة الله كان من ضمن علامات التوبة والرجوع تقديم العشور كما حدث في عهد (حزقيا) الملك إذ يقول الكتاب "وجاؤوا بعُشر الجميع بكثرة .... والساكنون في مدن يهوذا أتوهم أيضاً بعشر البقر والضأن وعشر الأقداس المقدسة للرب إلههم" [أخبار الملوك ٢: ٥/٣١-٦].

ً٢. **البكور: وهي أوائل ثمار الأرض أو أجرة عمل اليدين أو بالجملة أوائل كل خير يصل للإنسان،** وأول ما نسمع عنها في تقدمة هابيل الذي قدّم "أبكار غنمه ومن سمانها" [تكوين: ٤/٤].

ً٣. **النذور: وهو عهد يعهده الإنسان لخالقه ويقرره في فكره أو يقوله بينه وبين نفسه وبأن يشهد عليه من أراده وذلك من أجل طلبٍ من الله لصالح الإنسان** مثل تكميل فضيلة ما أو أن يرزق بعمل أو نسل، وعادة يكون بأن يتعهد ذلك الإنسان بدفع مال أو عمل أو شيء جماد، أو بأن ينذر صوماً أو صلاة أو رهبنة أو إقلاعاً عن معصية ما.

ومثال ذلك نذر حنّة أم (صموئيل) النبي التي أتت إلى الهيكل لأنها كانت عاقراً "وهي مكتئبة النفس فصلَّت إلى الربّ وبكت ونذرت نذراً وقالت يارب الجنود إن أنت نظرت إلى عناء أمتك وذكرتني ولم تنس أَمَتَكَ ورزقت أمتك مولوداً ذكراً أحرره للرب كل أيام حياته ولا يعل رأسه موسى" [ملوك١: ١٠/١-١١]، وبالفعل نفّذت حنّة نذرها وقالت: "إني لأجل هذا الصبي صلّيت فأعطاني الرب بُغيتي التي سألته من لدنه، وأنا جميع أيام حياته هو عارية للرب وسجد هناك للرب" [ملوك١: ٢٧/١-٢٨]، والنذور في المسيحية يجب الوفاء بها "انذروا وأوفوا للرب إلهكم" [مزمور: ١٢/٧٥]، "أوف العلي نذورك" [مزمور: ١٤/٤٩]، "إذا نذرت نذراً لله فلا تتأخر عن الوفاء به" [جامعة: ٣/٥]، "أوف بما نذرتـه ألّا تنذر خير من أن تنذر ولا تفي" [جامعة: ٤/٥].

٤. **الوقف: هو ما يوقفه الإنسان في حياتـه أو بعدها على جهة معينـة لتنتفع به دون غيرها**

٥. **القرابين: وهي التي يتقرب بها المسيحيون إلى الله والكنيسة** من الخمر والزيت والبخور والستور وكتب القراءة.

٦. **النوافل: وهي الأجزاء الفائضة مثل ما يفيض في زوايا الحقل** وما يقع من الحصادين والملابس غير المستخدمة.(١)

المطلب الثالث: القيم الروحية الموجودة في الصدقة:

يضفي المسيحيون كعادتهم على الصدقة **الكثير من المعاني الروحية والقيم** ينالها المؤمن إذا تصدّق، ولكل قسم من هذه القيم شواهد مؤيدة من الكتاب المقدّس، أهمها ما يلي:

أولاً: الصَدقَــة هـي مقارضـة إلهيـة وإن كانت بسيطة: "من يرَحم الفقير يُقرض الرب فيجزيـه بصنيعـه"[أمثال: ١٧/١٩].

ثانياً: الَصدقَــة هـي وداعـة الحكيم عند الله لوقت الحاجـة: "ألق خبزك على وجه المياه فإنك تجده بعد أيام كثيرة" [جامعة: ١/١١].

ثالثاً: الصدقــة هـي القرابين المرفوعـة على الهياكل: "لا تنسوا الإحسان والمؤاساة فإن الله يرتضي مثل هذه الذبائح" [عبرانيين: ١٦/١٣].

رابعاً: الصَدَقــة معهـا يُقبل الصوم وبهـا تُقبل الصلاة: قال إشعياء:"أليس هو أن تكسر للجائع خبزك وأن تُدخل البائسين المطرودين بيتك وإذا رأيت العريان أن تكسوه وألّا تتوارى عن لحمك" [إشعياء: ٧/٥٨].

خامساً: الصَدَقــة هـي التي تجلب الرحمة يوم الديـن: "طوبـى للرحماء لأنهم يُرحـمون" [متى: ٧/٥]، "حينئذ يقول الملك للذين عن يمينـه تعالوا يا مباركي أبي ارثوا الـملك الـمُعد لكم منذ إنشاء العالم لأني جُعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فآويتموني وعرياناً فكسوتموني ومريضاً فعُدتموني ومحبوساً فأتيتم إليّ، حينئذ يجيبه الصديقون قائلين يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك ومتى رأيناك غريباً فآويناك أو عرياناً فكسوناك ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك فيجيب الـملك ويقول لهم الحق أقول لكم إنكم كلما فعلتم ذلك بأحد هؤلاء الصغار فبي فعلتموه" [متى: ٣٤/٢٥-٤٠].

سادساً: عدم الصَدَقــة يجلب اللعنـة: "حينئذ يقول أيضاً للذين عن يساره اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية، لأني جعت فلم تطعموني عطشت فلم تسقوني، كنتُ غريباً فلم تؤوني عرياناً فلم تكسوني مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني، حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين يا رب متى رأيناك

(١) انظر: موقع الأقباط والكاثوليك على الرابط التالي: http://coptcatholic.net/

جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك، فيجيبهم قائلاً الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا" [متى: ٢٥/ ٤٥].

سابعاً: الصَدقَــة تُنجي من السوء في الدنيا ويُجازى عنها أضعافاً: "طوبى لمن يُراعي المسكين ينقذه الرب في يوم السوء الرب يحفظه، ويُحييه ويُسعده في الأرض ولا يسلِّمه إلى نفوس أعدائه الرب يُعضده، على سرير الوجع إنك مهّدت مضجعه كله في سقمه" [مزمور: ٤٠/١-٣]. (١)

التعقيب:

تبين من العرض السابق المنزلة المهمة التي حازها مبدأ الصدقة في التشريع المسيحي، مع أن **الإرشادات الكتابية** في العهد الجديد في الأناجيل الأربعة المتعلقة بالصدقة إذا جُمعت مع بعضها فإنها **لا تزيد على أن تُعطي أوامر أخلاقية حول الصدقة،** وهي أوامر قليلة لا يصح أن تسمّى تشريعاً؛ لأن الصدقة إذا أُطلقت على الزكاة فإن الزكاة مبدأ عظيم في الدين، ولا بد أن يكون له تشريع مخصوص محدد بضوابط تفصيلية تجعل من أمر الصدقة وأحكامها أمراً بيّناً واضحاً.

أما في المسيحية **فنظراً لمحدودية النصوص** المنسوبة للمسيح، واشتمالها على توجيهات أخلاقية والعوز التشريعي التفصيلي لأحكامها **فإن العمل بها يحتاج إلى بيان ونصوص مساعدة** تجيب عن كثير من الأسئلة وتبيّن العديد من الأحكام.

ولقد **وجد المسيحيون في العهد القديم جانباً مهماً ومصدراً تشريعاً** يسد الثغرات ويجيب عن التساؤلات، فجعل المسيحيون الأولون الشريعة الموسوية ركناً وثيقاً اعتمدوه شرعاً في مسائل الصدقة.

ولقد بيّن العهد القديم الكثير من أحكام الزكاة مما يمكن الاعتماد عليه لتكوين رؤية تشريعية، وتمسّك بذلك المسيحيون الأوائل.

وبعد ذلك **بدأ يشيع في الأوساط المسيحية أن التشريع المسيحي بخصوص الصدقة ينبغي أن يكون مستقلاً عن اليهودية؛** لأن المسيح جاء بدين متكامل، واختصّ بنظرة فريدة لموضوع الصدقة.

فبعد أن كان المسيحيون يُخرجون العشر والبكور عملاً بالشريعة الموسوية **أصبحوا غير ملتزمين بها** ولا مهتمين بإخراج الصدقة، وهذا يندرج ضمن الحركة التأويلية للمفاهيم الكتابية التي ذكرتها سابقاً.

أما **النظرة الفريدة** التي اختص بها المسيحيون للصدقة فقد **فهموا من كلام المسيح وعباراته الرقيقة وتعاليمه الأخلاقية بخصوص الصدقة أن الصدقة مفهوم جزئي يندرج ضمن مبدأ المحبة** التي جاء بها المسيحيون.

فارتباط أداء الصدقة بتعاليم المحبة التي تحضّ على البذل والعطاء ألغى المسيحيون من خلاله الأوامر الناموس في الشريعة القديمة وتبرموا من الالتزام بها، **وجعلوا الواجب التزام الصدقة عملاً بمبدأ المحبة** التي تعدّ المبدأ الروحي الأساس في التشريع المسيحي.

ونتيجة هذا التحول الدلالي اتّسع نطاق الصدقة ومعناها في المسيحية، وأصبحت تشتمل على أنواع كثيرة متعددة كالصدقة بالمال والصدقة بالكلام الحسن والصدقة بالوقت وغير ذلك، وكان ذلك خطوة تطوريّة أخرى لمفهوم الزكاة إذ أصبح المفهوم الكتابي الجديد للصدقة أكثر

---

(١) انظر: إيسيذورس، مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، ص٩٩-١٠٥، وموقع الأقباط والكاثوليك على الرابط التالي:http://coptcatholic.net/

اتساعاً وشمولاً من المفهوم الكتابي القديم، وأصبح بإمكان الفرد المسيحي أن يؤدي صدقته بأي نوع كان دون ضرورة الالتزام بالدفع المادي للفقراء والمستحقين.

ومن هنا تتضح **المراحل التطورية التي مرت بها المسيحية في إقرار الصدقة** وهي:

- التزام تعاليم الناموس الموسوي بالصدقة ومقاديرها وأحكامها.
- إلغاء الالتزام بالناموس واستبداله بمبدأ العطاء الوارد الأمر به في العهد الجديد دون قيد أو مقدار محدد.
- اتساع مفهوم العطاء والصدقة، واشتمالهما أنواعاً جديدة، وإمكانية أدائهما دون التقيّد بالأجناس المالية.

وعلى العموم فإنه من الواضح في البحث أن الصدقة نالت منزلةً جيدة في الفكر الديني المسيحي، لكن تلك المنزلة لم تبلغ الحد الذي حظيت به سائر العبادات في المسيحية كالصلاة والصيام فضلاً عن أن تبلغ المنزلة التي نالتها الأسرار السبعة.

وبقيت مسألة الصدقة مسألةً جزئية بسيطة يمارسها المؤمن دون قيد عليه أو شرط.

المبحث الرابع: الحج في المسيحية

نالت شعيرة الحج قسطاً بسيطاً من الاهتمام في المسيحية، وذلك لأن الأناجيل لم تتعرض لذكر الحج بمعناه المعروف أنه القصد إلى جهة محددة، وبالوقت ذاته لم يتطرق المسيح أيضاً لذكرها أو التنويه إلى وجوبها، **وتندرج هذه الشعيرة ضمن الشعائر التاريخية** تحت البند الذي سمّيناه (الشعائر المكانية) أو (تقديس المكان في الفكر المسيحي)، وقد تقدم الحديث عن هذه الشعيرة وأكثر أحكامها ضمن المبحث الثالث من الفصل الثاني ضمن الباب الأول أثناء الحديث عن الشعائر المكانية، وهنا أسرد بعض الأحكام التي لم أتعرّض لذكرها في المبحث المذكور.

المطلب الأول: تعريف الحج وأدلته:

أولاً: تعريف الحج:

يُعرّف الحج في مصادر اللاهوت المسيحي بأنه: **"رحلة إلى مرقد القديس أو زيارة إلى مكانٍ مقدّس آخر، ويتمّ لدوافع مختلفة، لأجل الحصول على المساعدة الروحية، أو لأجل القيام بصيام التشكر، أو القيام بفعل تكفيري"**.(١)

وجاء في **دائرة المعارف الإسلامية** أن الحج في المسيحية هو: "القصد إلى مكان تقدّس بطهور رباني تجلت فيه القدرة الإلهية متمثلاً بكنيسة أو قبر أو مشاهد لقديسيهم"(٢)، والحج في المسيحية **غالباً ما يندرج ضمن مبدأ العقوبات،** أو يُسمّى بالتأديبات الكنسية، حيث يتجه المسيحي إلى زيارة بعض الأماكن المقدسة تبركاً به واستجلاباً لرحمة الله من أجل مغفرة ذنبه، وقد تكون بمبادرة منه دون إلزام من أب الاعتراف، أو بإلزام منه.

ثانياً: الأدلة:

لا يوجد دليل صريح أو واضح في الكتاب المقدّس بخصوص الحج، وغاية ما في الأمر إعلان واحد بنى عليه المسيحيون استحباب زيارة الأماكن المقدّسة لا سيما أورشليم وهو: "وكان فصح اليهود قريباً فصعد يسوع إلى أورشليم" [يوحنا: ١٣/٢]، **استنبط المسيحيون من هذا الصعود المشار إليه أن المسيح أسس بذلك الحج إلى الأماكن المقدسة وزيارتها،** دون الإشارة إلى وجوب ذلك.(٣)

كما ينسب سفر أعمال الرسل إلى (بولس) القيام بالحج على الهيئة العامة التي فعلها المسيح، دون الدخول في تفصيل هذا الصعود وأفعاله إلا السجود: "وأنت قادر أن تعرف أنه ليس لي أكثر من اثني عشر يوماً منذ صعدت لأسجد في أورشليم" [أعمال الرسل: ١١/٢٤].

مما سبق يتبين **قصور الأدلة العامة للحج عن رسم تشريعٍ واضح،** فالحج عبادة عظيمة ولا بد أن تشتمل على أفعالٍ مخصوصة كما هي الحال في الإسلام، وبناءً على عدم وضوح تشريع الحج في المسيحية من حيث الأركان والكيفية والأحكام فقد آمن المسيحيون أن الحج عبادة تطوعية لا أكثر.

المطلب الثاني: أهمية الحج ولزومه:

لم يشعر الجيل المسيحي الأول بضرورة زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها بالمقارنة مع المسيحيين المتأخرين الذين عنوا بذلك أكثر، وعلى العموم فإن فكرة تقديس الأماكن المتعلقة

---

(١) معجم اللاهوت الكتابي، ص٢٥٨.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ٣٠٤/٧.
(٣) انظر: سنتاؤوس (إسحاق)، تاريخ المسيح، ص١٩.

بالمسيح وبالقديسين بدأت بالانتشار بعد القرن الثالث الميلادي.

يقول (**الندوي**): "شُغف عدد كبير من المسيحيين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثارها وزيارتها، وعنوا بذلك أكثر مما عنوا بتتبع تعاليمه ووصاياه، وقد شاعت زيارة روما منذ القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدّسة، وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدّسة بتاتاً، وكانت روما المدينة التي تلي بيت المقدس في الأهمية، يؤمها الناس للزيارة في عدد كبير وجمٍّ غفير".(١)

و**تتبع أهمية الحج والزيارة** في المسيحية كما أشرت سابقاً **من أن الاعتقاد بتقديس الأماكن وزيارتها بهدف استجلاب الرحمة الإلهية والبركة أمرٌ جِبِلّيٌ بشري**، فُطرت عليه النفوس البشرية جميعها، يقول المستشرق الفرنسي (ماسينيون)(٢): المكان المقدّس جاء تقديسه من خلال شعور الناس واعتقادهم بأن له قوة جذب روحية تلقائية تشدّهم إليه، .... فالأماكن المقدسة انعكاس لله المقدّس".(٣)

وعلى العموم فإن **الموروث المسيحي الأول لم يشر إلى وجوب أو حتى استحباب زيارة الأماكن المقدّسة** أو التي عاش فيها المسيح أبداً أو حتى بيت المقدس تحديداً، و**استحب المسيحيون المتأخرون زيارة هذه الأماكن المشار إليها والتبرّك بها، وأصبح يُطلق على من يزور بيت المقدس من المسيحيين لقب (مقدسي)** إشارة إلى أنه حظي بزيارة إلى بيت المقدس، كما رتّب المسيحيون أيضاً المزامير من المزمور ١٢٠ إلى المزمور ١٣٤، حيث جعلوها تُتلى في مواعيد محددة، يترنّم بها المقدسي أثناء وجوده في (أورشليم).(٤)

المطلب الثالث: تطور شعيرة الحج والزيارات:

كان انعقاد مجمع نيقية مفصلاً تاريخياً ودينياً شديد الأهمية على نواحي العقيدة المسيحية وقضاياها وأفكارها عامة، فلقد كان سبباً **مؤسساً لتغيير شامل في المفاهيم المسيحية وانحراف معظم التعاليم**، وحقيقة كان هذا المجمع مؤذناً بانصرام عهد مسيحي نقي، فاتحاً باباً كبيراً من الانحراف والاختلاف والتنازع والتفرّق بين جميع المسيحيين في أرجاء المسكونة المسيحية كافة، لذا فقد رأى علماء التاريخ أن يجعلوا من مجمع نيقية بداية عصر شديد الظلمة والحلكة، سمّوه بالعصور الوسطى، عصور الاضطهاد والتشتت الفكري، والعبودية والجشع البابوي.

ومنذ ذلك الحين **بدأ الاهتمام بالمزارات الدينية المتعلقة بالمسيح والقديسين** يتبين بوضوح كبير، وبدت الدعوة إلى زيارة تلك الأماكن والتبرك بها تنتشر بين المسيحيين في عامة البلاد، ولاحظ البابوات أن ازدياد الاهتمام بالحج يقتضي وجود طقوس معينة يتبعها الزائر ويتمسك بها، لكن في ظل غياب تعليم واضح من الكتاب المقدس بهذا الخصوص كان حتماً أمام البابوات أن يفتحوا باب الاجتهاد البشري فيما يخص هذه المسائل.(٥)

ولقد **حدد بعض البابوات طقوساً يخضع لها مَن يريد زيارة الأماكن المقدّسة**، وكانت هذه الطقوس تُمارس في العصور الوسطى، فكانت رحلة الحج **تبدأ من بين يدي الكاهن**، وهو كاهن

---

(١) الندوي، الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى، ص٢٦٣.

(٢) هو لويس ماسينيون المولود سنة ١٨٨٣م، مستشرق فرنسي، عني بدراسة الحلاج والتصوف الإسلامي، وكتب عدداً كبيراً من مقالات (داثرة المعارف الإسلامية)، أشهر آثاره: (مقالة في أصول المصطلحات الصوفية)، توفي سنة ١٩٦٢م، انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٤٠٩.

(٣) موريون (جان)، لويس ماسينيون، ص٧٧.

(٤) انظر: البستاني، محيط المحيط، ٣٤٧/٦.

(٥) الموحى، العبادات في الأديان السماوية، ص١٩٧.

الاعتراف الذي يقوم عندها بمنح البركة لمن يريد الحج، فيذهب مَن يريد الحج ثم يعود وهو يلبس لباساً خاصاً يشير إلى المكان الذي حجّ إليه، وإذا أراد الحاجّ أن يزور بيت المقدس فإن عليه بدايةً الاستحمام في نهر الأردن، ثم يأخذ غصناً من النخيل ليقدمه إلى الخوري عند رجوعه من حجه ثم يضعه على المذبح ليكمل حجه، لذلك سُمّي أيضاً من يزور بيت المقدس بـ (النخيليين).

وكان الحُجاج في العصور الوسطى يرتدون لباساً رصاصياً مميزاً وقبعة ذات حافة طويلة، ويحملون كيساً للباس والحاجيات، ويتلقون تكريماً طوال رحلتهم لا يُعطى للمسافرين العاديين؛ وذلك تعظيماً للزيارة المقدّسة التي يقومون بها.(١)

وفي تلك الفترة بدأ البابوات بالعبث بمفهوم الحج ومدلوله الذي كان لا يحمل سوى معنى بسيط هو زيارة مكانٍ مقدّس، فحصل تطور ملحوظ في هذا المفهوم هو دخول المعاني الحربية في مفهوم الحج، فصار المسيحيون يعدّون حملتهم الصليبية على فلسطين حجاً مسلحاً هدفه سياسي وشعاره ديني، ثم **اكتمل التحول على أيدي رجال الإصلاح الديني الأوائل** في القرن الرابع عشر، حيث رأى هؤلاء في تصرّفات الحجّاج - الذين **أسرفوا في إدخال التجارة كعمل أساس ضمن حجهم** مما أدى إلى ثرائهم ثراءً فاحشاً – عملاً يصرف الحج عن مفهومه وغرضه الروحي، فأصدر هؤلاء المصلحون اعتراف (أوكسبورغ) في منتصف القرن الرابع عشر، الذي رفض مبدأ الحج، **واعترف بأن ممارسته لا تنتمي إلى الدين المسيحي**، وأنه عمل عديم الجدوى، الأمر الذي حدا بالكنيسة الكاثوليكية إلى إسقاط الحج عن رعاياها مدة من الزمن لتعيد طلبه من أتباعها في القرن السادس عشر.

وبعد القرن السادس عشر عاد الاهتمام المسيحي بزيارة القدس وأماكن ظهور المسيح وأمه والقديسين على أشده، وكان سبب زيادة هذا الاهتمام هو إنشاء رجال الدين جمعياتٍ تحث على زيارة القدس وأضرحة القديسين ورفاتهم، الأمر الذي أسهم في نشر فكرة ضرورة إحياء عبادة الحج كما كانت، وبناءً على شعور المسيحيين بالحاجة الملحة لتنظيم زيارات ورحلات إلى الأماكن المقدّسة فقد انفردت الطوائف المسيحية بأماكن تقدّسها وتزورها وتقع تحت رعايتها واهتمامها.

التعقيب:

يتعلق البحث في هذا المبحث إلى درجة كبيرة بالمبحث المتقدم ضمن المبحث الثالث للفصل الثاني من الباب الأول (تقديس المكان في الفكر المسيحي)، ولقد تقدّمت التعقيبات المتعلقة بهذا المبحث ضمن الفصل الثالث أيضاً، وتبيّن كيف أن التعلق بالأمكنة وتقديسها فطرة إنسانية جبليّة، وأنه تتعلق بهذا التعظيم شعيرة مهمة هي الحج.

وأهم ما يمكن أن يُضاف ويُلاحظ هنا **التحول الدلالي الذي فرضه البابوات والكنيسة على مفهوم الحج**، والتغير التطوري التحريفي الذي طاله، والمفاهيم الجديدة التي طُرحت فيه كالحج المسلّح والحج التجاري وغيرهما، الأمر الذي حدا بمفهوم الحج الذي كان سائداً قبل القرن الرابع بالتغيير والخروج عن مضمونه الأساس الذي كان يؤمن به المسيحيون وهو زيارة المكان المقدّس بغية الإشباع الروحي واستجلاب الرحمة الإلهية.

هذا التحريف والتغيير أدى بالمسيحيين في فترة زمنية إلى إخماد فكرة الحج، وإلغاء طلبه من أتباع المسيحية، إلى أن جاء القرن السادس عشر فكان ظهور تيار الإصلاح الديني - الذي حاول إصلاح الكثير من المفاهيم بما في ذلك مفهوم الحج – سبباً في إعادة الكاثوليك النظر في

---

(١) انظر: البستاني، محيط المحيط، ٦٩٣/٦.

موضوع الحج، وأعادوا طلبه من أتباعهم بعد أن حاولوا إخراجه عن مفهوم الحج المسلّح والتجاري.

ويتضح من العرض السابق أن **الحج لم يكن يوماً من الأيام عبادة مسيحية**، إذ خلت الأناجيل من الإشارة إليه، ولم يشر المسيحيون الأوائل إليه ضمن كتاباتهم، **ومجرد صعود المسيح إلى أورشليم وكذلك صعود الرسل لا يفي بالغرض في تقريره كعبادة مسيحية.**

وحين أمر به البابوات رعايا المسيحية فإنه **خضع لأهواء البشر وتحريفهم** شأنه شأن كثير من العبادات التي خرجت بالتحريف عن مضمونها.

ويرى بعض الباحثين رأياً آخر في نشأة الحج في المسيحية إضافة إلى الرأي السابق القائل إن الحج ظهر كشعيرة مندوب إليها في القرن الرابع، وهو **أن القرن الحادي عشر كان محفوفاً بقرائن وظروف مالية كانت سبباً في طلب الكنيسة الحج من أتباعها** واعتباره شعيرة وعبادة مسيحية.

ففي القرن الحادي عشر **كانت الكنيسة مالكة للحقول والمزارع والبساتين**، وكانت تستثمر العبيد والفلاحين الذين يعملون عندها استثماراً وحشياً، وشكّلت الكنيسة بالممتلكات الإقطاعية الكثيرة التي تمتلكها حصناً كبيراً للإقطاعيين جميعاً، وكان رجال الدين يساعدون الإقطاعيين في السيطرة على الفلاحين والحرفيين والتحكم بهم، وذلك من خلال نشرها للمبدأ القائل بأن النظم الأرضية هي من صنع الله، ولا يمكن تغييرها، وبمطالبة الكادحين بالخضوع التام لأسيادهم، وبوعد مَن يطيع هذا القانون بالنعيم في الجنة بعد الموت، وتهديد مَن يعصيه بالعذاب الأليم في الجحيم.

وعندما بدأت نفوس الفلاحين تثور على الإقطاعيين والكنيسة، **بدأت أفعال الإقطاعيين تضر بالكنيسة ذاتها لا سيما بالرهبان، فإن الكنيسة بدأت تخترع أساليب جديدة لتوطيد موقعها المادي والمعنوي، فبدأت توجه أنظار رعاياها نحو بيت المقدس**، مبرزة قيمته الروحية وأهميته السامية، محرّضة إياهم على ضرورة الحج إليه وزيارته، **وبحلول القرن الثاني عشر كانت عبادة الحج قد أخذت في نفوس المسيحيين مأخذها القوي**، وبرزت كذلك مكانة القدس الروحية، فصارت مقصداً روحياً لجميع المسيحيين من الأطياف والطبقات كافة لا سيما طبقتي الفقراء من العامة والنسّاك.

واتخذت شعيرة الحج في البداية **مظهراً فردياً**، إلى أن تطورت في أواخر القرن الحادي عشر إلى مظهر جماعي من مختلف الفئات، وكان كل من يريد أن يثبت على نفسه اسماً أو سمعةً شريفة بين الناس لا يستغني عن زيارة بيت المقدس، فيحجّ إليها ويُكرّم المقدسات المسيحية الموجودة هناك، ويصلّي في كنيسة القيامة ويتمتع بإجلالٍ ومهابة بمشاهدة الأماكن التي مرّ بها المسيح يوماً ما، **وتزامن هذا الأمر مع إعلان روما مدينة مقدّسة ينبغي الحج إليها**، وذلك بدعوى أنها تحتوي قبر (بطرس) رئيس الحواريين وقبر (مريم) أم المسيح، فصارت موطناً جديداً اتجهت إليه أنظار رعايا المسيحية، وصارت مقصداً روحياً لجميع المسيحيين لا سيما الكاثوليك.

وبدأت مقاصد الحج تختلف باختلاف الحجاج ومراميهم، فكان الفقراء يحجون بغية الإشباع الروحي، أما الإقطاعيون فكانت لهم مآرب دنيئة في حجهم، وكانوا كما أسلفت يصطحبون البضائع التجارية والسلع الكثيرة بغية الرجوع من الحج بأرباح مادية، وكانت لهم أيضاً مآرب مهمة في توطيد نفوذهم بين الناس في الأوساط الشعبية، وفي سبيل ذلك كان هؤلاء يصطحبون معهم بعض المجوهرات حيث يقومون بتوزيعها على الفقراء في بيت المقدس ليوطّدوا نفوذهم بين الناس، وكانت الكنيسة تبرر لهم هذا الفعل وتصفه بأنه فعل يرضي الله.

ومن المؤكد تاريخياً أن **ممارسة الحج في المسيحية كما رسمها البابوات كان لها أثرٌ واضح في تهيئة الأوضاع للحروب الصليبية**، وكان إسهامها كبيراً في رسم معالم الحروب من حيثيات متعددة، فقد عرّفت الأوربيين على طبيعة الوطن العربي عموماً وفلسطين خصوصاً، ونمّت في نفوسهم الميول الزهدية التي جلبت الرغبة في السيطرة على الأرض المقدسة وما يحيط بها، ولاقت هذه الرغبة الميل الإقطاعي إلى امتلاك الأراضي وبسط النفوذ على مساحات جديدة في الشرق، الأمر الذي أدى إلى نشوب حروب وكوارث متعددة عُرفت في التاريخ بالحروب الصليبية، وبقي الحج شعيرة ممارسة إلى أيامنا هذه، متعلقة بأورشليم على وجه الخصوص، ثم روما حاضنة المسيحية الكاثوليكية، وكذلك فرنسا والبرتغال وغيرهما.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله حمداً لا يُعدّ لحاصرٍ، أحمدك ربي أن أنعمت عليّ بإتمام هذه الأطروحة، حتى اكتملت محاورها واتضحت معالمها وتم إخراجها على هذه الصورة، والرجاء منك إلهي أن تكون قد نالت نصيباً جيداً من الدراسة وحظاً وافراً من رضاك، وإن كنت لا أدعي فيما عرضته الكمال إذ هو لله ورسله الكرام، لكن حسبي أن أكرمني ربي ببذل غاية جهدي فيما عرضته تأصيلاً وتأريخاً وشرحاً ونقداً وتحليلاً، فالخير فيها من الله والشر من تقصير عبده والله منه بريء.

وبعد ما تقدّم في الفصول السابقة من حديث عن الشعائر الدينية ومعانيها وطقوسها وتحليل نصوصها، وبعد هذه الرحلة في ثنايا كتب اللاهوت المسيحي والتاريخ المسيحي واللاهوت المقارن نصل إلى النتائج التالية:

نتائج البحث:

أولاً: النتائج الخاصة بأحكام الشعائر الدينية:

١. ترجح المعنى اللغوي العام للشعيرة الدينية الذي يشير إلى معنى (الإعلام)، فكل ما أعلم عن شيء فهو شعيرة من شعائره، وتوضّح التقارب الدلالي بين المعاني اللغوية والاصطلاحية بالنسبة للشعيرة من حيث اشتمال تعريفاتها على معنى يجمع ما صدقاتها في نسق فكري واحد.
٢. اتسعت دلالة الشعائر الدينية في الجانب المسيحي؛ حيث اشتملت على كثير من الأنظمة والوظائف والعبادات التي تهدف إلى تنظيم علاقة الإنسان بربه، فانضوى ضمنها (الأسرار) و(الطقوس) و(العبادات).
٣. حازت (الأسرار) في المسيحية المعنى الشعائري الأهم بين سائر المفردات التي تشملها الشعائر.
٤. تحدد معنى (الطقوس) في أنظمة العبادة التي تشمل التسبيحات والصلوات والأعياد والترتيبات الليتورجية لأداء بعض الأسرار، وهي بذلك تندرج ضمن المعنى الشامل للشعائر الدينية في المسيحية.
٥. امتازت (الطقوس) في المسيحية بطابع شعبي يتيح لأتباع الدين ممارسة الشعائر الدينية حسب الأعراف المعتبرة، مما يُشير إلى أهمية العرف في تحديد الأنماط العامة لممارسة الشعائر الدينية.
٦. تحددت المصادر التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية في ثلاثة مصادر هي الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد، وتعليم الرسل (الديداخي)، وقرارات المجامع المسكونية، وإذا صح إدراج (الطقوس) ضمن الشعائر الدينية في المسيحية فيكون لهذه المصادر الثلاثة دور في إنشاء الشعائر الدينية وتكوينها.
٧. صُنّفت الشعائر الدينية في المسيحية ضمن الهيكل المقاصدي بناءً على اعتبارين، الأول هو صلة الشعيرة بأصول الدين، والثاني توارد كتب اللاهوت على الإشارة إليها.
٨. امتزجت المقاصد المسيحية بصيغ لاهوتية مجرّدة تحجب المعاني وتحول أحياناً دون الفهم الدقيق لها.
٩. تعددت أسباب اختلاف المسيحيين في اعتبار الشعائر الدينية، فكان منها اختلاف الرغبات والأمزجة والأهواء الشخصية، بالإضافة إلى القرارات التشريعية الصادرة عن المجامع المسيحية المسكونية أو الإقليمية أو الملية واختلافهم في اعتبارها وعدمه.
١٠. مبدأ (الثبوت التاريخي لفعل المسيح لشعيرةٍ ما) كان أهم المبادئ التي تمسّك بها

البروتستانت في إلغاء اعتبار الكثير من الشعائر الدينية مخالفين بذلك السواد المسيحي بأكمله.

١١. تحددت آلية التطور العلمي للشعائر الدينية في المسيحية بنوعين من الأسباب، SL~DJ الأول بـ (أسباب التطور القديمة) والثاني (أسباب التطور الخاصة).

ثانياً: النتائج الخاصة بالشعائر الدينية ذات السند التاريخي:

١. دار المعنى العام للقربان على كل ما يقربه الإنسان لمعبوده في مناسبة دينية أو موسم محدد، أما في المسيحية فإن تعريفه اختلف باختلاف المنحى العقائدي الذي ينتمي إليه المعرّف.
٢. حازت شعيرة (العشاء الرباني) المكانة الأهم بين عامة الشعائر الدينية في المسيحية.
٣. نظرً للمكانة المهمة التي شغلتها شعيرة (الإفخارستيا) فقد رتّب المسيحيون على إجرائها كثيراً من القيم والمعاني الدييينية والفوائد الروحية التي ينالها المؤمن بإجراء هذا السر.
٤. عملاً بالمكانة العملية المهمة للإفخارستيا فقد رتّب آباء الكنيسة أعمالاً ليتورجية لأساليب إقامتها، واختلفت هذه الليتورجيات بين الكنائس كونها محل اجتهاد وترتيب بشري، وبناءً عليه اشترط المسيحيون كثيراً من الشروط لإجراء الإفخارستيا.
٥. بناءً على الاعتبار التاريخي لتأسيس المسيح للإفخارستيا فقد رتّب المسيحيون ضرورة التناول من هذا السر على جميع رعايا المسيحية لأهمية الاشتراك في جسد المسيح.
٦. نالت شعيرة العشاء الرباني قسطاً كبيراً من التأثير الوثني، واتضحت معالم هذا التأثير في التطابقات الحاصلة في أساليب إقامة سر القربان بين المسيحية وبعض الديانات الوثنية.
٧. ثبت السبق التاريخي لرسائل (بولس) في تقرير العشاء الرباني على الأناجيل الأربعة، ومعلوم أن رسائل بولس تشكّل أهم مصادر الأناجيل، من هنا تتبين المصدرية البولسية لعقيدة الإفخارستيا في المسيحية.
٨. تعلقت بالأماكن المقدسة شعيرة التعظيم لها في الفكر المسيحي تبعاً للقاعدة الإنسانية العامة في التعلق ببعض الأماكن وتعظيمها.
٩. شكلت الأماكن التي تجلت فيها ظهورات المسيح أو السيدة مريم، أو زارها المسيح في حياته نواةً لتعظيم المكان في الفكر المسيحي، وهذا يوضح المكانة مرموقة التي نالت القدس.
١٠. تجلّت الشعائر الزمنية في تعظيم بعض الأيام واتخاذها أعياداً، واندرج هذا الأمر ضمن القاعدة البشرية العامة في استحباب أيامٍ معينة وجعلها ميقاتاً للفرح والسرور، ورتّبها المسيحيون حسب أهميتها في أصنافٍ ثلاثة (الأعياد السيدية الكبرى والأعياد السيدية الصغرى والأعياد غير السيدية).
١١. اتضح في البحث التقاطعات الكبيرة بين المسيحية والفلسفات الوثنية فيما يتعلق بالأعياد، حتى يمكن الجزم بأن كثيراً من الأعياد المسيحية وقّتت بذكاء لتتوافق مع أعيادٍ وثنية.

ثالثاً: النتائج الخاصة بالشعائر الدينية ذات السند الكتابي:

١. حازت الشعائر الكتابية (الأسرار السبعة) المكان الأهم على الإطلاق بين جميع الشعائر الدينية، حتى صار إطلاق كلمة (الشعائر) ينصرف إليها فقط عند كثيرٍ من اللاهوتيين.
٢. ربط المسيحيون الأسرار السبعة بوحدة موضوعية تجعل كلاً منها متوقفاً على آخر.
٣. وامتازت المعمودية من بقية الأسرار بتأسيس المسيح لها والأمر بها علناً.
٤. بناءً على اعتبار المسيحيين للمعمودية باب الخلاص الإلهي وشرطه فقد استثنوا من هذا المعنى معمودية النبي يوحنا لليهود ومعموديته للمسيح وكذلك معمودية رسل المسيح للناس مدة حياته على الأرض.

٥. نظراً للأهمية الكبرى للمعمودية فقد اعتقد المسيحيون أن الله أعلن عن ضرورتها قبل تجسّد المسيح.
٦. شكّل شرط السن المعتبر في المعمودية سبباً في زيادة الشرخ الخلافي.
٧. اندرجت المعمودية ضمن القاعدة العامة في التأثير الفلسفي الوثني، فالنقد التاريخي يوضح أنها كانت إحدى مفرزات الفكر الوثني الوافد على المسيحية، والمسيحيون يقرون بهذا الأثر ويعدّونه نوعاً من التطلع البشري إلى الطهر والنقاوة.
٨. بنى المسيحيون على النصوص الكتابية للمعمودية فكرة عالمية الرسالة، وهي إحدى تأثيرات (بولس) في المسيحية، واتسمت الأدلة الكتابية المشيرة إلى المعمودية بفوضى كبيرة تُضعف الاستدلال بها.
٩. اتضح أن النصوص الأساس المشيرة إلى المعمودية يصعب الجزم بصحتها، فإعلان (مرقس) جزم كثيرون من المسيحيين أنه دخيل على الإنجيل ولا أساس له، ومن المعلوم في النقد الداخلي أن إنجيلي (متى ولوقا) اتخذا من (مرقس) مادة أولية لإنجيليهما، وكل ما بُني على (مرقس) فهو غير صحيح.
١٠. ربط المسيحيون مبدأ تفعيل النعمة والمواهب الإلهية بالميرون بعد نوالها بالمعمودية، من هنا جاءت ضرورة استخدام الميرون بعد إجراء المعمودية.
١١. لم يرد عن المسيح أنه مسح أحداً بالزيت أو أمر به، لذا يصعب نسبة تأسيس هذا السر إليه.
١٢. ركّز المسيحيون اهتمامهم بالميرون كونه سبباً لتفعيل النعمة الإلهية والتي تعدّ سبباً لنوال الكثير من المعاني والقيم الروحية كنوال العقل الإستنارة والمعرفة وقوة الإرادة ومخافة الرب وغيرها.
١٣. خالف البروتستانت الأرثوذكس والكاثوليك في اعتبار المسح بالزيت سراً مقدسّاً.
١٤. رتّب المسيحيون للتوبة شروطاً ينبغي أن تكون مقرونة بها أهمها الاعتراف للأب الروحي.
١٥. أحدثت بدعة صكوك الغفران شرخاً كبيراً في المجتمع المسيحي، وشكّلت السبب القريب للانطلاق الرسمي لحركة الإصلاح الديني على يد (مارتن لوثر).
١٦. اختلف المسيحيون في الإيمان بسرّ التوبة، فاعتبر الأرثوذكس والكاثوليك هذا السر مقدساً، وخالف البروتستانت، وامتد الخلاف في ذلك إلى قضية الوساطة البشرية التي رفضها أيضاً البروتستانت.
١٧. خضعت مسألة (مسحة المرضى) للنقد العلمي من نواحٍ متعددة، أهمها عدم تأسيس المسيح لهذا السر، وعدم أمره به أساساً، وبُني على هذا الخلاف عدم اعتراف البروتستانت به وعدم اعتباره سراً مقدّساً مخالفين بذلك الأرثوذكس والكاثوليك.
١٨. آمن المسيحيون بضرورة الزواج، لكنّهم رتبوا له من التوجيهات والتعليمات والوصايا ما جعله يرقى في معتقدهم إلى رتبة السر المقدّس، ومعنى السرية فيه حضور النعمة الإلهية بحضور الأب الروحي الممثل للمسيح.
١٩. خالف المسيحيون بالقول بوحدة الزيجة النصوص الكتابية التي تبيح تعدد الزوجات، وعدّوا هذا الأمر مرحلة اقتضتها الضرورة التاريخية، فوجب إلغاؤها بانتهاء هذه الضرورة.
٢٠. كان لمسألة منع الطلاق صدىً واسعٌ في الأرجاء المسيحية، والمأخذ الأول فيها مخالفتها لنصوص العهد القديم الواضحة بإباحة الطلاق، لكن المسيحيين أوَّلوا هذه الإباحة بأنها كانت

خاصة ببني إسرائيل نتيجة قسوة قلوبهم، ومع ذلك فلا يوجد دليل على هذا التخصيص.

٢١. تبيّن أن تشريع عدم انحلال الزواج في المسيحية أدى إلى حدوث المشاكل الاجتماعية على نطاق واسع، مما حدا بالكنيسة إلى تعديل قانون عدم انحلال الزواج وإضافة حالات يُسمح فيها بالطلاق، مخالفةً بذلك التعليم السابق الذي كان سائداً في الكنيسة.

٢٢. جميع النصوص التي استدل بها المسيحيون على منع تعدد النساء أحاطت بها كثيرٌ من الملابسات التي تجعل الاستدلال بها على هذا الأمر ضعيفاً.

٢٣. تبيّن في البحث سريان الأثر الوثني في مسألة تعدد الزوجات ومنع الطلاق.

٢٤. خالف البروتستانت سواد الأمة المسيحية في اعتبار الزواج سراً مقدّساً، واقتصروا على استحبابه كونه أمراً ملائماً للطبيعة البشرية مخالفين باقي الفرق أيضاً بتفضيل الزواج على العزوبية حتى لرجال الدين.

٢٥. آمن أكثر المسيحيين بأن الكهنوت سراً مقدّساً مؤسساً من قِبَل المسيح بالذات، لكنهم أخطؤوا في هذا الاعتبار؛ كون الكهنوت أمراً قديماً في الفكر الديني البشري.

٢٦. اختلف المسيحيون في اعتبار الكهنوت سراً مقدساً وذلك تبعاً لحال رجال الدين في القرون الوسطى، فعدّه الأرثوذكس والكاثوليك سراً مقدّساً، أما البروتستانت فخالفوا في ذلك، ونادوا بإلغاء جميع الرتب الكنسية ومنح الصلاحيات الخاصة برجال الدين لجميع المؤمنين تحت شعار (كهنوت جميع المؤمنين).

٢٧. جاءت حركة الإصلاح الديني استجابة للضرورات الكثيرة المنادية بالإصلاح الديني، وشكّلت ردّة فعل اجتماعية ودينية، ملبية رغبة النفوس التي ضاقت برجال الدين المسيحي وتصرفاتهم المشينة ومحاربتهم للعلم والعلماء.

رابعاً: النتائج الخاصة بالشعائر الدينية المتعلقة بالعبادة المسيحية:

١. تركّز معنى العبادة في المسيحية على الجانب الروحي أكثر من الجانب الجسدي، فتمحور معناها على توجيه الروح إلى الله بأي أسلوب كان، بحركة روحية صامتة أو بتعبير جسدي.

٢. ألّفت الشعائر الأربع (الصلاة والصيام والصدقة والحج) جلّ شعائر العبادة المسيحية، وحازت (الصلاة والصيام والصدقة) أهميتها كونها محط الأمر الإلهي في العهد القديم، ومحل إقرار من المسيحيين

٣. جاءت العبادات المسيحية متأثرةً باليهودية تأثراً واضحاً؛ كونها تعدُّ العهد القديم عهد الشريعة.

٤. حازت الصلاة في المسيحية منزلة مهمة وصلت إلى مرتبة الفرضية، لكنها دون (الأسرار)، وتبين أنها لا تندرج ضمن النسق العام للصلاة السماوية التي فرضها الله على أتباع الديانات السماوية.

٥. اختلف المسيحيون في كثيرٍ من الفروع المرتبطة بالصلاة من حيث اعتبارها والعمل بها، كموقعها في التشريع بين الفريضة والاستحباب، والقراءات الموجودة فيها، واللغة المستخدمة فيها، وغيرها من المسائل، وكانت مخالفة جمهور المسيحية حليفاً للبروتستانت في كل مسألة.

٦. أثبتت شعيرة الصوم وجوداً لها ضمن الشعائر الدينية المعتبرة على مستوى الفريضة من الدرجة الثانية، وتميزت بكثرة المعاني الروحية التي أحاطت بها، حتى صار شعيرة ملازمة لأكثر أيام السنة، لا سيما عند الأرثوذكس الذين زادت أيام صومهم على ٢٦٠ يوم.

٧. كان من المعاني التي زادت أهمية الصيام في المسيحية أنه أول وصية إلهية للبشر، وتمثّل ذلك بأمر الله لآدم أن يمتنع عن أنواعٍ من طعام الجنة.

٨. تطورت شعيرة الصيام بعد المسيح تطوراً كبيراً على يد (بولس) وغيره من رجال الدين

المسيحي، وتطورت بعد (بولس) أكثر؛ فتم إدخال أيامٍ للصيام توافق بمعانيها وكيفية صيامها صيام الوثنيين.

٩. ورد في الكتاب المقدس وتعاليم (بولس) ما يناقض الكيفية التي يصوم بها المسيحيون، وأن الامتناع عن بعض الأطعمة وتناول أخرى نوع من التفريط وقلة الدين.

١٠. تبين في البحث أن الأدلة التي اعتمدها المسيحيون لوجوب الصيام وفرضه على أتباع المسيحية لا يُفهم منها الطلب على سبيل الوجوب، وغاية الأمر أن يكون على سبيل الندب، من هنا اختلف المسيحيون في طلب الصيام بين متشدد كالأرثوذكس ومتساهل كالبروتستانت ومتوسط كالكاثوليك.

١١. لم يرد في الكتاب المقدس لفظ (الزكاة) إنما جاءت بلفظ (الصدقة)، وهي فرض من الدرجة الثالثة بمعنى التطوع لا أكثر.

١٢. آمن المسيحيون بالعهد القديم، الذي فرض العشور على أتباع اليهودية، وتمت عملية التغيير الدلالي لمفهوم الصدقة في القرون التالية لرفع المسيح، فتغيّرت دلالة هذا اللفظ من العشر إلى التطوع القليل أو الكثير.

١٣. امتازت المسيحية بنظرة فريدة إلى الصدقة، حيث أدرج المسيحيون مفهوم الصدقة ضمن مفهوم المحبة، ومن هنا اتسعت دلالتها وأنواعها وطرق أداؤها دون التقيّد الأمور المادية.

١٤. وجدت شعيرة الحج في المسيحية دون أن يثبت عن المسيح أنه أمر بها، واستنبط المسيحيون فضيلتها من زيارة المسيح للقدس وصعوده إليها.

١٥. تمحور معنى الحج في المسيحية على زيارة الأماكن المقدّسة التي زارها المسيح أو أمه لا سيما القدس، وكذلك وجد كثير من الأماكن المقدسة خارج أسوار أورشليم، كذلك الأماكن التي حوت جثامين القديسين لا سيما كنيسة روما التي هي مرقد القدّيس (بطرس) حسب الاعتقاد المسيحي.

التوصيات المقترحة:

١. من الحري بنا - نحن المسلمين – أن نولي اهتماماً لدراسة الفكر المسيحي على وجه العموم، لا سيما أن الانفتاح المسيحي على الدراسات الإسلامية لا يُنكر، فليس من الحكمة أن نُعرض عن هذا الجانب من الدراسات لا سيما أننا عُلِّمنا أن الحكمة ضالة المؤمن.

٢. ربما يكون البحث في الشعائر الدينية قد نال نصيباً كبيراً من هذه الأطروحة، لكننا بحاجة دائمة مستمرة إلى دراسة جديدة، توضح أبعاد الشعائر وتدرس مراميها، لا سيما إذا تذكّرنا أن المبدأ الشعائري في المسيحية متطور.

٣. اقتصرت الدراسة على الجانب العملي من الشعائر وبعض الجانب النظري، لكن هناك قسم كبير من الجانب الشعائري النظري ينطوي ضمن (الشعائر العقائدية)، وهذا يحتاج دراسة مستفيضة لبيان الأحكام الاعتقادية المترتبة على هذه الشعائر.

٤. تحتاج المكتبة الإسلامية إلى دراسات تختص بمواجهة الفكر الاستشراقي بالنسبة لقضايا الشعائر الدينية التي يدّعي المستشرقون أخذ الإسلام إياها من الديانات المختلفة بين سماوية ووثنية.

٥. من الضروري لدارسي الأديان لا سيما المسيحية اعتماد مراجع المخالفين كمادة أولية للبحث والتأريخ والتحليل، وعدم اعتماد المراجع الوسيطة التي تنقل عن المخالف وربما لا تنقل الحقائق كما هي.

٦. دعم أنشطة وبرامج الجمعيات الأكاديمية العاملة في مجال مقارنة الأديان ودراسة تاريخها بمختلف أشكال الدعم، وضرورة إبعاد هذا النوع من الدراسة عن محور الخلافات والاتهامات.

٧. يؤدي تدريب المختصين في مجال دراسات الأديان وتعريفهم بطبيعة هذا النوع من الدراسة وتزويدهم بكم مناسب ومستمر من المعلومات إلى قيامهم بمهمة الدعوة بصورة صحيحة تجمع ولا تفرّق، إذ من الضروري لمن يخوض هذا المجال أن يتسم بالإخلاص والجد في العلم ولا ينحو منحى الحملات الإعلامية الموقوتة وضعيفة الأثر التي تعوزها قاعدة من المعلومات الصحيحة.
٨. عقد ندوات وورش عمل خاصة بمسألة الحوار بين الأديان، بغية كشف الشبه وإيضاحها للغير، ودعوة المتخصصين والإعلاميين للمشاركة بها، وذلك للتعرف على طبيعة ما عند الغير، ومعرفة أهم مشكلاته الدينية والحضارية والآثار المترتبة عليها، والمستحدث من سبل التعامل معها، حتى نستطيع تفعيل حوار الأديان كما يصح أن يكون في المجتمع.
٩. ضرورة وجود وعي جماهيري محوره قضية حوار الأديان، والتركيز على المساحات المشتركة بينها.
١٠. تعميق دور المؤسسات التعليمية الأكاديمية في مجال الأديان ومقارنتها، خاصة في بلدنا الحبيب، إذ لا يزال هذا المجال يدرس على مضد مع ما له من أهمية.
١١. إنشاء مراكز توعية خارج النطاق الأكاديمي تهتم بالتوعية الجماهيرية العقائدية التي لا يُعذر أحد بجهالتها.
١٢. تكثيف الجهود من قِبل الباحثين لعرض المبادئ الدينية الإسلامية في صورة بسيطة واضحة بعيداً عن الصبغة الفلسفية الكلامية التي تقتصر ضرورتها على الباحثين المتخصصين.
١٣. أختم توصياتي بالتنبيه إلى أمر منهجي مهم هو أنه لا بد بالنسبة لدارسي الأديان ومقارنتها من الابتعاد عن العقلية التي تفرّق ولا تجمع، لا بد من الانفتاح على ما عند الغير، وهذه مهمة الباحث المسلم، ولعله الطريق الأقرب إلى نفوس المخالفين وأحرى للتأثير بهم ودعوتهم إلى المنهج الإلهي المتمثّل بالدين الإسلامي، وما ذاك إلا امتثالاً للأمر الإلهي للدعوة إلى سبيله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة واستعمال أسلوب اللين والرفق بالقول والفعل.

اللهم ردنا إلى دينك رداً جميلاً، اللهم لا توجّه قلوبنا إلا إليك ولا تجعل اعتمادنا إلا عليك، وفقنا لما تحبه وترضاه واشرح صدورنا ويسر أمورنا واختم بالصالحات أعمالنا واحفظنا بما تحفظ به عبادك الصالحين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العاملين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهارس

فهرس المراجع

أولاً: المراجع العربية والمعرّبة:

إبراهيم (إبراهيم)

١. الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة، مطبعة الأمانة، ط١، ١٩٨٥م

آل بوطامي (أحمد):

٢. الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب، مكتبة الثقافة بالدوحة، قطر، ط٢، د/ت.

إبراهيم (إقلاديوس):

٣. سر الإفخارستيا في الطقوس والقوانين الكنسية، كنيسة مارمرقس، ط١، ١٩٩٥م.

أحمد (عبد القادر):

٤. العصور الوسطى الأوربية، المكتبة العصرية ببيروت، لبنان، د/ط، ١٩٦٧م.

اسكندر (ميخائيل):

٥. القدس عبر التاريخ، بطريركية الأقباط الأرثوذكس (دير الأنبا رويس) بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٧٢م.

الإسكندري (عمر)، وحسن (سليم):

٦. تاريخ أوربا الحديث وآثار حضاراتها، دار المعارف، (القاهرة)، ط٢، ١٩٢٠.

اسكيف (وكيم):

٧. أقدم الشهادات على عقيدة الإفخارستيا، دار المشرق ببيروت، لبنان، د/ط، ١٩٩٤م.

اشبي (سي آر):

٨. مدونة القدس، مطبعة اللاتين، ط١، ١٩٢٨م.

الأصفهاني (الحسين بن محمد):

٩. المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، د/ط.ت.

الأعظمي (محمد ضياء الرحمن):

١٠. اليهودية والمسيحية، مطبعة هجر، ط١، ١٩٨٨م.

١١. دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، مكتبة الرشد، ط٢، ٢٠٠٣م.

الأنبا إيسيذورس:

١٢. مرشد العابد ودليل القاصد إلى وجوب العبادة، المطبعة الإكليريكية، د/ط.ت.

أَنِس (جيمس):

١٣. علم اللاهوت النظامي، مطبعة الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة بالقاهرة، ط١، د.ت.

الأنطواني (لوقا):

١٤. المواعظ الإلهية لقداسات آحاد وأعياد السنة القبطية، دار الجيل للطباعة، ط١، ١٩٨٧م.

الأهواني (حسام الدين):

١٥. شرح مبادئ الأحوال الشخصية في شريعة الأقباط الأرثوذكس، دار النهضة العربية، د/ط.ت.

إيبرتس (هاري):

١٦. مصلح في المنفى، ت: وليم وهبة بباوي، دار الثقافة المسيحية بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.

البار (محمد علي):
١٧. دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية، دار القلم (دمشق)، د/ط.ت.
بارودي (دانيل):
١٨. الرجل المهذب، ترجمة: محمد مندور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٤٤م.
باسيلي (بنيامين مرجان):
١٩. الإفخارستيّا الجذور الكتابية والآبائية، كنيسة مارمرقس الرسولي بالجيزة، مصر، ط١، ٢٠٠٧م.
باسيليوس الكبير:
٢٠. الصلاة الإفخارستية، منشورات النور، ط١، ١٩٨٨م.
الباش (حسن):
٢١. العقيدة النصرانية بين القرآن والإنجيل، دار قتيبة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠١م.
بباوي (جورج حبيب):
٢٢. الشركة في الطبيعة الإلهية، الدراسات القبطية والأرثوذكسية، د/ط، ٢٠٠٧.
٢٣. معاني رشم الصليب، مكتبة الدراسات القبطية والأرثوذكسية، ط١، ٢٠٠٧م.
بردي (أدوار):
٢٤. تاريخ الحضارات العام، منشورات عويدات ببيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٦م.
بريستيد (جيمس هنري):
٢٥. فجر الضمير، ترجمة: سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د/ط.ت.
بشارة (نقولا):
٢٦. سر العشاء الرباني، مطبعة التوفيق بمصر، د/ط.ت.
بندلي (كوستي):
٢٧. مدخل إلى العقيدة المسيحية، منشورات النور ببيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٢م.
بيشوي:
٢٨. سلسلة تبسيط الإيمان (المعمودية)، مطبعة مطرانية دمياط وكفر الشيخ، ط١/ ٢٠٠٥م.
تادرس يعقوب (تادرس):
٢٩. شرح الأحوال الشخصية للمصريين الغير مسلمين، دار الطالب لنشر ثقافة الجامعات، ط١، ١٩٥٦م.
تاضروس (موريس):
٣٠. أضواء على الإيمان المسيحي، مطبعة إيديني، د/ط، ١٩٨٤م.
التنير (محمد بن طاهر):
٣١. العقائد الوثنية في الديانة المسيحية، ت: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.
توفيق (عبد الناصر):
٣٢. أحكام الأسرة عند المسيحيين ومدى تطبيقها بالمحاكم، مطبعة السعادة، د/ط، ١٩٨٧م.
توينبي (آرنولد):
٣٣. مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشرم، بالقاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٥.

جبار (يوسف):
٣٤. أسرار مقدسة، المطبعة الإكليريكية، د/ط، ١٩٩٨م.
جرجس (حبيب):
٣٥. أسرار الكنيسة السبعة، جمعية المحبة الأرثوذكسية القبطية، مطبعة التوفيق القبطية بالقاهرة، ط١، ١٩٣٤م.
٣٦. المبادئ المسيحية الأرثوذكسية، اللجنة العامة لمدارس الأمة القبطية الأرثوذكسية، د/ط.ت.
٣٧. خلاصة الأصول الإيمانية في معتقدات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مكتبة الهلال، ط٩، ١٩٢٥م.
جعفر (محمد كمال):
٣٨. الإسلام بين الأديان، مطبعة دار العلوم بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٧٨م.
جمعيات الكتاب المقدس في المشرق:
٣٩. معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق ببيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٨م.
جنيبر (شارل):
٤٠. المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة: عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية ببيروت، لبنان، ط١.
الحاج (محمد):
٤١. النصرانية من التوحيد إلى التثليث، دار القلم بدمشق، سوريا، ط١، ١٩٩٢.
حاطوم (نور الدين):
٤٢. تاريخ عصر النهضة الأوربية، دار الفكر بدمشق، سوريا، د/ط.ت.
حبنكة الميداني (عبد الرحمن):
٤٣. كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم بدمشق، سوريا، ط٢، ١٩٩١م.
حبيب (جورج):
٤٤. المعمودية، دار الثقافة المسيحية بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.
حبيب، (صموئيل):
٤٥. المسيح ثائراً، دار الثقافة بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٥م.
الحداد (يوسف):
٤٦. مصادر الوحي الإنجيلي (تاريخ المسيحية/ الإنجيل بحسب لوقا)، المكتبة البولسية، ط١، ١٩٨٢م.
الحسيني (عبد الرزاق):
٤٧. الصابئون في حاضرهم وماضيهم، المكتب العربي لتوزيع المطبوعات ببغداد، العراق، ط٩، ١٩٨٤م.
الحقيل (إبراهيم):
٤٨. أعياد الكفار وموقف المسلم منها، المكتبة العصرية بصيدا، لبنان، ط٢، ١٩٩٩م.
حلاق (ثائر):
٤٩. العناية الإلهية ومشكلة الشر في العالم، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم جامعة (القاهرة)، ١٤٢٦ه، ٢٠٠٥م.
حلمي (مصطفى):
٥٠. الإسلام والأديان، دار الدعوة بالإسكندرية، مصر، ط١، ١٤١١م.
حليم (عادل):

٥١. الجنس والزواج، منشورات دير الأنبا أنطونيوس، ط٢، ٢٠٠١م.
حماية (محمود):
٥٢. في العبادات المسيحية دراسة نقدية، دار المعارف، د/ط، ١٩٩٠م.
حمود (هادي):
٥٣. منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في جامعة بغداد قسم التاريخ الإسلامي، سنة ١٩٧٥.
حنا (ناشد):
٥٤. خمس وخمسون حقيقة من حقائق الإيمان الأساسية، مكتبة كنيسة الأخوة، ط٢، ١٩٨٠م.
الخزرجي (أبو عبيدة):
٥٥. بين الإسلام والمسيحية، تحقيق: محمد شامة، مكتبة وهبة، ط٢، ١٩٧٥م.
الخضري (حنا):
٥٦. تاريخ الفكر المسيحي، دار الثقافة المسيحية بالقاهرة، ط١، ١٩٩١م.
٥٧. جون كالفن (حياته وتعاليمه)، دار الثقافة المسيحية بالقاهرة، مصر، د/ط.ت
الخطيب (علي):
٥٨. الصيام من البداية حتى الإسلام، المكتبة العصرية، ط١/ ١٩٨٠.
خليل (مرقس):
٥٩. التوبة والاعتراف عقائدياً وروحياً وطقسياً، مطبعة كنيسة الشهيدة العفيفة دميانه، د/ط.ت.
٦٠. الخطية والرجوع إلى الله، كنيسة القديسة مريم والشهيدة دميانه الكنيسة المعلقة، د/ط.ت.
خوري (شحادة) وخوري (نقولا):
٦١. خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، مطبعة بيت المقدس في القدس الشريف، ط١، ١٩٢٥م.
دادو (محمود):
٦٢. حركة الإصلاح الديني عند "جون كالفن" وأثره في المجتمعات الأوربية في بداية العصر الحديث – دراسة تحليلية نقدية من منظور إسلامي، رسالة مقدمة في جامعة دمشق لنيل درجة الماجستير في العقائد والأديان سنة ٢٠١٦.
داركين (خليل):
٦٣. تفصيل الكتاب المقدس، المطبعة الأمريكانية، د/ط، ١٩٠٥م.
داود (مرقس):
٦٤. دستور الكنيسة الإنجيلية بمصر، مطبعة دار نوبار بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٥م.
دوبيناه (ميرل):
٦٥. تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر، ترجمة: إبراهيم الحوراني، مكتبة المشعل، (بيروت)، ط٣، ١٩٨٢م.
دول ري (تسيو):
٦٦. الأسرار حياة الإيمان، ترجمة: يوسف ضرغام، مطبعة الكسليك، لبنان، د/ط، ١٩٨٦م.
دوميج (جرفييه):
٦٧. الإيمان الكاثوليكي (نصوص صادرة عن السلطة الكنسية)، ترجمة: صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق ببيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.
دينيه (ايتين):

٦٨. أشعة خاصة بنور الإسلام، دار طوبار، د/ط.ت.
ديورانت (ول):
٦٩. قصة الحضارة، تعريب: محمد بدران، لجنة التأليف والنشر بالقاهرة، مصر، ط٢، ١٩٩٢.
ذهبي الفم (يوحنا):
٧٠. القداس الإلهي، منشورات النور، د/ط. ١٩٩٤م، ص٣١، ولجنة الحياة الكنسية، مدخل إلى الطقس الكنسي، مكتبة أسقفية الشباب، ط١، ٢٠٠٢م.
الرازي (محمد بن أبي بكر)
٧١. مختار الصحاح، مكتبة لبنان ببيروت، ط١، ١٩٩٥م
رافائيل:
٧٢. الطقس الكنسي، دار الجيل للطباعة، ط١، ٢٠٠٢م.
راهنر (كارل)، وفورغريملر (هربرت):
٧٣. معجم اللاهوت الكاثوليكي، ترجمة: عبده خليفة، دار المشرق، (بيروت)، د/ط، ١٩٨٦م.
رزق (هاني):
٧٤. يسوع المسيح في ناسوته ولاهوته، مكتبة المحبة، ط٢، ١٩٧١م.
رزقي (صموئيل):
٧٥. تجديد الفكر الديني في المسيحية، دار الثقافة بالقاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٣م.
ابن رجب الحنبلي (عبد الرحمن بن أحمد):
٧٦. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط٧، ٢٠٠١.
رستم (سعد):
٧٧. الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، دراسة تاريخية دينية سياسية اجتماعية، دار الأوائل للنشر والتوزيع بدمشق، سوريا، ط٢، ٢٠٠٥.
رسل (برتراند):
٧٨. حكمة الغرب، ترجمة: فؤاد زكريا، منشورات عالم المعرفة، د/ط.ت.
الرسولي (أثناسيوس):
٧٩. معمودية الماء والروح، دار نوبار، ط١، ٢٠٠٣م.
رمضان (عبد العظيم):
٨٠. تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث (من ظهور البورجوازية الأوربية إلى الحرب الباردة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د/ط، ١٩٩٧م.
ريبوني (إنريكو):
٨١. الإلحاد وأسبابه (الصفحة السوداء للكنيسة)، ترجمة: زينب عبد العزيز، دار الكتاب العربي، ط١، ٢٠٠٤م.
الزبيدي (محمد بن محمد):
٨٢. تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، د/ط.ت.
الزحيلي (وهبة):
٨٣. مكانة القدس في الأديان السماوية، دار المكتبي بدمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠١م.
الزركلي (خير الدين):
٨٤. الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

أبو زهرة (محمد):
٨٥. محاضرات في النصرانية، دار الفكر بالقاهرة، د/ط.ت.
زيزيولاس (يوحنا):
٨٦. الوجود شركة، ترجمة: مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثودكسي للدراسات الآبائية، مصر، ط٢، ٢٠٠٦م.
سالم (محمد) ومحمد (شعبان):
٨٧. نظام الأسرة في الإسلام، مكتبة جمهورية مصر، د/ط، ١٩٩٠م.
ساويرس:
٨٨. ذبيحة الاعتراف، إصدار أبناء البابا كيرلس السادس، د/ط، ١٩٧٣م.
السباتين (راجح):
٨٩. المسيحية البروتستانتية وعلاقتها بالصهيونية في الولايات المتحدة (رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير) في العقائد في الجامعة الأردنية، سنة ٢٠٠٧م.
ابن سباع (يوحنا):
٩٠. الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة، تحقيق: فيكتور منصور، المركز الفرنسيسكاني للدراسات الشرقية المسيحية بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٦٦.
السرياني (سمعان):
٩١. الأعياد السيدية الصغرى، دار اللوتس للطباعة، ط٢، ١٩٩٧م.
سعيد (حبيب):
٩٢. تاريخ المسيحية، (فجر المسيحية)، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.
السقا (أحمد حجازي):
٩٣. الأدلة الكتابية على فساد النصرانية، دار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.
سلامة (يوحنا):
٩٤. اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، مكتبة مار جرجس، د/ط، ١٩٦٥م.
سلطان (عبد الحميد سلطان):
٩٥. المجامع النصرانية ودورها في تحريف المسيحية، مطبعة الأمانة بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٠م.
سليمان (وليم):
٩٦. الدسقولية – تعاليم الرسل، دار الثقافة بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٧٩م.
السليماني (حفيظ):
٩٧. الخلاص بين الوحي والمفاهيم البشرية، دار الإخوة للنشر، مصر، ط١، ١٩٦٩م.
سمعان (عوض):
٩٨. الكهنوت، دار الثقافة المسيحية، ط٢، ١٩٨٥م.
٩٩. تاريخ الأقباط، دار الثقافة بالقاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.
سنتاؤوس (إسحاق):
١٠٠.تاريخ المسيح، المطبعة المصرية بالإسكندرية، مصر، د/ط، ١٩٠٤م.
سوريال (صليب):
١٠١.دراسات في أسفار موسى الخمسة، مكتبة التربية الكنسية الأرثوذكسية، ط١، ١٩٨٧م.

١٠٢.دراسات في قوانين الأحوال الشخصية، مكتبة التربية الكنسية، ط١، ١٩٩٠م.
الشتيوي (محمد رجب):
١٠٣.المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية، مطبعة التقدم، د/ط، ١٩٨٧م.
شلبي (أحمد):
١٠٤.مقارنة الأديان (المسيحية)، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ط١٠، ١٩٩٣م.
شلبي (رؤوف):
١٠٥.أضواء على المسيحية، منشورات المكتبة العصرية ببيروت، لبنان، د/ط، ١٩٧٥م.
١٠٦.الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، مكتبة الأزهر، ط١، ١٩٨٠م.
١٠٧.يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، دار الاعتصام، د/ط.ت.
شميمن (ألكسندر):
١٠٨.الإفخارستيا سر الملكوت، ترجمة: سامر عبود، منشورات النور، مصر، ط١، ١٩٨٥م.
شنودة (زكي):
١٠٩.المسيح، مكتبة المحبة، د/ط، ١٩٧٥م.
١١٠.تاريخ الأقباط، مطابع البلاغ بالقاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٨.
شنودة الثالث:
١١١.الأسرة الروحية السعيدة، الكلية الإكليريكية بالقاهرة، ط٤، ٢٠٠١م.
١١٢.اللاهوت المقارن، الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس، ط٢، ١٩٩١م.
١١٣.حياة التوبة والنقاوة، دار الثقافة بالقاهرة، مصر، ط٣، ١٩٨٢م.
١١٤.شريعة الزوجة الواحدة، مطبعة الأنبارويس بالقاهرة، مصر، ط٩، ٢٠٠١.
الشيخي (موسى):
١١٥.تقديس الأشخاص عند النصارى وآثاره، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في العقيدة في جامعة أم القرى، سنة ١٤٢٩ه.
صالح (سعد الدين):
١١٦. مشكلات العقيدة النصرانية، مكتبة التابعين بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٩٦م.
الصفار (فاضل):
١١٧.فقه الشعائر الدينية، مكتبة ابن فهد الحلي بكربلاء، ط١، ٢٠١٣م.
الطهطاوي (محمد عزت):
١١٨.المسيحية والإسلام، مكتبة النور، ط٢، ١٩٨٦م.
الطويل (توفيق):
١١٩.قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٩٩١م.
العارف (عارف باشا):
١٢٠.تاريخ القدس، دار المعارف بمصر، د/ط.ت.
عازر (جرجس صموئيل):
١٢١.توافق العقائد الأرثوذكسية، مكتبة مارجرجس، د/ط.ت.
عاشور (سعيد عبد الفتاح):
١٢٢.الحركة الصليبية، مكتبة الإنجلو بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٦٣م.
العاملي (محمد علي برو):
١٢٣.الكتاب المقدس في الميزان، الدار الإسلامية (بيروت)، د/ط، ١٤١٣ه، ١٩٩٣م.

العاملي (ناصر الدين):
١٢٤.الصوم في القديم والحديث، مطبعة الكونكورد، ط١، د/ت.
عبد (فكري جواد):
١٢٥.قرابين التوراة وتوظيفها الديني، مركز دراسات جامعة الكوفة، العراق، د/ط.ت.
عبد الباقي (زيدان):
١٢٦.المرأة بين الدين والمجتمع، مطبعة السعادة، د/ط، ١٩٨١م.
عبد السلام (ماجد):
١٢٧.العلاقة بين الدين والدولة في اليهودية والنصرانية والإسلام، دار النهضة بالقاهرة، د/ ط، ١٩٩٥.
عبد السيد (إبراهيم):
١٢٨.الفروق العقيدية بين المذاهب المسيحية، مطبعة كنيسة مارجرجس بالمعادي، د/ط.ت.
عبد العال (حمدي):
١٢٩.الملة والنحلة في اليهودية والمسيحية والإسلام، دار القلم للنشر والتوزيع بالكويت، ط١، ١٩٨٩م.
عبد المسيح (عادل):
١٣٠.موسوعة آباء الكنيسة، دار الثقافة المسيحية، د/ط.ت.
عبد الملك (بطرس)، وطمسن (جون ألكسندر)، ومطر (إبراهيم):
١٣١.قاموس الكتاب المقدس، د/ط.ت، شركة Compubraill.
عبد النور (منيس):
١٣٢.شريعة المسيحية نحو الارتقاء الروحي، دار الثقافة، ط١، ٢٠٠٣م.
عبد الوهاب (أحمد):
١٣٣.حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، مكتبة وهبة بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٨١م.
العثماني (محمد تقي):
١٣٤.ما هي النصرانية، ترجمة: نور عالم الأميني، مكتبة العلوم، كراتشي، د/ط، ١٤٠٣ه.
عجيبة (أحمد علي):
١٣٥.أثر الكنيسة على الفكر الأوربي، دار الآفاق العربية بالقاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٤م.
العريني (السيد الباز):
١٣٦.تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة ببيروت، لبنان، د/ط، ١٩٦٨م.
ابن عسال (أبو الفضائل):
١٣٧.المجموع الصفوي، طبعة خاصة لدار القانون الكنسي، د/ط.ت.
العقاد (عباس محمود):
١٣٨.الله، دار نهضة مصر، د/ط.ت.
علي (كابان):
١٣٩.الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، دار دجلة (عمّان)، ط١، ٢٠١٠م
عمران (أحمد):
١٤٠.العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية، منشورات دار الوعي ببيروت، لبنان، د/ط.ت.
عوض (جرجس فيلوفاؤس)
١٤١.قوانين القديس باسيليوس الكبير، كتبة معلمي البيعة، ط١٢، ٢٠٠٥م.

عويس (عبد الحليم):
١٤٢.تعدد الزوجات لا تعدد العشيقات، مكتبة الاعتصام، ط١، ١٩٧٨م.
غازي (محمد)، وأحمد (إبراهيم)، وعبد الوهاب (أحمد):
١٤٣.الوثائق تتكلم، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، ط١، ١٤٠٧ه.
غريال الخامس:
١٤٤.الترتيب الطقسي، المكتبة الأهلية بباريس، فرنسا، د/ط، ١٩٧٨م.
غريغوريوس (الأنبا):
١٤٥.الزواج في المفهوم المسيحي، مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس، مصر، د/ط، ٢٠٠٣م.
١٤٦.القيم الروحية المنطوية في سر مسحة المرضى، لجنة النشر للثقافة القبطية الأرثوذكسية، د/ط، ١٩٨٢م.
١٤٧.القيم الروحية في سر الزيجة، لجنة النشر للثقافة القبطية الأرثوذكسية، د/ط، ١٩٨٤م.
١٤٨.علم اللاهوت الطقسي، الكلية الإكليريكية اللاهوتية، د/ط.ت.
غوري (بطرس):
١٤٩.مختصر اللاهوت الأدبي، المطبعة الكاثوليكية ببيروت، لبنان، ط١، ١٨٨٢م.
فارس (إبراهيم):
١٥٠.سبيل المسيح، دار المنهل ببيروت، لبنان، د/ط، ١٩٨٨م.
فارس (فايز):
١٥١.أضواء على الإصلاح الإنجيلي، دار الثقافة بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٨٢م.
١٥٢.حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، دار الثقافة بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٧٩م.
الفراهيدي (الخليل بن أحمد):
١٥٣.كتاب العين، ت: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، د/ط.ت.
فريزر (جيمس):
١٥٤.الغصن الذهبي، ترجمة: نخبة من المترجمين بإشراف أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٧١م.
فهمي (أنطونيوس):
١٥٥.بين الطقس والعقيدة، مطبعة كنيسة القديسين العظيمين مارجرجس والأنبا أنطونيوس محرم بك بالاسكندرية، مصر، ط١، ٢٠٠٥م.
فهمي (فارس):
١٥٦.المعمودية المسيحية وماذا يقول الكتاب عن معمودية أهل البيت، المركز المصري للطباعة بعين شمس، ط١، ١٩٩٢م.
فؤاد (ألفرد):
١٥٧.نظم الياقوت في سر الكهنوت، مطبعة الأنبا ايسوذورس، مصر، ط٢، ١٩٨٨م.
فورد (جورج):
١٥٨.القول الصريح في سيرة يسوع المسيح، كنيسة قصر الدوبارة، د/ط، ١٩٨٣م.
فيبر (ماكس):
١٥٩.الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: محمد علي مقلّد، مركز الإنماء القومي ببيروت، لبنان، د/ط.ت.
فيشر (هربرت):

١٦٠.أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة: زينب عصمة راشد وأحمد عبد الحليم مصطفى، دار المعارف بمصر، (القاهرة)، ط٣، د/ت.

القرطبي (محمد بن أحمد):

١٦١.الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام، دار التراث العربي بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.

قريب الله (حسن الفاتح):

١٦٢.فلسفة وحدة الوجود، الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٧م.

القزويني (أحمد بن فارس):

١٦٣.معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

قصاب (محمد عصام):

١٦٤.البحث عن الحقيقة الكبرى، دار الفكر، (دمشق)، د/ط.ت.

كتن (هنري):

١٦٥.فلسطين في ضوء الحق والعدل، ترجمة: وديع فلسطين، مكتبة لبنان ببيروت، لبنان، ط١، د/ت.

كردعلي (محمد):

١٦٦.تاريخ الحضارة في القرون الوسطى والحديثة، دار التقدم شارع محمد علي بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.

كركور (محمد):

١٦٧.تطور العقيدة المسيحية بين عيسى عليه السلام وبولس، مركز التنوير الإسلامي بالقاهرة، مصر، د/ط، ٢٠٠٦م.

كساب (حنانيا):

١٦٨.مجموعة الشرع الكنسي، منشورات النور، د/ط، ١٩٩٨م.

الكفوي، (أيوب بن موسى):

١٦٩.الكليات، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ببيروت، د/ط.ت.

كلارك (دنيس):

١٧٠.سيرة المسيح وتعاليمه، مكتبة النيل المسيحية، د/ط.ت.

كمبي (جان):

١٧١.دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، دار النشرق ببيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢.

كولتون (جورج):

١٧٢.عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة: جوزيف يوسف، دار المعارف بالقاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٧م.

كونيارس (أنتوني):

١٧٣.الروح القدس وسر الميرون، مطرانية بني مزار، د/ط.ت.

كيرلس (كيرلس):

١٧٤.القداسات الثلاثة متقابلة مع الضبط والشرح، كنيسة مارجرجس بخمّارويه، شبرا، ط٢، ١٩٨٧م.

كيرنز (آيرل أي):

١٧٥.المسيحية عبر القرون (تاريخ الكنيسة المسيحية)، ترجمة: بهيج إبراهيم الخوري، مطبعة زوندرفن، ط٨، ١٩٦٧م.

الكيرواني (رحمت الله محمد بن خليل):

١٧٦.إظهار الحق، ت: محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية، ط١، ١٩٨٩م.

لوريمر (جون):

١٧٧.تاريخ الكنيسة المفصل، دار الثقافة بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٠م.

لوقا (ملاك):

١٧٨.التقليد المقدس كتابياً تاريخياً كنسياً، مكتبة المحبة، د/ط، ١٩٩١م.

لويس (يوسف):

١٧٩.شرح التعليم المسيحي، مطبعة البرتيري، مصر، د/ط، ١٩٣٩م.

ليما (بيان):

١٨٠.المعمودية الإفخارستيا والكهنوت، ترجمة: ميشال نجم، منشورات النور، د/ط، ١٩٨٤.

الماجدي (خزعل):

١٨١.خور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والاسطورة والدين)، الهيئة اللبنانية للطباعة والنشر، ط١، د/ط.ت.

متاؤس:

١٨٢.القرارات المجمعية الخاصة بالطقوس الكنسية، مطبعة الأسقفية السريانية، ط١، ٢٠١٠.

١٨٣.كيف تستفيد من القداس الإلهي، مطبعة مكتبة المحبة، ط١، ٢٠٠٩.

المؤمن (ماجدة):

١٨٤.الحج عبر الحضارات والأمم، دار مشعر، ط١، ١٤٢٢ه.

مجموعة الخدمة المسيحية:

١٨٥.العبادة (السجود)، موقع التلمذة، د/ط.ت.

مجموعة من العلماء اللاهوتيين:

١٨٦.كتاب المزامير، دار المشرق المطبعة الكاثوليكية ببيروت، لبنان، د/ط، ١٩٨٤م.

مجموعة من اللاهوتيين:

١٨٧.دستور الكنيسة الإنجيلية، دار الثقافة المسيحية بالقاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٥.

المحرقي (باجوم):

١٨٨.القيم الروحية في سر القربان، منشورات الكلية الإكليريكية اللاهوتية للكرازة المرقسية، مصر، د/ط، ١٩٩٦م.

مخزوم (محمد):

١٨٩.مدخل لدراسة التاريخ الأوربي (عصر النهضة)، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٣م.

مرجان (محمد مجدي):

١٩٠.الله واحد أم ثالوث، دار النهضة العربية بالقاهرة، مصر/ د/ط.ت.

المركز اللوثري:

١٩١.جواب وسؤال، مطبعة المركز اللوثري للخدمات الدينية في الشرق الأوسط ببيروت، لبنان، د/ط.ت.

مرمية (تسيو دول ري):

١٩٢.الأسرار حياة الإيمان، تعريب: يوسف ضرغام، مطبعة الكاثوليك ببيروت، د/ط، ١٩٨٦م.

مسره (جراسيموس):

١٩٣.الأنوار في الأسرار، مطبوعات كنيسة الأنبا غريغوريوس بالقاهرة، د/ط.ت.

المسكين (متى):
١٩٤.الإفخارستيا عشاء الرب (بحث في الأصول الأولى لليتورجيا)، مطبعة دير القديس أنبا مقار بالقاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م.
١٩٥.المعمودية الأصول الأولى للمسيحية، مطبعة دير القديس أنبا مقار، ط١، ٢٠٠٠م.
١٩٦.توجيهات في الصلاة، مطبعة دير القديس أنبا مقار، ط٤، ١٩٨٣م.
١٩٧.حياة الصلاة، مطبعة دير القديس أنبا مقار، د/ط.ت.
مظهر (سليمان):
١٩٨.قصة الديانات، دار الوطن العربي، (بيروت)، د/ط.ت.
مقار (إلياس):
١٩٩.القضايا المسيحية الكبرى، دير القديس أنبا مقار، ط٢، ١٩٨٧م.
المقاري (أثناسيوس):
٢٠٠.التاريخ الطقسي لسر التوبة والاعتراف، دار نوبار بالقاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٧م.
٢٠١.التدبير الإلهي في بنيان الكنيسة، دار نوبار للطباعة بالقاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١م.
٢٠٢.القداس الإلهي سر ملكوت الله، دار نوبار بالقاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٨م.
٢٠٣.الكنائس الشرقية وأوطانها، دار نوبار بالقاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.
٢٠٤.المراسيم الرسولية، مكتبة المنار بالقاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٠٥.قوانين المجامع المسكونية وخلاصة قوانين المجامع المكانية، مطابع نوبار، ط١، ٢٠١٣م.
٢٠٦.معجم المصطلحات الكنسية، مطبعة دار نوبار بالقاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٨م.
المقاري (باسيليوس):
٢٠٧.السلطان الروحي في الكنيسة، دار نوبار، ط١، ١٩٩٨م.
ملطي (تادرس يعقوب):
٢٠٨.المسيح في سر الإفخارستيا، منشورات النور، ط٣، ١٩٩٨م.
ابن منظور، (محمد بن مكرم):
٢٠٩.لسان العرب، دار صادر ببيروت، ط٣، ١٤١٤ه.
المنفلوطي (جاد):
٢١٠.المسيحية في العصور الوسطى، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقية بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.
الموحى (عبد الرزاق):
٢١١.العبادات في الأديان السماوية، دار الأوائل، ط١، ٢٠٠١م.
موريسون (آرنولد):
٢١٢.تاريخ حياة لوثر زعيم الإصلاح، ترجمة: باقي جرجس، مطبعة النيل المسيحية بالزيتونة بأسيوط، ط١، ١٩٥٠م.
موريون (جان):
٢١٣.لويس ماسينيون، ترجمة: منى النجار، مطبعة بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
موسينيه (رولان):
٢١٤.تاريخ الحضارات العام (القرانان السادس عشر والسابع عشر)، ترجمة: يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات ببيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٧م.
بيرنجيه (جان):
٢١٥.موسوعة تاريخ أوربا العام منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ت:

وجيه البعيني، منشورات عويدات ببيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.
مينا (ميخائيل):
٢١٦.علم اللاهوت، دار الثقافة المسيحية بالقاهرة، مصر، د/ط، ٢٠٠٥م.
ناظم (سلوى)
٢١٧.الترجمة السبعينية للعهد القديم بين الواقع والأسطورة، مكتبة العين، ط١، ٢٠٠١م
نايتون (أندريه) ووينـد (إدغارد) ويونغ (كارل غوستاف):
٢١٨.الأصول الوثنية للمسيحية، ترجمة: سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، د/ط.ت.
نجيب (مكرم):
٢١٩.المعمودية بين المفهوم والممارسة، دار الثقافة، ط١/ ١٩٩٠م.
الندوي (أبو الحسن):
٢٢٠.الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى، دار الكتب الإسلامية، ط١، ١٣٨٧هـ.
نصيرة (بن عبد المولى):
٢٢١.الطقوس البدائية وعلاقتها بالممارسات الدينية المعاصرة، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في جامعة وهران، ٢٠١٤م.
نور (جون):
٢٢٢.القداسة في المسيحية، طبعة أغفلت ذكر اسم الناشر، ط١، ٢٠٠٠م.
نوري (جورج):
٢٢٣.إيمان المسيحي وواجباته، منشورات النور، ط١، ١٩٩٥م.
الهاشمي (محمد فؤاد):
٢٢٤.حوار بين مسلم ومسيحي، دار الرسالة، د/ط، ١٩٨٤م.
الهروي (محمد بن أحمد):
٢٢٥.تهذيب اللغة، ت: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط١، ٢٠٠١م.
وافي (علي):
٢٢٦.الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، دار نهضة مصر للطباعة والنشر بالقاهرة، مصر، ط٣، ١٩٨٣م.
٢٢٧.المرأة في الإسلام، دار الجيل ببيروت، لبنان، د/ط، ٢٠٠٤م.
واي شو (بول):
٢٢٨.الصلاة مفتاح النهضة، ترجمة: فخري كريم يوسف، لجنة خلاص النفوس للنشر، ط٢، ١٩٨٧م.
وجدي (محمد فريد):
٢٢٩.دائرة معارف القرن العشرين، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط٢، ١٣٤٣ه.
وصفي (محمد):
٢٣٠.المسيح والتثليث، دار الفضيلة بالقاهرة، مصر، د/ط.ت.
وليسمن:
٢٣١.تفسير أصول الإيمان، ترجمة: فايز فضيل، دار الثقافة المسيحية بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٧٧م.

وير (تيموثي):
٢٣٢.الكنيسة الأرثوذكسية إيمان وعقيدة، منشورات النور، د/ط، ١٩٨٢م.
يازجي (يوسف):
٢٣٣.سر التوبة في الطقس البيزنطي، جامعة الروح القدس (الكسليك)، د/ط، ٢٠٠١.
يحيى (محمد):
٢٣٤.رحلتي من الكفر إلى الإيمان (قصة إسلام الكاتبة الأمريكية مريم جميلة)، دار المختار الإسلامي بالقاهرة، مصر، د/ط، ١٩٨٥م.
اليسوعي (بولس إلياس):
٢٣٥.يسوع المسيح (شخصيته وتعاليمه)، المطبعة الكاثوليكية ببيروت، ط٢، ١٩٦٦م.
اليسوعي (صبحي):
٢٣٦.معجم الإيمان المسيحي، دار المشرق ببيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٩م.
يعقوب (تادرس):
٢٣٧.عطية الروح القدس، مطبعة الأنبا رويس، ط١، ١٩٩١م.
يماري (دونالد):
٢٣٨.عقائد أساسية (مدخل في علم اللاهوت)، ترجمة: شاكر سعيد، مكتبة النيل المسيحية، د/ط.ت.
يوأنس (الأنبا):
٢٣٩.بستان الروح، مطبعة مارجرجس، ط٤، ١٩٩٢م.
يوسف (حسين):
٢٤٠.أهداف الأسرة في الإسلام والتيارات المضادة، مكتبة الاعتصاد، د/ط.ت.
يوسف (عبد العزيز):
٢٤١.أديان ومذاهب معاصرة، مكتبة المنار الإسلامية بالكويت، ط١، ١٩٨٩م.
سلسلة آباء الكنيسة الأولى:
٢٤٢.الآباء الرسوليون، منشورات النور، د/ط، ١٩٨٤م.
مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالجيزة:
٢٤٣.مبادئ العقيدة المسيحية أصالتها وفاعليتها، ابديني للطباعة، د/ط.ت.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

١. Schaff ،(Philip) ،History of the Christian Church ،Publisher: Grand Rapids ،hristian CLassics Ethereal Library ،٢٠٠٢.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

١. موقع الأنبا تكلا هيمانوت: http://st - takla.org/
٢. موقع الأقباط والكاثوليك على الرابط التالي: http://coptcatholic.net/.
٣. https://drghaly.com/

شكر وعرفان ١
المقدمة ٢
مدخل لتحديد المصطلحات ٨
المبحث التمهيدي ١٣
المطلب الأول: المدخل اللغوي والاصطلاحي: ١٣
تعقيب على التعريف: ١٤
تعقيب على تعريف الأسرار: ١٥
المطلب الثاني: مكانة الشعائر والطقوس في المسيحية: ١٧
الباب الأول ٢٠
الشعائر الدينية وسندها التشريعي في المسيحية ٢٠
الفصل الأول: الأحكام العامة للشعائر الدينية ٢١
المبحث الأول: المصادر التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية ٢٢
المطلب الأول: الكتاب المقدس (المصدر الكتابي): ٢٢
المطلب الثاني: تعاليم الرسل (الديداخي) (المصدر الرسولي): ٢٣
المطلب الثالث: قوانين المجامع المقدسة (المسكونية والإقليمية)، المصدر المجمعي: ٢٤
تعقيب على قضية المصادر التشريعية للشعائر الدينية المسيحية: ٢٥
المبحث الثاني: المقاصد التشريعية للشعائر الدينية في المسيحية ٢٦
المطلب الأول: المقاصد التشريعية الأساسية في التشريع المسيحي: ٢٦
المطلب الثاني: المقاصد الفرعية للشعائر والطقوس المسيحية: ٢٨
المطلب الثالث: المقاصد الجزئية للشعائر والطقوس المسيحية: ٢٩
تعقيب على مسألة المقاصد التشريعية للشعائر الدينية المسيحية: ٢٩
المبحث الثالث: اختلاف الطوائف المسيحية في الشعائر الدينية ٣١
المطلب الأول: أسباب الاختلاف في الشعائر الدينية بين أتباع المسيحية: ٣١
المطلب الثاني: اختلاف الطوائف المسيحية في الشعائر الكبرى الأساسية (الأسرار والفرائض): ٣٢
المطلب الثالث: اختلاف الطوائف المسيحية في الشعائر الثانوية: ٣٥
المبحث الرابع: أسباب تطور الشعائر الدينية و آليته ٣٨
المطلب الأول: أسباب التطور في الشعائر المسيحية: ٣٨
المطلب الثاني: تطور الشعائر العملية: ٥٣
الفصل الثاني ٥٦
الشعائر ذات السند التاريخي ٥٦
المبحث الأول: القربان المقدس ٥٨

المطلب الأول: تعريف العشاء الرباني وعناصره وأوقات إقامته: ٥٨
المطلب الثاني: تاريخ سر الإفخارستيا وتأسيسه: ٦٢
المطلب الثالث: الجذور الآبائية للإفخارستيا: ٦٥
المطلب الرابع: الحضور الإلهي للمسيح في سر الإفخارستيا: ٦٩
المطلب الخامس: المعاني الروحية للعشاء الرباني: ٧٠
المبحث الثاني: العناصر الليتورجية في طقس القربان ٧٤
المطلب الأول: تعريف الليتورجيا وفوائد معرفتها وتطورها: ٧٤
المطلب الثاني: الاستعداد لتناول سر الإفخارستيا: ٧٦
المطلب الثالث: الخطوات الإجرائية في العشاء الرباني: ٧٩
المطلب الرابع: ضرورة التناول ٨٨
المطلب الخامس: فوائد التناول: ٨٩
تعقيب على موضوع القربان والعشاء الرباني: ٩٠
المبحث الثالث: تقديس المكان في الفكر المسيحي..... ١٠٣
المطلب الأول: تقديس المكان في الفكر المسيحي ووجود المسيحيين في القدس: ١٠٣
المطلب الثاني: المقدسات المسيحية داخل أورشليم: ١٠٣
المطلب الثالث: المقدسات المسيحية خارج أورشليم: ١٠٦
المطلب الرابع: المقدسات المسيحية في أوربا: ١٠٩
تعقيب على تقديس الأماكن في المسيحية: ١٠٩
المبحث الرابع: الشعائر الزمنية..... ١١٢
المطلب الأول: تقديس الزمان في الفكر المسيحي (الأعياد والمواسم الدينية):..... ١١٢
المطلب الثاني: الأعياد السيدية الكبرى:..... ١١٣
المطلب الثالث: الأعياد السيدية الصغرى:..... ١١٩
المطلب الرابع: الأعياد غير السيدية:..... ١٢٤
تعقيب على الأعياد عند المسيحيين: ١٢٥
الباب الثاني ١٣٠
الشعائر الكتابية والتعبدية..... ١٣٠
الفصل الأول ١٣١
الشعائر ذات السند الكتابي..... ١٣١
المبحث الأول: سر المعمودية ١٣٣
المطلب الأول: المعمودية (المفهوم والتأسيس والأدلة):..... ١٣٣
المطلب الثاني: أهمية المعمودية وضرورة إقامتها وشروطها:..... ١٣٥

المطلب الثالث: الإجراءات الطقسية للمعمودية: ١٤١
المطلب الرابع: القيم والمعاني الروحية لسر المعمودية: ١٤٣
تعقيب على سر المعمودية:..... ١٤٣
المبحث الثاني: سر مسحة الميرون (التثبيت) ١٥١
المطلب الأول: مسحة الميرون (المفهوم والتأسيس والأدلة):..... ١٥١
المطلب الثاني: أهمية مسحة الميرون:..... ١٥٤
المطلب الثالث: الإجراءات الطقسية لسر (مسحة الميرون): ١٥٥
المطلب الرابع: القيم والمعاني والنتائج غير المنظورة لمسحة الميرون:..... ١٥٧
التعقيب على سر مسحة الميرون: ١٥٨
المبحث الثالث: سر التوبة..... ١٦١
المطلب الأول: المفهوم والتأسيس لسر التوبة:..... ١٦١
المطلب الثاني: أهمية التوبة وشروطها ١٦٣
المطلب الثالث: الإجراءات الطقسية لسر التوبة والاعتراف: ١٦٥
المطلب الرابع: القيم والمعاني لسر التوبة: ١٧٤
تعقيب على سر التوبة في المسيحية:..... ١٧٧
المبحث الرابع: سر مسحة المرضى ١٨٤
المطلب الثاني: أهمية سر مسحة المرضى وشروطها:..... ١٨٦
المطلب الثالث: الإجراءات الطقسية لسر مسحة المرضى:..... ١٨٧
المطلب الرابع: القيم والمعاني في سر مسحة المرضى: ١٨٩
تعقيب على سر مسحة المرضى:..... ١٨٩
المبحث الخامس: سر الزواج ١٩٥
المطلب الأول: مفهوم (سر الزواج) وأدلته: ١٩٥
المطلب الثاني: شروط الزواج المسيحي وخصائصه: ١٩٧
المطلب الثالث: طقس سر الزواج وأهدافه: ١٩٩
المطلب الرابع: المسائل ذات الصلة: ٢٠٠
وكتعقيب على ما سبق ٢٠٢
وتعقيباً على الكلام السابق:..... ٢٠٦
المبحث السادس: سر الكهنوت..... ٢١١
المطلب الأول: تعريف سر الكهنوت وتأسيسه: ٢١١
تعقيب على تأسيس المسيح لسر الكهنوت: ٢١٢
المطلب الثاني: الرتب الكهنوتية (وظائف الكهنوت):..... ٢١٣

المطلب الثالث: الصفات العامة لرجال الدين وكيفية رسامتهم: ٢١٧
التعقيب: على سر الكهنوت: ٢٢٠
الفصل الثاني ٢٣٣
الشعائر الدينية المتعلقة بالعبادة ٢٣٣
المبحث الأول: الصلاة ٢٣٩
المطلب الأول: تعريف الصلاة وحكمها وأدلتها: ٢٣٩
المطلب الثاني: أهمية الصلاة وشروطها وكيفيتها: ٢٤١
المطلب الثالث: القيم والمعاني الروحية في الصلاة: ٢٤٧
المطلب الرابع: المسائل ذات الصلة: ٢٤٨
التعقيب: ٢٥٢
المبحث الثاني: الصوم ٢٥٦
المطلب الأول: تعريف الصيام وأدلته: ٢٥٧
المطلب الثاني: شروط الصوم المسيحي وأهميته ولزومه وكيفيته: ٢٥٨
المطلب الثالث: أنواع الصيام والقيم والمعاني الروحية المتعلقة به: ٢٦٢
المطلب الرابع: تطور شعيرة الصيام: ٢٦٥
التعقيب: ٢٦٨
المبحث الثالث: الزكاة (الصدقة) ٢٧٤
المطلب الأول: مفهوم الصدقة وأدلتها: ٢٧٤
المطلب الثاني: شرط الزكاة وأنواعها: ٢٧٥
التعقيب: ٢٧٨
المبحث الرابع: الحج في المسيحية ٢٨٠
المطلب الأول: تعريف الحج وأدلته: ٢٨٠
المطلب الثاني: أهمية الحج ولزومه: ٢٨٠
المطلب الثالث: تطور شعيرة الحج والزيارات: ٢٨١
التعقيب ٢٨٢
الخاتمة ٢٨٥
نتائج البحث: ٢٨٥
أولاً: النتائج الخاصة بأحكام الشعائر الدينية: ٢٨٥
ثانياً: النتائج الخاصة بالشعائر الدينية ذات السند التاريخي: ٢٨٦
ثالثاً: النتائج الخاصة بالشعائر الدينية ذات السند الكتابي: ٢٨٦
رابعاً: النتائج الخاصة بالشعائر الدينية المتعلقة بالعبادة المسيحية: ٢٨٨

التوصيات المقترحة: ٢٨٩
الفهارس ٢٩١
فهرس المراجع ٢٩١
أولاً: المراجع العربية والمعرّبة: ٢٩١
ثانياً: المراجع الأجنبية: ٣٠٤
ثالثاً: المواقع الإلكترونية: ٣٠٤
فهرس المحتويات: ٣٠٥